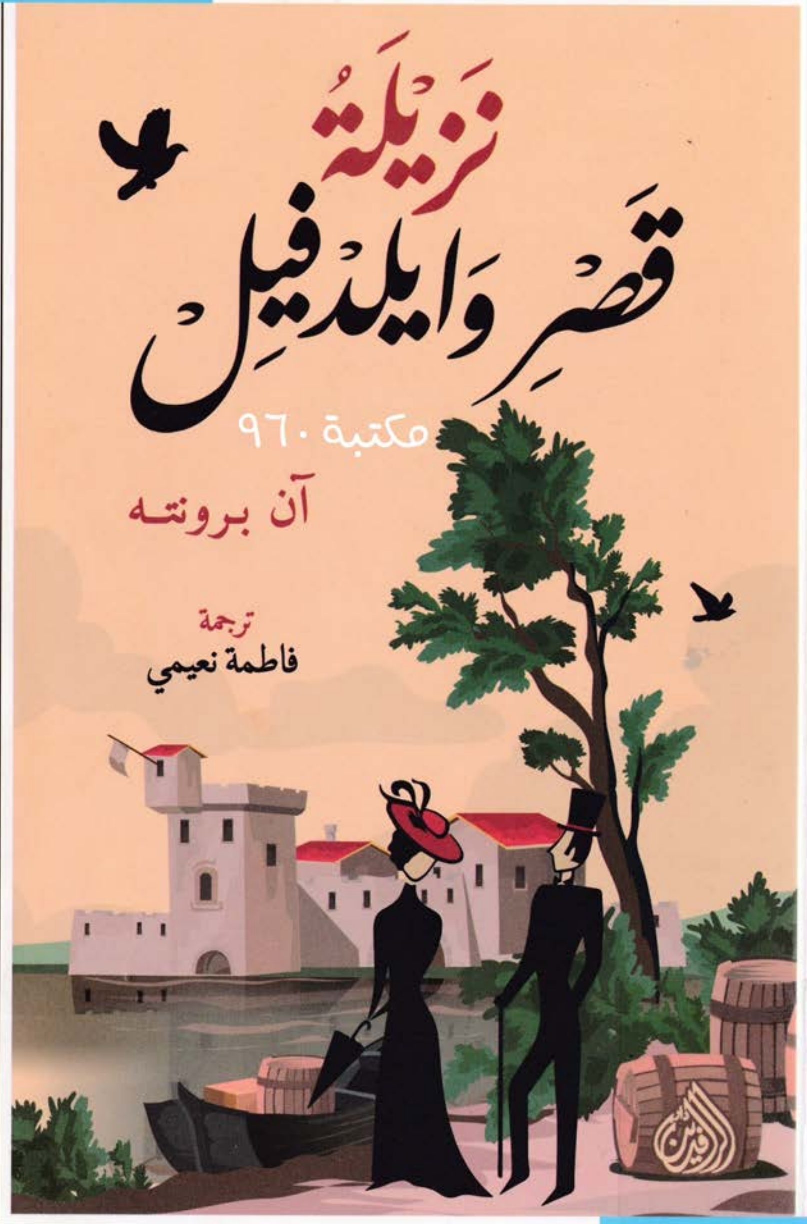
رواية



نَزِيلَةُ قَصْرِ وَايلدفيل

١٥ ٩ ٢٠٢٢

نزيلة قصر وايلدفيل

آن برونته

ترجمة: فاطمة نعيمي

The Tenant of Wildfell Hall

By Anne Brontë

Translated by Fatima Naimi

الطبعة الأولى: يناير - كانون الثاني، 2022 (1000 نسخة)





بغداد - العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 84 - 7

آن برونته

مكتبة | 960
سُر مَن قرأ

نَزِيلَةُ قَصرِ وايلدفيل

ترجمة
فاطمة نعيمي



www.daralrafidain.com

مقدمة المؤلفة في الطبعة الثانية

مع اعترافي بأن نجاح هذا العمل كان أعظم مما توقعت، والإطراء الذي أثاره عدد من النقاد الموقرين كان أعظم مما يستحق، لا بد أن أعترف أيضاً أني لم أكن مستعدة أو متهيئة لمواجهة الانتقادات القاسية من البعض الآخر، وهو أمر يؤكد حُكمي ومشاعري. نادراً ما يكون من اختصاص المؤلف دحض حجج منتقديه والدفاع عن أعماله، لكن أتمنى أن يُسمح لي هنا بتقديم بعض الملاحظات التي كنت لأقدمها في الطبعة الأولى لو أنني استشعرت آنذاك ضرورة اتخاذ مثل هذه الاحتياطات لمواجهة سوء فهم أولئك الذين يقرؤون العمل بعقل متحيز أو يكتفون بالحكم عليه من خلال نظرة متسرعة.

هدفي من كتابة هذا العمل لم يكن مجرد تسلية القارئ، لم يكن ذلك لإرضاء ذوقي الخاص كذلك، ولا حتى لغرض التعامل مع الصحافة والجمهور. كنت أرغب في قول الحقيقة فقط، ذلك أن الحقيقة تنقل دائماً أخلاقها إلى أولئك القادرين على تلقّيها. ولكن نظراً إلى أن الكنز الذي لا يقدّر بثمن غالباً ما يبقى مخفياً في قاع البئر، فإنه يحتاج إلى بعض الشجاعة للوصول إليه، خاصة وأن مَن يُقدم على ذلك من المحتمل أن يُعَرَّض لمزيد من الازدراء بسبب الطين والماء الذي سيُغمَر به في طريقه للوصول إليه. على نفس المنوال، تلك التي تتولى تنظيف شقة مُهمَلة لعازب ما ستكون عرضة للازدراء بسبب الغبار الذي تثيره أكثر من الثناء على جهدها ونتيجته. مع ذلك أؤكد أنني لا أعتبر نفسي مؤهلة لإصلاح أخطاء المجتمع وإساءاته، بل وسأفشل في المساهمة بحصتي المتواضعة لتحقيق هدف جيد هنا.

إذا كان بإمكاني الحصول على إصغاء الجمهور على الإطلاق فإنني أفضّل أن أهمس ببعض الحقائق المفيدة بدلاً من الكثير من الهراء الرقيق.

أجد نفسي في هذا العمل مَلُومة على تصوير الأمور كيفما هي، مع «الميل الرهيب إلى الوحشية»، تلك المشاهد التي أجرؤ على القول إنها لم تكن أكثر إيلاماً لأكثر النقاد تزمتاً مما كانته بالنسبة إليّ في مهمة وصفها. قد أكون تماديت في الوصف، وفي هذه الحالة سأحرص على عدم إزعاج نفسي أو القراء بذات الطريقة مرة أخرى، لكن عندما يتعلق الأمر بشخصيات شريرة فأنا أرى بكل تأكيد أنه من الأفضل تصويرها كما هي بالفعل. إن وصف أمر سيئ في صورة أقل هجومية هو بلا شك المسار الأكثر قبولاً لكاتب الرواية، لكن هل هو الأصدق؟ هل الأفضل كشف فخاخ ومزالق الحياة للقارئ أو تغطيتها بالأغصان والزهور؟

أوه أيها القارئ! عندما نقلل من إخفاء الحقائق بهذا الشكل، سيكون هناك قدر أقل من الخطيئة والبؤس للشباب من كلا الجنسين الذين تُركوا لانتزاع خلاصة معرفتهم المريرة من التجربة.

لن أفهم المغزى من افتراض أن تصرفات الشخصية الشريرة مع رفاقه القلة الذين قدمتهم في هذه الرواية، هي عينة من الممارسات الشائعة في المجتمع. القضية متطرفة نعم، كنت على ثقة من أن أحداً لن يفشل في إدراك ذلك وأعلم جيداً أن مثل هذه الشخصيات موجودة، مع ذلك إذا نجحتُ في تحذير أحد الشباب المتهور من اتباع خطواتهم، أو منعتُ فتاةً طائشة من الوقوع في الخطأ الذي وقعتْ فيه بطلتي فإن الكتاب لم يُكتب عبثاً. في الوقت نفسه، إذا كان أي قارئ صادق قد استشعر ألماً أكثر من المتعة وقت قراءته، وأغلق المجلد الأخير بانطباع غير مقبول في ذهنه، فأنا ألتمس عفوه لأن هذا بعيد تماماً عن نيّتي وسأبذل قصارى جهدي في أعمالي القادمة لتقديم الأفضل لأنني أود منح المتعة البريئة للقارئ.

لن يقتصر طموحي على هذا، أو على تقديم «عمل فني مثالي». الوقت والموهبة اللذان يُستَهلَكان على هذا النحو أعتبرهما ضائعين وأُسيء استخدامهما. سأحاول الاستفادة من هذه الموهبة المتواضعة التي منحني اللّٰه إياها بأكبر قدر ممكن، إنْ كنت قادرة على منح القارئ التسلية سأحاول تحقيق ذلك، وعندما أشعر أنه من واجبي أن أتحدث عن حقيقة غير مستساغة، بعون اللّٰه سوف أتحدث عنها على الرغم من أن ذلك قد يضر باسمي وقد يعكّر متعة القارئ.

كلمة أخيرة احتراماً لهُوية المؤلف، أود أن أنوّه بوضوح فيما يتعلق بما إذا كان الاسم حقيقياً أم وهمياً وأرى نفسي مجبرة على التساؤل هنا: أيُّهمّ حقاً ما إذا كان الكاتب المعيَّن على هذا النحو رجلاً أم امرأة؟

ادّعى واحدٌ أو اثنان من منتقدي العمل اكتشافهم أنني أخذت التضمين في جزء كبير منه كمجاملة للترسيم العادل لشخصياتي الإناث، وعلى الرغم من أنني أرى نفسي ملزمة بأن أعزو الكثير من قسوة النقاد إلى هذا الشك، فإنني لن أبذل أي جهد لدحضه لأنني أرى نفسي مقتنعةً بأنه إذا كان العمل جيداً فهو كذلك مهما كان جنس المؤلف. جميع الروايات مكتوبة أو يجب أن تكتب ليقرأها كل من الرجال والنساء، ومحيّر أمر الترحيب بكتابة الرجل لأي موضوع قد يكون مسيئاً للمرأة وبنفس الوقت يُوَجَّه الانتقاد إلى المرأة عندما تكتب كتابة تليق بالرجل.

22 يوليو 1848



مقدمة المترجمة

بشكل غير عادل طغت شهرة الأخوات برونته ـ شارلوت وإيميلي ـ على الشقيقة الثالثة آن، والتي لم تقل عنهما موهبة، بل بحسب عدد من النقاد يمكن اعتبارها واحدة من أعظم كتاب الحقبة الفيكتورية على الرغم من قلة أعمالها. هذه الرواية هي الثانية لـ آن بعد روايتها الأولى أغنيس غراي، وكانت قد أخفت هويتها عند نشر الطبعة الأولى منها حيث نُشرت باسم أكتون بيل.

تعتبر رواية نزيلة قصر وايلدفيل عملًا ثوريًّا يتعامل بلا تردد مع مواضيع كانت تعتبر حساسة للغاية في تلك الفترة الزمنية وتشمل إدمان الكحول والأفيون، القسوة الزوجية، الطبقية، وحق المرأة في اختيار طريقها في الحياة، وعليه اعتُبِرَت أول رواية نسوية مكتملة التكوين، وما زالت تذهل القراء حول العالم بقوتها وصدقها حتى يومنا هذا حيث لم تتبع المؤلفة ـ على عكس شارلوت وإميلي ـ الأسلوب الرومانسي في الكتابة بل اختارت الواقعية الشجاعة في سردها.

مع ذلك وعلى الرغم من أن العمل تلقّى قدرًا كبيرًا من الانتقادات بسبب واقعيته المتوحشة كما وصفها بعض النقاد، فإنه جذب الانتباه أيضًا بسبب تطرفه المفاجئ وثورته على الأفكار التقليدية عند مقارنتها بنتاجات تلك الفترة، حيث تُظهر الكاتبة وعيًا جليّاً ليس فقط بمخاطر الانحلال والادمان أو المعايير الأخلاقية التي ميزت الحقبة الفيكتورية، بل من خلال ربط هذه المعايير المختلفة بشخصياتها تظهر مدى إدراكها للتوزيعات غير العادلة للسلطة الاجتماعية للرجال والنساء في القرن التاسع عشر وهكذا نراها تتفرد

بالأسلوب الذي تطرح به الأسئلة حول هياكل السلطة التي حددت طبيعة ومسار العلاقات خلال تلك الفترة.

تتناول الرواية العديد من الموضوعات التي لم تكن الأعمال الأخرى آنذاك قد تطرقت لها، كتعامل الزوجة المضطَهدة مع واقع انحلال الزوج وانغماسه في الرذائل، حيث كان يُنظر إلى الملذات الشخصية وقتها على أنها حقه المكفول بعكسها، وحيث يقتصر دوره على التمتع بممارسة حريته في فعل ما يريد، في حين أن دورها محدد بتقديم الخدمات والحرص على إمتاعه، ليس بالضرورة جسدياً، بل يشمل ذلك المديح المستمر وتعزيز الأنا.

من المهم التنويه هنا أنه من بين الشقيقات الثلاث كانت آن هي الأخت التي أمضت معظم وقتها في رعاية برانويل، شقيقهن الوسيم الساحر والمدمن على الكحول ذي الشخصية البالغة التعقيد، وهذا زوّدها بأكثر من مجرد إلهام كافٍ كما سنرى في براعة تصوير المواقف وعواقب الإدمان والفساد الأخلاقي، ولا سيّما أن وفاة برانويل كان بسبب الإدمان والانحلال الذي اشتهر به، مما يؤكد مدى تأثرها بذلك ورفضها لتنميق الواقع وجعل الفاسد بطلاً رومانسياً وهذا يجعلها أكثر صدقًا من إميلي وأكثر ثباتًا من شارلوت.

من السهل القول إن رفض آن لتكرار فكرة الرومانسية البليدة جعل أعمالها أقل انتشارًا، لكن هذا لا يمنعنا كقراء من الاعتراف بشجاعتها وجرأتها في مواجهة القضايا الواقعية. ختاماً، وعلى الرغم من أن آن برونته حققت نجاحًا أدبيًا هائلاً عند نشر هذا العمل، ووعدت قرّاءها بتقديم المزيد في المستقبل، فإن مرض السل للأسف لم يمهلها لتحقيق ذلك وإمتاعنا بموهبتها الرائعة حيث قطف روحها الشابة سريعاً لترحل عن عمر ناهز التاسعة والعشرين سنة 1849، بعد عام من إصدار هذه الرواية، ودُفِنَت في سكاربورو في إنجلترا؛ منطقة تطل على البحر الذي أحبته دائماً.

فاطمة نعيمي

الفصل الأول

يجب أن آخذك معي إلى خريف عام 1827.

والدي، كما تعلم، كان من المزارعين النبلاء، وأنا ـ حسب رغبته الصريحة ـ لا بد أن أخلُفَه في نفس المهنة، لم يكن ذلك طبعاً عن طيب خاطر لأن طموحي كان يحثني على السعي إلى تحقيق أهداف أعلى، كما أكّد لي غروري مراراً أنني بتجاهلي لصوته كنت أدفن موهبتي في الأرض. لقد بذلتْ والدتي قصارى جهدها لترسيخ إيماني بذاتي وإقناعي أنني قادر على تحقيق إنجازات عظيمة. لكن والدي الذي كان يعتقد أن الطموح هو أسرع طريق للدمار، بل ليس سوى مسمًّى آخر للفشل، لم يكن ليستمع إلى أي مخطط أطمح به لتحسين حالتي أو حالتهم. أكد لي دائماً أن الأمر برمّته حماقة، وحثني، مع أنفاسه المُحْتَضَرة، على الاستمرار في ذات الطريق القديم واتباع خطواته وخطوات والده من قبله، وجعل طموحي الأكبر هو خوض الحياة بأمانة دون النظر إلى اليد اليمنى ولا اليسرى، والحرص على نقل فدادينه إلى ذريتي وهي على الأقل في حالة مزدهرة كما تركها لي.

«حسنًا! المزارع الصادق والمجتهد هو أحد أعضاء المجتمع الأفْيَد، وإذا كرّست مواهبي الزراعية، وساهمت في تحسين الزراعة بشكل عام، فلن تقتصر فائدتي على أفراد أسرتي ومَنْ أُعيلهم فحسب، ولكن إلى حد ما البشرية بشكل عام، ومن ثَم يمكنني القول إن حياتي لم تذهب عبثاً».

مع مثل هذه الانعكاسات بينما كنت أسعى إلى مواساة نفسي، كنت أعود إلى المنزل من الحقول في إحدى الأمسيّات الباردة والرطبة قرب نهاية أكتوبر،

لكن بريق النار الحمراء الساطعة عبر نافذة غرفة المعيشة كان له تأثير أكبر في رفع معنوياتي وتأنيبي على تبرّمي يفوق كل الانعكاسات الحكيمة والقرارات الجيدة التي أجبرتُ عقلي على تأطيرها، لأنني كنت آنذاك صغيراً ـ أربعة وعشرون عاماً فقط ـ ولم أكن قد حصلت على نصف السيطرة التي أمتلكها الآن على حياتي.. كم يبدو هذا تافهاً!

على كل حال لم يكن من الممكن الدخول إلى ملاذ النعيم هذا إلا بعد استبدال حذائي القذر بزوجين نظيفين من الأحذية، ومعطفي الخام بمعطف محترم، وجعل نفسي أبدو بشكل لائق، ذلك أن أمي، مع كل لطفها، كانت صارمة إلى حد كبير في بعض النقاط.

عند صعودي إلى غرفتي قابلت على الدرج فتاة ذكية وجميلة تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، ذات شكل مرتب، ووجه مستدير، وخدود براقة وردية، وضفائرَ لامعة، وعيون بنية صغيرة مرحة. لا حاجة إلى إخبارك أنها كانت شقيقتي روز. أعلم أعلم، ما زالت سيدة جذابة، ولا شك في أنها اليوم لا تقلّ جمالًا في عينيك مما كانت عليه في اليوم السعيد الذي رأيتَها فيه لأول مرة.

أتذكر أنها أخبرتني يومها أنها بعد بضع سنوات ستكون زوجة شخص لم أعرفه آنذاك، لكنه سيصبح صديقاً أقرب لي حتى منها، وأقرب من ذلك الفتى غير المهذب البالغ من العمر سبعة عشر عامًا، والذي كنت ملتزمًا بصداقته.

عند دخول الصالون وجدت السيدة الفاضلة جالسة إلى جانب المدفأة منهمكة في حياكتها وفقاً لعاداتها عندما لم يكن لديها أي شيء آخر تفعله. كانت قد جرفت الموقد وأشعلته لاستقبالنا، والخادم قد وضع للتو صينية الشاي وروز تحضّر أواني السكر والشاي من الخزانة الجانبية المصنوعة من خشب البلوط الأسود واللامع كما الأبنوس المصقول.

«ها هما»، صاحت أمي وهي تنظر إلينا دون إعاقة حركة أصابعها الرشيقة

وإبرها المتلألئة. «أغلق الباب وتعالَ قرب المدفأة في حين تحضر روز الشاي، لا بد أنك جائع، هيا أخبرني بما كنت تفعل طوال اليوم؛ أحبّ أن أعرف ما يفعل صغاري».

«كنت أشرف على حَرْث آخر بقايا القمح ـ ليس بالأمر السهل ـ لأن المحراث ليس لديه الحس لتوجيه نفسه، ثم إنني أنفّذ خطة تجفيف مكثف وفعال للمروج المنخفضة».

«هذا هو ابني الشجاع!

وفيرغوس، ماذا كنت تفعل؟».

«أصطاد الغرير».

وبينما شَرع في إعطاء وصف خاص لرياضته المفضلة، والبراعة الخاصة التي أظهرها الغرير والكلاب، تظاهرت والدتي بالاستماع باهتمام عميق ومشاهدة وجهه المنفعل بدرجة من الإعجاب الذي شعرت أنه غير متناسب مع موضوعه.

«حان الوقت لتفعل شيئًا آخر يا فيرغوس»، قلتُ بمجرد أن سمحتْ لي وقفة مؤقتة في روايته بالحصول على مجال لقول شيء.

«ماذا يمكنني أن أفعل؟»، أجاب، «والدتي لا تسمح لي بالذهاب إلى البحر أو دخول الجيش وأنا مصمم على ألا أفعل أي شيء آخر ـ باستثناء جعل نفسي مصدر إزعاج لكم جميعًا، وستكونون شاكرين للتخلص مني يوماً ما بأي شروط».

رتّبت والدتنا خصلات شعره القاسية والقصيرة بهدوء. زأر وحاول أن يبدو عابسًا، ثم جلسنا جميعًا على الطاولة، في طاعة لاستدعاء روز المتكرر ثلاث مرات.

قالت: «خُذِ الشاي، ودعني أخبرك بما كنت أفعله. كنت أدعو ويلسون، ومن المؤسف أنك لم تذهب معي يا غيلبرت، لأن إليزا ميلوارد كانت هناك!».

«حسناً! ماذا عنها؟».

«أوه، لا شيء! لن أخبرك شيئاً عنها، سوى أنها فتاة لطيفة ومسلية ومرحة ولا ضير في التقرب منها».

«ششش! ليست لدى أخيك مثل هذه الأفكار!»، همست أمي بجدية وهي رافعةٌ إصبعها.

استأنفت روز: «حسناً، كنت سأخبرك بأخبار مهمة سمعتها هناك وهي تشغل بالي منذ ذلك الحين. أنت تعلم أنه أُعلِنَ قبل شهر أن أحدهم سيستأجر قصر وايلدفيل، وخمّن ماذا.. لقد سُكن بالفعل منذ أكثر من أسبوع ولم نكن نعرف».



«مستحيل»، صاحت أمي.

«غريب!»، صرخ فيرغوس.

«نعم، وبواسطة سيدة»

«يا إلهي! لكن المكان في حالة خراب!».

«هناك غرفتان أو ثلاث غرف أصبحت صالحة للسكن، يقال إنها تعيش بمفردها برفقة امرأة عجوز خادمة!».

«أوه! هذا يفسد الأمر، كنت أتمنى أن تكون ساحرة»، علّق فيرغوس بينما كان يقطع حصته المعتادة من الخبز والزبدة.

«هراء فيرغوس! لكن أليس هذا غريبًا يا ماما؟».

«غريب! بالكاد أستطيع تصديق ذلك».

«صدّقي ذلك، لأن جين ويلسون قد رأتها. ذهبت مع والدتها التي، بالطبع، عندما سمعت عن مجيء شخص غريب في الحي بقيت كمن يخطو على دبابيسَ وإبر إلى أن التقتها وأخذت منها كل ما تستطيع. تُدعى السيدة غراهام، وهي في حالة حداد ـ ليست متشحة بسواد الأرامل، لكن في حداد طفيف ـ

وهي صغيرة كما يقولون ـ لا تزيد على خمسة أو ستة وعشرين عاماً ـ لكنها متحفظة جدّاً. لقد حاولوا كل ما في وسعهم لمعرفة من تكون ومن أين أتت وأي شيء عنها، لكن لا السيدة ويلسون مع توجهاتها القوية والوقحة، ولا الآنسة ويلسون بمناوراتها الماهرة، تمكّنت من استخراج إجابة واحدة مرضية أو حتى ملاحظة عرضية لتهدئة فضولهما، أو إلقاء بعض الضوء الخافت على تاريخها أو ظروفها. علاوة على ذلك كانت بالكاد متحضرة معهم ومن الواضح أنها كانت متحمسة لقول «وداعاً» بدلاً من «كيف حالكما». تقول إليزا ميلوارد إن والدها ينوي زيارتها قريبًا لتقديم بعض النصائح الرعوية التي يخشى أنها بحاجة إليها، فعلى الرغم من أنها دخلت الحي مطلع الأسبوع الماضي، فإنها لم تظهر في الكنيسة يوم الأحد، وهي ـ إليزا ـ ستطلب منه مرافقته لأنها متأكدة أنها يمكن أن تنجح في إخراج شيء منها ـ وكما تعلم، عزيزي غيلبرت، بإمكان إليزا فعل أي شيء. من الجميل أن ندعوها إلى هنا أيضاً ماما».

«طبعًا يا عزيزتي. مسكينة! يا للوَحدة التي لا بد أنها تشعر بها!».

«اجتهدي بالصلاة، كوني سريعة ولا تنسي أن تخبرينا عن كمية السكر التي تضعها في شايها، وما نوع القبعات والمآزر التي ترتديها وكل ما يتعلق بذلك، لا أعرف كيف سأتمكن من العيش حتى أعرف»، قال فيرغوس وهو يتظاهر بالجدية الشديدة.

إن كان يعتقد أن هذا الخطاب الفكاهي ضربة بارعة منه فقد فشل بشكل واضح، لأن أحداً لم يضحك، لكن ذلك لم يزعجه لأنه عندما تناول لقمة من الخبز والزبدة وكان على وشك ابتلاع جرعة من الشاي، انفجرت روح الدعابة في ذلك الشيء بقوة لا تقاوم لدرجة أنه اضطُر إلى القفز من على الطاولة، والركض إلى خارج الغرفة وهو غارق في الشخير والاختناق جرّاء الضحك ثم بعد دقيقة سمعنا صياحه في الحديقة.

بالنسبة إليّ كنت جائعًا بحق، واكتفيت في خضم كل ذلك بتناول الشاي وشرائح لحم الخنزير والخبز المحمص بصمت، في حين استمرت والدتي وشقيقتي في الحديث ومناقشة الأوضاع المهمة أو غير المهمة، والتاريخ المحتمل أو غير المحتمل للسيدة الغامضة. لكن يجب أن أعترف أنني، بعد مأساة أخي، رفعت الكأس إلى شفتي مرة أو مرتين وأعدتها مرة أخرى دون أن أتجرأ على احتساء الشاي لئلا أجرح كرامتي بانفجار مماثل.

في اليوم التالي سارعت والدتي وروز للترحيب بالسيدة الجميلة الانطوائية لكنهنّ عُدْن بحماسة أقل. أكدت والدتي أنها لم تندم على تلك الزيارة لأنها، وإن لم تشعر بأي تقدير، فإنها كانت تشعر بالرضا لأنها قدمت بعض الخير: قدمتُ لها بعض النصائح المفيدة، والتي من الواضح أنها لم تكن مهمة بالنسبة إلى السيدة غراهام، على الرغم من أنها لم تقل شيئاً، وبدت إلى حد ما غير قادرة على التفكير كأن المسكينة لم تكن تعرف أين كانت طَوال حياتها، لكنها بوضوح تجاهلتْ بعض النقاط التي ذكرتها للأسف دون أدنى شعور بالخجل».

« أي نقاط يا أمي؟»، سألتها.

«نقاط تتعلق بالأمور المنزلية والتفاصيل الدقيقة للطهو والأشياء التي يجب أن تكون كل سيدة على دراية بها، سواء كان مطلوباً منها العمل بها أو لا. مع ذلك فقد منحتها بعض المعلومات المفيدة والعديد من الوصفات الممتازة، والتي من الواضح أنها لا تقدّر قيمتها لأنها طلبت ألا أزعج نفسي بذلك لأنها تعيش بطريقة بسيطة وكانت متأكدة أنها لن تستفيد منها أبداً. قلتُ لها: لا يُهم يا عزيزتي، هذه أمور يجب على كل سيدة محترمة معرفتها. إلى جانب ذلك، على الرغم من أنك تعيشين لوحدكِ الآن، فإنكِ لن تكوني كذلك إلى الأبد. لقد تزوجتِ مرةً، وربما ـ بل أقول على وجه اليقين ـ ستتزوجين مرة أخرى. قالت بغطرسة: «أنتِ مخطئة هنا سيدتي. أنا متأكدة أنني لن أفعل ذلك أبدًا». لكنني أخبرتها أنني أعرف أفضل».

قلت لوالدتي: «أعتقد أن الأرملة الشابة تحمل روحاً رومانسية ولهذا أتت إلى هنا لتنهي أيام عزائها في العزلة وتحزن على عزيزها الراحل ـ لكنها برأيي لن تدوم طويلاً».

قالت روز: «لا. لا أعتقد ذلك. لأنها لا تبدو بذلك الحزن على أية حال، ثم إنها جميلة بشكل كبير، بل وفاتنة. يجب أن تراها يا غيلبرت، سترى كم يبدو جمالها مثالياً، على الرغم من أنك بالكاد تستطيع اكتشاف تشابه بينها وبين إليزا ميلوارد».

«حسناً، يمكنني تخيّل العديد من الوجوه أجمل من إليزا، إنْ لم تكن أكثر سحرًا. يمكنني القول إنها تدّعي الكمال، لكن على أية حال، المؤكّد أنها لو كانت أكمل، لكانت بالنسبة إليّ أقل إثارة للاهتمام».

«وبهذا أنت تفضّلها بعيوبها على مثالية الأخريات؟».

«بالضبط»، أجبت احتراماً لوجود والدتي.

«أوه عزيزي غيلبرت، ما هذا الهراء الذي تتحدث عنه! أعلم أنك لا تعني ذلك»، قالت والدتي وهي تنهض وتخرج من الغرفة بحجة ضرورة القيام ببعض الأعمال المنزلية، متهرّبة من التناقض الذي كان يرتجف على لساني.

بعد ذلك تحدثت روز باستفاضة عن تفاصيل أخرى عن السيدة غراهام، عن مظهرها، وأخلاقها، وهندامها، وأثاث الغرفة التي تسكنها، كلها كانت موضوعة أمامي بوضوح ودقة أكثر مما كنتُ قد أهتم بملاحظتها في الواقع. لكن لمّا لم أكن مستمعاً شديد اليقظة، لم أكن لأتمكن من تكرار الوصف حتى إذا أردت ذلك.

كان اليوم التالي يوم سبت، ويوم الأحد كان الجميع يتساءل عما إذا كانت الأرملة المجهولة ستحضر قداس الأحد في الكنيسة. أعترف أنني قضيت بعض الوقت أنظر بشيء من الاهتمام نحو مقعد العائلة القديمة التي كانت تسكن قصر وايلدفيلد، حيث كانتِ الوسائد والبطانة القرمزية الباهتة

غير مضغوطةٍ ولم تُجَدَّد لسنوات عديدة، والشعارات المرسومة عليها مع حدودها المملوءة من القماش الأسود صدئة.

هناك رأيتُ سيدةً فارعة ترتدي الأسود. كان وجهها متجهاً نحوي، وبها شيء غامض حثّني على العودة للنظر إليها مرةً أخرى. كان شعرها أسودَ شديد الحلكة وموزعًا في حلقات طويلة لامعة، وهو أسلوب تصفيف غير عادي إلى حد ما في تلك الأيام ولكنه بدا أنيقاً وعصرياً، كانت بشرتها صافية وشاحبة. لم أتمكن من رؤية عينيها لأنها كانت منحنية على كتاب صَلَاتها الذي أخفى جفونها المتدلية ورموشها السوداء الطويلة، لكن الحواجب المطلّة أعلاه كانت معبّرة ومحددة جيدًا، مع جبهة رفيعة تشي بالذكاء، وأنف مثالي، وملامح لا يمكن انتقادها، باستثناء تجاويف طفيفة حول الخدين والعينين، والشفتين، متشكّلة ومشدودة برقة جعلتني أشعر أن طباع السيدة بعيدة عن اللطف والرقة، وقلت في قلبي لحظتها: «أفضّل الإعجاب بكِ من هذه المسافة، أيتها الفاتنة، على أن أكون شريكاً لك في منزلك».

عندها فقط حدث أنها رفعت عينيها وغرستهما في عينيّ لكني لم أنقل بصري، عادت إلى كتابها وعلى ملامحها نوع من الازدراء الهادئ الذي لا يمكنني وصفه، لكنه كان مثيراً لي بشكل لا يوصف.

«تعتقدني جرواً وقحاً. هه! ستغير رأيها قريباً، إنْ رأيتُ أن الأمر يستحق بعض الوقت». قلت في نفسي، لكن بعد ذلك انتبهت إلى أنها كانت أفكاراً غير لائقة بدار العبادة، وأن سلوكي في مكان ومناسبة كهذه لم يكن كما ينبغي أن يكون. قبل ذلك كنتُ قد ألقيت نظرةً خاطفة حولي في الكنيسة لأرى ما إذا كان أي شخص يراقبني، ولكن لا، فجميع الموجودين ـ الذين لم يحضروا كتب صلاتهم ـ كانوا هناك لرؤية السيدة الغريبة، والدتي الصالحة وشقيقتي من بين البقية والسيدة ويلسون وابنتها، وحتى إليزا ميلوارد كانت تنظر بشكل خفي من زوايا عينيها نحو موضوع الجذب العام، ثم عندما لمحتني احمرّت

خجلاً وعادت للنظر في كتاب صلاتها، هنا كنتُ أتعدى حدودي مرة أخرى، لكن هذه المرة أوقفني مرفق أخي بيرت وهو ينكز ضلوعي، مع ذلك لم أستطع التعبير عن استيائي إلا بالضغط بقدمي على أصابع قدميه وتأجيل المزيد من الانتقام إلى ما بعد الخروج من الكنيسة.

والآن يا هالفورد، قبل أن أنهي هذه الرسالة دعني أخبرك من هي إليزا ميلوارد: إنها الابنة الصغرى للقس، مخلوق صغير جذاب للغاية، لكنني لم أنجذب حتى بقدر ضئيل إليها، وكانت تعرف ذلك. على الرغم من أنني لم أتوصل أبداً إلى أي تفسير للأمر، ولم تكن لدي أي نية محددة تجاهها، حتى والدتي ـ التي أكدت دوماً أنه لا يوجد شخص جيد بالنسبة إليّ على بعد عشرين ميلاً ـ لم تستطع تحمل فكرة زواجي من ذلك الشيء الصغير التافه الذي ـ بالإضافة إلى العديد من العيوب الأخرى ـ لم تمتلك عشرين جنيهاً. كان شكل إليزا نحيفاً ومملوءاً في آن واحد، وجهها صغير ومستدير تقريباً مثل وجه شقيقتي، شيء مشابه لها لكن أقل ازدهاراً، أنف مرفوع، وملامح غير منتظمة بشكل عام. إجمالاً، كانت جذابة أكثر منها جميلة. لكن لا يمكنني تجاهل تلك السمات الرائعة في عينيها، جاذبيتها الرئيسية تكمن في الجانب الخارجي، عيناها طويلتان وضيقتان، أعتقد أنهما سوداوان أو بنيّتان دكناوتان للغاية، بتعابير مختلفة ومتغيرة، لكنها دائما تبدو متحمسة وساحرة ـ كنتُ قد قلت لها إن عيونها شيطانية أو شريرة بشكل لا يقاوم ـ وغالباً كلاهما. كان صوتها لطيفاً طفولياً وطرياً كما صوت القطة، سلوكها أيضا كثيراً ما يشبه سلوك القطة المرحة، في لحظة تصبح خبيثة ومشاغبة، وبعدها تتحول إلى أخرى خجولة ورزينة، وفقاً لإرادتها بالطبع.

شقيقتها ماري تكبرها بعدة سنوات وبوصات، ذات بنية أكبر وأكثر تماسكاً، فتاة بسيطة وهادئة وعاقلة، رعت والدتها بصبر خلال مرضها الأخير الطويل والممل، وهي مدبرة المنزل والكادحة للأسرة إلى الوقت الحاضر.

كان والدها يثق بها ويقدرّها كثيراً، كانت فتاة طيبة يحبها وتتودد إليها الكلاب والقطط والأطفال والفقراء ويهملها الآخرون. والدها القس مايكل ميلوارد كان رجلًا كبير السن طويل القامة

في طفولتي كنت معتادًا النظرَ إليه بشعور من الرهبة التبجيلية، لكنني تغلبت على هذا الشعور مؤخراً، فهو على الرغم من تمتعه بلطف أبوي، فإنه كان منضبطًا وصارمًا، وفي كثير من الأحيان يوبّخنا على إخفاقاتنا. علاوة على ذلك، في تلك الأيام كلما دعاه والدانا، كان علينا أن نقف أمامه وننشد الترانيم الدينية مثل «كيف تعمل النحلة الصغيرة المشغولة» أو ترنيمة أخرى، وقد يحدث أسوأ من ذلك ويسألنا عن خطبته الأخيرة التي لم نكن لنتذكرها أبداً. في بعض الأحيان كان السيد القس يوبخ والدتي على تساهلها المفرط معنا بالإشارة إلى قصة أبشالوم ابن داود المذكورة في الكتاب المقدس والذي قام بثورة ضد مُلك أبيه وقُتل في المعركة التي تلت ذلك، الأمر الذي كان يزعج مشاعرها بشكل خاص، وبقدر ما كانت تحترمه وتنصت لنصائحه، سمعتها ذات مرة تقول بانفعال واضح: «أتمنى لو كان لديه ابن هو نفسه! لم يكن ليمتلك الوقت لنصح الآخرين، بل كان سيَعي وقتها ما يعني وجود اثنين يجب رعايتهما».

كان يعتني بصحته الجسدية بشكل جدير بالثناء حيث يحرص على الاستيقاظ مبكراً والمشي بانتظام قبل الإفطار، وكان شديد الحرص فيما يتعلق بالملابس الدافئة والجافة، وكان معروفًا عنه أنه يبتلع بيضة نيئة قبل بدء خطبه في الكنيسة، وأنه محظوظ برئتين جيدتين وصوت جَهْوَري قوي. بشكل عام يمكنني القول إنه كان شديد الخصوصية فيما يأكله ويشربه، على الرغم من أنه لم يكن ممتنعاً عن تناول أي نوع من الأطعمة فإنه كان يتّبع برنامجاً غذائياً خاصاً به. كان محتقراً كبيراً للشاي، ويفضل احتساء خمور الشعير واللحوم المقدّدة والبيض ولحم الخنزير والبقر واللحوم القوية الأخرى التي تنسجم

مع جهازه الهضمي، وبالتالي بقي محافظاً على عاداته بل وكان يوصي بها لكثير من الأشخاص في رعيّته، خاصة الذين يعانون من عسر الهضم. أما إذا ما قال أحدهم أنه فشل في الحصول على الفائدة الموعودة من وصفاته فكان يتهمه بعدم المثابرة وإذا ما اشتكى آخر من عدم الراحة من النتائج التي حُصِلَ عليها كان يؤكد أنه واهم لا أكثر.

دعني أتطرق إلى شخصين آخرين كنت قد ذكرتهما، ثم أنهي هذه الرسالة الطويلة. السيدة ويلسون وابنتها. كانت الأولى أرملةَ مزارع كبير، ثرثارةً عجوزًا ضيقة الأفق ولا تستحق شخصيتها الوصف. كان لديها ولدان، روبرت وهو مزارع خشن الطباع، وريتشارد شاب خجول منطو على نفسه، ومجتهد يدرس الكلاسيكيات بمساعدة القس ويستعد للجامعة بهدف الانضمام إلى الكنيسة.

شقيقتهم جين كانت شابة تمتلك بعض المواهب وطموحًا أكثر. تلقت بناءً على رغبتها الخاصة تعليمًا داخليًا منتظمًا أعلى مما حصل عليه أي فرد من أفراد الأسرة من قبل. نجحت في صقل نفسها جيدًا واكتسبت قدرًا كبيرًا من الرقي الاجتماعي وفقدت تمامًا لهجتها وطباعها الإقليمية، وأصبح بإمكانها التباهي بإنجازات أكثر من بنات النائب. إلى جانب ذلك كانت جميلة، لكن لم تستطع أن تضع لي رقماً في قائمة المعجبين بها. كانت في السادسة والعشرين من عمرها، طويلة إلى حد ما ونحيلة للغاية، ولم يكن شعرها كستنائيّاً ولا بنيّاً محمرّاً، بل أحمرَ فاتحاً للغاية. كانت بشرتها صافية ومتألقة بشكل ملحوظ، برأس صغير تسنده رقبة طويلة، وذقن مائل لكنه قصير للغاية، وشفتين رقيقتين وحمراوين، وعيون عسلية صافية وتشي بالذكاء لكنها خالية تمامًا من الشاعرية أو الشعور. تقدم للزواج بها العديد من الخاطبين لكنها رفضتهم جميعًا بازدراء قائلةً إن لا أحد سوى رجل نبيل يمكن أن يرضي ذوقها الراقي، ولا أحد سوى شخص غني يمكنه أن يرضي طموحها. كان

هناك رجل نبيل تلقت منه ومن قلبه واسمه وثروته، في الأوان الأخير، بعض الانتباه وكانت لديها مخططات جادة بهذا الشأن. كان هذا السيد لورانس، الشاب الذي كانت عائلته تمتلك سابقًا قصر وايلدفيل، لكنها هجرته منذ نحو خمسة عشر عامًا من أجل قصر أحدث في الرعية المجاورة.

والآن يا هالفورد أودّعك. هذا هو القسط الأول من ديوني، إذا كانت العملة قد راقت لك فلتخبرني وسأرسل لك الباقي في وقت فراغي. أما إذا كنتَ تفضّل أن تظل دائِنِي بدلاً من أن تملأ محفظتك بهذه القطع الثقيلة فالأمر لك، وسأغفر لك ذوقك السيئ وأحتفظ بالكنز عن طيب خاطر لنفسي.

تحياتي الخالصة

غيلبرت ماركهام



الفصل الثاني

بفرح غامر، يا صديقي الأعز، تلقّيتُ نبأ انقشاع سحابة الاستياء التي مرت بك، وسعيد أنك ترغب في استمراري بالسرد، وعليه لن أهدر المزيد من الوقت.

أعتقد أن اليوم الأخير الذي ذكرته لك كان آخر يوم أحد من شهر أكتوبر من عام 1827. في يوم الثلاثاء التالي، كنت في الخارج مع كلبي وبندقيتي منشغلًا بالصيد داخل أراضي ليندن كار، ولكن لم أجد شيئًا على الإطلاق، لذلك دخلتُ في معركة مع الصقور وغربان الجِيَف التي حرمتني من الحصول على طريدة جيدة، ثم تحقيقًا لهذه الغاية غادرت الوديان، وحقول الذرة، والمروج، وشرعت في تسلق المنحدر الحاد في وايلدفيل، أخطر وأعلى مكان في منطقتنا، حيث تصبح السياجات والأشجار هزيلة كلما صعدت، وتفسح المجال ليأخذ مكانها سياج حجري خشن تكسوه الطحالب واللبلاب، وأشجار الصنوبر والتنوب الإسكتلندي. كانت الحقول جافة وغير صالحة للحرث، بدت أنها في الغالب متروكة لرعي الأغنام والماشية. ثم إن أجزاءً من الصخور الرمادية هنا وهناك كانت تتلألأ فوق التلال العشبية بالقرب من نباتات التوت والخلنج التي توزعت أسفل الجدران. وفي العديد من الزوايا من المنطقة فرضت أعشاب الأمبروزيا سيادتها على الأعشاب الهزيلة الأخرى، لكن هذه لم تكن ممتلكاتي.

بالقرب من قمة هذا التل، على بعد نحو ميلين من ليندين كار، كان قصر وايلدفيل، وهو قصر قديم من العصر الإليزابيثي، مبني من الحجر الرمادي

الداكن ورائع المظهر بلا شك، لكنه بارد وكئيب فيما يتعلق بالسكن فيه بقضبانه الحجرية السميكة وفتحاته الهوائية التي أكل عليها الدهر وعزلته غير المحمية. الحماية الوحيدة المتوفرة له هو من مجموعة أشجار التنوب الإسكتلندي الصارمة والقاتمة مثل القصر نفسه، والمتضررة أساساً من الرياح العاصفة والطقس. خلف القصر كانت توجد بضعة حقول مهجورة، ثم هناك القمّة المكسوة باللون البني. أمامها حديقة مَحُوطة بجدران حجرية وبوابة حديدية تعلو أعمدتها كرات كبيرة من الجرانيت الرمادي ـ تشبه تلك التي تزين الأسقف والجملونات، في السابق كانت الحديقة مملوءة بالنباتات والزهور والأشجار القوية التي كانت تتحمل بشكل أفضل مقصات البستاني القاسية وتتخذ بسهولة الأشكال التي اختارها لمنحها. أما الآن وبعد أن تُركت سنوات عديدة دون حراثة وتقليم في مواجهة الصقيع، والريح، والمطر، والجفاف، فقد أصبح مظهرها فريدًا جدًّا. كانت الجدران الخُضر القريبة من المبنى والتي تحد المسار الرئيسي قد تلاشت ونما العشب خارج حدودها، البجعة المصنوعة من خشب البقس فقدت عنقها ونصف جسدها، والأبراج المصنوعة من أشجار الغار وسط الحديقة، والمحارب العملاق الواقف بجانب البوابة، والأسد الذي كان يحرس الجانب الآخر، جميعها نمت وتبلورت إلى أشكال غريبة لا تشبه شيئاً سواء في السماء أو الأرض، أو حتى في المياه تحت الأرض، لكن استجابة لخيالي الشاب قدّموا لي جميعهم أشكالاً تتناسب جيدًا مع الجحافل الشبحية المظلمة التي كانت مربّيتنا القديمة تحدثنا عنها وعن ضرورة احترامنا للقصر المسكون وسكانه الراحلين.

لقد نجحت في قتل صقر وغرابين عندما أصبحت على مرمى البصر من القصر، وبعد ذلك قررت المشي لإلقاء نظرة على المكان القديم ورؤية التغييرات التي أحدثتها النزيلة الجديدة. لم أكن لأحب التقرب أكثر والتحديق في البوابة، لذلك توقفتُ بجانب جدار الحديقة ونظرت. لم ألاحظ أي تغيير ـ

باستثناء جناح واحد ـ كان من الواضح أنه أُصلِحَت نوافذه المكسورة وسقفه المهترئ، وكان إكليلٌ من الدخان يتلوّى من مدخنته.

بينما كنت أقف متكئًا على بندقيتي أتطلع إلى الجملونات الحالكة للقصر وغارقًا في حلم يقظة نسجه فكري من الأوهام الضالة عن تلك الشابة الفاتنة الانطوائية خلف تلك الجدران، سمعت حفيفًا خفيفًا وتدافعًا داخل الحديقة، نظرت إلى الاتجاه الذي صدر منه الصوت فرأيت يدًا صغيرة تتشبث بأحجار الحائط ثم تبعتها اليد الأخرى فجبهة بيضاء صغيرة، تعلوها أكاليل من الشعر البني الفاتح، ويستقر تحتها زوجان من العيون الزرق العميقة، والجزء العلوي من أنف عاجي صغير الحجم.

لم تلحظني تلك العيون لكنها تألقت بالسعادة والإثارة عندما لمحت سانشو، كلبي الجميل الذي كان يتجول بقربي. رفع المخلوق الصغير وجهه ونادى بصوت عالٍ لإثارة انتباه الكلب، فتوقف الحيوان اللطيف ونظر إلى الأعلى وهو يهز ذيله لكنه لم يتقدم إليه. صَعِد الطفل (يبدو تقريبًا في الخامسة من عمره) إلى أعلى الجدار ونادى مرارًا وتكرارًا ولكن من دون جدوى، ثم قرر على ما يبدو أن يحاول العبور للوصول إلى الكلب، لكن أغصان شجرة كرز قديمة أمسكت به من ثوبه بأحد أذرعها الملتوية الممتدة على الحائط. في محاولته تحرير نفسه انزلقت قدمه وهبط، ولكن ليس على الأرض، إذ بقي معلّقاً حيث كان هناك صراعٌ صامت لبعض الوقت تبعته صرخة مدوية، وفي لحظة كنت قد رميت بندقيتي على العشب والتقطت الصغير بين ذراعيّ.

مسحت عينيه بثوبه وأخبرته أنه بخير ودعوت سانشو للاقتراب لتهدئته. كان يضع يده الصغيرة على رقبة الكلب ويبتسم من خلال دموعه، عندما سمعت ورائي نقرة على البوابة الحديدية وحفيفًا من الملابس النسائية، لتندفع نحوي السيدة غراهام برقبة مكشوفة وخصلات شعرها السّود تتطاير في مهب الريح.

«أعطني الطفل!»، قالت بصوت أعلى من الهمس لكن بنبرة عنيفة، وقبضت على الصبي، بل خطفته مني كما لو أن لَمْسَتي لوّثته، ثم وقفت أمامي وهي تمسك يده بقوة بإحدى يديها وتضع الأخرى على كتفه، غارسةً فيَّ عينيها الدكناوتين، والواسعتين، واللامعتين، والشاحبتين، واللاهثتين، والمرتعشتين جرّاء الانفعال.

قلت محاولاً تهدئتها: «لم أكن أُوذي الطفلَ سيدتي»، ولا أعرف ما إذا كنتُ وقتها أشعر بالصدمة أم الاستياء. «كان سيسقط من أعلى الحائط ولحسن الحظ تلقفته حين كان معلقًا في غصن تلك الشجرة، وتفادينا بذلك كارثة».

تلعثمت قائلة: «أستميحك عذراً يا سيدي»، هدأت فجأة وبدا أن المنطق ألقى شعاعه على فكرها المشوش، وحُمرَة خافتة غمرت وجنتيها ـ «لا أعرفك، وظننت...»

انحنت لتقبّل الطفل وشبّكت ذراعها باعتزاز حول رقبته.

«اعتقدْتِ أنني سأختطف ابنكِ؟».

نقرت رأسه وهي ضاحكة ومحرجة: «لم أكن أعرف أنه حاول تسلق الجدار، سعيدة بالتحدث إلى السيد.. ماركهام على ما أعتقد؟»، قالتها بشيء من الحدّة.

انحنيتُ لتحيّتها باحترام، لكنني غامرت بالسؤال عن كيفية معرفتها لي.

«شقيقتك كانت هنا قبل بضعة أيام مع والدتكما السيدة ماركهام».

«هل التشابه قوي إلى هذا الحد؟»، سألتها وأنا متفاجئ دون الشعور بالإطراء كما كان يجب أن أكون.

«هناك تشابه في العيون والبشرة على ما أعتقد»، أجابت وهي تنظر إلى وجهي بشيء من الشك إلى حد ما: «وأعتقد أنني رأيتك في الكنيسة يوم الأحد».

أجبتها بابتسامة. كان هناك شيء، إما في تلك الابتسامة وإما في الذكريات التي يبدو أنها أيقظتها، والتي أثارت استياءها بشكل خاص، لأن تلك النظرة الباردة المتباهية عادت لوجهها مرة أخرى، تلك التي لا يتحرك فيها أي من ملامحها وأثارت نفوري في الكنيسة ـ نظرة مستفزة ومتخمة بالازدراء البغيض الذي بدا كأنه التعبير الطبيعي لوجهها.

قالت: «طاب نهارك سيد ماركهام»، ودون كلمة أو نظرة أخرى انسحبت مع طفلها إلى الحديقة. عدتُ إلى المنزل وأنا منزعج وغاضب ـ ليتني أعلم السبب لأخبرك، وبالتالي لن أحاول.

ذهبت فقط لإعادة بندقيتي وعلبة البارود وإعطاء بعض التوجيهات اللازمة لأحد العمال في الحقل. ثم رتبت هندامي وذهبت إلى منزل القس لتهدئة روحي وأعصابي المنزعجة بالاستمتاع برفقة ومحادثة إليزا ميلوارد.

وجدتها كعادتها، منشغلة بتطريز قطعة من القماش الناعم حين كانت شقيقتها جالسة في زاوية المدخنة منشغلة هي الأخرى بإصلاح كومة من الجوارب وقطّ يغفو على ركبتها.

«أوه ماري! أبعديه عن هنا!»، كانت إليزا تخاطب شقيقتها بصوت أجش حين كنتُ أدخل بنفس اللحظة وأنا أقول: «أرجو أنكِ لا تقصدينني»، وحالَ مظهري على ما يبدو دون إجراء مزيد من النقاش.

«ما أسوأ حظّك سيد ماركهام!»، قالت إليزا وهي رافعة قوس إحدى حاجبيها وموجِّهة نظراتها الجانبية بخبث نحوي: «بابا خرج للتو إلى الأبرشية، ومن غير المحتمل أن يعود لمدة ساعة!».

«لا بأس.. يمكنني أن أقضِيَ بضع دقائق مع بناته، إنْ سَمَحن لي بذلك»، قلتُ وأنا أسحب كرسيًّا إلى حيث المدفأة وأجلس دون انتظار أن يُطلب مني ذلك.

«حسنًا، إذا كانت رفقتك جيدة وممتعة، فلن نعترض».

«فليكن إذنكن اليوم غير مشروط، لأني في الواقع لست هنا لتقديم التسلية والسرور بل لطلبها».

على الرغم من ذلك، شعرت أنه من اللائق أن أبذل بعض الجهد الطفيف لجعل رفقتي مقبولة على الأقل، لكن بدا أن العمل القليل الذي بذلته كان ناجحًا بالفعل، لأني لم أرَ الآنسة إليزا في حالة أفضل. في الواقع، كان جلياً أننا نتبادل الفكاهة بشكل منسجم، وتمكّنّا من الحفاظ بيننا على محادثة مبهجة ومفعمة بالحيوية وإن لم تكن عميقة. بالنسبة إليّ كان هذا أفضل من الوجود معها لوحدنا، فالشقيقة الكبرى لم تفتح شفتيها، إلا في بعض الأحيان لتصحيح بعض التوكيدات العشوائية أو تعبيرات شقيقتها المبالغ فيها، ثم مرة واحدة لتطلب منها التقاط كرة الصوف التي تدحرجت إلى تحت الطاولة ففعلت أنا، ومع ذلك، وكما أننا في واجب رسمي، قالت لي وأنا أعيد لها الكرة: «شكراً لك سيد ماركهام، كنت سألتقطها بنفسي، لكنني لم أرغب في إيقاظ القطة».

قالت إليزا: «ماري، عزيزتي، هذا لن يشفع لكِ عند السيد ماركهام، فهو يكره القطط، وأيضاً كبيرات السن ـ كما بقية السادة الآخرين، أليس كذلك سيد ماركهام؟».

أجبتها: «أعتقد أنه من الطبيعي أن ينفر جنسنا هذه المخلوقات، في حين يسبغ جنسكن كل هذا الكم من التدليل والمداعبات عليها».

«أوه فليبارك الرب هؤلاء الأعزاء الصغار!»، صرخت في اندفاع مفاجئ من الحماسة وهي تغمر حيوان شقيقتها الأليف بوابل من القبلات.

«كفى. توقفي إليزا!»، قالت الآنسة ميلوارد بشيء من الحدة وهي تدفعها بعيدًا بتململ.

حل وقت مغادرتي أسرع مما ظننت، ولا بد أن موعد تناول الشاي كان قد فات، فوالدتي كما تعلم بالغة الصرامة عندما يتعلق الأمر بالنظام والالتزام بالمواعيد.

كان من الواضح أن صديقتي الوادعة لم تكن راغبة في توديعي، ضغطتُ برفق على يدها الصغيرة، وكافأتني هي بواحدة من أنعم ابتساماتها ونظراتها الساحرة. عدتُ إلى المنزل سعيدًا جدًّا، بقلب مملوء بالرضا عن نفسي، وبالمحبة لإليزا.

الفصل الثالث

بعد يومين كانت السيدة غراهام في زيارة لنا، بعكس ما توقعته روز من أن ساكنة قصر وايلدفيل ستتجاهل تماماً دعوتنا، وهو أمر أيّده آل ويلسون وميلوارد الذين لم يتمكنوا من استضافتها إلى الآن في منازلهم. مع أنها شرحت سبب هذا الإغفال، إلا أن ذلك لم يرضِ روز تماماً. كان الطفل الصغير يرافق السيدة غراهام، وعندما عبرت والدتي عن دهشتها أنه استطاع المشي هذه المسافة أجابت: «إنها مسيرة طويلة بالنسبة إليه، حيث إنني مضطرة إما لأخذه معي وإما الاعتذار عن قَبول الدعوة لأني لا أتركه لوحده مطلقاً، كما أرجو منكِ، سيدة ماركهام، نقل أعتذاري إلى آل ميلوارد والسيدة ويلسون عندما تلتقين بهم، حيث إنني أخشى أنني لا أستطيع تلبية دعواتهم إلى أن يتمكن آرثر الصغير من مرافقتي».

قالت روز: «لكن أليس لديك خادمة؟ ألا يمكنك تركه معها؟».

«لديها التزاماتها الخاصة لتقوم بها، وإلى جانب ذلك هي أكبر من أن تركض وراء طفل، إذ إنه زئبقي جدًّا بحيث لا يمكن ربطه بامرأة مسنّة».

«لكنكِ تركتِه عندما أتيتِ إلى الكنيسة.»

«نعم لمرة واحدة، لكني ما كنت لأتركه لأي غرض آخر. وأعتقد أنني في المستقبل سأرتب لإحضاره معي أو البقاء في المنزل معه».

«هل هو شقيّ لهذه الدرجة؟»، سألت والدتي بصدمة كبيرة.

أجابت السيدة وهي تبتسم بحزن وتداعب خصلات ابنها المتموجة الذي

كان جالسًا على كرسي منخفض عند قدميها: «لا. لكنه كنزي الوحيد، وأنا صديقه الوحيد: لذلك لا نحب أن نفترق».

قالت والدتي بصوت واضح: «لكن يا عزيزتي، هذا شغف أحمق لا بد من قمعه، لإنقاذ ابنك من الفساد ونفسكِ من السخرية.»

«فساد، سيدة ماركهام؟!».

«نعم، هذا يفسد حتى الأطفال الذين هم في سنّه، يجب ألا يُربَط دائمًا بخيط مئزر أمه، بل أن يخجل من معاملة كهذه».

«سيدة ماركهام، أرجو منكِ عدم قول مثل هذه الأشياء في حضوره على الأقل. أنا على ثقة من أن ابني لن يخجل أبدًا من حب والدته!»، قالت السيدة غراهام بانفعال حاد أذهل الحضور.

حاولت والدتي استرضاءها بمحاولة تغيير الموضوع قائلةً: «أعتقد أنه قد قِيلَ ما فيه الكفاية حول هذا الموضوع».

قلت في نفسي: «تمامًا كما اعتقدت، مزاج السيدة ليس سهلاً على الرغم من وجهها اللطيف وجبينها النبيل، يبدو أن المعاناة قد تركت آثاراً قوية عليها بنفس القدر».

طوال هذا الوقت كنت جالسًا على طاولة في الجانب الآخر من الغرفة، أبدو منغمساً في الاطلاع على مجلد من مجلة المزارعين، والذي تصادف أنني كنت أقرؤه لحظة وصول زائرتنا، ولم أحاول أن أكون أكثر تحضراً فقد انحنيت لتحيتها بمجرد دخولها وواصلت ما كنت أفعله من قبل.

مع ذلك، وبعد فترة وجيزة، شعرت أن شخصًا ما كان يقترب مني بخطى خفيفة، لكنها بطيئة ومترددة. كان آرثر الصغير الذي جذبه كلبي سانشو المستلقي عند قدمي، يقف على بعد حوالي ياردتين وعيناه الزرقاوان الصافيتان تحدقان بنوع من الحزن إلى الكلب، ليس بسبب الخوف من

الحيوان، ولكن خجلاً من الاقتراب من سيده، لكن القليل من التشجيع دفعه للتقدم. الطفل على الرغم من خجله لم يكن متجهمًا، خلال دقيقة واحدة كان راكعًا على السجادة وذراعيه تحيطان بعنق سانشو، ثم في غضون دقائق جلس الرجل الصغير على ركبتي وهو يتفحص باهتمام العينات المختلفة من الخيول والماشية والخنازير والمزارع النموذجية المصورة في المجلد أمامي. كنت بين حين وآخر ألقي نظرة خاطفة على والدته لأرى شعورها تجاه هذه العلاقة اللطيفة الجديدة بيني وصغيرها، ورأيت من خلال تلك النظرة المنزعجة في عينيها، أنها لسبب أو لآخر كانت غير مرتاحة لهذا الوضع.

نادته لأكثر من مرة: «آرثر، تعالَ إلى هنا. أنت تزعج السيد ماركهام، إنه يرغب في القراءة».

«مطلقاً سيدة غراهام، دعيه، أنا مستمتع بقدره».

قال الصغير: «ماما، دعيني فقط أنظر إلى هذه الصور أولاً، ثم آتي وأخبرك كل شيء عنها».

ثم تبعته أمي بقول: «سنقيم هنا حفلة صغيرة يوم الاثنين الخامس من نوڤمبر، وآمل ألا ترفضي الحضور عزيزتي سيدة غراهام. يمكنك إحضار ابنك الصغير معك، يمكنني التجاسر بقول إننا قادرين على تسليته، ويمكنك حينها تقديم اعتذاراتك الخاصة إلى آل ميلورد وويلسون ـ سيكونون جميعًا هنا».

«شكرًا لك، أنا لا أذهب إلى الحفلات أبدًا».

«أوه! ولكن هذا سيكون احتفالًا عائليًّا وفي ساعات مبكرة ولا أحد هنا سوى نحن وآل ميلورد وويلسون الذين تعرفينهم بالفعل، بالإضافة إلى السيد لورانس، مالك القصر الذي لا بد من التعرف إليه عاجلاً أو آجلاً».

«أعرف بالفعل القليل عنه ـ مع هذا أتمنى أن تعذريني هذه المرة، لأن الأمسيّات بهذا الوقت من السنة تكون مظلمة ورطبة، وأخشى أن صحة آرثر

حساسة للغاية بحيث لا يمكن المخاطرة بتعريضه لذلك دون دفع الثمن. مضطرة إلى أن أرجئ الاستمتاع بضيافتكم حتى حلول الأيام الأطول والليالي الأدفأ».

هنا قامت روز، استجابةً لإيماءة من والدتي، بإحضار قنينة النبيذ والكعك والأكواب من الخزانة الجانبية المصنوعة من خشب البلوط، وقُدِّمَت المرطبات على النحو اللائق للضيوف. لقد تناول كلاهما الكعك، لكنهما رفضا النبيذ بعناد على الرغم من محاولات مضيفتهما. انكمش آرثر كما لو كان في حالة من الرعب والاشمئزاز، بل كان مستعدًّا للبكاء عند حثه على تناوله.

قالت والدته: «لا عليك يا آرثر، السيدة ماركهام تعتقد أنه سيفيدك، لأنك تعبت في مشيك، لكنها لن تلزمك باحتسائه! ستبلي بلاءً حسناً دونها»، وأضافت: «إنه يكره منظر الخمر، ورائحته تجعله يشعر بالمرض. لقد اعتدتُ جعلَه يبتلع القليل من النبيذ مخلوطاً بالماء عندما يكون مريضاً، وبصراحة فعلت ما بوسعي لجعله يكرهه».

ضحك الجميع ما عدا الأرملة الشابة وابنها.

«حسنًا سيدتي غراهام»، قالت والدتي وهي تمسح الدموع التي بللت عينيها الزرقاوين اللامعتين من شدة الضحك ـ «حسنًا، أنا متفاجئة! لقد ظننت أنك أذكى من هذا، سيكون الطفل المسكين أجبنَ طفلٍ على الإطلاق! فكّري فقط فيما ستجعلينه عليه، إذا أصررتِ على...».

«أعتقد أنها خطة ممتازة للغاية»، قاطعتها السيدة غراهام بثبات وصرامة. «بهذه الوسيلة آمل أن أنقذه من ارتكاب رذيلة مهينة على الأقل، أتمنى لو كنت أستطيع دفع الآخرين وتحفيزهم بنفس القدر فيما يتعلق بهذه القضية».

قلت: «لكنكِ لن تجعليه صالحاً بهذه الوسيلة أبدًا. ما الذي يشكل الصلاح برأيكِ سيدة غراهام؟ هل هي القدرة على مقاومة الإغراء والرغبة، أو عدم

وجود إغراءات تُقَاوَم؟ ـ هل هو رجل قوي يتغلب على عقبات كبيرة ويحقق إنجازات مفاجئة على الرغم من الجهد العضلي الكبير ومع إمكانية حدوث بعض التعب لاحقاً، أو بالجلوس على كرسيه طوال اليوم بجهد لا يتجاوز إشعال النار وحمل طعامه إلى فمه؟ إذا كنتِ تريدين لابنكِ أن يسير بشرف في العالم، ليس عليكِ إزالة الحجارة من طريقه، بل تعليمه المشي عليها بحزم ـ دون الإصرار على قيادته ـ والسماح له بالتعلم بمفرده».

«سأقوده سيد ماركهام، حتى تصبح لديه القوة للمضي بمفرده، وسأزيل أكبر قدر ممكن من الحجارة من طريقه وأعلمه أن يتجنب الباقي ـ أو يمشي عليها بقوة كما أسلفتَ، لأنني عندما أبذل قصارى جهدي في ترتيب الطريق له، سيكون هناك المزيد ليمارس عليه ما تعلمه من خفة الحركة والثبات والحذر. من الجيد التحدث عن المقاومة النبيلة، لكن من بين خمسين أو خمسمئة رجل خاضوا التجربة، أظهر لي شخصاً يمتلك ميزة المقاومة. ثم لماذا يجب أن أعتبر أن ابني سيكون واحدًا في الألف، وليس الأسوأ؟ وأفترض أنه سيكون مثل البقية، ما لم أحرص على منعه؟».

«من الواضح أنكِ تجاملينا» قلتُ لها.

«أنا لا أعرف شيئًا عنكم، بل أتحدث عن أولئك الذين أعرفهم، إذ عندما أرى الجنس البشري بأكمله (مع استثناءات قليلة نادرة) يتعثر ويتخبط في الحياة، ويغرق في كل مأزق، ويكسر سيقانه كلُّ عائق يظهر في طريقه، أليس من المنطقي أن أستخدم كل الوسائل التي في وسعي لأضمن له ممرًا أكثر سلاسة وأمانًا؟».

«نعم، ولكنّ أضمن وسيلةٍ هي السعي إلى تحصينه من الفتن، لا إبعادها عن طريقه».

«سأفعل كلا الأمرين سيد ماركهام. يعلم اللّهُ أن إغراءاتٍ كافية ستواجهه، سواء من الداخل أو من الخارج، عندها أكون قد فعلت كل ما في وسعي

لجعل الرذيلة غير جذابة له، لأنها بغيضة بطبيعتها. لقد واجهتُ بنفسي أيضًا ذلك ولكن القليل يقاوم ما يسميه العالم رذيلة، مع ذلك واجهت إغراءات وتجارب من نوع آخر، تطلب الأمر في العديد من المناسبات المزيد من اليقظة والحزم للمقاومة أكثر مما يمكنني حتى الآن حصره. وهذا في اعتقادي هو ما يقره معظم الذين يهمهم الأمر ويرغبون في العيش دون فساد».

قالت والدتي: «هذا صحيح، لكن من غير المنصف الحكم على الصبي بنفسك عزيزتي السيدة غراهام، اسمحي لي أن أحذرك من الخطأ ـ الخطأ الفادح إن سمحتِ لي بتسميته ـ بأخذ تعليم الصبي على عاتقك. ذكاؤكِ واستنارتكِ في بعض الأمور قد تجعلكِ تعتقدين أنك مناسبة لهذه المهمة، في حين أنكِ لست كذلك. أشعر أنك لاحقاً ستندمين بمرارة إذا أصررتِ على فعل ذلك».

«سأرسله إلى المدرسة، ليتعلم احتقار سلطة والدته ومحبتها!»، قالت السيدة غراهام بابتسامة مريرة.

«أوه، لا! إذا أردتِ تربية ولد يحتقر أمه، أبْقِيه في المنزل، واقْضِي حياتك في مداعبته وسينغمس حتماً في حماقاته ونزواته».

«أتفق معكِ تمامًا سيدة ماركهام. ولكن لا شيء من هذا يمكن أن يكون أبعد عن مبادئي ومعاملتي له».

«حسنًا، لكنك تعاملينه كفتاة، وهكذا تفسدين روحه وتضطرين إلى التعامل مع نتيجة الأمر لاحقاً سيدة غراهام. مهما كان رأيك، اسمحي لي أن أطلب من السيد ميلوارد بالتحدث إليك حول هذا الموضوع، سيخبرك بالعواقب ويضعها أمامك بوضوح ويخبرك بما يجب عليك فعله، ولا أشك في أنه سيتمكن من إقناعك في غضون دقيقة».

قالت السيدة غراهام وهي تلقي نظرة خاطفة عليّ، أفترض أنني كنت حينها أبتسم لثقة أمي المطلقة بالقس المحترم: «يبدو أن السيد ماركهام يرى

هنا أن سلطته في الإدانة تساوي سلطة السيد ميلوارد. على كل حال، لمّا كنتُ لم أسمعه فليس عليّ أن أقتنع به كما لا أقتنع بعودة أحد من الموت. سيقول السيد ماركهام إنه لا ينبغي حماية الصبي من الشر ولكن لا بأس في إرساله لمحاربته بمفرده ودون مساعدة. ليس بالضرورة تعليمه تجنب فخاخ الحياة بل جرأة الاندفاع إليها، أو فوقها ـ حسب استطاعته ـ للبحث عن الخطر بدلاً من تجنبه، وتغذية روح الفضيلة لديه بمقاومة المغريات ـ هل هذا ما عنيته؟».

«أستميحك عذراً سيدة غراهام ـ أنتِ تتقدمين بسرعة كبيرة. لم أقل إنه يجب تعليم الصبي الاندفاع نحو فخاخ الحياة ـ أو حتى البحث عن مغريات من أجل ممارسة فضيلة التغلب عليها، كل ما أقوله هو إنه من الأفضل تسليح الصبي وتقويته. إذا كنتِ ستزرعين شتلة من خشب البلوط في دَفِيئة ودلّلتها واعتنيت بها ليلًا نهارًا وحَمَيْتها من الرياح القوية فلا يمكنكِ توقّع أنها ستصبح شجرةً قوية مثل قريناتها اللواتي نشأن على جانب الجبل وعُرّضن لجميع تأثيرات العوامل الجوية ولم يكنّ محميات حتى من العاصفة».

«صحيح، ولكن هل يمكنك استخدام نفس الحجة فيما يتعلق بالفتيات؟».

«بالتأكيد لا».

«يجب أن تُرعَى الفتاةُ بحنان ودفء مثل نباتات البيت ـ لا بد من تعليمها التشبث بالآخرين للحصول على التوجيه والدعم، وحراستها قدر الإمكان لتفادي تعرّفها ماهية الفساد. ولكن هل تتلطف وتخبرني عن سبب قيامك بهذا التمييز؟ هل ترى أنها لا تملك فضائل خاصة بها؟».

«بالتأكيد لا».

«حسنًا، لكنك تؤكد أن الفضيلة تتبلور بمقاومة الإغراءات فقط، وترى أن المرأة لا بد ألّا تُعرّض للإغراءات، أو أن تكون على دراية ولو قليلة بالرذيلة أو أي شيء مرتبط بها لأنها تُعتبَر في حالة كهذه فاسدةً أساساً أو سطحية جدًّا بحيث لا يمكنها مقاومة الإغراء، ويمكن اعتبارها نقية وبريئة وهي غارقة في

الجهل وضبط النفس، باستثناء أنها محرومة من الفضيلة الحقيقية: تعليمها كيف تخطئ، لأن ذلك يجعل منها خاطئة فوراً، وكلما زادت معرفتها أو اتسعت حريتها اعتُبِر فسادُها أعمق ـ في حين أن الأمر مفروغ منه في الجنس الآخر النبيل بأن هناك ميلًا فطريًّا إلى الخير وهو ما يبقيه على خط الثبات ويتبلور كلما خاض المزيد من التجارب والمخاطر».

«لا سمح اللّٰه أن أفكر هكذا!»، قاطعتها أخيرًا.

«حسنًا إذن، لا بد أنك تعتقد أنهما كلاهما ضعيف وعرضة للخطأ، لكن في حال حدوث أقل خطأ أو مجرد التعرض لشيء من التلوث، يُدَمَّر أحدهما حين تُعَزَّز شخصية الآخر وتُزَيَّن بقول إنه أتم تعليمه ونضجه بشكل جيد من خلال التعامل العملي مع ما هو ممنوع.

هذه التجربة ـ بالنسبة إليه ـ ستكون مثل تلك العاصفة التي تضرب شجرة البلوط في مثالك، والتي على الرغم من أنها قد تُبعثر الأوراق وتلتقط الأغصان الصغيرة، فإنها لا تخدم سوى الجذور وتكثّف ألياف الشجرة. يجب علينا تشجيع أبنائنا على إثبات كل شيء من خلال خوض تجاربهم الخاصة، في حين لا يجدر ببناتنا الاستفادة حتى من خبرات الآخرين. شخصيًّا سأستفيد من خبرة الآخرين، ومبادئ السلطة العليا التي يجب أن يعرفها كل فرد مسبقًا لرفض الشر واختيار الخير. لن أدفع بفتاة فقيرة إلى وجه العالم دون تسليحها ضد أعدائها، جاهلةً بالفخاخ التي قد تعترض طريقها، ولن أشاهدها وأحرسها إلى أن تفقد القوة أو الإرادة لمراقبة نفسها وحمايتها وحرمانها من احترام ذاتها والاعتماد عليها.

أما ابني، إذا شعرتُ أنه سيكبر ليصبح ما تدعوه رجلًا «رأى الحياة» ونجح في تجربته، بدلاً من مواصلة التعلم ليصبح عضوًا مفيدًا ومحترمًا في المجتمع، سأتمنى أن يموت غداً! بل يموت ألف مرة!»، كَرَّرت بجدية وهي تشد الصغير على جانبها وتقبّل جبهته بعاطفة قوية. كان الطفل قد ترك رفيقه

الجديد وبقي بجانب ركبة والدته، ينظر إلى وجهها ويستمع بإعجاب صامت إلى خطابها غير المفهوم بالنسبة إليه.

«حسناً، أنتنّ النساء لكنَّ الكلمة الأخيرة دائماً!»، قلت وأنا أراقب وقوفها لتوديع والدتي.

«ربما يكون لديك الكثير من الكلام بعد، كل ما في الأمر أنني لا يمكنني البقاء لسماعه».

«لا، بل هذا هو أسلوبك، تسمعين ما يحلو لكِ، وتتركين الباقي يخاطب الريح».

أجابت وهي تصافح روز: «إذا كنتَ متشوقًا لقول أي شيء آخر حول هذا الموضوع، أحضر شقيقتك وتعالا لزيارتي يومًا ما، وسأستمع بصبر لكل ما تريد قوله. أفضّل الاستماع لمحاضرة منك بدلاً من القس على كل حال، لأن شعوري بالذنب سيكون أقل عندما أخبرك أنني بطبيعتي أتشبث برأيي وأحافظ عليه كما كان في بداية النقاش، لأنني لا أنطق إلا بما أكون مقتنعةً به».

«نعم، بالطبع»، أجبتها بتصميم على ألا أكون أقل منها استفزازاً، «لأنه عندما توافق سيدة على الاستماع إلى حجة ضد آرائها، فإنها دائمًا ما تكون قد قررت مسبقاً الصمود والاكتفاء بالسماع بأذنيها فقط وإغلاق عقلها بإحكام ضد الأفكار المنطقية القوية».

قال خصمي الفاتن بابتسامة شفقة: «طابت أوقاتك سيد ماركهام»، وكانت على وشك المغادرة، لكن ابنها ـ بوقاحة طفولية ـ أوقفها قائلاً: «ماما، لم تصافحي السيد ماركهام!».

استدارت ضاحكةً ومَدَّت يدها الذي ضغطْتُ عليه بشكل حاقد لأنني كنت منزعجًا من الظلم المستمر الذي عاملتني به دون معرفة أي شيء عن شخصيتي ومبادئي الحقيقية، من الواضح أنها كانت متحيزة ضدي، وبدا أنها عازمة على إظهار أن انطباعها عني كان أدنى بكثير مما أرتني إياه. ربما كنتُ

حساسًا تجاه الأمر وهو أمر منطقي، ربما أيضًا أفسدتني بعض الشيء والدتي وشقيقتي وبعض السيدات الأخريات من معارفي، لكن مع ذلك لم أكن تافهاً بأي حال من الأحوال، هذه قناعتي المطلقة سواء كنت كذلك أو لا.

الفصل الرابع

سار حفلنا في الخامس من نوڤمبر بشكل جيد للغاية، على الرغم من رفض السيدة غراهام تكريمه بحضورها. في الواقع، ربما لو كانت حضرت لأصبح هناك قدر أقل من الود والاستمتاع والبهجة مما كانت الحال عليه بدونها.

والدتي كالعادة كانت تثرثر بابتهاج، مملوءة بالنشاط والعفوية الطيبة، ومخطئة فقط في كونها حريصة بشكل مبالغ فيه على إسعاد ضيوفها، لطفها وطيبتها تجبر العديد منهم على فعل ما لا يرغبون فيه فيما يتعلق بالأكل والشرب، تجالسهم حول النار المشتعلة، أو تتحدث عندما تمر فترة الصمت المربكة، ولذلك كان الجميع ممتناً ومستمتعاً بوقته.

كان السيد ميلوارد متمكناً فيما يتعلق بالعقائد الهامة، والنكات الحسية، والحكايات والخطابات الشفوية، وكان يتناولها لتنوير الرعية بشكل عام وعلى وجه الخصوص السيدة ماركهام المعجبة به، والسيد لورانس المهذب، وابنته الآنسة ماري ميلوارد، وريتشارد ويلسون الهادئ، وروبرت الانطوائي، هؤلاء كانوا دائماً المستمعين الأكثر انتباهاً.

كانَتِ السيدةُ ويلسون أكثر إمتاعاً من أي وقتٍ مضى، مع ما في جَعْبتها من الأخبار الجديدة والفضائح القديمة، جنبًا إلى جنب مع الأسئلة والملاحظات التافهة والمكررة التي على ما يبدو كانت تكررها لغرض وحيد هو حرمان المدعوّين من الكلام. كانت قد أحضرت معها عُدّة الحياكة، وبدا كما لو أن لسانها وضع رهانًا مع أصابعها، ليتفوق عليها بحركة سريعة ومتواصلة.

كانت ابنتها جين رشيقة، وأنيقة، وبارعة، ومغرية بقدر ما يمكنها أن تكون عليه. كان الجميع متأنّقًا وساحرًا وعلى الخصوص السيد لورانس. بقيت جين تمارس فنونها الصغيرة الواضحة لجذب انتباهي، لكنني دائماً ما شعرت أنها تفتقد ذلك النوع من التفوق والوعي الراقي وهو أمر يبطل في نظري كل مزاياها. بعد مغادرتها فسرت لي روز تصرفاتها وكلماتها وأفعالها المختلفة بحدة وقسوة جعلتني أتساءل عن ماهية حيلتها وعلاقة شقيقتي بالأمر، ولكن لا تقلق يا هالفورد لم تكن لها علاقة.

جلس ريتشارد ويلسون ـ شقيق جين الأصغر ـ في زاوية لوحده، وبدا أنه في مزاج جيد لكنه كعادته صامت وخجول، يتهرب من خوض الأحاديث ولكنه مستعد للاستماع، وعلى الرغم من أنه كان يجلس بعيداً فإنه كان سعيدًا بما فيه الكفاية وبطريقته الهادئة، باستثناء الضغط الذي كانت والدتي تمارسه عليه بلطفها الخانق، وتَضْطره إلى الصراخ عبر الغرفة ليجيب عن الأسئلة العديدة والملاحظات التي كانت تحاول عبثًا من خلالها جذبه إلى الحديث.

أخبرتني روز أنه لم يكن من النوع الذي يرتاد لقاءاتٍ كهذه لولا إلحاح شقيقته جين، والتي كانت حريصة جدًّا على أن تُظهر للسيد لورانس أن لديها أخًا واحدًا على الأقل أنبل وأكثر صقلًا من روبرت، أخوها المزارع الذي كانت حريصة على الابتعاد عنه، لكنه أكد للجميع أنه لا يرى أي سبب يمنعه من الاستمتاع مع السيدة ماركهام العجوز (والدتي لم تكن كبيرة في السن، حقًّا) والبقية، وعليه تحدث مع والدتي وروز عن أمور مشتركة، وناقش شؤون الرعية مع القس، ومسائل تتعلق بالزراعة معي، والسياسة مع الجميع.

كانت ماري ميلوارد شخصية صامتة أخرى في الحفل ـ لم تعاني كثيرًا من لطف والدتي مثل روبرت ويلسون، لأنها كانت بارعة في الإجابة بطريقة محددة والرفض بشكل صارم ومقتضب، بدت كئيبة أكثر منها مرتبكة. مهما كان الأمر، فالمؤكد هو أنها لم تضف أية بهجة أو متعة للحفلة ولم تستمد

الكثير منها على ما يبدو. أخبرتني إليزا أنها جاءت فقط لأن والدها أصر على ذلك، كونها تكرس نفسها بشكل حصري لواجباتها المنزلية، وأهملت مع الوقت مثل هذه المناسبات للاستمتاع البريء الذي يتناسب مع سنها وجنسها. بدت لي بعدئذ كأنها تمتلك شيئًا من حس الدعابة، فقد انتبهت إلى أنها ضحكت مرة أو مرتين عندما لفتَ انتباهها ذكاءُ أو مرح شخص بيننا، ثم لاحظت أنها تبحث بعينيها بشكل مستمر عن ريتشارد ويلسون الذي كان يجلس أمامها غارقًا في النقاش مع والدها، وحدث أن دخلت هي أيضًا معهما في بعض النقاشات، أحسسْتُ أن هناك نوعًا من الشعور بالزمالة بينهما.

كانت إليزا ساحرة بما يفوق الوصف، مغناجًا بلا عاطفة، وكان جليًّا أنها راغبة في جذب انتباهي أكثر من كل الحضور. سعادتها كانت غامرة كلما وقفتُ بجوارها، أو جلستُ بالقرب منها، أو همستُ بأذنها، أو ضغطتُّ على يدها في الرقص. كانت سعادتها تظهر في وجهها المتوهج وصدرها النابض بقوة، بغض النظر عن الكلمات والإيماءات غير البريئة بيننا. لكن كان من الأفضل أن ألجم لساني، فالتفاخر بهذه الأمور يجلب الندم بلا شك لاحقاً.

فيرغوس كعادته كان وقحًا وسخيفًا، لكن وقاحته وحماقته تُضحكان الآخرين.

وأخيرًا (لأنني نسيت نفسي) السيد لورانس، كان مهذبًا وخلوقًا مع الجميع وخاصة مضيفته وابنتها، والآنسة ويلسون. لم يكن يحاول التقرب إلى إليزا ميلوارد. كانت هناك شروطٌ خفية بيننا أنا والسيد لورانس وهي من عاداته أساسًا. إنه رجل نادرًا ما ترك مكان ولادته المنعزل، حيث كان يعيش في عزلة منذ وفاة والده ولم تكن لديه الفرصة ـ ولا الرغبة ـ في تكوين العديد من المعارف، و ـ وفقًا للنتائج ـ يبدو أنني كنت الرفيق الأكثر قبولًا لذوقه. لا أخفيك أني أعجبت بالرجل، لكنه كان شديد البرودة، وخجولًا، ومتقوقعًا على نفسه بشكل مبالغ فيه.

كانت تروقه الصراحة ـ عندما لا تكون مصحوبة بالخشونة في الطرح، لكنه نفسه لم يكن يمتلك هذه الصفة. كان احتياطه المفرط وارتباكه واضحًا بدرجة كافية للجميع، لكنني تفهمت ذلك من قناعة أنه لم ينشأ في بيئة تنمّي فيه الشعور بالاعتزاز والكبرياء بقدر التهذيب والحياء المبالغ فيه. كان عاقلًا لكنه بدا كأنه في حاجة ماسة إلى التغلب على طبيعته الخجولة المرهفة. قلبه مثل نبتة حساسة تنفتح للحظة تحت أشعة الشمس لكنها تعود لتتجعد وتنكمش على نفسها من أدنى لمسة من الإصبع أو أخف نَفَسٍ للريح. على العموم، كانت علاقتنا هي لطف متبادل أكثر من صداقة عميقة ومتينة كالتي تربطني بك يا هالفورد، فعلى الرغم من قساوتك العرضية، فإنني لا يمكنني مقارنتها بأي شيء، إنها مثل معطف قديم لا يرقى إليه آخر من حيث الملمس، سهل وفضفاض ويتلاءم مع شكل من يرتديه ويستخدمه كما يشاء دون أن يقلق بشأن إفساده. بينما علاقتي بالسيد لورانس تشبه معطفًا جديدًا، أنيقٌ ولكنه ضيق جدًا في المرفقين، بحيث تخشى أن تمزّق قماشه بالحركة غير المقيدة لذراعيك، وناعمٌ جدًا من الخارج لدرجة أنك قد تتورط في حال تعريضه لقطرة مطر.

بعد وقت قصير من وصول الضيوف، ذكرت والدتي السيدة غراهام، وأعربت عن أسفها لأنها لم تتمكن من تلبية الدعوة، وشرحت لآل ميلوارد وويلسون الأسباب التي قدمتها على أمل أن يعفو عنها، حيث كانت متأكدة من أنها لم تقصد أن تكون غير لبقة، وستكون سعيدة برؤيتهم في وقت آخر. «لكنها سيدة فريدة للغاية سيد لورانس»، أضافت والدتي، «نحن لا نعرف كيف يجدر بنا التعامل معها ـ لكن ربما يمكنك إخبارنا بشيء عنها، كونك صاحب العقار الذي تستأجره، فهي قالت إنها تعرفك قليلاً».

تحولت كل الأنظار إلى السيد لورانس. اعتقدت أنه بدا مرتبكًا دون داعٍ لكونه محط الأنظار إلى هذا الحد.

«في الواقع، سيدة ماركهام أخشى أنك مخطئة هنا، فأنا لا أعلم الكثير. لقد التقيت بها بالتأكيد لكنني آخر شخص يمكنه تقديم معلومات تتعلق بالسيدة غراهام».

ثم التفت على الفور إلى روز، وطلب منها اختيار أغنية أو لحن تعزفه على البيانو.

قالت: «لا. يجب أن تطلب من الآنسة ويلسون، إنها تتفوق علينا جميعًا في الغناء والعزف أيضًا».

اعترضت الآنسة ويلسون بخجل.

قال فيرغوس: «سوف تغني بسهولة إذا تعهدْتَ بالوقوف بجانبها ـ سيد لورانس ـ وقلب أوراق النوتات من أجلها».

«يسعدني ذلك للغاية. هل تسمح لي الآنسة ويلسون؟»».

رفعت رقبتها الطويلة وابتسمت وتأبطته ليقودها إلى البيانو حيث عزفت وغنت قطعة تلو الأخرى بأفضل أسلوب في حين كان هو يقف بقربها، يُميل إحدى يديه على ظهر كرسيها، ويقلب أوراق الكراسة باليد الأخرى وبدا مفتوناً بأدائها. كان كل شيء على ما يرام فيما يتعلق بها، لكن لا أستطيع أن أقول إنها أثرت بي بعمق. كانت بلا شك تملك الكثير من المهارة لكن القليل من الشعور الصادق.

لكننا لم ننتهِ من السيدة غراهام بعد.

قال السيد ميلوارد عند تقديم المشروب: «أنا لا أتناول النبيذ سيدة ماركهام، سأحتسي القليل من البيرة المخمرة في المنزل. أنا دائمًا أفضل بيرتك المخمرة على أي شيء آخر».

بعد أن شعرت بالإطراء من هذا المديح، قرعت والدتي الجرس وأُحضِرَ إبريقٌ صينيّ مملوء بأفضل بيرة لدينا ووضعته أمام السيد النبيل الذي كان يعرف جيدًا كيف يقدر امتيازه.

«لا يوجد شيءٌ مثل هذا سيدة ماركهام! دائمًا أؤكد أنه لا يوجد شيء يمكن مقارنته مع البيرة المصنوعة في المنزل».

«سعيدة أنها تروق لك سيدي. أتولى التخمير بنفسي دائماً، وكذلك صنع الجبن والزبدة ـ أحب أن تكون الأشياء بأفضل جَودة».

«تماماً سيدة ماركهام!».

«ولكن مع ذلك سيد ميلوارد، لا ضير من تناول القليل من النبيذ بين الحين والآخر ـ أو القليل من المشروبات الروحية، أليس كذلك؟»، قالت والدتي وهي تناول السيدة ويلسون كأسًا من مشروب الجِن مخلوطًا بالماء بعد أن قالت إن النبيذ كان ثقيلًا على مَعِدَتها، وكان ابنها روبرت في تلك اللحظة يسكب لنفسه كأسًا من نفس الشراب.

«مطلقاً!»، أجاب القس بحماسة. «هذه المشروبات كلها بركاتٌ ورحمة، إذا عرفنا فقط كيفية الاستفادة منها».

«لكن السيدة غراهام لا تعتقد ذلك. دعني أخبرك ما قالته ذلك اليوم، لقد قلتُ لها إنني سأخبرك».

بدأت والدتي بسردٍ مفصّل لأفكار السيدة وسلوكها فيما يتعلق بالمسألة المطروحة، واختتمت حديثها بـ: «والآن، ألا تعتقد أن هذا خطأ؟».

«خطأ؟!»، كَرَّر القسُّ باستنكار، «هذا إجرام، أؤكد ذلك! فهي لا تجعل من الصبي أحمقَ فحسب، بل إنها بهذا التعامل تحتقر العناية الإلهية وتُعلّمه أن يدوسها تحت قدميه».

ثم دخل في حديث مفصل وشرحٍ مطوّل لسبب اعتبار أسلوبها حماقةً وإجرامًا بحق الطفل. سمعته والدتي بأعمق إجلال، حتى السيدة ويلسون أراحت لسانها وبقيت تستمع له في صمت بينما ترتشف الخمر المخفف بالماء.

كان السيد لورانس يجلس ويُسند مرفقه على الطاولة، يلعب بلا مبالاة بزجاجة نبيذ نصف فارغة، ويبتسم بشكل خفي لنفسه، عندما استغل لحظات توقف الرجل عن حديثه المطوّل وقال:

«لكن ألا ترى يا سيد ميلوارد أنه عندما ينشأ الطفل في بيئة تعاني من مشكلة الإفراط في شرب الكحول بالنسبة إلى والديه على سبيل المثال، لا بد من وضع بعض الاحتياطات؟» (الآن اعتقدَ الجميع أن والد السيد لورانس قد قصّر أيامه بسبب ذلك).

«لا بأس ببعض الاحتياطات، لكن الاعتدال يا سيدي شيء والزهد شيء آخر».

«لكنني سمعت أن الاعتدال ـ أيّ اعتدال ـ يكاد يكون مستحيلًا مع بعض الأشخاص، وإذا كان التقشف سيئاً (البعض يرى ذلك)، فلن ينكر أحد أن الإفراط أعظم سوءًا. يمنع بعض الآباء أطفالهم تمامًا من تذوق المشروبات الكحولية المسكرة، لكن سلطة الوالدين لا تستمر إلى الأبد، يميل الأطفال بشكل طبيعي إلى الانجذاب إلى الأشياء الممنوعة، والطفل في مثل هذه الحالة من المحتمل أن يكون لديه فضول قوي للتذوق وتجريب تأثير ما أُشيدَ وتُمُتِّع به من قبل الآخرين، لذا إرضاء الفضول سيكون ممتعًا في أول فرصة تتاح له، وبمجرد كسر ضبط النفس قد يترتب على ذلك عواقبُ وخيمة. لا أدّعي أنني خبير في مثل هذه الأمور، لكن يبدو لي أن خطة السيدة غراهام هذه، كما تصفها السيدة ماركهام، على الرغم من كونها استثنائية فإنها لا تخلو من مزاياها، لأنكم هنا ترون أن الطفل خرج من رَحِم التجربة، ليس لديه فضول خفي، ولا رغبة ملحّة، إنه على دراية بالمشروبات الكحولية المغرية، ويشعر بالاشمئزاز منها دون حاجة إلى أن يعاني من آثارها».

«وهل تعتبر هذا تصرّفًا حكيمًا يا سيدي؟ ألم أثبت لك كم هو مخطئ وإلى أي مدًى يتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس والعقل؟ تعليم الطفل

على النظر بازدراء واشمئزاز إلى بركات العناية الإلهية بدلاً من استخدامها بطريقة صحيحة؟».

أجاب السيد لورانس مبتسماً: «يمكنك اعتبار الأفيون أيضاً نعمة إلهية يا سيدي، ومع ذلك سوف تشجعنا على الامتناع عنه، حتى إن كنا معتدلين في استخدامه، لكن أرجوك لا تعتمد على تشبيهاتي في حين أرتشف كأسي».

قالت والدتي وهي تدفع الزجاجة تجاهه: «وآمل أن تحتسي كأساً أخرى يا سيد لورانس».

رفض بأدب ودفع كرسيه بعيدًا قليلاً عن الطاولة وانحنى نحوي ـ كنت جالسًا في الخلف على الأريكة بجانب إليزا ميلوارد ـ وسألني بلا مبالاة إذا كنت أعرف السيدة غراهام.

أجبته: «لقد التقيتها مرةً أو مرتين».

«ما رأيك فيها؟».

«لا أستطيع أن أقول إنني أستلطفها كثيرًا. إنها بلا شك جميلة ـ أو بالأحرى يجب أن أقول مميزة ومثيرة للاهتمام ـ من حيث مظهرها، ولكنها ليست ودودة بأي حال من الأحوال، امرأة تحمل تحيّزاتٍ قوية وتتمسك بها بإصرار يجعلها تلوي كل شيء ليتوافق مع آرائها الصعبة والحادة للغاية، بل والمريرة بالنسبة إلى ذوقي».

لم يرد على كلامي، لكنه نظر إلى الأسفل وهو يعض شفته، ثم بعد فترة وجيزة نهض وانطلق إلى الآنسة ويلسون التي كان انجذابها لي بقدر لا مبالاتي بها، بالطبع لم أكن قد انتبهت في ذلك الوقت، ولكن بعد ذلك دُفعت إلى تذكر هذه الحقائق وغيرها من الحقائق التافهة ذات الطبيعة المماثلة.

اختتمنا الأمسية بالرقص ـ اعتقد السيد القس أنه لا خطأ في حضور مناسبات كهذه، وأشعل أحد موسيقيي القرية جو الحفل بعزفه الرائع على

الكمان. ماري ميلوارد رفضت بعنادٍ الانضمام إلينا، وكذلك فعل ريتشارد ويلسون، على الرغم من أن والدتي ناشدته مراراً أن يفعل، بل وعرضت أن تكون شريكته في الرقص.

بالنسبة إلينا نجحنا في قضاء وقت ممتع بالعديد من الرقصات الريفية التي واصلناها إلى ساعة متأخرة، ثم طلبنا منه عزف موسيقى الفالس، كنت على وشك الدوران حول إليزا في تلك الرقصة الرائقة، برفقة لورانس وجين ويلسون، وفيرغوس وروز، عندما باغتنا السيد ميلوارد: «لا. لا أسمح بذلك! هيا يا إليزا، حان وقت الذهاب».

«أوه، لا أبي!»، توسلته إليزا.

«حان الوقت يا فتاتي، حان الوقت! لا بد من الاعتدال في كل شيء، تذكري هذا، اجعلي اعتدالكِ واضحاً لجميع الرجال!».

لكن كنوع من الانتقام تبعتُ إليزا إلى الممر ذي الإضاءة الخافتة حيث ـ بحجة مساعدتها في ارتداء شالها ـ لا بد أن أعترف أنني شعرت بالذنب لانتزاع قبلةٍ من خلف ظهر والدها، حين كان يلفّ حلقه وذقنه في طيّاتِ لحافه الكبير. لكن للأسف كانت والدتي قريبةً وانتبهت لذلك، وكانت النتيجة أنه بمجرد أن غادرَ الضيوفُ بادرتني باحتجاجٍ غاضب للغاية قائلةً: «عزيزي غيلبرت، أتمنى ألا تفعل ذلك مجدداً! أنت تعرف مدى عمق محبّتك في قلبي، وكيف أراكَ أعلى من أي شيء آخر في العالم وأتوق إلى رؤيتك مستقرًّا في الحياة، وسأحزن بمرارة إن رأيتك متزوّجًا من تلك الفتاة ـ أو أيّ فتاةٍ أخرى من هنا. لا أعرف ما الذي تراه فيها. لا أتحدث عن نقص المال فقط ـ لا شيء من هذا القبيل ـ ولكن الفتاة لا تملك أي مقومات جمال أو ذكاء أو خير أو أي شيء آخر مرغوب فيه. إذا كنت تعرف قيمة ذاتك كما أعرفها فلن تختارها. انتظر قليلاً وانظر حولك. إذا ارتبطْتَ بها فسوف تُوَرَّط طوال حياتك وتندم أشد الندم عندما تنظر حولك وترى ما أكثر وجود ما هو أفضل. خذ بكلامي».

«حسنًا يا أمي، اهدئي، أكره تلقّي المحاضرات. لم أقل إنني سأتزوجها، لكن ألا أستمتع بحياتي على الإطلاق؟».

«استمتع بحياتك يا ابنيَ العزيز، ولكن ليس بهذه الطريقة. في الواقع لا يليق بك أن تفعل مثل هذه التصرفات، ثم إنك ستظلم الفتاة إذا كانت كما يليق بها أن تكون، لكنني أؤكد لك أنها بارعة وستُوَرط في فخاخها قبل أن تصل إليك. تأكد أنك إذا تزوجتها يا غيلبرت فسوف تحطم قلبي، لذلك ضع نهاية لهذا الأمر».

قلت: «حسنًا، لا تبكي يا أمي»، كانت الدموع تنهمر من عينيها وهي تتحدث. «هاكِ، دعي هذه القبلة تطمس تلك التي أعطيتها إليزا، لا تسيئي معاملتها ولا تشغلي بالك بعد الآن لأنني أعدك بالتفكير مرتين قبل اتخاذ أي خطوة مهمة لا توافقين عليها».

وهكذا أشعلتُ شمعتي ودخلتُ فراشِيَ بروح منطفئة للغاية.

الفصل الخامس

كنا نقترب من نهاية الشهر عندما استسلمت لإلحاح روز ومرافقتها في زيارتها للسيدة غراهام. لدهشتنا دخلنا إلى غرفة حيث كان أول شيء يقابلنا هو حامل لوحات الرسم، مع طاولة بجانبه تتكوم عليها لفائف من قماش الكانفاس، وزجاجات من الزيت والورنيش، وألواح وفرش ودهانات وما إلى ذلك. كانت على الحائط عدة رسومات تخطيطية في مراحلَ مختلفة من التنفيذ، بالإضافة إلى عدد من اللوحات المكتملة ـ معظمها تتناول المناظر الطبيعية.

قالت السيدة غراهام: «مُضطرة إلى أن أرحب بكم في الأستوديو الخاص بي، لأن لا نار في المدفأة في غرفة الجلوس اليوم والطقس بارد جدًّا».

قامت بسحب كرسيَّيْن من الخشب من بين الأغراض المهملة، وطلبت منا الجلوس ثم استأنفت مكانها بجانب حامل اللوحات ـ لم تكن في مواجهته بالضبط، ولكن بين الحين والآخر أثناء حديثها كانت تعود للنظر إلى اللوحة، وتضيف عليها لمسة عَرَضية بفرشتها، كما لو أنها وجدت أنه من المستحيل فصل انتباهها تمامًا عن مهنتها لتركيزها على ضيوفها. كانت اللوحة لقصر وايلدفيل كما يُرى في الصباح الباكر من الحقل، تشمخ في ارتفاع داكن قبالة سماء زرقاء فضية صافية، مع وجود خطوط حُمْرٍ قليلة في الأفق مرسومة بأناقة باهرة.

«أرى أن قلبك في عملك سيدة غراهام، أرجوكِ واصلي ما تفعلينه، لأنه إذا كان وجودنا يقاطعكِ بأي شكل، فسنضطر إلى اعتبار أنفسنا متسللين غير مرحب بهم».

«أوه، لا!»، ردت وهي ترمي بفرشتها على الطاولة كأنها مندهشة: «أنا لست محوطةً عادةً بالزوار، لكن يمكنني بسهولة تخصيص بضع دقائق للقلة الذين يستلطفون رفقتي».

«أرى أنكِ أوشكتِ على الانتهاء من لوحتكِ»، قلت وأنا أقترب لتأملها من كثب وإسباغ مزيد من الثناء عليها. «بضع لمسات أخرى في المقدمة ستنهيها على ما أعتقد. ولكن لماذا أطلقت عليها اسم كمبرلاند بدلاً من وايلدفيل»، سألتها في إشارة إلى الاسم أسفل اللوحة.

لكن على الفور شعرت أنني كنت وقحًا لأنها شخصية ملونة ومترددة. ولكن بعد فترة صمت وبنوع من الصراحة اليائسة أجابت: «لأن لدي أصدقاء ـ أو معارف ـ أرغب في إخفاء مكان إقامتي الحالي عنهم، ولمّا كانوا قد يرون اللوحة وربما حينها يتعرفون النمط على الرغم من الأحرف الأولى الزائفة التي وضعتها في الزاوية، فإنني أتخذ الاحتياطات اللازمة لإعطاء اسم مزيف للمكان أيضًا، في حال حاولوا اقتفاء أثري».

«إذن أنت لا تنوين الاحتفاظ باللوحة؟»، قلت حرصاً على قول أي شيء لتغيير الموضوع.

«لا، أنا لا أرسم من أجل تسلية نفسي».

قال آرثر: «ماما ترسل كل لوحاتها إلى لندن، ويوجد شخص ما يبيعها لها هناك ويرسل لنا المال».

عند النظر إلى القطع الأخرى لاحظتُ رسمًا جميلًا للكنيسة من أعلى التل، منظرٌ آخر للقصر القديم ينعم بالضباب المشمس بعد ظهر صيف هادئ، ولوحة صغيرة بسيطة ولكنها لافتة للنظر لطفل يحتضن بنظرات صامتة حفنة من الزهور الذابلة بعينين حزينتين مع لمحات من التلال الداكنة والحقول الخريفية خلفه، وسماء باهتة فوقه.

قالت الفنانة الفاتنة: «أدرك ندرة المواضيع في لوحاتي، فقد رسمت

القصر القديم في ليلة مظلمة، أود أن أرسمه مرة أخرى في نهار ثلجي أيضاً، ثم مرة أخرى في أمسية غائمة، لأنني حقًا ليس لدي أي شيء آخر أرسمه. لقد قيل لي إن هناك إطلالة رائعة على البحر في مكان ما في هذه المنطقة. هل هذا صحيح؟ وهل هو على مسافة قريبة؟».

«نعم. إذا كنتِ لا تمانعين المشي لمسافة أربعة أميال تقريبًا، أي ما مجموعه ثمانية أميال ذهابًا وإيابًا، وعلى طريق وعرة إلى حد ما ومرهقة».

«في أي اتجاه؟».

وصفت لها الطريق قدر استطاعتي، شارحًا المسارات والحقول التي يجب اجتيازها للوصول، المسار المستقيم، الانعطاف إلى اليمين ثم إلى اليسار، واستوقفتني قائلة:

«توقف! لا تخبرني بكل هذا الآن: سوف أنسى كل كلمة من توجيهاتك قبل أن تكملها. بكل حال لا أفكر في الذهاب قبل حلول الربيع، وحينها ربما أزعجك. في الوقت الحاضر أمامنا الشتاء، و..».

توقفت فجأة وعلت وجهها علامة تعجب مكبوتة، نهضت من مقعدها بتوتر قائلة: «اسمحوا لي للحظة»، أسرعت خارجة من الغرفة وأغلقت الباب خلفها.

بدافع الفضول لرؤية ما أذهلها نظرت نحو النافذة ـ لأن عينيها كانتا مثبتتين عليها في اللحظة السابقة ـ رأيت جزءًا من معطف رجل تلاشى خلف شُجَيرة كبيرة بين النافذة والشرفة.

قال آرثر: «إنه صديق ماما». نظرت أنا وروز بعضنا إلى بعض: «لا أعرف بمَ أصفها»، همست روز، نظر إليها الطفل باندهاش فبدأت على الفور في التحدث إليه بشأن أمور عشوائية، في حين كنت أستمتع بتأمل اللوحات، أثارت انتباهي لوحة لم ألحظها كانت مركونة في زاوية بعيدة. كانت عبارة عن طفل صغير جالس على العشب ويحتضن باقة من الزهور. الملامح

الطفولية والعيون الزرق الكبيرة المبتسمة والشعر الأشقر المجعد والمنسدل على الجبهة، تحمل تشابهًا كافيًا مع تلك الخاصة بالصغير الجالس أمامي لتؤكد بالتالي أنها صورة آرثر غراهام في طفولته المبكرة.

أثناء رفع هذه اللوحة لتأملها من قرب، اكتشفتُ وجود لوحة أخرى خلفها موجهة للحائط فغامرتُ بسحبها أيضًا. كانت لوحة بورتريه لرجل نبيل ووسيم في ريعان شبابه، نُفِّذَت بشكل جيد، لكن من الواضح أن عمر هذه اللوحة بضع سنين ـ إن كانت قد رُسمت بذات اليد ـ لأنه كان هناك الكثير من التركيز في التفاصيل، وانتعاشٌ أقل في الألوان وحرية التعامل معها، والتي أدهشتني في اللوحات الجديدة. مسحتُ الغبار عنها باهتمام كبير، كانت شخصية مميزة الملامح والتعبير، نظرة العيون الزرق تحدق إلى المتفرج بنوع من السخرية الكامنة، بحيث تُشعرك أنها ستغمز لك بأي لحظة. بدت الشفتان ـ المكتنزتان قليلًا ـ على استعداد للابتسام، وأُحِيطَت الخدود ذات الألوان الدافئة بلحية غزيرة من شعيرات ضاربة إلى الحمرة، في حين أن الشعر الكستنائي المجعد واللامع كان يغطي جزءًا كبيرًا من الجبهة، بدا كأنه يشير إلى أن صاحبه كان أفخر بوسامته من عقله ـ ربما كان لديه سبب لذلك ـ ومع ذلك لم يكن يبدو أحمقَ.

كنت قد أعدت اللوحة لمكانها قبل دقيقتين من عودة الفنانة.

قالت معتذرةً عن رحيلها المفاجئ: «كان شخصٌ جاء بخصوص اللوحات، طلبتُ منه الانتظار».

قلت: «أخشى أن يُعتبر ذلك وقاحةً مني، لكن أخشى أنني اطّلعتُ على لوحةٍ وجّهتها الفنانة إلى الحائط، هل لي أن أسأل...».

«بل هو عمل بالغ الوقاحة يا سيدي، ولذلك أرجو عدم سؤالي شيئًا عن ذلك لأن فضولكم ليس لائقًا، أجابت محاولةً تغطية حِدّة توبيخها بابتسامة، لكنني استطعتُ أن أرى من خلال خدها المتوهج وعينها اللامعة أنها كانت منزعجة للغاية.

«كنت سأسأل فقط ما إذا كنتِ أنتِ من رسمتِها»، قلت وأنا أستسلم لانتزاعها للّوحة من يدي بقوة وإعادتها إلى الزاوية المظلمة وتوجيهها إلى الحائط، ووضع الأخرى أمامها كما كانت من قبل. بعدها التفتت إلي وهي تبتسم، لكنني لم أكن في مِزاجٍ يسمح لي بالتبسم، التفتُّ إلى النافذة بلا مبالاة ووقفت متأملًا الحديقة المهجورة وتاركًا إياها للتحدث مع روز لمدة دقيقة أو دقيقتين. بعد ذلك أخبرت شقيقتي أن الوقت قد حان للمغادرة، صافحت السيد الصغير وانحنيت بهدوء لتحية السيدة ومشيت نحو الباب. بعد أن ودعت روز، قرّبت السيدة غراهام يدها إليّ قائلة بصوت ناعم وابتسامة صادقة: «لا تَدَعِ الشمسَ تغرب وأنت غاضب يا سيد ماركهام. أعتذر عن إساءتي».

عندما تتنازل سيدة لتقديم اعتذار، يعود لا يكون هناك داعٍ إلى الاستياء بالطبع، وعليه افترقنا ونحن أصدقاء مجددًا، وهذه المرة ضغطّتُ على يدها بشكل ودّي وليس حاقدًا.

الفصل السادس

خلال الأشهر الأربعة التالية لم أدخل منزل السيدة غراهام، لكن السيدات واصلن الحديث عنها وبقي تعارفنا مستمرًا وإن كان يتقدم ببطء. أما بالنسبة إلى محادثاتهن، فقد كنت قليل الانتباه والاهتمام (ما عدا عندما يتعلق الأمر بالفاتنة الانطوائية)، والمعلومات الوحيدة التي استخلصتها عنها أنها غامرت في أحدى الأيام الباردة الجميلة بأخذ طفلها الصغير إلى منزل القس، لسوء الحظ لم يكن أحد في المنزل إلا الآنسة ماري ميلوارد، ومع ذلك فقد جلست معها وتبادلتا الأحاديث لوقت طويل وتوادعتا برغبة مشتركة في الالتقاء مرة أخرى، كانت ماري تحب الأطفال والأمهات اللائي يقدّرن كنوزهن على النحو المشابه للسيدة غراهام.

صادفتها أنا أيضًا في عدد من المرات خلال هذه المدة، ليس فقط في الكنيسة، بل أيضاً عندما كانت تتنزه في الخارج على التلال برفقة ابنها، أحيانًا كانت تتمشى لمسافات طويلة، وأحيانًا أخرى في الأيام الرائقة تتجول على مهل في المراعي المحيطة بالقصر القديم وهي تحمل كتابًا في يدها وابنها يتقافز حولها. في كل مناسبة من هذه المناسبات كنتُ عندما ألمحها في جولاتي المنفردة أو أثناء متابعة أعمالي الزراعية أبتكر أفكارًا لمقابلتها لأنني أحببت لقائها وتبادل الحديث معها، وأحببت مرافقها الصغير الذي اكتشفت أنه ـ عندما انكسر جليد خجله مني بعض الشيء ـ صديقٌ لطيف وذكي وممتع للغاية، لذلك كان من المنطقي أن نصبح أصدقاء مقربين. لا يمكنني هنا معرفة تقبّل أو مدى رضى والدته عن ذلك، كنت أشعر في البداية أنها كانت ترغب

في إلقاء الماء البارد على هذه العلاقة الآخذة في التبلور لإخماد شعلتها، ولكنها اكتشفت على الرغم من تحيزها ضدي أنني حَسَنُ النية وغير مؤذٍ، وأن ابنها قد استمدّ قَدْرًا كبيرًا من المتعة من صداقته بي وبكلبي، وبالنتيجة توقفت عن الاعتراض بل وأصبحت ترحّب بمجيئي بابتسامة.

أما بالنسبة إلى آرثر فقد كان يصرخ بحماسةٍ مرحِّبًا بي عندما يلمحني من بعيد، ويركض لمقابلتي من على بعد خمسين ياردة من جانب والدته. إذا كنتُ على ظهر حصاني كان متأكدًا من أنه سيحصل على نزهةٍ برفقتي، وإذا كان معي أحد خيول الجر ضمن المسافة المتاحة كنت أثبّته على ظهره للنزهة أيضًا، لكن والدته كانت تتبعه دائمًا وتمشي بجانبه، ليس على ما أعتقد لضمان سلوكه اللائق بقَدْر ما أشعر أنه للتأكد من أنني لا أغرس أي أفكار غير مرغوب فيها في عقله، لأنها كانت دائمًا تراقبه ولا تسمح له مطلقًا بالابتعاد عن نطاق نظرها. أكثر ما يسعدها هو رؤيته يتجول ويتسابق مع سانشو، في حين كنت أسير بجانبها ـ ليس استمتاعاً برفقتها ـ (على الرغم من أنني كنت أخدع نفسي أحيانًا بهذه الفكرة)، بقدر ما كان من أجل خلق تلك البهجة التي تغمرها عند رؤية ابنها غارقًا في الاستمتاع بتلك الرياضات التي تنعش كائنًا رقيقًا مثله، ومع ذلك كانت نادرًا ما تفعل ذلك بسبب عدم وجود رفقاء لعب مقاربين لسنّه. بالإضافة إلى أن وجودها خلال ذلك كله كان يُطمئنها إلى أنني غير قادر على إلحاق أي ضرر به بشكل مباشر أو غير مباشر، عن قصد أو غير ذلك، والفضل طبعًا يعود لها في ذلك.

لكن أعتقد أنها كانت في بعض الأحيان تستمتع بالتحدث معي، ففي صباح أحد أيام فبراير المشرقة وخلال نزهة لمدة عشرين دقيقة على ضفة المستنقع، وضعت جانبًا تحفظها المعتاد ودخلت في نقاش ممتع معي، تحدثت بالكثير من البلاغة وعمق التفكير وكانت متفقة مع آرائي فيما يتعلق بالموضوع المثار. كان الأمر جميلًا لدرجة أنني عدت إلى المنزل مسحورًا،

وفي الطريق وجدت نفسي أفكر أنه ربما يجدر بي قضاء أوقات أكثر مع هذه المرأة بدلًا من إليزا ميلوارد، ثم أخجل من نفسي بسبب تقلباتي.

عند دخولي الصالون وجدت إليزا جالسة مع روز، لم تكن المفاجأة مفرحة لي كما كان ينبغي أن تكون. تجاذبنا أطراف الحديث لفترة، وجدتها تافهة مقارنة بالسيدة غراهام الأنضج والأكثر جِدّيةً.

قلت في نفسي: «لن يمكنني الزواج بإليزا لأن والدتي تعارض ذلك بشدة، وليس من الصواب ترك الفتاة تعتقد أنني أنوي القيام بذلك. حسنًا، إذا استمر مزاجي بهذا الشكل العقلاني فلن أجد صعوبة في تحرير عواطفي من نفوذها الناعم، وعلى الرغم من أن السيدة غراهام قد تكون مرفوضة بنفس القدر، فقد يُسمح لي، كما يقول الأطباء، أن أدفع ضررًا أكبر بضرر أقل، ذلك أنني لا أرى نفسي أقع في حب الأرملة الشابة، ومؤكد أنها لن تفعل ذلك أيضًا. لكن إذا كانت هناك بعض المتعة في رفقتها، فقد يُسمح لي بالسعي إليها دون شك، وإذا كان نجمها ساطعًا بما يكفي لإخفاء بريق إليزا، فهذا أفضل، لكنني بالكاد أستطيع التفكير في إمكانية تحقق ذلك».

بعد ذلك اليوم، نادرًا ما أمضيتُ يومًا رائعًا دون أن أزور وايلدفيل حول الوقت الذي كانت تخرج فيه من صومعتها، في كثير من الأحيان كنت أشعر بالصدمة والتشوش حيث كانت تغير باستمرار أوقات خروجها والأماكن التي ترتادها، لذلك كانت اللمحات العرضية التي تمكنت من الحصول عليها عابرةً لدرجة أنني شعرت بأنها كانت تبذل الكثير من الجهد لتجنّب الالتقاء بي، بقدر ما كنت أسعى إلى الالتقاء بها، لكن هذا كان افتراضًا بغيضًا جدًّا محوته من تفكيري بعد لحظة. مع ذلك، في يوم هادئ وصافٍ من شهر آذار (مارس)، وبينما كنتُ أشرف على العمل في المروج، وإصلاح سياج في الوادي، رأيت السيدة غراهام على ضفة النهر وبيدها كراسة تخطيط، منغمسة في ممارسة فنّها المفضل، في حين كان آرثر بالقرب منها يقضي وقته في

بناء السدود وحواجز الأمواج في التيار الصخري الضحل. كنت في حاجة ماسة إلى هذه المتعة، لا يمكن إهمال فرصة نادرة كهذه، وعليه تركت المرج والسياج وسرعان ما كنت أقترب من المكان، ولكن ليس قبل سانشو الذي فور إدراكه لوجود صديقه آرثر جاب المكان راكضًا بفرح عارم وانقضّ عليه بتهور دفع الطفل تقريبًا في منتصف الغدير، ولكن لحسن الحظ حالت الحجارة دون حدوث أي أذًى خطير.

كانت السيدة غراهام تدرس السمات المميزة لمختلِف أنواع الأشجار في عُريّها الشتوي وتنسخ تشعباتها المختلفة بلمساتها الحماسية التي لا تخلو من الرهافة. لم تتكلم كثيرًا، لكنني وقفت لأشاهد حركات قلمها، كنت أشعر بالسرور وأنا أتأملها تسترشد ببراعة بتلك الأصابع اللطيفة والرائعة. بعد فترة، بدت يدها كأنها تتردد وترتجف بعض الشيء، ثم توقفت فجأة ورفعت وجهها الضاحك قائلةً: إن إشرافي هذا لا يفيدها في رسمتها.

قلت: «إذن، سأتحدث إلى آرثر حتى انتهائك».

قال الطفل: «أود أن أركب الحصان سيد ماركهام، إذا سمحتْ لي ماما».

«ماذا يا آرثر؟».

أجاب: «هناك حصان في الحقل القريب»، مشيرًا إلى المكان الذي كانت فيه الفرس السوداء القوية مربوطة.

«لا آرثر، إنه بعيد»، اعترضت والدته.

لكنني وعدتها بإعادته سالمًا بعد دورة أو اثنتين حول المرج، وعندما نظرتْ إلى وجهه المتلهف ابتسمتْ وسمحتْ له بذلك. كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمح لي فيها بأخذه إلى مسافة تصل إلى حدود نصف حقل. متوَّجًا برضًا وحماسة على فرسه، كان يتقدم ويصعد ويهبط في الحقل الواسع والمنحدر. ومع ذلك، سَرعان ما انتهت النزهة وترجّل الفارس الشجاع وأعدته إلى والدته التي بدت نوعًا ما مستاءة من إبقائي

له فترةً طويلة. كانت قد أغلقت كرّاستها وربما كانت تنتظر عودته منذ فترة بفارغ الصبر.

قالت إنه قد حان الوقت الآن للعودة إلى المنزل، وكان من المتوقع أن تُتبعها بـ«طاب مساؤك»، لكنني لم أكن أنوي تركها بعد، لذلك رافقتها إلى أعلى التل. تدريجيًا، أصبحتْ أكثر استرخاءً وسرورًا، ولكن عند اقترابنا من القصر القديم الكئيب، وقفت بثبات واستدارت نحوي وهي تقول ـ كما لو كانت تطلب مني ألا أتقدم أكثر من ذلك ـ أن المحادثة تنتهي هنا ويجب أن أغادر الآن. في الواقع، كان الوقت فعلًا قد تأخر، لأن الأمسيّة الصافية كانت تتراجع، والشمس تغرب، والقمر المحدّب يضيء بشكل واضح في السماء الرمادية الباهتة، مع هذا غمرني شعور بالشفقة الصادقة تجاهها كاد أن يخرج مني، بدا من الصعب وعدم الإنصاف تركها وحيدة في منزل منعزل وغير مريح كهذا. تأمّلتُه مجدّدًا، صامتًا وقاتمًا وعابسًا أمامنا. كان ضوءٌ أحمرُ خافتٌ يتلألأ من خلف نوافذ إحدى الغرف، لكن جميع النوافذ الأخرى كانت مظلمة ودون إطار أو زجاج.

«ألا تجدينه مكانًا مقفرًا للعيش فيه؟»، سألتها بعد لحظة من التأمل الصامت.

أجابت: «أفعل أحيانًا، خاصة في أمسيّات الشتاء، عندما يكون آرثر في الفراش، وأنا جالسة هناك وحيدة أصغي لعواء الرياح القاتمة من حولي وهي تعبر الغرف القديمة، لا يمكن لأي كتاب أو إلهاء أن يكبح الأفكار المخيفة الكئيبة التي تزدحم في عقلي حينها، لكنني متيقنة أنه من الحماقة إفساح المجال لمثل هذا الضعف. إذا كانت ريتشيل راضية عن مثل هذه الحياة فلماذا لا أفعل ذلك؟ ـ في الواقع، لا يمكنني أن أكون ممتنة بشكل كافٍ لهذا اللجوء».

نطقتْ العبارة الأخيرة بنبرة خافتة كما لو كانت تتحدث إلى نفسها، ثم تمنّت لي ليلة سعيدة وانسحبت.

في طريقي إلى المنزل، رأيتُ السيد لورانس على حصانه الرمادي الجميل صاعدًا الممر الوعر الذي يعبر قمة التل. خرجت قليلًا عن طريقي للتحدث معه، لأننا لم نلتقِ منذ فترة.

«هل كانت تلك السيدة غراهام التي تحدثت إليها للتو؟»، قال بعد تبادل التحايا.

«نعم».

«آها! اعتقدْتُ ذلك». نَظَر بتأمل إلى عُرف حصانه كما لو كان لديه سبب لعدم الرضا عنه، أو عن أي شيء آخر.

«و...؟ ماذا بعد؟».

«لا شيء! اعتقدتُ فقط أنك تكرهها»، أجاب بهدوء وهو يقلب شفته بابتسامة ساخرة.

«فلنفترض أنني فعلت، ألا يمكن للرجل أن يغير رأيه بعد التعارف؟».

«نعم بالطبع»، عاد ليقلِّلِ التشابكَ في عُرف الحصان ثم استدار نحوي فجأة وهو ينظر إليّ بعينيه الخجولتين العسليتين بنظرة ثاقبة وأضاف: «إذن، هل غيرتَ رأيك؟».

«لا أستطيع أن أقول إنني فعلتُ تمامًا. أعتقد أنني ما زلت أحمل نفس الرأي الذي كنت أحمله من قبل ـ ولكنه تحسّن قليلًا».

«أوه!»، نظر حوله بحثًا عن موضوع آخر لتغيير الحديث، تحدث عن جمال القمر في تلك الأمسيّة ـ محاولاً جعل الأمر يبدو غير مهمٍّ ـ، فلم أجبه عن ذلك.

قلت وأنا أنظر إلى وجهه بهدوء: «لورانس، هل أنت مغرم بالسيدة غراهام؟».

وبدلًا من أن يشعر بالإهانة الشديدة كما كنتُ أتوقع، كانت بداية المفاجأة

في السؤال الجريء الذي ألقاه متبوعًا بضحكة مريرة كما لو كان ملتذًّا بالفكرة بحد ذاتها.

«أحبها؟ ما الذي يجعلك تتخيل أمرًا كهذا؟».

«بسبب الاهتمام الذي تسبغه على موضوع تطور علاقتي بالسيدة وتغيير رأيي بشأنها، أعتقد أنك تغار».

ضحك مرةً أخرى. «أغار؟ لا. لكنني اعتقدتُ أنك ستتزوج إليزا ميلوارد».

«اعتقادٌ خاطئ. لن أتزوج هذه أو تلك».

«إذن أعتقد أنه من الأفضل ترك الاثنتين وشأنهما».

«هل ستتزوج جين ويلسون؟».

قررتُ اللعب معه بنفس الأسلوب، فأجاب: «لا. لا أعتقد ذلك».

«إذن من الأفضل أن تتركها وشأنها».

أظن أنني سمعته يقول: «هي لن تتركني وشأني»، بدا سخيفًا ولم يقل شيئًا لمدة نصف دقيقة، ثم حاولَ مرةً أخرى قَلْبَ المحادثة، لكنني وهذه المرة تركتها تمر لأنه تحمّل ما يكفي: كلمة أخرى في هذا الموضوع ستكون مثل القشة الأخيرة التي تقصم ظهر البعير.

كان موعد تناول الشاي قد انقضى، لكن والدتي كانت قد أبقت لي إبريقًا من الشاي والكعك دافئًا على الموقد، وعلى الرغم من أنها وبّختني قليلًا فإنها قَبِلت على الفور اعتذاري، وعندما اشتكيت من نكهة الشاي المكشوف سَكَبَتْه في الحوض وحضّرت لي روز شايًا طازجًا متبوعًا ببعض الملاطفات الممتعة.

«حسنًا! لو كنت أنا، ما كانت لتسمح لي بتناول الشاي على الإطلاق، لو كان فيرغوس، عليه أن يتناول الموجود وبامتنان لأنه أكثر مما يستحق. لكن لا يمكننا فعل الكثير عندما يتعلق الأمر بك. الأمر هكذا دائمًا ـ إذا كان هناك أي شيء لذيذ بشكل خاص على المائدة، تغمز لي ماما وتومئ لأمتنع عن

تناوله، وإذا لم أنتبه تهمس: «لا تأكلي الكثير من ذلك روز، غيلبرت يحبه على عشائه، وفي الصالون: إنه قادم يا روز، أبعدي أشياءَكِ ولْنَجْعَلِ الغرفةَ لطيفةً ومرتبة، وأشعلي نارًا جيدة. غيلبرت يحب النار القوية». في المطبخ: «اجعلي تلك الفطيرة كبيرة يا روز، أشعر بأن الأولاد سيكونون جائعين، لا تضيفي الكثير من الفلفل إذ لن يعجبهم ذلك». أو «روز، لا تضعي الكثير من التوابل في البودينغ، غيلبرت يحبه معتدلًا». أو: «أكثري من الزبيب في الكعكة، فيرغوس يحب ذلك كثيرًا»، فإذا قلتُ: «حسنًا ماما، لكن أنا لا أحبه»، تقول لي إنه ليس من المهم أن أفكر في نفسي: «أنتِ تعلمين يا روز أنه فيما يتعلق بالشؤون المنزلية، هناك أمران يجب مراعاتهما، أولًا: ما هو التصرف الصحيح الذي يجب القيام به، وثانيًا: ما هو الأكثر قَبُولًا وتفضيلًا لسادة المنزل. بالنسبة إلى السيدات، فأي شيء يفي بالغرض».

قالت أمي: «إنها عقيدة جيدة جدًّا أيضًا. أنا متأكدة أن غيلبرت يعتقد ذلك».

قلتُ: «عقيدة مناسبة جدًّا لنا في جميع الأحوال، ولكن إذا كنتِ تريدين سعادتي حقًّا يا أمي، يجب أن تفكري في راحتك أكثر قليلًا مما تفعلين ـ بالنسبة إلى روز ليس لدي شك في أنها ستعتني بنفسها، وكلما قامت بعمل رائع ومخلص، ستحرص على إخباري بذلك. لكن بالنسبة إليكِ فأنتِ تُغرقينَنِي في أسوأ حالة من الانغماس في الذات وإهمال رغبات الآخرين بسبب اعتنائكِ المستمر بي إلى الآن، وتوفير وتنفيذ كل احتياجاتي وتوقعاتي على الفور. لو أن روز لم تنوّرني بين الحين والآخر لكنتُ في جهل تام، أحب تلقّي لطفك البالغ بالطبع ولا أتخيل أبدًا كم أنا مدين لك أمي».

«آه! ولن تعرف يا غيلبرت حتى تتزوج. بعد ذلك، عندما تكون لديك فتاة تافهة ومغرورة بنفسها مثل إليزا ميلوارد التي لا تهتم بشيء سوى متعها الخاصة، أو امرأة مضللة وعنيدة مثل السيدة غراهام، تجهل واجباتها الأساسية وتفكر فقط في ما يقلقها ـ عندها ستدرك الفرق».

«ستفيدني يا أمي، لم آتِ إلى العالم لمجرد ممارسة القدرات الجيدة والمشاعر الطيبة للآخرين ـ أليس كذلك؟ ـ بل لأبذل جهدي تُجاههم. عندما أتزوج أشعر أنني سأجد متعةً أكبر في إسعاد زوجتي والحرص على راحتها، أكثر من أن تفعل هي ذلك لي، أشعر أنني سأفضّل العطاء على التلقّي».

«أوه! هذا كل هراء يا عزيزي. إنه مجرد حديث شاب يافع! سرعان ما ستمل من تدليل زوجتك مهما كانت ساحرة، وحينها يأتي وقت الحُكم على الأمور».

«حسنًا إذن، معنى هذا أننا علينا أن نتحمل أعباء بعضنا بعضًا».

«معناه أن تكون في مكانك الصحيح. أنت تقوم بواجبك، وهي ـ إذا كانت تستحقك ـ ستقوم بواجبها، أما فيما يتعلق بتدليلها فهو شأنك. والدك المسكين كان زوجًا جيدًا، بعد انتهاء الشهور الستة الأولى كنت على يقين أنه مستعد لفعل أي شيء لإرضائي. كان يقول دائمًا إنني زوجة صالحة وأقوم بواجبي على أكمل وجه، ولا أنكر أنه كان يفعل ذلك أيضًا. بُورِكَت روحُه، كان صارمًا ودقيقًا ودائمًا ما مدح وَجَبات العشاء التي أحضّرها، ولم يفسد أبدًا الوجبة بالتأخير ـ هذا أقل ما يمكن أن تتوقعه أي امرأة من أي رجل».

هل الأمر هكذا فعلاً يا هالفورد؟ هل هذا هو مدى الواجبات الأسرية للزوج؟ وهل زوجتك السعيدة لا تدقق أكثر من ذلك؟

الفصل السابع

بعد ذلك بأيام، في صباح مشمس معتدل، وطريّ نوعًا ما تحت القدم ـ لأن آخر تساقط للثلج تركَ وهو يودّع التلال سلسلة من الحواف الرقيقة هنا وهناك على العشب الأخضر، ولكن بجانبها كانت أزهار الربيع الصغيرة قد بدأت بالفعل تختلس النظر من بين أوراقها الرطبة، وطائر القبّرة يحلق فوقها وهو يغني للصيف، والأمل، والحب، ولكل شيء جميل. كنتُ على جانب التل مستمتعًا بهذه المسرات، في حين كنتُ أعتني برفاهيّة حملاني الصغيرة وأمهاتهم، عندما لمحت ثلاثة أشخاص قادمين من أسفل الوادي نحوي: كانوا إليزا ميلوارد، وفيرغوس، وروز، عبرتُ الحقل للقائهم. عندما أخبروني بأنهم ذاهبون إلى قصر وايلدفيل أخبرتهم أنني أود مرافقتهم وقدمت ذراعي لإليزا التي قبلَتها بسهولة بعكس أخي الذي طلبتُ منه العودة لأنني سأرافق السيدتين.

«أستميحك عذرًا؟»، صرخ. «إن السيدات هن من يرافقنني وليس العكس. جميعكم التقيتم بهذه النزيلة سواي، وعاد لا يكون بإمكاني تحمل هذا، لذلك توسلت إلى روز أن تذهب معي إلى القصر وتعرّفني عليها في الحال. أقسمت أنها لن تفعل ذلك إلا إذا رافقتنا الآنسة إليزا، فركضت إلى مقر القس وأحضرتها، وقد قطعنا الطريق كزوج من العاشقين ـ والآن تأخدها ببساطة هكذا مني وتريد أن تحرمني من نزهتي وزيارتي أيضًا؟ ارجع إلى حقلك وماشيتك أيها الأخرق، أنت لا تليق بالارتباط بالسيدات والسادة أمثالنا، الذين ليس لديهم ما يفعلونه سوى التلصص على منازل الجيران، واختلاس النظر واكتشاف أسرارهم، فأنت لا تفهم مصادر المتعة الراقية هذه».

«ألا يمكن أن نذهب جميعًا؟»، اقترحت إليزا متجاهلةً النصف الأخير من الخطاب.

«كلاهما! بالتأكيد!»، صاحت روز. «سيكون الأمر ممتعًا وأكثر مرحًا، بالتأكيد نحن بحاجة إلى كل البهجة التي يمكننا أن نحملها معنا إلى ذلك المنزل المظلم والقاتم، بنوافذه الضيقة وأثاثه القديم الكئيب ـ ما لم تستقبلنا في المرسم الخاص بها مجددًا».

بالنتيجة ذهبنا جميعًا. فتحت الخادمة العجوز الهزيلة الباب وأدخلتنا إلى غرفة قالت روز لي بأنها الغرفة التي استقبلتها فيها السيدة غراهام أول مرة، غرفة فسيحة ومؤثثة بشكل مقبول، ولكن مضاءة بشكل غامض بالنوافذ القديمة، والسقف، والألواح، والمدخنة المصنوعة من خشب البلوط الأسود القاتم ـ منحوتة بشكل متقن ولكن ليس بذوق جميل ـ مع طاولات وكراسيّ متطابقة وخزانة كتب تحتلها مجموعة متنوعة من الكتب على جانب من المدفأة، وبيانو قديم على الجانب الآخر.

كانت السيدة جالسة على كرسي صلب مرتفع الظهر وأمامها طاولة مستديرة صغيرة على جانب منها سلة عمل، وعلى جانبها الآخر طفلها الصغير الذي كان متكئًا بمرفقه على ركبتيها ويقرأ بطلاقة رائعة، حين كانت تضع يدها على كتفه وتمرر أصابعها في خصلات شعره المتموجة والمتسللة إلى رقبته العاجية. ما أدهشني هو أنهما كانا يشكّلان تباينًا رائعًا مع جميع الأشياء المحيطة، لكن بالطبع غيّرا وضعيّتهما على الفور عند دخولنا، ولم أستمتع بمشاهدة المنظر الجميل إلا لثوانٍ قليلة كانت ريتشيل تفتح فيها الباب لدخولنا.

لا أعتقد أن السيدة غراهام كانت مسرورة لرؤيتنا، كان هناك شيء بارد بشكل مزعج في لطفها الهادئ البليد، لكني لم أتحدث معها كثيرًا. جلستُ بالقرب من النافذة بعيدًا قليلًا عن الدائرة وناديت آرثر واستمتعنا بالوقت

مع سانشو حين كانت السيدات يتحدثن، وفيرغوس جالسٌ بوقاحة قبالتهن بساقين ممدودتين ويَديه في جيوب بنطاله وهو ينقل نظره بين السقف ومضيفتنا (بطريقة جعلتني أريد ركله بشدة إلى خارج الغرفة). تارةً يصفّر، تارةً أخرى يقاطع المحادثة بملاحظة وقحة أو سؤال سخيف. قال مثلًا: أنا مذهول يا سيدة غراهام، كيف أمكنك اختيار مكان قديم متهالك كهذا للعيش فيه. إذا كنتِ لا تستطيعين تحمل تكاليف منزل كبير كهذا وإصلاحه، لماذا لم تختاري كوخًا صغيرًا أنيقًا؟».

أجابت مبتسمة: «بل سعيدة جدًّا به يا سيد فيرغوس، ربما تراه منزلًا متهالكًا قديمَ الطراز، ولكن في الواقع فيه العديد من المزايا التي لن أجدها في الكوخ. أولًا، وكما ترى، الغرف أكبر وأكثر تهوية، ثانيًا: الأجنحة غير المأهولة ـ والتي لا أدفع ثمنها ـ هي بمثابة مخازن في حال احتجت إلى مكان إضافي، ثم إنها مفيدة جدًّا لطفلي للركض في الأيام الممطرة عندما لا يستطيع الخروج، ثم هناك حديقة ليلعب، وأعمل فيها. ويمكنك أن ترى أنني قمت ببعض التحسينات»، تابعت وهي تلتفت إلى النافذة. «هناك مجموعة من الخضروات الصغيرة في تلك الزاوية، وهنا يمكنك رؤية بعض بقايا الثلج وزهرة الربيع في حالة ازدهار، وهناك أيضًا زهور زعفران أصفر بدأت بالتفتّح في ضوء الشمس».

«على الرغم من ذلك، كيف يمكنك تحمل واقع أن أقرب جيرانك يبعدون عنكِ ميلين، وليس هناك أحد ينظر إلى الداخل أو يمر قربك؟ روز مثلًا لن تتحمل مكانًا كهذا، فهي لا يمكنها العيش إلا إذا رأت نصف دزينة من العباءات والقلنسوات في اليوم ـ ناهيكِ بالوجوه التي بداخلها ـ لكنكِ هنا قد تجلسين طوال يومكِ قرب النافذة دون أن تلمحي حتى امرأةً عجوزًا تحمل بيضها إلى السوق».

«الوَحدة التي تسوّد هذا المكان كانت من بين توصياتي الرئيسة. لا أستمتع بمشاهدة المارّين من النوافذ، وأحب الهدوء».

«أوه! قولي إنكِ تتمنين لو أننا نغادر ونهتم بشؤوننا الخاصة ونتركك بمفردك».

«لا. ما أقصده هو أنني شخصيًّا لا أميل إلى الانخراط في دائرة معارف واسعة النطاق، لكن عندما يكون لدي عدد من الأصدقاء فحتمًا أسعد برؤيتهم من حين إلى آخر. لا أحد يرحب بالعزلة المطلقة، وعليه، سيد فيرغوس، إذا اخترتَ دخول منزلي كصديق فسأرحب بك دون شك. أما إذا لم يكن الأمر كذلك، لا بد لي من الاعتراف أنني أفضّل أن تبقى بعيدًا». ثم التفتت إلى روز أو إليزا لمواصلة أحاديثهن.

«سيدة غراهام» ـ عاد فيرغوس للتحدث إليها مرةً أخرى بعد خمس دقائق ـ «كنا نتجادل في طريقنا إلى هنا عن أمر يتعلق بكِ بشكل أساسي، وفي الواقع غالبًا ما نجري مناقشات حولك، فبالنسبة إلى بعضنا ليس لديه ما يفعله أفضل من التحدث عن الجيران، وجميعنا يعرف بعضنا بعضًا منذ فترة طويلة، وتحدثنا بالفعل كثيرًا لدرجة أننا سئمنا من نفس الأحاديث، ليأتي شخص غريب ويقدم لنا على طبق من ذهب إضافة لا تقدر بثمن لمصادر التسلية التي باتت مستهلَكة. حسنًا، السؤال أو الأسئلة التي مطالَبةٌ أنتِ بالإجابة عنها...».

«اخرس يا فيرغوس!»، صرخت فيه روز بغضب وتخوّف واضح.

«لن أفعل. الأسئلة هي: أولًا: فيما يتعلق بميلادك ومحل إقامتك السابق، يقول البعض إنك أجنبية والبعض الآخر إنجليزية. البعض يقول إنكِ من الشمال والبعض من الجنوب. البعض يقول...».

«حسنًا سيد فيرغوس، سأخبرك. أنا امرأة إنجليزية ـ ولا أفهم سبب التشكيك في ذلك ـ وُلدت في بلدة ليست في أقصى الشمال ولا في الجنوب، وقضيتُ كل حياتي قبل مجيئي إلى هنا في بلدتي. والآن أتمنى أن تكون راضيًا، لأنني لست مستعدة للإجابة عن أية أسئلة أخرى في الوقت الحالي».

«عدا هذا...».

«لا. ليس أكثر!»، ضحكت وعلى الفور تركت مقعدها ولجأت إلى النافذة التي أجلس قربها، وفي يأس شديد هربًا من اضطهاد أخي حاولتْ جذبي إلى محادثة.

«سيد ماركهام»، كانت تتحدث بشكل سريع ومضطرب وبنبرة مرتفعة نوعًا ما مما يدل على انزعاجها، «هل تتذكر منظر البحر الرائع الذي كنا نتحدث عنه قبل بعض الوقت؟ أعتقد أنني سأُضطر إلى إزعاجك الآن لتخبرني بأقرب طريق إليه، لأنه إذا استمر هذا الطقس الجميل ربما سأتمكن من السير إلى هناك للرسم، لقد استنفدت كل موضوع آخر للرسم وأتوق إلى رؤيته».

كنتُ على وشك الاستجابة لطلبها لكن روز منعتني من ذلك وصاحت بحماسة:

«أوه لا تخبرها يا غيلبرت، فلتذهب معنا. إنه ذلك المكان الرائع قرب الخليج، مسيرة طويلة جدًّا يا سيدة غراهام وبعيدة جدًّا بالنسبة إليك، ثم تخيلي كيف سيكون مُتعبًا بالنسبة إلى آرثر الصغير. نحن كنا نفكر بالفعل في القيام بنزهة إليه في يوم من هذه الأيام الجميلة، متأكدةٌ أننا جميعًا سنسعد للغاية بوجودك بيننا».

بدت السيدة غراهام المسكينة منزعجة وحاولت تقديم الأعذار، لكن روز - سواء كانت تشفق عليها من حياتها المنعزلة، أو حريصة على تنمية معرفتها بها، كانت مصممة على الحصول على موافقتها ونقض أي اعتراض مُحتمل، أكّدت لها أنها ستكون مجرد حفلة صغيرة تجمع الأصدقاء، وستتمكن من الاستمتاع برؤية أجمل منظر تلال من على بعد خمسة أميال كاملة.

«ستكون مجرد نزهة لطيفة للسادة»، تابعت روز، «لكن بالنسبة إلى السيدات فالأمر مختلف، سنقود العربات ونتنزّه على الأقدام بالتناوب حسب رغبتنا، حيث لدينا عربة خيول كبيرة بما يكفي لاستيعاب آرثر الصغير وثلاث سيدات بالإضافة إلى عُدّة الرسم الخاصة بكِ ومؤنِنَا».

بالنتيجة، وُوفِقَ أخيرًا على الاقتراح وبعد المزيد من المناقشات حول موعد وتفاصيل الرحلة المتوقعة استأذنّا ونهضنا مغادرين.

ولكن هذا لم يكن سوى شهر مارس. مر شهر إبريل باردًا ورطبًا، وأول أسبوعين من شهر مايو كذلك قبل أن نتمكن من الانطلاق في رحلتنا بأمل معقول في الحصول على تلك المتعة التي سعينا إليها في آفاق وأجواء ممتعة وهواء نقي ومنعش لممارسة الأنشطة دون توليفة الطرق الرديئة و/ أو الرياح الباردة والغيوم المهدِّدة، وعليه، في صباح يوم صحو وجميل جمعنا قواتنا وانطلقنا. تألفت المجموعة من السيدة والسيد الصغير غراهام، وماري وإليزا ميلوارد، وجين وريتشارد ويلسون، وروز، وفيرغوس، وغيلبرت ماركهام.

دعوتُ السيد لورانس للانضمام إلينا ولكن لسبب خاص به اعتذر عن الحضور. عندما فعلت ذلك تردد في البداية وسألني مَن سيذهب، عند ذِكر الآنسة ويلسون من بين البقية بدا أنه يميل إلى الذهاب، لكن عندما ذكرت السيدة غراهام معتقدًا أنها قد تكون حافزًا إضافيًا، بدا أن لها تأثيرًا معاكسًا حيث لاحظت أنه تراجع ورفض الأمر تمامًا. لكي أكون صادقًا معك وأعترف لك بالحقيقة، لم يُحزنني قراره لسبب ما.

وصلنا إلى وجهتنا في منتصف النهار تقريبًا. سارت السيدة غراهام على طول الطريق إلى المنحدرات، وسار آرثر الصغير في الجزء الأكبر منه أيضًا لأنه أصبح الآن أقوى وأنشط مما كان عليه عندما وصل إلى المنطقة، ثم إنه لم يكن يستسيغ الوجود في عربة مع غرباء في حين كان أصدقاؤه الأربعة: والدته، وسانشو، والسيد ماركهام، والآنسة ماري ميلوارد يسيرون على الأقدام ويعبرون الحقول والممرات.

لديّ ذكريات لطيفة جدًّا عن ذلك المسير، الطريق المشرق المشمس، المظلل هنا وهناك بأشجار خضراء زاهية، ومزين بالضفاف الزهرية ذات الرائحة العطرة، والحقول المتأنقة بالأخضر اللامع والزهور الملونة لشهر

مايو المبهج. صحيح أن إليزا لم تكن بجانبي حيث إنها كانت مع صديقاتها في العربة، وكان من الجليّ أنها سعيدة جدًّا. حتى عندما انحرفنا نحن المشاة عن الطريق السريع لمسافة قصيرة عبر الحقول ورأينا العربة الصغيرة تبتعد وتختفي وسط الأشجار، لم أكره تلك الأشجار ولم أشعر أن كل تلك الأشياء المتداخلة تفصل بيني وبين إليزا، وفي الحقيقة كنتُ سعيدًا ومستمتعًا جدًّا بصحبة السيدة غراهام لدرجة أنني لم أشعر بأسف لغياب إليزا ميلوارد.

في البداية، كان الأمر مستفزًّا، حيث إنها كانت عازمةً على ما يبدو على عدم التحدث إلى أي شخص سوى ماري ميلوارد وآرثر. كانتا هي وماري معًا بشكل عام والطفل يمشي بينهما، لكن ـ حيثما سمح لي الطريق ـ كنت أسير على الجانب الآخر منها، وريتشارد ويلسون يأخذ الجانب الآخر من الآنسة ميلوارد، في حين كان فيرغوس يتجول هنا وهناك وفقًا لمزاجه. بعد فترة أصبحتْ أكثر استرخاءً وترحيبًا برفقتي، ونجحتُ ولفترة جيدة في تأمين انتباهها بالكامل إليّ، جعلني هذا الإنجاز سعيدًا جدًّا لأنني بالفعل أحببت الإصغاء إلى أحاديثها وآرائها ومشاعرها التي كانت متوافقة مع آرائي ومشاعري وذوقي، وعندما نختلف كانت ما زالت المرأة المتسلحة بجرأتها التي لا هوادة فيها في الدفاع عن آرائها بجدية وحرص كبيرين. ما أثار حفيظتي هو أنني ـ عندما كانت تغضبني بكلماتها غير اللطيفة أو استنتاجاتها غير المتسامحة ـ كنتُ أصبح أكثر استياءً من نفسي لأنها كانت تثير إعجابي، بل وأصبحتُ أكثر رغبةً في إثبات شخصيتي أمامها، وربما كسب احترامها.

انتهت مسيرتنا الطويلة أخيرًا وأصبحنا فوق التلال الشامخة، ولكن عند الوصول إلى قمة الانحدار الحاد والنظر إلى الأسفل كانت أمامنا اللوحة الأجمل. انفجر البحر الأزرق أمامنا، أزرقُ بنفسجيٌّ عميق وليس ساكنًا وبليدًا، تتراقص على صدره بقعٌ بيضٌ صغيرة تتلألأ وبالكاد يمكن تمييزها، وتحلق فوقه النوارس بأجنحتها البيض المتلألئة في ضوء الشمس، وكانت هناك سفن بعيدة لكن بالإمكان رؤيتها.

نظرت إلى رفيقة دربي لأرى رأيها في هذا المشهد المذهل. لم تقل شيئًا، لكنها وقفت هناك ثابتة بنظرة أكدت لي أنها لم تُصَب بخيبة أمل. كانت عيونها جميلة للغاية ـ لا أعرف ما إذا كنت قد أخبرتك بهذا من قبل ـ وواسعة، وصافية، ومتخمة بالشاعرية، وحالكة، ليست بنيةً بل رماديةٌ دكناء. كان نسيم البحر منعشًا وباردًا ونقيًّا، يلوّح بجدائل شعرها المتدلية، ويضفي لونًا أكثر حيوية على شفتها ووجنتيها الشاحبتين. أحسست بمدى تأثّرها، وشعرتُ به شخصيًّا من خلال قشعريرة لذيذة سرت في جسدي، لكنني لم أجرؤ على التطرّق إلى الأمر حين كانت ساكنة وملتذّة للغاية بما تراه. كان هناك شيء من النشوة الخافتة في وجهها أشعلت ابتسامتها الرائقة عندما قابلت عينيها. لم يسبق لي أن رأيتها بهذا الجمال من قبل، ولا أن شعرت بحرارة في قلبي كما فعلت حينها. لو كنا بقينا لدقيقتين إضافيتين واقفين هناك بمفردنا لما كان يمكنني ضمان العواقب المحتملة. لحسن الحظ، استُدعِينا على وجه السرعة إلى وجبة الطعام. كانت روز، والآنسة ويلسون، وإليزا قد وصلن قبل البقية بقليل، وانطلقن للجلوس على بقعة مرتفعة مطلة على البحر ومحمية من أشعة الشمس الحارقة بصخور متناثرة وأشجار متدلية.

جلست السيدة غراهام على مسافة مني، كانت إليزا أقرب جارٍ لي ومن الواضح أنها كانت قد بذلت جهدًا كبيرًا لتبدُوَ مقبولةً بطريقتها اللطيفة وغير المزعجة، وبدت بلا شك رائعة وساحرة كما كانت دائمًا، ليتني فقط كنتُ أستشعر ذلك، مع هذا سَرعان ما بدأ قلبي يشعر بالدفء تجاهها مرة أخرى. كان الجميع مرحًا وسعيدًا طَوال الوجبة كما لاحظت.

عندما انتهينا استدعت روز فيرغوس لمساعدتها في جمع الأواني وما إلى ذلك وإعادتها إلى السلال. حملت السيدة غراهام كرسيها وأدوات الرسم بعد أن طلبت من الآنسة ميلوارد تولّي مسؤولية ابنها الذي أوصته بصرامة ألا يبتعد عن نظرها. تركتنا ومضت تتمشى على طول التل الصخري شديد

الانحدار إلى بقعة أعلى وأكثر انحدارًا على مسافة منّا، حيث فضلت تنفيذ لوحتها على الرغم من أن السيدات أخبرنها أنه مكان مخيف ونصحوها بعدم محاولة ذلك.

عندما غادرتنا، شعرتُ كما لو أنه لن يكون هناك المزيد من المرح ـ على الرغم من أنه من الصعب تحديد ما ساهمت به في هذا الجانب للمجموعة، فلم تفلت من شفتيها لا دعابات ولا حتى القليل من الضحك. لكن ابتسامتها الصغيرة تلك كانت تثير فرحتي، وتشحذ الملاحظة الشديدة أو الكلمة المرحة منها انتباهي بشكل عجيب، تبلور وجودُها حتى في تواصلي مع إليزا حيث إنني لم أنتبه إلا بعد مغادرتها إلى أن هراء إليزا عادَ لا يُسلّيني، بل أصبح مرهقًا ومملًّا. شعرتُ بنفسي منجذبةً بشكل لا أستطيع مقاومته إلى تلك النقطة البعيدة حيث تجلس الرسامة الفاتنة في مهمتها الانفرادية، ولم أحاول في الحقيقة مقاومة هذا الانجذاب. بينما كانت جارتي الصغيرة تتبادل بضع كلمات مع الآنسة ويلسون، نهضْتُ وتسللت مبتعدًا بذكاء. بضع خطوات سريعة وقليل من التسلق النشط سَرعان ما أوصلانني إلى المكان الذي كانت جالسة فيه، عدد من الصخور الثابتة على حافَةِ الجرف شديد الانحدار والمؤدي إلى الشاطئ الصخري أسفله تمامًا.

لم تنتبه لقدومي، ولذلك أفزعها سقوط ظلي على ورقتها ونظرت نحوي فورًا ـ كانت أي سيدة أخرى من معارفي ستصرخ في موقف كهذا.

«أوه! لم أعلم أنه أنت، لماذا أفزعتني هكذا؟ لا أحب أن يفاجئني أحد بهذا الشكل غير المتوقع». قالت بصراحة.

«لماذا ظننتِ أنني تعمدت ذلك؟ لو كنتُ أعلم أنك تتوترين لهذا الحد، لكنتُ أكثر حذرًا، لكن ـ ».

«حسنًا، لا بأس. ما الذي أتيت من أجله؟ هل الجميع قادم أيضًا؟».

«لا. لا يمكن لهذه الحافَةِ الصغيرة حملهم جميعًا».

«يسعدني ذلك، لأنني بصراحة تعبت من الأحاديث».

«حسنًا إذن، لن أتحدث. سأجلس فقط وأراقب رسمك».

«لكنك تعلم أنني لا أحب ذلك».

«إذًا سأكتفي بالإعجاب بنفسي للاكتفاء بهذا الاحتمال الرائع». لم تعترض على ذلك.

ابتعدت في صمت لبعض الوقت لكنني لم أستطع مقاومة الرغبة في سرقة لمحة بين الحين والآخر من المنظر الرائع الذي يبدأ من حيث قدميها إلى اليد البيضاء الأنيقة التي كانت تحمل القلم الرصاص، والرقبة الرشيقة والشعر الغامق اللامع المتدلّي فوق الورقة.

«لو لم يكن لدي سوى قلم رصاص وحزمة من الأوراق، لكان بإمكاني تنفيذ لوحة أجمل من لوحتها»، قلت لنفسي معترفًا بأن لدي القدرة على تحديد مدى جمال ما هو أمامي بإنصاف.

ولكن على الرغم من أنني حُرمت من تحقيق أمنيّة كهذه، فإنني كنت سعيدًا جدًّا بالجلوس بجانبها هناك وعدم قول أي شيء.

«أما زلت هنا سيد ماركهام؟»، قالت وهي تنظر نحوي ـ لأنني كنت جالسًا خلفها ـ «لماذا لا تذهب وتتسلى برفقة أصدقائك؟».

«لأنني تعبت منهم مثلك، وسأحصل على ما يكفي منهم غدًا أو في أي وقت من الآن، لكن الأمر مختلف معكِ، قد لا أسعد برؤيتك مرة أخرى قريبًا، لأنني لا أعرف متى قد نتعثر بعضنا ببعض مجددًا».

«ماذا كان يفعل آرثر عندما غادرت؟».

«كان مع الآنسة ميلوارد حيث تركتِه، لكن كان يتذمر بتململ ويأمل ألا تكون عودة والدته بعيدة، أنتِ لم تأتمنيني عليه، على الرغم من أنني تشرفت بمعرفته منذ وقت أطول بكثير، لكن الآنسة ميلوارد لديها موهبة التعامل مع الصغار وتسليتهم، إذا كانت غير مفيدة في أي أمر آخر»، أضفتُ بلا مبالاة.

«تتمتع الآنسة ميلوارد بالعديد من الصفات التي يمكن تقديرها، والتي لا يتوقع ممن هم مثلك أن يدركها أو يقدّرها. هلا أخبرت آرثر أنني سأحضر بعد بضع دقائق؟».

«إذا كان الأمر كذلك سأنتظر ـ إذا سمحتِ لي ـ حتى انقضاء تلك الدقائق القليلة، وبعد ذلك يمكنني مساعدتك على النزول من هذا الطريق الصعب».

«شكرًا لك ـ أتدبر أموري بأفضل طريقة في مثل هذه المواقف دون مساعدة».

«لكن دعيني على الأقل أحمل مقعدك وكراستك»، لم تحرمني من هذا الجميل، لكني شعرت بالإهانة من رغبتها الواضحة في التخلص مني، وضعفت مجدداً عندما استرضتني نوعًا ما من خلال طلب استشارتي وحكمي على بعض التفاصيل في رسمها. لقي رأيي ـ لحسن الحظ ـ استحسانها، واعتمدت التحسين الذي اقترحته دون تردد.

قالت: «لقد تمنيت في كثير من الأحيان عبثًا أن أتلقّى رأي وحكم شخص آخر على عملي، فأنا بالكاد أستطيع أن أثق بعينيّ ورأسي، فقد كانوا مشغولين منذ فترة طويلة بالتفكير في شيء واحد حتى أصبحوا تقريبًا غير قادرين على تكوين فكرة مناسبة حول الأمور الأخرى».

أجبتها: «هذا ليس سوى واحد من بين العديد من الشرور التي تُعرّضنا لها الحياة الانفرادية».

قالت: «بالفعل». ومرة أخرى عدنا إلى الصمت.

بعد حوالي دقيقتين قالت إنها أكملت لوحتها وأغلقت الكراسة.

عند عودتنا إلى مكاننا، لم يكن موجودًا سوى ثلاثة من المجموعة: ماري ميلوارد، وريتشارد ويلسون، وآرثر غراهام. كان الصغير نائمًا ووسادة رأسه في حِجر السيدة، والرجل جالسٌ بجانبها وفي يده نسخة جيب لبعض

المؤلفين الكلاسيكيين. لم يذهب أبدًا إلى أي مكان دون هذه الكتب للاستفادة من أوقات فراغه، بالنسبة إليه بدا كل الوقت ضائعًا إن لم يُكَرَّس للاطّلاع، حتى الآن لم يستطع أن يسترخي ويسمح لنفسه بالاستمتاع بهذا الهواء النقي وأشعة الشمس المعتدلة، وتلك الأصوات الهادئة المنبعثة من موسيقى الأمواج والرياح الناعمة التي تتخلل الأشجار، ولا حتى مع وجود سيدة جالسة إلى جانبه (على الرغم من أنها ليست جذابَة للغاية، فلتسمح لي بذلك)، لا بد من ترك الكتب قليلًا والتمتع قَدْر الإمكان بالطبيعة الخلابة وهضم وجبته وإنعاش أطرافه المتعبة وغير المعتادة على الكثير من التمارين.

لكن ربما، على الرغم من ذلك، وفّر بالفعل بعض الوقت لتبادل كلمة أو لمحة مع رفيقته بين الحين والآخر. على أية حال، لم يظهر على ماري على الإطلاق أي تعبير عن استياء من سلوكه، بل بالنسبة إلى ملامحها الجادة، كانت تبدو مستمتعةً وهي تتأمل وجهَهُ الباهت برضًا كبير عندما وصلنا.

لم تكن رحلة العودة ممتعة بالنسبة إليّ بأي حال من الأحوال مقارنةً بالجزء السابق من اليوم، ففي هذه الرحلة كانت السيدة غراهام في العربة وإليزا ميلوارد رفيقة مسيرتي. كانت قد لاحظت تفضيلي للأرملة الشابة ومن الواضح أنها شعرت بالإهمال. لم تُظهر استياءها عبر اللوم أو السخرية المُرّة أو حتى الصمت الكئيب، حيث إن أيًّا منها أو جميعها كان بإمكاني تحملها بسهولة أو الضحك عليها، لكنها أظهرت ذلك بنوع من الكآبة الهادئة والحزن الخفيف والمؤنِّب الذي فَطَر قلبي. حاولتُ إبهاجها ويبدو أنني نجحت إلى حد ما قبل انتهاء مسيرتنا، لكن في نفس الوقت وبخني ضميري لأنني عاجلًا أو آجلًا مُضطرٌّ إلى إخبارها بواقع الأمر فيما يتعلق بمستقبل علاقتنا، وكان هذا السلوك من قبلي يغذي الآمال الزائفة ويؤجل ما هو محتوم.

عندما اقتربت العربة من قصر وايلدفيل نزلت الأرملة الشابة وابنها، وأصبح هناك مقعد في الأمام لروز، وأقنعت إليزا أن تحل محل السيدة غراهام،

وبعد أن ساعدْتُها على الصعود والجلوس في وضع مريح وتمنيت لها ليلةً سعيدة، شعرتُ بارتياح كبير وأسرعت لتقديم خدماتي للسيدة غراهام وحمل أغراضها، لكنها كانت قد فعلت ذلك حيث علّقت كرسي المخيم الخاص بها على ذراعها وهي تحمل دفتر الرسم الخاص بها وودّعتنا جميعًا، وهذه المرة رفضت مساعدتي التي قدمتها بطريقة لطيفة وودودة جعلتني أسامحها.

انقضت ستةُ أسابيع. كان صباحًا رائعًا في نهاية شهر يونيو. قُطّع معظم القش، طقس الأسبوع الماضي لم يكن جيدًا لكنه تحسّن كثيرًا الآن، وأنا مصمم على تحقيق أقصى استفادة منه، ولهذا جمعت كل الأيدي للعمل في حقل القش وكنتُ أيضًا أعمل في وسطهم، تظلِّل رأسي قبعةٌ من القش الخفيفة. ألتقط حفنة من العشب الرطب الذي تفوح منه رائحة قوية وأهزها لتتلقاها رياح السماء. كنت أترأس مجموعة مثابرة من العمال العازمين على مواصلة العمل بحماسة من الصباح إلى الليل، ومحاولًا قدر استطاعتي أن أقدم مثالًا جيدًا لهم عندما أُطِيحَ بقراراتي في لحظة بواسطة فيرغوس الذي أتى راكضًا نحوي ووضع في يدي طردًا صغيرًا وصل للتو من لندن كنت أنتظره لبعض الوقت. مزّقت الغلاف وانكشف لي إصدار أنيق من «مارميون».(1)

بينما كنتُ أتفحصه وقف فيرغوس أمامي: «أعتقد أنني أعرف مرسل هذا، إنها الآنسة إليزا». قالها بنبرة واثقة لدرجة أنني كنت سعيدًا لأنني سأعارضه.

قلت: «أنت مخطئ يا بني». وأخذت معطفي ووضعت الكتاب في أحد جيوبه ثم لبسته وتابعت: «والآن تعال إلى هنا أيها الكلب العاطل واجعل نفسك مفيدًا لمرة، اخلع معطفك وخذ مكاني في الحقل حتى أعود».

«حتى تعود؟ وإلى أين أنت ذاهب؟».

---

(1)مارميون Marmion: قصة رومانسية إنجليزية مكتوبة بأسلوب شعري في القرن السادس عشر، كتبها السير والتر سكوت ونُشرت عام 1808. تتكون من ستة أقسام، لكل منها رسالة تمهيدية وملاحظات وفيرة.

«لا يُهم إلى أين ومتى. سأعود عند موعد العشاء».

«آها.. وتريدني أن أعمل هنا حتى ذلك الحين، أليس كذلك؟ وأحرص على أن يستمر كل هؤلاء بالعمل بجانب ذلك؟ حسنًا! سأفعل هذا لمرة واحدة وبطريقتي: هيا تجمعوا يا رفاق، لقد جئت لمساعدتكم الآن، ويلٌ لأي رجل ـ أو امرأة ـ يتوقف للحظة عن العمل، سواء للنظر، أو حك رأسه، أو حتى تنظيف أنفه، لا شيء هنا سوى العمل، والعمل، والعمل بعرق الجهد».

تركته برفقة العمال ـ لتسليتهم أكثر من توجيههم ـ وعدتُ إلى المنزل، وبعد إجراء بعض الصيانة لمظهري أسرعتُ إلى قصر وايلدفيل وأنا أحمل الكتاب في جيبي لأنه كان مخصّصًا لرفوف السيدة غراهام.

«ماذا؟ هل تطورت أواصر الصداقة بينكما لتصل إلى تقديم الهدايا وتلقّيها؟». ليس بالضبط يا صديقي العزيز، كانت هذه خطوتي الأولى في هذا الدرب، وكنتُ حريصًا جدًّا على رؤية نتيجة ذلك.

لقد التقينا عدة مرات منذ رحلتنا، ووجدت أنها لم تكن كارهةً لرفقتي، شريطة أن أقصر حديثي عند مناقشة الأمور أو الموضوعات ذات الاهتمام المشترك. في اللحظة التي كنت ألامس فيها المشاعر بكلامي، أو أجاملها، أو أعاملها بشيء من الحميمية في القول أو التصرف، لم تكن تعاقبني بتغيير فوري في أسلوبها بل بالتعامل معي ببرود وبُعد بحيث يتعذر الوصول إليها في المرة التالية التي أسعى فيها إلى الالتقاء بها. لكن هذا التصرف لم يزعجني كثيرًا لأنني لم أنسبه إلى أي كراهية من قبلها لشخصي، بقدر ما هو قرار مطلق شُكِّلَ قبل وقت معرفتنا ضد أي ارتباط، سواء كان ذلك نتيجة حبها العميق لزوجها الراحل، أو لأنها على العكس عانت منه وبالتالي كرهت العلاقات.

في البداية، كانت تبدو كأنها تسعد بإرهاق غروري وسحق براعم افتراضاتي التي غامرت بالظهور أمامها واحدة تلو الأخرى. بعد ذلك، أعترف لك أنني كنت مجروحًا بعمق، على الرغم من تعطّشي إلى الانتقام

منها. لكن يبدو أنها أخيرًا اكتشفت، بما لا يدع مجالًا للشك، أنني لم أكن ذلك الرأس الفارغ الذي افترضَته في البداية، لقد رفضت تقرّبي المتواضع منها بروح مختلفة تمامًا، كان نوعًا من الحزن العميق الذي، لمّا كنتُ سَرعان ما اكتشفته، أصبحتُ أحرص على تجنّب إيقاظه.

قلت في نفسي: «يجب عليّ بدايةً ترسيخ موقعي كصديق وشريك لعب لصغيرها، والصديق الرصين والموثوق، ثم بعد ذلك عندما أنجح في جعل نفسي سببًا وجيهًا لراحتها واستمتاعها في الحياة (أعتقد أنني أستطيع)، سنرى ما يمكن أن يحدث بعد ذلك».

لذلك تحدثنا عن الرسم، والشعر، والموسيقى، واللاهوت، والجيولوجيا، والفلسفة. مرة أو مرتين أعرتها كتابًا وأعارتني أيضا كتبًا في المقابل، التقيتها في جولاتها بقدر ما استطعت، وزرتها في منزلها بقدر ما تجرأت. كانت ذريعتي الأولى لغزو معتزلها هي إحضار جرو صغير لآرثر ـ كان قد وُلد مؤخرًا للأب سانشو، كان هذا يسعد الطفل بشكل لا يمكنني التعبير عنه، وبالتالي لا يمكن أن يفشل في إرضاء والدته. الذريعة الثانية كانت إحضار كتاب له، ولأنني أعلم خصوصية والدته، كان لا بد من اختياره بعناية، وعرضه عليها للحصول على موافقتها قبل تقديمه إليه. وأحضرت لها بعض النباتات لحديقتها باسم شقيقتي ـ بعد أن أقنعت روز بالتواطؤ معي. كنت في كل مرة أسألها عن اللوحة التي كانت تنوي رسمها عن الجرف، وأخيرًا قبلت أن تريني إياها وطلبت رأيي أو نصيحتي فيما يتعلق بتقدمها.

كانت زيارتي الأخيرة لإعادة الكتاب الذي أعارتني إياه، وبعد نقاش لشِعر السِّير والتر سكوت بشكل عَرَضي أعربت عن رغبتها في قراءة «مارميون»، حينها فكرتُ في فكرة جعله هدية لها، وفور عودتي إلى المنزل أرسلت طلبًا للحصول على الكتاب بالحجم الصغير اللطيف الذي تلقيته هذا الصباح. لكن الاعتذار عن اجتياح المكان بهذا الشكل كان ضروريًّا. لذلك، كنتُ قد

جهّزت ياقةً زرقاء لجرو آرثر الصغير، وبهذا يُتَسَلَّم بفرح وامتنان من جانب المتلقي أكثر مما تستحقه قيمة الهدية أو الدافع الأناني لمقدِّمها. تجرأت أن أطلب من السيدة غراهام إلقاء نظرة أخرى على اللوحة، إن كانت ما زالت موجودة في مرسمها.

«نعم بالتأكيد، تفضل»، قالت (لأنني التقيت بهم في الحديقة). «إنها منتهية ومؤطرة وجاهزة للإرسال بعيدًا، ولكن أتمنى أن أسمع رأيك النهائي بها، وإذا كان لديك أي اقتراح لتحسين إضافي فسيؤخَذ في الاعتبار».

كانت اللوحة جميلة بشكل مذهل، كان المشهد أشبه بالسحر على القماش، لكنني عبرت عن إعجابي بعبارات حذرة وبكلمات قليلة خوفًا من استيائها. مع ذلك، كانت تنظر إلى عينيّ باهتمام، وبدت فخورةً بعملها وممتنةً لقراءة إعجابي الصادق في عينيّ. لكن بينما كنت محدّقًا، تذكرت الكتاب وتساءلت كيف يمكنني تقديمه. خذلني قلبي لكنني قررت ألا أكون أحمقَ لأبتعد دون المحاولة. كان انتظار الفرصة ومحاولة اختلاق خطاب لهذه المناسبة خطةً عديمة الجدوى، باعتقادي أنه كلما قِيمَ بالأمر بشكل عفوي وطبيعي كان ذلك أفضل، لذلك نظرت من النافذة لاستجماع شجاعتي ثم أخرجت الكتاب واستدرت ووضعته في يدها مع هذا الشرح المختصر:

«كنتِ راغبة في قراءة «مارميون» سيدة غراهام، وها هو ـ إذا سمحتِ لي».

غَمَر وجهها احمرارٌ مؤقت ـ ربما خجل من التعاطف مع هذا الأسلوب المحرج في العرض. تفحّصت الكتاب بجانبيه، ثم قلّبت الأوراق بصمت، وحاجبين مرفوعين جرّاء التفكير الجاد ثم أغلقت الكتاب، وتحولت منه إليّ وهي تسألني بهدوء عن سعره. شعرت بدماء ساخنة تتدفق في وجهي.

قالت وهي تضع الكتاب على الطاولة أمامها «أعتذر إن أشعرتُك بأية إهانة سيد ماركهام، لكن ما لم أدفع ثمن الكتاب لا يمكنني قَبُوله».

«لماذا لا تستطيعين؟»

«لأن...»، توقّفت ونظرت إلى الأرض.

«لماذا لا تستطيعين؟»، كررت بنبرة غاضبة أيقظتها لرفع عينيها والنظر إلي بثبات في وجهي.

«لأنني لا أحب أن أضع نفسي قيد التزامات لا يمكنني سدادها، أنا مدينة لك بالفعل على لطفك مع ابني، لكن امتنانه ومشاعره الطيبة تكافئك على ذلك».

«هراء»، أجبتها.

أدارت عينيها إليّ مرةً أخرى بنظرة متفاجئة صامتة وجادّة لها تأثير التوبيخ ـ سواء كان المقصود منها ذلك أو لا.

«إذن لن تأخذي الكتاب؟»، سألتُ بنبرةٍ أخفّ هذه المرة.

«سوف آخذه بكل سرور إذا سمحتَ لي بدفع ثمنه»، أخبرتها بالسعر الدقيق وتكلفة التوصيل أيضًا، فعلت ذلك بنبرة هادئة ويائسة ـ لأنني في الحقيقة كنتُ على وشك البكاء غضبًا وخيبة أمل.

أحضرتْ حقيبتها وعدَّتِ النقودَ ببرود، لكنها ترددت في وضعها في يدي، بنبرة مهدّئة قالت: «أعلم أنك تعتقد أنني أهينك سيد ماركهام ـ أتمنى أن أجعلك تفهم أن...».

قلتُ: «أفهمك تمامًا، تعتقدين أنكِ إذا قبلت هذه الهدية التافهة مني الآن سأفترض الحصول على مقابل فيما بعد، لكنكِ مخطئة، لم أكن أبني عليها آمالًا أو أعتبر الأمر سابقة لمصالح مستقبلية، ومن غير المنطقي التحدث عن كونكِ ملتزِمة بشيء تُجاهي حينما يجب أن تعلمي أنه في مثل هذه الحالة يكون الالتزام من جانبي أنا تُجاهك».

أجابت بابتسامة ملائكية وهي تعيد الأموال البغيضة إلى حقيبتها: «حسنًا سأعتمد كلمتك، لكن لا تَنْسَها!».

«سوف أتذكر دائماً ما قلته، لكن لا تعاقبي افتراضي بسحب صداقتكِ تمامًا مني، أو بأن تتوقعي مني أن أكفّر عنها بالابتعاد أكثر من ذي قبل»، أجبتها وأنا أمدّ يدي لها لتحيتها والمغادرة، مع أنني كنت أتوق إلى البقاء.

«حسنًا إذن!»، أجابت وهي تصافحني، وبينما كانت كذلك واجهتُ صعوبةً كبيرة في الامتناع عن فكرة تقبيل يدها، ولحسن الحظ لم أفعل لأن هذا سيكون جنونًا انتحاريًّا. لقد كنتُ جريئًا بما فيه الكفاية بالفعل إلى الآن، وكان العرض السابق قبل أوانه قبل قليل على وشك تلقّي ضربة قاضية لكل آمالي.

بقلب وعقل هائجين ومتحمسين أسرعتُ إلى المنزل غير مبالٍ بشمس الظهيرة الحارقة ـ نسيت كل شيء ما عدا المرأة التي تركتها للتو ـ ، لست نادمًا سوى على عدم قدرتي على اختراق أفكارها، واندفاعي وقلة لباقتي. لا أخشى شيئًا سوى حلولها البغيضة وعدم قدرتي على التغلب عليها، لا أتمنى شيئًا سوى ـ ولكن مهلًا، دعني لا أزعجك بسرد آمالي ومخاوفي المتضاربة وتأملاتي الجادة.

الفصل التاسع

على الرغم من أنه يمكنني القول إن عواطفي تُجاه إليزا ميلوارد قد فُطمت، فإنني لم أتخلَّ تمامًا عن زيارة مسكن القس لأنني أردت ـ إذا جاز التعبير ـ أن أبتعد عنها بالتدريج دون إثارة الكثير من الحزن أو الاستياء أو جعل نفسي حديثَ الرعية. إلى جانب ذلك ابتعادي بشكل مفاجئ بهذا الشكل سيجعل والدها القس بالتأكيد يشعر بالإهانة ـ حيث إنه كان يعتقد أن زياراتي كانت بشكل رئيسي متعلقة به. لكن عندما وصلت هناك في اليوم التالي لمقابلتي مع السيدة غراهام تَصَادف أنه كان في المنزل ـ وهو ظرف لم أكن لأستسيغه بأي حال من الأحوال كما في المناسبات السابقة. كانت الآنسة ميلوارد هناك، لكن وجودها آنذاك كان أفضل من العدم. مع ذلك، كنتُ قد عقدت العزم على جعل زيارتي قصيرة والتحدث إلى إليزا بطريقة أخوية وودودة لا تشعرها بأية إهانة ولا تفيد تشجيع الآمال الكاذبة بنفس الوقت.

لم يكن من عادتي أبدًا التحدث عن السيدة غراهام معها أو مع أي شخص آخر، لكنني فوجئت بها بعد ثلاث دقائق من جلوسي تأتي على سيرتها:

«أوه، سيد ماركهام!»، قالت بتعبير صادم وصوت خافت أقرب إلى الهمس: «ما رأيك في الكلام الصادم المتداوَل عن السيدة غراهام؟ ـ هل يمكنك إقناعنا بعدم تصديقها؟».

«أي كلام؟».

«أوه، تعرف ما أتحدث عنه!»، ابتسمت بهدوء وهزت رأسها.

«لا أعرف شيئًا. بربّك عمّ تتحدثين يا إليزا؟».

«أوه لا تسألني. لا يمكنني شرح ذلك». قالتها وحملت المنديل الذي كانت تحوك إطارًا له من الدانتيل وبدأت تشتغل فيه.

«ما هذا يا آنسة ميلوارد؟ عمّ تتحدث إليزا؟»، قلتُ مناشدًا شقيقتها التي بدت كأنها مستغرقة بالكامل في تطريز حاشية ملاءة كبيرة خشنة.

أجابت: «لا أعلم، أفترض أن شخصًا ما يختلق وينشر قَذْفًا قبيحًا عنها. شخصيًّا، لم أسمع ذلك أبدًا إلى أن أخبرتني إليزا ذلك اليوم، ولكن حتى إذا سمعته من جميع الرعية فلن أصدق كلمة منه لأنني أعرف السيدة غراهام جيدًا».

«بالفعل يا آنسة ميلوارد، وأنا كذلك لا أصدق مهما كان الأمر.»

«حسنًا»، قالت إليزا بتنهيدة يائسة، «من الجيد أن تكون لديك مثل هذة الثقة فيما يتعلق بقيمة من تحبهم. أتمنى ألا تجد ثقتك في غير محلها». رفعت وجهها ومنحتني نظرة حنونة وحزينة أذابت قلبي، لكن في تلك العيون كان هناك شيء لم يعجبني وجعلني أتساءل كيف كان بإمكاني الإعجاب بهما قبل ذلك ـ بدا وجه شقيقتها الصادق حينها أكثر قَبُولًا بكثير. كنتُ خارج المزاج المعتاد مع إليزا في تلك اللحظة بسبب تلميحاتها ضد السيدة غراهام، والتي كنت متأكدًا أنها كانت غير صحيحة، سواء كانت تعرف ذلك أو لا.

على الرغم من ذلك، لم أقل شيئًا أكثر عن هذا الموضوع في ذلك الوقت، بل لم أقل شيئًا عن أي موضوع آخر، لأنني ببساطة وجدت أنني لا أستطيع استعادة رباطة جأشي، وعليه نهضت واستأذنت فورًا معتذرًا بضرورة العودة إلى العمل في الحقل. ذهبت بالفعل إلى الحقل ولم أتحدث إلى أحد عن هذا الموضوع أو حقيقة ما يقال في هذه الأحاديث الغامضة التي كانت إليزا تتحدث عنها، ولكن بدأت أتساءل فقط ما هي ومن أطلقها ولماذا؟ ثم كيف يمكنني إيقافها أو دحضها!

بعد أيام قليلة من ذلك، كنا نقيم حفلًا آخرَ من حفلاتنا الصغيرة، والتي

دُعِيَت المجموعة المعتادة من الأصدقاء والجيران إليها بالإضافة إلى السيدة غراهام التي عادت لا تستطيع الآن أن تتغيب بحجّة الأمسيّات المظلمة أو الطقس العاصف. مجيؤها أشعرني بارتياح كبير ودونها كنت سأجد الأمر برمّته مملًا لا يطاق، لحظة وصولها جلبتْ حياةً جديدة إلى المنزل، وعلى الرغم من أنني لم أتجاهلِ الضيوفَ الآخرين من أجلها ولم أحاول جذب انتباهها ومحادثاتها إلى نفسي وحدي، فإنني توقعتُ أمسيّة ممتعة لكلينا.

جاء السيد لورانس أيضًا. لم يصل إلا بعد مرور بعض الوقت على حضور البقية. كنت أشعر بالفضول لمعرفة كيف سيتعامل مع السيدة غراهام، اقتصر الأمر على انحناءة مقتضبة بينهما، ثم بعد أن حيّا الجميع بأدب، جلس بعيدًا عن الأرملة الشابة، تحديدًا بين أمي وروز.

«هل رأيتَ تمثيلًا بهذه البراعة من قبل؟»، همستْ إليزا التي كانت جالسة قربي في أذني، «هل تصدّق أنهما غرباء تمامًا بعضهما عن بعض؟».

«أعتقد ذلك، وماذا بعد؟».

«ماذا بعد؟ لا يمكنك التظاهر بالجهل!».

«جهل بماذا؟»، سألتها بنبرة عصبية لدرجة أنها ارتبكت.

«ششش! أخفض صوتك».

«حسنًا، أخبريني إذن»، أجبتها بنبرة منخفضة، «ماذا تقصدين؟ تعرفين أنني أكره الألغاز».

«حسنًا، لعلمك أنا لا أضمن حقيقة ذلك ـ ولكن ألم تسمع؟».

«لم أسمع شيئًا إلا منكِ».

«يبدو أنك أصمّ عن قصد، لأن أي شخص سيخبرك ذلك، ولكنّي سأغضِبُكَ بتكرار ذلك كما أرى، لذلك من الأفضل أن ألجم لساني».

أغلَقَتْ شفتيها وطَوَت يديها أمامها بشيء من الإحراج.

«إذا كنتِ لا ترغبين في إغضابي، كان من الأفضل أن تمسكي لسانك منذ البداية أو أن تتحدثي بصراحة وصدق عن كل ما تريدين قوله.»

أدارت وجهها وهي تسحب منديلها وهُرعت إلى النافذة حيث وقفت لبعض الوقت، من الواضح أنها كانت تبكي، بدت مصدومة ومستفَزة وتشعر بالإحراج بسبب ضعفها الطفولي، ومع ذلك لم يلاحظها أحد. بعد فترة وجيزة استُدعينا إلى طاولة الشاي، في وقت كهذا كان من المعتاد الجلوس لشرب الشاي لأننا تناولنا العشاء مبكرًا. عندما جلست في مقعدي كانت روز تجلس بجانبي وكرسي فارغ على الجانب الآخر.

«هل لي أن أجلس إلى جانبك؟»، قال صوت رقيق بمستوى مرفقي.

«إن أحببتِ». انزلقت إليزا على الكرسي الشاغر ثم نظرت في وجهي بابتسامة نصف حزينة ونصف مرحة، وهمست: «أنت صارم جدًّا يا غيلبرت.»

قدّمتُ الشايَ لها بابتسامة مقتضبة دون قول شيء، لأنه لم يكن لدي ما أقوله.

«ماذا فعلتُ لأسيء إليك؟»، قالت بحزن، «أوه، ليتني أعلم.»

أجبتها وأنا أعطيها السكر والقشدة: «تفضلي شَايَكِ يا إليزا ولا تكوني سخيفة».

عندها نشأ اضطراب طفيف على الجانب الآخر منّي، بسبب قدوم الآنسة ويلسون للتفاوض بشأن تبادل المقاعد مع روز.

«هل يمكننا تبادل الأماكن آنسة ماركهام؟ لا أحب الجلوس بجانب السيدة غراهام. إذا كانت والدتكِ تعتقد أنه من اللائق دعوة أشخاص كهؤلاء إلى منزلها، فلا أعتقد أنها تعترض على مرافقة ابنتها لهم».

نهضت روز، لكنني لم أكن مؤدبًا بما يكفي للسماح لها بالجلوس:

«هلا تفضلت الآنسة ويلسون بإخباري عما تقصده؟»، بَدَت مصدومةً من سؤالِيَ المباغت، مع ذلك أجابتني ببرود:

«يفاجئني أن السيدة ماركهام تقوم بدعوة شخصية مثل السيدة غراهام إلى منزلها، لكن ربما لا تعلم أن السيدة بالكاد تُعتبر محترمة».

«هي لا تعلم ولا أنا، وبالتالي أحتاج منكِ إلى توضيحٍ أكثر من ذلك قليلًا».

«نادرًا ما يكون هذا هو الوقت أو المكان المناسب لمثل هذه الأحاديث، لكنني لا أعتقد أنك جاهل بالأمر كما تتظاهر، مؤكد أنك تعرفها كما أعرفها».

«أعتقد أنني أفعل، وربما أكثر منكِ قليلًا، وبالتالي إذا أخبرتِني بما سمعتيه عنها أو ظننتِه بها ربما أكون قادرًا على تصويب معلوماتك».

«هل يمكن أن تخبرني إذن من كان زوجها، أو إذا كان لديها زوج؟».

أبقاني السخطُ صامتًا. في مثل هذا الموقف والمكان لم أستطع الوثوق بنفسي للإجابة.

قالت إليزا: «ألم تلاحظ أبدًا؟ يا له من تشابه مذهل بين طفلها و...».

«ومَن؟»، سألتها الآنسة ويلسون بنوع من البرود المتصنّع الذي لم يخلُ من الحدة.

ذُهلت إليزا لأن همسها كان موجهًا لأذني فقط.

ناشدَتها قائلة: «أوه، أستميحكِ عذرًا. قد أكون مخطئة ـ ربما أنا مخطئة بالفعل». لكنها أتبعت تلك الكلمات بابتسامة ساخرة وخبيثة موجّهة إلي.

أجابتها صديقتها: «لا داعي إلى الاعتذار. لا أرى أحدًا هنا يشبه ذلك الطفل على الإطلاق باستثناء والدته. لكن عندما تصلكِ أحاديثُ سيئة كهذه آنسة إليزا، سأكون شاكرةً لو تفعلين خيرًا وتمتنعين عن تكرارها وتمريرها للآخرين. أفترض أن الشخص الذي تلمحين إليه هو السيد لورانس، لكني أعتقد أنني أستطيع أن أؤكد لك أن شكوككِ في هذا الصدد ليست في محلها، وإذا كانت لديه أية علاقة خاصة بالسيدة (والتي لا يحق لأحد أن يؤكدها أو ينفيها)، فعلى الأقل لديه (وهو ما لا يمكن قوله عن البعض الآخر) إحساس

كافٍ باللياقة ليكتفي بالانحناء لتحيتها في حضور الآخرين، مع ذلك من الواضح أنه تفاجأ وشعر بالضيق من مصادفتها هنا».

«هيا انطلقوا»، صاح فيرغوس الذي كان يجلس على الجانب الآخر من إليزا، وكان الشخص الوحيد الذي شاركنا هذا الجانب من الطاولة، «ارموها بحجارتكم ولا تُبقوا مكانًا فارغًا لحصاة واحدة».

ألقت عليه الآنسة ويلسون نظرة ازدراء جامدة لكنها لم تقل شيئًا. كانت إليزا تهم بالرد عليه لكنني قاطعتها بالقول بقدر ما استطعت من هدوء وإن خانتني نبرتي: «لقد سئمنا من هذا الموضوع، إذا لم يكن لدينا ما نتحدث عنه سوى الافتراء على من هم أفضل منا فلنلجم ألسنتنا».

علّق فيرغوس: «أعتقد أن هذا أفضل، تمامًا كما يفعل القس الطيب. لقد كان يخطب في المجموعة لوقت طويل، ومن وقت لآخر يتطلع إليك بنظرات نفور شديدة، حين كنتَ جالسًا هناك تهمس وتغمغم بحدّة، وبمجرد أن توقف في منتصف قصة أو خطبة ـ لا أذكر ما كانت ـ ركز عينيه عليك يا غيلبرت كأنه يقول: عندما ينتهي السيد ماركهام من مغازلة هاتين السيدتين سأكمل».

لا أتذكر ما قيل بعد هذا على طاولة الشاي، ولا كيف وجدت الصبر للجلوس حتى انتهاء الوجبة، كل ما أتذكره هو أنني ابتلعت بصعوبة ما تبقى من الشاي الذي كان في فنجاني ولم أتناول شيئًا من الطعام. كان أول شيء فعلته هو التحديق إلى آرثر غراهام الذي كان يجلس بجانب والدته على الجانب الآخر من الطاولة، بعدها التحديق إلى السيد لورانس، وقد صدمني أولاً توهُّمي أن هناك شبهًا بسبب ما دار من حديث، لكن بعد المزيد من التأمل استنتجت أن ذلك كان فقط في الخيال.

صحيح أن كلًّا منهما له ملامح أرهف وعظام أصغر مما تكون عادةً في غالب الأفراد من الجنس الخشن، حيث كانت بشرة لورانس شاحبة وصافية، وكان آرثر أشقر، لكن أنف آرثر الصغير الدقيق لا يمكن أن يصبح طويلًا

ومستقيمًا مثل أنف السيد لورانس، ووجهه على الرغم من أنه ليس مملوءًا بما يكفي ليكون مستديرًا بذقنه الصغير الذي يتوسطه غمازةٌ، فلا يمكن أبدًا سحبه إلى الشكل البيضويّ الطويل للآخر. ثم إن شعر الطفل كان بلونٍ أفتح وأدفأ من شعر الرجل، وعيناه الزرقاوان الواسعتان، اللتان أشعر أحيانًا أنهما نضجتا قبل الأوان، كانتا مختلفتين تمامًا عن العيون العسلية الخجولة للسيد لورانس والتي كانت تنظر إلى ما حولها بارتياب ـ كما كانت دائمًا ـ وعلى استعداد للعودة إلى التقوقع في الداخل بسبب جرائم العالم الفظ حولهما. من المؤسف أنني خضت بيني وبين نفسي في تلك الفكرة المقيتة للحظة! ألم أكن أعرف السيدة غراهام؟ ألم أرها وأتحدث معها مرةً بعد مرة؟ ألم أكن متأكدًا من عِفّتها ورجاحة عقلها وسموّ روحها؟ كانت امرأةً متفوّقةً بما لا يقاس على أيٍّ من منتقديها، كانت في الواقع الأنبل والأجمل من بين كل بنات جنسها اللواتي رأيتهن أو حتى تخيلت وجودهن، وأود أن أضم صوتي لماري ميلوارد وأقول إنه إذا تناقل جميع الرعية، بل العالم بأسره، هذه الأكاذيب المروّعة ونقلها إلى أذني فلن أصدقهم، لأنني أعرفها بشكل أفضل منهم.

في هذه الأثناء كان عقلي مشتعلًا بالسخط وشعرت بقلبي كأنه سيخرج من سجن صدري بسبب كل تلك الأحاسيس المتضاربة. كنت أنظر إلى جارتيَّ باشمئزاز بالكاد استطعت إخفاءه، وقد لاحظ الجميع إهمالي الواضح للسيدتين لكنني لم أهتم كثيرًا بهذا الأمر، كل ما كان يُهمني حينها ـ إلى جانب هذا الموضوع المسيطر على أفكاري ـ هو أن أرى الأكواب تنتقل إلى صينية الشاي ولا تعود مرة أخرى، بدا أن السيد ميلوارد لن يتوقف أبدًا عن إخبارنا في كل مرة يحدث هذا أنه لم يكن يشرب الشاي وأنه من المؤذي إغراق المعدة بكميات الشاي بدفعات متتالية، مما يقلل من تناول الطعام بشكل صحي، وبالتالي منح نفسه وقتًا لإنهاء فنجانه.

بعد وقت طويل وعند انتهائه قمت وغادرت الطاولة والضيوف دون كلمة، لأني ببساطة عدتُ عاجزًا عن تحمل صحبتهم. هُرعت إلى الخارج لتبريد عقلي في هواء المساء المعتدل وإراحة ذهني أو الانغماس في أفكاري العاطفية في عزلة الحديقة.

لتجنب مراقبتي من النوافذ نزلت في طريق صغير جانبي هادئ يتفادى ذلك، حيث يوجد مقعد مزخرف بالورود وزهر العسل، جلست أفكر في خصال وعيوب نزيلة قصر وايلدفيل لكنني لم أكن لوحدي سوى دقيقتين، حيث بدأت تصلني أصوات وضحك وحركة بين الأشجار أبلغتني أن المجموعة بأكملها انتقلت إلى الحديقة أيضًا، لكن لحسن حظي كانوا قد استقروا في زاوية من التعريشة. تمنيت أن أحتفظ بمكاني في مأمن من المراقبة والتطفل. لكن لا، كان هناك شخص ما يقترب مني! لماذا لا يستمتعون بالزهور وأشعة الشمس في الحديقة المفتوحة، ويتركون تلك الزاوية الخالية من الشمس والمملوءة بالبعوض والبراغيش لي؟

لكن عند النظر نحو الأغصان المتشابكة لاكتشاف من هم المتسللون (لأن همهمة من الأصوات أخبرتني أنها أكثر من صوت واحد) هدأت روحي على الفور وحلّت مكانها مشاعرُ أخرى أهدأ، لأنها لم تكن سوى السيدة غراهام مقبلةً ببطء مع آرثر بجانبها. لكن لماذا كانا وحدهما؟ ترى هل انتشر سم الألسنة بالفعل في الحفل وأداروا جميعهم ظهورهم لها؟ تذكرت الآن أنني رأيت السيدة ويلسون في بداية الأمسيّة جالسةً قُبالة والدتي وهي منحنية للأمام ومنشغلة في إيصال بعض المعلومات الاستخبارية السرية المهمة إليها، ومن هَزِّ رأسها المتواصل والتشوهات المتكررة في ملامح وجهها المتجعد، ووميض عينيها الصغيرتين القبيحتين، شعرت أن فضيحة ما كانت تتبلور في الأجواء، ومن وشوشتها الحذرة افترضت أن ضحية افتراءاتها كانت حاضرةً. كل هذه الدلائل جنبًا إلى جنب مع اضطراب ملامح أمي وإيماءات الرعب

المختلط بالشك جعلتني أستنتج أن الأمر متعلق بالسيدة غراهام. لم أتقدم إليها من مكاني الخفي حتى كادت تصل لئلّا يدفعها وجودي إلى العودة، عندما لمحتني وقفت ثابتةً وبدا أنها تميل إلى العودة من حيث أتت.

«أعتذر منك سيد ماركهام. لا تدعنا نزعجك، جئنا إلى هنا طلبًا لبعض العزلة لا لتعكير صفو عزلتك».

«أنا لست ناسكًا سيدة غراهام ـ على الرغم من اعترافي انني أفضل تغييب نفسي بهذا الشكل غير اللائق من ضيوفي».

قالت بنظرة تشي بقلق صادق: «كنتُ أخشى أنك لست على ما يرام».

«كنت كذلك لكن الأمر انتهى الآن. اجلسي هنا قليلًا واستريحي وأخبريني برأيكِ في هذه الشجرة»، قلت وأنا أرفع آرثر من كتفيه لأزرعه في منتصف المقعد لضمان جلوس والدته التي أقرّت أنه ملاذٌ يغري باللجوء، وألقت بنفسها في جانبٍ في حين استحوذتُ على الجانب الآخر.

أزعجتني كلمة ملاذ التي نطقتُ بها، ترى هل دفعتها قسوتهم إلى السعي إلى نيل شيء من الراحة في العزلة؟

«لماذا تركوك تغادرين وحدك؟»، سألتها.

أجابت بابتسامة: «أنا من تركتهم. لقد سئمت أحاديثهم، حقيقةً لا شيء يرهقني كهذه الأمور. لا أستطيع تخيل كيف يمكنهم الاستمرار بما يفعلون»، لم يسعني إلا أن أبتسم ردًّا على تعجبها.

تابعت قائلةً: «هل يعتقدون أنه من الضروري التحدث باستمرار ولذلك لا يتوقفون للتفكير فما ينطقون به، بل يكررون عبثًا ذات الترهات التي لا هدف لها لأنهم يفشلون في الخوض في المواضيع ذات الأهمية؟ أو تراهم يفعلون ذلك لأنهم يستمتعون بالفعل؟».

قلت: «من المحتمل جدًّا أنهم يفعلون ذلك. عقولهم الضحلة لا يمكنها

أن تحمل أفكارًا عظيمة، ورؤوسهم تنجرف بعيدًا إلى حيث المواضيع التافهة التي لا تحرك العقول السليمة، وبديلهم الوحيد هو الانغماس في براثن النميمة والفضيحة التي تمثل فرحتهم الرئيسية».

«ليس جميعهم، أليس كذلك؟»، أردفت السيدة مندهشةً من مرارةِ ملاحظتي.

«لا بالتأكيد. أُبَرِّئ شقيقتي من مثل هذا السلوك الهابط، وأمي أيضًا ـ إنْ كانت من ضمن ملاحظاتكِ الانتقادية».

«لم أقصد انتقاد أي شخص، وبالتأكيد لم أقصد إلقاء أية تلميحات غير محترمة عن والدتك. لقد رأيت بعض الأشخاص العقلاء الذين انسجموا بصبر مع هذا النمط من المحادثات عندما اضْطَرَّتهم المواقف إلى ذلك، لكنها ميزة لا أفتخر بامتلاكها مع الأسف. حاولت إبقاء انتباهي في هذه الأمسية لأطول فترة ممكنة، لكن عندما شعرت أنني استنفدت طاقتي هربت منهم باحثةً عن بضع دقائق من الراحة، أكره الحديث حيث لا يوجد تبادل للأفكار أو المشاعر، ونفعٌ يؤخذ أو يُمنَح».

قلت: «حسنًا، إذا أزعجتك في أي وقت من الأوقات بثرثرتي أخبريني بذلك على الفور وأعدك بألا أشعر بالإهانة، لأنني أمتلك القدرة على الاستمتاع بصحبة هؤلاء، سواء في الصمت أو الحديث».

«لا أصدقك تمامًا، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فأنت تناسبني تمامًا كرفيق».

«أنا كل ما تتمنينه إذن؟».

«لا، لا أقصد ذلك. انظر كم هي جميلة مجموعةُ أوراق الشجر الصغيرة تلك، التي تتسلل أشعة الشمس من ورائها»، قالت محاوِلةً تغيير الموضوع.

بدَتِ الأوراقُ جميلةً بالفعل حين كانت تقع عليها أشعة الشمس من على

مسافاتٍ متباعدة من المسار أمامنا، مما أدى إلى تخفيف لونها الغامق إلى الأخضر الذهبي المتلألئ.

قالت رفيقتي: «أتمنى لو لم أكن رسامةً».

«لماذا؟ يظن المرء أنكِ في مثل هذا الوقت ستبتهجين كثيرًا لامتلاكك القدرة على تقليد لَمَساتِ الطبيعة الرائعة».

«لا. فبدلًا من الاستمتاع الكامل بهذا الجمال كما يفعل الجميع، دائمًا ما ينشغل رأسي حول كيفية تنفيذ نفس التأثير على القماش، ولمّا كان هذا لا يمكن أن يتحقق، يبقى مجرد غرور وانزعاج للروح».

«ربما لا يمكنك إرضاء نفسك، ولكن قد تنجحين في إسعاد الآخرين نتيجة جهدك».

«حسنًا، على كل حال لا يجدر بي أن أشتكي، قلة من الناس يكسبون رزقهم بالكثير من المتعة في كدحهم كما أفعل. أعتقد أن هناك شخصًا قادمًا».

بدت منزعجة من الانقطاع.

قلت: «إنه السيد لورانس والآنسة ويلسون فقط يستمتعان بنزهة هادئة. لن يُزعجانا».

لم أتمكن من فك رموز تعبير وجهها، لكنني واثق من عدم وجود غَيْرةٍ فيه. ما الذي يجب أن أبحث عنه؟

«أي نوع من الأشخاص هي الآنسة ويلسون؟»، سألتني.

«إنها أنيقة وبارعة بالنسبة إلى مكان ولادتها ومكانتها الاجتماعية، والبعض يقول إنها مهذبة ومقبولة».

«شخصيًّا شعرتُ أنها جامدة ومتغطرسة إلى حد ما في أسلوبها معي اليوم».

«من المحتمل أنها كانت كذلك معكِ، ربما اتخذت تحيزًا ضدك، لأني أعتقد أنها تنظر إليكِ كمنافس».

«أنا؟ مستحيل سيد ماركهام»، قالت باندهاش وانزعاج واضحين.

«حسنًا، لا أعرف شيئًا عن ذلك»، قلت بإصرار لأنني شعرت أن انزعاجها كان موجهًا ضدي.

اقترب الزوجان الآن في غضون بضع خطوات منا. كانت التعريشة التي جلسنا فيها منصوبة بشكل مريح في الزاوية، ويتحول الطريق من بعده إلى مسار أكثر تهوية على طول الجزء السفلي من الحديقة. عندما كانا على وشك الاقتراب منا، لاحظت أن جين ويلسون كانت توجّه انتباه رفيقها إلينا بابتسامتها الباردة والساخرة، كنت أعرف جيدًا أنها كانت تقنعه بفكرة أننا كنا مرتبطين بعضنا ببعض، لأنني لاحظت أن لونه امتقع واكتفى بإلقاء نظرة عابرة ومشى. بدا جادًّا، ولكن يبدو أنه لم يقدم أي رد على ملاحظاتها.

كان صحيحًا إذن، لديه بعض المخططات للسيدة غراهام، ولو كانت أمورًا جيدة لما كان حريصًا على إخفائها. لا يمكن لومه بالطبع، لكنه كان مقيتًا للغاية.

بينما كانت هذه الأفكار تومض في ذهني نهضت رفيقتي فجأة ودعت ابنها لمرافقتها قائلةً إنهما سيعودان إلى المجموعة. لا شك أنها سمعت أو خمّنت شيئًا من ملاحظات الآنسة ويلسون، وبالتالي كان من الطبيعي أن تختار مواصلة الحديث وجهًا لوجه، خاصةً وأن وجنتيّ كانتا في تلك اللحظة تحترقان من السخط على صديقي السابق، الأمر الذي ربما ظنّته جرّاء إحراج سخيف. هذا الأمر ضاعف غضبي من الآنسة ويلسون، وما زلت كلما أتذكر سلوكها أكرهها أكثر.

كان الوقت قد تأخر في تلك الأمسية عندما عدتُ للانضمام إلى المجموعة حيث وجدت السيدة غراهام تتجهز بالفعل للمغادرة وهي تحيي من بقي منهم حيث كان الغالبية قد غادر. عَرَضْتُ ـ بل توسلت ـ مرافقتها لإيصالها إلى منزلها. كان السيد لورانس يقف في ذلك الوقت ويتحدث مع شخص آخر.

لم يكن ينظر إلينا، ولكن عند سماعه طلبي توقف عما كان يقوله لسماع ردها، ومضى بنظرة رضًا هادئة في اللحظة التي سمع فيها رفضها.

لقد تقرر الرفض وإن لم يكن بأسلوب قاسٍ، ولا يمكن إقناعها باحتمال وجود خطر عليها أو طفلها عند عبور تلك الممرات والحقول المنعزلة وحدهما. كان النهار ما زال قائمًا ومن غير المحتمل أن تلتقي بأحد، وحتى في حال فعلت، فالناس هنا هادئون وغير مؤذين، ولذلك كانت مطمئنة تمامًا. في الواقع، لم تلتقي بشخص مستعد للخروج عن طريقه لمرافقتها، على الرغم من أن فيرغوس قد تعهد بتقديم خدماته في حال كانت مقبولة أكثر من خدماتي، وتوسلتها أمي أن تسمح لها بإرسال أحد المزارعين معها لمرافقتها.

بعد مغادرتها كان كل شيء يبدو فارغًا وأسوأ. حاول لورانس أن يجرّني إلى محادثة، لكنني تجاهلته وذهبت إلى جزء آخر من الغرفة. بعد فترة وجيزة من انتهاء الحفلة وهو يهم بالمغادرة جاء إليّ لتوديعي، تجاهلت يده الممدودة كأنني أعمى، وتمنياته لي بليلة سعيدة كأنني أصم، لدرجة أنه كررها مرة أخرى، وللتخلص منه تمتمت برد غير واضح مصحوبًا بإيماءة غير مبالية.

«ما الأمر يا ماركهام؟»، همس.

أجبته بنظرة غاضبة ومحتقرة.

«هل أنت غاضب لأن السيدة غراهام لم تسمح لك بالعودة إلى المنزل معها؟»، سأل بابتسامة باردة كادت أن تفجر غضبي.

لكنني ابتلعت كل الإجابات الشرسة التي كان يمكنني الرد بها وسألته: «وما شأنك بذلك؟».

أجاب بهدوء: «أنا؟ لا شيء»، لكنه بعدها رفع عينيه إلى وجهي وتحدث بجدية بالغة: «فقط دعني أخبرك يا ماركهام أنه إذا كانت لديك أي نيّاتٍ أو خطط تجاهها فإنها ستفشل بالتأكيد، ويحزنني أن أراك متمسكًا بآمال زائفة، وتهدر طاقتك في جهود غير مجدية، من أجل...».

«منافق»، صرختُ في وجهه. حبس أنفاسه وبدا فارغًا بعد أن شحب لونه للغاية، ثم غادر فورًا دون أن ينبس ببنت شفة.

كنتُ قد جرحته بعمق. وكنت سعيدًا بذلك.

الفصل العاشر

عندما غادروا، علمت أن الافتراء الحقير قد عُمِّمَ بالفعل على الجميع وفي حضور الضحية. ومع ذلك، أقسمتْ روز بأنها من المستحيل أن تصدق ذلك، وكذلك قالت والدتي، على الرغم من أنني شعرت بأنها تحمل بعض الشكوك الراسخة في ذهنها، لأنها ظلت تزعجني من وقت إلى آخر بتعبيرات مثل: «يا إلهي يا إلهي، من كان يظن ذلك.. لطالما أحسست أن هناك شيئًا غريبًا عنها».

«لقد أخطأتْ في الظهور بهذا الغموض من البداية، كنت أشعر أنه لن يكون هناك خير من وراء ذلك. يا له من تصرف مؤسف!».

«لماذا هذا الكلام يا أمي؟ ألم تقولي للتو إنكِ لا تصدقين هذه الحكايات؟»، قال لها فيرغوس.

«عدتُ لا أفعل يا عزيزي، ولكن على كل حال، كما تعلم، لا بد من وجود بعض الأساس لها».

قلت: «الأساس يكمن في شر وأباطيل هذا العالم، والحقيقة أن السيد لورانس اتخذ هذا الطريق، تقول شائعات القرية إنه حاول التقرب من السيدة الغريبة لأكثر من مرة، وقد تلقّف تجار الفضائح هذه الشائعات بجشع وجعلوها أساسًا لحكاياتهم الجهنمية».

«حسنًا. لكن غيلبرت، لا بد أن هناك شيئًا ما في أسلوبها يغذّي مثل هذه الشائعات».

«هل رأيتِ أنتِ شيئًا في أسلوبها؟».

«حتماً لا. لكن على الرغم من ذلك، وكما تعلم، دائمًا ما شعرت أن هناك شيئًا غريبًا عنها».

في ذلك المساء، غامرتُ بغزو جديد لقصر وايلدفيل. كان قد مضى أسبوع على حفلنا، وكنت أبذل جهودًا يومية للالتقاء بها عند خروجها لنزهاتها ودائمًا ما أفشل (لا بد أنها كانت تفعل ذلك عن قصد)، وفي الليالي كانت تنمو في ذهني ذرائعُ جديدةٌ للقيام بخطوة أخرى. كنت بالفعل قد استنتجت أن الانفصال عاد لا يكون ممكنًا (وسترى أنني في هذه الفترة كنت في الواقع بعيدًا جدًّا). أخذت من خزانة الكتب مجلدًا قديمًا اعتقدت أنها قد تكون مهتمة به ـ على الرغم من حالته المتهالكة نوعاً ما ـ ولم أفكر حتى بفتحه أو الاطلاع عليه، بل هُرعت به إلى منزلها، لا يشغل بالي سوى كيفية استقبالها لي، أو كيف يمكنني استدعاء الشجاعة لتبرير زيارتي لها بمثل هذا العذر. لكن ربما أصادفها في الحقل أو الحديقة، وبعدها لن تكون هناك صعوبة كبيرة حيث إنها مصادفة عادية في طريق عام. على البوابة، استقبلني وجه ريتشيل بشكل جاد متفاجئ ودون أدنى ودٍّ أو ترحيب، الأمر الذي أزعجني بشدة.

لم تتحقق أمنيتي على الرغم من كل ذلك، فلم أتمكن من رؤية السيدة غراهام، ولكن كان هناك آرثر يلعب مع كلبه الصغير في الحديقة، طلب مني الدخول لكني أخبرته أنني لا أستطيع دون إذن والدته.

قال الطفل: «سأذهب وأسألها».

«لا، لا، آرثر، لا تفعل ذلك. ولكن إذا لم تكن مشغولةً، فاطلب منها الحضور إلى هنا لمدة دقيقة. قل لها إنني أريد التحدث معها».

ركض لتنفيذ ما طلبته منه وسرعان ما عاد مع والدته. بدت جميلةً جدًّا مع خصلاتها المحيطة بوجهها المتورد كأجراسٍ يداعبها نسيم الصيف الخفيف، وابتسامة دافئة تشعّ منها. عزيزي آرثر! كم أنا مدين لك بهذا اللقاء وكل لقاء سعيد آخر؟ تحررت في الحال من كل الشكليات والقيود. في شؤون الحب،

لا يوجد وسيط أفضل من طفل مرح ونقي القلب، مستعد دائمًا لجمع القلوب المنقسمة، وإذابة الجليد القائم بينها، والإطاحة بجدران الشكليات البغيضة التي تفصلها بعضها عن بعض.

«حسنًا يا سيد ماركهام، ما هذا؟»، قالت الأم الشابة بابتسامة لطيفة.

«أتمنى منكِ الاطّلاع على هذا الكتاب، وإن أحببتِ، قراءته في وقت فراغك، ولا أعتذر عن دعوتك في مثل هذه الأمسيّة الجميلة، على الرغم من أنها مسألة لا تتعدى ذلك».

قال آرثر: «قولي له أن يدخل ماما».

«هل تود الدخول؟»، سألت السيدة.

«بالطبع، أود أن أرى تحسيناتك في الحديقة».

«وكيف ازدهرت نباتات شقيقتك في رعايتي؟»، أضافت وهي تفتح البوابة.

تجولنا في الحديقة وتحدثنا عن الزهور والأشجار والكتاب ثم عن أشياء أخرى. كان المساء لطيفًا ورائقًا، وكذلك كانت رفيقتي. شعرت بأنها تعاملني بدفء أكثر من أي وقت مضى، مع ذلك لم أتجاسر على قول أي كلام يمكنه أن يستفزها، ولم أرَ أي صد منها، إلى أن اقتربنا من نبتة كنتُ قد أحضرتها لها قبل بضعة أسابيع باسم شقيقتي، قطفَتْ برعمًا جميلًا متفتحًا منه قليلًا وطلبت مني إعطاءه لروز.

«ألا يمكنني الاحتفاظ به لنفسي؟»، سألتها.

«لا. لدي شيء آخر من أجلك».

بدلاً من أن أخذ البرعم منها بهدوء، احتفظتُ بيدها للحظات وأنا أنظر إلى وجهها، سمحت لي بذلك دون اعتراض ورأيتُ وميضَ انتشاءٍ في عينيها، ووهج من الإثارة السارة علا وجهها ـ اعتقدت أن ساعة انتصاري

بقلبها قد حلّت ـ ولكن على الفور بدا أن ذكرياتٍ مؤلمة تتسلل إليها، سحابة من الألم سحبت التورّد من مُحَيّاها وحل الشحوب الرخامي الأبيض محلّها. بدت هناك للحظةٍ ضحيةُ صراعٍ داخلي قاس، وبجهد مفاجئ، سحبت يدها وتراجعت خطوة أو خطوتين إلى الوراء.

قالت بنبرة من الهدوء اليائس: «سيد ماركهام، يجب أن أخبرك بوضوح أنني لا أستطيع أن أفعل هذا. تعجبني رفقتك لأنني وحيدة هنا، ومحادثاتك تبعث فيّ الراحة أكثر من أي شخص آخر، ولكن إذا كنت لا تستطيع أن تكتفي باعتباري صديقة عادية أو أقرب إلى الأم أو الأخت، فأنا مضطرة إلى أن أطلب منك تركي وشأني، في الواقع من الأفضل أن نكون غرباء».

«سأكون إذن صديقك أو أخيك أو أي شيء يرضيكِ، إذا سمحت لي فقط بمواصلة رؤيتك، لكن هل لي أن أعلم لماذا لا تسمحين لي أن أكون أكثر من ذلك؟».

كانت هناك وقفة حائرة ومدروسة.

«هل هو نتيجةٌ لعَهد متهورٍ قطعتيه؟».

أجابت: «إنه شيء من هذا القبيل. قد أخبرك يومًا ما، ولكن في الوقت الحالي من الأفضل لك أن تتركني ولا تضعني في مواجهة مؤلمة تجبرني على تكرار ما قلته لك الآن يا غيلبرت»، أضافت بجدية ومنحتني يدها بلطف شديد. كم بدا اسمي موسيقيًا وجميلًا وهي تنطق به!

أجبتها: «لن أفعل، وليتكِ تغفرين لي تجاسري».

«بشرط ألا يتكرر أبدًا».

«وهل لي أن آتي لرؤيتك بين الحين والآخر؟».

«ربما من حين إلى آخر، شريطة ألا تسيء استخدام هذا الامتياز».

«أنا لا أقدم وعودًا فارغة، سترين».

«لحظةَ تفعلها يمكنك اعتبار علاقتنا اللطيفة هذه منتهية، هذا كل شيء».

«وهل ستناديني دائمًا بغيلبرت؟ يبدو الأمر أكثر أخوة وسيذكرني باتفاقنا هذا».

ابتسمت وطلبت مني أن أذهب مرة أخرى، واستَطْرَدَتْ ملاطِفَةً أنه من الحكمة أن أطيعها وعادت إلى المنزل. ولكن بينما كنت أسير انتبهتُ لصوت حوافر خيل يقترب من المكان ويكسر سكون المساء النديّ. نظرتُ نحو الممر ورأيت فارسًا منفردًا قادمًا عرفته في لمحة: كان السيد لورانس على حصانه الرمادي. طِرتُ عبر الحقل وقفزت على السياج الحجري ثم مشيت عبر الممر نحوه. عندما رآني لجم فجأةً حصانه، وبدا أنه يميل إلى العودة إلى الوراء، ولكن بعد إعادة التفكير بدا أنه من الأفضل مواصلة مسيرته، تقدّم نحوي بانحناءة خفيفة واقترب من الجدار وحاول المرور، لكنني أمسكت بحصانه من اللجام وأنا أصرخ في وجهه: «لورانس، سأحل هذا اللغز! أخبرني إلى أين أنت ذاهب وما تنوي فعله في الحال وبشكل واضح!».

«هلا رفعت من فضلك يدك عن اللجام؟»، قال بهدوء، «أنت تؤذي فم حصاني. ما الذي يجعلك قاسيًا ووحشيًّا بهذا الشكل يا ماركهام؟ أنا أشعر بالخجل منك».

«ستجيبني عن أسئلتي قبل أن تغادر هذا المكان! وسأعرف ما تنويه بهذه الازدواجية الغادرة!».

«لن أجيب عن أي أسئلة حتى تترك اللجام، وإن بقيت واقفًا حتى الصباح».

«الآن»، قلت وأنا أترك اللجام، لكني بقيت واقفًا أمامه.

«اسألني في وقت آخر، عندما يمكنك التحدث مثل رجل نبيل»، رد وهو يبذل جهدًا للمرور مرةً أخرى، لكنني سرعان ما أعدتُ أسر حصانه الذي كان أقل دهشة من سيده في مثل هذا التصرف غير المتمدن.

«حقًّا سيد ماركهام، هذا كثير جدًّا!»، قال الأخير، «ألا يمكنني الذهاب لرؤية المستأجر الخاص بي لمناقشة الأمور المالية دون أن أُعَرَّض للاعتداء بهذه الطريقة؟».

«هذا ليس وقت العمل سيدي! هل أخبرك بما يشي به سلوك كهذا؟».

قاطعني بنبرة منخفضة: «من الأفضل أن تؤجل هذا إلى وقت أكثر ملاءمة، ها هو القس». وفي الحقيقة، كان القس ورائي عائدًا إلى منزله من مكان بعيد ضمن أبرشيته. أطلقت سراح لورانس وذهب لتحيّة السيد ميلوارد أثناء مروره.

«عمّ تُشَاجِر يا ماركهام؟»، صرخ الأخير مخاطبًا إياي، «لا بد أنها تلك الأرملة الشابة»، وأضاف وهو يهز رأسه موبّخًا: «دعني أخبرك أيها الشاب» ـ واصَلَ وهو يقرّب وجهه من وجهي بشكل جاد ـ «إنها لا تستحق ذلك!»، وأكّد التأكيد بإيماءة رسمية.

«سيد ميلوارد!»، صرختُ في وجهه بنبرة من التهديد الغاضب الذي جعل الرجل المبجل ينظر حوله ـ مذعورًا، ومندهشًا من هذه الوقاحة غير المتوقعة، ومحدقًا إلى وجهي بنظرة تقول بوضوح: «ماذا؟ هذه النبرة موجّهة إليّ؟!»، لكنني كنت غاضبًا جدًّا من أن أعتذر أو أتحدث معه بكلمة أخرى، لذلك التفتُ وأسرعت عائدًا إلى المنزل، عابرًا المنحدر الوَعْر وتاركًا إياه برفقة صدمته الغاضبة.

الفصل الحادي عشر

انقضت ثلاثة أسابيع، أصبحنا أنا والسيدة غراهام أصدقاء، أو إخوةً كما اخترنا أن نعتبر أنفسنا. تناديني غيلبرت وأناديها هيلين، لأنني رأيت هذا الاسم مكتوبًا في كتبها. نادرًا ما حاولت رؤيتها أكثر من مرة في الأسبوع، وما زلتُ أجعل لقاءاتنا تظهر كمصادفاتٍ قدر المستطاع ـ لأنني وجدت أنه من الضروري توخي الحذر ـ وإجمالًا أتصرف بلياقة مفرطة لدرجة أنها لم تُتَح لها الفرصة لتوبيخي مرة واحدة. مع ذلك، كان جليًّا أنها كانت في بعض الأحيان غير سعيدة أو راضية عن نفسها أو تعاملها، وفي الحقيقة أنا نفسي لم أكن راضيًا أيضًا، كان من الصعب جدًّا المحافظة على تصنّع التعامل الأخوي، وغالبًا ما شعرت أنني منافق. رأيت أيضًا، أو بالأحرى أحسست أنها تشاركني ذات الشعور بهذا الأمر، وعلى الرغم من أنني كنت أستمتع بحسن حظي الحالي، لم أستطع منع نفسي من تأمّل شيء أفضل في المستقبل، لكن بالطبع، احتفظت بهذه الأحلام لنفسي.

«إلى أين أنت ذاهب يا غيلبرت؟»، قالت روز ذات مساء عندما نهضت للخروج بعد وقت قصير من تناول الشاي، بعدما كنت مشغولًا بالمزرعة طوال النهار.

كان الرد: «للتَّمَشِّي».

«هل تقوم دائمًا بتمشيط قبعتك بعناية شديدة وتصفيف شعرك بشكل أنيق، وارتداء مثل هذه القفازات الجديدة عندما تمشي؟».

«ليس دائمًا».

«أنت ذاهب إلى قصر وايلدفيل، أليس كذلك؟».

«ما الذي يجعلك تعتقدين ذلك؟».

«لأنك تبدو كما لو كنت كذلك ـ لكني أتمنى ألا تذهب كثيرًا».

«هراء! لا أذهب حتى مرة كل ستة أسابيع ـ ماذا تقصدين؟».

«حسنًا، ولكن لو كنت مكانك فلن يكون لدي الكثير لأفعله مع السيدة غراهام».

«لماذا يا روز، هل استسلمتِ أنت أيضًا للرأي السائد؟».

«لا»، أجابت بتردد، «لكنني سمعت الكثير عنها مؤخرًا، من ويلسون ونائب القس، بالإضافة إلى ذلك تقول ماما إنها إذا كانت شخصًا محترمًا لَمَا كانت تعيش هناك لوحدها ـ ألا تتذكر الشتاء الماضي يا غيلبرت؟ كل ذلك الحديث عن الاسم المستعار على اللوحة، وكيف بررت ذلك قائلةً إن لديها أصدقاء أو معارف أرادت إخفاء مسكنها الحالي عنهم وأنها كانت تخشى اقتفاء أثرها، ثم كيف نهضت فجأة وغادرت الغرفة عندما جاء ذلك الشخص ـ مَن هذا المهم بالنسبة إليها لدرجة منعنا من إلقاء نظرة عليه، ذلك الذي أخبرنا آرثر في مثل هذا الموقف الغامض أنه صديق والدته؟».

«نعم روز، أتذكر كل شيء، ويمكنني تفهّم استنتاجاتك غير المتسامحة، إذا لم أكن أعرفها بنفسي لكنت الآن قد جمعت كل هذه الدلائل مع بعضها بعضًا وآمنت ـ كما تفعلين ـ بصدق ما يشاع عنها، ولكن أشكر السماء أنني أعرفها جيدًا، ولا أستحق اسم رجل إذا كنت سأصدق أي شيء يقال ضدها، إلا إذا سمعته من شفتيها. في هذه الحالة، سأصدق سريعًا مثل هذه الأشياء إذا قيلت عنكِ أيضًا يا روز».

«أوه غيلبرت!».

«حسنًا، هل تعتقدين أنه يمكنني تصديق أي شيء من هذا القبيل عنكِ ـ مهما تجرأ ويلسون وميلوارد؟».

«لا آمل حقًا!».

«ولماذا لا؟ لأنني أعرفك. حسنًا، وأنا أعرفها أيضًا كذلك».

«لا! أنت لا تعرف شيئًا عن حياتها السابقة. في مثل هذا الوقت من العام الماضي، لم تكن تعلم بوجودها من الأساس».

«لا يُهم. يمكن لنظرة في عيون الشخص أن توصلك إلى قلبه ليخبرك الكثير عن سمو واتساع وعمق روحه في ساعة واحدة، بدلًا من أن تستهلك عمرًا لاكتشافه إذا لم يكن هذا الشخص يريد الكشف عنه، أو إذا لم يكن لديك الحس لفهمه».

«إذن هل ستراها هذا المساء؟».

«حتمًا سأفعل!».

«ولكن ماذا ستقول لماما يا غيلبرت؟».

«ماما لا تحتاج إلى أن تعرف».

«لكن حتمًا ستعرف بالأمر إذا واصلتَ...».

«أواصل ماذا؟ ليس هناك ما يحدث. السيدة غراهام وأنا صديقان، وسنبقى كذلك وليس من حق كائن من كان التدخل بيننا».

«ولكن، إن كنت تعرف كيف يتحدثون فستكون أحرصَ من أجلها وكذلك من أجلك. تعتقد جين ويلسون أن زياراتك للقصر القديمة دليل إضافي على فسادها...».

«عليها اللعنة جين ويلسون هذه!».

«وإليزا ميلوارد حزينة جدًّا منك».

«أتمنى أن تبقى كذلك».

«لم أكن لأفعل هذا لو كنت مكانك».

«أفعل ماذا؟ كيف يعرفون أنني أذهب إلى هناك من الأساس؟ بالطبع، لا يخفى شيء عنهم لأنهم يتجسسون على كل شيء. يا إلهي، لم أفكر في هذا أبدًا! ولذلك تجرؤوا على تحويل موضوع صداقتي بها إلى دليل فساد لتغذية الفضيحة ضدها، وهذا يثبت زيف أكاذيبهم الأخرى. احذري من معارضة كلامهم قدر المستطاع يا روز».

«لكنهم لا يتحدثون معي بصراحة عن مثل هذه الأشياء، ليست سوى تلميحات يطلقونها، ومن خلال ما يتناقله الآخرون علمت ما يفكرون به».

«حسنًا إذن، لن أذهب اليوم لأن الوقت تأخر. آه، فليأخذ إبليس ألسنتهم الملعونة المسمومة!»، تمتمتُ بمرارة.

في تلك اللحظة دخل القس الغرفة، لقد انغمسنا كثيرًا في محادثتنا لدرجة أننا لم ننتبه لطرقه على الباب. بعد تحيته المعتادة المبهجة والأبوية لروز التي كانت المفضلة لدى الرجل العجوز، التفت إليّ قائلًا بنبرة حازمة:

«حسنًا يا سيدي. أنت غريب جدًّا، فلنرَ..».

تابع الكلام ببطء وهو يودِع كتلة جسده الضخمة كرسيًّا بذراعين أحضرته إليه روز: «انقضت ستة أسابيع حسب تقديري منذ أن طرقت بابي!»، تحدث بها بتركيز وضرب بعصاه على الأرض.

«هل فعلًا مر كل هذا الوقت يا سيدي؟»، قلت.

«نعم!»، أضاف بإيماءة مؤكدة واستمر في التحديق إليّ بنوع من الجدية الغاضبة، ممسكًا عصاه بين ركبتيه ويداه مقيدتان فوقه.

قلت: «لقد كنت مشغولًا»، لأنه من الواضح أنه كان يطلب مني اعتذارًا.

«هه، مشغول!»، كرر بسخرية.

«نعم، أنت تعلم أن موسم الحصاد بدأ».

«همم!».

عندها جاءت والدتي، وخلقت مَهرباً لصالحي من خلال ترحيبها الثرثار والحيوي بالضيف الموقر. أعربت عن أسفها الشديد لأنها لم تأتِ لاستقباله وقت تناول الشاي، وسألته إن كان يود شرب بعضٍ منه برفقتها.

أجاب: «لا شيء لي، أشكركِ، لا بد أن أكون في المنزل خلال بضع دقائق».

«أوه، فلتبقَ وتشرب كوبًا على الأقل! سيكون جاهزًا خلال خمس دقائق».

لكنه رفض العرض بتلويحة من يده المهيبة، ثم قال:

«سأخبرك بما أود تناوله سيدة ماركهام، سآخذ كأسًا من بيرتكِ الممتازة».

«بكل سرور!»، أجابت والدتي وهي على وشك البكاء سعادةً وقرعتِ الجرسَ لطلب المشروب.

وتابع: «لقد فكرت وأنا مارٌّ من هنا أن أدخل وأتذوق البيرة المصنوعة في المنزل. لقد كنت في زيارة إلى السيدة غراهام».

«حقًّا؟».

أومأ برأسه بجدية وأضاف بتأكيد: «أعتقد أنه يتحتم عليَ القيام بذلك».

«حقًّا!»، كررت أمي.

«لماذا يا سيد ميلوارد؟»، سألتُ.

نظر إلي بشيء من الحزم، ثم عاد إلى والدتي وكَرّر: «اعتقدتُ أن هذا من واجبي!»، وضرب عصاه على الأرض مرةً أخرى. جلستْ والدتي في الجهة المقابلة منتبهةً ومندهشة.

قالت لي السيدة غراهام وهي تهز رأسها باستنكار: «هذه شائعات مروّعة، ما الذي تقوله يا سيدي». قلتُ: «من واجبي بصفتي راعيكِ أن أخبرك بكل ما أراه شخصيًّا أمرًا مستهجنًا في سلوكك وكل ما لدي سبب للشك فيه، وما يقوله لي الآخرون بشأنك. لذا أخبرتها!».

«أيعقل يا سيدي؟»، صرخت وأنا أنهض من مقعدي وأضرب قبضتي على الطاولة. نظر إليّ فقط وتابع يخاطب مضيفته: «لقد كان واجبًا مؤلمًا سيدة ماركهام ـ لكني أخبرتها!».

«وكيف تعاملتْ مع الأمر؟»، سألت والدتي.

«بتصلّب، أخشى!»، أجاب بهزة يائسة في الرأس. «وفي الوقت نفسه بدا أن الأمر أثارها عاطفيًّا بشكل قوي، شحب وجهها وأصبحت تتنفس بوحشية وغضب من خلال أسنانها لكنها لم تتقدم بأي دفاع، بل استمرت بالتمسك بهدوئها المخزي. المروع حقًّا أن أشهد موقفًا كهذا مع امرأة صغيرة وأكتشف أن احتجاجي لا وزن له وأن نصيحتي الرعوية فشلت معها تمامًا، بل كان من الواضح أن وجودي بحد ذاته مثير لاستيائها حين كنت أتحدث. لذلك انسحبت وأنا متيقن أنه لا يمكن فعل أي شيء ـ وللأسف فإنني حزين لأن قضيتها ميؤوس منها. لكنني مصمم تمامًا على منع ابنتي من الاختلاط بها سيدة ماركهام، هل تتبنين نفس القرار فيما يتعلق بابنتك؟ أما بالنسبة إليك أيها الشاب، فتابع ما تفعله»، قالها بحدّة وهو ملتفت بكلّه إلي.

«بالنسبة إليّ يا سيدي»، بدأت أتحدث، لكنني وجدت أن جسدي بالكامل يرتجف من الغضب، وعليه لم أقل شيئًا، رفعت قبعتي لتحيّته وغادرت الغرفة وأنا أغلق الباب خلفي بقوة هزت المنزل حتى أساساته، وجعلت والدتي تصرخ.

خلال لحظة كنتُ أسرع بخطوات واسعة في اتجاه قصر وايلدفيل، لغرضٍ بالكاد كان يمكنني تحديده أو تفسيره، كنت أشعر فقط أنني يجب أن أتحرك إلى مكان ما، ولن يُغنِيَ عن ذلك أي هدف آخر. يجب أن أراها وأتحدث معها، كان ذلك مؤكدًا، ولكن ماذا أقول، أو كيف أتصرف، لم يكن لدي فكرة محددة. مثل هذه الأفكار العاصفة والكثير من القرارات المختلفة احتشدت في رأسي، لدرجة أن عقلي كان كتلةً من المشاعر المتضاربة الفوضوية.

الفصل الثاني عشر

بعد أكثر من عشرين دقيقة بقليل كنت أقف أمام البوابة لمسح جبهتي المبللة بالعرق واستعادة أنفاسي وشيءٍ من رباطة جأشي. كان المشي السريع بالفعل قد خفف إلى حد ما من توتري. بخطوات ثابتة سرت في الحديقة، وعندما اقتربتُ من المبنى المأهول في المنزل لمحتُ السيدة غراهام من خلال النافذة المفتوحة وهي تسير ببطء في غرفتها المنعزلة.

بدت غاضبة بل ومنزعجة عند وصولي، كما لو أنها اعتقدت أنني أيضًا قادم لاتهامها. كنت قد دخلت وأنا عازم على التكاتف معها ضد تحامل العالم عليها، ومساعدتها على التعامل مع إساءة القس ومخبريه الحقراء، لكنني الآن أصبحت أشعر بالخجل من ذكر الموضوع، وعقدت العزم على عدم ذِكره إلا إذا كان هذا قرارها الخاص.

قلت لها: «لقد جئت في ساعة غير مناسبة»، ـ مفترضًا شعورها بشيء من البهجة التي لم أشعر بها ـ ثم من أجل طمأنتها قلت: «لكنني لن أبقى سوى عدة دقائق».

ابتسمت لي بهدوء ولطف شديد ـ لقد كدت أن أقول لحسن الحظ.

«ما هذه الكآبة هيلين! لماذا لا يوجد لديك نار؟»، قلت وأنا أنظر حولي إلى الشقة الكئيبة.

فأجابت: «إنه الصيف بعد».

«لكننا دائمًا نشعل النار في المساء إذا استطعنا تحملها، وأنتِ تحتاجين بشكل خاص إلى ذلك في هذا المنزل البارد والغرفة الكئيبة».

«ليتك أتيت مبكرًا، كنتُ لأشعلها لكن الأمر لا يستحق ذلك الآن، لأنك لن تمكث سوى عدة دقائق كما تقول، ثم إن آرثر ذهب إلى النوم».

«ولكن لدي رغبة في إشعال النار، هل ستطلبين إشعالها إذا قرعت الجرس؟».

«لماذا يا غيلبرت، لا تبدو أنك تشعر بالبرد لهذا الحد!»، قالت مبتسمةً إذ تتأمل وجهي الذي بدا بلا شك دافئًا بدرجة كافية.

أجبت: «لا. لكني أريد أن أتأكد أنكِ مرتاحة قبل أن أغادر».

«أنا بخير!»، قالتها بضحكة مريرة كأنها تصف فكرة سخيفة شيئًا، وأضافت بنبرة حزينة: «هذا يناسبني بشكل أفضل».

لكنني قررت فعل الأمر بطريقتي الخاصة، فقرعت الجرس.

«هيا، الآن هيلين!»، قلتُ، حين كانت خطوات ريتشيل تقترب ردًّا على الاستدعاء. لم يكن أمامها سوى الرضوخ والالتفاف إلى الخادمة والطلب منها إشعال النار.

أنا مدين لريتشيل بضغينة حتى يومنا هذا بسبب النظرة التي ألقتها عليّ قبل أن تغادر لتنفيذ مهمتها، تلك النظرة الحامضة، والمشبوهة، والاستقصائية، والمتسائلة بوقاحة: «لماذا أنتَ هنا؟»، لم تفشل سيدتها في ملاحظة ذلك أيضًا وغمرت ملامحها موجةٌ من عدم الارتياح.

قالت عندما أُغلق الباب علينا: «لا يجب أن تبقى طويلًا يا غيلبرت».

«لن أفعل ذلك»، قلتُ بنوع من التحفظ، على رغم عدم وجود ذرة من الغضب في قلبي ضد أي شخص سوى تلك المرأة العجوز. «لكن هيلين، لدي ما أقوله لك قبل أن أذهب».

«ما هو؟».

«لا، ليس الآن، لا أعرف بعد ما هو بالضبط، أو كيف أقول ذلك»، أجبتها

بصدق. وبعد ذلك خشية أن تطلب مني مغادرة المنزل، بدأت أتحدث عن أمور غير مهمة من أجل كسب الوقت. في هذه الأثناء، دخلت مجددًا ريتشيل وسَرعان ما أشعلت النار، وهي تكرمني بواحدة أخرى من تعابيرها القاسية غير المِضْيَافة التي تطلب مني المغادرة، لكنها بالكاد أثّرت فيّ. واصلت الحديث وأنا أضع كرسيًّا للسيدة غراهام على جانب من الموقد، وآخر لنفسي على الجانب الآخر. غامرتُ بالجلوس على الرغم من إحساسي أنها تفضّل أن أغادر.

بعد فترة وجيزة عاد كلانا إلى الصمت والتحديق بتجرد إلى النار لعدة دقائق ـ كانت غارقة في أفكارها الحزينة، وأنا أفكر كم سيكون من الرائع أن نجلس وحدنا دون أيِّ أحد يعكر صفونا، ولا حتى آرثر صديقنا المشترك الذي لم نلتقِ دونه من قبل. آه، لو كنت أجرؤ فقط على التعبير عما يثقل قلبي من المشاعر التي اضطهدَتها لفترة طويلة وكافحتُ للاحتفاظ بها لنفسي بجهدٍ بدا أنه من المستحيل الاستمرار فيه لفترة أطول، أن أحدثها عن الإيجابيات والسلبيات التي تترتب على فتح قلبي لها وأطلب منها الإذن بأن أعتبرها من الآن فصاعدًا خاصّتي، وأن تمنحني الحق في الدفاع عنها أمام افتراءات الألسنة الحاقدة.

من ناحية، كنت أشعر بثقة حديثة العهد بقدراتي على الإقناع ـ إيمان قوي بأن حماستي الروحية ستمنحني البلاغة في حضرتها ـ وأن إصراري بالذات هو الضرورة المطلقة للنجاح الذي سيوصلني إلى ما سعيت لأجله. بينما من ناحية أخرى كنت أخشى أن أفقد الأرض التي كسبتها بالكثير من الجهد، وأن أدمر كل أمل مستقبليّ محتمل بخطوة متهورة واحدة، في الوقت الذي تحقق لي فيه النجاح نتيجة الصبر. على أي حال، أنوي أن ألتمس منها إخباري بالتفسير الذي وعدتني به من قبل، أن أفهم سبب وجود هذا الحاجز البغيض بيننا، هذا العائق الغامض لسعادتي ـ وأثق ـ لسعادتها أيضًا. لكن بينما

كنت أفكر في الطريقة التي يمكنني بها إيصال ما يدور بخَلَدِي بأفضل شكلٍ، استيقظتْ رفيقتي من حلمها بتنهيدة بالكاد مسموعة وتطلعت نحو النافذة حيث قمر الحصاد الدموي الأحمر كان قد ارتفع للتو، قالت: «غيلبرت، لقد تأخر الوقت».

قلت: «فهمت، تريدينني أن أذهب على ما أعتقد؟».

«أعتقد أنه يجب عليك ذلك. إذا عَلِمَ جيراني الطيبون بشأن هذه الزيارة ـ كما سيفعلون بلا شك ـ فلن يكون الأمر في صالحي». قالت هذا وهي تبتسم تلك الابتسامة التي وصفها القس بـ«ابتسامة وحشية».

قلت: «فليلفّقوا كما يريدون، بِمَ ستؤثر أفكارهم فيك أو فيّ، ما دُمنا راضين عن أنفسنا وبعضنا بعضًا. فليذهبوا إلى الجحيم مع أفكارهم الدنيئة وتلفيقاتهم الكاذبة!».

تدفق الدم إلى وجهها وهي تتأمل انفعالي.

«سمعتَ إذن ما يقولونه عني».

«سمعت بعض الأكاذيب المقيتة. لكن لا أحد سوى الحمقى يصغي إليهم يا هيلين، لذا لا تدعيهم يزعجوك».

«لم أكن أعتقد أن السيد ميلوارد أحمقَ يصدق كل شيء، ولكن مهما بلغت قلة تقدير من حولك لك فليس من اللطيف أن يُنظر إليك على أنك كاذب ومنافق، ويتَعامَل معك على أنك تمارس ما أنت بريء منه، وتشجّع رذائل ترفضها في الواقع، وتُحبَط نيّاتك الحسنة، وتُشلّ يديك بسبب عدم استحقاقك المفترض، وتجلب بالتالي العار إلى المبادئ التي تدافع عنها».

«بالفعل، وإن كنت من خلال جهلي وتجاهلي الأناني لآداب اللياقة، قد ساعدت على الإطلاق في تعريضك لهذه الافتراءات، اسمحي لي ألا أكتفي منكِ بالعفو عني فقط، بل بالسماح لي بتعويضك عن الضرر، فوّضيني أن

أبرئ اسمَكِ من كل افتراء، امنحيني الحق في ربط شرفك بشرفي والدفاع عن سمعتك باعتبارها أثمن من حياتي!».

«هل أنت بطل بما يكفي لربط نفسك بشخص تعرف أنه يشتبه به ويحتقره من حولك، وتقيّد اهتماماتك وشرفك باهتماماتها؟ فكر فيما تقوله يا غيلبرت، إنه أمر خطير».

«أكون فخورًا بالقيام بذلك يا هيلين وفي غاية السعادة ـ بل سعادتي تتجاوز التعبير ـ، وإن كانت هذه هي العقبة أمام اتّحادنا فقد هُدِمَت، ستكونين لي!».

من مقعدي وفي نوبة من الحماسة أمسكت يدها وكنت أهمّ بطبع قبلة عليها، لكنها فورًا سحبتها وصرخت بمرارة وانفعال شديد: «لا، لم تُهدَم!».

«ما الأمر إذًا؟ لقد وعدتِ أن تخبريني».

قالت وهي تضغط بيدها على جبهتها: «ستعرف، ولكن ليس الآن. رأسي يؤلمني بشكل رهيب ولا بد لي من الراحة، لقد تجرّعت اليوم من البؤس ما يكفيني!»، قالتها بشيء من التشنّج.

أصررت: «لكن لا يمكن أن يؤذيكِ إخباري بذلك، بل من شأنه أن يريح عقلك، وعندها أعرف كيف أساعدك».

هزت رأسها بيأس. «إذا عرفت كل شيء فأنت أيضًا ستلومني ـ ربما أكثر مما أستحق ـ، على رغم أنني ظلمتك بما فيه الكفاية»، أضافت في همهمةٍ منخفضة.

«أنتِ يا هيلين؟ مستحيل؟».

«نعم، ليس لأنني رغبت في ذلك، بل لأنني لم أعرف قوةَ وعمق تمسكك بي. اعتقدت ـ على الأقل حاولت أن أعتقد ـ أن تعاملك معي كان باردًا وأخويًّا كما زعمتَ».

«أو كما كان تعاملكِ معي؟»

«أو كتعاملي معك، كما كان يجب أن يكون ـ ذا طبيعة سطحية وخفيفة وأنانية».

«هنا بالفعل ظلمتِني».

«أعلم أنني فعلت، وفي أحيانٍ أخرى كنت أشك أنني فعلت، لكنني اعتقدت بشكل عام أنه لا ضير في ترك أحلامك وخيالاتك تحلّق دون القيام بأي شيء حيالها، ربما ترفرف بعدئذ بعيدًا لتحط على مكان أكثر ملاءمة وتبقى العاطفة الأخوية بيننا، لكن لو كنت أعرف عمق مشاعرك وعواطفك السخية وغير المبالية التي يبدو أنك تشعر بها...».

«*يبدو*؟».

«التي تشعر بها فعلًا ـ حينها كنت سأتصرف بشكل مختلف».

«كيف؟ لا يمكنكِ أن تحبطيني أو أن تعامليني بقسوة أكثر مما فعلتِ! وإذا كنتِ تعتقدين أنك ظلمتِني بمنحي صداقتكِ والسماح لي أحيانًا بالاستمتاع بصحبتكِ ومحادثتك، في الوقت الذي كانت فيه آمالي في إمكانية بدء علاقة عاطفية بيننا بلا جدوى ـ كما كنتِ تُفهمينني دائمًا ـ ، إذا كنتِ تظنين أنكِ ظلمتِني بهذا فأنتِ مخطئة. لأن مثل هذه النِّعَم في حد ذاتها ليست فقط مبهجةً لقلبي بل تُطَهِّر نفسي وتسمو بها، وأنا أفضل صداقتكِ على حب أي امرأة أخرى في العالم!».

بدا أنها لم تشعر بالارتياح تُجاه هذا التصريح، شبكت يديها حول ركبتيها وهي تنظر إلى أعلى، بدت كأنها تعاني في صمت وتطلب المساعدة الإلهية، ثم التفتت إليّ وقالت بهدوء: «فلنلتقِ غدًا في منتصف النهار قرب المستنقع، سأخبرك بكل ما تسعى إلى معرفته، وربما حينها سترى أنه من الأفضل التوقف عن هذه العلاقة، هذا إن لم تقطع علاقتك بي عن طيب خاطر كَوني شخص عاد لا يستحق الاحترام في نظرك».

«يمكنني الرد على ذلك بيقين: لا يمكن أن تكون لديكِ اعترافات بهذه الخطورة، لا بد أنكِ تحاولين اختباري يا هيلين».

كررتْ بجدية: «لا لا، أتمنى لو كان الأمر كذلك! حمدًا لله ليست لدي جريمة كبيرة أعترف بها، لدي فقط أكثر مما تود أن تسمعه أو تعذره ببساطة، وأكثر مما أستطيع أن أخبرك به الآن، لذلك اسمح لي أن أطلب منك أن تتركني!».

«سأفعل، لكن أجيبيني عن هذا السؤال أولًا: أتحبينني؟».

«لن أجيب!».

«سأعتبر أنك تفعلين إذن، طابت ليلتك».

استدارت إلى الجهة الأخرى لإخفاء المشاعر التي لم تستطع السيطرة عليها، لكنني أمسكت بيدها وقبلتها بحرارة.

«غيلبرت اتركني!»، صرختْ بنبرةٍ مشبَعة بالألم لدرجة أنني شعرت أنه سيكون من القسوة عصيانها.

لكنني ألقيت نظرة واحدة إلى الوراء قبل أن أغلق الباب، ورأيتها تنحني إلى الأمام على الطاولة ويداها تضغطان على عينيها في نوبة بكاء متشنجة، ومع ذلك انسحبتُ في صمت. شعرت أن التطفل عليها لن يؤدي إلا إلى تفاقم معاناتها.

الأسئلة، والتخمينات، والمخاوف، والآمال، والعواطف الجامحة التي كانت تتزاحم وتطارد بعضها بعضًا في ذهني وأنا أنزل من التل بإمكانها أن تملأ مجلّدًا، ولكن قبل أن أصل إلى منتصف الطريق كان شعوري بالتعاطف الشديد معها قد أزاح كل المشاعر الأخرى، وأحسست أنه يعيدني إلى الوراء وأنا أفكر: «لماذا أنا مسرع بهذا الشكل في هذا الاتجاه؟ هل سأجد الراحة أو العزاء، اليقين، القناعة، كل شيء ـ أو أي شيء أريده في المنزل؟ وهل يمكنني ترك كل الاضطرابات والحزن والقلق ورائي؟».

استدرت لألقي نظرة على القصر القديم. لم يكن مرئياً من هناك سوى جزء

بسيط من المداخن، عدت إلى الخلف للحصول على رؤية أفضل ووقفت لحظاتٍ هناك أنظر نحو نقطة الجاذبية، ثم واصلت التحرك نحوها، كان هناك شيء يناديني قائلًا اقترب، اقترب أكثر. قد لا أجد فائدة أكبر في التأمل في تلك البقعة النفيسة مع اكتمال القمر في السماء الصافية بهدوء فوقها، وذلك البريق الأصفر الدافئ الخاص بأمسيّات أغسطس، في حين كانت معشوقة روحي في الداخل، أستمتع بهذا أكثر من العودة إلى منزلي، حيث كل شيء نسبيّ، وبالتالي أعود إلى الواقع الحالي، والأكثر من ذلك أن المقيمين فيه كانوا مشبعين إلى حد ما أيضاً بالافتراءات البغيضة، الفكرة التي جعلت دمي يعود للغليان في عروقي وأنا أتخيل كيف يمكنني أن أتحمل سماعها علانيةً، أو تلميحًا ـ أيُّما أسوأ يا ترى؟

لقد عانيت بالفعل بما فيه الكفاية مع الصوت الشرير الثرثار الذي يظل يهمس في أذني: «قد يكون كل ذلك صحيحًا»، لدرجة أنني صرخت بصوت عالٍ: «ليس صحيحًا! أتحداك أن تثبت ذلك!».

كان بإمكاني رؤية ضوء النار الأحمر يتلألأ بشكل خافت من نافذة صالونها. صَعِدتُ إلى جدار الحديقة، ووقفت متكئًا عليه بعينين مثبتتين على النافذة أتساءل عما كانت تفعله، أو تفكر فيه، أو تعانيه الآن، وأتمنى أن أتمكن من التحدث إليها أو حتى إلقاء نظرة واحدة عليها قبل أن أذهب.

لم أنتظر لفترة طويلة قبل أن أقفز فوق الحاجز غير قادرٍ على مقاومة إغراء إلقاء نظرة إضافية واحدة من خلال النافذة لمعرفة ما إذا كانت أكثر تماسكًا مما كانت عليه عندما افترقنا، إذا وجدت أنها ما زالت في حزن عظيم ربما أجرؤ على محاولة التحدث معها ـ لأقول شيئًا من الأشياء العديدة التي كان يجب أن أقولها من قبل بدلاً من تفاقم معاناتها بسبب اندفاعي الغبي. نظرتُ، كان كرسيّها شاغرًا، وكذلك كانت الغرفة. لكن في تلك اللحظة فتح شخص ما الباب الخارجي وتسلل إليّ صوت ـ صوتها ـ وهي تقول: «تعالَ خارجًا،

أريد أن أرى القمر وأستنشق هواءَ المساء، قد يفيدني هذا ـ إنْ كانت هناك أي فائدة».

لا بد أنها كانت برفقة ريتشيل تتمشى في الحديقة. تمنيت لو كنتُ قد عدت بأمان فوق الحائط. ومع ذلك، وقفت في ظل الشجيرة الطويلة التي كانت واقفة بين النافذة والشرفة، والتي تمنع الآخرين من ملاحظة وجودي، لكنها لم تمنعني من رؤية شخصين يخرجان في ضوء القمر: السيدة غراهام يرافقها شخص آخر ـ ليست ريتشيل، بل شاب نحيف طويل القامة نوعًا ما. يا إلهي! بدأ صدغي ينبض بقوة كأنه على وشك الانفجار والقلق الشديد كاد يُعمي بصري عندما اعتقدتُ ـ ثم أكد لي الصوت ـ أنه لم يكن سوى لورانس!

قال: «لا تدعي الأمر يقلقكِ كثيرًا يا هيلين، سأكون أكثر حذرًا في المستقبل، وفي الوقت المناسب ـ».

لم أسمع بقية الجملة لأنه اقترب منها وتحدث بهمس حتى إنني لم أتمكن من التقاط الكلمات. كان قلبي يتقطع من الغضب لكنني حَرَصت على سماع ردّها، وسمعته بوضوح كافٍ.

قالت بضحكة لاذعة: «لكن يجب أن أغادر هذا المكان فريدريك، لا يمكنني أبدًا أن أكون سعيدة هنا ولا في أي مكان آخر».

«ولكن أين يمكنكِ أن تجدي مكانًا أفضل؟»، أجابها وهو يقف قريبًا جدًّا مني، «إذا كنتِ تفكرين في شيء كهذا».

قاطعته «نعم. كل ما أتمناه لو تركوني وشأني».

«ولكن أينما ذهبتِ هيلين، ستكون هناك نفس مصادر الازعاج. لا يمكنني تحمّل خسارتك، يجب أن أذهب معك أو آتي إليكِ، وهناك أغبياء في الأماكن الأخرى كما هنا».

وبينما كانا يتحدثان بهذه الطريقة مرّا ببطء إلى جانبي، وواصلا السير ولم أتمكن من سماع المزيد، لكنني رأيته يضع ذراعه حول خصرها بينما أرخت

يدها بلطف على كتفه، حينها حجب ظلام هائل نظري، غمر قلبي وأحرق رأسي كالنار، جعلتني الصدمة مشوّشًا، لا أعلم كيف قفزت أو تجاوزت الحائط، كل ما أتذكره هو أنني بعد ذلك كطفل باكٍ انهرتُ على الأرض واستلقيت هناك في نوبة من الغضب واليأس، لا أعلم كم من الوقت بقيت على هذا الحال، ولكن المؤكد أنه مر وقت طويل، لأنني عندما ارتحت جزئيًّا من عذاب الدموع ونظرت إلى القمر المتلألئ بهدوء وإهمال، متأثرًا قليلًا ببؤسي وأدعو اللّه طلبًا للموت أو النسيان، نهضت وغادرت إلى المنزل. لم أنظر إلى الطريق، حملتني أقدامي غريزيًّا إلى الباب الذي وجدته مقفلًا في وجهي حيث كان الجميع يغطّ في النوم باستثناء أمي التي سارعت للرد على طَرْقي واستقبلتني بوابل من الأسئلة والتوبيخ.

«أوه غيلبرت! كيف يمكنك أن تفعل ذلك؟ أين كنت؟ تعال وتناول عشاءك. لقد جهزت كل شيء، على الرغم من أنك لا تستحق ذلك لإبقائي في مثل هذا الرعب بعد الطريقة الغريبة التي غادرت بها المنزل هذا المساء. كان السيد ميلوارد يتساءل: ما به الشاب؟ لا يبدو بخير، ما المشكلة؟».

«لا شيء، ناوليني شمعة».

«لكن ألن تتناول العشاء؟».

«لا، أريد فقط أن أخلد إلى الفراش»، أخذت والدتي شمعة لتشعل الأخرى التي كانت تحملها في يدها.

«أوه غيلبرت، لماذا ترتجف!»، صرخت والدتي. «لماذا تبدو شاحبًا هكذا! ما الأمر؟ هل حدث شيء؟».

صرختُ متململًا: «لا شيء!». أنهيتُ الحديث بغضب لأن الشمعة لم تُضِئ. ثم قمعتُ غضبي وأضفت: «لقد مشيت بسرعة كبيرة، هذا كل شيء. طابت ليلتكِ، وانطلقت إلى غرفتي». «بالإضافة إلى المشي بسرعة كبيرة، أين كنت؟»، وَصَلَ لي صوتها من الأسفل.

تبعتني والدتي حتى باب غرفتي باستجواباتها ونصائحها بشأن صحتي وسلوكي. لكنني ناشدتها أن تتركني وشأني حتى الصباح وانسحبت وبالفعل، شعرتُ بالارتياح لسماعها تغلق بابها. لم ألتذ بأي نوم في تلك الليلة كما توقعت، وبدلًا من محاولة التماسها، قضيت الوقت وأنا أجوب الغرفة بسرعة واضطراب بعد أن خلعت حذائي خشية أن تسمعني والدتي. ولكن الألواح كانت تَئِنّ تحت قدمي وهي مستيقظة بكل حال. لم أكن قد مشيت أكثر من ربع ساعة قبل أن تعود إلى الباب مرة أخرى.

«غيلبرت، لماذا لست في السرير ـ قلت إنك تريد النوم».

«لا تخلطي بين أمرين! قلت أنا ذاهب».

«لكن لماذا لم تنم إلى الآن على الرغم من ذلك؟ لا بد أنك تفكر في أمر ما ـ ».

«بحق السماء دعيني وشأني واخلدي إلى فراشك يا أمي».

«هل تكون السيدة غراهام هي التي تزعجك لهذا الحد؟».

«لا. قلت لكِ لا شيء».

تمتمت بحسرة وهي تعود إلى غرفتها، حين كنت ألقي بنفسي على السرير وأنا أشعر بالاستياء الشديد تجاهها لأنها حرمتني مما بدا أنه العزاء الوحيد الذي بقي لي وقيّدتني إلى ذلك السرير البائس من الأشواك.

لم أمر قط بمثل هذه الليلة البائسة التي حرمت فيها من النوم. في أولى ساعات الصباح بدأت أفكاري المُشَتّتة بالفعل تفقد كل ادعاءات التماسك وتتشكل على هيئة خيالات مشوشة ومحمومة وأنا أسقط في النوم اللا واعي، ولكن بعدها سريعاً عادت تتفجر الذكريات المريرة التي نجحت في إيقاظي مجددًا لأجد الحياة فارغةً، بل وأسوأ من الفراغ، تعجّ بالعذاب والبؤس، ليست مجرد أرض قاحلة بل مملوءة بالأشواك، أرى فيها نفسي مخدوعًا،

ويائسًا، وعواطفي قد سُحِقَت، وملاكي ليست ملاكًا، وصديقي شرٌ متجسّد في هيئة إنسان، كان النوم أسوأ من عدمه.

كان صباحًا كئيبًا للغاية تَغَيَّر فيه الطقسُ كما توقعت، المطر ينقر على زجاج النافذة ومع ذلك قمت وخرجت، ليس للاعتناء بالحقل كما كنت أنوي الادّعاء ولكن لإراحة عقلي، واستعادة ـ إن استطعت ـ درجةٍ كافية من رَبَاطة الجأش لمقابلة العائلة على الإفطار دون تلقّي ملاحظاتٍ مزعجة. إذا تبللت فإن ذلك ـ بالاقتران مع مجهود مفرط قبل الإفطار ـ قد يفسّر فِقداني لشهيتي، وإذا تبع ذلك نزلةُ بردٍ كان ذلك أفضل، إذ سيساعد ذلك في تفسير الحالة المِزَاجية المتعسّرة والاكتئاب الذي من المحتمل أن يلطّخ جبيني لفترة كافية.

الفصل الثالث عشر

«عزيزي غيلبرت، أتمنى أن تحاول أن تكون ألطفَ»، قالت والدتي ذا صباحٍ بعد أن استفزها كلامي الجاف دون مبرر، «أنت تقول إنك بخير ولم يحدثْ شيء يحزنك ومع ذلك لم أرَ أحدًا انقلب حالُه مثلك خلال الأيام القليلة الماضية. ليست لديك كلمة جيدة لأي شخص ـ أصدقاء وغرباء، من هم في مستواك أو أقل شأناً، كلهم متشابهون ـ ، أتمنى أن تراجع نفسك».

«أراجع ماذا؟».

«ماذا؟ مزاجك الغريب، أنت لا تدرك كيف أصبحت تتصرف، ليست هذه تصرفاتك الطبيعية، لا عذر لك مطلقًا».

أثناء ذلك تناولت كتابًا ووضعته مفتوحًا أمامي على الطاولة وتظاهرت بأنني منغمس بعمق في قراءته، لأنني لم أكن قادرًا على تبرير نفسي وغير راغب في الاعتراف بأخطائي، في الواقع تمنيت ألا يكون لدي ما أقوله بشأن هذه المسألة. لكن والدتي الرائعة استمرت في إلقاء محاضرتها، ثم شرعت في محاولة إقناعي وبدأت بمداعبة شعري، شعرت حينها بأنني عدتُ لأكون ابنها الجيد، إلا أن أخي المؤذي الذي كان يتسكع في الغرفة أعاد إحياء فسادي من خلال مزاحه البغيض:

«لا تلمسيه يا أمي! سوف يعضّكِ! إنه نمر في شكل بشري. عن نفسي أنا متبرئ منه، تستحق حياتي أن أبقى على الأقل على بعد ست ياردات منه، في ذلك اليوم كاد أن يكسر جمجمتي لأنني غنّيت له أغنيّة حب جميلة غير مؤذية بقصد إمتاعه».

«أوه غيلبرت! كيف استطعت؟»، صاحت والدتي.

«قلت لك في البداية أن تخفض صوتك أولًا فيرغوس، تعلم هذا»، قلت.

«نعم، ولكن عندما أكّدت لك أنه لم تكن هناك مشكلة وواصلت الغناء معتقدًا أنها قد تروقك، مسكتَ بكتفي ودفعتني بعيدًا، مباشرة نحو الحائط، بقوة شعرت أنها قسمت لساني إلى قسمين، وتوقعت أن أرى المكان مملوءًا بما تناثر من شظايا عقلي، وعندما وضعت يدي على رأسي ووجدت جمجمتي في مكانها وغير مكسورة ظننت أنها معجزة وليس خطأً. لكن يا للمسكين!»، أضاف بتنهيدة عاطفية، «قلبه مكسور ـ هذه هي الحقيقة ـ ورأسه...».

«هل ستصمت الآن؟»، صرختُ به وأنا وأتطلع إليه بشدة لدرجة أن والدتي اعتقدت أنني قد أتهجّم عليه أو ألحق به إصابات جسدية خطيرة. قبضت بهلع على ذراعي وطلبت مني أن أتركه وشأنه. أما هو فخرج على مهل، يديه في جيوبه، وبشكل مثير للاستفزاز يغني: «هل أفعلها.. آه.. تلك المرأة جميلة جدًا..».

قلت مجيبًا توسلات أمي: «لن أدنّس أصابعي به، لن ألمسه حتى بالملقط».

تذكرت الآن أنني كنت أعمل مع روبرت ويلسون في مشروع يتعلق بشراء حقل مجاور لمزارعي ـ وهو عمل كنت أؤجله من يوم لآخر، لأنني عدتُ لا أهتم بأي شيء الآن. بالإضافة إلى ذلك، كنتُ أميل إلى كراهيته، وعلاوة على ذلك، كان لدي اعتراضٌ خاصٌّ على مقابلة جين ويلسون أو والدتها ـ على الرغم من أنه كان لديّ الآن سبب وجيه للغاية لتفهّم أحاديثهن المتعلقة بالسيدة غراهام، إلا أنني لم أستطع تقبّلهم ـ أو إليزا ميلوارد ـ بشكل أفضل، بل أصبح التفكير في الالتقاء بهم أكثر إثارة للاشمئزاز بالنسبة إليّ الآن. مع هذا قررت اليوم أن أبذل جهدًا للعودة والقيام بواجبي. على الرغم من أنني لم أجد متعة في ذلك فإنه سيكون أفضل من الكسل ويدرّ ربحًا جيدًا في جميع الأحوال. إذا كفّتِ الحياةُ عن أن تكون مهتمة بدعوتي إليها، فهي

على الأقل لم تقدم لي أية مغريات. من الآن فصاعدًا قررت أن أسلّم نفسي لعجلة القيادة وأتعب قدر استطاعتي كما يفعل أي كادح بعربة حصان أُقحِمَ في العمل وبالتالي تثاقلَ في الحياة، فهو في النهاية ليس بعديم جدوًى إن لم يكن مقبولًا، ولن يكون مرغوبًا فيه إن لم يكن قانعًا بما يفعل.

وبالتالي بنوع من الرضوخ المتجهم ـ إن جاز لي القول ـ ، شققت طريقي إلى مزرعة رايكوت، لم أتوقع أن أجد مالكها في هذا الوقت من اليوم ولكن آمل أن أعلم في أي جزء منها من المرجح أن أعثر عليه.

كان غائبًا، لكنه عودته كانت متوقعة في غضون دقائق قليلة، كنت أرغب في الدخول إلى الصالون وانتظاره. كانت السيدة ويلسون مشغولة في المطبخ لكن الغرفة لم تكن فارغة، كانت هناك الآنسة ويلسون جالسة برفقة إليزا ميلوارد، ومع ذلك عقدت العزم على أن أكون هادئًا ومتحضرًا. بدت إليزا كأنها اتخذت القرار نفسه من جانبها. لم نلتقِ منذ مساء حفل الشاي، لكنها لم تُظهِر أية عاطفة مرئية سواء اشتياق أو ألم، لا شفقة ولا حتى إظهار تشمّت، كانت هادئة في مزاجها ومتحضرة في سلوكها. بل شعرت أن هناك شيئًا من الراحة والسرور في تعاملها، مع هذا كان هناك خبث عميق في عينيها المعبرتين للغاية اللتين أخبرتاني بوضوح أنها لم تغفر لي، لأنها ـ على الرغم من أنها عادت لا تأمل في أن تكسبني لنفسها ـ ، فإنها ما زالت تكره منافستها ومن الواضح أنها مسرورة لإثارة حقدي عليها. على الجانب الآخر، كانت الآنسة ويلسون ودودة ومهذبة، وعلى الرغم من أنني لم أكن أميل إلى التحدث فإنهما تمكنتا من الحفاظ على نيران محادثة قصيرة بيننا مستمرة. لكن إليزا استفادت من أول دقيقة صمت لسؤالي عما إذا كنتُ قد التقيت مؤخرًا السيدة غراهام، بنبرة تبدو أنها مجرد استفسار عرضي ولكن مرفقة بنظرة جانبية تتعمد الإيلام ومتخمة بالحقد.

«ليس مؤخرًا»، أجبتها بنبرة متهورة وأنا أصد نظراتها البغيضة بعيني لأنني

كنت منزعجًا من الشعور بتجمّع الدم في جبيني على الرغم من جهودي لأبدوَ غير متأثر.

«ماذا؟ هل بدأت تتعب بالفعل؟ اعتقدتُ أن المخلوق النبيل ستكون لديه القدرة على إبقائك معلّقًا لمدة عام على الأقل!».

«أفضّل ألا أتحدث عنها الآن».

«آها، لقد اقتنعتَ أخيرًا إذًا، واكتشفتَ أن معبودتك ليست نقيّة تمامًا».

«قلت إنني لا أريد التحدث عنها يا آنسة إليزا».

«أوه، أستميحك عذرًا! أعتقد أن سهام كيوبيد كانت حادة للغاية معك، لأن الجروح تتغلغل إلى أكثر من عمق الجلد، فهي كما يبدو لم تلتئم بعد، وتعود إلى النزف من جديد عند ذكر اسم المحبوب».

«بدلًا من ذلك، قد يشعر السيد ماركهام أن هذا الاسم لا يستحق الذكر في وجود إناث محترمات»، قالت الآنسة ويلسون وواصلت: «لا بد من التفكير قبل الإشارة إلى تلك الشخصية يا إليزا، ربما ذكرها ليس مقبولًا لكل شخص موجود هنا».

«كيف يمكن تحمل هذا؟»، نهضتُ واضعًا قبعتي بعصبية على رأسي وانفجرت بغضب شديد وأنا أغادر المنزل. لكن تذكرت في الوقت المناسب فقط لإنقاذ كرامتي حماقةَ القيام بمثل هذا التصرف وكيف أنه لن يؤدي إلا إلى إضحاك أعدائي على حسابي، ومن أجل شخص أقرُّ في قلبي بأنه لا يستحق أدنى تضحياتي ـ على الرغم من أن شبح تقديري السابق وحبي ما يزال يحوم حولي لدرجة أنني لم أستطع تحمل سماع اسمها يُنتَقَد من قبل الآخرين ـ وعليه، فقد مشيت إلى النافذة وقضيت بضع ثوان في عض شفتي بقوة وأنا أحاول قمع غضبي في صدري، أخبرت الآنسة ويلسون أنه يبدو أنني لن أفلح في لقاء شقيقها، وأضفت أنه نظرًا إلى التزاماتي الأخرى فقد يكون من الأفضل العودة مرة أخرى غدًا في وقت أتأكد فيه العثورَ عليه في المنزل.

«أوه لا! إذا انتظرتَ قليلًا فسوف يحضُر بالتأكيد، لأنه لديه عمل في السوق وسيحتاج إلى العودة لتناول وجبة خفيفة قبل ذهابه».

رضخت لذلك بقدر ما استطعت من لباقة، ولحسن الحظ لم يمر وقت طويل إلى أن وصل السيد ويلسون، ولم يكن مستعدًّا للعمل كما كنت في تلك اللحظة، وعلى الرغم من قلة اهتمامي بالصفقة أو صاحبها، فإنني حاولت التركيز وبتصميم أبرمت الصفقة بسرعة وتركته لتناول وجبته الخفيفة مغادرًا المنزل بكل سرور، وذهبت لأعتني بالتزاماتي.

تركت المزارعين يعملون على جانب الوادي وصَعِدت التل عازمًا على زيارة حقل ذرة في المناطق الأكثر ارتفاعًا لأرى الوقت المناسب لضرب المنجل. لكنني لم أتمكن من فعل ذلك يومها لأنني عندما اقتربت لمحت على مسافة ليست بعيدة السيدة غراهام وابنها ينزلان في الاتجاه المعاكس. لقد كانا قد لمحاني بالفعل وركض آرثر نحوي لكنني عدت إلى الوراء على الفور وسرت بثبات إلى المنزل لأنني كنت قد عقدت العزم على عدم مقابلة والدته مرة أخرى، وبغض النظر عن الصوت الحاد الذي يدعوني إلى «الانتظار لحظةً» في أذني، فقد تابعت طريقي وسَرعان ما توقف الصغير عن مطاردتي باعتباره أمرًا ميؤوسًا منه، أو قد تكون والدته استدعته. بكل حال، عندما نظرت إلى الوراء بعد خمس دقائق لم يكن هناك أي أثر لأي منهما.

أثار هذا الحادث غضبي وأزعجني كثيرًا ـ يمكنك تفسير ذلك بقول إن سهام كيوبيد لم تكن حادة جدًّا معي فحسب، بل كانت شائكة ومتجذرة بعمق بحيث لم أتمكن من انتزاعها من قلبي، ذلك جعلني بائسًا بشكل مضاعَف لبقية اليوم.

الفصل الرابع عشر

في صباح اليوم التالي تذكرتُ أن لديَّ أيضًا عملًا في سوق المدينة، وعليه ركبت حصاني وانطلقت بعد الإفطار بفترة وجيزة. كان يومًا مملًّا مُمطِرًا، لكن هذا لم يكن مهمًّا حيث كان أكثر انسجاماً مع ما يدور في ذهني. كان من المتوقع أن أقطع طريقي مستمتعًا بوَحْدَتي لأنه لم يكن يومَ تسوق، ثم إن الطريق الذي سلكته كان القليل يتردد عليه وهذا كان يناسبني أيضًا.

مع ذلك، وبينما كنت أجترّ أوهامي المريرة وأنا أقطع الطريق، سمعت صوت حصان آخر على مسافة ليست بعيدة ورائي. لكنني لم أتخيل أو أزعج نفسي بالتساؤل عن هوية الفارس بالإبطاء لنصبح في نفس مستوى السرعة، بالأحرى تركت حصاني يهرول على مهل إلى أن تجاوزني المسافر الذي حيّاني بالاسم، لأنه لم يكن سوى السيد لورانس! تنمّلتْ أصابع يدي بشكل غريزي وتشنجت، لكنني كبحت نفسي وأجبت تحيته بإيماءة وحاولت المضي، لكنه مشى بجانبي وبدأ بالتحدث عن الطقس والمحاصيل، أجبت استفساراته وملاحظاته باقتضاب ثم خففت من سرعتي مجددًا للتخلص منه، فسألني ممازحًا إن كان حصاني أعرجَ، اكتفيتُ بنظرة وابتسامة غير مبالية.

أكثر اندهاشي كان من هذا الإصرار الفريد والاطمئنان الراسخ من جانبه. كنت أعتقد أن ظروف لقائنا الأخير تركت انطباعًا سيئًا بحيث سيصبح التعامل بيننا باردًا إلى الأبد. بدلاً من ذلك، بدا أنه ليس فقط قد نسي جميع ما حدث سابقًا، بل أصبح منيعًا ضد أي فظاظة. في السابق، كان أدنى تلميح أو مجرد برودة في النبرة أو النظرة كافية لاستفزازه، أما الآن فلا تؤثر فيه الوقاحة ولا

تبعده، أتراه يعلم عن خيبة أملي وجاء ليشهد أثر ذلك علي ويحتفل بانتصاره؟ أمسكتُ بسوطي بقوة أكثر من ذي قبل منتظرًا سببًا لاستخدامه وأفتح بوابات روحي وأفرغ غضبي الذي كان يتبلور ويتورم بداخلي.

قال بنبرته الهادئة المعتادة: «ماركهام، لماذا تحارب أصدقاءك؟ لأنك أصبت بخيبة أمل في جانب واحد من الحياة؟ أتفهم أن آمالك قد تحطّمت، لكن لماذا أُلَامُ أنا على ذلك؟ لقد حذّرتك مسبقًا كما تعلم، لكنك لم تصغِ..».

لم يصل لسمعي أكثر من ذلك لأنني ـ مدفوعًا من قبل شرارة الغضب في مرفقي ـ أمسكت بسوطي وسريعًا كوميض من البرق هويت به على رأسه. شعرت بالرضا الوحشي وأنا أرى الشحوب القاتل التي غمر وجهه وقطرات الدم التي سالت على جبهته حين كان يترنح للحظة فوق سرجه ثم سقط إلى الوراء وهوى على الأرض. الحصان الذي تفاجأ بأنه أُعفِيَ بشكل غريب من أعبائه بدأ بالركل قليلًا ثم استغل فرصة الحرية التي مُنحت له في الذهاب والتمتع بتناول العشب، حين كان جسد سيده ساكنًا مثل جثة. هل قتلتُه؟ كأنّ يدًا من جليد قبضت على قلبي لتتحقق من نبضاته، انحنيت فوقه لاهثًا وأنا محدق بهلع إلى وجهه. لكن لا، لقد حرّك جفنيه وأخذ يتأوه قليلًا، عادت لي أنفاسي، كان ما زال مذهولًا مما حدث. لقد منحته ما يستحقه، ستعلمه هذه الضربة آداب التعامل بشكل أفضل في المستقبل. هل عليّ أن أساعده على ركوب حصانه؟ كنت قد أفعل في أي موقف آخر، لكن جريمته لا تغتفر. يمكنه أن يركب بنفسه. بعد فترة رأيت أنه بدأ بالفعل بالتحرك والنظر إلى جانب الطريق.

تركته لمصيره وانطلقت بحصاني بعيدًا ومتحمسًا بمزيج من المشاعر التي لن يكون من السهل عليّ تحليلها، وربما إذا حاولت فعل ذلك فلن تكون النتيجة قابلة للتصديق.

مع ذلك سَرعان ما بدأ الفوران ينحسر ولم تمضِ الكثير من الدقائق قبل

أن أستدير وأعود إلى ضحيتي. لم يكن دافعًا سخيًّا، لم يكن هناك نوع من التهاون هو الذي قادني إلى ذلك، ولا حتى الخوف مما قد تكون عليه عواقب الأمر إذا تركته مهملًا فَعُرِّض لمزيد من الأذى، كان ببساطة صوت الضمير. وسررت أنني على الفور أصغيت إليه وبنيتُ حكمي على الفعل من خلال التضحية التي تكلّفتها، ولم أكن مخطئًا.

بدا أن السيد لورانس وحصانه كانا قد غيّرا موقعيهما. كان الحصان قد ابتعد ثماني أو عشر ياردات، وقد تمكن بطريقة ما من إبعاد نفسه عن منتصف الطريق، أما هو فقد كان ممددًا على الضفة، وما زال شاحبًا وشديد السكون، يضغط بمنديله المخملي الأبيض (الآن أحمر أكثر منه أبيض) على رأسه. لا بد أنها كانت ضربة قوية، لكن نصف الفضل/ أو اللوم (ما تراه صائبًا) لا بد أن يُنسب إلى السوط المزيّن برأس حصان ضخم من المعدن المطلي. العشب المبلل بالمطر أيضًا لم يمنَحِ الشابّ المصاب أريكة مضيافة، كانت ملابسه في حالة فوضى وقبعته واقعة في الوحل على الجانب الآخر من الطريق. لكنه كان مركّزًا بشكل رئيسي على حصانه، بقي يحدق إليه بحزن ـ نصفه في حالة من القلق، ونصفه الآخر في حالة يأس متسائلًا عن مصيره.

مع ذلك، نزلت بعد أن قمت ثبّتُّ حصاني عند أقرب شجرة، التقطت قبعته أولًا عازمًا على ضربه بها على رأسه، لكن إما أن رأسه غير صالح للقبعة وإما أن القبعة في حالتها الحالية غير صالحة لرأسه، لأنه أخذها من يدي بغضب وألقى بها جانبًا بازدراء.

«أراها جيدة بما فيه الكفاية لك»، تمتمت.

كانت مهمتي التالية هي إحضار حصانه والتي أنجزتها في وقت قصير لأنه كان هادئًا بدرجة كافية، حيث إنه جفل في البداية قليلًا، لكن سَرعان ما أصبح مطيعًا عندما أمسكتُ بلجامه.

«هيا أيها الوغد الكلب، أعطني يدك لأساعدك على الركوب».

«لا». قالها وهو يستدير عني في اشمئزاز. حاولت أن أسحبه من ذراعه، انكمش كما لو كانت لمستي ستلوثه.

«ماذا، ألن تفعل! فليكن. يمكنك البقاء هنا حتى يوم القيامة، لا يُهمّني مطلقًا. لكنني أفترض أنك لا تريد أن تفقد الدم المتبقي في جسدك، سأضمّد فقط جرحك».

«دعني وحدي إذا سمحت».

«أوه، من كل قلبي. يمكنك الذهاب إلى الجحيم إن أحببتَ، وتقول إنني أرسلتك».

لكن قبل أن أتركه حسب رغبته لمصيره ألقيت لجام حصانه على وتد في السياج وألقيت عليه منديلي، حيث منديله كان قد أصبح مملوءًا بالدماء. أعاده إلي في اشمئزاز واحتقار بكل القوة التي يمكنه حشدها. تركته وأنا راضٍ تمامًا ومقتنع أنني قمت بواجبي في محاولة إنقاذه، متناسيًا أنني من أخطأتُ ووضعته من الأساس في مثل هذه الحالة، وكيف أنني بعد إهانته عرضت عليه المساعدة بشكل مذلّ، ومستعدًّا لمواجهة العواقب في حال اختار أن يقول إنني حاولت قتله ـ وهو ما اعتقدت أنه غير مرجح، حيث بدا أنه كان مدفوعًا بمشاعر الغضب لرفض مساعدتي بهذا الإصرار.

بعد أن ركبت حصاني نظرت إلى الخلف مجددًا لأرى حاله قبل المغادرة بعيدًا. كان قد نهض وأمسك بلجام حصانه محاولاً إعادة مقعده على السرج، لكنه فشل في تثبيت قدمه في الرِّكاب حيث كان من الواضح أن الوهن قد تمكن منه، بمجرد أن انحنى إلى الأمام للحظة تدلّى رأسه على ظهر الحيوان، ثم حاول بذل مجهودٍ آخر لرفع نفسه وثبت أنه غير فعال، فسقط مرة أخرى على الأرض حيث تركته، رأسه على العشب، مستلقيًا بهدوء كما لو كان يأخذ راحته على أريكته في المنزل.

كان يجب أن أساعده على الرغم منه ـ على الأقل ربط الجرح الذي لم

يكن قادرًا على إيقاف نزيفه ـ وأن أُصر على اصطحابه على حصانه والتأكد من إيصاله لمكان آمن، ولكن بالإضافة إلى سخطي المرير، كان هناك سؤال يؤرقني حول ما يمكنني قوله لأسرته وعائلتي. إما أن أعترِف، الأمر الذي من شأنه أن يجعلني مجنونًا في أعينهم، إلا إذا أخبرتهم بالدافع ـ وهو أمر مستحيل ـ أو أن أكذِب، وهو أمر غير وارد أيضاً خاصةً وأنه من المحتمل أن يكشف لورانس الحقيقة كاملة، وبالتالي في هذه الحالة يجلب لي العار عشرة أضعاف، إلا إذا كنت شريرًا بما فيه الكفاية لتقديم حجة عدم وجود شهود للإصرار على صدق روايتي وجعله يبدو وَغدًا أكثر مما هو عليه بالفعل.

لكن لا. كان قد أصيب بجرح فقط فوق صدغه، وربما بضع كدمات جراء السقوط أو حوافر حصانه، لن يقتله استلقاؤه هناك نصف النهار، وإذا لم يستطع مساعدة نفسه فمن المؤكد أن شخصًا ما سيمر به. من المستحيل أن يمر يوم كامل ولا يجتاز أحد هذا الطريق سوانا. أما ما قد يختار أن يقوله فيما بعد، فسأنتهز فرصتي فيه: إذا كذب فسأناقضه، وإذا قال الحقيقة سأتحمل نتائجها قدر استطاعتي. لم أكن مضطرًا إلى تقديم تفسيرات أكثر مما كنت أرى أنها ضرورية. ربما يختار الصمت عن الموضوع خوفًا من إثارة التساؤلات حول سبب الخلاف ولفت انتباه الناس إلى علاقته بالسيدة غراهام والتي بدا أنه ـ سواء من أجلها أو من أجل نفسه ـ راغبٌ جدًّا في إخفائها.

غادرته بعيدًا إلى سوق المدينة حيث أكملت عملي والتزاماتي واشتريتُ بعض الأمور الصغيرة لأمي وروز، بدقة جديرة بالثناء عند الأخذ في الاعتبار الظروف المُربكة التي تركتها خلفي. عند عودتي إلى المنزل كنت منزعجًا من مخاوفَ متنوعة كانت تدور في رأسي بشأن حادث لورنس المؤسف. السؤال الذي بقي يؤرقني هو: ماذا لو كان إلى هذه اللحظة راقدًا على الأرض الرطبة وقد أنهكه التعب والبرد، أو تراه يصرخ طلبًا للنجدة؟ حشرت هذه الأفكار المروعة نفسها بشكل مزعج في ذهني، وتصورت الاحتمالات بوضوح

مؤلم في مخيلتي عندما اقتربت من المكان الذي تركته فيه. لكن شكرت اللّٰه عندما لم أجد الرجل ولا حصانه، ولم يتبقَ شيء في المكان ليشهد ضدي سوى شيئين ـ كلاهما غير سار ويقدم احتمالات قبيحة، إن لم نفترض فوراً وجود قاتل. كانت في مكان قبعة لورانس المشبعة بالمطر والمغطاة بالطين وقد شقّت حافتَها ضربةُ السوط الخسيس، وفي مكان آخر قريب منه منديله القرمزي منقوعًا في بركة ماء حمراء بسبب هطول أمطار غزيرة في هذه الأثناء.

الأخبار السيئة تنتشر بسرعة، كانت الساعة بالكاد تقترب من الرابعة عندما وصلت إلى المنزل، تلقّتني والدتي وهي تصيح بشدة: «أوه غيلبرت! يا له من حادث! كانت روز تتسوق في القرية وسمعت أن السيد لورانس قد رُميَ من على حصانه وأُعيد إلى منزله وهو يُحتَضَر!».

صدمتُ كما قد تفترض، لعلمي بزيف الخبر والمبالغة فيه، إلا أن سماع أنه كسر جمجمته وساقه أشعرني بالارتياح، كما كنت على ثقة أن بقية القصة سيكون مبالغًا فيها بنفس القدر. بصعوبة كبيرة تمكنت من منع نفسي من إخبار والدتي وروز بحقيقة إصابته عندما رأيت مدى تأثرهما.

قالت والدتي: «يجب أن تذهب لتراه غدًا».

واقترحت روز: «أو اليوم. هناك متسع من الوقت، يمكنك أخذ الحصان الآخر لأن حصانك متعب. ألن تفعل بمجرد أن تأكل غيلبرت؟».

«لا لن أفعل. كيف يمكننا التأكد أن الأمر برمته ليس كذبًا؟».

«أوه، أنا متأكدة من أنه ليس كذلك لأن القرية كلها تتحدث عنه، ورأيت شخصين شاهدا آخرين رأوا الرجل الذي وجده. قد يبدو غريبًا، لكن الأمر ليس كذلك عندما تفكر في الأمر».

«حسنًا، لكن لورانس فارس جيد، من غير المحتمل أن يسقط من على حصانه على الإطلاق، حتى إذا فعل، من غير المحتمل أن يكسر عظامه بهذه الطريقة. لا بد على الأقل أن تكون هناك مبالغة فادحة».

«لا لم يسقط، الحصان ركله أو شيء من هذا القبيل».

«ماذا؟ حصانه الصغير الهادئ ركله؟».

«كيف تعرف أنه كان ذلك الحصان؟».

«نادرًا ما يركب لورانس أي حصان آخر».

قالت والدتي: «على أي حال سوف تزوره غدًا. سواء كان ذلك صحيحًا أو خاطئًا، مبالغًا فيه أو غير ذلك، نود أن نطمئن عليه».

«لم لا يذهب فيرغوس بدلًا مني»؟.

«لماذا؟».

«لديه المزيد من الوقت. أنا مشغول».

«كيف يمكنك أن تكون متماسكًا بهذا الشكل حيال ذلك يا غيلبرت؟ لن يضرك التغيب عن العمل لمدة ساعة أو ساعتين في حالة يكون فيها صديقك قد أوشك على الموت».

«أؤكد لكم إنه ليس كذلك».

«قد يكون هناك ما لا تعرفه، ولا يمكنك أن تصفه حتى تراه. على كل حال، لا بد أنه قد واجه حادثًا مروعًا ويجب أن تزوره للاطمئنان عليه، سيكون الأمر قاسيًا جدًّا عليه إذا لم تفعل».

«هذا خلط بين الأمور! لا أستطيع فعل ذلك. لم نكن أنا وهو على علاقة جيدة في الأوان الأخير».

«أوه يا فتاي العزيز! بالتأكيد لست قاسيًا لدرجة إطالة الاختلافات الصغيرة في وجهات النظر إلى..».

«اختلافات صغيرة.. بالفعل!»، تمتمت.

«حسنًا، لكن تذكر فقط وفكر كيف..».

أجبتها: «حسنًا، حسنًا، لا تزعجيني الآن ـ سأفكر في الأمر».

وكان رأيي في ذلك هو إرسال فيرغوس في صباح اليوم التالي مع تحيات أمي، لطرح الاستفسارات المطلوبة، لأن ذهابي ـ أو حتى إرسال رسالة ـ بالطبع أمر غير وارد. عاد أخي بمعلومات مفادها أن الشاب النبيل قد عُرّض للشرور المعقدة المتمثلة في شق في الرأس وبعض الكدمات (بسبب السقوط ـ الذي لم يكلف نفسه عناء سرد تفاصيله ـ وسوء سلوك حصانه لاحقًا)، بالإضافة إلى البرد الشديد نتيجة الاستلقاء على الأرض الرطبة تحت المطر، لكن لم تكن هناك عظام مكسورة.

كان من الواضح إذن أنه لم يوجّه لي أية تهمة من أجل حماية السيدة غراهام.

الفصل الخامس عشر

كان ذلك اليوم ممطراً كالذي سبقه. لكن مع حلول المساء بدأ بالتحسن قليلًا وفي صباح اليوم التالي كان صحوًا وواعدًا. كنت في الخارج على التل مع الحاصدين. كانت الرياح الخفيفة تداعب حقول الذرة، والطبيعة منتشية بأشعة الشمس، القُبَّرة تحلق بفرح بين الغيوم الفضية العائمة. كان المطر المتأخر قد أنعش الهواء وغسل السماء، وترك قطرات الماء التي تبدو كأنها أحجار كريمة متلألئة على الأغصان والأسطح بحيث لا يمكن حتى للمزارعين التذمر من ذلك. لم يتمكن شعاع من أشعة الشمس من الوصول إلى قلبي، ولا نسمة استطاعت أن تنعشه. لا شيء يمكنه أن يملأ الفراغ الذي حل محل ثقتي وأملي وفرحتي بهيلين غراهام، أو يزيح الندم والمرارة التي خلّفها حبي لها.

بينما كنت أقف بأذرع مطوية محدقًا إلى حقل الذرة المتموج دون انزعاج من ضجيج آلات الحصاد، شعرت بشيء ما يجر طرف معطفي بلطف، أثار سمعي صوت صغير عاد لا يكون مرحَّبًا به في أذني بكلمات مذهلة: «سيد ماركهام، ماما تريدك».

«هل تريدني يا آرثر؟».

«نعم. لماذا أصبحتَ تتصرف بغرابة؟»، قال بوجه نصفه يضحك ونصفه الآخر خائف من ظهور الجانب غير المتوقع من وجهي، «ولماذا ابتعدت كثيرًا؟ هيا تعال، ألا تأتي؟».

أجبته: «أنا مشغول الآن»، نادرًا ما أعرف بمَ أجيب.

نظر إليّ بحيرة طفولية، ولكن قبل أن أتحدث مرة أخرى كانت السيدة نفسها بجانبي.

«غيلبرت، يجب أن نتحدث!»، قالت بنبرة عنف مكبوت.

نظرتُ إلى خدها الشاحب وعينيها المتلألئتين لكنني لم أجب بشيء.

عادت تناشدني «للحظة فقط، هلا رافقتني إلى الجانب الآخر»، قالت وهي تنظر إلى المزارعين الذين كان بعضهم يوجه نظرات فضول وقحة تُجاهها.

«أرجوك، لن آخذ من وقتك أكثر من دقيقة».

رافقتها إلى الجانب الآخر.

قالت لابنها: «آرثر حبيبي، اذهب واجمع تلك الأزهار»، مشيرةً إلى بعض الزهور الزُّرق التي كانت تلمع على مسافة ما تحت السياج الذي مشينا على طوله. تردد الطفل كأنه غير راغب في الانسحاب من جانبي. «اذهب حبيبي!»، كررتها بشكل أكثر إلحاحًا وبنبرة ـ وإن لم تكن قاسية ـ تطالبه فيها بالطاعة الفورية، وبالفعل حصلتْ عليها.

«نعم سيدة غراهام؟»، قلت بهدوء وبرودة. على الرغم من أنني رأيت أنها كانت في حالة بائسة وشعرت بالشفقة عليها، لكني أحسست بذات الوقت بشيء من السعادة لأنني أستطيع أن أعذبها أيضًا.

نظرت إليّ بنظرة اخترقت قلبي. ومع ذلك جعلتني أبتسم.

قالت بهدوء مرير: «لن أسأل عن سبب هذا التغيير يا غيلبرت، لكن على الرغم من أنني أستطيع تحمل نظرات الإدانة من قبل أي شخص آخر بل وأتعامل معها بهدوء، فإنني لا أستطيع أن أتحملها منك. لماذا لم تأتِ لتسمع توضيحي في اليوم الذي اتفقنا عليه؟».

«لأنني بالصدفة في غضون ذلك عرفت كل ما كنتِ ستخبرينني به، بل ربما أشياءَ أكثر».

«هذا مستحيل! أتعلم؟ كنت سأخبرك بكل شيء، لكنني لن أفعل الآن، لأنني أرى أنك لا تستحق ذلك!»، بكت بمرارة وشفتاها الشاحبتان ترتعشان من الهياج.

«لماذا، هل لي أن أسأل؟».

صدت ابتسامتي الساخرة بنظرة سخط واحتقار: «لأنك لم تفهمني أبدًا، لو كنت كذلك لما استمعت إلى المُتاجرين في سمعتي، مع الأسف ثقتي لم تكن في محلها، فأنت لست الرجل الذي اعتقدته. اذهب، لن أهتم بما تعتقده عني»، أتمّت كلامها واستدارت.

فغادرت، لأنني شعرت ببساطة أن ذلك سيؤلمها ـ وأعتقد أنني كنت على حق ـ لأنني عندما نظرت إلى الخلف بعد دقيقة رأيتها قد توقفت واستدارت تنظر نحوي كما لو كانت تأمل أو تتوقع أن تجدني بجانبها، وقفت هناك دون حراك بنظرة مملوءة بالألم المرير واليأس. مع ذلك على الفور أظهرت عدم اهتمامي وتظاهرت بالتحديق إلى ما حولي بلا مبالاة. أفترض أنها غادرت حينها لأنه بعد فترة غامرتُ بإلقاء نظرة أخرى ورأيتها قد أصبحت بعيدة، تمشي بسرعة وآرثر الصغير يركض بجانبها ويتحدث على ما يبدو أثناء ذلك، لكنها كانت تبقي وجهها بعيدًا عنه كأنها تخفي مشاعر لا يمكنها السيطرة عليها. وعدتُ أنا إلى عملي.

لكنني سرعان ما بدأت أشعر بالأسف لتسرّعي في تركها. كان من الواضح أنها تحبني. ربما سئمت من السيد لورانس وأصبحت ترغب في استبداله بي، لو كنت قد أحببتها بدرجة أقل ربما كان هذا التفضيل يرضيني ويسعدني، ولكن الآن كان التناقض بين مظهرها الخارجي وتفكيرها الداخلي، بين رأيي السابق ورأيي الحالي عنها، جارحًا للغاية ومؤلمًا جدًّا لمشاعري لدرجة أنه قضى على كل اعتبار آخر.

لكن على الرغم من ذلك كنت ما زلت أشعر بالفضول لمعرفة نوع التفسير

الذي كانت ستقدمه لي ـ أو ستقدمه الآن إذا ضغطت عليها ـ وإلى أي مدًى ستعترف وكيف ستسعى إلى طلب الغفران. كنت أتوق إلى معرفة ما أحتقره وما يعجبني فيها، ماذا يثير شفقتي، وماذا يثير كرهي، وما هو أكثر من ذلك. سأراها مرة أخرى وأصل إلى نتيجة نهائية فيما يتعلق بالكيفية التي أراها بها قبل أن نفترق. لقد فقدتها إلى الأبد بالطبع، لكن ما زلت لا أستطيع تحمل الاعتقاد بأننا قد افترقنا للمرة الأخيرة مع هذا الكم الهائل من القسوة والبؤس من كلا الجانبين. تلك النظرة الأخيرة لها غرقت في قلبي ولا أستطيع أن أنساها، ولكني لم أكن أحمقًا! ألم تخدعني وتجرحني وأفسدت سعادتي مدى الحياة؟

«فليكن. سأراها على أي حال ولكن ليس اليوم، سأدعها اليوم والليلة تفكر في خطاياها وتشعر بالبؤس بقدر ما تريد. سوف أذهب لأراها غدًا، وسأعرف منها أكثر. قد يكون اللقاء مفيدًا لها وقد لا يكون، لكن على أي حال سوف يضيف شيئاً من الإثارة على حياتي التي حُكم عليها بالركود».

ذهبت في مساء اليوم التالي بعد انتهاء عملي، أي ما بين الساعة السادسة والسابعة، كانت الشمس وهي تغرب تلقي بظلالها الحُمر على القصر القديم والنوافذ عندما وصلت إليها، وتضفي على المكان جمالًا خاصًّا. لا أحتاج إلى التوسّع في المشاعر التي غمرتني عندما اقتربت من مقام معبودتي السابقة ـ تلك البقعة التي تعج بآلاف الذكريات المرهفة والأحلام الرائقة ـ، أصبحت مظلمة الآن بحقيقة واحدة كارثية.

أدخلتني ريتشيل إلى الصالون وذهبت لاستدعاء سيدتها. لم تكن هناك، لكن كان مكتبها مفتوحًا، كان هناك كتاب موضوع على الطاولة الصغيرة المستديرة بجانب الكرسي المرتفع. كانت مجموعتها من الكتب محدودة لكن الاختيارات مألوفة بالنسبة إليّ لأنها تقريبًا تشبه مجموعة الكتب التي أملكها، لكن هذا المجلد لم أره من قبل، كان كتاب «الأيام الأخيرة للفيلسوف»

للسير همفري ديڤي، وفي الورقة الأولى كُتب «فريدريك لورانس». أغلقت الكتاب لكني احتفظت به في يدي ووقفت في مواجهة الباب وظهري إلى المدفأة منتظرًا وصولها بهدوء، لأني لم أشكّ أنها ستأتي. سرعان ما سمعت خطواتها في القصر ليبدأ نبض قلبي بالاضطراب، لكنني أخرسته بتوبيخ داخلي وحافظت على رباطة جأشي ـ ظاهريًا على الأقل.

دخلت. كانت هادئة شاحبة ومتحفظة: «كيف يمكنني أن أخدمك سيد ماركهام؟»، قالت بأنفَة قاسية لكن هادئة لدرجة مزعجة، لكني أجبت بابتسامة، وصفاقة كافية:

«حسنًا، لقد جئت لأسمع شرحك».

قالت: «قلت لك إنني لا أحتاج إلى فعل ذلك. أنت لا تستحق ثقتي».

أجبتها: «أوه، حسنًا»، ومشيت إلى الباب.

قالت: «انتظر لحظة، هذه آخر مرة أراك فيها، لا تذهب بعد».

بقيت في انتظار أوامرها الأخرى.

استأنفت قائلة: «قل لي: على أي أساس صدّقت وبسهولة تلك الافتراءات التي قيلت ضدي، من الذي تحدث عني، وما الذي قالوه؟».

بقيت صامتًا للحظة. غرست عينيها في عينيّ بلا تردد، كانت مصممة على معرفة الأسوأ وعازمة على الجرأة على ذلك أيضًا. قلتُ في نفسي: «يمكنني أن أسحق هذه الروح الجريئة»، لكن بينما كنت مبتهجًا بقوتي سرًّا شعرت برغبة في التباطؤ في التلاعب بضحيتي مثل قطة. عرضتُ عليها الكتاب الذي كنت ما زلت أحمله في يدي، مشيرًا إلى الاسم المدوَّن على الورقة الأولى ومثبّتًا عينيّ على وجهها وأنا أسألها: «هل تعرفين هذا الرجل؟».

أجابت: «بالطبع أفعل»، وفجأة غمرت ملامحها ـ لست متأكدًا إن كان الذي غمرها خزيٌ أو غضب، لكنني شعرت أنه الأخير، «وماذا بعد يا سيدي؟».

«كم مضى من الوقت منذ التقيتِه آخر مرة؟».

«من أعطاك الحق في التحدث معي في هذا الموضوع أو أي موضوع آخر؟».

«أوه، لا أحد! الأمر متروك لكِ تمامًا فيما إذا كنتِ تريدين الإجابة أم لا. والآن اسمحي لي أن أسأل: هل سمعتِ ما حدث مؤخرًا لصديقك الحميم؟ ـ لأنكِ إذا لم تفعلي...».

«لا أسمح لك بإهانتي سيد ماركهام!»، صَرَخت بغضب من أسلوبي، «لذا من الأفضل أن تغادر المنزل في الحال إذا كنتَ قد أتيت من أجل ذلك فقط».

«ما جئت لأهينكِ، جئت لأسمع تفسيركِ».

«وأنا أقول لك إنني لن أمنحك إياه!»، ردت وهي تسير في الغرفة في حالة من الإثارة الشديدة ويداها مشدودتان بإحكام، وتتنفس باضطراب، بعينين ساخطتين. «لن أفسّر تصرفاتي لشخص يرحّب بالشكوك المثارة حولي بهذه السهولة، ويعتبر افتراءات فظيعة كهذه أمرًا باعثًا على الضحك والمزاح».

«أنا لا أجدها مضحكة سيدة غراهام»، أجبتها وأنا أتخلى على الفور من نبرة السخرية. «تمنيت من صميم قلبي أن يكون الأمر مزاحًا. وفيما يتعلق بالسهولة في الشك فاللّه وحده يعلم كم كنت أحمقَ وأعمى. أغمضت عيني بإصرار وصممت أذني عن كل ما كان يحاول زعزعة ثقتي بكِ، حتى ظهرَ الدليل أمام عينيّ وأطاح بافتتاني بك!».

«أي دليل هذا يا سيدي؟».

«حسنًا، سأخبركِ. هل تتذكرين ذلك المساء عندما كنتُ هنا آخر مرة؟».

«نعم».

«حتى ذلك الحين، كنت قد سمعت بعض التلميحات التي ربما يمكنها إثارة شكوك أي رجل أحكم مني، لكن لم يكن لها مثل هذا التأثير فيّ، لم

تزعزع ثقتي أو إيماني بكِ. حدث ذلك بعد مغادرتي تلك الليلة، بسبب العاطفة الغامرة التي كانت تشعرني بالضيق لأني تركتكِ وأنتِ في حالة حزن. لم أتجرأ على التطفل بالدخول مجددًا، لكنني لم أكن قادرًا على مقاومة رغبتي في إلقاء نظرة أخيرة من خلال النافذة للاطمئنان عليكِ، إذا كنتُ قد أخطأت فقد كان الحب وحده هو دافعي، وكانت العقوبة قاسيةً بما فيه الكفاية، لأنك عندما وصلتُ إلى تلك الشجرة خرجتِ مع صديقكِ إلى الحديقة. لم أُرِد أن أظهر نفسي في موقف كهذا، لذا وقفتُ بلا حراك حتى تمرا كلاكما».

«وكم سمعتَ من حديثنا؟».

«سمعت ما يكفي يا هيلين. وكان جيداً بالنسبة لي أنني سمعت، لا شيء أقل من ذلك كان يمكن أن يوجع افتتاني. لطالما قلت إنني لن أصدق كلمة واحدة تُقال ضدك إلا إذا سمعتها منكِ. كل تلميحات وتأكيدات الآخرين تعاملتُ معها على أنها افتراءات خبيثة لا أساس لها من الصحة، وكنت على ثقة من قدرتكِ على تفسير كل ما هو غامض بشأنك، إذا اخترتِ أن تفعلي».

أثناء ذلك توقفت السيدة غراهام عن مشيتها واتّكأت على أحد طرفي المدخنة، مقابل الطرف الذي كنت أقف بقربه، ألقت بذقنها على يدها وهي تنظر إليّ بعيون عادت لا تحترق من الغضب، بل تحدق إلي حين أتحدث، ثم تنقل نظرها المرتبك إلى الحائط، أو الأرض.

قالت: «كان يجب عليك المجيء إليّ على الرغم من كل شيء وسماع تبريري. من الخطأ وغير اللائق أن تنسحب هكذا فجأة، مباشرة بعد كل ذلك الحديث عن التعلّق ودون حتى توضيح سبب للتغيير. كان يجب أن تخبرني بكل شيء مهما كانت مرارته. أي شيء كان من الممكن أن يكون أفضل من هذا الصمت».

«إلى أي حد كان عليّ أن أفعل ذلك؟ لا أعتقد أنه كان بإمكانكِ وقتها تنويري أكثر حول هذا الموضوع ولا أن تجعليني أشك بحواسي. كنت أرغب

في قطع علاقتنا على الفور، كما قلتِ أنت بنفسك يومها إنه من المحتمل أن يحدث هذا إنْ عرفتُ كل شيء، مع ذلك لم أرغب في أن أخافك ـ على رغم أنك (كما اعترفتِ أيضًا) كنتِ قد ظلمتِني بشدة. نعم، لقد أصبتِني بإصابة لا يمكنك إصلاحها أبدًا ـ أو أي إصابة أخرى أيضًا ـ لقد أفسدتِ حياتي وجرّدتيها من معناها! قد أعيش مئة عام، لكن لا يمكنني التعافي من آثار هذه الضربة القاضية ولن أنساها أبدًا. وها أنتِ بعد كل ذلك تبتسمين يا سيدة غراهام»، قلتُ ذلك وأنا أتوقف عن التعبير عن صرختي العاطفية بمشاعرَ لا توصف لأراها تبتسم على صورة الخراب الذي أحدثَته.

«هل فعلتُ ذلك حقًّا؟»، ردت وهي تنظر نحوي بجدية، «لم أكن على علم بهذا كله، وإذا فعلت فليس من دواعي سروري التفكير في الأذى الذي سببته لك. يعلم اللّه أنني قد عانيت من العذاب ما يكفي فقط بسبب التفكير في احتمال حدوث ذلك. ما يُفرحني هو عمق شعورك وروحك، وأتمنى ألا أكون مخطئة في تقدير قيمتك، لكن الابتسامات والدموع متشابهة جدًّا لديّ، فهي ليست محصورة في مشاعر معينة، ذلك أنني كثيراً ما أبكي عندما أكون سعيدة، وأبتسم في خضم أحزاني».

نظرتْ إليّ مرةً أخرى وبدا أنها تتوقع مني ردًّا، لكني واصلت الالتزام بالصمت.

استأنفت قائلة: «هل سيسعدك أن تكتشف أنك كنت مخطئًا في استنتاجاتك؟».

«كيف يمكنكِ أن تسألي يا هيلين؟».

قالت متحدثةً بصوت منخفض وسريع حين كان قلبها ينبض بشكل واضح: «لا أقول إنني أستطيع تبرئة نفسي تمامًا، لكن هل سيسعدك اكتشاف أنني أفضل مما تعتقد؟».

«أي شيء يمكنه أن يعيد إليّ نظرتي السابقة إليكِ، يفسّر هذا الحب الذي

ما زلت أشعر به تجاهك على الرغم من كل شيء، ويخفّف الآلام التي لا يمكنني وصفها. سيسعدني بكل تأكيد، بل أنتظر استقباله بفارغ الصبر!». شعرت بوجهها يلتهب وجسدها كله يرتجف مع تزايد الانفعال. لم تتحدث، لكنها طارت إلى مكتبها وخطفت من هناك ما بدا أنه مجلّد سميك ومزقت على عجل بعض الأوراق من نهايته ودفعته إليّ قائلةً: «لا داعي إلى قراءته بالكامل، لكن خذه معك إلى المنزل»، وهُرعت خارجةً من الغرفة.

لكن عندما غادرت المنزل وكنتُ ماضيًا في طريقي، فتحَتِ النافذةَ واستدعتني مرةً أخرى. كان ذلك فقط لقول: «أعده بعد قراءته، ولا تَبُح لأي كائن حيّ بما ستعرفه. أنا أثق بأمانتك».

قبل أن أجيب، كانت قد أغلقَتِ النافذةَ واستدارت بعيدًا. رأيتها ألقت بنفسها على كرسي البلوط القديم وغطت وجهها بيديها. لقد فاضت مشاعرها إلى درجة جعلتها تبحث عن الراحة في البكاء.

أسرعت إلى المنزل وأنا أحاول قمع آمالي، بمجرد دخولي هُرِعت إلى غرفتي في الأعلى، بعد أن زوّدت نفسي أولًا بشمعة، على الرغم من أن الظلام لم يحلَّ بعد، ثم أغلقت الباب مصممًا على عدم السماح لأية مقاطعة. جلستُ أمام الطاولة وفتحت المجلد وسلمت نفسي لمهمة الاطلاع عليه ـ بدأتُ أولًا بتقليب الأوراق على عجل والتقاط عبارات من هنا وهناك، ثم أعدتُ نفسي بثبات إلى البداية لقراءته.

ما زال أمامي، وعلى الرغم من أنك لن تتصفحه بنصف حماسي لقراءته، فإنني أعلم أنك لن تكتفي باختصارٍ لمحتوياته، هناك بعض المقاطع هنا وهناك لا تُهِم أحدًا غير الكاتب، أو ما من شأنه أن يثقل كاهل القصة بدلًا من توضيحها. في الواقع، يبدأ بشكل مفاجئ إلى حد ما، وبالتالي من الأفضل نقله ليكون فصلًا آخر.

الفصل السادس عشر

الأول من يونيو 1821. لقد عدنا للتو إلى ستانينغلي، بمعنى أننا عدنا منذ بضعة أيام لكني لم أستقر بعد، وأشعر أنني لن أفعل أبدًا. لقد غادرنا المدينة في وقت أقرب مما كان مقرّرًا بسبب توتر زوج خالتي ـ أتساءل ماذا كانت النتيجة لو أننا كنا بقينا لوقت أطول. أشعر بالخجل من نفوري من الحياة الريفية. كل هواياتي تبدو مملة، لا أستطيع الاستمتاع بموسيقاي لأنه لا يوجد من يسمعها. لا أستطيع الاستمتاع بالمشي لأنه لا يوجد أحد لمرافقتي. لا يمكنني الاستمتاع بكتبي لأنها لا تملك القدرة على جذب انتباهي، رأسي مسكون بذكريات الأسابيع القليلة الماضية لدرجة أنني لا أستطيع الاهتمام بأي شيء سواها. الرسم يناسبني بشكل أفضل لأنني أستطيع التفكير حين أرسم، وإذا لم يكن هناك من يمكنه أن يرى لوحاتي سواي ومن لا يُهمه أمرها، فقد يوجدون فيما بعد. هناك وجه واحد أحاول دائمًا أن أرسمه دون جدوى وكم يزعجني هذا الأمر، أما بالنسبة إلى صاحب هذا الوجه فلا يمكنني أن أخرجه من ذهني ـ في الواقع لا أحاول أبدًا. أتساءل عما إذا كان فكّر بي في يوم من الأيام، عما إذا كنتُ سأراه مرة أخرى، وسلسلة من التساؤلات الأخرى التي يملك جوابها الوقت والقدر. بافتراض الإجابة عن جميعها بالإيجاب، أتساءل عما إذا كنت سأتوب عنها يومًا؟ حتمًا ستقول خالتي إنني ينبغي عليّ إذا علمتْ ما أفكر فيه.

أتذكر بوضوح محادثتنا في ذلك المساء قبل مغادرتنا إلى لندن، عندما كنا

نجلس معًا بالقرب من المدفأة، كان زوج خالتي قد نام بعد معاناته من هجوم نوبة طفيفة من النقرس.

قالت بعد صمت عميق: «هيلين، هل فكرتِ يومًا في الزواج؟».

«نعم خالتي، أفعل في كثير من الأحيان».

«وهل فكرت يومًا في احتمال زواجك أو خطبتك قبل انتهاء الصيف؟».

«بعض الأحيان، لكنني لا أعتقد أنني قد أفعل ذلك على الإطلاق».

«لم ذلك؟».

«لأنه، حسب تصوري، هناك عدد محدود جدًّا من الرجال الذين أود الزواج منهم، وفي هذه الحالة الاحتمال الغالب هو أنني لن ألتقي بأحدهم، وإذا حدث والتقيته فأغلب الظن أنه لن يكون أعزبَ، أو لن يُعجَب بي».

«هذه ليست حجة على الإطلاق. قد يكون هذا صحيحًا ـ وآمل أن يكون ذلك صحيحًا ـ أنه يوجد عدد قليل جدًّا من الرجال الذين تودين الزواج بهم. في الواقع، ليس من المفترض أن ترغبي في الزواج من أي شخص حتى يُطلب ذلك منك، ليس من اللائق أبدًا تمادي عواطف الفتاة دون هدف، ذلك أنه عندما تصبح قلعةُ القلب محاصرةً بالعاطفة، يُستَسلَم في وقت أقرب مما يدركه صاحبه، وغالبًا ما يكون الواقع مختلفًا عن كل أفكاره السابقة عمّا كان يرغب فيه، وقد يؤذيه ما لم يلتزم بالحذر الشديد. أريد أن أحذركِ يا هيلين من هذه الأمور، وأحثّك على أن تكوني متيقظةً وحذِرةً من بداية حياتك، لا تسمحي بأن يسرق قلبكِ أول شخص أحمق يطمع في امتلاكه. أنتِ في الثامنة عشرة من العمر فقط، وأمامك متسع من الوقت. لست أنا أو عمّكِ في عجلة من أمرنا لإخراجك من أيدينا. يمكنني تأكيد أنه لن يكون هناك نقص في خاطبيكِ لأنكِ تستطيعين التباهي بعائلتكِ العريقة، وثروتكِ الكبيرة، ومستقبلكِ الباهر، ثم إن أحدًا لا يغفل حصّتكِ من الجمال، حتى إن لم أذكره أنا فإن الآخرين سيفعلون ـ وآمل أن لا يكون هناك سبب للندم على ذلك!».

«آمل يا خالتي. ولكن لماذا يجب علينا الخوف من ذلك؟».

«لأنه، بجانب المال، يُعتبر الجمال صفةً تجذب أسوأ أنواع الرجال، وبالتالي كثيرًا ما يتسبب في جلب الكثير من المتاعب إلى صاحبه».

«هل تأذيتِ أنتِ أيضاً من هذا الأمر يا خالتي؟».

قالت بشيء من الحزن: «لا يا هيلين، لكنني أعرف الكثيرات ممن فعلن، وأصبح البعض منهن بسبب الإهمال ضحايا للخداع. وبعضهنّ الآخر بسبب الضعف وقع في فخاخ وإغراءات فظيعة».

«حسنًا، أعدكِ ألّا أكون ساذجة أو ضعيفة».

«تذكري يا هيلين! لا تدعي شعور الانتشاء بالإعجاب يدخلكِ في الغفلة، بل راقبي. حافظي على عينيك وأذنيك كمنافذَ لقلبك، وعلى شفتيك كمخرج، لئلا يخونوك في لحظة من عدم اليقظة. تقبّلي بلطف ونزاهة كل اهتمام إلى أن تتحققي وتتأكدي من قيمة الطامح ونيّاته على النحو الواجب، لا تنسيْ دراسة شخصيته أولاً، ثم الموافقة. ثم الحب. أغلقي عينيكِ عن كل عوامل الجذب الخارجية، وصمّي أذنيك عن كل افتتان بالإطراءات والخطابات التبجيلية، فهذه ليست شيئًا، بل أسوأ من لا شيء، ليست سوى فخاخ وحيَل مجرّبة للإغراء. المبدأ يأتي قبل كل شيء، وبجانب ذلك الحس السليم والاحترام والثروة المعتدلة. إذا كانت رغبتكِ محصورةً في الزواج من الرجل الأوسم، أو الأكثر إنجازًا وقَبُولًا ظاهريًا في العالم، فأنتِ بهذا لا تدركين شيئاً من البؤس الذي سيغمركِ عندما تكتشفين أنه على الرغم من كل ذلك قد يكون فاسدًا لا قيمة له، أو أحمقَ لا فائدة ترجى منه».

«ولكن، ما الذي يجب أن يفعله كل الحمقى المساكين والفاسدين يا خالتي؟ إذا اتبع الجميع نصيحتك، فسوف ينتهي العالم قريبًا».

«لا تخافي أبدًا عزيزتي! لا يقلق هذا النوع من الذكور أبدًا بشأن وجود شركاء مناسبين لهم، فهناك الكثير من الجنس الآخر ممن يناسبهم، لكن هل

ستتبعين أنتِ نصيحتي؟ هذا ليس موضوع مزاح يا هيلين، ويؤسفني أن أراك تتعاملين مع الأمر بهذه الطريقة الخفيفة. صدّقيني، الزواج أمر خطير». كانت تتحدث بجدية شديدة لدرجة أن المرء قد يتخيل أنها تعرف شيئًا، لكنني لم أطرح المزيد من الأسئلة، واكتفيتُ بالإجابة فقط.

«أعلم أنه كذلك، وأعلم أن ما تقولينه حقيقة منطقية، لكن لا داعي إلى الخوف عليّ، فأنا لا أفكر فقط أنه من الخطأ الزواج من رجل فاقد للوعي أو المبدأ، بل ينبغي ألّا أستسلم لإغراء فكرة الإقدام على ذلك، لأنني لا أستطيع أن أحبّ رجلًا لوسامته وسحره فحسب، وأكرهه أو أحتقره وأشفق عليه من نواحٍ أخرى. لا يمكن أن تُؤَسَّس عواطفي على الاستحسان فحسب، يجب أن تكون بالإضافة إلى الاحترام وتكريم الرجل الذي أتزوجه، لأنني لا أستطيع أن أحبه دون ذلك. لذا كوني مطمئنة ومرتاحةَ البال».

أجابت: «آمل أن يكون الأمر كذلك».

«تأكدي أن الأمر كذلك»، أصررتُ.

قالت بطريقتها الباردة والحذرة: «لا يمكننا الحكم بعد يا هيلين، لا يسعنا إلا أن نأمل».

كنتُ منزعجةً من شكوكها، لكني بنفس الوقت لست متأكدةً أن شكوكها كانت بلا حكمة. أخشى أنني وجدت أنه من الأسهل بكثير تذكُّر نصيحتها بدلًا من الاستفادة منها فعليًا، في الواقع لقد دفعتني أحيانًا إلى التشكيك في صحة قناعاتها حول هذه الموضوعات. قد تكون نصائحها جيدة فيما يتعلق بالنقاط الرئيسية على الأقل، لكن هناك بعض الأشياء التي أغفلتها في حساباتها. أتساءل عما إذا كانت تعيش حالة حب.

لقد بدأت مسيرتي المهنية ـ أو حملتي الأولى كما يسميها زوج خالتي ـ، أشعلت آمالًا وأحلامًا مشرقة أثارتها هذه المحادثة بشكل رئيسي، وثقة كاملة في تقديري الخاص. في البداية، كنتُ مسرورةً بالحداثة والإثارة في الحياة

في لندن، لكن سرعان ما بدأتُ أشعر بالضجر من اختلاطها بالاضطرابات والقيود، وأتوق إلى مدينتنا. معارفي الجدد، ذكورًا وإناثًا، خيبوا توقعاتي وأزعجوني وأحبطوني بالتناوب، لأنني سرعان ما سئمت من سماع خصوصياتهم والضحك على نقاط ضعفهم ـ لا سيما أنني كنت مضطرة إلى الاحتفاظ بانتقاداتي لنفسي لأن خالتي لم تكن تسمعها. ثم إن السيدات، على وجه الخصوص، كنّ بلا عقل وبلا مشاعر ومتصنِّعاتٍ، بينما بدا السادة أفضل، لكن ربما كان ذلك لأنني كنت أعرفهم بشكل سطحي ـ أو ربما لأنهم كانوا يمدحونني ـ ، ولكني لم أكن أميل بشكل خاص إلى أحد منهم. وإذا ما أسعدني انتباههم في لحظة ما، فقد يستفزونني في اللحظة التالية عبر التطرق إلى التفاخر، مما يجعلني أشعر بالخوف من أنني أصبحت مثل بعض السيدات اللائي كنت أحتقرهن بشدة.

كان هناك رجلٌ كبير في السن يزعجني كثيرًا، صديقٌ قديم غنيٌّ لزوج خالتي، كان يعتقد أنني لا يمكنني أن أتزوج ممن هو أفضل منه، لكن بالإضافة إلى كونه كبيرًا في السن كان قبيحًا ومثيرًا للاشمئزاز، كما أنني متأكدة من أنه رجل سيئ، على الرغم من أن خالتي وبّختني لقول ذلك، لكنها أقرّت بأنه ليس قديسًا. كان هناك آخر، أقل سوءاً لكن أكثر إرهاقًا، لأنها كانت تحبه وتمتدحه في أذني، اسمه السيد بورهام ـ كنتُ أسمّيه بيني وبين نفسي السيد بوريم (نسبة إلى كلمة بورينغ والتي تعني ممل) ـ لأنه كان مملًّا للغاية.

ما زلت أشعر بقشعريرة عند تذكر صوته المزعج وهو يطن لنصف ساعة دون توقف في أذني حين كان يجلس بجانبي ويخدع نفسه بفكرة أنه كان يطوّر ذهني بمعلوماته المفيدة، أو يقنعني بعقائده ويصوّب أخطائي في الحكم على الأمور، أو ربما كان يظن أنه يتحدث بما يتناسب مع مستواي ويسليني بخطاب ترفيهي. لكن على الرغم من ذلك، كان رجلًا لائقًا بدرجة كافية، ويمكنني القول إنه لو كان قد حافظ على مسافة بيني وبينه لما كرهته أبدًا كما

فعلت، بالنتيجة كان من المستحيل تقريبًا تفادي الأمر لأنه لم يزعجني فقط بفرض وجوده، ولكنه منعني من التمتع بصحبة أناس أكثر قبولًا.

في إحدى الليالي، حيث كنا في إحدى الحفلات، كان يزعجني أكثر من المعتاد، وكان صبري قد نفد تمامًا. بدا الأمر كما لو أن الأمسيّة بأكملها كان مقدّرًا لها أن تكون مصدر ألم، كنت قد أنهيت للتو رقصة مع شاب أنيق فارغ الرأس، ليأتي بعده السيد بورهام ويثقل عاتقي وبدا عازمًا على التشبث بي لبقية الليل. لم يرقص أبدًا بل بقي جالسًا هناك قبالتي، محاولًا إثارة إعجاب الموجودين بفكرة أنه عاشق ومرتبط بي، وخالتي تنظر إلى ما يجري برضًا طوال الوقت وتطلب من اللّٰه التعجيل بتوفيقه. حاولتُ عبثًا إبعاده عن طريق إفراغ مشاعري الغاضبة لدرجة الفظاظة، لكن لا شيء كان بإمكانه أن يقنعه أن وجوده كان غير مرغوبٍ فيه، بل منحهُ صمتي المتجهم مِساحةً أكبر للحديث، وتلقّى إجاباتي الحادّة على أنها زخّات من الحماسة الصبيانية التي لا تتطلب أكثر من توبيخ متساهل، والتناقضات بيننا كانت بمثابة إلقاء زيت على نار استدعتْ موجاتٍ جديدة من الجدل لدعم آرائه، وإغراقي بفيضانات لا تنتهي من الأفكار التي من المفترض أن تغمرني بالإيمان.

ولكن كان هناك أحد الحاضرين الذي بدا أنه يتمتع بتقدير أفضل لنمط تفكيري. كان رجلًا نبيلًا يقف بجانبه ويستمع إلى نقاشنا لبعض الوقت، بدا أنه كان مستمتعًا بإصرار مُحَدِّثي وانزعاجي الواضح. كان يضحك وهو يسمع قسوة ردودي التي لا هوادة فيها، مع ذلك انسحب وذهب إلى سيدة المنزل على ما يبدو لغرض الطلب منها تعريفي إليه. بعد فترة وجيزة، جاء كلاهما وقَدَّمَتْه لي على أنه السيد هانتينغدون، ابن صديق راحل لزوج خالتي. طلب مني مشاركته الرقص ووافقت بالطبع وبسرور. أصبح رفيقي خلال الفترة المتبقية من وجودي في الحفلة والتي لم تكن طويلة، لأن خالتي كعادتها أصرت على المغادرة مبكرًا.

شعرت بالحزن للمغادرة مبكرًا، لأنني وجدتُ الشاب مفعمًا بالحيوية والتسلية. كان هناك قدرٌ من كبير من العفوية والحرية في أقواله وأفعاله، مما منحني إحساسًا بالراحة والانعتاق بعد المعاناة الطويلة مع القيود والإجراءات الشكلية التي كنتُ محكومةً بها. كان هناك الكثير من الجرأة غير المبالية في أسلوب كلامه وتعامله، لكنني كنتُ في حالةٍ رائقةٍ وممتنةٍ جدًّا لإنقاذي، ولو متأخرًا، من السيد بورهام لدرجة أن ذلك لم يغضبني.

«حسنًا هيلين، ما رأيكِ في السيد بورهام الآن؟»، قالت خالتي حين كنا نأخذ مقاعدنا في العربة وننطلق للعودة.

أجبتها: «أسوأ من أي وقت مضى».

بدت مستاءة لكنها لم تقل المزيد عن هذا الموضوع.

ثم استأنفتْ قائلة: «مَن كان الشاب النبيل الذي رقصتِ معه؟ كان تصرفه غير لائق عندما ساعدكِ على ارتداء معطفك؟».

«لم يكن استبداديًّا على الإطلاق يا خالتي، لم يكن يحاول مساعدتي إلا عندما رأى السيد بورهام قادمًا للقيام بذلك، حينها فقط تقدم إليّ وهو يضحك قائلًا: تعالي، سأحميكِ من هذا الأذى».

«من يكون؟»، سألتني باهتمام شديد.

«السيد هانتينغدون، ابن صديقٍ متوَفًّى لعمي».

«لقد سمعت عمكِ يتحدث عن السيد هانتينغدون الشاب من قبل، كان يقول إنه فتًى جيد، لكنه جامح بعض الشيء، لذلك لو كنت مكانكِ لتحلّيت بالحذر».

«ما معنى جامح»، سألتها.

«يعني أنه معدوم المبدأ ولا يتوانى عن ممارسة الرذائل المنتشرة بين الشباب. لكن عمكِ كان يقول إنه مر بالكثير من الأحداث المحزنة عندما كان صغيرًا»، هزت رأسها بشدة.

قلت: «ربما كان يمزح حينها أو يتحدث بشكل عشوائي، لا أستطيع أن أصدق أن هناك أي حزن في تلك العيون الزرق الضاحكة».

«منطق خادع، هيلين!»، قالت بحسرة.

«حسنًا، لا بد أن نحسن الظن يا خالتي، بالإضافة إلى ذلك، لا أعتقد أنه منطق خاطئ، فأنا عالمة فسيولوجيا ممتازة ولا أحكم دائمًا على الناس من خلال شخصياتهم ومظاهرهم الخارجية فحسب، ولكن من خلال القالب العام للوجه. على سبيل المثال، يمكنني أن أعرف من تقاسيم وجه الشخص إن لم يَعِش طفولة سعيدة، فأنا عرفت من قبل أن السيد ويلموت كان عديم القيمة، وأن السيد بورهام ليس رفيقًا مقبولًا، والسيد هانتينغدون ليس بأحمقَ ولا مغرمًا، على الرغم من أنه ربما ليس حكيمًا ولا قديسًا ـ وهو أمر لا يهمني، لأنه من غير المحتمل أن ألتقي به مرة أخرى».

لكن الأمر لم يكن كذلك، لأنني التقيت به مرة أخرى في صباح اليوم التالي. جاء ملبّيًا دعوة زوج خالتي، معتذرًا عن عدم تمكنه من القيام بذلك من قبل لأنه عاد مؤخرًا من القارة، ولم يعلم حتى الليلة السابقة بوجود زوج خالتي في المدينة، بعد ذلك تكررت لقاءاتنا، أحيانًا في الأماكن العامة، وأحيانًا أخرى في المنزل، حيث كان حريصًا على تقديم احترامه الدائم لزوج خالتي ـ صديق والده الراحل ـ الذي لم يكن يعتبر نفسه مجبرًا على الاهتمام به بالمقابل.

كان يقول: «أتساءل ما الذي يريده هذا الشاب بزياراته المتكررة، هل يمكنك إخباري يا هيلين؟ فهو لا يبدو أنه مهتم برفقتي وشعوري لا يختلف عنه في ذلك ـ هذا مؤكد». قالت خالتي: «ليتك تخبره بذلك إذن».

«لماذا؟ إذا كنت أنا لا أريده، فلا بد أن هناك شخصًا ما يريده» (غمز لي). «علاوة على ذلك، هو مكسب كبير كما تعلمين يا بيغِي ـ بالطبع لا يشبه صيداً ثميناً كَويلموت، ولكن على كل حال، لا أعتقد أن هيلين تُهمها

هذه المقارنات، فهؤلاء الفرسان القدامى لا يبهرون الفتيات مع أموالهم وخبراتهم. أراهن أنها تفضل أن يكون لديها هذا الشاب دون فلس واحد، بدلًا من ويلموت بمنزله المملوء بالذهب. أليس كذلك يا هيلين؟».

«نعم يا عمي، لكن لا أعتقد أن هذا يعني الكثير للسيد هانتينغدون، لأنني أفضل أن أكون خادمة عجوزًا وفقيرة من أن أكون السيدة ويلموت».

«والسيدة هانتينغدون؟ ماذا تفضلين أن تكوني بدلًا من السيدة هانتينغدون ـ ها؟».

«سأخبرك عندما أفكر في الأمر».

«آها! الأمر يحتاج إلى التفكير إذن؟ لكن هيا الآن ـ هل حقًّا تفضلين أن تكوني خادمة عجوزًا وناهيك بالفقر؟».

«لا أستطيع أن أقول حتى أُسْأَلَ إلى ذلك».

وغادرت الغرفة على الفور هربًا من مزيد من الأسئلة الفضولية. لكن بعد خمس دقائق، وأنا أنظر من نافذتي، لمحتُ السيدَ بورهام يقترب من باب المنزل. انتظرتُ ما يقرب من نصف ساعة غير مريحة، متوقّعةً أن أُنادَى كل دقيقة وأنتظر عبثًا مغادرته. ثم سمعت خطًى على الدرج ودخلت خالتي الغرفة بملامحَ جادة وأغلقت الباب خلفها قائلةً: «السيد بورهام يطلب رؤيتكِ يا هيلين».

«أوه يا خالتي! ألا يمكنكِ إخباره أنني متوعّكة؟».

« لم يأتِ لمسألة تافهة، لقد جاء في زيارة مهمة للغاية يا هيلين، ليطلب يدك للزواج منّا أنا وعمكِ».

«آمل أنكما أخبرتماه أنه ليس في وسعكما منحه أية إجابة. كيف له أن يفاتح أحدًا سواي في هذا الأمر؟».

«هيلين!».

«ماذا قال له عمي؟».

«قال إنه لن يتدخل في الأمر. إذا أحببتِ قبول العرض الذي تكرّم به السيد بورهام، فأنت ـ ».

«هل قال عمي أنه عرضٌ «تكرّم» السيد بتقديمه؟».

«لا. قال إنكِ إذا أردتِ الزواج به يمكنك ذلك، وإذا لم ترغبي فالأمر لكِ».

«قوله صائب. وماذا قلتِ أنتِ؟».

«لا يهم ما قلته، بل ما ستقولينه أنتِ، هذا هو المهم. إنه الآن ينتظر أن يسألكِ بنفسه، لكن فكري جيدًا قبل أن تتحدثي معه، وإذا كنت تنوين رفضه أخبريني بأسبابك».

«سأرفضه بالطبع، لكن أحتاج إلى أن تعلّميني كيف أبلغه برفضي، لأني أريد أن أكون لبقة، وسأخبركِ بأسبابي بعد ذلك».

«انتظري يا هيلين، اجلسي قليلًا وأعدّي نفسك. السيد بورهام ليس في عجلة من أمره لأنه لا يشك في قَبُولك. ثم إنني أريد التحدث معكِ، أخبريني يا عزيزتي ما هي اعتراضاتكِ عليه؟ هل تنكرين أنه رجل شريف ونبيل؟».

«لا».

«هل تنكرين أنه عاقل، ورصين، ومحترم؟».

«لا، قد يكون كل ذلك، لكن..».

«لكن هيلين! كم عدد الرجال الذين تتوقعين أن تلتقي بهم في العالم ويحملون هذه الصفات؟ الرجل مستقيم، وشريف، وعاقل، ورصين، ومحترم، هل تلتقين يوميًا برجل نبيل مثله يحمل صفات كهذه لترفضيه دون تردد؟ نعم، أدعوه نبيلًا لأنها صفة تتضمن عددًا من الفضائل التي لا تقدر بثمن (ويمكنني إضافة المزيد إلى القائمة)، فكري أن كل هذا سيقع تحت قدميك. يمكنك تأمين هذه النعمة التي لا تقدر بثمن مدى الحياة ـ زوج جدير

ورائع، يحبك بشغف، ولكن ليس لدرجة أن يمنعه هذا الحب عن تنبيهك لأخطائك، سيكون دليلك طوال رحلتكِ في هذه الحياة، وشريكك في النعيم الأبدي لاحقًا، فكري كيف..».

«لكني أكرهه يا خالتي»، قلتُ بانفعال وأنا أقاطع هذا التدفق غير العادي من البلاغة.

«أكرهه يا هيلين؟ هل هذه روح مسيحية؟ تكرهين رجلًا طيبًا كهذا؟».

«أنا لا أكرهه كرجل، بل كزوج. كرجل أحبه كثيرًا لدرجة أنني أتمنى له زوجةً أفضل مني، زوجة طيبة مثله أو أفضل، إذا كنت تعتقدين أن ذلك ممكن، لكن لا بد أيضًا أن تحبه، وأنا لم أستطع أبدًا، وبالتالي..».

«لكن لمَ لا؟ علامَ اعتراضكِ؟».

«أولًا، هو يبلغ من العمر أربعين عامًا على الأقل، أو أكبر على ما أعتقد، وأنا لا يتجاوز عمري الثامنة عشرة. ثانيًا، هو ضيّق الأفق ومتعصب إلى أقصى الحدود. ثالثًا، ذوقه ومشاعره تختلف تمامًا عن ذوقي ومشاعري. رابعًا، مظهره وصوته وسلوكه يزعجني. وأخيرًا، لدي نفور لا يمكنني التغلب عليه من شخصيته بشكل عام».

«إذن عليكِ التغلب على هذه المشاعر، قارني بينه وبين السيد هانتينغدون، بمعزل عن الوسامة والمظاهر (التي دون شك لا تقلِّل من مزايا الرجل، ولا تأثر في سعادة الحياة الزوجية، والتي طالما كنتِ تدّعين أنها لا تحظى بتقدير كافٍ)، أخبريني أيهما أفضل».

«ليس لدي شكٌّ في أن السيد هانتينغدون رجلٌ أفضل بكثير مما تعتقدين، لكننا لا نتحدث عنه الآن بل عن السيد بورهام، ولمّا كنتُ أفضّل أن أعيش وأموت منعَّمة بالعزوبية على أن أكون زوجته، فمن الصواب أن أخبره بذلك في الحال وأخرِجُه من حال التشويق، لذا دعيني أذهب».

«لكن لا تعطيه إنكارًا قاطعًا، فهو ليس لديه أي فكرة عما تفكرين به وسوف يتأذى بشدة، أفهميه أنكِ لا تفكرين في الزواج في الوقت الحالي..».

«لكن أنا لديّ أفكار حول الزواج حاليًّا..».

«أو أنكِ ترغبين في التعرف إلى آخر»، أكملت عبارتها متجاهلةً اعتراضي.

«لكنني لا أرغب في التعرف إلى آخر - بل على العكس تمامًا».

ودون انتظار المزيد من التحذيرات غادرتُ الغرفة وذهبتُ للبحث عن السيد بورهام الذي كان يجوب غرفةَ المعيشة ذهابًا وإيابًا وهو يدندن بألحان عشوائية.

«سيدتي الصغيرة»، قال وهو ينحني للترحيب بي بابتسامةٍ عريضة، «لقد حصلتُ على إذنِ ولي أمرك لـ..».

«أعلم يا سيدي، وأرغب في اختصار هذا الموقف قدر الإمكان، دون شك أتشرف باختيارِكَ لي، لكني أرجو أن تقبل رفضي لهذا التكريم الذي تمنحني إياه، لأنني أعتقد أننا لم نُخلق بعضنا لبعض، كما ستكتشف سريعًا لو أننا أقدمنا على خوض هذه التجربة».

كانت خالتي على حق. كان من الواضح تمامًا أنه لم يكن لديه شك في قَبُولي، ولم يكن يتوقع مطلقًا الرفضَ، كان مذهولًا ومندهشًا من ردّي، بل ومرتابًا لدرجة أنه لم يكن يشعر بالإهانة، لذا وبعد فترة من الذهول الصامت والهمهمة، عاد إلى ساحة المعركة.

«أعلم يا عزيزتي أن هناك تفاوتًا كبيرًا بيننا في السنوات، وفي المزاج، وربما في بعض الأشياء الأخرى، لكن دعيني أؤكد لك أنني لست متزمّتًا لدرجة الإشارة إلى عيوب ونقاط ضعف طبيعة شابة ومتحمسة كطبيعتك، وحتى وأنا أوبّخك أحيانًا بمحبة أبوية، صدقيني لا يمكن لأي عاشق شاب أن يكون أحبّ لك منّي، ومن ناحية أخرى أتمنى ألا تستخفي بسنواتي المتخمة

بالخبرة حيث سأسعى إلى جعلها كلها مواتية لسعادتكِ، والآن! ما رأيك أن نترك النزوات العاطفية الشبابية، ونتحدث بصراحة في الحال».

«سأفعل، ولكن فقط لأكرر ما قلته من قبل، إنني متأكدة من أننا لم نخلق بعضنا لبعض».

«هل تعتقدين ذلك حقًّا؟».

«نعم».

«لكنك لا تعرفينني جيدًا، ألا ترغبين في معرفة المزيد، وقت أطول لـ..».

«لا، لا أفعل. أنا أعرفك جيدًا وأفضل مما تعرفني، وإلا فلم تكن لتفكر في الاقتران بواحدة غير مناسبة لك ـ وأعني غير مناسبة لك مطلقًا».

«لكن سيدتي العزيزة، أنا لا أبحث عن الكمال، يمكنني أن أعذر ـ ».

«شكرًا لك سيد بورهام، لكنني لن أتجاوز لطفك. يمكنك الاحتفاظ بتساهلك ومراعاتك للأمور الأكثر قيمة، والتي لن تفرض عليها الكثير من الضرائب».

«لكن اسمحي لي باستشارة خالتكِ، أنا متأكد من أن تلك السيدة الموقرة سوف..».

«لقد استشرتها بالفعل، وأعلم أن رغباتها تتوافق مع رغباتك، ولكن في مثل هذه الأمور الهامة، أنا أملك القرار ولا يمكن لأي محاولة إقناع تغيير قراري، أو حتّي على الاعتقاد بأن مثل هذه الخطوة ستؤدي إلى سعادتي أو سعادتك. في الواقع، أستغرب أن يفكر رجل بخبرتك ووعيك في اختيار زوجةٍ مثلي».

«أوه، حسنًا! كنتُ أتساءل أحيانًا عن ذلك أنا أيضًا، أقول لنفسي: من هذه التي تركض خلفها؟ اعتنِ بنفسك يا رجل، انظر قبل أن تقفز، إنها مخلوق حلوٌ ساحر، لكن تذكر أن أكثر ما يجذبك إلى الحبيب غالبًا يصبح أعظم عذاباتك كزوج! أؤكد لكِ أن اختياري لكِ لم يتم دون الكثير من التفكير والتأمل.

لقد كلفتني اللا مبالاة الظاهرية بالمتنافسين الكثير من التفكير المقلق نهارًا، والمؤرِّق ليلًا. لكنني اقتنعتُ بأن ذلك في الواقع تصرفٌ غير حكيم، حيث إن فتاتي الحلوة ليست خاليةً من الأخطاء، ولكن مقارنةً بمن هم في عمرها لم تكن تتميز بخصلة واحدة، بل بتوليفة رائعة من الخصال ومع ذلك فهي ليست مغرورة ـ وهو أساس قوي للافتراض بأن عيوبها الصغيرة المرتبطة بالمزاجية والأخطاء في إطلاق الأحكام والآراء، لم تكن غير قابلة للعلاج، بل يمكن إصلاحها بسهولة أو التخفيف من حدتها بالتحلّي بقليل من الصبر، وفي حال فشلت في إصلاح الخطأ فأتعهد بالعفو، تقديرًا لكل تلك الفضائل. لذلك يا عزيزتي، لمّا كنتُ راضيًا، علامَ اعتراضك؟ أقصد في ما يخصني».

«لأقول لك الحقيقة سيد بورهام، اعتراضي بشكل أساسي أمر مرتبط بي، لذلك دعنا نترك الموضوع». كنت أهم بالقول إنه من غير المجدي متابعته لأكثر من ذلك، لكنه قاطعني فورًا: «لكن لماذا؟ أريد أن أحبك، أن أعتني بك وأحميكِ و...».

لن أُتعب نفسي بسرد كل ما مر بيننا. يكفي القول إنني وجدته مزعجًا وخانقًا للغاية، ومن الصعب إقناعه بأنني كنت أعني ما قلتُه حقًّا. كان حقًّا عنيدًا ومتجاهلًا لرغباتي، لدرجة أنه لم يكن هناك أدنى أملٍ لفرصة أنه أو خالتي سيكونان قادرَين على تقبّل اعتراضاتي. في الواقع، لست متأكدة من أنني نجحت في النهاية على الرغم من ضجره من عودته إلى نفس النقطة وتكرار نفس الحجج مرارًا، مما أجبرني على تكرار نفس الردود، إلا أنني في النهاية أوجزت له الأمر بكلمات أخيرة: «لا يمكن أن يحدث ذلك. لا يمكن لأي اعتبار أن يدفعني إلى الزواج ضد رغبتي. أنا أحترمك ـ وسيزيد احترامي لك إذا تصرفتَ بعقلانية مع هذا الموضوع ـ لكنني لا أحبك، ولم أستطع أبدًا، وكلما خضتَ في الأمر أكثر زاد صَدِّي، لذا أتمنى منك ألّا تقول المزيد عن ذلك». عندها تمنّى لي نهارًا سعيدًا وغادر وهو يشعر بالارتباك والمهانة بلا شك، لكن بالتأكيد لم يكن هذا خطئي.

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي رافقتُ زوج خالتي وخالتي إلى حفل عشاء في منزل السيد ويلموت. كان لديه سيدتان تقيمان معه: ابنة شقيقته أنابيلا، وهي فتاة ـ بالأحرى امرأة شابة رائعة الجمال ـ تبلغ من العمر نحو خمسة وعشرين عامًا، لعوب إلى درجة كبيرة بحيث ـ وفقًا لتأكيدها هي ـ لا يمكن أن تتزوج، ولكنها تحظى بإعجاب كبير من قبل السادة الذين وصفوها جميعهم بأنها امرأةٌ رائعة. والأُخرى ابنةُ عمها اللطيفة، ميليسنت هارغريف، التي كانت معجبةً للغاية بي وتراني شيئًا أفضلَ بكثير مما كنت عليه. وأنا في المقابل كنت أحبها أيضًا وأستثنيها تمامًا من آرائي وانطباعاتي عن الأخريات. مع ذلك، لم أحضر الحفلة لرؤيتها أو ابنة عمها المذكورة، بل كان من أجل ضيف آخر من ضيوف السيد ويلموت: السيد هانتينغدون، ولديّ سبب وجيه لتذكُّر وجوده هناك، فهذه كانت آخر مرة أراه فيها.

لم يجلس بالقرب مني على العشاء، لأنه وُرِّط بالجلوس قرب أرملة كبيرة في السن، وأما نصيبي فكان صديقه السيد غريمسبي الذي لم أكن أستلطفه، كان هناك نوع من الشر في ملامحه ومزيج من شراسة كامنة ونفاق مغرور في سلوكه، ولم أستطع التخلص منه. من بين المصادر العديدة للإزعاج في هذه المجتمعات فائقة التحضر هي هذه العادة المرهقة في أن السادة لا بد أن يصطحبوا السيدات إلى غرفة الطعام، لماذا إذن لا يسمحون لكل رجل باصطحاب الفتاة التي تعجبه؟

على الرغم من هذه الفكرة، لم أكن متأكدةً أن السيد هانتينغدون كان

سيصطحبني لو كان حرًّا ليقوم بالاختيار. من الممكن أن يختار الآنسة ويلموت لأنها بدت عازمة على جذب انتباهه، ولم يُبدِ أي رفض لهذا التكريم، على الأقل هذا ما اعتقدته وأنا أرى انسجامهما في الأحاديث والضحكات. بعد ذلك، عندما انضم إلينا السادة في غرفة الطعام، دعته فور دخوله بصوت عالٍ ليكون حَكَمًا في نزاع بينها وبين سيدة أخرى وأجاب الاستدعاء بسرعة، وحسم الأمر دون تردد لصالحها ـ على رغم أنها حسب اعتقادي كانت من الواضح مخطئة ـ ، ثم وقف للتحدث معها ومجموعة من السيدات الأخريات، بينما جلست أنا مع مليسينت هارغريف في الطرف الآخر من الغرفة لألقي نظرة على رسوماتها، وأساعدها بملاحظاتي النقدية بناءً على رغبتها الخاصة. لكن على الرغم من جهودي للبقاء متماسكةً فقد كان انتباهي ينتقل تلقائيًّا من الرسومات إلى المجموعة المرحة، وخلافًا لتقديري للأمور ارتفع غضبي وبلا شك انكمشت ملامحي. بالنسبة إلى مليسينت، فقد اعتَقَدَتْ أنني لا بد قد سئمت منها ومن لوحاتها، وتوسلتني أن أذهب للانضمام للمجموعة وتأجيل رؤية اللوحات الباقية إلى فرصة أخرى. لكن بينما كنت أؤكد لها أنه ليست لدي رغبة في الانضمام إليهم ولم أكن أشعر بالتعب، جاء السيد هانتينغدون بنفسه إلى المائدة المستديرة الصغيرة التي كنا نجلس قربها.

«هل هذه لك؟»، قال وهو يتناول إحدى الرسومات بإهمال.

«لا، إنها للآنسة هارغريف».

«آها! حسنًا، فلنلقِ نظرةً عليها».

وبغض النظر عن اعتراضات الآنسة هارغريف بأنها لا تستحق النظر، إلا أنه أتى بكرسي إلى جانبي وأخذ الرسومات واحدةً تلو الأخرى من يدي ثم تأمّلها على التوالي وألقى بها على الطاولة، لكنه لم يقل كلمةً عنها على رغم أنه كان يتحدث طوال الحفلة. لا أعرف ما كان رأي ميليسينت هارغريف في

مثل هذا السلوك، لكنني وجدت محادثته ممتعةً للغاية على الرغم من ذلك. واكتشفت فيما بعد عندما أردت تحليل تصرفاته أنه كان يتحدث مع الجميع بشكل عام ويدلي ببعض الملاحظات الذكية والملاطفات المضحكة بشكل مفرط، لكنه عند التطرق إلى ما هو مهم كان يبدو مذهلًا بشكل مختلف في مظهره، ونبرته، وإيماءاته، وسحر لا يوصف يلقي بهالة على كل ما يفعله أو يقوله. كانت متعتي الأجمل هي النظر إلى وجهه وسماع موسيقى صوته حتى إن كان ما يقوله هراءً تامًّا. عكّرت خالتي صفو هذه المتعة عندما تقدمت نحونا بهدوء بحجة رغبتها في رؤية الرسومات ـ التي لم تكن من ضمن اهتماماتها، ولم تكن تعرف شيئًا عنها ـ ، وفي الوقت الذي تفترض فيه أنها تتأمل تلك الرسومات، تتوجه إلى السيد هانتينغدون بواحدة من أبرد جوانب شخصيتها وأكثرها مدعاةً إلى النفور، وتبدأ بطرح سلسلة من الأسئلة والملاحظات الأشيع والأكثر رسميةً بقصد إبعاد انتباهه عني لإثارة غضبي كما ظننت، وعليه تركتهم في مكانهم وذهبتُ للجلوس على أريكة بعيدة عنهما دون أن أفكر أبدًا في مدى غرابة مثل هذا السلوك. في البداية، كان تصرفي مجرد انفعال آني، لكن في وقت لاحق شعرت بالراحة في عزلتي لأنني كنت أستمتع بأفكاري الخاصة.

لكنني لم أستمتع طويلًا وحدي، لأن السيد ويلموت ـ من بين جميع الرجال غير المرحَّب بهم من قِبَلي ـ استغلّ موقعي المنعزل ليأتي ويزرع نفسه بجانبي. كنت أشعر بالرضا عن نفسي لأنني نجحت في صده بشكل فعال في جميع المناسبات السابقة ولم يكن لدي ما أخشاه، لكن يبدو أنني كنت مخطئةً، فقد كانت ثقته كبيرة جدًّا، إما بثروته أو بما تبقى من جاذبيته، وإيمانه الراسخ بالضعف الأنثوي لدرجة أنه عاد إلى محاصرتي وبحماسة متجددة أشعلتها كؤوس النبيذ التي شربها، الأمر الذي جعله أكثر إثارة للاشمئزاز، لكن مع كرهي الشديد له في تلك اللحظة، لم أرد أن أعامله بفظاظة حيث

كنت ضيفته، ومستمتعة بهذه الضيافة، وعليه كنت أرد على تقرّبه برفض مهذب ولكنه حازم، ولم يكن هذا مفيدًا على أية حال لأنه كان فظًّا للغاية، ولم يتحمّل رفضي وصدّي له الذي كان واضحًا ووقحًا، بالنتيجة أصبح أرقّ في تعامله وبشكل مثير للاشمئزاز، مما دفعني إلى حافَةِ اليأس، وكنتُ على وشك أن أتفوّه بما لا أعلم، عندما شعرتُ بيدي التي كانت معلّقة على ذراع الأريكة تُلتَقَط ويُضغَط عليها بلطف وقوة. بشكل غريزي خمّنت من يكون، وعندما نظرت إلى أعلى شعرتُ بالدهشة أكثر من شعوري بالسرور لرؤية السيد هانتينغدون وهو يبتسم لي. كان الأمر أشبه بالتحوّل من شيطان آثم إلى ملاك نورانيّ، تعالَ وأعلِن انتهاءَ موسم العذاب.

قال: «هيلين» ـ (دائمًا ما ناداني هيلين ولم يزعجني ذلك مطلقًا) ـ «تعالي، أريدكِ أن تنظري إلى هذه اللوحة. أنا متأكد أن السيد ويلموت سوف يعذركِ للحظة».

نهضت بحماسة، تأبّطني وقادني عبر الغرفة إلى لوحة رائعة من لوحات ڤان دايك التي انتبهتُ لها من قبل ولكن لم أتأملها بشكل كافٍ. بعد لحظة من التأمل الصامت، بدأت في التعليق على جمالها وخصائصها. بينما كان يضغط على يدي التي ما زال يحتفظ بها في ذراعه، قاطعني قائلًا: «لا تهتمي باللوحة، لم أحضرك إلى هنا من أجلها، بل من أجل إبعادك عن ذلك العجوز الثمل البغيض، والذي يبدو الآن كما لو أنه يودّ أن يتحداني بسبب الإهانة».

قلت: «أنا ممتنة جدًّا لك. أنقذتني مرتين من هذه الرفقة المزعجة».

أجاب: «لا تكوني شاكرةً كثيرًا، فهذا ليس لطفًا مقدّمًا لك فقط، جزئيًّا يعود إلى الشعور بالضغينة تجاه من يعذّبونك، وهو ما يجعلني أشعر بالسعادة لتلقينهم درسًا، على الرغم من أنني لا أعتقد أن لدي أي سبب وجيه لأخافهم كمنافسين. هل يجب أن يكون لديّ يا هيلين؟».

«أنت تعلم أنني أكرهه».

«وأنا؟».

«ليس لدي سبب لأكرهك».

«ولكن ما هي مشاعرك تجاهي؟ أخبريني، كيف تنظرين إليّ؟».

ضغط على يدي مجددًا، لكني انتبهت أن القوة في سلوكه كانت تفوق الرهافة، وشعرت أنه ليس له الحق في انتزاع اعترافٍ مني في حين لم يصرّح هو نفسه عما يشعر به تجاهي.

لم أعرف بمَ أجيبه.. ثم أخيرًا قلت: «كيف تنظر أنت إليّ؟».

«أيها الملاك الجميل، أنا أعشقك! أنا..».

«هيلين، أريدكِ لحظةً»، همست خالتي بصوتها المعروف بالقرب منا، وتركته وأنا أغمغم وألعن الشياطين.

«نعم يا خالتي، ما الأمر؟ ماذا تريدين؟»، قلتُ وأنا أتّبعها إلى النافذة.

«أريدك أن تنضمي إلى الحضور عندما يعود مظهرك لائقًا»، ردت عليّ بحدّة وواصلت: «من فضلك، ابقَيْ هنا قليلًا حتى يختفي هذا الاحمرار المروّع من وجهكِ وتستعيد عيناكِ شيئًا من تعبيرها الطبيعي. من المخجل أن يراكِ أي شخص وأنتِ في حالتك الحالية».

بالطبع لم يكن لمثل هذه الملاحظة أي تأثير في تقليل «الاحمرار المروّع». على العكس من ذلك، شعرت أن وجهي يتوهج بحرائقَ مضاعَفة أشعلَتها تلك المشاعر، والتي كان الغضب المتفاقم في مقدمتها. على الرغم من ذلك لم أجبها، بل فتحت الستارة وتأملت الليل ـ أو بالأحرى المصباح المربع المضاء في الخارج.

«هل كان السيد هانتينغدون يطلب منكِ الزواج يا هيلين؟»، استفسرت خالتي اليقظة جدًّا.

«لا».

«ماذا كان يقول إذًا؟ أعتقد أنني سمعت شيئًا قريبًا».

«لا أعرف ماذا كان سيقول لو لم تقاطعيه».

«وهل كنتِ ستقبلين لو فعل يا هيلين؟».

«بالطبع لن أفعل دون استشارتكما أنتِ وعمّي».

«أوه! كم أسعدْتِني الآن يا عزيزتي، ما زلتِ تملكين الكثير من الحكمة»، ثم بعد لحظات أضافت: «لقد قمتِ بلفت الانتباه إليكِ بدرجة كافية، والسيدات يوجّهْنَ نَظَرات الاستفسار نحونا في هذه اللحظة، أرى أن نذهب إليهن. هلّا تأتين عندما تكونين مستعدة؟».

«أنا كذلك الآن». قلتُ بهدوء، لكن خالتي استمرت باستفزازي: «تحدّثي بلطفٍ ولا تتصرفي بلؤم». وأضافت: «سنعود إلى المنزل قريبًا، ولديّ الكثير لأقوله لك».

لذلك عدتُ إلى المنزل مستعدّةً لتلقّي محاضرةٍ رهيبة. لم يقل أي من الطرفين في العربة إلا القليل أثناء عودتنا، لكن عندما دخلت غرفتي وألقيت بنفسي على كرسيٍّ مريح لأتأمل حوادث اليوم تبعتني خالتي، وبعد أن طردت ريتشيل التي كانت ترتّب أدوات زينتي، أغلقَتِ البابَ ووضعت كرسيًّا بجانبي، أو بالأحرى قبالتي وجلست. بكل الاحترام الواجب قدمت لها مقعدي الأريح لكنها رفضت ذلك وافتتحت المؤتمر: «هل تتذكرين يا هيلين محادثتنا في الليلة التي سبقت مغادرتنا ستاننغلي؟».

«نعم خالتي».

«وهل تتذكرين كيف حذرتك من السماح بأن يسرق قلبكِ من لا يستحقه، ويأخذ عواطفك إلى حيث لم تذهب من قبل، حيث يمنع العقل والحكمة؟».

«نعم، لكن سببي في ذلك..».

«عفوًا، وهل تتذكرين طمأنتكِ لي بأنه لا يوجد سبب للقلق عليكِ من

هذه الناحية، لأنكِ لن تميلي أبدًا إلى الزواج من رجل يفتقد الحكمة والمبدأ، مهما كان وسيمًا أو ساحرًا من جوانبَ أخرى لأنكِ لا تستطيعين أن تحبّي من هم على هذه الشاكلة، يمكنكِ أن تكرهيه، وتحتقريه، وتشفقي عليه، أي شيء عدا محبته ـ أليست هذه كلماتك؟».

«نعم، لكن..».

«أَلَمْ تقولي أن عاطفتكِ تُجاهه لا بد أن تقوم على الانسجام الروحي، وأنكِ لا يمكن أن تحبي من لا يتوافق معكِ ويحترمكِ ويكرمكِ؟».

«نعم، لكنه متوافق معي، يحترمني ويكرمني..».

« كيف ذلك يا عزيزتي؟ هل ترين أن السيد هانتينغدون رجلٌ صالحٌ؟».

«إنه رجل أفضل بكثير مما تعتقدين».

«هذا لا يفي لهذا الغرض. هل هو رجل صالح؟».

«نعم، في بعض النواحي لديه تصرفات جيدة».

«هل هو رجل ذو مبادئ؟».

«ربما لا، ليس بشكل دقيق. لكن ذلك بسبب عدم التفكير. إذا كان هناك من ينصحه ويذكّره بالصواب..».

«وسيتعلّم قريبًا وستتعهدين أنتِ بأن تكوني معلّمته كما تظنين. لكن يا عزيزتي، الرجل يكبركِ بعشر سنوات كاملة، كيف يتعلّم منكِ وأنت تصغرينه بكل هذه السنين؟».

«شكرًا لكِ خالتي، لقد نشأتُ وأنا أرى أمامي دائمًا أمثلةً جيدة وهو على الأرجح لم يفعل، إلى جانب ذلك هو يتمتع بمزاج متفائل وطائش، في حين أميل بشكل طبيعي إلى الرصانة والتفكير».

«حسنًا، لقد جعلتِه الآن ناقصًا من ناحية الوعي والمبدأ من خلال اعترافك..».

«إذن وعيي ومبادئي ستكون في خدمته».

«هذا يبدو غرورًا وعنادًا يا هيلين. هل تعتقدين أن لديك ما يكفي لكليكما؟ وهل تتخيلين أن رجُلَكِ المرح الفاسق الطائش سيسمح لنفسه أن ترشده فتاةٌ صغيرة مثلك؟».

«لا، لا حاجة إلى أن أرشده. لكن أعتقد أنه قد يكون لدي تأثير كافٍ لإنقاذه من ارتكاب بعض الأخطاء، وأعتقد أنني قضيت حياتي في محاولة الحفاظ على هذه الطبيعة النبيلة من الدمار، دائمًا ما يستمع باهتمام عندما أتحدث معه بجدية (وغالبًا ما أجازف بتوبيخه على طريقته العشوائية في التحدث والتصرف)، وأحيانًا يقول إنه لا يمكن أن يصدر منه قول أو فعل غير لائق عندما أكون بجانبه، وأن القليل من الحديث اليومي معي يجعله يشعر أنه أصبح قديسًا. قد يكون مزاحًا أو تملّقًا، لكن..».

«ولكن ما زلت تعتقدين أنها قد تكون حقيقة؟».

«إذا كنت أعتقد أن هناك أي جانب من الحقيقة فيه فهذا ليس مصدره الثقة بقوتي الخاصة فحسب، بل بميله الطبيعي إلى الصلاح. وليس لكِ الحق في أن تُطلقي عليه وصفَ فاسقٍ لأنه ليس كذلك».

«من قال ذلك يا عزيزتي؟ ماذا كانت تلك القصة عن مكايِدِهِ مع تلك السيدة المتزوجة ـ السيدة التي كانت الآنسة ويلموت نفسها تخبركِ عنها في ذلك اليوم؟».

«كلها أكاذيب!»، صحتُ بانفعال: «أنا لا أصدق كلمةً منها».

«هل تعتقدين إذن أنه شاب فاضل ومحترم؟».

«لا أعرف شيئًا عن شخصيته، أعرف فقط أنني لم أسمع شيئًا محددًا ضده، على الأقل لا شيء يمكن تأكيده إلى أن يثبت الناس اتهاماتهم الشائنة، وعليه لن أصدّقهم. ما أنا متيقنةٌ منه هو هذا: أنه إذا ارتكب أخطاء فهي ليست مختلفةً

عن تلك التي يرتكبها من هم في سنه من الشباب، لأنني أرى أن الجميع يحبه، ورأيت كيف أن الأمهات وبناتهنّ يبتسمن له، بالإضافة إلى أن الآنسة ويلموت نفسها كانت متحمسةً للغاية لجذب انتباهه».

«هيلين، قد ينظر العالم إلى مثل هذه الجرائم على أنها أمورٌ عادية وعَرَضية، قد يكون هناك عدد من الأمهات غير مباليات بالمبادئ متلهّفاتٍ للحصول على شابٍّ ثري لبناتهن دون الاهتمام بشخصيته، وقد تَسْعَد الفتيات بالفوز بابتساماتِ رجلٍ وسيم للغاية دون السعي إلى التغلغل إلى ما وراء السطح. لكنني كنت واثقةً بأنكِ أفضل من أن تَرَيْ بأعينهنّ وتحكُمي بأحكامهن المنحرفة، لم أتخيل أنك ستسمين هذه الأخطاء بالعادية!».

«ولا أنا يا خالتي. ولكن حتى وإن كنتُ كارهةً للخطايا، فأنا هنا أحب الخاطئ وسأفعل الكثير من أجل خلاصه، حتى لو افترضتُ أن شكوكك بشأنه صحيحة، وهو ما لا ولن أومن به».

«حسنًا يا عزيزتي، اسألي عمك عن نوعية علاقاته، وعلاقته بمجموعة الشباب الفاسدين الذين يسميهم أصدقاءه ورفاقه الممتعين، والذين تكمن متعتهم الرئيسية في الانغماس في الرذيلة والتنافس بعضهم مع بعض في من يمكنه الركض بشكل أسرع وأبعد على طريق التهور لبلوغ المكان المُعَد للشيطان وأتباعه».

«ثم أنقذه منهم».

«أوه يا هيلين! أنتِ لا تدركين حجم الخسارة التي ستُكَابدينها في تسخير خصالك لمثل هذا الرجل!».

«لدي ثقة كبيرة به يا خالتي، وعلى الرغم من كل ما تقولينه سأخاطر عن طيب خاطر بسعادتي من أجل إصلاحه. سأترك الرجال الأفضل للواتي يفكرن فقط في مصلحتهن. إن كان قد أخطأ فسأعتبر أن حياتي مسخّرةٌ لإنقاذه من عواقب تلك الأخطاء والسعي إلى إعادته إلى طريق الفضيلة، وليوفّقني اللّه!».

انتهى هنا الحديث، ففي هذه المرحلة سمعتُ صوتَ زوج خالتي من غرفته وهو يناديها بصوت عالٍ للذهاب إلى الفراش. كان في مزاج سيئ تلك الليلة لأن النقرس كان في أسوأ حالاته. لقد كان يتزايد عليه تدريجيًّا منذ أن جئنا إلى المدينة واستغلت خالتي هذا الظرف صباح اليوم التالي لإقناعه بالعودة إلى بلدتنا على الفور دون انتظار انتهاء الصيف، وقد دعم طبيبه حججها. خلافًا لعاداتها سارعت في الاستعدادات للمغادرة هذه المرة (من أجلي أنا أيضًا وليس زوج خالتي فقط، على ما أعتقد)، حتى إننا غادرنا في غضون أيام قليلة دون أن ألتقي مجددًا السيدَ هانتينغدون. أقنعت خالتي نفسها بأنني هكذا أنساه سريعًا ـ ربما تعتقد أنني قد نسيته بالفعل لأنني لم أذكُرِ اسمَهُ أبدًا، وقد تستمر في الاعتقاد بذلك إلى أن نلتقي مرة أخرى. أتساءل عما ستفعله عندما يحدث هذا؟

الفصل الثامن عشر

25 أغسطس. أنا الآن مستقرة وعدتُ إلى روتيني السابق المتمثل في القيام بمهامي اليومية والاستمتاع بالترفيه الهادئ، لكنني كنت ما زلتُ أتطلع إلى حلول الربيع على أمل العودة إلى المدينة، ليس للاستمتاع بالأجواء السعيدة هناك، بل من أجل لقاء السيد هانتينغدون مرة أخرى. ما زال يرافقني دائمًا في أفكاري وأحلامي. جميع مهامي وما أفعل، أو أرى أو أسمع ينتهي إليه، مهما كانت المهارة أو المعرفة التي أكتسبها تكون لصالحه وخدمته مستقبلًا. كل ما أكتشفه من جمال جديد في الطبيعة أو الفن يجب أن يُرسَم ليلتقي بعينيه، أو يُخَزَّن في الذاكرة ليُخبَر به في المستقبل. هذا على الأقل هو الأمل الذي أعيش لبلوغه. قد يكون كل ذلك مجرد جنون، مع هذا لا يضر أن أتبعه بعيني وأفرح ببريقه ما دام أنه لا يُخرجني عن الطريق الذي أسلكه، وأعتقد أنه لن يفعل، لأنني فكرت بعمق في نصيحة خالتي وأرى الآن بوضوح حماقة إلقاء نفسي على شخص لا يستحق الحب الذي يمكنني منحه له، وغير قادر على الاستجابة بشكل أفضل لمشاعر قلبي. لا أعلم إن كان سيتذكرني لو رآني مرة أخرى، وهل ما زال يحبني (الأمر الذي أراه مع الأسف غير وارد نظرًا إلى المحيطين به)، وإذا طلب مني الزواج فأنا مصممة على عدم الموافقة إلى أن أعرف على وجه اليقين ما إذا كان رأيي أو رأي خالتي أقرب إلى الحقيقة، لأنني إن كنت مخطئة بشأنه فمعنى هذا أنه ليس من أحب، إنه مخلوق من مخيلتي. لكنني أعتقد أنني لست مخطئة، لا، هناك أمر سرّي، غريزة داخلية تؤكد لي أنني على حق، وأن جوهره صالح، وكم سيكون مفرحًا الكشف عنه!

إذا كان تائهًا فيا لها من نعمة أن يُعاد إلى الطريق الصائب! إذا كان رفاقه قد أفسدوه بأخلاقهم الفاسدة فيا له من مجد أن يُنقَذ منهم! أوه! لو كان بإمكاني فقط أن أصدّق أن اللّٰه قد خَلَقني لهذه المهمّة!

***

اليوم هو الأول من سبتمبر. لكن زوج خالتي أمَرَ حارس الطرائد بتوفير بعض طيور الحجل للسادة. «أي سادة؟»، سألته عندما سمعته. كانت دعوةً لمجموعة صغيرة من أصحابه للمجيء والاستمتاع بموسم الصيد، دعا صديقه السيد ويلموت، وصديق خالتي السيد بورهام، وصديقًا آخر. صدمني هذا باعتبارها أنباء مروعة إلى ذلك الحد، لكن كل الاستياء اختفى كما حلم عندما سمعت أن السيد هانتينغدون كان في الواقع هو الضيف الثالث! خالتي بالطبع كانت تعارض بشدة مجيئه وسعت بكل قوتها إلى إقناع زوج خالتي بالعدول عن دعوته، لكنه أجابها ضاحكًا على اعتراضاتها أنه لا جدوى من هذا الحديث ـ لأن الأذى قد وقع بالفعل ـ ، لقد كان قد دعا هانتينغدون وصديقه اللورد لوبورو قبل مغادرتنا لندن، ولم يبقَ شيء الآن سوى تحديد يوم مجيئهما. لذا فهو بأمان وأنا متأكدة من قرب رؤيته، لا أستطيع التعبير عن فرحتي وأجد صعوبةً بالغة في إخفائها عن خالتي، لكنني لا أرغب في إزعاجها بمشاعري حتى أعرف ما إذا كان يجدر بي الانغماس فيها أو لا. إذا وجدت أن من واجبي قمعها فلن أزعج أحدًا، وإذا كان بإمكاني حقًّا الانغماسُ في هذا الارتباط، يمكنني وقتها أن أتحمل أي شيء، حتى غضب وحزن أعز الناس لديّ. بالتأكيد سأعرف ذلك قريبًا، لن يأتوا حتى منتصف الشهر تقريبًا.

لدينا سيدتان زائرتان أيضًا: سيُحضِر السيد ويلموت ابنةَ شقيقه وابنةَ خالتها ميليسنت. أفترض أن خالتي تعتقد أن الأخيرة ستفيدني بمجيئها، حيث إنها مثال اللطف والروح المتواضعة التي يمكنني التعلّم منها، أما الأولى فأظن أنها أداةٌ لنوع من الجاذبية المضادة لسحب انتباه السيد هانتنغدون مني. لست

أشكرها على هذا، لكنني بحق أسعد برفقة ميليسنت، فهي فتاة لطيفة وطيبة، وأتمنى لو كنت مثلها ـ بالأحرى لو كانت هي مثلي.

***

19 سبتمبر. لقد وصلوا قبل يومين. خرج السادة للصيد، والسيدات كن مشغولاتٍ مع خالتي في غرفة المعيشة. لقد خرجتُ لأنني لستُ سعيدةً وأريد أن أكون وحدي، لا يمكن للكتب أن تصرفني. لذلك بعد أن فتحت كراستي سأحاول ما يمكن فعله من خلال تدوين سبب عدم ارتياحي. ستعمل هذه الورقة بدلًا من صديق سري قد أسكب في أذنه الفائض من قلبي. لن تتعاطف مع محنتي، لكنها لن تضحك عليها، وإذا أبقيْتُها قريبةً فلن تخبر أحدًا بما نتحدث عنه، لذلك ربما تكون أفضل صديق لي لهذا الغرض.

في البداية أود التحدث عن وصوله، كيف بقيتُ جالسةً عند نافذتي ما يقرب من ساعتين قبل دخول عربته بوابات الحديقة، لأن الجميع كان قد وصل قبله، وكم كنت أشعر بخيبة أمل شديدة عند كل وصول لأنه لم يكن هو. جاء أولاً السيد ويلموت والسيدات. عندما دخلت ميليسنت غرفتها، تركت موقعي لبضع دقائق للترحيب بها وإجراء محادثة سريعة، فهي أقرب صديقة لي، حيث تبادلنا عدة رسائل طويلة بيننا منذ آخر لقاء لنا. عند عودتي إلى نافذتي رأيتُ عربةً أخرى عند الباب. هل كان هو؟ لا، كانتْ عربةَ السيد بورهام الحالكة البليدة، وقف هناك على الدرج يشرف بعناية على إخراج الصناديق والحزم المختلفة الخاصة به. يا لها من مجموعة! يظن المرء وهو يتأملها أنه في زيارة مدتها ستة شهور على الأقل. بعد فترة طويلة وصل اللورد لوبورو، أتساءل لو كان من ضمن الأصدقاء الفاسدين، لا أعتقد لأن لا أحد يستطيع أن يسميه رفيقًا مرحًا، ثم إنه إلى جانب ذلك يبدو رصينًا في سلوكه بحيث لا يستحق مثل هذه الشكوك. رجل طويل نحيف، يرتدي بذلات

قاتمة، على ما يبدو بين الثلاثين والأربعين من العمر، ومريض إلى حد ما ويبدو مرهقًا دائمًا.

أخيرًا وصلت عربة السيد هانتينغدون المسرعة بمرح فوق العشب. لم يكن لدي مجال سوى للمحة عابرة، ففي اللحظة التي توقفت فيها العربة قفز بخفة من الجانب إلى درجات الرواق واختفى داخل المنزل.

استسلمت لإلحاح ريتشيل منذ عشرين دقيقة لارتداء ملابسي للعشاء، وبعد الانتهاء من الأمر ذهبت لترتيب غرفة المعيشة، حيث وجدت السيد والآنسة ويلموت وميليسنت هارغريف مجتمعاتٍ هناك بالفعل. بعد فترة وجيزة دخل اللورد لوبورو ثم السيد بورهام، الذي بدا على استعداد تام لنسيان ومغفرة تصرفي السابق، ويأمل في أن المثابرة الثابتة من جانبه قد تنجح في إعادة المنطق لتفكيري. بينما كنت أقف عند النافذة أتحدث مع ميليسنت اقترب مني وبدأ يتحدث بضغوطه المعتادة، عندما دخل السيد هانتينغدون الغرفة.

«أتساءل كيف سيحيّيني؟»، قال قلبي المضطرب. وبدلًا من التقدم للترحيب به عدتُ والتفتُّ إلى النافذة لإخفاء مشاعري أو محاولة التحكم بها. بعد أن حيّى مضيفه ومضيفته وبقية أفراد المجموعة جاء إلي وضغط على يدي بحماسة وتمتم بأنه سعيد برؤيتي مرةً أخرى. في تلك اللحظة أُعلِنَ عن العشاء وطلبت منه خالتي أن يصطحب الآنسة هارغريف إلى غرفة الطعام، وقدم السيد ويلموت البغيض ذراعه لي وحُكم علي بالجلوس بينه وبين السيد بورهام. ولكن بعد ذلك عندما اجتمعنا مرة أخرى في غرفة المعيشة عُوِّضتُ عن الكثير من المعاناة عبر التحدث لبضع دقائق مبهجة مع السيد هانتينغدون.

في فترة المساء استُدعِيَت الآنسة ويلموت للغناء والعزف، وعرضتُ رسوماتي، وعلى الرغم من أنه يحب الموسيقى وهي موسيقية بارعة دون شك، فإنه أوْلَى اهتمامًا لرسوماتي أكثر من موسيقاها.

كل شيء كان يسير بشكل جيد جدًّا إلى ذلك الحين، تحديدًا إلى لحظة سماعه وهو ينطق بصوتٍ عالٍ ولكن بتركيز خاص عن إحدى اللوحات: «هذه أجملها!»، نظرتُ نحوه وأنا أشعر بالفضول لمعرفة أيها كانت، ليغمرني الرعب وأنا أشاهده محدّقًا إلى الجانب الآخر من اللوحة حيث وجهه الذي رسمته هناك ونسيت مسحه!

ومما زاد الطين بلة أنني حاولت في عذاب اللحظة أن أخطفها من يده، لكنه منعني وصرخ، «لا، بربكِ دعيني أحتفظ بها!»، واضعًا إياها داخل معطفه وهو يغلق أزراره عليها بضحكة خافتة مبتهجة.

بعد ذلك سحب شمعةً نحوه وجمع كل الرسومات بالإضافة إلى ما رآها بالفعل كالآخرين متمتمًا: «يجب أن أنظر إلى كلا الجانبين الآن»، وبدأ بفحص شغوف راقبته في البداية بهدوء، واثقة من أنه لن يرضي غروره بأية اكتشافات أخرى، على الرغم من أنني يجب أن أعترف أنني محوت ظهور العديد من المحاولات الفاشلة لتحديد مظهره الرائع. كنت متأكدة على الرغم من هذا الاستثناء المؤسف أنني طمست بعناية كل الشهود على افتتاني، لكن قلم الرصاص كثيرًا ما يترك آثارًا على الورق المقوّى لا يمكن لأي قدر من الاحتكاك أن يمحوها، ويبدو الآن أن هذه هي الحال. أعترف أنني ارتجفتُ عندما رأيته يقرّب لوحةً من الشمعة وهو يملأ الفراغات الظاهرة باهتمام شديد، لكنني أثق أنه ما زال غير قادر على إعادة رسم هذه الآثار بشكل جيد. لكنني كنت مخطئة، فبعد أن أنهى تدقيقه قال بهدوء: «أرى أن إظهار الرسومات الممحوّة للسيدات الشابات، مثل تذييلات رسائلهن، هو الجزء الأكثر أهمية وإثارة للاهتمام».

ثمّ، متكئًا على كرسيّه، تأملها لبضع دقائق في صمت مبتسمًا برضًى عن نفسه، وبينما كنت أقوم بتلفيق بعض الكلام للرد عليه، قام متجاوزًا إياي وذهب إلى حيث جلست أنابيلا ويلموت مع لوبورو، وجلس بقربها على الأريكة ذاتها وعلق بها بقية المساء.

«إذن فهو يحتقرني لأنه متأكد أنني أحبه».

جعلني هذا التصرف بائسة لدرجة أنني لم أكن أعرف ماذا أفعل. جاءت ميليسنت وأبدت إعجابها برسوماتي وقدمت ملاحظاتٍ عليها لكنني لم أستطع التحدث معها، لم أستطع التحدث إلى أي أحد، وعند تقديم الشاي استفدت من الباب المفتوح للخروج بهدوء لأنني كنت متأكدة من أنني لا أستطيع تناول أي شيء، ذهبت إلى المكتبة. أرسلت خالتي توماس للبحث عني وسؤالي عن سبب عدم بقائي لتناول الشاي، طلبتُ منه أن يقول أن لا رغبةَ لي في ذلك، ولحسن الحظ كانت مشغولةً للغاية بضيوفها، ولم تكن لديها أية استفسارات أخرى في ذلك الوقت.

نظرًا إلى أن معظم الضيوف كانوا قد قطعوا طرقًا بعيدة للوصول في ذلك اليوم، فقد انسحبوا لنيل الراحة والنوم مبكّرًا، وبعد أن سمعتهم جميعًا ـ كما ظننت ـ صَعِدوا إلى الدور العلوي إلى غرفهم، غامرت بالخروج لإحضار الشمعدان من خزانةِ غرفة المعيشة، لكن السيد هانتينغدون كان قد بقي. كان بالقرب من الدرج عندما فتحت الباب وسمع وقع خطواتي في الردهة، على الرغم من أنني نفسِيَ كنتُ بالكاد أسمعها. استدار على الفور:

«هيلين، هل هذا أنت؟ لماذا هربتَ مِنّا؟».

قلت ببرود: «تصبح على خير سيد هانتينغدون». اخترتُ عدم الإجابة عن السؤال واستدرتُ لدخول غرفة المعيشة.

«لكنك ستصافحينني على الأقل، أليس كذلك؟»، قال وهو يضع نفسه في المدخل أمامي ويمسك بيدي رغمًا عني.

قلتُ: «دعني أذهب سيد هانتينغدون، أريد الذهاب لأخذ شمعة». أجابني: «الشمعة باقية».

بذلتُ جهدًا يائسًا لتحرير يدي من قبضته.

«لماذا أنتِ في عجلةٍ من أمركِ للابتعاد عني يا هيلين؟ أنا متأكد أنكِ لا تكرهينني».

«نعم، أفعل في هذه اللحظة».

«لا، أنت تكرهين أنابيلا ويلموت وليس أنا».

«لا علاقة لي بأنابيلا ويلموت»، قلتُ وأنا أحترق من السخط.

«لكن أنا لي علاقة»، قالها بتركيز خاص.

أجبته: «هذا لا يعني شيئًا بالنسبة إليّ يا سيدي».

«هل حقًّا لا يعني لكِ شيئًا يا هيلين؟ هل تُقسمين؟».

«لا لن أفعل سيد هانتينغدون!»، صرختُ به وأنا لا أعرف هل يجدر بي الضحك أو البكاء أو إطلاق العنان لعاطفة الغضب التي كانت تجتاح روحِيَ لحظتها.

«اذهبي إذن أيتها الثعلبة»، لكن في اللحظة التي أطلق فيها يدي كانت لديه الجرأة ليضع ذراعه حول رقبتي ويُقبّلني.

كنتُ أرتجف من الغضب والانفعال ولستُ مدركةً لغير ذلك، انسلختُ عنه والتقطتُ شمعةً وهُرِعت صعودًا إلى غرفتي. لم يكن ليفعل ذلك لولا تلك اللوحة البغيضة التي ما زالت في حوزته، النصب الأبدي لكبريائه ومذلّتي.

لقد كان نومي قليلًا في تلك الليلة، وفي الصباح استيقظتُ مرتبكةً ومضطربةً لمجرد التفكير في الالتقاء به في وجبة الإفطار. لم أكن أعرف كيف سيتم ذلك، حيث إنه من الصعب تمثيل اللا مبالاة الباردة بعد ما عرفه. مع ذلك، يجب القيام بشيء لأنني لن أخضع للاستبداد من قبل تلك العيون الساطعة الضاحكة. بناءً على ذلك، ألقيتُ عليه تحيةً صباحيةً مبهِجة وهادئة كما كانت تتمنى خالتي، وهزمت بإجابات موجزة محاولته أو محاولتَيه لجذبي إلى المحادثة، في حين كنت أتعامل ببهجة مضاعَفة تجاه البقية،

وخاصة أنابيلا ويلموت وعمها والسيد بورهام الذين تعاملتُ معهم بقدر إضافي من الكِيَاسة، ليس بدافع الغنج ولكن فقط لإظهار أن ذلك لم يكن ردّةَ فعل على مواقفَ معينة.

مع ذلك، لم يكن من الممكن صده بمثل هذا التصرف، لأنه لم يتحدث معي كثيرًا بكل حال، لكن عندما تحدث كان ذلك بدرجة كبيرة من الحرية والانفتاح واللطف أيضًا. بدا واضحًا أنه كان يعرف أن كلماته كانت بمثابة موسيقى لأذني، وعند التقاء نظراتنا كان يبتسم ـ قد تبدو ابتسامة متغطرسة ـ ولكن يا إلهي! ابتسامته حلوة، ومشرقة، ولطيفة لدرجة تذويب غضبي وكل بقايا الاستياء كما تذيب شمس الصيف غيوم الصباح.

بعد وقت قصير من الإفطار انطلق جميع السادة ـ باستثناء واحد ـ بشغف صبياني في رحلة صيد طيور الحجل التعيسة، كان زوج خالتي والسيد ويلموت على خيول الرماية، السيد هانتينغدون واللورد لوبورو على أرجلهم، الاستثناء الوحيد كان السيد بورهام، الذي نظرًا إلى المطر الذي تساقط أثناء الليل اعتقد أنه من الحكمة البقاء قليلًا والانضمام إليهم بعد أن يجفّ العشب. وقد تفضّل علينا جميعًا بسرد بحث طبي طويل ودقيق حول الشرور والمخاطر المصاحبة للتجول بأقدام رطبة، قدّمه بأقصى قدر من الجاذبية المتوفره لديه، وسط سخريّة وضحك السيد هانتنغدون وزوج خالتي الذي ترك الرياضي الحكيم للترفيه عن السيدات بمناقشاته الطبية. انطلقوا ببنادقهم إلى الإسطبلات أولًا لإلقاء نظرةٍ على الخيول وإخراج الكلاب.

لم أكن في مِزَاجٍ يسمح برفقة السيد بورهام طوال الصباح لذا ذهبتُ إلى المكتبة، وهناكَ أحضرتُ عدّة الرسم الخاصة بي وبدأت الرسم. كان استخدام حامل اللوحات وعدّة الرسم دائمًا ذريعةً لترك غرفة المعيشة عندما كانت خالتي تشتكي تركها وحدها، كنتُ أرغب في إنهاء اللوحة. لقد كانت لوحةً أنوي أن أجعل منها تحفة فنية على الرغم من أنها كانت نوعًا ما جريئةً

من حيث السماء الزرقاء الساطعة، والأضواء الدافئة، والظلال الطويلة. كنت أحاول فيها نقل فكرة الصباح المشمس. لقد جازفت بإعطاء العشب وأوراق الشجر المزيد من الخضرة الزاهية في الربيع أو أوائل الصيف أكثر مما هو شائع في الرسم. كان المشهد يمثل فسحة مفتوحة من الأشجار، مع إدخال مجموعة من أشجار التنوب الإسكتلندي الأدكن في الوسط للتخفيف من السطوع السائد للبقية، ولكن في المقدمة هناك جذوع وأغصان منتشرة في غابة كبيرة، أوراقها خُضْرٌ ذهبية لامعة ـ ليست ذهبيةً بسبب الخريف، بل من انعكاس أشعة الشمس فوقها. فوق هذا الغصن الذي برز بشكل جريء ضد التنوب الكئيب كان يجلس زوج من الحمام العاشق الذي كان ريشه الناعم ذو اللون الحزين يتناقض مع طبيعة الألوان الأخرى، وتحته كانت تجلس فتاة صغيرة على العشب المتلألئ ورأسها مرفوع للخلف، بحيث تتساقط كتل من شعرها الأشقر على كتفيها، ويداها مشبوكتان، وشفتاها مفترقتان، وعيناها تنظران باهتمام إلى الأعلى في تأمل سعيد وجاد للعاشقَين الغارقَين بعضهما في بعض بحيث لا يلاحظان وجودها.

كنتُ على وشك إنهاء عملي الذي كانت تنقصه بعض اللمسات الأخيرة، عندما مر السادة بالقرب من النافذة المفتوحة جزئيًّا عند عودتهم من الإسطبلات، لا بد أن السيد هانتينغدون قد رآني أثناء مروره لأنه دخل بعد نصف دقيقة، علّق بندقيته على الحائط وألقى وشاحه وانطلق ليقف أمام لوحتي قائلًا بعد تأملها مليًّا لبضع ثوانٍ: «جميلة جدًّا، ودراسة مناسبة جدًّا لسيدة شابة. الربيع يفتح الباب للصيف ـ الصباح يقترب من الظهيرة ـ تنضج الألوان وتتحول إلى الأنوثة، ونأمل أن تكون على وشك أن تؤتي ثمارها. إنها مخلوق جميل! لكن لماذا لم تجعلي شعرها أسودَ؟».

«اعتقدت أن الشعر الفاتح يناسبها بشكل أفضل، كما ترى عيونها زُرق وجسمها ممتلئ وسحنتها وردية».

«خذي كلمتي، إنها آية في الجمال! كنتُ لِأقع في حبها إذا لم تكن الفنانة أمامي. تبدو بريئة وحلوة، تفكر في أنه سيأتي وقت تُستَمالُ فيه للفوز بها مثل تلك الحمامة الجميلة من قِبل عاشق مغرم بها، وتفكر في مدى روعة ذلك، وكيف سيجدها رقيقةً ومخلصة».

«وربما مدى رقته هو وإخلاصه»، قلت.

«ربما، لأنه لا يوجد حدٌّ للإسراف الجامح للخيالات والأحلام في مثل هذا العمر».

«هل تسمي ذلك إذن أحد الأوهام الجامحة؟».

«لا. قلبي يخبرني أنه ليس كذلك. ربما كنت أفكر كذلك من قبل لكن الآن أقول أعطني الفتاة التي أحبها وسأقسم بالإخلاص لها وحدها، في الصيف والشتاء، في سنوات الشباب والكِبَر، والحياة والموت! إذا كان لا بد من الوصول إلى الكبر والموت».

قال هذا بجدية شديدة جعلت قلبي ينبض من شدة البهجة. ولكن في الدقيقة التالية غير نبرته وسأل بابتسامة كبيرة إذا كان هناك المزيد من اللوحات.

أجبته بـ«لا» وأنا محمرَّة من الارتباك.

لكن كراستي كانت على الطاولة، تناولها وجلس بهدوء لفحص محتوياتها.

«سيد هنتنغدون! هذه رسوماتي غير المكتملة ولم أسمح لأي شخص بالاطلاع عليها».

وضعتُ يدي الكراسة لأنتزعها منه لكنه احتفظ بها بقبضته، وأكد لي أنه «يحب الرسومات غير المكتملة لكل الأشياء».

أجبته: «لكني أكره أن يراها الناس ولا يمكنني السماح لك بالحصول عليها، حقًّا!».

قال: «دعي لي الأحشاء إذًا»، بينما أحاول انتزاعها منه حيث جرّد ببراعة

الجزء الأكبر من محتوياتها وبعد أن قلبها صاح بحماسة: «فليتبارك حظي، واحدة أخرى!»، ووضع الورقة الصغيرة في جيب صدريته ـ رسمة مصغرة كاملة كنت قد رسمتها ببراعة لدرجة تحريضي على تلوينها برعاية شديدة. لكنني كنت مصممة على ألا يحتفظ بها.

«سيد هانتينغدون، أصر على استرجاع تلك الرسمة! إنها ملكي وليس لك الحق في أخذها، لذا أعِدْهَا فورًا ـ لن أسامحك أبدًا إن لم تفعل!».

لكن كلما أصررتُ أكثر كان يزيد من حزني بسبب ضحكته المُهينة. مع ذلك أعادها إليّ وهو يتأملني قائلًا: «حسنًا، لمّا كنتِ تقدّرينها كثيرًا فلن أحرمكِ منها».

لأريه كيف أقدّرها مزقتها إلى قسمين وألقيتها في النار. لم يكن مستعدًّا لذلك، توقفتْ فرحتُه فجأةً وحدق بدهشة صامتة إلى الكنز الذي التهمَتْهُ النارُ بشراسة. نهض بعدها متمتمًا أنه سيعود للصيد، لبس قبعته وحمل بندقيته وابتعد وهو يصفّر. غادر تاركًا إياي دون حماسة لإنهاء لوحتي الأخيرة، لكنني كنت سعيدة جدًّا لأنني أزعجته.

عندما عدت إلى غرفة المعيشة وجدت أن السيد بورهام قد غامر باللحاق برفاقه إلى الميدان. وبعد فترة وجيزة من وقت الغداء الذي لم يفكروا بالعودة إلى تناوله، تطوعتُ لمرافقة أنابيلا وميليسنت في نزهة لمشاهدة جمال البلدة. أخذنا نزهة طويلة وعدنا إلى الحديقة مرة أخرى في الوقت الذي كان فيه السادة عائدين من رحلتهم. بدوا متعبين وملطخين بالطين ودماء الطرائد، ولهذا مروا من خلف الأشجار لتجنبنا، لكن السيد هانتينغدون على الرغم من حالته التي لم تكن أقل سوءًا منهم، ودون أدنى قصد لتوجيه أية إهانة إلى خالتي بتصرفه غير اللائق ـ خرج عن طريقه لمقابلتنا بابتسامات وكلمات مبهجة للجميع باستثنائي، ووضع نفسه بيني وبين أنابيلا ويلموت، مشى برفقتنا وبدأ في سرد مآثرِ وكوارث اليوم المختلفة، بطريقة كان من الممكن

أن تصيبني بالضحك لو كنت على علاقة جيدة معه، لكنه كان يخاطب أنابيلا فقط طوال الوقت لذا تركت كل الضحك لها، وآثرت اللا مبالاة التامة بكل ما يمر بينهما ومشيت على مسافة بضع خطوات متباعدة وأنظر في كل طريق ما عدا طريقهما، بينما تقدمتانا خالتي وميليسنت. فجأة استدار السيد هانتينغدون إليّ وخاطبني قائلًا: «هيلين، لماذا أحرقتِ صورتي؟».

أجبته: «لأنني كنت أرغب في تدميرها»، وعليه لا جدوى الآن من الرثاء.

«آها، جيد جدًّا! إذا كنتِ لا تقدّرينني فالأفضل أن ألجأ إلى أخرى تفعل ذلك».

ظننت أنه كان مزاحًا سخيفًا ـ مزيجًا من التراجع الوهمي والتظاهر باللا مبالاة، ثم على الفور استأنف مكانه بجانب الآنسة ويلموت، ومن تلك الساعة إلى المساء، وطوال اليوم التالي، وما بعده، واليوم الذي تلاه، وطوال هذا الصباح (الثاني والعشرون)، لم يتوجه إليّ بكلمة واحدة أو نظرة ـ بل لم يتحدث معي إلا عند الضرورة البحتة ـ حتى نظراته كانت باردة وغير ودّية.

لاحظت خالتي التغيير في التعامل بيننا، وعلى الرغم من أنها لم تستفسر عن السبب أو تدلي بأي ملاحظة حول هذا الموضوع، فإنني لاحظتُ أنه أمر يسعدها. لاحظت الآنسة ويلموت ذلك أيضًا ونسبته بانتصار إلى سحرها وتفوقها. يمكنني هنا فقط الاعتراف أنني كنت حقًّا حزينة أكثر مما يمكنني الاعتراف به لنفسي، وكبريائي التي أوصلتني إلى هنا ترفض مساعدتي للخروج.

أعلم أنه لم يكن يقصد أي ضرر، كانت هذه فقط روحه المرحة. وأنا بسبب استيائي المبالغ فيه وغير المتناسب مع تصرفه جرحتُ مشاعِرَه وأسأتُ إليه بشدة لدرجة بتُّ أخشى أنه لن يغفر لي أبدًا، وكل ذلك بسبب دعابة، وأصبح يرى أنني لا أحبه ومستمر في الاعتقاد بذلك. لا بد أنني فقدته إلى الأبد، فلتفز به أنابيلا وتنتصر كما تشاء.

لكن خسارتي وانتصارها لم يشعراني بالأسى كما فعل تحطم آمالي التي

بنيتها عليه، وعدم استحقاقه لحبي، والضرر الذي سيطوله من ثقته ببلوغ السعادة معها. هي لا تحبه ولا تفكر إلا في نفسها. لا يمكنها تقدير الخير الكامن فيه، لن تراه أو تقدره وتعتز به، لن تستنكر أخطاءه أو تحاول تعديلها بل ستؤدي إلى تفاقمها. ثم إنني أشك في أنها لن تخونه بعد كل شيء، يمكنني رؤية أنها تلعب دورًا مزدوِجًا بينه وبين اللورد لوبورو، وبينما تتسلى برفقة هانتينغدون النابض بالحياة، تحاول قصارى جهدها لاستعباد صديقه المتقلب المزاج. إذا نَجَحَتْ في إبقائهما كلاهما عند قدميها، فلن يكون أمام الآخرين سوى فرصة ضئيلة ضد اللوردَين.

انتهز السادة ويلموت وبورهام عدة مناسبات بسبب ملاحظتهما لإهماله لي لتجديد تقرّبهما لي. لو كنت مثل أنابيلا ومن على شاكلتها، كُنتُ قد استفدت من مثابرتهما لاستفزازه وإحياء مشاعره، لكن بصرف النظر عن الصدق والإنصاف، لم أستطعْ تحمّلَ القيام بذلك. أنا منزعجة بالفعل بما فيه الكفاية ولا أريد تشجيعهما أكثر، حتى لو فعلتُ ذلك فلن يكون له تأثير كبير فيه، فهو يرى بوضوح معاناتي مع الاهتمام المتعالي والخطابات المبتذلة لأحدهما، والتدخلات البغيضة للآخر، دون أن يحاول مواساتي، أو إظهار أدنى استياء. لم يكن يحبني أبدًا، لو كان يحبني لما تراجع هكذا وتنازل عني عن طيب خاطر واستمر في مخاطبة الآخرين بمرح كما يفعل ـ يضحك ويمزح مع اللورد لوبورو وزوج خالتي ويمازح ميليسنت هارغريف، ويغازل أنابيلا ويلموت كما لو لم يكن هناك شيء يشغل ذهنه. آه! لماذا لا أكرهه فحسب؟ لا بد أنني أصبحتُ مولعةً به، لا يمكنني أن أحزن لهذا الحد وأندم عليه كما أفعل. يجب أن أحشد كل القوى المتبقية لدي وأحاول انتزاعه من قلبي. يصل لسمعي جرس العشاء، وتأتي خالتي لتوبيخي لجلوسي هنا في مكتبي طوال اليوم بدلًا من البقاء مع المجموعة، أوه! ليتها تختفي هذه المجموعة.

الفصل التاسع عشر

22 سبتمبر: ليلًا. يا إلهي، ماذا فعلت؟ وماذا ستكون نهاية هذا الأمر؟ لا أستطيع التفكير فيه بهدوء، لا أستطيع النوم. ليس أمامي سوى اللجوء إلى مذكراتي مرة أخرى. سوف ألزم أوراقي الليلة، وأرى ما سأفكر فيه غدًا.

ذهبت لتناول العشاء عازمةً على أن أبدوَ مبتهجة ولبقة، وحَرَصت على الالتزام بقراري جيدًا مع الأخذ في الاعتبار شدة الألم الذي كان يفتك برأسي وحزني الذي كنت أكتمه بداخلي. لا أعرف ما الذي حدث لي في الأوان الأخير، أشعر كأنّ طاقاتي العقلية والجسدية واهنة بشكل غريب، أصبحت أتصرف بشكل ضعيف في كثير من النواحي، لم أكن على ما يرام في اليوم أو اليومين الماضيين. أفترض أن الأمر يتعلق بقلة النوم والطعام والتفكير المستمر. لكن في المقابل، كنت أجتهد في الغناء واللهو من أجل التسلية، وبناءً على طلب خالتي وميليسنت وقبل أن يدخل السادة غرفة المعيشة (لا تحب الآنسة ويلموت أن تضيع جهودها الموسيقية على آذان السيدات فقط) طلبت مني ميليسنت أغنيّةً، وكنت في منتصفها عندما دخلوا. كان أول شيء فعله هانتينغدون هو الذهاب إلى أنابيلا قائلًا:

«الآن آنسة ويلموت، ألا تمتّعينا ببعض الموسيقى الليلة؟ افعلي الآن! أعلم أنك ستفعلين، آه لو أخبرك كيف كنت أتضوّر طوال اليوم من أجل سماع صوتك! هيا، فالبيانو شاغر».

كان كذلك بالفعل، لأنني تركته فور سماع التماسه. لو كنتُ أمتلك قدرًا مناسبًا من السيطرة على الذات، كنت لأنضمّ إليه بمرح في توسلاته لها

وأخيب توقعاته في حال كان يوجّه عمدًا الإهانة إليّ، أو جعل الأمر يبدو عاديًّا إذا كنت قد فهمت الأمر بشكل خاطئ، لكنني كنت أشعر بألم أكبر من أن أفكر بفعل أي شيء سوى النهوض من كرسي البيانو ورمي نفسي مرة أخرى على الأريكة، بصعوبة كبيرة حاولت إخفاء المرارة التي كنت أشعر بها في حنجرتي وأنا أستمع لموسيقاها، كنت أعلم أن أنابيلا تتفوق عليّ بمواهبها الموسيقية لكن لم يكن هذا سببًا لوجوب معاملتي على أنني شخصية ناقصة. بدا وقت وأسلوب طلبه منها بمثابة إهانة لا مبرر لها بالنسبة لي، إهانة جعلتني أشعر برغبة عارمة في البكاء.

في غضون ذلك جلست أنابيلا ببهجة أمام البيانو وغنّت له أغنيتين من أغنياته المفضلة بأسلوب متفوق لدرجة أن غضبي فارقني، واستمعتُ بسرور كئيب إلى التعديلات الماهرة التي أضافتها للأغنيات، صوت قوي ومدعم بلمساتها المبدعة والحيوية. ثم بينما كانت أذناي تشربان نبرتها المذهلة استقرت عيني على حارسها الواقف بجانبها واستمدت بهجة مضاعفة من تأمل وجهه الناطق، كانت تلك العيون والحواجب تشتعل بحماسة شديدة، وابتسامته الواسعة الجميلة تبدو كأنها بريق أشعة شمس إبريل. لا عجب أنه كان متشوقًا للغاية إلى سماعها تغني. الآن أغفر له من قلبي استهزاءه القاسي بي، وأشعر بالخجل من استيائي المخيف من تافه مثله ـ أخجل أيضًا من آلام الحسد المريرة التي تقضم أعماق قلبي إلى اللحظة على الرغم من كل هذا الإعجاب والبهجة.

قالت وهي تمرر أصابعها على المفاتيح عندما أنهت الأغنيّة الثانية: «والآن، ماذا تطلب بعد ذلك؟».

لكن عند قولها هذا نظرت إلى اللورد لوبورو الذي كان يقف متكئًا في مكان بعيد على ظهر كرسي ويستمع بانتباه أيضًا. من مجرد النظر إليه كان يمكنني التأكيد أنه كان يعاني إلى حد كبير من اختلاط نفس مشاعر السرور

والحزن التي غمرت قلبي. لكن النظرة التي أعطتها له أنابيلا كانت صريحة ومشجّعة له مفادها: «إنه دورك الآن، قم بالاختيار، لقد فعلت ما يكفي من أجله وسأبذل قصارى جهدي لإرضائك أيضًا». تقدم وقلب كراسة الأغنيّات ووضع أمامها أغنية صغيرة كنتُ قد قرأتها من قبل أكثر من مرة باهتمام نشأ من ظروف ربطها في ذهني مع الأفكار الطاغية على رأسي. الآن وبعد أن كانت أعصابي متحمسةً بالفعل وفَقَدت نصف أوتارها، لم أستطع سماع تلك الكلمات وهي تنفجر بلطف دون ظهور بعض أعراض الانفعال التي لم أتمكن من كبتها. غمرت الدموع عينيّ ودفنت وجهي في الأريكة أثناء استماعي. كان اللحن بسيطًا وحلوًا وحزينًا. ما زال في رأسي إلى جانب الكلمات:

«وداعًا!

لكن ليس لأفكاري الدافئة عنك

تلك التي ما زالت تسكن قلبي

تفرحني وتحزنني

أيها الجميل المتخم بالنعم

إن لم تلتقِ بعينيّ قط

لم أكن لأحلم بوجه كائن

يمكنه أن يتفوق على سحرك الخيالي

إن لم أتمكن من النظر مرة أخرى

إلى هذا الوجه العزيز

أو سماع صوتك

سأبقى محافظًا عليه في ذاكرتي.

ذاك الصوت الذي أيقظ سحر نغمته صدًى في صدري

الذي خلق المشاعر التي وحدها بإمكانها أن تسكن روحي

تلك العين الضاحكة التي بشعاعها المشمس تنعش وتضيء ذاكرتي
وآه.. تلك الابتسامة التي لا يمكنني التعبير عن بريقها
وداعًا!
ولكن اسمح لي بالاحتفاظ بالأمل الذي لا أستطيع أن أفارقه
يجرحني منك الازدراء والبرود
لكنكَ ما زلت باقيًا في قلبي
ومَن يعلم..
قد تستجيب السماء لصلواتي الألف
ويتقدم المستقبل بعرضٍ للماضي
مستبدلًا الكرب بالفرح
والدموع بالابتسامات».

عندما توقفتْ أنابيلا عن الغناء لم أكن أتوق إلى أي شيء أكثر من الخروج من الغرفة. لم تكن الأريكة بعيدةً عن الباب، لكنني لم أجرؤ على رفع رأسي لأنني كنت أعرف أن السيد هانتينغدون كان يقف بالقرب مني، عرفت لأني سمعته وهو يتحدث ردًّا على بعض ملاحظات اللورد لوبورو، كنت أشعر أن وجهه تحول نحوي، أيعقل أن النحيب نصف المكبوت قد وصل لأذنه وجعله ينظر حوله ـ لا سمح الله! لكن بجهد كبير تفحصتُ كل علامات الضعف الأخرى التي اعترتني وجففت دموعي، وعندما شعرت أنه ابتعد، نهضت وغادرت على الفور منطلقة إلى معتزَلِي المفضل: المكتبة.

لم يكن هناك ضوءٌ سوى الوهج الأحمر الخافت للنار المهمَلة، لكنني لم أرغب في ضوء، أردت فقط الاستمتاع بأفكاري دون ملاحظة أو إزعاج أحد. أغرقتُ نفسِيَ في مقعد منخفض وأخذتني الأفكار بعيدًا، حتى تدفقت دموعي مرة أخرى وبكيت كطفلٍ. لحظتَها فُتح الباب برفق ودخل أحدهم إلى الغرفة.

كنت واثقةً أنه كان مجرد خادم وعليه لم أتحرك من مكاني وانتظرت إلى أن أُغلِق الباب مرة أخرى ـ لكنني عدتُ لستُ وَحدِيَ. شعرت بيد تلمس كتفي بلطف وقال صوت بهدوء: «هيلين، ما الأمر؟»، لم أستطع النطق بحرف.

«سوف تخبرينني»، أضاف بشكل أحدّ وهو يجثو على ركبتيه بجانبي على البساط، ويضغط على يدي، لكنني سحبتها منه بسرعة وأجبته: «لا شيء بالنسبة لكَ سيد هانتينغدون».

«هل أنت متأكدة من أنه لا شيء بالنسبة إليّ؟ هل يمكنكِ أن تقسمي أنكِ لم تكوني تفكرين بي وأنت تبكين؟». كان هذا لا يطاق. بذلت مجهودًا للنهوض لكنه كان راكعًا على طرف ثوبي.

تابع: «أخبريني، أريد أن أعرف، لأنك إذا كنت كذلك فلدي ما أقوله لك، وإذا لم يكن فسوف أذهب».

«اذهب إذًا!»، صرختُ به، ولكن خوفًا من أن يفعلها حقًا ويذهب أضفت سريعًا: «أو قل ما تريد قوله، أو فعله!».

«ولكن، سأقولها فقط إذا كنتِ بالفعل تفكرين بي. لذا قولي لي هيلين».

«أنتَ وقحٌ بشكل مفرط سيد هانتينغدون!».

«على الإطلاق، أنا أسألك لأن هناك صلةً وثيقة للأمر بالموضوع، هيا، ألن تخبريني؟ حسنًا، سأحترم كبرياءك الأنثوية، وأفسّر صمتكِ بـ«نعم»، وأعتبره أمرًا مفروغًا منه أنني كنت موضوع أفكارك، وسبب حزن..».

«حقًّا سيدي!».

«إذا أنكرتِ فلن أخبرك بسرّي»، قال مهدِّدًا. لم أقاطعه مرة أخرى أو حتى أحاول صده، على رغم أنه أمسك بيدي مرة أخرى واحتضنني نصف احتضان بذراعه الأخرى، إلا أنني ما كنت حتى أدرك ذلك وقتها.

استأنف قائلًا: «الأمر كالتالي، أنابيلا ويلموت ـ مقارنةً بكِ ـ تشبه زهرة

فاوانيا متفاخرة مقارنة ببرعم ورد بلدي حلو ومرصع بالندى ـ وأنا أحبك لدرجة أنكِ أصبحتِ تشتتين انتباهي! الآن أخبريني إذا كان هذا يمنحك أي متعة. الصمت مرة أخرى؟ هذا يعني نعم. ثم دعيني أضيف أنني لا أستطيع العيش دونك، وإذا أجبتِ بـ«لا» عن هذا السؤال الأخير فسوف تدفعينني إلى الجنون. هل تمنحينني نفسك؟ هل ستفعلين!». صرخ وهو يعصرني بين ذراعيه بقوة ظننت أنني سأموت بسببها.

«لا، عليك أن تسأل عمي وخالتي عن ذلك!»، صرختُ وأنا أكافح من أجل تحرير نفسي منه.

«لن يرفضوني إذا لم تفعلي أنتِ».

«لست متأكدة من ذلك، فخالتي تكرهك».

«لكنكِ لا تفعلين هيلين ـ قولي إنكِ تحبينني وسأذهب».

«أتمنى أن تذهب!»، أجبته.

«سأفعل في هذه اللحظة ـ إذا قلتِ إنك تحبينني فقط».

أجبته: «تعلم أنني أفعل»، أعادني إلى ذراعيه وهو يُمطِرني بالقبلات.

في تلك اللحظة فتحت خالتي الباب على مصراعيه، كانت تحمل شمعةً في يدها وتعلو وجهها دهشةٌ وصدمة مروّعة، تحدق إليّ والسيد هانتينغدون بالتناوب ـ لأننا ابتعدنا بعضنا عن بعض ووقفنا على اتساع معقول. لكن ارتباكه لم يستمر لأكثر من لحظة، ثم بثقة وثبات يحسد عليه قال لها: أعتذر منكِ عشرة آلاف مرة سيدة ماكسويل، وأرجو ألّا تقسي علي بحكمكِ، طلبت من ابنتكم اللطيفة إخباري برأيها في طلبي الزواج منها لمراتٍ عديدة، وفي كل مرة ترد أنها لا تستطيع التفكير في الأمر دون موافقتكِ وعمها. لذلك، اسمحي لي أن أطلب منكِ ألا تحكمي عليّ بالبؤس الأبدي، إن نلتُ موافقتكِ فأنا في أمان، أما بالنسبة إلى السيد ماكسويل فأنا متأكد من أنه لن يرفضني».

قالت خالتي ببرود: «سنتحدث عن هذا غدًا يا سيدي. هذا موضوع يتطلب مداولاتٍ ناضجة وجادة. في الوقت الحالي، من الأفضل لك العودة إلى الصالون».

«ولكن اسمحي لي في هذه الأثناء أن أشرح موقفي علّني أنال قدرًا من التساهل لديك».

«لا تساهل يمكنه أن يحول بيني وبين سعادة ابنة شقيقتي يا سيد هانتينغدون».

«آه صحيح! هي ملاك، وأنا كلب مغرور لأحلم بامتلاك مثل هذا الكنز. لكن فلتعلمي، على الرغم من ذلك، أنني أفضل الموت على التنازل عنها لصالح أفضل رجل على الإطلاق، أما بالنسبة إلى سعادتها فأنا مستعد للتضحية بجسدي وروحي».

«الجسد والروح سيد هانتينغدون ـ هل تضحّي بروحك؟».

«حسنًا، سأضحي بحياتي لـ...».

«لن يُطالَب بالتضحية بحياتك».

«سأقضيها إذن وأكرّسها وكل سلطاتها لـ...».

«مجدّدًا سيدي، سنتحدث عن هذا لاحقًا. كنت لأحكم بشكل أفضل على ادّعاءاتك لو كنتَ قد اخترتَ وقتًا ومكانًا ـ واسمح لي أن أضيف ـ طريقةً أخرى لإبلاغي بهذا الموضوع».

«كما تعلمين سيدة ماكسويل...».

قاطعته خالتي بأَنَفَة: «عفوًا يا سيدي، المجموعة تستفسر عنك في الغرفة الأخرى». واستدارت نحوي.

خاطبني وهو ينصرف: «إذن عليكِ أن تدافعي عني يا هيلين».

قالتْ خالتي بشكل جاد: «من الأفضل أن تذهبي إلى غرفتك يا هيلين، سأناقش هذا الأمر معكِ أيضًا غدًا».

قلت: «لا تغضبي مني يا خالتي».

فأجابت: «لستُ غاضبةً يا عزيزتي، إن كان صحيحًا أنك أخبرتِه أنك لا تستطيعين قَبُول عرضه دون موافقتنا...».

«هذا صحيح»، قاطعتها بسرعة.

«إذن كيف يمكنك السماح له بـ...؟»

صرختُ وأنا أغرق في البكاء: «لم أستطع منعه يا خالتي». لم تكن كلها دموع حزن أو خوف من استيائها، بل كان اندلاع مشاعري الملتهبة. تأثرت خالتي الطيبة بهيجاني وبنبرة هادئة طلبت مني مرة أخرى الذهاب إلى غرفتي وهي تطبع قبلة رقيقة على جبيني وتتمنى لي ليلةً سعيدة. تركت لي شمعتها وذهبت، لكن عقلي بقي في حالة اضطراب ولم أستطع النوم.

أشعر بالهدوء الآن بعد أن كتبت كل هذا، وسأذهب إلى الفراش وأحاول الفوز بمُرمِّم الطبيعة المتعبة.

الفصل العشرون

24 سبتمبر. استيقظتُ في الصباح خفيفةً ومنتعشةً، بل في غاية السعادة. لقد انقشعتِ السحابةُ التي كانت تحوم فوق رأسي بسبب آراء خالتي والخوف من عدم موافقتها. كان صباحًا جميلًا خرجتُ فيه للاستمتاع بنزهة هادئة بصحبة أفكاري السعيدة. كان الندى يغمر العشب وآلاف الطيور تحلّق وتغنّي ملتذةً بالنسيم، فاض قلبي بامتنان بالترانيم والتسبيح للسماء.

لم أكن قد تجولت كثيرًا قبل أن يقاطعني الشخص الوحيد الذي كان من الممكن أن يقطع بهذا الشكل تأملاتي، في تلك اللحظة وبتطفل غير مرحب به ظهر السيد هانتينغدون فجأة. كان ظهورًا غير متوقع لدرجة أنني اعتقدت أنه خَلْقُ خيالٍ مفرط كأن حاسة البصر وحدها تشهد على حضوره، شعرت على الفور بذراعه القويّة تُطَوِّق خَصْريَ وطَبَع قبلة دافئة على خدي حين كان يحييني بحماسة: «هيلين خاصتي!»، همس بها في أذني.

«لست خاصتك بعد!»، قلت وأنا أنحرف على عَجَل بعيدًا عن هذه التحية الوقحة. «تذكر أوصيائي. لن تحصل بسهولة على موافقة خالتي. ألا ترى أنها متحيزة ضدك؟».

«أرى ذلك أيتها الأغلى، ولا بد أن تُخبريني عن سبب ذلك حتى أتمكن من معرفة أفضل طريقة لمواجهة اعتراضاتها. أظن أنها تعتقد أنني ضال»، لاحظ أنني لم أكن أرغب في الرد، لذا واصل:

«هل منبع ذلك أنه لن يكون لديّ سوى القليل من السلع الدنيوية التي يمكنني منحها لنصفيَ الأفضل؟ إذا كان الأمر كذلك، يجب عليكِ أن تخبريها

أن ممتلكاتي هي أملاك موروثة غير قابلة للتصرف فيها ولا يمكنني التخلص منها. قد يكون هناك عدد قليل من الرهون العقارية على البقية ـ عدد قليل من الديون التافهة هنا وهناك، وعلى الرغم من إقراري بأنني لست ثريًا كما تظن ـ أو كما كنتُ ـ فإنني أعتقد أنه يمكننا العيش بشكل مريح مع ما تبقى. والدي كما تعلمين كان بخيلًا، وفي أيامه الأخيرة لم يرَ متعة في الحياة أكثر من جمع الثروة، ولذا لا عجب أن يسعد ابنه بإنفاقها، وهو ما كان عليه الحال، إلى أن علّمتني معرفتكِ وِجهات نظر وأهدافًا نبيلة أخرى. فكرة جعلكِ في كنفي وتحت سقفي ستجبرني على التخفيف من نفقاتي والعيش كرجل صالح ـ ناهيكِ بكل الحكمة والفضيلة التي تغرسها في ذهني مشوراتكِ الحكيمة وطيبتكِ وحلاوة معشركِ».

قلت: «لكن ليس المال هو ما يُقلق خالتي. إنها أفضل من أن تعطي الثروة الدنيوية أعلى من قدرها».

«ما هو إذًا؟».

«إنها تتمنى ألا أتزوج إلا من رجل صالح بحق..».

«ماذا تعنين؟ من رجل تقيّ؟ حسنًا، دعي هذا الأمر لي أيضًا! اليوم هو الأحد أليس كذلك؟ سأذهب إلى الكنيسة في الصباح وبعد الظهر والمساء، وأتصرف بمثل هذا النوع من التقوى الذي سيجعلها تنظر إليّ بإعجاب وحب. وسأعود إلى المنزل وأنا أتنهّد مثل الفرن، مستذكرًا تفاصيلَ خطبة السيد بلاتانت العزيز ـ ».

«السيد لايتون»، قلت بجفاف.

«هل السيد لايتون واعظ جيد يا هيلين؟ رجل ذو تفكير سماوي؟».

«إنه رجل طيب سيد هانتينغدون. أتمنى التمكن من وصف شيء من لطفه لك».

«أوه لقد نسيت، أنتِ أيضًا قدّيسة يا هيلين، ألتمس عفوكِ أيتها الأعز ـ لكن لا تناديني بالسيد هانتينغدون، اسمي آرثر».

«لن أناديك بأي شيء، لأنني لن أفعل شيئًا على الإطلاق معك إذا تحدثت بهذه الطريقة بعد الآن. إذا كنت تقصد حقًّا خداع خالتي كما تقول فأنت شرير جدًّا، وإذا لم يكن الأمر كذلك فأنت مخطئ جدًّا في المزاح بشأن موضوع كهذا».

«أعترف أنني أخطأت»، واختتم ضحكته بتنهيدة حزينة قائلًا: «دعينا نتحدث عن شيء آخر، اقتربي مني وتأبطي ذراعي وبعد ذلك سأتركك وشأنك. لا أستطيع أن أكون هادئًا في حين أراك تغادرين هكذا».

امتثلتُ، ثم قال إننا سنعود قريبًا إلى المنزل، مضيفًا: «لن يتناول أحد الإفطار قبل فترة من الآن. لقد حدّثتِني عن أوصيائكِ يا هيلين، لكن هل ما زال والدك على قيد الحياة؟».

«نعم، لكني دائمًا ما أنظر إلى زوج خالتي وخالتي بوصفهما وليًا أمري، لأنهما في الواقع كذلك، وإن لم يكونا بالاسم. لقد منحني والدي لهما بالكامل ولم أرَه منذ وفاة أمي عندما كنت صغيرة، حينها عرضت خالتي تولي مسؤوليتي وجاءت بي معها إلى ستاننغلي حيث بقيت منذ ذلك الحين. لا أعتقد أنه سيعترض على أي شيء مرتبط بي ما دامت هي موافقة عليه».

«لكن هل تتوقعين أن يوافق على أمر تعتقد خالتك أنه من الأنسب الاعتراض عليه؟».

«لا. لا أعتقد أنه يهتم بأمري».

«ألومه كثيرًا لأنه لا يعرف أي ملاك هي ابنته ـ لكن هذا أفضل بالنسبة إليّ، لأنه إذا فعل ذلك فلن يكون مستعدًّا للتخلي عن مثل هذا الكنز».

قلت: «سيد هانتينغدون، أفترض أنك تعلم أنني لست وريثته؟».

احتجّ بانفعال قائلًا إنه لم يفكر في هذا الأمر مطلقًا، ورَجَاني ألا أزعج استمتاعه الحالي بذكر مثل هذه الموضوعات غير المثيرة للاهتمام. كنتُ سعيدةً بهذا الدليل على حبه النزيه، لأن أنابيلا ويلموت هي الوريثة المحتملة لجميع ثروات عمها، بالإضافة إلى ممتلكات والدها الراحل والتي كانت تمتلكها بالفعل.

مَشَينا ببطء عائدين إلى المنزل ونحن نتحدث، لا حاجة إلى سرد كل ما قلناه، بدلًا من ذلك أود أن أشير إلى ما حدث بيني وبين خالتي بعد الإفطار. في الوقت الذي كان فيه السيد هانتينغدون يتحدث مع زوج خالتي ـ حتمًا في ذات الموضوع ـ أخذتني هي إلى غرفة أخرى حيث بدأت مجددًا بالتعبير عن احتجاجها، لكنها فشلت في إقناعي بوجهة نظرها.

قلت: «أنتِ تحكمين عليه بشكل غير منصف يا خالتي. أصدقاؤه ليسوا بنصف السوء الذي تظنينه. هناك وولتر هارغريف، شقيق ميليسنت، على سبيل المثال: إنه أقرب إلى الملائكة إذا كان نصف ما تقوله عنه مليسينت صحيحًا، فهي تتحدث معي باستمرار عنه، وتثني على أخلاقه وتعامله».

أجابت: «التقدير لا يكون صحيحًا أو ملائمًا، إذا اعتُمِدَ على ما تقوله أخت الرجل عنه، فأسْوَؤُهم يعرف كيف يخفي آثامه عن أعين شقيقاته وأمه أيضًا».

«ثم هناك اللورد لوبورو»، تابعت، «وهو رجل محترم».

«من قال لك ذلك؟ اللورد لوبورو رجل يائس بدد ثروته في القمار وشرور أخرى، ويبحث الآن عن وريثة لاستعادتها. لقد أخبرت الآنسة ويلموت بذلك لكنكنّ جميعًا متشابهات، أجابتني بغطرسة أنها تكنّ لي تقديرًا عظيمًا، لكن يمكنها معرفة متى يبحث الرجل عن طريقة للوصول إلى ثروتها ومتى يكون ذلك لشخصها. لقد أثنت على نفسها كونها كانت لديها خبرة كافية في هذه الأمور تجعلها تثق بحكمها الخاص ـ وفيما يتعلق بنقص ثروته، قالت إن الأمر لا يهمها كثيرًا، لأن ثروتها تكفيهما كلاهما، أما بالنسبة إلى طيشه، فهي

تفترض أنه ليس أسوأ من الآخرين، علاوة على ذلك فقد تحسن كثيرًا عما كان عليه، مع ذلك يمكنهم جميعًا لعب دور المنافق عندما يريدون استمالة واستغلال امرأة مغرمة ومضلَّلَة!».

«حسنًا، أعتقد أنهما يليقان بعضهما ببعض، ولكن عندما يتزوج السيد هانتينغدون، لن تتاح له العديد من الفرص للقاء أصدقائه العزّاب الذين كلّما كانوا أسوأ، زادت رغبتي في إنقاذه منهم»، قلت.

«للتصحيح يا عزيزتي: كلما كان أسوأ، زاد الوقت الذي ستقضينه في إنقاذه من نفسه».

«نعم، في حال كان غير قابل للإصلاح. أنا أتوق إلى إنقاذه من أخطائه، لإعطائه فرصة للتخلص من الفساد الذي نقله له أصحاب السوء، والتنعّم بالخير الذي يكمن في أعماق روحه، أتوق إلى بذل جهدي لمساعدته على إظهار أفضل ما فيه، كأنما لم يكن لديه أبٌ سيئ وأناني وبخيل ولا هم له سوى إرضاء رغباته الدنيئة وحرمانه من أبسط حقوقه كطفل، وأمّ حمقاء دلّلته إلى أقصى حد وخدعت زوجها من أجله، وبالتالي زادتِ الحماقة والرذيلة التي كان من واجبها أن تقمعها، لتليها بعد ذلك مجموعة رفاق السوء الذين يمثلون أصدقاءه...».

«يا له من مسكين، لقد ظُلِم كثيرًا!»، قالت ساخرةً.

صرختُ: «نعم فعلوا. لكن لن يظلموه أكثر، ستبطل زوجته ما فعلته والدته!».

قالت بعد وقفة قصيرة: «حسنًا يا هيلين، لا بد لي من قول هذا، لقد فكرتُ مطولًا في قرارك هذا وذوقك أيضًا. كيف يمكنك أن تحبي رجلًا مثله؟ ما هي المتعة التي يمكنكِ أن تجديها في مشاركة حياتكِ معه؟ أي شراكة يمكن أن تربط بين النور والظلام، أو بين المؤمن والكافر؟».

«هو ليس بكافر، وأنا لست بنور. أسوأ رذيلة له هي عدم التفكير».

تابعت خالتي قائلةً: «والافتقار إلى التفكير قد يؤدي إلى كل الجرائم، ولن يبرر أخطاءنا أمام الله. أعتقد أن السيد هانتينغدون لا يخلو من المَلَكات المشتركة بين البشر، فهو ليس خفيفَ العقل لدرجة تجعله غير مسؤول، لقد وهبه الخالقُ العقلَ والضمير مثلنا، الكتاب المقدس مفتوح له وكذلك للآخرين، إذا لم يستمع له فلن يستمع ولو قام من بين الأموات، وتذكري يا هيلين، الأشرار والذين ينسون الله سيكون مأواهم الجحيم! ولنفرض ـ إن استمر في حبك ـ أنكما ستعيشان حياة مريحة ومقبولة، لكن كيف سيكون الأمر في النهاية؟ عندما يفرقكما الموت إلى الأبد. ربما تأخذينه إلى النعيم الأبدي، وربما يُلقى في البحيرة التي تشتعل فيها نارٌ لا تطفأ ـ ويبقى هناك إلى الأبد ـ».

صرخت: «ليس إلى الأبد، فقط حتى يدفع ديونه، إذا كان عمل الفرد لا يستحق النار، فسوف يعاني من بعض الخسائر إلى أن يُخَلِّص نفسه، وأما الذي تخضع له جميع الكائنات فيمكنه مساعدة الآخرين على النجاة، وفي نهاية الأمر سيعود كل شيء إلى المسيح الذي ذاق الموت من أجل كل الناس، والذي به سيصالح الله كل الخلق، سواء كان في الأرض أو في السماء».

«أوه هيلين! أين تعلمت كل هذا؟».

«من الكتاب المقدس خالتي. لقد بحثت فيه ووجدت ما يقرب من ثلاثين مقطعًا، جميعها تدعم نفس النظرية».

«وهل هذا هو الهدف من قراءة الكتاب المقدس؟ ألم تجدي أي مقاطعَ تميل إلى إثبات خطورة مثل هذا الاعتقاد؟».

«لا، في الواقع وجدت بالفعل بعض المقاطع التي قد تبدو ـ إذا ما اعتُمِدَت مبتورةً ـ كأنها تتعارض مع هذا الرأي، لكنها جميعها تحملَ بناءً مختلفًا فحسب وهو ما يؤدي إلى خطر الاعتماد على الاعتقاد. شخصيًّا، لن أفكر بنشر فكرة إذا كنت أرى أنها من المحتمل أن تساهم عبر خطأ في فهمها في تدمير مسكين ما، مهما بدت فكرة مَجِيدة أعتز بها في قلبي».

هنا انتهى حديثنا، فقد حان الوقت للتجهّز للذهاب إلى الكنيسة. حضر الجميع قدّاس صباح الأحد باستثناء زوج خالتي الذي نادرًا ما كان يذهب، والسيد ويلموت الذي آثر المكوث في المنزل معه. في فترة ما بعد الظهر، أعفَتِ الآنسةُ ويلموت ولورد لوبورو أنفسهما من الحضور، لكن السيد هانتينغدون تقدّم لمرافقتنا مرةً أخرى. لا أعلم ما إذا كان الأمر يتعلق بنيلِ إعجاب خالتي، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فمن المؤكد أنه كان يجب أن يتصرف بشكل أفضل. لا بد لي من الاعتراف أن سلوكه لم يعجبني أثناء القداس على الإطلاق. فقد كان ممسكًا بدفتر صلاته مقلوبًا ولم يفعل شيئًا سوى التحديق إليه ـ ما لم يصادف أن يلفت نظر خالتي أو عيني ـ ، وحينها يحدّق إلى كتابه بتزمت وشيء من الجدية الزائفة الأقرب إلى السخافة.

ذات مرة وخلال العظة التي كان يلقيها السيد لايتون، أخرج فجأة حقيبة أقلام رصاص ذهبية وانتزع الكتاب المقدس. بعد أن أدرك أنني لاحظت حركته همس أنه سوف يكتب ملاحظات عن الخطبة، لكن لأنني كنت جالسة بجانبه، لم أستطع تجنب رؤية أنه كان يرسم صورة كاريكاتورية للواعظ، ويعطي الرجل التقي والمسن مظهرَ منافقٍ عجوز عبثي. مع ذلك، عند عودتنا رأيته يتحدث مع خالتي عن الخطبة بدرجة من التمييز المدهش الذي أغراني للاعتقاد بأنه قد أصغى للخطبة واستفاد منها حقًّا.

قبل العشاء مباشرة، استدعاني زوج خالتي إلى المكتبة لمناقشة مسألة مهمة للغاية، والتي فُضَّت في كلمات قليلة.

قال: «نِيل، هذا الشاب هانتينغدون يطلبك للزواج، ماذا تريدينني أن أقول له؟ ستجيب خالتكِ بـ«لا» ـ ولكن ماذا تقولين أنتِ؟».

أجبته دون أدنى تردد: «نعم يا زوج خالتي». كنت قد اتخذت قراري بشأن هذا الموضوع.

«رائع!»، صاح بحماسة. «هذه إجابة جيدة وصادقة ورائعة! حسنًا، سأكتب

إلى والدك غدًا، أنا متأكد من منحه موافقته. يمكنني أن أخبركِ أنني كنت أديت صفقةً أفضل إذا كنتِ قبلتِ الزواج بويلموت، لكن لن تصدقي. في هذا الوقت من حياتك الحب هو الذي يحكم، أفترض الآن أنك من المستحيل أن تفكري بالنظر إلى الحالة المالية لزوجك المستقبلي أو أن تزعجي رأسك بشأن أملاكه أو أي شيء من هذا القبيل؟».

«لا أعتقد أنني سأفعل».

«حسنًا، كوني شاكرةً إذن أن هناك عقولًا أحكم تفكر من أجلك. لم يكن لدي الوقت ـ حتى الآن ـ لفحص شؤون هذا الشاب الوغد بدقة، أرى أن جزءًا كبيرًا من ممتلكات والده قد بُدِّد، مع ذلك ما زالت هناك حصةٌ جيدة منها، والقليل من الاهتمام الدقيق قد يجعل منه شيئًا رائعًا. بالإضافة إلى ذلك، لا بد أن نقنع والدك أن يمنحك ثروةً جيدة، لأنه ليس لديه أحد غيرك، وإذا بقيتِ فتاةً جيدة وتصرفتِ بشكل لائق فمَن يدري، ربما أذكركِ أيضًا في وصيتي!»، قال وهو يغمز لي بمرح.

أجبته: «شكرًا يا عمي على ذلك وعلى كل لطفك».

وتابع: «حسنًا، لقد استجوبته عن موضوع ممتلكاته، وبدا أنه كريم بدرجة كافية في هذه النقطة».

«كنت أعلم أنه كذلك! لكن أرجوك لا تشغل رأسك بذلك، لأن كل ما لدي سيكون له، وكل ما لديه سيكون لي. ما الذي يمكن أن يطلبه أي منا أكثر من ذلك؟»، كنت على وشك الخروج لكنه ناداني مرةً أخرى: «قفي قفي! لم نحدد الموعد بعد. متى تحبين أن يكون؟ خالتك ستستمر في التأجيل إلى أن يعلم الله، لكنه حريص على إتمام الأمر بأسرع ما يمكن، لا يريد الانتظار لما بعد الشهر المقبل، وأنت، على ما أعتقد، تريدين نفس الشيء، لذلك..».

«لا، على الإطلاق يا عمي. على العكس من ذلك، أود الانتظار لما بعد عيد الميلاد على الأقل».

«أوه أوه، أوه! لا تحاولي خداعي بهذه الادعاءات أبدًا، فأنا أعرف هذه الحركات»، واستمر في شكه، ومع ذلك كانت هذه هي الحقيقة، أنا لست في عجلة من أمري على الإطلاق، كيف يمكنني أن أكون عندما أفكر في التغيير الجسيم الذي ينتظرني وكل ما عليّ أن أغادره؟ حاليًّا، تكفيني سعادتي بمعرفة نيّتنا بالارتباط، وأنه يحبني حقًّا وأحبه بتفانٍ وأفكر فيه بقدر ما أشاء. لكنني أصررت على استشارة خالتي بشأن موعد الزفاف، لأنني قررت عدم تجاهل نصائحها، ولم يُتوَصَّل إلى أي استنتاجات بشأن هذا الأمر حتى الآن.

الفصل الحادي والعشرون

الأول من أكتوبر. سُوِّيَ كل شيء الآن. لقد أبلَغنا والدي بموافقته وحُدّد موعد الزفاف في عيد الميلاد بعد التوصل لتسوية بين المعنيّين بضرورة الإسراع أو التأخير. ستكون ميليسنت إحدى وصيفاتي، والأخرى أنابيلا ويلموت ـ ليس لأنني أستلطف الأخيرة بأي شكل، بل لأنها صديقة للعائلة، وليس لدي صديقة أخرى بكل حال.

عندما أخبرت ميليسنت عن خطبتي، استفزني أسلوبها في التعامل مَع الخبر، فبعد التحديق للحظات كأنها تلقت صدمة عنيفة قالت:

«حسنًا يا هيلين، تهانيّ الصادقة، يفرحني أن أراكِ بقمة سعادتكِ، لكني لم أتصور أن تقبلي به، ولا يسعني إلا الشعور بالدهشة من إعجابك به».

«ولماذا؟».

«لأنك ببساطة تتفوقين عليه بكل شيء. ثم هناك جرأته وتهوره، لا أعرف كيف أصف لكِ الأمر، لكنني دائمًا أشعر برغبة في الابتعاد عندما أراه يقترب».

«أنت خجولة يا ميليسنت، ولكن هذا ليس ذنبه».

تابعتْ: «ثم هناك نظراته المُربِكة. يتحدث الجميع عن وسامته، وهو بالطبع كذلك. لكني لا أحب هذا النوع من الجمال، وأتمنى أن تنتبهي لذلك أيضًا».

«لماذا؟».

«أشعر أنه لا يوجد شيء نبيل في مظهره».

«في الواقع، أنت تتساءلين كيف يمكنني أن أحب شخصًا لا يشبه أبطال القصص الرومانسية المتكلفين. حسنًا، بالنسبة إليّ يمكنني الاستغناء عن كل هؤلاء ـ إذا كان بالإمكان العثور عليهم ـ والاكتفاء بحبيب حقيقي من لحم ودم».

قالت: «أنا لا أقول إنني أريد أحدًا مثلهم، أنا أكتفي بحبيبٍ حقيقي من لحم ودم أيضًا، في النهاية الروح هي التي تشرق وتطغى على المظهر. لكن ألا تعتقدين أن وجه السيد هانتينغدون يبدو أحمرَ للغاية؟».

«لا!»، أجبتها بسخط. «إنه ليس أحمرَ على الإطلاق. مجرد توهج لطيف ونضارة صحية في بشرته ـ وأرى أن السحنة الوردية الدافئة متناسقة مع اللون الأعمق لخدّيه، تمامًا كما ينبغي أن يكون. لا أحب أن يكون الرجل أحمرَ وأبيضَ كدمية مطلية، أو أن يكون أبيضَ شاحبًا بالكامل، أو أسودَ كدخان، أو أصفرَ كجثة».

أجابت: «الأذواق تختلف بالفعل ـ أنا أفضّل الشاحب أو الغامق. لكن لأكون صادقة معكِ يا هيلين، كنتُ أمنّي نفسي أن تصبحي شقيقتي يومًا ما. كنت أنوي طلبك للزواج من والتر، وشعرت أنك ستحبينه وكنت متأكدة أنه سيعجبك. كانت فرحتي غامرة وأنا أفكر برؤية أكثر شخصين أحبهما في العالم ـ باستثناء ماما ـ متحدين. قد لا يكون بالوسامة التي تأملينها، لكنه أكثر تميزًا وأفضل من السيد هانتينغدون، أنا متأكدة أنك كنتِ ستقولين ذلك لو كنتِ تعرفينه».

« مستحيل ميليسنت! أنت ترين ذلك لأنكِ شقيقته ولهذا أسامحك، لكني لا أسمح لأي شخص أن ينتقص من قدر آرثر هانتينغدون أمامي مع الإفلات من العقاب».

أما الآنسة ويلموت فقد عبّرت عن مشاعرها حول هذا الموضوع بشكل علني تقريبًا، خاطبتني بابتسامة:

«إذًا هيلين، ستكونين السيدة هانتينغدون، على ما أعتقد؟».

أجبتها: «نعم، ألا تحسدينني؟».

«أوه عزيزتي، لا. لكن من المحتمل أن أصبح السيدة لوبورو ذات يوم، عندها سأكون قادرة على سؤالك: ألا تحسدينني؟».

«من الآن فصاعدًا لن أحسد أحدًا»، أجبتها.

«لكن، هل أنت سعيدة؟»، قالت بتمعن، وسحابة من خيبة أمل ظللت وجهها. «هل يحبك ـ أعني بقدر ما تحبينه أنتِ؟»، أضافت وهي تركّز عينيها عليّ بقلق مقنع للرد.

أجبتها: «لا أريد أن أكون معبودته، لكنني متأكدة تمامًا أنه يحبني أكثر من أي شخص آخر في العالم تمامًا كما أفعل».

«نعم. أتمنى هذا»، قالت بإيماءة وتوقفت.

«ماذا تتمنين؟»، سألتها بانزعاج من تعابير وجهها.

أجابت بضحكة قصيرة: «أتمنى لو أن جميع النقاط الجذابة والمؤهلات المرغوبة للرجلين متحدتَيْن في أحدهما ـ أن يصبح للّورد لوبورو وجه هانتينغدون الوسيم ومزاجه الرائع وذكاؤه ومرحه وسحره، أو أن يصبح لدى هانتينغدون نَسَب لوبورو ولقبه وإرثٌ عائلي عريق ويكون لي، وتحصلين على الآخر بكل سرور».

«شكرًا لك عزيزتي أنابيلا، أنا راضية بشكل كامل عن الأشياء كما هي من أجلي ومن أجلك، وأتمنى أن تكوني راضية أيضًا». وكانت هذه هي الحقيقة التي شعرت بها، على الرغم من انزعاجي في البداية من روحها غير المحببة، إلا أن صراحتها أثرت فيّ، وكان التناقض بين موقفينا شديدًا لدرجة أنني أصبحت أشفق عليها وأتمنى لها التوفيق.

يبدو لي أن معارف السيد هانتينغدون ليسوا بأسعدَ من معارفي بإعلان

خبر زواجنا. جُلبت له هذا الصباح رسائل وصلت من العديد من أصدقائه، وخلال اطّلاعه عليها على مائدة الإفطار أثار انتباه الجميع التجهم الواضح على تقاسيمه. لكنه حشرها جميعًا في جيبه وهو يضحك ضحكة عابرة دون قول شيء إلى انتهاء الوجبة. ثم بينما كانت المجموعة تتسكع في الغرفة قبل الشروع في هواياتهم الصباحية المختلفة، جاء وانحنى على ظهر كرسيّي ووجهه يلامس شعري وبهدوء طبع قبلة صغيرة في أذني وهو يهمس: «هيلين، أيتها الساحرة، هل تعلمين أنكِ جلبتِ لي لعنات جميع أصدقائي؟ لقد كتبتُ إليهم قبل أيام لأبلغهم عن أخباري السعيدة، والآن، بدلًا من تلقّي حزمة من التهاني، في جَعْبتي مجموعة من الشتائم والتوبيخ! لا توجد فيها كلها أمنية طيبة واحدة لي، أو كلمة واحدة لطيفة لكِ. يقولون إنه لن يكون هناك المزيد من الأيام المرحة أو الليالي الممتعة المَجِيدة بعد الآن، وكل خطئي هو أنني أول من يخرج، والآخرون بيأس سيتبعونني. لقد كنتُ ـ ولي الشرف بقول هذا ـ روحَ المجموعة، وقد خنت ثقتهم بشكل مخجل ـ».

قلت منزعجة من نبرة الحزن المفتعلة في خطابه: «يمكنك العودة للانضمام إليهم مرة أخرى إذا أردت، أعتذر إذا أشعرتك أنني أقف بينك وبين أصحابك ومتعكم المشتركة. ربما من الأفضل لي الانسحاب وتركك تعود لأصدقائك المساكين الذين يعانون من الآن من هجرك لهم».

غمغم: «بوركتِ. كل شيء يهون من أجل الحب، فليذهبوا إلى حيث ينتمون ـ لأكون مؤدبًا. ولكن إذا رأيتِ كيف يسيئون إليّ يا هيلين فستحبينني أكثر لأنني أغامر بالكثير من أجلك».

قام بسحب رسائله المحشورة بجيبه. ظننت أنه سيريهم لي، وأخبرته أنني لا أرغب في رؤيتهم.

قال: «لن أريهم لكِ يا حبيبتي، فمعظمها بالكاد يصلح لنظر سيدتي، انظري هنا: هذه خربشة غريمسبي ـ ثلاثة أسطر فقط، يا له من كلب! إنه لا

يقول الكثير بالتأكيد، لكن صمته بحد ذاته يعني أكثر من كل كلمات الآخرين، وكلما قل قوله زاد تفكيره. هذه رسالة هارغريف، إنه مستاء مني بشكل خاص لأنه وقع في حبك بسبب أحاديث شقيقته عنكِ، وكان ينوي أن يطلب منك الزواج بنفسه بمجرد أن يزرع شوفانه البري».

«أنا ممتنة له للغاية»، قلت.

قال: «وأنا كذلك. ثم انظري إلى هذا. هذه رسالة هاترسلي، كل صفحة مملوءة باتهامات قوية ولعنات مريرة وشكاوى مؤسفة وتنتهي بتهديد جاد وقسم غليظ أنه نفسه سيتزوج انتقامًا مني! سيرمي نفسه عند قدميْ أول فتاة تميل له، كما لو كان الأمر يُهمني».

قلت: «حسنًا، لا أرى أنه سيكون لديك سبب قوي للشعور بالندم أو المرارة في حال فقدت صداقتك بهؤلاء الرجال، لأنني بصدق لا أرى أنهم قدموا لك الكثير من الخير».

«ربما لا، لكننا استمتعنا بصداقتنا على الرغم من اختلاطها بالحزن والألم كما يعرفه لوبورو بشكل خاص»، وبينما كان يضحك على تذكر متاعب لوبورو جاء زوج خالتي وربت على كتفه:

«هيا يا فتى! هل ستبقى مشغولًا بالخوض في الحب وتخسر متعة الصيد؟ لا تنسَ أنه الأول من أكتوبر! حيث تشرق الشمس، يتوقف المطر. بورهام لا يخشى المغامرة بارتداء حذائه المضاد للماء، وأنا وويلموت سنهزمكم جميعًا. ها أنا أعلنها: نحن ـ كبار السن ـ الرياضيون الأكثر مهارة في الساحة!».

قال رفيقي: «سأريكَ ما يمكنني فعله اليوم، سأقتل طيورك بالجملة لحرماني من هذه الرفقة التي أفضّلها على رفقتكم».

غادروا بعد ذلك، ولم أرَه حتى موعد العشاء. بدا الوقت مرهقًا دونه، بحيث لم أعلم بمَ أقضيه.

بدا أن الرجال الثلاثة الأكبر سنًّا قد أثبتوا بالفعل أنهم الرياضيون الأمهر من أولئك الأصغر سنًّا. بالنسبة إلى كل من اللورد لوبورو وآرثر هانتينغدون، فقد أهملا في الآونة الأخيرات رحلات الصيد بشكل شبه يومي لمرافقتنا في جولاتنا ونزهاتنا المتنوعة. لكن أوقات المرح هذه تقترب بسرعة من نهايتها. خلال أقل من أسبوعين سيغادر الجميع، وهو أمر يؤسفني كثيرًا لأنني بتُّ أستمتع أكثر فأكثر كل يوم ـ خاصة بعد أن توقف السادة بورهام وويلموت عن مضايقاتي، وتوقفت خالتي عن إلقاء المحاضرات، وعن الشعور بالغَيرة من أنابيلا أو كرهها، والآن بعد أن أصبح السيد هانتينغدون آرثر، يمكنني الاستمتاع بلقاءاتنا دون قيود. آه، ماذا سأفعل دونه!



الفصل الثاني والعشرون

5 أكتوبر. طبق حلوايَ مملوء بالمرارة التي لا أستطيع تجاهلها أو إخفاءها مهما أردت. قد أحاول إقناع نفسي بأن الحلاوة تغلب عليه، قد أصف نكهته بالعطرية اللطيفة، لكن ذلك لن يلغي مرارته التي لا يسعني إلا تجرعها. لا أستطيع تجاهل أخطاء آرثر، وكلما زاد حبي له أزعجني الأمر أكثر. أخشى أن قلبه الذي وثقت به أقل دفئًا وكرمًا مما كنت أعتقد. قدّم لي عينة من شخصيته اليوم تستحق لقباً أسوأ من لا مبالٍ. كان هو واللورد لوبورو يرافقاننا أنا وأنابيلا في رحلة طويلة وممتعة، كان هو يركب بجانبي كالعادة، وكانت أنابيلا واللورد لوبورو يتقدماننا بقليل والأخير ينحني نحو رفيقته كما لو كان في حديث سري.

رمقهما هانتينغدون ثم قال: «هذان الاثنان سيسبقاننا إذا لم نعجل في إتمام الأمر يا هيلين، من الواضح أن لوبورو هائم. لكنه سيجد نفسه في مأزق عندما تصبح زوجته».

قلت: «وستجد نفسها في مأزق عندما يصبح زوجها، إذا كان ما سمعته عنه صحيحًا».

«لا شيء من ذلك. هي تعرف ما الذي تحوم حوله. لكن هذا الأحمق المسكين يخدع نفسه بفكرة أنها ستكون زوجة صالحة له، ولأنه استمتع بسماعها في بعض الحوارات وهي تزدري المكانة والثروة في أمور الحب والزواج، فإنه يمنّي نفسه بإخلاصها له، وأنها لن ترفضه بسبب فقره ومنزلته الاجتماعية، بل ستحبه لنفسه وحده».

«لكن ألا يغازلها من أجل ثروتها؟».

«لا، كان هذا هو مصدر الجاذبية في البداية، لكنه الآن لا يُدخله في حساباته أبدًا. أصبح العنصر الأساسي الذي لا يستطيع دونه، من أجل السيدة نفسها، التفكير في الزواج منها. إنه واقع في الحب، كان يعتقد أنه لن يفعل مرة أخرى أبدًا، لكنه كان مخطئًا. كان من المفترض أن يكون قد تزوج من قبل حوالي عامين أو ثلاثة أعوام، لكنه فقد عروسه بخسارة ثروته. لقد وقع في طريق سيئ في لندن، كان لديه حظ تعيس في المقامرة على الرغم من حبه لها، لا بد أنه وُلد تحت نجم سيئ الحظ لأنه دائمًا كان يخسر ثلاثَ مرات إذا ربح مرة واحدة. هذا نمط من عذاب الذات لم أُدمن عليه. عندما أنفق أموالي أحب أن أستمتع بقيمتها الكاملة، لا أرى أي متعة في إهدارها على اللصوص، أما بالنسبة إلى كسب المال فقد كان لدي ما يكفي دائمًا، أعتقد أن الفرد يبدأ التمسك بما لديه عندما يبدأ في الانتباه إلى احتمال انتهائه. لكنني كنت أتردد أحيانًا على تلك النوادي لمجرد مشاهدة ما يحدث لهؤلاء المجانين ـ وأؤكد لكِ أنها مشاهدة شائقة جدًّا يا هيلين، وأحيانًا تكون مثيرةً للغاية، لقد ضحكت كثيرًا على المغفلين أشباه لوبورو الذي كان مفتونًا تمامًا ـ ليس عن طيب خاطر ولكن بسبب الضرورة ـ ، كان دائمًا مصمّمًا على التخلي عن لعب القمار، ودائمًا ما يخالف قراراته. كان كل تصميم له يبدأ بـ: «مرة واحدة أخرى فقط». إذا ربِح قليلًا كان يأمل كسب المزيد، وإذا خسر فلن يكون من الحكمة الانسحاب في هذا الوقت، وبالتالي يستمر حتى يسترد تلك الخسارة الأخيرة على الأقل، فالحظ السيئ لا يمكن أن يستمر إلى الأبد، وعليه كان ينظر إلى كل ضربة محظوظة على أنها بداية لأوقات أفضل، إلى أن أثبتت التجربة له عكس ذلك. أصبح يائسًا لدرجة أننا كنا نتوقع أن يُنهي حياتَه. ثم أخيرًا وصل إلى نقطة النهاية، كان يومها قد ربح حصةً كبيرة وقرر أنها ستكون الأخيرة، سواء خسر أو ربح. كان قد قرر كثيرًا هذا القرار من قبل وكسره، ولم

تكن هذه المرة مختلفةً. لقد خسر، وبينما كان خصمه يبتسم أصبح شاحبًا أشبه بالطبشور، وتراجع في صمت وهو يمسح جبهته. كنت حاضرًا في ذلك الوقت، وبينما كان يقف وأذرعه مطوية وعيناه مثبتتان على الأرض كنت أعرف جيدًا ما يدور في ذهنه.

«هل ستكون الأخيرة يا لوبورو؟»، سألته.

أجاب بابتسامةٍ قاتمة: «الأخيرة». ثم عاد مسرعًا إلى الطاولة وضربها بيده ورفع صوته عاليًا فوق جلجلة العملات المعدنية وهو يُقسم باليمين الغليظة أنها المرة اللعينة الأخيرة التي يخلط فيها بطاقات اللعب أو يرمي فيها النرد مرة أخرى، ثم ضاعف حصته السابقة وتحدى أن يلعب ضده أي شخص حاضر. قدم غريمسبي نفسه على الفور. كان لوبورو يحدق إليه بشدة لأن غريمسبي كان يحتفل دائمًا بحظّه الجيد بقدر ما كان هو يندب سوء حظه. مع ذلك وقعا في الشَّرَك. غريمسبي كان يتمتع بمهارة كبيرة وقليل من القلق، ولا يمكنني هنا تأكيد أنه كان قد استغل اضطراب لوبورو وتعامل معه بشكل غير عادل، لكن لوبورو خسر مرة أخرى، وأصبح في حالة يرثى لها.

قال غريمسبي وهو ينحني على الطاولة: «من الأفضل أن تحاول مرةً أخرى». ثم غمز في وجهي.

قال المسكين بابتسامة مروّعة: «ليس لديّ ما أحاول به».

قال الآخر: «هيا، سوف يُقرضك هانتينغدون ما تريد».

«لا»، أجابه لوبورو وهو يبتعد في يأس هادئ. فأخذته من ذراعه وأخرجته.

«هل ستكون الأخيرة، لوبورو؟»، سألته عندما خرجنا إلى الشارع.

أجابني: «الأخيرة»، على عكس ما كنتُ أتوقعه. أخذته إلى المنزل ـ أي إلى نادينا ـ لأنه كان واهنًا كطفل ـ سقيته بالبراندي والماء حتى بدأ يعود أكثر إشراقًا ـ أو على الأقل أكثر حيوية.

«هانتنغدون، لقد انتهيت!»، قال وهو يأخذ الكأس الثالثة من يدي ـ كان قد شرب الآخرون في صمت شديد.

قلت: «ليس أنت. الرجل الذي يستطيع العيش دون مرح أشبه بسلحفاة تعيش دون رأسها، أو دبور دون جسده».

قال: «لكنني غارق في ديون لا يمكنني أبدًا الانعتاق منها».

«وما العيب في ذلك؟ لقد عاش كثيرٌ من الرجال الذين هم أفضل منك وماتوا وهم غارقين في الديون. بالإضافة إلى ذلك لا يمكن لأحد إدخالك السجن لأنك من النبلاء»، أعطيته كأسه الرابعة.

«لكنني أكره أن أكون مدينًا!»، صرخ. «أنا لم أولد لعيش حياة كهذه، ولا يمكنني تحملها».

قلت: «ما لا يمكن علاجه يجب تحمله»، وبدأت في خلط الخامس.

«ثم إنني فقدت كارولين»، ثم بدأ يبكي.

أجبته «لا يهم، هناك أكثر من كارولين واحدة في العالم».

أجاب بحسرة مريرة: «كانت هناك واحدة بالنسبة إليّ. ثم حتى لو كانت هناك خمسون أخرى، مَن تلك التي ستقبل بي دون ثروة؟».

«أوه، ستقبل بك إحداهنّ للحصول على الأقل على لقبك، ثم لديك ممتلكات عائلتك».

تمتم: «أتمنى لو كنتُ أستطيع بيعها لأدفع ديوني».

قال غريمسبي الذي دخل للتو: «وبعد ذلك يمكنك المحاولة مرة أخرى كما تعلم. كنت سأحظى بأكثر من فرصة لو كنتُ مكانك. لم أكن لأتوقف هنا أبدًا».

«قلت لك لن أفعل»، صرخ وهو يغادر الغرفة بمشية غير ثابته لأن الخمور كانت قد تمكنت من رأسه، ولم يكن معتادًا ذلك كثيرًا في ذلك الوقت، ولكن بعد ذلك كان يحتسيها بحدٍّ معقول للتخفف من همومه.

«لقد أوفى بيمينه بشأن المقامرة (كانت مفاجأةً لنا جميعًا) على الرغم من أن غريمسبي بذل قصارى جهده لإغرائه لكسر قراره. مع ذلك، فقد استبدلها بعادة أخرى مزعجة بنفس القدر، حيث إنه سرعان ما اكتشف أن شيطان الشراب كان أسودَ مثل شيطان اللعب ومن الصعب التخلص منه ـ لا سيما أن أصدقاءه الطيبين فعلوا كل ما في وسعهم لمساعدته على التغلب على رغباته الشديدة التي لا تشبع».

صرختُ غير قادر على احتواء سخطي: «لكن ألم يكونوا هم أنفسهم شياطين؟ يبدو لي أنك أنت ـ سيد هانتينغدون ـ كنت أول من أغراه».

«حسنًا، ماذا يمكننا أن نفعل؟ لقد قصدنا ذلك بلطف، لم نتمكن من تحمل رؤيته بهذا البؤس، بالإضافة إلى ذلك كان قد أصبح مبعثَ إحباط لنا جميعًا، يجلس بيننا صامتًا وكئيبًا بسبب مصائبه التي تضاعف تأثيرها ثلاث مرات جراء فقدان حبيبته، وثروته، وتجرُّع نتائج فجور الليل. بينما عندما كان بخير كان مصدر فرح لا ينضب بالنسبة إلينا. حتى غريمسبي كان يضحك ضحكة مكتومة بسبب أقواله المضحكة، كان يمتّعنا أكثر بكثير من مزاحي أو مشاغبات هاترسلي. ولكن في إحدى الأمسيّات، بينما كنا نحتسي نبيذنا ومستمتعين بعد إحدى حفلات عشاء النادي، ولوبورو يناولنا الخبز المحمص ويسمع أغانينا الصاخبة ويصفق بحماسة تارةً ويغنّي مَعَنا تارةً أخرى، عاد فجأة إلى الصمت ووضع رأسه بين يديه وعادَ لا يرفع كأسه إلى شفتيه، لكن هذا لم يكن شيئًا جديدًا ولذلك تركناه وشأنه وواصلنا الاستمتاع بسهرتنا حتى رفع رأسه فجأة وقاطعنا وسط هدير من الضحك قائلًا:

«أيها السادة! أين سينتهي كل هذا؟ هلا أخبرتوني؟ أين سينتهي كل هذا؟»، قال وهو يقف على إحدى الطاولات.

«خطاب خطاب!»، صرخنا. «اسمعوا، اسمعوا، سوف يلقي لوبورو خطابًا!».

انتظر بهدوء حتى توقفت رعود التصفيق ثم تابع: «أيها السادة، أعتقد أنه من الأفضل ألا نذهب إلى أبعد من هذا. من الأفضل أن نتوقف بينما نستطيع، هذا فقط ما أريد قوله».

«هكذا ببساطة!»، صاح هاترسلي ثم أنشد ترنيمةً دينية:

«توقف أيها المذنب المسكين، توقف وفكّر.

قبل أن تذهب أبعد من ذلك

فالذنوب ستوصلك إلى حافةِ الهاوية

والويل الأبدي».

أعقب لوبورو بجدية تامة: «بالضبط! وإذا اخترتَ لنهايتك حفرة تخلّد فيها فأنا لا أنوي الذهاب معك ـ يجب أن نفضّ هذه المجموعة، لأنني أقسم أنني لن أتحرك خطوة أخرى في هذا الطريق. ما هذا؟»، قال وهو يرفع كأسه.

«تذوقه»، اقترحت عليه.

«هذا مرق الجحيم!»، صاح. «سأمتنع عنه إلى الأبد!»، ودفع به إلى منتصف الطاولة.

«املأه مرة أخرى!»، قلتُ وأنا أعطيه الزجاجة، «فلنشرب نخب قرار امتناعك».

قال وهو يمسك الزجاجة: «إنه سم! وأنا أمتنع عنه! لقد امتنعت عن القمار وسوف أمتنع عن هذا أيضًا». كان على وشك سكب محتويات الزجاجة بالكامل على المنضدة لكن هارغريف انتزعها منه.

«عليك اللعنة إذًا!»، ثم صاح غاضبًا وهو يهمّ بمغادرة الغرفة. «وداعًا أيها المفسدون!»، واختفى وسط صيحات الضحك والتصفيق.

«كنا نتوقع عودته بيننا في اليوم التالي، لكن لدهشتنا ظل مكانه شاغرًا ولم نره طوال أسبوع وبدأنا نفكر أنه سيحافظ حقًّا هذه المرة على كلمته. ثم أخيرًا

في إحدى الأمسيّات عندما كنّا مجتمعين معًا مرة أخرى، دخل وهو صامت وكئيب كأنه شبح وانزلق بهدوء إلى مقعده المعتاد بالقُرب مني، لكننا جميعًا نهضنا للترحيب به وأصواتٌ عديدة تسأله عن أحواله، وأيادٍ مشغولة بالقنينة والكأس لخدمته، لكنني كنت أعرف أن كأسًا من البراندي والماء من شأنه أن يريحه، عندما أعددته وقدمته له دفعه قائلًا:

«دعني وشأني هانتينغدون! اصمتوا جميعًا! لم آتِ للانضمام إليكم، لقد جئت لأكون هنا لبعض الوقت لأنني لا أستطيع تحمل أفكاري، طوى ذراعيه واتكأ على كرسيه. تركناه وشأنه، لكنني تركت الزجاجة على طاولته. بعد فترة وجّه غريمسبي انتباهي إليها بغمزة، وعندما أدرتُ رأسِيَ رأيتُ أنها توشك على الانتهاء. ثم أشار لي بطلب قنينة جديدة ودفع الزجاجة أمام لوبورو بهدوء. امتثلت أنا عن طيب خاطر، لكن لوبورو فهم الإيماءات والابتسامات التي كانت تمر بيننا وانتزع القنينة من يدي وحطمها في وجه غريمسبي وألقى الكأس الفارغة في وجهي ثم انطلق مغادرًا».

قلت: «أتمنى لو أنه كسر رأسك».

أجاب ضاحكاً وهو يتذكر الموقف: «لا يا حبيبتي، كان سيفعل ذلك وربما أفسد وجهي أيضًا، ولكن العناية الإلهية وهذه الغابة (خلع قبعته وأظهر شعره الكستنائي الجميل) أنقذا جمجمتي ومنعا الزجاج من الانكسار حتى وصوله إلى الطاولة».

وتابع: «بقي لوبورو بعيدًا عنا لمدة أسبوع أو أسبوعين. كنت ألتقي به من حين لآخر في المدينة. بعد ذلك ـ ولأنني كنت طيبًا جدًّا لدرجة أنني لم أستاء من سلوكه غير الأخلاقي ـ لم يكن يحمل ضدي أي شيء يجعله غير راغب في التحدث معي، على العكس من ذلك كان ما زال متشبّثًا بي ويرافقني إلى أي مكان ما عدا النادي، ودور القمار، والأماكن الخطرة المشابهة لها ـ لقد كان عقله المكتئب يرهقه. في النهاية، أقنعته بأن يأتِيَ معي إلى النادي، بوعد

ألا أغريه بالشرب. لبعض الوقت، استمر في الانضمام إلينا في الأمسيّات وهو مستمر في الامتناع بمثابرة رائعة عن «السموم» التي أقسم بالامتناع عنها بشجاعة. لكن بعض أعضائنا احتجوا على هذا السلوك. لم يستلطفوا جلسته هناك بيننا كهيكل عظمي في وليمة. بدلًا من المشاركة في التسلية، كان يلقي سحابةً كئيبة على الجميع وهو يشاهد بأعين جشعة كل قطرة تصل إلى شفاههم، كرروا أن ذلك لم يكن مريحًا وأكد بعضهم ضرورة إما الطلب منه فعل ما يفعله الآخرون وإما طرده، وأقسم البعض أنه في المرة القادمة سيحدثونه عن ذلك، وإذا لم يأخذ بالتحذير فسينتقلون إلى الإجراءات العملية. مع ذلك، أخذت جانبه في هذا الموقف وأوصيتهم بمنحه بعض الوقت، وأنه مع قليل من الصبر سيعود كما كان. لكن من المؤكد أنهم نجحوا في استفزازه، لأنه على الرغم من أنه رفض أن يشرب كأي مسيحي ملتزم بقسمه، فقد كنت أعلم أنه يحتفظ بقنينة خاصة يشرب منها ـ أو بالأحرى يترجّح بين الاستمرار والامتناع. مع ذلك، ذات ليلة في إحدى حفلاتنا الصاخبة، تسلل إلى النادي كشبح وجلس كالعادة بعيدًا عن طاولتنا، كنا دائما نضع «للشبح» كأسًا، سواء اختار أن يملأها أم لا. رأيت من وجهه أنه يعاني من الثمالة، ولكن لم يكلّمه أحد ولم يتحدث هو بدوره إلى أحد. بضع نظرات جانبية فقط وملاحظة هامسة أن الشبح جاء، واصلنا استمتاعنا بأمسيّتنا الصاخبة كما نفعل دائمًا إلى أن أذهلنا جميعًا عندما جرّ كرسيه ومال إلى الأمام واضعًا مرفقيه على الطاولة وهو يهتف بجدية تامة:

«يحيّرني ما تجده ممتعًا لهذا الحد يا هانتنغدون. ما الذي تراه في الحياة؟ أنا لا أرى سوى الظلام، والبحث المخيف عن إطلاق الأحكام والأحقاد!».

«دفع الجميع كؤوسهم نحوه بعفوية في نفس الوقت، ورتّبتها أنا بشكل نصف دائري أمامه وربّتُّ بحنانٍ على ظهره وأنا أطلب منه أن يشرب، وسَرعان ما سيرى احتمالية مشرقة مثل أي واحد منا، لكنه دفعها بعيدًا وهو

يتمتم: أبعدها عني! لن أتذوقه، قلت لكَ لن أفعل، لن أفعل!»، ولذلك أعدتها مرة أخرى إلى أصحابها، لكنني رأيت أنه تبعها بشيء من الندم الجائع وهي تعود لأصحابها وغطى عينيه بحنق. بعد دقيقتين، رفع رأسه مرة أخرى وقال بصوت أجش ولكن عنيف: مع ذلك لا بد أن أفعل! هانتينغدون، أحضر لي كأسًا!

«يا رجل، خذِ الزجاجة!»، قلت له وأنا أدفع إليه بزجاجة البراندي. لكن مهلًا، أنا أتحدث كثيرًا»، تمتم الراوي وهو مستغرب من النظرة التي ألقيتها عليه لكنه مع ذلك أضاف بتهور: «لكن لا يُهم. بكل حال، في خضم شغفه اليائس استولى لوبورو على الزجاجة ولم يُبقِ فيها قطرةً إلى أن سقط من كرسيه واختفى تحت الطاولة وسط عاصفة من التصفيق. كانت نتيجة هذا الحماقة شيئًا أشبه بالسكته الدماغية التي تلتها حمّى شديدة».

«وما رأيك في نفسك بعد هذا يا سيدي؟»، سألته بسرعة.

أجاب: «بالطبع كنت نادمًا جدًّا. ذهبت لرؤيته مرة أو مرتين، كلا، بل مرتين أو ثلاث مرات أو حتى أربع مرات، وعندما تحسن أعدته بكل محبة إلى الحظيرة».

«ماذا تقصد؟».

«أعني أعدته إلى النادي، وتعاطفًا مع ضعف صحته ومعنوياته أوصيته بتناول القليل من النبيذ فقط، والتوقف عندما كان يشعر بالاكتفاء لا أن يقتل نفسه ولا يتمكن من إتمام كلمة كما المغفل والحفاظ على اتزانه وعقلانيته. لا تظني يا هيلين أنني مدمن خمر، أنا لست على الإطلاق من هذا النوع. لم أكن ولن أكون أبدًا. أنا أقدّر راحتي فحسب. أرى أن الرجل لا يمكن أن يسلّم نفسه للشرب دون أن يصبح بائسًا نصف أيامه ومجنونًا في النصف الآخر. بالإضافة إلى ذلك، أحب أن أستمتع بحياتي من جميع الجوانب، وهو أمر لا يمكن أن يفعله شخص يعاني من أنه عبد لنزعة واحدة ـ وعلاوة على ذلك،

يستمتع المرء بالغنائم عندما يحتفظ بمظهره جميلًا»، قال وهو يرسم على وجهه تلك الابتسامة التي كانت أن تثيرني أكثر من أي شيء آخر في العالم.

«وهل ربح اللورد لوبورو بأخذه بنصيحتك؟»، سألته.

«نعم، بطريقة ما. لقد نجح في العمل لفترة من الوقت بشكل جيد للغاية. في الواقع، كان نموذجًا للاعتدال والحصافة، وهو أمر بعيد عن أذواق أفراد مجموعتنا الصاخبة، ولكن المعضلة كانت في أن اللورد لوبورو لم يكن يتقن الاعتدال، كان إذا تعثر قليلًا في جانب ما، ينهار ويهوي قبل أن يحاول حتى تصويب نفسه، إذا تجاوز المسموح في إحدى الليالي فإن آثار ذلك كانت تجعله بائساً للغاية إلى اليوم التالي، بحيث يضاعف المخالفة بيأس وهكذا دواليك من يوم إلى آخر، إلى أن يوقفه ضميره. بعد ذلك ـ في لحظاته الرصينة ـ يعود لإزعاج الجميع بشدة بسبب ندمه وأهواله ومصائبه، لدرجة أنهم اضطروا إلى حمله على إغراق أحزانه في النبيذ أو أي مشروب أقوى متوفر. يحتسي شرابه وعندما يتغلب على شعوره باليأس يعود ليس بحاجة إلى المزيد من الإقناع، لأنه غالبًا ما كان يائسًا وسوداويًا. أخيرًا، في أحد الأيام عندما كنا وحدنا، وبينما كان غارقًا في التفكير الكئيب، ورأسه يكاد يسقط على صدره، استيقظ فجأة وأمسك بذراعي بقوة:

«هانتينغدون، هذا لن ينفع! أنا مصمم على فعل ذلك».

«ماذا؟ هل ستطلق النار على نفسك؟»، سألته.

«لا، سأقوم بإصلاح نفسي».

«أوه، هذا ليس شيئًا جديدًا! كنتَ ستصلح نفسَك في الاثني عشر شهرًا السابقة وأكثر».

«نعم، لكنك دائمًا تمنعني، وكنت أحمقَ لدرجة أنني ظننت أنني لا أستطيع العيش دونك. لكني الآن أصبحت أرى ما الذي يجعلني أعود، وما الذي يمكنه إنقاذي، سأجوب البحر والأرض للحصول عليه ـ أخشى فقط أنه لا توجد لدي فرصة». وتنهد كأن قلبه سينكسر.

«ما هذا الشيء يا لوبورو؟»، قلت وأنا أشعر أنه تصدع.

أجاب: «زوجة. لا أستطيع أن أعيش وحدي لأن عقلي يشتت انتباهي، ولا يمكنني العيش معك لأنك تأخذ دور الشيطان ضدي».

«أنا؟».

«نعم. كلكم تفعلون. وأنت أكثر من أي واحد منهم. ولكن إذا وُفّقت بالحصول على زوجة لديها ثروة كافية لسداد ديوني وتثبيت مكانتي..».

قلت: «طبعًا».

وتابع: «وتتمتع بالجمال والطيبة بما يكفي لجعل المنزل مقبولًا، أعتقد أن بإمكاني تحقيق ذلك. لن أقع في الحب مرة أخرى، هذا مؤكد، لكن ربما يكون هذا أمرًا جيدًا، لأنه سيمكّنني من الاختيار بعينين مفتوحتين وسأكون زوجًا صالحًا. لكن هل يمكن لأي شخص أن يحبني؟ هذا هو السؤال. أتمنى لو كنت بمظهرك الفاتن وقدراتك ـ كان من دواعي سروري سماع ذلك ـ ولكن كما ترى يا هانتينغدون، هل تعتقد أن أي امرأة ستقبل بمحطّم وبائس مثلي؟».

«نعم بالتأكيد».

«من؟».

«أي فتاة مهمَلة وغارقة في اليأس ستكون سعيدة بك».

قال: «لا، لا، يجب أن تكون امرأة يمكنني أن أحبها».

«لماذا؟ ألم تقل للتو أنك لا تريد الوقوع في الحب مرة أخرى؟».

«حسنًا، لا أعني الغرام، لكن شخصًا يمكنني أن أحبه. سأبحث عنها في جميع أنحاء إنجلترا!»، صرخ بدفعة مفاجئة من الأمل ـ أو اليأس. سواء نجحت أو فشلت، سيكون أفضل من تدمير نفسي في ذلك النادي. سأكون سعيدًا برؤيتك أينما ألتقي بك، ولكن لا تغريني أكثر من ذلك إلى وَكر الشيطان!

كانت هذه لغة مخزية، لكنني صافحته وافترقنا. حفظ كلمته. ومنذ ذلك الوقت كانت علاقتنا مجرد نمط من اللياقة الاجتماعية إن جاز لي القول، حتى وقت قريب لم يكن لدي الكثير لأفعله معه. لقد سعى أحيانًا إلى رفقتي لكنه كان ينكمش على نفسه كثيرًا خوفًا من أن أعود إلى دعوته إلى الدمار حسب اعتقاده، لذلك وجدت رفقته غير ممتعة، خاصة أنه حاول في عدد من المرات إيقاظ ضميري وجذبي بعيدًا عن طريق الهلاك حسب تعبيره. نجح في الابتعاد لكن عند مصادفته نادرًا ما أخفقت في السؤال عن التقدم المحرز في جهوده وأبحاثه الزوجية، وبشكل عام، لم يكن بإمكانه أن يعطيني سوى معلومات ضئيلة. الأمهات كنّ يرفضنه بسبب خزائنه الفارغة وسمعته السيئة في المقامرة، والبنات بسبب تقطيبة جبينه ومزاجه الكئيب، بالإضافة إلى أنه لم يكن يثق بهن، كان بحاجة إلى الروح والاطمئنان لنقل وجهة نظره.

«تركته وهو بهذه الحال عندما سافرت إلى القارة، وعند عودتي في نهاية العام وجدته ما يزال عازبًا بائسًا ـ على الرغم من أنه بالتأكيد يبدو بمظهر أفضل مما كان عليه من قبل. توقفت الشابات عن الخوف منه، وبدأن يشعرن أنه قد يكون مثيرًا للاهتمام، لكن الأمهات كنّ وما زلن متمسكات برأيهن السابق. في نفس الوقت الذي جمعني القدر بكِ وعاد لا يكون لديّ عيون وآذان لأي شخص آخر، تعرف لوبورو إلى صديقتنا الساحرة الآنسة ويلموت، لا شك أنه سيخبرك بذلك، على الرغم من أنه لم يجرؤ على تعليق آماله على فتاة تحظى بإعجاب شديد من الآخرين، إلا بعد تقربهما من بعض هنا في ستاننغلي، وفي غياب المعجبين الآخرين بها أصبحت تتودد بلا شك إليه وتشجّع تقدمه الخجول نحوها. ثم بدأ يأمل في أن تؤدي هذه العلاقة إلى أيام أكثر إشراقًا، وإذا وقفتُ بينه وبين شمسه ستظلم آفاقه ويغرق مرة أخرى في هاوية اليأس، فقد زاد من حماسته وعزز آماله اختياري ترك الميدان له،

والسعي خلف كنزٍ أكثر إشراقًا. باختصار هو كما أخبرتكِ: رجل طيب. في البداية كان ينظر إلى عيوبها بشكل خافت مما جعله يشعر بقدر كبير من القلق، ولكن الآن شغفه وبراعتها مسحا عن كل شيء ما عدا كمالها وحظه الرائع. الليلة الماضية جاء إليّ والسعادة تغمره وهو يقول: «هانتنغدون، أنا لست منبوذًا! هناك سعادة مضمونة لي في هذه الحياة: إنها تحبني!».

«هل أخبرتك هي بذلك؟»، سألته.

«لا. لكن عاد ليس بإمكاني الشك في مشاعرها نحوي. ألا ترى كم هي لطيفة وحنونة معي؟ إنها تعرف مدى فقري ولا يهمها الأمر! تعرف كل الحماقات والشرور التي حدثت في حياتي السابقة، ولا تخشى الوثوق بي، رُتبتي ولقبي لا يغريانها بل تتجاهلهما تمامًا. إنها أكثر الكائنات التي يمكن تصورها سخاءً، سوف تنقذني جسديًّا وروحيًّا من الدمار. إنها تشجعني على ضرورة تقديري ذاتي، وجعلتني أفضل وأحكم وأعظم مما كنت عليه قبل لقائها. أوه! لو كنت عرفتها من قبل، تخيل كم من الإهانات والبؤس كنت قد تجنبت! ماذا فعلت لأستحق مثل هذا المخلوق الرائع؟».

تابع السيد هانتينغدون ضاحكًا: «الطريف في الأمر برمّته هو أن تلك الوقحة لا تحب شيئًا سوى لقبه ونسبه ومقعد العائلة العريق».

«كيف علمت بذلك؟»، سألته.

«لقد أخبرَتْني بذلك بنفسها، قالت: أنا أحتقره في الحقيقة، ولكن أفترض أن الوقت قد حان لاتخاذ قراري، وإذا بقيت منتظرة شخصًا قادرًا على إثارة إعجابي وحبي، فسأقضي حياتي في نعمة لأنني أكرهكم جميعًا! هاهاها.. أظن أنها كانت تكذب في هذه النقطة، لكن مع ذلك من الواضح أنها لا تحب المسكين».

«إذن عليكَ أن تخبره بذلك».

«ماذا؟ وأفسد كل خطط وآمال الفتاة المسكينة؟ لا، سيكون ذلك خرقًا

للثقة، أليس كذلك يا هيلين؟ إلى جانب ذلك، سوف يكسر هذا قلبه»، وضحك مرة أخرى.

«حسنًا سيد هانتينغدون، لا أعرف ما الذي تجده مضحكًا بهذا الشكل المثير للدهشة، لا أرى أي شيء مضحك هنا».

قال وهو يواصل استفزازه: «الآن أنا أضحك عليكِ فقط حبيبتي».

تركته يستمتع بالضحك بمفرده واندفعت للانضمام إلى رفاقنا لأننا كنا نسير ببطء متخلفين عنهما. سرعان ما كان آرثر بجانبي مرة أخرى لكنني لم أكن مستعدةً للتحدث معه فاندفعتُ بجوادي وفعل هو نفس الشيء. ولم نتباطأ حتى وصلنا إلى الآنسة ويلموت واللورد لوبورو اللذين كانا على بعد نصف ميل من البوابات، تجنبت الحديث معه حتى وصولنا إلى نهاية رحلتنا عندما كنت أهمّ بالقفز من جوادي للهروب منه قبل أن يتمكن من تقديم مساعدته، لكن بينما كنت أهم بفعل ذلك رفعني وأمسك بي بكلتا يديه مؤكدًا أنه لن يسمح لي بالذهاب حتى أغفر له. قلت: «ليس لدي ما أغفره، أنت لم تجرحني».

«لا يا حبيبتي، حاشا لي! لكنك غاضبة لأنني أخبرتك بعدم احترام أنابيلا لعشيقها».

«لا آرثر، ليس هذا ما أزعجني، بل سلوكك بشكل عام تجاه صديقك، وإذا كنتَ ترغب في أن أنسى الأمر، فاذهب الآن وأخبره عن حقيقة المرأة التي يعشقها بجنون ويعلّق عليها آماله وسعادته المستقبلية».

أقول لك يا هيلين سوف يُكسر قلبه، سيقتله الأمر، إلى جانب كونه فضيحة لأنابيلا المسكينة. لن يساعده هذا التصرف الآن. لقد انطلى عليه الأمر وهي ستستمر في خداعه حتى النهاية، حينها سيكون سعيدًا بالوهم كما لو كان حقيقة، سيكتشف خطأه فقط عندما يتوقف عن حبها، وإذا لم يحدث ذلك فالأفضل أن ندع الحقيقة تظهر له تدريجيًا. والآن يا ملاكي، آمل أن أكون قد

أوضحت موقفي وسبب عدم تمكني من تحقيق مطلبكِ هذا. ما هي الطلبات الأخرى التي يمكنني تحقيقها؟ أخبريني وسأنفّذها بكل سرور».

«ليس لدي سوى هذا»، قلت محتفظةً بجدّيتي: «في المستقبل لن تهزأ أبدًا بمعاناة الآخرين، وستستخدم دائمًا تأثيرك في أصدقائك لمقاومة نزعاتهم الشريرة وليس العكس».

قال: «سأبذل قصارى جهدي، وأنفّذ أوامر ملاكِيَ الحارس»، وبعد تقبيل يديّ تركني أذهب.

عندما دخلت غرفتي، فوجئت برؤية أنابيلا ويلموت تقف أمام مرآتي وهي تتفحص ملامحها، وتداعب بيد سوطها الذهبي، وبالأخرى تمسك بطرف ردائها الطويل.

«إنها بالتأكيد مخلوق رائع الجمال!»، فكرتُ وأنا أتأمل طولها الفارع، وانعكاس وجهها الجميل، وشعرها الأدكن اللامع، والسحنة الذهبية المتوهجة من النزهة، والعيون السود المتلألئة بتألق لا يضاهى. عندما شعرت بمجيئي استدارت وصرخت بضحكة تحمل الحقد أكثر من الفرح: «هيلين! ماذا كنت تفعلين كل هذا الوقت؟»، ثم واصلت الحديث على الرغم من دخول ريتشيل: «لقد تقدم لي اللورد لوبورو بطلب الزواج، وقبلت طلبه بسعادة. هاه، ألا تحسدينني يا عزيزتي؟».

«لا. ولا أحسده هو أيضًا. هل تحبينه أنابيلا؟».

«كما يحبني؟ نعم بالتأكيد، أنا غارقة إلى أذنيّ في الحب!».

«حسنًا. أتمنى أن تكوني له زوجة صالحة».

«شكرًا لكِ يا عزيزتي! وماذا تأملين بالإضافة إلى ذلك؟».

«أتمنى أن تحبا بعضكما بعضًا وأن تكونا سعيدين».

«شكرًا. وآمل أن تكوني زوجةً صالحة للسيد هانتينغدون!»، قالت وهي تحييني بانحناءة ملكية وغادرت.

«أوه آنستي! كيف يمكنكِ أن تقولي لها ذلك!»، صرخت ريتشيل.

«أقول ماذا؟».

«إنكِ تأملين أن تكون زوجة صالحة له. لم أسمع مثل هذا الشيء من قبل!».

«لأنني آمل ذلك صدقًا، أو بالأحرى أتمنى ذلك، لأنها تجاوزت الأمل تقريبًا».

قالت: «حسنًا أنا متأكدة أنني أتمنى أن تجعل هي منه زوجًا صالحًا، سمعتهم يقولون أشياءَ غريبة عنه في الطابق السفلي. كانوا يقولون..».

«أعلم ريتشيل. لقد سمعت كل شيء عنه. لكنه أصبح رجلًا صالحًا الآن، ولأنهم لا عمل لديهم فهم يسلّون أنفسهم برواية هذه الحكايات عن السادة».

«لا آنستي، فقد قالوا بعض الأشياء عن السيد هانتينغدون أيضًا».

«لن أسمعهم ريتشيل، جميعها أكاذيب».

«نعم آنستي»، قالت بهدوء وهي تواصل ترتيب شعري.

«هل تصدقينهم يا ريتشيل؟»، سألتها بعد وقفة صمت قصيرة.

«لا آنستي. ليس في كل شيء. يحب الخدم التحدث بدافع التسلية عندما يجتمعون، والبعض ـ بغرض القليل من التباهي ـ يحب أن يجعل الأمر يبدو كما لو أنهم يعرفون أكثر مما يعرفونه، وبذلك يلقون بالتلميحات والهراء فقط لإبهار الآخرين. لكن أعتقد لو كنت مكانك يا آنسة هيلين، كنت سأحذر قبل أن أقفز. أعتقد بصدق أن الشابة لا يمكنها أن تكون حذرةً بشكل كافٍ بشأن من تتزوجه».

قلت: «بالفعل. هل يمكنكِ الإسراع يا ريتشيل؟ أريد أن أرتدي ملابسي»، كنتُ حريصةً على التخلص من المرأة الطيبة لأنني كنت في حالة استياء لدرجة أنني بالكاد استطعتُ منع تساقط الدموع من عيني حين كانت تُلبسني. لم يكن السبب اللورد لوبورو، لم تكن أنابيلا، لم أكن أنا، كان آرثر هانتينغدون».

13 أكتوبر. لقد رحلوا.. وهو رحل. سنفترق لأكثر من شهرين، أكثر من عشرة أسابيع! إنها فترة طويلة، طويلة للعيش والحرمان من رؤيته. لكنه وعد بالكتابة كثيرًا، وجعلني أعد بالكتابة كثيرًا، لأنه سيكون مشغولًا بتسوية شؤونه، ولن يكون لديّ شيء أفضل أفعله. حسنًا، أعتقد أنه سيكون لديّ دائمًا الكثير لأقوله. لكن آه! هذا لا يُقارَن بالوقت الذي سنكون فيه دائمًا معًا حيث يمكننا تبادل أفكارنا دون تدخل هؤلاء الوسطاء البليدين: القلم، والحبر، والورق!

22 أكتوبر. لقد تلقيت عدة رسائل من آرثر بالفعل. ليست طويلة ولكنها عابرة وحلوة، ومثله تمامًا مملوءة بالعاطفة الجارفة والفكاهة المفعمة بالحيوية. مع ذلك، ليس هناك كمال في هذا العالم، أتمنى لو كان جادًّا في بعض الأحيان. لا أستطيع أن أجعله يكتب أو يتحدث بجدية حقيقية ومتينة، نعم لا أهتم كثيرًا بذلك الآن، ولكن إذا استمر الأمر كذلك دائمًا، فماذا سأفعل بالجانب الجاد من شخصيتي؟

الفصل الثالث والعشرون

18 فبراير 1822. في وقت مبكر من صباح هذا اليوم ركب آرثر حصانه وانطلق في سعادة غامرة في رحلة صيد. سيكون غائبًا طوال اليوم لذا سأستمتع بالعودة إلى مذكراتي التي أهملتها لفترة طويلة. لقد مرت أربعة أشهر بالضبط منذ أن فتحتها آخر مرة.

أنا متزوجة الآن. وأصبحتُ السيدة هانتينغدون، سيدة قصر غراسديل مانور. لقد قضيت في تجربة الزواج إلى الآن ثمانية أسابيع، هل أندم على الخطوة التي قمت بها؟ لا، على الرغم من إقراري بيني وبين نفسي أن آرثر ليس كما كنت أعتقده في البداية، وإذا كنت قد عرفته في البداية كما أفعل الآن ربما لم أكن لأحبه أبدًا. وفي حال كنت أحببته أولًا ثم اكتشفته، أخشى أنه كان من المنطقي ألا أتزوجه. كل شخص كان مستعدًّا بما يكفي ليخبرني عنه، ولم يكن هو نفسه منافقًا أو كاذبًا، لكنني كنت أنا عن قصد أغطي عينيّ لتجنب رؤية الحقائق، والآن بدلًا من الشعور بالندم لأنني لم أفهم شخصيته الكاملة قبل الارتباط به بشكل غير قابل للانفصال، أشعر بالسعادة لأنه أنقذني من حربي مع ضميري، وقدرٍ كبير من التعب والألم. مهما كان ما يجب عليّ فعله في هذه المرحلة، من الواضح أن واجبي الأهم الآن هو أن أحبه وأتمسك به، وهو أمر يتوافق مع رغبتي.

إنه مغرم بي، مغرم جدًّا. لكنني أتمنى لو كان أكثر عقلانية. إذا كان لي الخيار سأود أن أكون صديقته أكثر من حيوانه الأليف، لكنني لن أشكو من ذلك، أخشى فقط أن تفقد عاطفته العمق لأن الحماسة تطغى عليها.

أشبهه أحيانًا بحالة النار التي تلتهم الأغصان الجافة الضئيلة مقارنة بالفحم الصلب المتوهج، وأتساءل: إذا احترق ولم يترك وراءه سوى الرماد، فماذا أفعل؟ لكنها لن تكون كذلك. لدي الإصرار وبالتأكيد لدي القوة لإبقائه متوهجًا وعلى قيد الحياة، وعليه أرفض هذه الفكرة، لكنني مضطرة إلى الاعتراف أن آرثر أناني، وهذا القَبُول يخفف ألمي نوعًا ما لأنني بسبب حبي الكبير له يمكنني أن أسامحه بسهولة. إنه رجل يحب نفسه، يحب أن يستمتع بحياته، ويسعدني أن أرضيه، وعندما أستاء من نزعته فهذا من أجله وليس من أجلي.

كانت المرة الأولى في رحلة زفافنا حيث كان يريد الإسراع في كل شيء لأن جميع المشاهد كانت مألوفة بالنسبة إليه بالفعل وكان فاقدًا للاهتمام بالكثير. كانت النتيجة أنه بعد عبور سريع عبر جزء من فرنسا وجزء من إيطاليا عدتُ تقريبًا كما ذهبت، دون الحصول على فرصة للتعرف إلى الأشخاص أو العادات. رأسي مملوء بالكثير من الذكريات عن الأشياء والمشاهد لكنها مشوشة ومرتبكة. بعضها دون شك ترك انطباعًا أعمق وأكثر إرضاءً من غيرها، لكن حتى هذه كانت تشعرني بالمرارة لأنني لم أتقاسمها مع شريك حياتي، على العكس من ذلك.

عندما كنتُ أعبّر عن اهتمام خاص بأي شيء أراه أو أرغب في رؤيته كان يستاء ويتململ بشكلٍ واضح بحيث وجدتُ أنه يمكنني الاستمتاع بأي شيء ما دمتُ لا أُشركه فيه.

أما بالنسبة إلى باريس فقد مررنا بها فقط، ولم يمنحني الوقت لرؤية عُشر الجمال والأشياء المثيرة للاهتمام في روما. قال إنه أراد أن يعيدني إلى المنزل ليبقيني بكلّي لنفسه، وأن يراني مثبّتةً بأمان أمام عينيه هناك بعقليّتي الساذجة، وكما لو كنتُ فراشةً ضئيلة كان يُعرب مرارًا عن خوفه من فرك جناحي عن طريق السماح لي بالتواصل مع المجتمع وخاصةً مجتمع باريس وروما،

وعِلاوة على ذلك لم يتردد في إخباري أن هناك سيداتٍ في كلا المكانين من شأنهن أن يمزقن عينيه إذا صادفنه وهو معي.

بالطبع كنت منزعجةً من كل هذا، ولكن ما أزعجتني خيبةُ أمل أكثر من خيبة أملي فيه، والمشكلة التي كنت أواجهها في تقديم الأعذار لأصدقائي الذين رأوا ولاحظوا القليل من كل ذلك دون أن أُلقي باللوم عليه. مع ذلك كله، عندما عدنا إلى المنزل ـ إلى منزلي الجديد المبهج ـ كنت سعيدةً جدًّا وكان لطيفًا للغاية معي لدرجة أنني سامحته على كل شيء وبدأت أفكر في سعادتي وحقيقة أن زوجي في الواقع جيد جدًّا بالنسبة إلي، إن لم يكن جيدًا بأكثر مما يحتاج إليه هذا العالم، عندما صدمني وأرعبني في يوم الأحد الثاني بعد وصولنا بنوبة أخرى من حالاته غير المعقولة. كنا نسير عائدين إلى المنزل بعد انتهاء قدّاس صباح الأحد حيث كان الجو لطيفًا للغاية، ولأننا قريبون جدًّا من الكنيسة فقد طلبتُ منه عدم استخدام العربة.

قال بنبرة غريبة: «هيلين، لستُ راضيًا تمامًا عنك».

سألته عن السبب، فأجاب: «لكن هل تعدينني بإصلاح الأمر إذا أخبرتكِ؟».

«نعم، إذا كان باستطاعتي ذلك دون الإساءة إلى سلطة أعلى».

«آه، ها هو. من الواضح أنكِ لا تحبينني من كل قلبك».

«لا أفهمك آرثر (على الأقل كنت أتمنى ألا أفهم): هلا أخبرتني بما فعلته أو قلته بشكل خاطئ؟».

«إنه ليس شيئًا فعلتِه أو قلتِه، إنه أنتِ يا هيلين، تديّنكِ الشديد. أنا أحب أن تكون المرأة متدينة، وأعتقد أن تقواكِ من أعظم صفاتكِ، ولكن مثل كل الأشياء الجيدة الأخرى، أحيانًا يُفْرَط فيها كثيرًا. في اعتقادي، يجب ألا يقلل تديّن المرأة من إخلاصها لسيدها الأرضيّ. لا ضير أن يكون لديها ما يكفي لتطهير روحها وجعلها أثيرية، ولكن ليس لدرجة ترفّعها عن عواطفها البشرية».

«وهل تراني مترفّعةً عن عواطفي البشرية؟»، سألته.

«لا يا عزيزتي، لكنكِ تحرزين تقدمًا نحو هذه الحالة. طوال هاتين الساعتين كنت أفكر فيك وأرغب في جذب انتباهك، لكنكِ كنتِ منغمسة في صلواتكِ لدرجة أنك لم يكن لديكِ لحظة حتى للمحة ـ هذه الحالة وحدها تكفي لجعل المرء يشعر بغَيرة من خالقه ـ، وهو خطأ كبير، أعلم، لذلك أتمنى أن لا تثيري مثل هذه المشاعر الشريرة في ذهني مرة أخرى، من أجل روحي».

أجبته: «سأبذل كل قلبي وروحي لخالقي إذا استطعت، وليس لك ذرة واحدة أكثر مما يسمح لك به. من أنت يا سيدي حتى تجعل نفسك إلهًا وتنازع على ملكية قلبي ذلك الذي أدين له بكل ما لدي وكل ما أنا فيه، كل نعمة أتنعّم بها اليوم أو يمكنني الاستمتاع بها ـ وأنت من بينها، إذا كنتَ نعمةً، وأنا أميل إلى الشك».

«لا تكوني قاسية عليّ يا هيلين، ولا تغرسي أظفاركِ بذراعي هكذا، أنتِ تضغطين على عظمي».

تابعتُ وأنا أرخي قبضتي على ذراعه: «آرثر، أنت لا تحبني بقدر ما تظن أنك تفعل، مع ذلك أقول لك، إذا أحببتني أقل بكثير مما تفعل فلن أشتكي، شريطة أن تحب خالقك أكثر. سأفرح لرؤيتك في أي وقت منغمسًا بعمق في الصلاة بحيث يعود ليس لديك أي فكرة تدّخرها من أجلي. في الواقع، لن أشعر أنني سأفقدك في حال حدوث تغيير كهذا، فكلما أحببت إلهك أصبح حبك لي أعمق وأصدق».

لحظتها اكتفى بالضحك وتقبيل يدي وهو يصفني بالمتحمسة اللطيفة، ثم خلع قبعته وأضاف: «لكن انظري هنا يا هيلين، ماذا يمكن لرجل أن يفعل برأس مثل هذا؟».

بدا الرأس طبيعيًّا بدرجة كافية، لكن عندما وضع يدي فوقه غرقت في خصلات شعره الكثيف المجعد والمنخفض إلى حد ما في المنتصف.

قال ضاحكًا: «كما ترين، أنا لم أُخلق لأكون قديسًا، إذا كان اللّٰه يريدني أن أكون متدينًا، فلماذا لم يمنحني علامة تبجيل؟».

أجبته: «أنت مثل العبد الذي، بدلًا من تسخير موهبته الوحيدة في خدمة سيده، أعادها إليه دون تحسين مدعيًا ـ كذريعة ـ أن سيده يعرف بالفعل بأنه رجلٌ صلب بإمكانه أن يحصد الأرض التي لا يمكن زرعها، لكن جميعنا ملزم ببذل أقصى ما في وسعنا، أنت لست بلا قدرة على التبجيل أو الإيمان أو الأمل. لا تفتقد الضمير والعقل وكل المتطلبات الأخرى لشخصية العبد المؤمن إذا اخترت توظيفها، لكن كل مواهبنا تتطور بفعل الاستخدام، وكل صفاتنا، سواء كانت جيدة أو سيئة، تَقْوَى بالممارسة والتمرين. بالنتيجة، إذا اخترتَ استخدام الجانب السيئ أو أولئك الذين يميلون إلى الشر ليصبحوا رفاقك، وأهملت جانب الخير حتى انكمش وتضاءل فلا تَلُم سوى نفسك. لديك خصال رائعة يا آرثر ـ مواهبُ طبيعية في القلب والعقل والمزاج يتمنى غالب المسيحيين امتلاكها ويسعدون بتوظيفها فقط في خدمة اللّٰه. لا أطلب منك التوقف عن حماستك في الحياة، لكن من الممكن جدًّا أن تكون مسيحيًّا صالحًا دون التضحية بمرحك وسعادتك الدنيوية».

«أنتِ تتحدثين كما الوحي يا هيلين، وكل ما تقولينه صحيحٌ بلا منازع، لكن اسمعيني: أنا أتضور جوعًا وأرى أمامي مائدةَ عشاء ضخمة، ويُقال لي إنه إذا امتنعتُ عن تناول الأكل الذي أمامي في هذا اليوم، فسوف ألتذّ غدًا بتناول وجبةٍ فاخرة من جميع أنواع المأكولات والأطعمة الشهية. أولًا، لا بد أنني سأتردد في الانتظار حتى الغد في حين أرى أمامي بالفعل وسيلةً لإشباع جوعي. ثانيًا، الأصناف المعروضة بالفعل أمامي اليوم تناسب ذوقي أكثر من تلك التي وُعدت بها. ثالثًا، أنا في الواقع لا أرى مأدبة الغد، كيف يمكنني التأكد أن الأمر ليس سوى وَهم ألّفه ذلك الذي ينصحني بالامتناع عنه حتى يتمكن من الحصول على كل شيء لنفسه؟ رابعًا، لا بد من فرش هذه المائدة

لشخص ما، وكما قال سليمان: «مَن يستطيع أن يأكل أو يسرع إلى هذا أكثر مني؟». وأخيرًا، بعد إذنك، سأجلس وأُرضي رغباتي اليوم، وأفعل ذات الشيء غدًا ـ مَن يعلم ما الذي يمكنني تأمينه من هذا أو ذاك بكل حال؟».

«لكنكَ لست مطالبًا بالامتناع عن تناول وجبتك الأساسية اليوم، يُنصح فقط بالاعتدال حتى لا تعيقك من الاستمتاع بمأدبة الغد. إذا اخترت ـ بمعزل عن هذه النصيحة ـ أن تصنع من نفسك وحشًا شرهًا الآن، وتفرط في تناول الطعام والشراب حتى تحول انتصاراتك إلى سم، على من يقع اللوم إذا استيقظتَ غدًا وأنت تعاني من متاعب الشراهة وآثار ثمالتك بالأمس، في حين ترى رجالًا أكثر اعتدالًا يجلسون للاستمتاع بهذا الترفيه الرائع الذي لا يمكنك تذوقه؟».

«أنتِ دائمًا الأصدق يا شفيعتي، لكن مجددًا، يقول صديقنا سليمان: ليس للرجل خير من الأكل والشرب والاستمتاع».

«وقال: ابتهج أيها الشاب واسْلُك طرق القلب والعين، ولكنِ اعلمْ أن اللّٰه سيدينك من أجل كل هذه الأمور».

«حسنًا هيلين، أنا متأكد أنني كنتُ جيدًا جدًّا في الأسابيع القليلة الماضية. ما الذي رأيتِه مني، وماذا تريدين مني أن أفعل؟».

«لا شيء أكثر مما تفعله آرثر. أفعالك على ما يرام حتى الآن، لكنني سأغيّر أفكارك. أريدك أن تحصّن نفسك من التجربة، ولا تخلط بين الخير والشر. أتمنى لك أن تفكر بعمق أكثر وتنظر إلى أبعد مما تفعل، وتهدف إلى بلوغ مستوًى أعلى».

الفصل الرابـع والعشرون

25 مارس. آرثر متعَب، ليس مني ولكن من حياة الخمول التي يعيشها، ولا عجب، لأن مصادر التسلية لديه قليلة جدًّا، فهو لا يقرأ أي شيء سوى الصحف والمجلات الرياضية، حين يراني مشغولةً بكتاب ما يستمر بإزعاجي حتى أغلقه. عندما يكون الطقس جيدًا يتمكن عمومًا من تجاوز الوقت بشكل فعّال، ولكن في الأيام الممطرة والتي كان لدينا الكثير منها مؤخرًا، من المنهك جدًّا التعامل مع سَأَمِه. أفعل كل ما في وسعي لتسليته، لكن من المستحيل أن أنجح في جعله يشعر بالاهتمام بما أحب التحدث عنه. بينما على الجانب الآخر لا تثير اهتمامي - بل وتزعجني - المواضيع التي يحب التحدث عنها، وهي الأمور التي تروقه أكثر من أي شيء آخر، لأن تسليته المفضلة هي الجلوس أو الاسترخاء بجانبي على الأريكة وإخباري بقصص عن حياته السابقة، ودائمًا ما يتحدث عن تلاعبه بفتاةٍ ما وثقتْ به أو أخرى خانت زوجها المطمئن معه، وعندما أعبر عن سخطي يوجه كل شيء إلى تهمة الغيرة ويضحك حتى تنهمر الدموع على خديه. اعتدتُ أن أنفجر غضبًا أو أنهار في نوبات البكاء في البداية، لكن بعد أن رأيت أن فرحته كانت تزيد بتفاقم غضبي، بدأت في قمع مشاعري وتلقي أحاديثه المستفزة بصمت وازدراء هادئ، مع ذلك كان قادرًا على استشعار صراعي الداخلي على وجهي، ولومي على شعوري بهذه المرارة التي تملأ روحي لعدم استحقاقه لأوجاع الغيرة المؤلمة، وعندما يكتفي عن ذلك أو يخشى أن يتفاقم استيائي يحاول تقبيلي وتهدئتي وإعادة الابتسامة لوجهي مرة أخرى -

ولم تكن مداعباته أبدًا موضع ترحيب في ذلك الوقت. لم تكن سوى أنانية مزدوِجة يظهرها لي كما كان يظهرها لضحاياه السابقات. هناك أوقات أسأل فيها نفسي بفزع شديد «ماذا فعلتِ بنفسكِ يا هيلين؟»، لكني أكتم الصوت وأصدّ هذه الأفكار المتطفلة التي تجتاحني. لأنه حتى لو كان عابثًا أكثر من هذا بعشر مرات ولا يمكن هدايته للأفكار السامية، أعلم جيدًا أنه ليس لي الحق في الشكوى، لا أشكو ولن أشكو، أحبه وسأظل أحبه، ولا ولن أندم لأنني ربطت مصيري به.

4 إبريل. حدثت بيننا اليوم مشاجرة صريحة. التفاصيل هي كالتالي: أخبرني آرثر على فترات مختلفة القصة الكاملة لمغامراته مع السيدة (ف) والتي لم أصدقها في السابق، بالإضافة إلى أن بعض العزاء كان في أن اللوم يقع على السيدة أكثر منه، لأنه كان صغيرًا جدًّا في ذلك الوقت، وكانت هي من تقربت منه أولًا، إذا كان ما قاله صحيحًا. كرهتها بسبب ذلك، إذ بدا كأنّها ساهمت بشكل رئيسي في إفساده، وعندما بدأ الحديث عنها قبل أيام توسّلت إليه ألا يذكرها، لأنني أصبحت أكره اسمها.

«ليس لأنك أحببتها يا آرثر، فكر بكلامي، بل لأنها جرحتك وخدعت زوجها، وكانت امرأة سيئة. يجب أن تخجل من ذكرها».

لكنه دافع عنها بالقول إن لديها زوجًا عجوزًا شغوفًا بها، لكن كان من المستحيل أن تحبه.

«إذن لماذا تزوجته؟»، سألته.

كان الرد: «من أجل ماله».

«تلك جريمةٌ أخرى، ماذا عن عهود الزواج بالالتزام بمحبته وتكريمه في كل الأحوال إلى أن يفرقهما الموت؟ هذا يزيد من فداحة الأمر».

ضحك قائلًا: «أنت شديدة القسوة على السيدة المسكينة، لكن لا تهتمي يا هيلين، هي لا تعني لي شيئًا الآن، ولم أحبِبْ أيًّا منهن بنصف حبي لكِ، لذلك لا داعي إلى الخوف من التخلي عنك مثلهن».

«إذا كنت قد أخبرتني بهذه الأشياء من قبل يا آرثر، ما كنت لأعطيك الفرصة أبدًا».

«حقًّا يا حبيبتي؟ لم تكوني لتعطيني الفرصة؟»، ضحك غير مصدّق.

«أتمنى لو استطعت اقناعك بذلك الآن!»، بكيت وابتعدت عنه، ولأول مرة في حياتي ـ وأتمنى الأخيرة ـ تمنيت لو أنني لم أتزوجه.

قال بجدية: «هيلين، هل تعلمين أنه إذا صدقتكِ الآن كنت لأغضب جدًّا؟ لكن الحمد للّٰه أنني لا أفعل. على الرغم من وقوفكِ هناك بوجهك الشاحب وعينيك الدامعتين، تنظرين إليّ مثل نَمِرة، فأنا أعرف أن قلبكِ مرهف وضعيف».

دون كلمة إضافية، غادرتُ الغرفة وحبست نفسي في غرفتي. بعد نحو نصف ساعة وصل إلى الباب، أدار المقبض في البداية، ثم طرقه.

«ألا تسمحين لي بالدخول يا هيلين؟»، قال.

«لا. لقد أغضبتني، ولا أريد أن أرى وجهك أو أسمع صوتك مرة أخرى حتى الصباح».

توقف للحظة كما لو كان مذهولًا أو غير متأكد من كيفية الرد على مثل هذا الكلام، ثم استدار وابتعد. كان الوقت ساعة واحدة فقط بعد العشاء، علمت أنه سيجد صعوبة بالغة في الجلوس بمفرده طوال المساء، وقد خفف هذا استيائي إلى حد كبير، على رغم أنه لم يجعلني أندم. كنت مصممة على أن أبين له أن قلبي ليس رهن إشارته، ويمكنني أن أعيش دونه إذا اخترت ذلك. جلست وكتبت رسالة طويلة إلى خالتي، بالطبع لم أخبرها بأي شيء عن كل هذا. بعد الساعة العاشرة بقليل سمعته يصعد مرة أخرى، لكنه تجاوز بابي وتوجه مباشرة إلى غرفة تبديل الملابس الخاصة به حيث أغلق على نفسه طوال الليل.

كنت حريصة على رؤية الكيفية التي سيقابلني بها في الصباح، ولم أشعر بخيبة أمل كبيرة عندما رأيته يدخل غرفة الإفطار بابتسامة متهورة.

«هل ما زلت منزعجة يا هيلين؟»، قال وهو يقترب مني لتحيتي. التفتُّ إلى الطاولة ببرود وبدأت في سكب القهوة منوّهةً بأنه قد تأخر.

أطلق صافرةً منخفضة وتوجه إلى النافذة حيث وقف لبضع دقائق ينظر إلى السحب الرمادية الكئيبة والأمطار المتدفقة والعشب المتساقط والأشجار الخالية من الأوراق وغمغمة الطقس، ثم جلس منتظرًا الإفطار. أثناء تناول قهوته تمتم: «إنها باردة».

قلت: «ما كان يجب أن تتركها طويلًا».

لم يُجِب، واختتم الوجبة في صمت. لقد كان مصدر ارتياح لكلينا عندما أُحضِرَت حقيبة الرسائل. احتوت على جريدة ورسالة أو رسالتين له، ورسالتين من أجلي، ألقى بها عبر الطاولة دون ملاحظة. كانت إحداهما من أخي، والأخرى من ميليسنت هارغريف الموجودة الآن في لندن برفقة والدتها. أعتقد أن رسائله كانت رسائلَ تجاريةً، ويبدو أنها لم تكن مهمة كثيرًا بالنسبة إليه لأنه حشرها في جيبه وهو يطلق بعض الشتائم التي سأؤنبه عليها في وقت آخر. وضع الصحيفة أمامه وتظاهر بأنه مستغرق بعمق في قراءة محتوياتها خلال ما تبقى من وجبة الإفطار ووقت طويل بعد ذلك.

لقد وفرت لي قراءة رسائلي والرد عليها والتزاماتي المنزلية فرصًا كبيرة للانشغال في الصباح، وبعد الغداء شُغِلتُ بالرسم، ومن بعد العشاء حتى وقت النوم كنت أقرأ. في هذه الأثناء كان آرثر المسكين في حيرة من أمره للعثور على نشاط يروقه أو يشغل وقته. أراد أن يبدوَ مشغولًا وغير مهتم كما فعلت، لو سمح له الطقس فقط كان أخذ حصانه وانطلق إلى مِنطقة بعيدة غير معلومة من بعد الافطار ولم يعد حتى حلول الليل. لو كانت هناك سيدة أخرى في متناول يده، في أي عمر بين الخامسة عشرة

والخامسة والأربعين، كان سينتقم منها وينهض، أو يحاول النهوض، في مغازلة يائسة لها. ولكن لكونه لرضاي أنا، ولأنه محروم من كلا الخيارَين السابقَين، كانت معاناته محزنة حقًّا. عندما انتهى من التثاؤب على صحيفته وخربش بإجابات قصيرة على رسائله، أمضى بقية الصباح وفترة ما بعد الظهيرة بأكملها في التململ من غرفة إلى أخرى، ومشاهدة الغيوم، وشتم المطر، وملاعبة ومضايقة الكلاب بالتناوب، كان في بعض الأحيان يتسكع على الأريكة مع كتاب لا ينجح في إجبار نفسه على قراءته، وفي كثير من الأحيان يحدق إليّ بثبات عندما يعتقد أنني لست منتبهةً، على أمل يائس باكتشافِ آثارٍ لبعض الدموع، أو علامات الألم أو الندم على وجهي. لكنني تمكنتُ من الحفاظ على هدوئي طَوَال اليوم على الرغم من صعوبة الأمر. لم أكن غاضبةً في الواقع، كنتُ أشعر بمعاناته طوال الوقت، وأشتاق إلى مصالحته، لكنني قررتُ أنه هو من يجب أن يقدم على الخطوة الأولى، أو على الأقل أن يُظهر بعض علامات التواضع والروح المتسامحة أولًا، لأنني إذا أقدمتُ على ذلك فإن ذلك لن يؤدي إلا إلى إرضاء غروره، وزيادة غطرسته، وتدمير الدرس الذي أردت تقديمه له.

لقد بقي لفترةٍ طويلة في غرفة الطعام بعد العشاء، وأخشى أنه احتسى كميةً غير معتادة من النبيذ، ولكن ليس بما يكفي لإرخاء لسانه، لأنه عندما جاء ووجدني مشغولةً بكتابي بهدوء، تمتم بكلمات تعبيرًا عن الاستنكار وأغلق الباب بقوة وذهب ليتمدد على الأريكة وغرق في النوم. لكن كلبه المفضل، داش، والذي كان مستلقيًا عند قدمي أخذ حريته في القفز عليه ولعق وجهه. ضربهُ ضربةً قوية جعلَتِ الكلب المسكين يُصدر أنينًا ويركض مرتعدًا نحوي. عندما استيقظَ بعد نحو نصف ساعة رَبَّتَ عليه، لكن داش كان مترددًا نوعًا ما واكتفى بهزّ طرف ذيله. رَبَّتَ عليه مرة أخرى بشكل أكثر حدة لكن داش تشبث بي وبقي بالقرب مني وهو يلعق يدي كما لو كان يطلب الحماية. غاضبًا

من ذلك، انتزع سيده كتابًا ثقيلًا وألقاه على رأسه ليطلق الكلب المسكين أنينًا موجعًا ويركض نحو الباب. تركته يخرج ثم تناولت الكتاب بهدوء.

قال آرثر بنبرة غير مهذبة على الإطلاق: «أعطيني الكتاب». أعطيته له.

«لماذا تركتِ الكلبَ يخرج؟ تعلمين أنني أريده».

«بأي أسلوب؟ برمي الكتاب عليه؟ أو ربما كنت أنا المقصودة؟»، أجبته بذات النبرة.

قال وهو ينظر إلى يدي التي عُرِّضت أيضًا لضربة: «لكني أرى أنك قد تلقّيتِها بكل حال».

عدت إلى قراءتي، وحاول أن يشغل نفسه بذات الطريقة، ولكن بعد فترة وجيزة وعدة تثاؤبات طويلة، قال إن كتابه «قمامة ملعونة»، وألقى به على الطاولة، تبع ذلك ثماني أو عشر دقائق من الصمت كان خلال الجزء الأكبر منها يحدق إليّ. في النهاية فقد صبره.

«ما هذا الكتاب يا هيلين؟»، صاح. أخبرته بعنوانه.

«هل هو مثير للاهتمام؟».

«نعم، جدًّا».

واصلت القراءة ـ أو التظاهر بها على الأقل ـ لا يمكنني القول إنه كان هناك تواصل بين عقلي وعيني في ذلك الوقت، لأنه بينما كان الأول يتصفح الصفحات، كان الأخير يتساءل متى سيتحدث آرثر مجددًا، وماذا سيقول، وبمَ يجب أن أجيب. لكنه لم يتكلم مرة أخرى حتى نهضتُ لإعداد الشاي، وذلك كان فقط ليقول إنه لا يريد أي شيء. بقي مستلقيًا على الأريكة، استمر في إغلاق عينيه والنظر إلى ساعته وفي وجهي بالتناوب طوال الوقت، حتى وقت النوم عندما نهضت وأخذت شمعتي لمغادرة الغرفة.

«هيلين!»، صاح في اللحظة التي كنت أهم فيها بالمغادرة، استدرت إلى الوراء ووقفت منتظرة أوامره.

«ماذا تريد يا آرثر؟».

أجاب: «لا شيء، اذهبي».

ذهبت، لكنني سمعته يتمتم بشيء حين كنت أغلق الباب، استدرت مرة أخرى وظننت أنني سمعت «عاهرةً مختلّة»، لكنني كنت على استعداد تام لأن يكون شيئًا آخر.

«هل كنت تتحدث يا آرثر؟»، سألته.

كان الجواب «لا»، أغلقت الباب وغادرت. لم أره بعد ذلك حتى صباح اليوم التالي عند الإفطار، عندما نزل بعد ساعة كاملة من الوقت المعتاد.

«لقد تأخرتَ كثيرًا»، كانت تحية صباحي.

أما تحيته فكانت: «لم يكن عليك أن تنتظريني». ذهب إلى النافذة مرة أخرى، لم يكن الطقس مختلفًا عن الأمس.

«أوه، تبًّا لهذا المطر!»، بدا مهمومًا، ولكن بعد دراسة الأمر بجدية لمدة دقيقة أو دقيقتين، بدا كأن فكرة رائعة خطرت له لأنه صرخ فجأة: «لكنني أعرف ما سأفعله!»، ثم عاد وجلس على الطاولة. كانت حقيبة البريد موجودة بالفعل في انتظار فتحها. فتحها وفحص المحتويات لكنه لم يقل شيئًا عنها.

«هل هناك شيء لي؟»، سألته.

«لا».

فتح الجريدة وبدأ في القراءة.

اقترحت: «من الأفضل أن تتناول قهوتك، ستبرد مرة أخرى».

قال: «يمكنك أن تذهبي إذا انتهيتِ، لا أحتاج إليك».

نهضتُ وانسحبت إلى الغرفة المجاورة، متسائلةً عما إذا كنا سنواجه يومًا بائسًا آخر مثل الأمس، أتمنى بشدة إنهاء هذه العذابات المتبادلة. بعد فترة وجيزة سمعته يقرع الجرس ويعطي بعض الأوامر حول خزانة ملابسه والتي

بدت كما لو كان ينوي الذهاب في رحلة طويلة. ثم أرسل للحارس وسمعت شيئًا عن العربة والخيول ولندن والساعة السابعة صباح الغد، أزعجني ذلك كثيرًا.

قلت لنفسي: «يجب ألا أسمح له بالذهاب إلى لندن مهما كان الأمر. سينخرط في كل أنواع السيئات، وأنا سأكون سبب ذلك. لكن كيف لي أن أجعله يلغي خططه؟ حسنًا، فلأنتظر بعض الوقت وأرى إذا كان سيذكر الأمر أمامي».

انتظرتُ بقلق شديد من ساعة إلى ساعة ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة حول هذا الموضوع أو عن أي موضوع آخر. بقي يصفر ويتحدث إلى كلابه ويتجول من غرفة إلى أخرى تمامًا كما كان يفعل في اليوم الذي سبقه. أخيرًا، بدأت أفكر في أنه يجب عليّ التطرق للموضوع بنفسي وكنت أفكر في كيفية فعل ذلك، عندما جاء جون بالرسالة التالية من فتى الإسطبل: «من فضلك سيدي، أحد الخيول مصاب بنزلة برد شديدة، ويقول ريتشارد إن كان بإمكانك تأجيل سفرك لما بعد الغد بدلًا من الغد، فيمكنه معالجته اليوم».

«يا لوقاحته!»، قال السيد النبيل.

كرر جون: «عذرًا سيدي، يقول إنه من الأفضل تأجيل الأمر إذا أمكن، لأنه يأمل أن يكون هناك تغيير في الطقس قريبًا، ويقول إنه ليس من الحكمة إخراجه عندما يكون مريضًا لهذا الحد».

«فليأخذ الشيطان الحصان!»، صاح به ثم أضاف بعد تفكير دقيق: «حسنًا، أخبره أنني سأفكر في الأمر». ألقى نظرةً فاحصة في وجهي حينما كان الخادم ينسحب، متوقعًا رؤية شيء من الدهشة والانزعاج، لكن نظرًا إلى أنني كنتُ مستعدةً للموقف مسبّقًا فقد احتفظتُ بجانب اللا مبالاة الهادئة. كاد فكّه أن يسقط عندما التقت عيناه بنظراتي الثابتة واستدار في خيبة أمل واضحةٍ للغاية وتوجه إلى المدفأة حيث وقف وقفةَ اكتئاب غير مقنعة، متكئًا على قطعة المدخنة وجبهته غارقة في راحة يده.

«أين تريد الذهاب يا آرثر؟».

« لندن»، أجاب بجدية.

«لماذا؟»، سألته.

«لأنني لا أستطيع أن أكون سعيدًا هنا».

«لم لا؟».

«لأن زوجتي لا تحبني».

«كانت ستحبك من كل قلبها إذا كنت تستحق ذلك».

«ماذا عليّ أن أفعل لأستحق ذلك؟».

بدا هذا متواضعًا وجديًّا بما فيه الكفاية، بحيث تأثرت كثيرًا بين شعوري بالحزن والفرح لدرجة أنني اضطررت إلى التوقف لبضع ثوانٍ قبل أن أتمكن من تثبيت صوتي للرد.

قلت: «إذا مَنَحَتْكَ قلبها عليك أن تأخذه وتعامله بشكل جيد، لا تقطّعه إربًا وأنت تضحك في وجهها لأنها لا تستطيع انتزاعه بعيدًا».

استدار لحظتها ووقف في مواجهتي وظهره إلى النار قائلًا: «تعالي إذن يا هيلين، هل ستكونين فتاة جيدة؟».

بدا هذا متعجرفًا جدًّا ولم تُرضِنِي الابتسامةُ التي صاحَبَتْه، لذلك ترددت في الرد. ربما كانت إجابتي السابقة قد تضمنت الكثير، ربما سمع صوتي يترنح، وربما رآني أخفي دمعة.

«هل ستسامحينني يا هيلين؟»، استأنف بتواضع أكثر.

«هل أنت تائب؟»، أجبته وأنا أرنو إليه وأبتسم في وجهه.

«بل مكسور القلب!»، أجاب بوجه حزين لكن بابتسامة مرحة كامنة في عينيه وحول زوايا فمه، لكن هذا لم يستطع صدّي وطِرتُ لأرتمي بين ذراعيه. عانقني بحرارة، وعلى الرغم من أنني ذرفت سيلًا من الدموع، فإنني لم أكن أسعدَ في حياتي أبدًا مما كنت عليه في تلك اللحظة.

«إذن لن تذهب إلى لندن آرثر؟»، قلتُ عندما خَمَدَتْ أولى الدموع والقبلات.

«لا يا حبي، ما لم تذهبي معي».

أجبت: «سأفعل بكل سرور إذا كنتَ ترى أن التغيير يروق لك، وإذا كنتَ ستؤجل الرحلة حتى الأسبوع المقبل».

وافق على الفور، لكنه قال إنه لا توجد حاجة إلى الكثير من الاستعداد لأننا لن نبقى لفترة طويلة. لم يكن يجب أن أقضِيَ وقتًا طويلًا في لندن وأفقد أصالتي من خلال الاختلاط المفرط مع سيداتها. اعتقدت أن هذا الأمر سخيف لكنني لم أرغب في مناقضته الآن، قلت فقط إن طبيعتي بيتوتية للغاية وليست لدي رغبة في الاختلاط بالعالم.

لذلك اتفقنا أن نذهب إلى لندن بعد غد الاثنين، لقد مرت الآن أربعة أيام منذ انتهاء الخلاف بيننا، وأنا متأكدة أنه أفادنا بشكل كبير، لقد جعلنا نتعامل بعضنا مع بعض بشكل أفضل. لم يحاول أبدًا مضايقتي منذ ذلك الحين، لا من خلال الإشارة إلى السيدة (ف)، أو أي من تلك الذكريات البغيضة عن حياته السابقة. أتمنى أن أتمكن من طمسها من ذاكرته، أو جعله ينظر إلى مثل هذه الأمور في نفس الضوء الذي أراها فيه. هذا الخلاف جعله يرى أن هذه المواضيع ليست مناسبةً لمزاحٍ بين زوجين، وقد يعي هذا بعد فترة من الوقت، لذا لن أضع حدودًا لآمالي، وعلى الرغم من تشاؤم خالتي ومخاوفي الصامتة، أنا على ثقة بأننا سنكون سعداء.

الفصل الخامس والعشرون

في الثامن من إبريل ذهبنا إلى لندن، وفي الثامن من مايو عدتُ وحدي طاعةً لرغبة آرثر وضد رغبتي لأنه بقي هناك. إذا كان قد عاد معي كنتُ سأسعد جدًّا بالعودة إلى المنزل مرة أخرى، لأنه قادني إلى الجنون في هذه الفترة الزمنية القصيرة وأتعبني للغاية. بدا عازمًا على تعريفي إلى أصدقائه ومعارفه في كل مناسبة ممكنة وبشكل أشعرني أنني موضوعُ تفاخرٍ له. لكنني دفعت ثمنًا باهظًا لإرضائه، حيث كان عليّ أولًا أن أتنازل عن مبادئي الثابتة من ناحية المظهر الذي أفضله، وهو الثياب الدكناء الرصينة لصالح أخرى بعيدة عن ذوقي، كان يجب أن أتألق في المجوهرات باهظة الثمن وأبدو مثل الفراشة المرسومة، تمامًا كما كنت دائمًا أرفض أن أبدو، ولم تكن هذه تضحية تافهة بالنسبة إليّ. ثانيًا، كنت أجتهد باستمرار لإرضاء توقعاته من خلال مراقبة سلوكي العام وتعاملي معهم، وخوفًا من التسبب له بأي إحراج أو إحباطه بسبب جنحة هنا أو هناك، أو ظهور بعض سمات الجهل كوني عديمة الخبرة بعادات هذا المجتمع، خاصة عندما قمت بتمثيل دور المضيفة، وهو ما لم يُطلب مني القيام به مجددًا. ثالثًا، كما أشرت من قبل، كنت قد سئمت من الازدحام والضجيج والإسراع المضطرب والتغيير المستمر في حياة غريبة جدًّا عن كل عاداتي. أخيرًا، اكتشف فجأة أن لندن لا تتفق معي لأنني كنت أعاني من نوبة حنين إلى منزلي وبهذا أصبحت بالنسبة إليه عودتي فورًا إلى غراسديل ضرورة قصوى.

طمأنْتُه ضاحكةً أن المسألة لم تكن ملحّة كما قد يعتقد، لكنني كنت على

استعداد تام للعودة إلى المنزل إذا كان هو كذلك. فأجاب بأنه ملزم بالبقاء لمدة أسبوع أو أسبوعين أكثر، لأن لديه عملًا يتطلب حضوره.

قلت: «إذًا سأبقى معك».

كانت إجابته: «لا يمكنني أن أفعل هذا يا هيلين، إذا بقيتِ قربي سأعتني بك وأهمل عملي».

«لكنني لن أدعك وحدك. الآن وبعد أن علمتُ أن لديك عملًا يجب عليك إتمامه، أصر على البقاء. سأكون سعيدةً جدًّا بقضاء بعض الوقت وحدي، يمكنني الذهاب في جولات والتنزّه في الحديقة. ثم لا يمكن للعمل أن يشغل كل وقتك، سأراك في أوقات الوجبات وفي المساء على الأقل، وسيكون ذلك أفضل من أن تكون بعيدًا ولا أراك مطلقًا».

«لا يا حبي، لا يمكنني السماح لكِ بالبقاء. كيف يمكنني تسوية أموري وأنا أعلم أنكِ موجودة ومهمَلة هنا؟».

«لن أشعر بأنني مهملة، ولن أشتكي أثناء قيامك بعملك يا آرثر، لو كنتَ أخبرتني أن لديك أعمالًا لتنجزها لكَانَ نصفه قد تم الآن، يجب أن تعوض الوقت الضائع بمجهود مضاعف. أخبرني ما المطلوب وأعدك بأن أُعِينَك بدلًا من أن أكون عائقًا».

«لا لا يا هيلين، يجب أن تذهبي إلى المنزل، أحتاج إلى أن أشعر بالاطمئنان أنك بخير وبصحة جيدة على الرغم من بُعدك عني. لقد تلاشى بريق عينيكِ والتورّد الرقيق هجر خدك تمامًا».

«لكن هذا بسبب الفعاليات الكثيرة والتعب»، أجبته.

«لا، ليس كذلك، إنه هواء لندن، أنتِ تتوقين إلى النسمات المنعشة لمدينتكِ وستشعرين بها بأقرب وقت، تذكري وضعكِ يا عزيزتي هيلين، صحّة الطفل القادم ـ إن لم تكن حياته ـ تعتمد على صحتكِ».

«إذن ترغب حقًّا في التخلص مني».

«نعم، وهذا لمصلحتكِ، وسوف أعيدكِ بنفسي إلى غراسديل ثم أعود. لن أتغيب أكثر من أسبوع أو أسبوعين على الأكثر».

«إذا كان لا بد من الذهاب فسوف أذهب وحدي: إذا كان لا بد من بقائك فلا داعي إلى إضاعة وقتك في الرحلة إلى هناك والعودة».

لكنه لم تعجبه فكرةُ إرسالي وحدي.

أجبته: «لماذا؟ أي مخلوق عاجز تعتقدني بحيث لا تثق باستطاعتي السفر مئة ميل في عربتنا الخاصة وبرفقة اثنين من الخدم؟ تأكد أنني سأبقيك هناك إذا عدت معي، لكن لم تخبرني يا آرثر، ما هذا العمل، ولماذا لم تذكره من قبل؟».

قال: «إنه عمل بسيط مع محام». وأخبرني شيئًا عن قطعة من الممتلكات التي أراد بيعها لسداد جزء من أعباء عقاره، لكن إما أن الرواية كانت مشوشة بالنسبة إليّ بعض الشيء، وإما كنت أنا عاجزة عن الاستيعاب، لأنني لم أستطع أن أفهم كيف يبقيه موضوع كهذا في المدينة لمدة أسبوعين، ولا أستطيع الآن أن أفهم كيف بقي فعليًّا هناك شهرًا بذات العذر، فقد انقضت هذه الفترة منذ تركته، ولا توجد علامات على عودته قريبًا. في كل رسالة يَعِد بأن يكون معي في غضون أيام قليلة، وفي كل مرة يخدعني أو يخدع نفسه. أعذاره غامضة وغير منطقية، وعاد لا يكون لديّ شك في أنه عاد إلى رفاقه السابقين مرة أخرى. أوه، لماذا تركته! عدتُ لا أتمنى سوى أن يعود!

29 يونيو. لا أثر لآرثر حتى الآن. لأيام عديدة كنت أتوق عبثًا إلى تَسَلُّم خطاب على الأقل. كانت رسائله عندما تأتي لطيفة ـ إذا اعتبرنا وصفها بذلك أمرًا منصفًا ـ ، لكنها قصيرة جدًّا ومملوءة بالأعذار والوعود التافهة التي عاد ليسَ بإمكاني الوثوق بها، ومع ذلك أتطلع إلى تلقي رد قصير كُتب على عجل على الرسائل الثلاثة أو الأربعة الطويلة التي أرسلتها إليه.

أوه، من القسوة أن يتركني وحدي طوال هذه الفترة! إنه يعلم أنه ليس لدي أي شخص سوى ريتشيل أتحدث إليه، ليس لدينا جيران هنا، باستثناء آل هارغريف، فرحتُ كثيرًا عندما علمتُ أن ميليسنت قريبةٌ منا، ستكون رفقتها عزاءً جيدًا لي الآن، لكنها ما تزال في المدينة مع والدتها، ولا يوجد أحد في منزلهم سوى إستر الصغيرة ومربيتها الفرنسية، لأن شقيقها والتر دائمًا ما يكون مسافرًا. التقيت به في لندن، يمثل للكثيرات النموذج المثالي للرجل الكامل، نادرًا ما اهتم بأمه وشقيقته على الرغم من أنه بدا بالتأكيد أكثر قابلية للتحدث من اللورد لوبورو، وأكثر صراحة وتعقّلًا من السيد غريمسبي، وأكثر حيوية وأنبل من السيد هاترسلي، صديق آرثر الآخر الذي رأى أنه من الضروري تقديمه لي. أوه آرثر، لماذا لا تعود؟ لماذا لا تكتب لي على الأقل؟ كنتَ تتحدث عن قلقك على صحتي، هل حقًّا تتوقع مني أن أجمع الزهور وأستعيد حيويتي في هذه العزلة والقلق الذي لا يهدأ من يوم إلى آخر؟ ليتك تعود وترى كيف ذَوَى مظهري الجميل. أود أن أطلب من زوج خالتي وخالتي أو أخي أن يأتوا لزيارتي، لكني لا أحب أن أشتكي لهم من وحدتي، فالوحدة تمثل أقل همومي الآن، ما يشتت انتباهي هو تساؤلي وتفكيري المستمر في ما يفعله هناك طوال هذا الوقت، ما الذي يبقيه بعيدًا، والاحتمالات الرهيبة التي تثيرها هذه الأسئلة.

3 يوليو. رسالتي المريرة الأخيرة انتزعت منه إجابة أخيرًا، ها هي رسالة أطول من المعتاد لكن ما زلت لا أعرف ماذا أفعل بها. إنه يسيء إليّ باستهزائه بالمرارة التي أشعر بها في خطابي الأخير، ويقول إنه لا يمكنني تصور الارتباطات التي تبقيه هناك، لكنه يؤكد أنه على الرغم من كل شيء سيكون بالتأكيد في المنزل قبل انتهاء الأسبوع المقبل، على الرغم من أنه من المستحيل على رجل في مثل ظروفه تحديد يوم عودته بالضبط، وفي هذه الأثناء يحثّني على التحلّي بالصبر: «أهم خصال المرأة»، ويذكّرني أن

الغياب يجعل الحب في القلب ينمو، وأن أعزّي نفسي بالاطمئنان إلى أنه كلما طالت مدة بقائه بعيدًا سيحبني بشكل أفضل عندما يعود، وإلى أن يعود يطلب مني الاستمرار في الكتابة إليه باستمرار لأنه على الرغم من أنه يكون أحيانًا متعبًا ومشغولًا بحيث يصعب عليه الرد على رسائلي فور وصولها، فإنه يحب تلقّيها يوميًّا، وإذا استوفيتُ تهديدي بمعاقبة إهماله بالتوقف عن الكتابة، فسيغضب مني لدرجة أنه سيفعل ما بوسعه لنسياني. ويضيف هذه الفقرة عن المسكينة ميليسنت هارغريف:

«من المرجح أن تحذوَ صديقتكِ الصغيرة ميليسنت بعد فترة حذوك وتقبل بالزواج من صديقٍ لي، هاترسلي، الذي كما تعلمين لم ينفّذ بعد تهديده بإلقاء شخصه الثمين على أول فتاة تُظهر له شيئًا من الحنان، لكنه ما زال محتفظًا بتصميم وحزم شديدين على أن يرى نفسه متزوجًا قبل نهاية العام. قال لي: ‹أريد زوجة تسمح لي بقضاء حياتي بطريقتي الخاصة وليس مثل زوجتك يا هانتينغدون، إنها مخلوق ساحر لكنها تبدو أنها تفرض إرادتها عليك. أود أن تكون تلك التي أتزوجها ذات روح طيبة وهادئة تسمح لي بفعل ما أحبه والذهاب إلى حيث أحب، سواء آثَرَتِ البقاءَ في المنزل أو قضاء الوقت خارجه، ما يُهمني أن يكون كل ذلك دون عتاب أو شكوى دائمة لأنني لا أستطيع التعامل مع هذا النوع من الإزعاجات›. قلت له: «حسنًا، أنا أعرف شخصًا يناسبك تمامًا إذا كنت لا تهتم بالمال، إنها شقيقة هارغريف، ميليسينت». طلب أن يتعرف إليها فورًا ويحصل عليها خاصة بعدما اختار صديقه القديم ترك المنصة. لذلك كما ترين يا هيلين، لقد تمكنت من إحراز النجاح بشكل جيد، سواء بالنسبة إلى صديقي أو صديقتكِ».

مسكينة ميليسنت! لا يمكنني أن أتخيل أنها ستُقاد في يوم من الأيام إلى قَبُول مثل هذا الخاطب، شخص أبغَضُ من أن يلائم أفكارها عن رجل يستحق التقدير والحب.

5 يوليو. أشعر بالحسرة الشديدة لأنني كنت مخطئة بشأن ميليسنت، لقد تلقيتُ منها رسالةً طويلة هذا الصباح تخبرني أنها مخطوبة بالفعل وتتوقع أن تتزوج قبل نهاية الشهر.

كتبتْ: «بالكاد أعرف ماذا أقول عن ذلك أو بمَ أفكر. لأقول لك الحقيقة يا هيلين لا أحب هذه الأفكار على الإطلاق. إذا كنتُ سأتزوج السيد هاترسلي فلا بد أن أحاول أن أحبه، وأنا بالفعل أحاول بكل قوتي. لكنني لم أحرز سوى القليل من التقدم حتى الآن، وأسوأ عوارض هذه الحالة أنه كلما ابتعد عني زاد حبي له. إنه يخيفني بسلوكه المفاجئ وطرقه الغريبة في التعامل معي، وأخشى الزواج منه».

«ستسألينني: «لماذا قبلتِ به إذًا؟»، حسنًا، الأمر هو أنني لم أكن أعلم أنني قبلته! ماما أخبرتني أنني فعلت، ويبدو أنه يعتقد ذلك أيضًا. بالتأكيد لم أقصد القيام بذلك، لكنني لم أود أن أعبر عن رفضي بشكل قاطع خوفًا من أن تحزن ماما وتغضب (لأنني كنت أعلم أنها تتمنى قَبُولي الزواج منه)، وأردت التحدث معها أولًا عن ذلك، لذلك منحته ما ظننت أنها إجابة مراوِغة وتميل إلى السلبية، لكنها تقول إنه كان جيدًا ويبدو قَبُولًا، وسيعتقد أنني متقلبةً إذا تراجعتُ بعد هذا. في الواقع، كنتُ مرتبكة وخائفة للغاية حينها وبالكاد استطعت قول ما قلته، لكنه في المرة التالية التي رأيته فيها أصبح يتعامل معي بثقة تامة على أنني خطيبته وبدأ على الفور في ترتيب الأمور مع ماما. لم تكن لدي الشجاعة لمناقضتها آنذاك، كيف بربكِ أفعل ذلك الآن؟ لا أستطيع، سيعتقدون أنني مجنونة. إلى جانب ذلك، ماما مسرورة جدًّا بفكرة ارتباطنا وتعتقد أنها نجحت في ترتيب الأمر بشكل جيد بالنسبة إليّ ولا أستطيع أن أتحمل تخييب أملها.

أعترض أحيانًا وأخبرها بما أشعر به لكنك لا تعرفين كيف تتحدث. السيد هاترسلي ـ كما تعلمين ـ هو ابن مصرفيٍّ ثريٍّ، وبصفتنا أنا وإستر دون ثروة

ووالتر يمتلك القليل، فإن والدتنا العزيزة حريصة جدًّا على رؤيتنا جميعًا متزوجين بشركاء جيدين ـ أي أغنياء. ليست هذه فكرتي الشخصية عن الزواج الناجح، لكني متأكدة من أنها تفعل كل ما في وسعها لمنحنا الأفضل. تقول إن ذلك سيكون مصدر ارتياح لها عندما أنتقل لبيت الزوجية، وتؤكد لي أن هاترسلي رجل جيد ومناسب لي. حتى والتر سعيد بهذا، وعندما اعترفتُ له بترددي قال إن كل هذا هراء صبياني.

هل تعتقدين أنه هراء يا هيلين؟ أعلم أنني لا يجب أن أهتم بهذا إذا كان بإمكاني رؤية أي احتمال لأن أحبه أوأعْجَبَ به.. لكن لا يمكنني ذلك هيلين، لا يوجد شيء فيه يجتذب احترامي وعاطفتي، إنه مخالف تمامًا لما تخيلت أن يكون عليه زوجي. اكتبي لي، وقولي لي كل ما تستطيعين به تشجيعي. لا تحاولي أن تثنيني لأن مصيري قد حُدِّد. الاستعدادات لليوم الكبير جارية بالفعل من حولي، ولا تقولي كلمة واحدة ضد السيد هاترسلي، لأني أريد أن أفكر في الأمر جيدًا، وعلى الرغم من أنني تحدثت ضده بنفسي فإن هذه هي المرة الأخيرة، من الآن فصاعدًا لن أسمح لنفسي أبدًا بالتلفظ بكلمة مسيئة عنه. على الرغم من أنه قد يبدو أنه يستحق ذلك، لكن من يجرؤ على الحديث باستخفاف عن الرجل الذي وعدت أن أحبه وأكرمه وأطيعه عليه أن يتوقع استيائي الشديد. بكل حال، أعتقد أنه رجل جيد مثل السيد هانتينغدون، إن لم يكن أفضل، ها أنتِ واقعة في حبه وتبدين سعيدة وراضية، ربما أتمكن أنا من تحقيق ذلك أيضًا.

أخبريني أن السيد هاترسلي أفضل مما يبدو عليه، أنه مستقيم، وشريف، ومنفتح القلب. في الواقع، قد يكون كما الماسّ الخام، قد يكون كل هذا، لكني لا أعرفه. أنا أرى فقط مظهره الخارجي الذي، حسب علمي إلى الآن، هو أسوأ جزء منه».

وتختتم بقولها: «وداعًا عزيزتي هيلين. أنتظر نصيحتك بفارغ الصبر، ولكن ضَعِي في اعتبارك أن تخبريني بحقيقة كل شيء».

آه يا ميليسنت المسكينة، ما هو التشجيع أو النصيحة التي يمكنني تقديمها لك؟ سوى أنه من الأفضل اتخاذ موقف شجاع الآن، وإن كان على حساب خيبة أمل وغضب الأم والأخ والأحبة، بدلًا من تكريس حياتكِ كلها فيما بعد للبؤس والندم؟

السبت 13 يوليو. انتهى الأسبوع ولم يعد. الصيف على وشك الانتهاء دون أن نستمتع به، كنت طوال الوقت أتطلع إلى هذا الموسم بأمل الاستمتاع به معًا، وأن يكون ـ بعون اللّٰه وجهودي ـ وسيلة لزيادة إدراكه وتهذيب ذوقه ليحظى بنعمة تقدير الطبيعة النقية والشعور بالسلام المقدس. لكن الآن، عندما أرى كتلة الشمس القانية تغرق بهدوء خلف تلك التلال تاركة إياها تغفو في ضباب دافئ وذهبي، أرى فقط أن يومًا جميلًا آخر قد ضاع مني ومنه.

في الصباح، أستيقظ على صوت زقزقة العصافير والتغريد المبهج للسنونوات وهي تطعم صغارها المملوئين بالحياة والفرح في أعشاشها، أفتح النافذة لاستنشاق النسيم البارد المنعش للروح، للاستمتاع بالمناظر الطبيعية وأشعة الشمس. كثيرًا ما أخجل وأنا أستقبل هذا المشهد الرائع بدموع البؤس، لأنني لا أشعر بتأثيره المنعش، وعندما أتجول في الغابة القديمة وألتقي بالزهور البرية الصغيرة التي تبتسم في طريقي، أو أجلس في ظل الأشجار بجانب البحيرة حيث تترجّح أغصانها بلطف في نسيم الصيف الخفيف الذي يتخلل أوراقها، تتسلل إلى أذني موسيقاها المرهفة وطنين الحشرات الحالم، وعيني تحدق إلى السطح الرقراق للبحيرة الصغيرة أمامي. الأشجار تتزاحم حول ضفتها، بعضها ينحني برشاقة لتقبيل مياهها، فيما البعض الآخر يرفع رأسه عاليًا بشموخ ويمد أذرعه العريضة حولها، كل ذلك ينعكس بوضوح على سطحها الزجاجي على الرغم من تكسّر تلك الصور جزئيًّا في بعض الأحيان بسبب حركة الحشرات المائية، وأحيانًا للحظة يرتعش كل المنظر المنعكس ويتحول إلى شظايا بفعل نسيم عابر يكتسح السطح. على الرغم

من كل هذه النعم ما زلت أفتقد السعادة، بل كلما زادت السعادة التي تضعها الطبيعة أمامي، حزنت على عدم وجوده معي هنا لتذوقها. كلما زاد النعيم الذي يمكننا التمتع به معًا، شعرت بمدى بؤسنا ونحن بعيدين بعضنا عن بعض (نعم، حياتنا بائسة على الرغم من عدم اعترافه بذلك)، وكلما سرّت حواسي ازداد اضطهاد قلبي، لأنه يبقيها معه محصورة وسط غبار ودخان لندن، ربما مغلقًا داخل جدران ناديه البغيض.

ولكن الأهم من ذلك كله هو الليل، عندما أدخل غرفتنا وأتطلع إلى قمر الليالي الصيفية: «وصيٍّ السماء الجميل»، وهو يطفو هناك في قبو السماء الأسود المزرقّ، يذرف الأشعة الفضية فوق الحدائق والغابات والمياه. نقي جدًّا، ومسالم جدًّا، وإلهيّ جدًّا، حينها أفكر أين تراه الآن؟ ماذا يفعل في هذه اللحظة؟ هل يدرك هذا المشهد العظيم؟ ربما كان ذلك مع رفاقه الـ.. آه! فليساعدني اللّٰه، هذا يفوق طاقتي، يفوق طاقتي كثيرًا!

23 يوليو. ـ الحمد للّٰه، لقد عاد أخيرًا! لكن كم يبدو متغيرًا! محموم وفاتر وواهن، تضاءلت وسامته بشكل غريب وتلاشت قوته وحيويته تمامًا. لم أُشعِره بهذا بالكلام أو النظر، لم أسأله حتى عما كان يفعله. لا أملك قوة قلبية للقيام بذلك لأني أعتقد أنه خجلٌ من نفسه، ولا بد أن يكون كذلك. ثم إن مثل هذه الاستفسارات ستكون مؤلمة لكلينا. يقول إنه سعيد بالعودة إلى المنزل، واللّٰه يعلم مدى سعادتي بذلك حتى وهو بهذه الحالة. يستلقي على الأريكة طوال اليوم تقريبًا وأنا أسلّيه، أغني له، أكتب له رسائله، أقدم له ما يطلب، أحياناً أقرأ له أو أتحدث معه، أو حتى أجلس بجانبه وأشاغبه بالمداعبات الصامتة. أعلم أنه لا يستحق ذلك وأخشى أنني أُفسده، لكنني قررت أن أسامحه هذه المرة بشكل تام وأُخجِله بطيبتي إذا استطعت، ولن أدعه يتركني هكذا مرة أخرى.

إنه سعيد باعتنائي به وقد يكون ممتنًّا، من الواضح أنه يحب أن يكون

بالقرب مني، وعلى الرغم من أنه يغضب ويتعامل بلؤم مع خدمه وكلابه فإنه دائم اللطف معي. كيف له ألّا يتعامل معي كذلك ما دمت أراعي رغباته بدقة شديدة وأتجنب بل أمتنع مطلقًا عن فعل أي شيء من شأنه أن يضايقه أو يزعجه، مهما كان السبب تافهًا. كم تمنيت لو أنه كان يستحق كل هذه الرعاية، الليلة الماضية بينما كنت جالسة بجانبه ورأسه في حضني وأمرر أصابعي في شعره الجميل، فاضت عيني بالدموع وأنا أفكر بهذا الأمر كما يحدث غالبًا، ولكن هذه المرة سقطت دمعة على وجهه وجعلته ينظر إلى أعلى.

ابتسم بصدق وقال: «لماذا تبكين يا غاليتي؟ تعلمين كم أحبك (وضغط بيدي على شفتيه المحموومتين)، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟».

«أن تحب نفسك بحق وصدق كما تحبني. فقط هذا يا آرثر».

«سيكون ذلك صعبًا!»، أجاب وهو يضغط برفق على يدي.

24 أغسطس. عاد آرثر لطبيعته مرة أخرى، مفعمًا بالحيوية والتهور في القلب والرأس أكثر من أي وقت مضى، لا يهدأ وتصعب تسليته كما طفل مدلل ومملوء بالأذى أيضًا، خاصةً عندما يبقيه الطقس الممطر في المنزل. أتمنى أن يكون لديه ما يفعله، بعض التجارة المفيدة، مهنة أو وظيفة ما، أي شيء يشغل رأسه أو يديه لبضع ساعات في اليوم، ويمنحه شيئًا غير متعته للتفكير فيه. لا يعرف شيئًا عن الزراعة ولا يفكر في ذلك. لمّا كان يحب الموسيقي كثيرًا اقترحت عليه تعلم العزف على البيانو، أو أن يبدأ في دراسة أدبية أو يتعلم الرسم، لكنه بعيد جدًّا عن احترام الالتزام، فكرته عن بذل الجهد لا تتجاوز كبح جماح شهيته الطبيعية. والده القاسي والمهمل وأمه المتساهلة بإفراط هما المتهمان الرئيسان في هذه الجريمة. إذا كنت أمًّا فسأكافح بكل قوتي ضد الإفراط في التساهل. لا أستطيع أن أصفها بأقل من ذلك عندما أفكر في الشرور التي جلبتها له.

لحسن الحظ سيحل موسم الصيد قريبًا، وحينها ـ إذا سمح الطقس ـ

سيجد فرصة كافية لمطاردة الحجل والدراج، أو ربما يُشغَل بأمور مماثلة في وقت كهذا، بدلًا من الاستلقاء تحت شجرة الأكاسيا وسحب آذان داش المسكين. يقول إن ذهابه للصيد وحده ممل، لا بد من وجود صديق أو اثنين.

«فليكونوا لائقين إذن آرثر».

كلمة «صديق» في فمه تجعلني أرتجف، أعلم أن بعض «أصدقائه» هم الذين دفعوه إلى البقاء في لندن لفترة طويلة. في الواقع، أشك أحيانًا أنه كثيرًا ما أطلعهم على رسائلي، ليريهم مدى اشتياق زوجته له وحزنها لغيابه، وأنهم حملوه على البقاء أسبوعًا بعد أسبوع، والانغماس في كل أنواع التجاوزات، ورضخ لهم تجنبًا للعُرضَة لسخريتهم ووصفه بالأحمق الذي تتحكم فيه زوجته. إنها فكرة بغيضة نعم، لكنني لا أستطيع إقناع نفسي أنها فكرة خاطئة.

أجاب: «حسنًا، لقد فكرت في اللورد لوبورو كواحد. لكن لا توجد إمكانية لحضوره دون شريكته، صديقتنا المشتركة أنابيلا، لذلك علينا دعوتهما معًا. أنت لا تنزعجين منها، أليس كذلك هيلين؟»، سأل مع وميض جارح في عينيه.

أجبته: «بالطبع لا. لماذا عليّ أن أفعل؟ ومن غيرهما؟».

«هارغريف سيكون سعيدًا بالمجيء على الرغم من أن مكانه قريب جدًّا لأنه لا يملك سوى مساحة صغيرة من الأرض الخاصة به لممارسة الصيد، وهو محترم تمامًا كما تعلمين يا هيلين. أعتقد انني سأدعو غريمسبي أيضًا بالنسبة إلى شخص إضافي، إنه شخص محترم وهادئ بما فيه الكفاية. هل من اعتراض على غريمسبي؟».

«أنا أكرهه، ولكن إذا كنتَ راغبًا في دعوته، فسأحاول تحمل وجوده لبعض الوقت».



«هذا تحامل غير منطقي يا هيلين».

« بل لدي أسباب قوية لكرهي له. هل هذا كل شيء؟».

«نعم أعتقد ذلك. سوف يكون هاترسلي مشغولًا للغاية في هذه الفترة، حيث سيكون لدى عروسه الكثير من الوقت لتجنيبه الأسلحة والكلاب في الوقت الحاضر».

هذا يذكرني أنني تلقيت عدة رسائل من ميليسنت منذ زواجها. إما أنها تقول بالفعل ما تشعر به، وإما أنها تتظاهر بذلك، فهي تدّعي أنها اكتشفت خصالًا لا حصر لها في زوجها، وأنها الآن بعد أن اعتادت نبرته العالية، وسلوكه المتهور وغير اللائق، تؤكد أنها عادت لا تجد صعوبةً في حبه كما ينبغي أن تفعل الزوجة، وتتوسلني أن أحرق تلك الرسالة التي تحدّثَتْ فيها عنه بشكل سيئ. ربما تكون سعيدة كما تقول، ولكن ـ إن كانت كذلك ـ فسيكون ذلك بسبب نقاء قلبها، لأنها لو اختارت أن تعتبر نفسها ضحية القدر أو ضحية حكمة والدتها الدنيوية، لربما كانت الآن بائسة للغاية. إذا لم تبذل قصارى جهدها لكي تحب زوجها، على الأقل من أجل الواجب، لكانت بلا شك تكرهه حتى نهاية أيامها.

الفصل السادس والعشرون

23 سبتمبر. وصل ضيوفنا منذ حوالي ثلاثة أسابيع. اللورد والليدي لوبورو متزوجان منذ ثمانية شهور وسأمنح السيدة الفضل لأقول إن زوجها يبدو رجلًا مختلفًا تمامًا، تغيرت معنوياته ومزاجه بشكل ملموس وحتمًا نحو الأفضل منذ رأيته آخر مرة، لكن ما يزال هناك مجال للتحسين. لا يبدو أنه مستمتع بوقته أو راضٍ غالب الوقت، وكثيرًا ما تشتكي من سوء مزاجه، الأمر الذي يجب أن تكون هي آخر من يتهمه به، لأنه لم يظهره أبدًا تُجاهها لأنه كان يعاملها معاملة القدّيسة، ما زال يعشقها ومستعدًّا للذهاب إلى نهاية العالم لإرضائها. هي بدورها تعرف قوتها وتستخدمها أحيانًا، لكنها تعلم جيدًا أن الإقناع أكثر أمانًا، فهي تغريه بالتملق والفتنة بما يكفي لجعله يعتبر نفسه رجلًا محظوظًا وسعيدًا، لكن لديها طريقة في تعذيبه تجعل أي شخص معهما أيضًا يعاني.. أو قد أكون أنا فقط على هذا النحو. تفعل ذلك عن طريق التدليل العلني ـ لكن ليس بشكل صارخ ـ مع السيد هانتينغدون المستمتع تمامًا بمشاركتها هذه اللعبة، لكني لا أهتم بذلك كثيرًا لأنني أعرف أن لا شيء خلف تصرفه هذا سوى نرجسيته ورغبته الخبيثة في إثارة غيرتي وربما تعذيب صديقه، وهي دون شك مدفوعة بنفس الدوافع بفارق واحد، وهو أن هناك حقدًا أكثر ومرحًا أقل في مناوراتها. من الطبيعي إذن أن أحبطهما ـ على الرغم من شعورِيَ بالقلق أحيانًا ـ من خلال الحفاظ على هدوئي طَوَال الوقت، وبناءً عليه أسعى إلى إظهار الثقة الكاملة بزوجي وأقصى لا مبالاة بألاعيب ضيفتي الخبيثة. لم أُلم آرثر إلا مرة واحدة وكان ذلك بسبب حالة

اللورد لوبورو المكتئب والقَلِق ذات مساء عندما كانا كلاهما يستفزانه بشكل خاص، بعدها تكلمت معه كثيرًا عن هذا الموضوع ووبخّته بشدة على تصرفه لكنه ضحك قائلًا: «يمكنكِ أن تشعري به أكثر من الجميع يا هيلين، أليس كذلك؟».

أجبته: «يمكنني أن أشعر بالتعاطف مع أي شخص يُعَرّض لمعاملة غير عادلة، ويمكنني أن أشعر بأولئك الذين يؤذونهم أيضًا».

«لماذا يا هيلين، هل تغارين مثله؟» وضحك بهستيرية. أعتقد أنه من المستحيل أن يشعر بمدى خطئه، لذلك منذ ذلك الوقت امتنعت عن تنبيهه على أي شيء يتعلق بهذا الموضوع مهما كان، وتركت اللورد لوبورو يعتني بشأنه بنفسه. على الرغم من أنه يحاول إخفاء عدم ارتياحه ومزاجه السيئ قدر استطاعته، فإن ذلك يظهر جليًّا على ملامحه. أعترف على الرغم من ذلك أنني أشعر بالغيرة تنهشني وبصورة مؤلمة ومريرة، عندما تغني وتعزف له ويتكئ فوق البيانو مأخوذًا بصوتها دون أي اهتمام بمن حوله، لأني أرى حينها كيف يبدو منتشيًا ومستمتعًا حقًّا في حين ليست لديّ القدرة على إيقاظ نفس الحماسة فيه. بإمكاني أن أسلّيه وأُرضيه بأغنيّاتي البسيطة لكني لا أفرحه هكذا.

28 سبتمبر. ذهبنا أمس جميعًا إلى منزل السيد هارغريف الذي أُهمِلَ كثيرًا. دعتنا والدته أكثر من مرة حتى تسعد باستقبال أصحاب ابنها العزيز، هذه المرة دعتنا إلى حفل عشاء جمعت فيه أكبر عدد ممكن من طبقة النبلاء الذين كانوا في متناول يدها لمقابلتنا. كان الحفل ممتعًا جدًّا لكنني لا أستلطف السيدة هارغريف. إنها امرأة صلبة، ومزعجة، وذات عقلية دنيوية. لديها المال الكافي لتعيش بشكل مريح للغاية إذا عرفت فقط كيفية استخدامه بحكمة وعلّمت ابنها أن يفعل الشيء نفسه، لكنها تبذل جهدًا مضنيًا دائمًا لمواكبة المظاهر بذلك التفاخر الحقير الذي يتجنب أي شيء يرتبط بالفقر

باعتباره جريمة مخزية. تقرص وتهين خدمها وتحرم بناتها ونفسها من وسائل الراحة الحقيقية في الحياة، لأنها لا تريد الكف عن الظهور بمظهر لائق لأولئك الذين لديهم ثلاثة أضعاف ثروتها، وفوق كل شيء، لأنها مصممة على تمكين ابنها العزيز من «رفع رأسه مع أعلى السادة في الأرض». هذا الابن نفسه ـ كما أرى ـ رجلٌ ذو عادات باهظة بدوره. ليس بمبذّر متهور ولا عابث، لكنه شخص يحب أن يكون لديه «كل شيء جميل»، وأن لا يتعدى حدًّا معين من الانغماس الشبابي للحفاظ على سمعته كرجل وزميل محترم بين رفاقه العابثين، في حين أنه أناني للغاية بحيث لا يفكر في وسائل الراحة التي يمكنه توفيرها لأمه وشقيقتَيه بالمال الذي يضيعه على نفسه. لمّا كنّ قادراتٍ على الظهور بمظهر محترم عندما يزرن المدينة، فلا يقلق بشأنهن كثيرًا. قد يبدو هذا الحكم قاسيًا على «والتر العزيز، والنبيل، وكريم القلب»، لكنني أخشى أنه منصف للغاية.

قَلَقُ السيدة هارغريف فيما يتعلق بتزويج ابنتيها هو سبب حدوث هذه الأخطاء ونتيجتها، من خلال صنع شخصياتهن وإظهارهن وعرضهن بشكل معين فإنها تأمل في الحصول على فرص أفضل لهن وبهذا تعيشان ببذخ وتنفقن على أخيهن. أخشى أن ميليسنت المسكينة قد وقعت بالفعل ضحية لمناورات هذه الأم التي تهنئ نفسها على أداء واجبها بشكل بارع، وتأمل أن تفعل الأمر ذاته لإستر. إستر فتاة في الرابعة عشرة من العمر، صادقة وبريئة وبسيطة مثل شقيقتها، لكن بروح شجاعة تميزها منها، أتخيل أن والدتها ستجد بعض الصعوبة في جعلها ترضخ لها.

الفصل السابع والعشرون

9 أكتوبر. في ليلة الرابع من أكتوبر، بعد تناول الشاي بقليل بدأت أنابيلا بالغناء والمزاح المعتاد مع آرثر بجانبها، أنهت أغنيتها هذه المرة لكنها بقيت جالسة عند البيانو ووقف هو متكئًا على ظهر كرسيها ويتحدث بصوت عالٍ ووجهه قريب جدًّا من وجهها. نظرتُ إلى اللورد لوبورو، كان في الطرف الآخر من الغرفة يتحدث مع السادة هارغريف وغريمسبي، لكنني رأيته يرمق سيدته ومضيفه بنظرة سريعة، معبرة عن القلق الشديد ونفاد الصبر، في حين كان غريمسبي مبتسمًا. عاقدة العزم على مقاطعة هذه المواجهة المحتملة، نهضتُ واخترتُ قطعةً موسيقية من منصة الموسيقى وذهبت لأطلب من السيدة عزفها، لكنني وقفت مذهولة وغير قادرة على الكلام عند رؤيتها جالسة هناك، تصغي بابتسامة ملأت وجهها المتورد إلى همهمة ناعمة يلقيها آرثر في أذنها، ويدها غافية بهدوء في قبضته. اندفع الدم إلى رأسي وأنا أرى أن هناك أكثر من ذلك، ففي لحظة اقترابي ألقى نظرة فاحصة سريعة فوق كتفه تجاه الآخرين، ثم ضغط بيدها على شفتيه وعندما رفع عينيه رآني وألقى بها مرتبكًا وفزعًا. لقد رأتني أيضًا لكنها واجهتني بنظرة متحدّية. وضعت القطعة الموسيقية التي اخترتها على البيانو وابتعدت عنهما، كنت أشعر بالإعياء لكنني لم أغادر الغرفة. لحسن الحظ، كان الوقت متأخرًا بالفعل ولم يمضِ وقتٌ طويل قبل مغادرة الجميع للنوم.

ذهبت إلى حيث المدفأة وألقيت رأسي على حافَتِها. في غضون دقيقة أو دقيقتين سألني صوت أحدهم إذا كنت أشعر بتوعك. لم أجب، في الواقع

لحظتها لم أعِ ما قيل لي، لكنني نظرت إلى الأعلى بشكل ميكانيكي ورأيت السيد هارغريف يقف بجانبي.

«هل أحضر لكِ كأسًا من النبيذ؟»، قال.

أجبته: «لا شكرًا»، وعندما استدرت ونظرت حولي كانت السيدة لوبورو بجانب زوجها، تنحني فوقه وهو جالس ويدها على كتفه، تتحدث بهدوء وتبتسم في وجهه، وآرثر يقلب كتابًا على الطاولة. أجلستُ نفسي على أقرب كرسي. السيد هارغريف الذي وجد خدماته غير مرغوبة انسحب بحكمة. بعد فترة وجيزة بينما بدأ الجميع بالمغادرة إلى غرفهم، اقترب آرثر مني مبتسمًا بأقصى درجات الثقة.

«هل أنت غاضبة يا هيلين؟»، تمتم.

قلت بهدوء وجدية: «هذه ليست مزحة يا آرثر. إلا إذا كنت تعتقد أنه من المضحك جدًّا أن أفقد عاطفتي لك إلى الأبد».

«ماذا؟ هل الأمر مرير لهذه الدرجة؟»، صرخ ضاحكًا وهو يمسك يدي بين يديه، لكنني انتزعتها في سخط ـ بل في حالة اشمئزاز تقريبًا ـ لأنه من الواضح أنه كان ثملًا.

قال: «هل يجب أن أنزل على ركبتيّ»، ركع أمامي بيدين مشدودتين ومرفوعتين بإذلال زائف وهو يواصل الاستهزاء: «سامحيني يا هيلين ـ أتوسلكِ حبيبتي هيلين، اغفري لي، لن أفعل ذلك مرة أخرى أبدًا»، ودفن وجهه في منديله لينوح نوحًا زائفًا بصوت عالٍ.

تركته وأخذت شمعتي وغادرت الغرفة بهدوء وسرعة لصعود السلم بأسرع ما يمكن، لكنه سرعان ما اكتشف أنني تركته واندفع ورائي، أمسك بي بين ذراعيه في اللحظة التي دخلت فيها الغرفة وكنت أهم بإغلاق الباب في وجهه.

«لا لا، هيا بربكِ لا تهربي مني هكذا»، صاح بي. بعد ذلك وخوفًا من هيجاني توسل ألّا أستسلم لمثل هذا الغضب وأخبرني أن وجهي يبدو شاحبًا جدًّا وسيقتل نفسه إذا كان ذلك بسببه.

تمتمت: «دعني أذهب أرجوك»، وعلى الفور أطلق سراحي. كان ذلك جيدًا لأنني كنت حقًّا غاضبة. جلست على الكرسي وحاولت تهدئة نفسي لأنني أردت التحدث إليه بهدوء. وقف بجانبي لكنه لم يجرؤ على لمسي أو التحدث لبعض الوقت، ثم اقترب قليلًا وجلس على ركبة واحدة ليصبح في مستواي ووضع يده على ذراع الكرسي. تحدث بصوت منخفض: «كل هذا هراء يا هيلين، مزحة فقط، إنه لا شيء ولا يستحق التفكير»، وتابع بجرأة أكبر: «متى تتعلمين أنه ليس لديكِ ما تخشينه فيما يتعلق بي؟ إنني أحبك بشكل تام ومطلق؟ وإذا ـ أضاف بابتسامة ـ فكرتُ في أخرى يمكنكِ أيضًا تجاهل الأمر، لأن هذه الأفكار تأتي وتختفي مثل وميض البرق، في حين أن الحب لك يحترق بثبات وإلى الأبد مثل الشمس. أيتها الطاغية الصغيرة الـ..».

«اصمت للحظة يا آرثر واسمعني. لا تظن أنني أشعر بالغضب بسبب الغيرة، أنا هادئة تمامًا. مددتُ يدي نحوه وضممت يده بقوة بدت أنها دحضت تأكيدي وجعلته يبتسم».

«لا داعي إلى الابتسام يا سيدي»، قلت له وأنا ما زلت قابضةً على يده وأتطلع إليه بثبات، «قد تعتقد أنه أمر عاديّ يا سيد هانتينغدون أن تقوم بتسلية نفسك بإثارة غيرتي، لكنِ احذر من إثارة كراهيتي بدلًا من ذلك. عندما ينطفئ الحب ستجد أنه ليس من السهل إشعاله مرة أخرى».

«حسنًا يا هيلين، لن أكرر ما حدث. لكنني صدقًا لم أقصد شيئًا به، أؤكد لك. لقد تناولت الكثير من النبيذ ولم أكن على طبيعتي في ذلك الوقت».

«كثيرًا ما تبالغ في احتساء النبيذ، وهذه ممارسة أخرى أكرهها». نظر إليّ مندهشاً. «نعم، لم أذكرها من قبل لأنني كنت أشعر بالخجل منك، لكنني الآن

أخبرك أن هذا يزعجني، ويثير اشمئزازي إذا واصلت الكذب محتمِيًا به، لأن سلوكك العام والدائم تجاه السيدة لوبورو لا يشير إلى فِعل النبيذ، ثم إنك هذه الليلة كنت تعرف جيدًا ما كنت تفعله».

أجاب: «حسنًا، أنا آسف لذلك»، باستهزاء أكثر من الندم، «ما الذي تطلبينه أكثر من ذلك؟».

أجبت ببرود: «أنت تعتذر فقط لأنني رأيتك».

تمتم وهو مثبت عينيه على الأرض: «لو لم ترَيني، ما كان ذلك ليؤذي أحدًا».

شعرت أن قلبي على وشك الانفجار لكنني ابتلعت مشاعري بحزم وأجبت بهدوء: «ألا تعتقد ذلك؟».

أجاب بجرأة: «لا. وعلى كل حال ماذا فعلت؟ لا شيء باستثناء ما تختارين جعله موضوع اتهام وضيق».

«بماذا سيفكر اللورد لوبورو، صديقك، إذا عرف؟ كيف تنظر أنت إلى الموقف إذا كان هو أو أي شخص آخر قد قام بنفس الدور معي طوال الوقت كما تفعل مع أنابيلا؟».

«كنت سأفجر رأسه».

«حسنًا إذن آرثر، كيف يمكنك أن تسمّيها لا شيء؟ هل تعتقد أن الإهانة البسيطة مبررٌ لتفجير رأس رجل آخر؟ ألا ترى أنه من العبث التلاعب بمشاعر صديقك ومشاعري، ومحاولة سرقة مشاعر المرأة من زوجها، الأمر الذي يقدّره أكثر من كل ثرواته؟ هل نذور الزواج بنظرك مزحة؟ أليس هناك ما يمتّعك غير إفسادها وإغراء الآخرين لفعل الشيء نفسه؟ هل يمكنني أن أحب رجلًا يفعل مثل هذه الأشياء، وأصر على أنها لا شيء؟».

قال بسخط وهو ينهض: «أنت من تفسدين عهود زواجكِ بنفسك. لقد

وعدتني أن تكرميني وتطيعيني، والآن تحاولين أن تهدديني وتتهميني بصفات أبشع من صفات قطاع الطرق. لولا وضعكِ يا هيلين لما استسلمت وتعاملت بهذه الطريقة. لن تملِي عليّ امرأة أوامرها حتى لو كانت زوجتي».

«إذًا ماذا ستفعل؟ ستستمر بما تفعله إلى أن أكرهك، ثم تتهمني بأنني أخالف نذوري؟».

سكت لحظة ثم قال: «لن تكرهيني أبدًا». عاد إلى مكانه السابق عند قدمي وكرر بحماسة عاطفية: «لا يمكنك أن تكرهيني ما دمت أحبك».

«ولكن كيف يمكنني أن أصدق أنك تحبني إذا واصلت التصرف بهذه الطريقة؟ فقط ضع نفسك مكاني، هل تعتقد أنني أحبك بحق إذا فعلت ذلك؟ هل ستصدق احتجاجي وتتشرف وتثق بي في ظل هذه الظروف؟».

أجاب: «القضايا هنا مختلفة. من طبيعة المرأة أن تكون ثابتة، أن تحب شخصًا واحدًا فقط، بشكل أعمى، وبحنان يدوم إلى الأبد. هذه المخلوقات العزيزة مبارَكة وأنت تتفوقين عليها جميعًا، لكن لا بد أن تمنحينا نحن الرجال فرصة أيضًا يا هيلين، لأنه كما قال شكسبير:

على الرغم من مديحنا لأنفسنا

فإن خيالاتنا أكثر تشوشًا وعدم ثباتٍ،

أكثر شوقًا، وترددًا، وضياعًا، وتهالكًا عاجلًا،

من النساء».

«هل تقصد بذلك أن خيالاتك عني ضاعت، وفازت بها السيدة لوبورو؟».

«لا. يشهد اللّه أنها بالنسبة إليّ مجرد ترابٍ ورماد مقارنة بكِ، وسوف أستمر في الإيمان بذلك. هي ابنة الأرض وأنت ملاك السماء. ليتكِ فقط لا تكونين صارمة جدًّا في لاهوتكِ وتتذكرين أنني مسكين فانٍ وغير معصوم. هيا الآن هيلين، ألا تسامحينني؟»، قال وهو يحتضن يدي بلطف وينظر إليّ بابتسامة صادقة.

«إذا قمتَ بذلك مجددًا يا آرثر، فسوف تكرر الإساءة».

«أقسم بـ».

«لا تقسم، لأنني سأصدق كلمتك وقسمك. ليت لدي ثقة في أي منهما».

«جربيني إذن هيلين، ثقي فقط واسمحي لي بهذه المرة وسترين! هيا، أنا في عذاب إلى أن تنطقيها».

لم أقلها، لكنني وضعت يدي على كتفه وقبلت جبهته ثم انفجرتُ في البكاء وعانقني بحنان. منذ ذلك الحين أصبحنا أصدقاء حميمين. أصبح عاقلًا ولائقًا على الطاولة وتجاه السيدة لوبورو. في اليوم الأول نأى بنفسه بعيدًا عنها بقدر ما استطاع دون أي انتهاك لحسن الضيافة، كان ودودًا ومتحضرًا وليس أكثر من ذلك ـ في حضوري على الأقل. ولا أعتقد أن تعامله معها في غيابي كان مختلفًا، لأنها تبدو متغطرسة ومستاءة ومن الواضح أن اللورد لوبورو أصبح أبهج وأكثر ودية تُجاه مضيفه من ذي قبل. لكنني سأكون سعيدة أكثر عندما يرحلون لأنني لا أستلطف أنابيلا، مع ذلك من المهم أن أتعامل معها بلباقة واحترام لأنها المرأة الوحيدة هنا باستثنائي، وبطبيعة الحال نلتقي باستمرار. في المرة القادمة التي تتصل فيها السيدة هارغريف سأدعوها وأخبرها أن قدومها سيكون مصدر ارتياح وفرح كبير لنا، سأطلب إذن من آرثر أن يدعو السيدة العجوز للبقاء معنا حتى مغادرة ضيوفنا. أعتقد أنها ستقبل دعوتي بطيب خاطر، وعلى الرغم من أنني لا أستمتع كثيرًا برفقتها، فإنها ستكون موضع ترحيب حقيقي للوقوف بيني وبين ليدي لوبورو.

كانت المرة الأولى التي أكون فيها مع الأخيرة وحدنا، بعد تلك الأمسية غير السعيدة، لساعة أو ساعتين بعد الإفطار في اليوم التالي بعد خروج السادة. بعد الوقت المعتاد في كتابة الرسائل وقراءة الصحف والمحادثات المتقطعة. جلسنا صامِتَتَيْن لبعض الوقت. كانت جالسةً دون فعل شيء، وكنتُ أتظاهر بقراءة صحيفة كنتُ قد أتممت قراءتها بالتفصيل قبل نحو عشرين دقيقة.

كانت لحظاتٍ مربكة بالنسبة إليّ، واعتقدتُ أنها لا بد أن تكون أكثر من ذلك بالنسبة إليها، لكن يبدو أنني كنت مخطئة، لأنها كانت أول من تحدث وبابتسامة عريضة:

«زوجكِ كان مرحًا جدًّا الليلة الماضية هيلين، هل هو كذلك دائمًا؟».

كان دمي يغلي ولكن كان من الأفضل نسب سلوكه إلى هذا الأمر أكثر من أي شيء آخر.

أجبتها: «لا. ولن يعود إلى ذلك مرة أخرى أبدًا».

«ألقيتِ عليه محاضرة توبيخ، أليس كذلك؟».

«لا، قلت له إنني أكره هذا السلوك فحسب، ووعدني بعدم تكراره».

تابعَت: «نعم، شعرتُ أنه بدا هادئًا إلى حد ما هذا الصباح، وأنتِ يا هيلين، لقد كنت تبكين. أعلم أن البكاء هي وسيلتنا الأعظم، لكن هل يحقق لكِ التأثير المطلوب دائمًا؟».

«أنا لا أبكي أبدًا من أجل التأثير ولا أستطيع تخيل كيف يمكن لأي شخص أن يفعل».

«حسنًا، أنا لا أعرف عن ذلك لأنني لم تُتَحْ لي الفرصة أبدًا لتجربته، لكنني أعتقد أنه إذا ارتكب لوبورو مثل هذه المخالفات فسوف أجعله هو من يبكي. لا أتعجب من غضبكِ فأنا أنوي قريبًا تلقين زوجي درسًا لا يُنسى بسبب مخالفة أخف من تلك التي ارتكبها زوجك، وبعد ذلك لن يجرؤ على تكرار فِعلٍ من هذا القبيل، لأنني سأحرص على إبقائه في حالة شبع».

«هل أنت متأكدة من أنكِ لا تنسبين الكثير من الفضل إلى نفسكِ هنا؟ كان اللورد لوبورو رائعًا بسبب امتناعه عن تناول المسكرات لبعض الوقت قبل أن تتزوجيه كما سمعت».

«أوه! إن كنتِ تقصدين ما يتعلق بالنبيذ فهذا صحيح وهو في أمان، وفيما

يتعلق بالنظر إلى امرأة أخرى فهو أيضًا في أمانٍ كافٍ ما دمتُ على قيد الحياة، لأنه يعبد الأرض التي أسير عليها».

«وهل أنت متأكدة من أنكِ تستحقين ذلك؟».

«لم لا؟ في النهاية جميعنا مخلوقات غير معصومة يا هيلين ولا أحد يستحق أن يُعبد. مع ذلك، هل أنت متأكدة أن حبيبك هانتينغدون يستحق كل هذا الحب الذي تمنحينه له؟».

لم أكن أعرف بمَ أجيب عن ذلك. كنت أحترق من الغضب. لكني قمعت كل المظاهر الخارجية لذلك وتظاهرت بالانشغال.

استأنفتْ حديثها قائلة: «على كل حال، يمكنكِ التأكد أنكِ تستحقين كل الحب الذي يمنحه لك».

قلت: «من الواضح أنكِ تتملقيني، لكني على الأقل يمكنني أن أحاول أن أكون جديرة بذلك». ثمّ غيّرت الحديث.

الفصل الثامن والعشرون

25 ديسمبر 1823. مضى عام آخر. صغيري آرثر يكبر ويتمتع بصحة جيدة، لكنه ليس قويًّا كمن هم في عمره. مملوء بالمرح والحيوية، لطيف وعاطفيّ للغاية، ويستغرق وقتًا طويلًا قبل أن يجد الكلمات المناسبة للتعبير عنها. استولى على قلب أبيه منذ ولد، والآن رهابي المستمر هو من أن يفسده تساهل هذا الأب الطائش، ولا أنكر في ذات الوقت أنني لا بد أن أحذَرَ من ضعفِيَ كأمّ أيضًا، لأنني لم أتصور حتى الآن مدى قوة الإغراءات التي تواجه الوالدين لإفساد طفل وحيد.

أرى العزاء في ابني لأنني (في هذه الورقة الصامتة أعترف بها) لا أتلقّى سوى القليل من زوجي. ما زلت أحبه وهو يحبني بطريقته الخاصة المختلفة، ويا له من اختلاف شاسع وموجع عن الحب الذي تمنيت تقديمه وتلقيه! يا لشحّ العاطفة الحقيقية بيننا، كم من أفكاري ومشاعري أحتفظ بها منعزلة في ذهني بشكل كئيب، أشعر بأنني محكوم عليّ إما أن أصبح قاسية ومريرة في ظل هذه الوَحْدة، أو أن أتدهور تمامًا وأهوي في هذه البيئة غير الصحية. مع ذلك أعود وأكرر أنه ليس لي الحق في الشكوى، أرغب فقط في تدوين الحقيقة ـ شيء من الحقيقة على الأقل ـ وسنرى فيما بعد إذا كانت هناك حقائق قاتمة إضافية ستلطخ هذه الصفحات. لقد كنا متحدَّيْن بالكامل لعامين، لذا وجب التخلص من «الرومانسية» في تعاملنا معًا، وبالطبع لقد وصلت الآن إلى أدنى درجة في عاطفة آرثر واكتشفت كل شرور طبيعته، إذا كان هناك أي تغيير آخر فلا بد أن يكون للأفضل، لأننا أصبحنا أكثر اعتيادًا بعضنا تجاه بعض وبالتأكيد

لن نصل إلى أدنى من هذه الدرجة، وإذا كان الأمر كذلك يمكنني أن أتحمله بشكل جيد، على الأقل كما تحملته حتى الآن.

لأكون منصفةً في حقه، آرثر ليس ما يطلق عليه عادة بالرجل السيئ، فهو يمتلك العديد من الصفات الحميدة، لكنه رجل يفتقد ضبط النفس وعاشقٌ للمتعة بشكل مزعج. ليس زوجًا سيئًا لكن مفاهيمه عن الواجبات الزوجية ووسائل الراحة مختلفة تمامًا عن مفاهيمي. انطلاقًا من الأعراف والمظاهر فإن فكرته عن الزوجة هي امرأة تحب بإخلاص، تبقى في المنزل في انتظار زوجها لتسليته وخدمة راحته بكل الطرق الممكنة، في حين له الخيار في البقاء معها أو عدمه، وفي حالة غيابه تهتم بمنزله ومصالحه وما إلى ذلك وتنتظر بصبر عودته مهما كان مشغولًا في هذه الأثناء.

في أوائل الربيع أفصح عن نيته الذهاب إلى لندن، قال إن شؤونه هناك تتطلب حضوره وعاد لا يكون بإمكانه رفض ذلك. أعرب عن أسفه لأنه مضطر إلى تَرْكِي مع أمله بأن أستمتع بوقتي مع الطفل حتى يعود.

«لكن لماذا تتركني هنا؟ يمكنني الذهاب معك، يمكنني أن أجْهَزَ في أي وقت».

«أنت لا تفكرين بأخذ الطفل إلى المدينة، أليس كذلك؟».

« لم لا؟».

كانت حججه سخيفة وواهية. كرر أن أجواء المدينة مختلفة بالنسبة إليه، وبالنسبة إليّ كأم لطفل صغير، الساعات المتأخرة وعادات لندن لن تناسبني في ظل هذه الظروف وأكّد لي أنها ستكون مزعجة للغاية وضارة وغير آمنة. تجاوزت كل اعتراضاته قدر استطاعتي لأنني كنت أرتجف غضبًا واضطرابًا من فكرة ذهابه بمفرده، وكنت مستعدةً لفعل كل ما في وسعي لمنع ذلك، لكنه أخبرني بإسهاب وصراحة أنه لا يستطيع أخذنا لأنه يحتاج إلى بعض الهدوء والراحة لأنه كان يشعر بالإنهاك من إزعاجات الطفل الليلية. اقترحتُ عليه أخذ شقةٍ منفصلة لكنه رفض.

قلتُ أخيرًا: «الحقيقة يا آرثر هي أنك سئمت مني وعقدت العزم على ضرورة إبقائي هنا. لو أنك قلت هذا من البداية». أنكرَ ذلك، لكنني غادرت الغرفة على الفور متوجهة إلى غرفة الطفل لإخفاء مشاعري لأنني فشلت في تهدئة نفسي أمامه.

كان ألمي أكبر من أن أعبّر عن أي استياء آخر أو الرجوع بأي شكل إلى الموضوع مرة أخرى، باستثناء ما يتعلق بالترتيبات اللازمة لمغادرته وتسيير الأمور أثناء غيابه. في اليوم السابق لمغادرته، بينما كنت أحثه على الاعتناء بنفسه، ضحك على قلقي وهو يؤكد أنه لا يوجد سبب لذلك ووعد بالالتزام بنصائحي.

«أعتقد أنه لا فائدة من مطالبتك بتحديد يوم من أجل عودتك، أليس كذلك؟»، سألته.

«لا أستطيع تأكيد ذلك في ظل هذه الظروف، ولكن اطمئني يا حبيبتي، لن أطيل الغياب».

أجبته: «لا أريد أن أبقيك سجينًا في المنزل يا آرثر، ولا أريد أن أتذمر من بقائك بعيدًا طوال أشهر ـ إذا كان يسعدك البقاء لوقت طويل بعيدًا عني وعن ابنك ـ شريطة أن أعلم أنك في أمان فقط، لا أحب فكرة وجودك بين أصدقائك كما تسميهم».

«أوه، يا لك من فتاة سخيفة! هل تعتقدين أنني لا أستطيع الاعتناء بنفسي؟».

«لم تفعل آخر مرة. لكن هذه المرة أتمنى يا آرثر أن تثبت لي أنه يمكنك ذلك. أقنعني أنني لست بحاجة إلى الخوف من الوثوق بك»، قلتُ له بجدية تامة.

وعدني بالفعل، لكن بالأسلوب المتّبع في تهدئة الأطفال. هل أوفى بوعده؟ لا.

عدتُ لا أثق بكلمته ولن أفعل بعد الآن أبداً، وأعترف بهذا بمرارة من بين دموعي المنهمرة. ذهب في أوائل شهر مارس ولم يعد حتى يوليو. هذه المرة لم يكلّف نفسه حتى عناء تقديم الأعذار كما كان يفعل من قبل. كانت رسائله أقل تواترًا، وقصيرة، وجامدة خاصة بعد الأسابيع القليلة الأولى. ثم أصبحت أبطأ وأبطأ وأكثر إيجازًا وإهمالًا في كل مرة. مع ذلك، عندما توقفت بدوري عن الكتابة إليه اشتكى من إهمالي، وعندما كتبت بصرامة وبرودة اتهمني بالقسوة قائلًا إن ذلك كان كافيًا لإخافته من العودة إلى منزله، ثم عندما عدت لأسلوب الإقناع المعتدل عاد ألطفَ في ردوده التي تذيّلت بوعودٍ بالعودة القريبة. لكنني تعلمت أخيرًا أن أتجاهل تلك الوعود.

الفصل التاسع والعشرون

كانت أربعة أشهر بائسة، تناوب فيها عليّ القلق الشديد واليأس والسخط والشفقة عليه وعلى نفسي، وعلى الرغم من وجود صغيري الحبيب البريء، فحتى هذا العزاء كان يشعرني بالمرارة بسبب تفكيري المستمر بالأسلوب الأمثل لتعليمه ضرورة احترام والده، وفي نفس الوقت تجنب مثاله.

لكني تذكرت أنني من جلبت على نفسي كل هذه الآلام، ولذلك ما زلت عازمةً على تحملها دون تذمر. في نفس الوقت قررت ألا أستسلم للبؤس بسبب تجاوزات شخص آخر، وسعيت بالتالي إلى إشغال نفسي قدر استطاعتي. إلى جانب رفقة طفلي وريتشيل الوفية التي من الواضح أنها خمنت أحزاني وشعرت بها على الرغم من حذرها الشديد بحيث لم تلمّح إليها ولا مرة، كان لدي كتبي وأقلامي وشؤوني المنزلية، والاعتناء بشؤون مستأجري وعمال آرثر، وكنت أتسلى أحيانًا برفقة صديقتي الشابة إستر هارغريف التي كنت أذهب لزيارتها أحيانًا، وأتت لعدد من المرات لقضاء اليوم معي في منزلي. السيدة هارغريف لم تزر لندن في ذلك الموسم، حيث لم يكن لديها ابنةٌ لتزويجها، لا بد أنها شعرت أنه من الأفضل البقاء في المنزل والاقتصاد، والعجيب أن ابنها والتر أيضًا انضمَّ إليها في بداية يونيو وبقي لديها حتى نهاية أغسطس.

كانت المرة الأولى التي رأيته فيها في أمسيّة حلوة ودافئة حين كنت أتجول في الحديقة مع آرثر الصغير وريتشيل التي كانت مربية الطفل ومدبّرة شؤون الأم أيضًا، لأنني بسبب حياتي المشغولة ومسؤولياتي الكثيرة كنت بحاجة إلى

المساعدة، ولأنها رعتني ورغبت في رعاية طفلي أيضًا، وكانت علاوة على ذلك جديرة بالثقة، فضلت تكليفها بالمهام الرئيسية، ووظفت مربية شابة تتبع توجيهاتها وسيوفر ذلك الكثير من المصاريف، فأنا منذ أن علمت عن شؤون آرثر تعلمت أن أعتبر أن ذلك أمرٌ تافه، لأن كل دخل ثروتي تقريبًا يُكَرَّس ـ وسيستمر كذلك لسنوات قادمة ـ لسداد ديونه، والمال الذي يبدده في لندن أمر غير منطقي. لكن بالعودة إلى السيد هارغريف، كنت أقف مع ريتشيل بجانب الماء وأستمتع بضحكات طفلي بين ذراعيها وهي تلاعبه بغصن من الصفصاف، عندما دخل الحديقة لدهشتي وهو راكب على جواده الأسود الباهظ الثمن وعبر العشب لمقابلتي وحيّاني بإطراء وتواضع جم وأخبرني أنه يحمل رسالة من والدته التي عندما علمت أنه سيقطع هذا الطريق طلبتْ منه نقل دعوتها لي إلى عشاء عائليّ غدًا.

قال: «لن يكون هناك غيرنا، ولكن إستر حريصة جدًّا على رؤيتك، وتخشى والدتي عليكِ من بقائك في هذا المنزل الكبير بمفردك طوال هذا الوقت، وتتمنى لو تمكنتْ من إقناعك بمنحها متعة إقامتكِ معنا في منزلنا المتواضع حتى عودة السيد هانتينغدون».

أجبته: «هذا لطف بالغ منها، لكنني لست وحدي كما ترى، ثم نادرًا ما يشتكي أولئك الذين يشغلون وقتهم بالكامل من الوحدة».

«ألا تأتين غدًا إذن؟ ستصاب بخيبة أمل للأسف إذا رفضتِ».

«لا يسعدني شعورها بالشفقة عليّ من الوحدة، لكني أعد بالمجيء».

«يا لها من أمسية جميلة»، قال وهو ينظر حوله إلى الحديقة المشمسة، وانحداراتها، ومياهها الهادئة، ومجموعتها المَهِيبة من الأشجار. «ويا لها من جنة تعيشين فيها!».

أجبت: «إنها أمسية جميلة بالفعل»، وتنهدت وأنا أفكر بضآلة شعوري بجمالها، وكم كانت غراسديل أي شيء سوى جنة في عينيّ، هي أقرب

إلى المَنفى الطوعي. لا أستطيع تأكيد ما إذا كان السيد هارغريف قد تكهن بأفكاري، ولكن بشيء من التردد والتعاطف الجاد سأل عما إذا كنتُ قد سمعتُ مؤخرًا من السيد هانتينغدون.

أجبته: «ليس مؤخرًا».

«لم أعتقد أيضًا»، تمتم كما لو كان يحدّث نفسه وهو ينظر بتمعن في الأرض.

«ألم تعد مؤخرًا من لندن؟»، سألته.

«البارحة فقط».

«وهل رأيته هناك؟».

«نعم رأيته».

«هل كان على ما يرام؟».

قال بتردد وسخط مكبوت: «نعم، كان بخير كما يستحق أن يكون، ولكن في ظل هذه الظروف اعتبرته أمرًا غريبًا بالنسبة إلى رجل محبوب مثله». نظر إليَّ وانحنى وهو يقول عبارته الأخيرة. أفترض أن وجهي كان وقتها قرمزيًا.

وتابع قائلًا: «عفوًا يا سيدة هانتينغدون، لكنني لا أستطيع أن أكتم سخطي عندما أرى مثل هذا العمى وانحراف الذوق، ولكن ربما لا تدركين أن..»، وتوقف عن الكلام.

«أنا لا أعلم شيئًا يا سيدي، سوى أنه يؤخر عودته منذ فترة طويلة، وفترة أطول مما كنت أتوقع، وإذا كان في الوقت الحاضر يفضل رفقة أصدقائه على رفقة زوجته، وصخب المدينة على هدوء الحياة الريفية، أفترض أنني يجدر بي شكر هؤلاء الأصدقاء على ذلك. فأذواقهم واهتماماتهم متشابهة، ولا أفهم كيف يمكن أن يفاجئهم سلوكه».

أجاب: «أنت تظلمينني، لم ألتقِ مع السيد هانتينغدون إلا قليلًا خلال

الأسابيع القليلة الماضية، أما بالنسبة إلى ذوقه واهتماماته فهي بعيدة جدًّا عن متجوّلٍ وحيد مثلي، فبينما أتذوق أنا الخمر يشرب هو إلى الثمالة، وإذا سعيتُ لحظةً إلى إغراق صوت التأمل في هذا الجنون، أو هدر وقتي ومواهبي بين رفقاء متهورين، فإن اللّٰه يعلم أنني أبذل قصارى جهدي للابتعاد عنهم تمامًا وإلى الأبد. لو لم يكن لدي سوى نصف البركات التي يلقيها هذا الإنسان وراء ظهره، بل نصف النعم التي يحتقرها كهذا المنزل، وشريكة حياة كأنتِ! إنه سيئ!»، تمتم بين أسنانه، ثم أضاف بصوت عالٍ: «ولا تفكري يا سيدة هانتينغدون أن لي ذنبًا في تحريضه على تصرفاته الحالية، على العكس، لقد عبرت عن استنكاري ودهشتي من سلوكه مرارًا وتكرارًا، وذكّرته بواجباته وامتيازاته ولكن دون أي فائدة. إنه...».

«كفى سيد هارغريف. يجب أن تدرك أنه مهما كانت عيوب زوجي، فإنها لن تؤدي إلا إلى تفاقم الاستياء بالنسبة إليّ عند سماعها من شفاه شخص غريب».

«هل أنا غريب؟»، قال بنبرة حزينة. «أنا جارك الأقرب، وعراب ابنك، وصديق زوجك، ألا أكون لك صديقك أيضًا؟».

«التعارف الحميم يجب أن يسبق الصداقة الحقيقية، وأنا لا أعرف إلا القليل عنك سيد هارغريف، باستثناء ما ورد في الأحاديث».

«هل نسيتِ الأسابيع الستة أو السبعة التي قضيتها تحت سقفك الخريف الماضي؟ أنا لم أنسها، وأعرف ما يكفي عنكِ سيدة هانتينغدون لأتأكد أن زوجك هو أكثر محظوظ في العالم، وحتمًا سأكون التالي إذا اعتبرتِني جديرًا بصداقتك».

«إذا كنتَ تعرف حقًّا ما يكفي عني فلن تفكر في ذلك، بالأحرى لن تقول ذلك وتتوقع أن أشعر بالإطراء من المجاملة».

تراجعتُ إلى الخلف وأنا أتحدث ورأى أنني أريد أن ينتهي الحديث وفهم

التلميح على الفور. انحنى باحترام جمٍّ وتمنى لي أمسيّة سعيدة وأدار جواده نحو الطريق. بدا حزينًا ومتألمًا لاستقبالي غير اللطيف لمبادراته المتعاطفة. لم أكن متأكدةً بدوري من أنني قد فعلت الصواب في التحدث معه بقسوة، ولكن في ذلك الوقت كنت أشعر بغضب ـ وكنت على وشك إهانته ـ لأنه تطرق لغياب زوجي وإهماله وتحدث بصراحة ضده.

ابتعدت ريتشيل خلال حديثنا قليلًا. ذهب نحوها وطلب أن يرى الطفل، حمله بعناية بين ذراعيه ونظر إليه بابتسامة أبوية، وسمعته يتمتم عندما اقتربت:

«وهذا أيضًا تخلى عنه!».

ثم قبّله بحنان، وأعاده إلى المربية.

«هل تحب الأطفال سيد هارغريف؟»، قلتُ وأنا أحاول أن أكون ألطف من قبل تُجاهه.

أجاب: «ليس بشكل عام، لكن هذا طفلٌ لطيف ويشبه والدته».

«أنت مخطئ في هذا، فهو يشبه والده».

«ألست على حق أيتها المربية؟»، ناشد ريتشيل.

أجابت: «أعتقد يا سيدي أن هناك القليل من الاثنين».

رحل. وصفته ريتشيل بالرجل النبيل اللطيف جدًّا، وهو أمر ما زال موضع شك بالنسبة إلي.

خلال الأسابيع الستة التالية التقيت به عدة مرات، لكن دائمًا ـ باستثناء مرة واحدة ـ بصحبة والدته أو شقيقته أو كليهما. كان دائما موجودًا في المنزل عندما أذهب لزيارتهم، ويكون هو من يوصلهم عندما يأتون لزيارتي، وكان من الواضح أن والدته كانت سعيدة للغاية باهتمامه وعاداته المنزلية المكتسبة حديثًا.

كان الوقت الذي التقيته فيه بمفرده في يوم مشمس ولكن ليس حارًّا في

بداية شهر يوليو، حيث كنت قد اصطحبت آرثر الصغير إلى الغابة التي تحيط بالمتنزه، وأجلسته هناك على جذور شجرة بلوط مغطاة بالطحالب، وبعد أن جمعت حفنة من الورود البرية كنت راكعة أمامه وأقدمها واحدة تلو الأخرى لقبضة أصابعه الصغيرة والاستمتاع بالجمال السماوي للزهور من خلال عينيه المبتسمتين. في لحظات كهذه أنسى كل همومي، أضحك بصدق مع ضحكته المبهجة وأفرح بفرحه. فجأة طغى ظل على مساحة صغيرة من أشعة الشمس على العشب أمامنا، رفعت رأسي لأرى والتر هارغريف واقفًا يحدق إلينا.

قال: «معذرة سيدة هانتينغدون، ولكني كنت مأخوذًا، لم أمتلك القوة للتقدم ومقاطعتك، ولا الانسحاب من تأمل مثل هذا المشهد. يا إلهي! كم ينمو هذا الصغير الرائع بقوة! وكم يبدو سعيدًا هذا الصباح!»، اقترب من الطفل وانحنى لأخذ ما في يده، ولكن عندما رأى أن مداعباته من المحتمل أن تؤدي إلى بكائه تراجع بحكمة.

«لا بد من أنها راحة ومتعة عظيمة تلك التي تشعرين بها وأنتِ برفقة هذا المخلوق الصغير سيدة هانتينغدون»، كان هناك شيء من الحزن في نبرته وهو يتأمل الرضيع بإعجاب.

أجبته: «إنه كذلك». ثم سألت بعد ذلك عن أحوال والدته وشقيقته.

أجاب بأدب على استفساراتي ثم عاد مرة أخرى إلى الموضوع الذي أردت تجنبه، وإن كان بدرجة من الارتباك والخجل من الإساءة.

«ألم يصلك شيء من هانتينغدون مؤخرًا؟»، هو قال.

أجبته: «ليس هذا الأسبوع». ربما كي لا أقول هذه الأسابيع الثلاثة.

«تلقيت رسالة منه هذا الصباح. كنت أتمنى أن تكون رسالة تليق بإظهارها لسيدة». لقد سحب من جيب صدريته نصف رسالة لكنه أعادها مرة أخرى مضيفًا: «يخبرني فيها أنه على وشك العودة الأسبوع المقبل».

«يقول ذلك في كل خطاب».

«في الواقع هذا طبعه، لكن بالنسبة إليّ يعترف دائمًا بنيته الحقيقية»، لقد صدمتني الضربة، أو بالأحرى الدليل على الكذب الممنهج.

«إنه جزء بسيط من سلوكه العام»، نوّه السيد هارغريف بتمعن، بعدما رأى على ما أعتقد مشاعري في وجهي.

«إذن هو حقًّا قادم الأسبوع المقبل؟»، قلتُ بعد وقفة.

«يمكنكِ ضمان ذلك، إذا كان من الممكن أن يمنحكِ هذا الضمان أي متعة. لكن هل تفرحكِ عودته سيدة هانتينغدون؟»، قال وهو يتابع ملامحي باهتمام مرة أخرى.

«بالطبع سيد هارغريف، أليس زوجي؟».

«أوه يا هانتينغدون، أنت لا تعرف قدر من تهينها!»، تمتم.

حملتُ طفلِيَ وتمنّيتُ له يومًا سعيدًا وغادرتُ لأنغمس في أفكاري غير المدروسة داخل منزلي.

هل أنا سعيدة؟ نعم سعيدة على الرغم من غضبي من سلوك آرثر، وعلى الرغم من ظلمه، وكنت متأكدة أنه يشعر بذلك أيضًا.

الفصل الثلاثون

في صباح اليوم التالي تلقيت بضعة سطور منه بنفسي تؤكد تلميحات هارغريف باقتراب عودته. وصل بالفعل في الأسبوع الذي تلاه لكن في حالة جسدية وعقلية أسوأ من ذي قبل. مع ذلك، لم أكن أنوي تجاوز إهماله هذه المرة دون إبداء أية ملاحظة، لقد استنتجت أن لا طاقة لي بتحمّل حياة كهذه. لكنه كان مرهقًا من السفر في اليوم الأول وكنت سعيدة بعودته، لذا آثرت الانتظار إلى الغد. في صباح اليوم التالي، كان ما يزال مرهقًا وقررت الانتظار لفترة أطول قليلًا.

بعد تناوله لوجبة الإفطار في الساعة الثانية عشرة صباحًا، والتي اقتصرت على زجاجة من المياه الغازية وكوب من القهوة القوية، وتناول الغداء في الثانية إذ كان أيضًا زجاجة أخرى من المياه الغازية الممزوجة بالبراندي، قال عند تقديم العشاء إن كل ما هو موجود على مائدتنا لا يروقه، وطالب بتغيير الطاهية.

«إنها نفس الطاهية التي كانت لدينا قبل ذهابك آرثر، لقد كنتَ راضيًا عنها».

«لا بد أنكِ تساهلت معها وسمحتِ لها بعادات خاطئة حين كنتُ بعيدًا. قد نتسمم ونحن نأكل مثل هذه الفوضى المثيرة للاشمئزاز»، دفع صحنه برفق وانحنى بلا مبالاة إلى الوراء في كرسيه.

«أعتقد أنك أنت من تغيّر وليست هي»، قلت بأقصى درجات اللطف لأنني لم أرغب في إزعاجه.

أجاب بلا مبالاة: «قد يكون الأمر كذلك»، وأعدّ لنفسه كأسًا من النبيذ والماء، ثم أضاف عندما أعادها فارغة: «لأن هناك نارًا في عروقي بحيث لا يمكن لمياه كل المحيطات أن تطفئها!».

«ما الذي أضرمها؟»، كنتُ على وشك السؤال، لكن في تلك اللحظة دخل الخادم وبدأ في إعداد المائدة.

«كن سريعًا يا بنسون». قالها بحدّة وهو يضرب على الطاولة بتلك الضربة الجهنمية! وأضاف: «ولا تحضر الجبن إلا إذا كنت تريد أن تمرضني تمامًا!».

متفاجئًا، ألغى بينسون الجبن، وبذل قصارى جهده ليقوم بعمله بهدوء وسرعة، ولكن لسوء حظه كانت هناك قعقعة في السجادة بسبب التسرع في دفع كرسي سيده للخلف، مما أدى إلى تعثره وسقوط صينية الأواني من يده، ولكن لم يكن هناك ضرر باستثناء تكسر سلطانية الصلصة وانسكاب محتوياتها، ولكن بسبب فزعي المفاجئ استدار آرثر إليه ووبخه وشتمه بقسوة ووحشية. شحب الرجل المسكين وكان يرتجف بشكل واضح وهو ينحني لالتقاط الشظايا.

قلت: «لم يستطع تفادي الأمر آرثر، ولم يحدث ضرر كبير. لا تهتم بالقطع المكسورة الآن بنسون، يمكنك إزالتها لاحقًا».

كان بنسون المسكين سعيدًا بإطلاق سراحه وسرعان ما انسحب.

«ماذا تقصدين بالوقوف إلى جانب الخادم ضدي في وقت تعلمين فيه أنني مُشَتَّتٌ يا هيلين؟»، قال آرثر بمجرد إغلاق الباب.

«لم أكن أعرف أنك مشتت يا آرثر، ثم إن المسكين كان خائفًا جدًّا ومتألمًا من انفجارك المفاجئ».

«المسكين؟ حقًّا؟ وهل تعتقدين أن بإمكاني التوقف للتفكير في مشاعره السخيفة عندما تكون أعصابي متوترة وممزقة بسبب أخطائه؟».

«لم أسمعك تشكو من أعصابك من قبل».

«ولماذا لا تكون لدي عصبية مثلك؟».

«أوه، أنا لا أعترض على ملكيتك لها، أنا فقط لا أشتكي منها أبدًا».

«طبعًا لا. كيف تشتكين عندما لا تفعلين شيئًا لتجربتها من الأساس؟».

«إذًا لماذا تحاول تجربة عصبيتك يا آرثر؟».

«هل تعتقدين أنه ليس لدي ما أفعله سوى البقاء في المنزل والاعتناء بنفسي مثل امرأة؟».

«هل من المستحيل إذن أن تعتني بنفسك كرجل عندما تسافر؟ لقد أخبرتني أنه يمكنك ذلك، ووعدت بأن تفعل، وها أنت..».

«لا تبدئي بالهراء الآن يا هيلين، لا أستطيع تحمل ذلك».

«لا تستطيع تحمل ماذا؟ تذكيرك بوعودك؟».

«هيلين أنت قاسية. لو كنتِ تعلمين كيف يقرع قلبي، وأن عصبًا في جسدي مضطرب في حين تتحدثين، لكنتِ تفهّمتِ. يمكنك أن تشفقي على خادم لكسر طبق، لكن ليس لديك أي تعاطف تجاهي حتى لو انقسم رأسي إلى قسمين من هذه الحمى».

وضع رأسه على يده وتنهّد. ذهبت إليه ووضعت يدي على جبهته وكانت تحترق بالفعل.

«إذًا تعالَ معي إلى غرفة المعيشة آرثر، ولا تتناول المزيد من النبيذ، لقد تناولت عدة أكواب منذ العشاء، ولم تتناول أي شيء طوال اليوم. كيف يمكن أن يجعلك ذلك تشعر بأي تحسّن؟».

مع بعض أساليب الإقناع جعلته يغادر الطاولة. طلبت إحضار الطفل لتسليته لكن آرثر الصغير المسكين كان يعاني من أوجاع التسنين، ولم يستطع والده تحمل شكواه، وعليه أُصدِرُ حكم النفي الفوري عليه، ولأنني ذهبت

مع الطفل لفترة قصيرة، عُرّضت للّوم عند عودتي بسبب تفضيل طفلي على زوجي، ووجدت الأخير متكئًا على الأريكة تمامًا كما تركته وصاح بخيبة أمل زائفة: «قررت ألّا أطلب منكِ المجيء، قلت سأرى فقط كم من الوقت سيسعدكِ أن تتركيني وحدي».

«ولم يمضِ وقت طويل، أليس كذلك يا آرثر؟ أنا متأكدة من أنني لم أكمل ساعة واحدة».

«أوه بالطبع، الساعة ليست شيئًا بالنسبة إليكِ، لذا فهي تنقضي بشكل ممتع، ولكن بالنسبة إليّ..».

قاطعته: «لم أكن أقضيها في الاستمتاع، كنت أرضع طفلنا الصغير المسكين لأنه ليس بخير ولم أستطع تركه إلى أن نام».

«أوه بالتأكيد، أنتِ تفيضين باللطف والشفقة على كل شيء ما عداي».

«ولماذا أشفق عليك؟ ماذا بك؟».

«بعد كل البلاء الذي مررتُ به توقعت عند عودتي إلى المنزل، مريضًا ومرهقًا، أن أجد الاهتمام والعطف من زوجتي، أن تسألني على الأقل عما بي».

رددت: «لا شيء بك سوى ما جلبته على نفسك على الرغم من تحذيري وتضرّعي».

«اسمعي هيلين، إذا أزعجتِني بكلمة إضافية عن هذا الموضوع، سأقرع الجرس وأطلب ست زجاجات من النبيذ، وأقسم بحق رب السماء أنني سأشربها جميعها قبل أن أقوم من هذا المكان!»، قالها بشكل صارم وهو يهمّ بالنهوض.

لم أقل شيئًا، جلست فقط أمام الطاولة بعد أن فتحت كتابًا.

«دعيني أحظى بالهدوء على الأقل ما دمتِ قد حرمتِني من كل راحة

أخرى»، ثم غرق مرة أخرى في وضعه السابق مع زفير وتأوه وأغلق عينيه بهدوء كما لو كان يوشك على النوم.

لا أستطيع تذكر حتى عنوان الكتاب الموضوع أمامي على الطاولة لأنني لم أنظر إليه أبدًا. بكوعين على كل جانب ويدين مشدودتين أمام عيني، سلّمتُ نفسي لبكاء صامت. لكن آرثر لم يكن نائمًا، فبعد لحظات رفع رأسه ونظر حوله وصرخ بنفاد صبر: «ما الذي يبكيك يا هيلين؟ ما هو الأمر اللعين الآن؟».

أجبته وأنا أبكي: «أنت يا آرثر»، جففتُ دموعي بسرعة وهُرِعتُ إلى حيث كان وألقيت بنفسي على ركبتي أمامه، احتضنت يديه وتابعت: «ألا تعلم أنك جزء مني؟ هل تعتقد أنك يمكن أن تحطّ من قدر نفسك ولا أشعر بذلك؟».

«أحطّ من قدر نفسي؟».

«نعم! ماذا كنت تفعل في لندن كل هذا الوقت؟».

قال بابتسامة خافتة: «من الأفضل ألا تسألي».

«ومن الأفضل ألّا تخبرني، لكن لا يمكنك إنكار أنك ظلمت نفسك وجسدك وروحك وظلمتني أيضًا بشكل مخجل، لا يمكنني تحمل ذلك بهدوء أكثر من ذلك ولن أفعل!».

«حسنًا، لا تضغطي على يدي بهذه القوة بحق السماء! آه يا هاترسلي، كنتَ على حق، هذه المرأة ستكون سبب موتي بمشاعرها الجارفة وشخصيتها المثيرة للاهتمام، هيا اعفيني قليلًا».

«آرثر، يجب أن تتوب عما تفعله»، صرخت في نوبة يأس وأنا أدفن وجهي في حضنه. «يجب أن تقول إنك آسف لما فعلته».

«حسنًا حسنًا، أنا كذلك».

«لستَ آسفًا وستفعلها مرة أخرى».



أجابني: «لن أعيش لأفعل ذلك مرة أخرى إذا عاملتِني بهذه القسوة، فقد أوشكتِ على سحب أنفاسي من جسدي». ضغط بيده على قلبه وبدا مضطربًا بحق ثم أضاف:

«والآن قومي وأحضري لي كأسًا من النبيذ لإصلاح ما فعلتِه أيتها النَّمِرة! فأنا على وشك الإغماء».

طرتُ لإحضار العلاج الذي يبدو أنه يعيد إحياءه.

قلت وأنا آخذ الكأس الفارغة من يده: «يا له من عار أن يصل شاب قوي مثلك إلى مثل هذه الحالة!».

«لو كنتِ تعرفين كل شيء يا فتاتي لقلتِ يا له من أمر عجيب أن تتحمل كما تفعل. لقد عشت في هذه الأشهر الأربعة يا هيلين، أكثر مما عشتِه طوال فترة وجودك، أو حتى نهاية أيامك إذا عشتِ مئة عام، لذلك يجب أن أتوقع دفع ثمنها بشكل ما».

«سيتعين عليك دفع سعر أعلى مما تتوقع. إذا لم تهتم ستكون هناك خسارة كاملة لصحتك وعاطفتي أيضًا، إذا كان ذلك له أي قيمة بالنسبة إليك».

«ثم ماذا؟ عدتِ إلى تلك اللعبة حيث تهدّديني بفِقدان حبكِ مرة أخرى، أليس كذلك؟ لا أعتقد أنه حب حقيقيّ إذا كان بالإمكان هدمه بهذه السهولة. ستجعليني أيتها المستبدة الجميلة أندم على اختياري بالفعل وأحسد صديقي هاترسلي على زوجته الصغيرة الوديعة. يا لها من نمط رائع يا هيلين، كانت معه في لندن طوال الموسم ولم تكن هناك مشكلة على الإطلاق. كان يسلي نفسه كما يشاء بأسلوب الأعزب الكلاسيكي ولم تَكُن تشكو. يعود إلى المنزل في أي ساعة يشاء من الليل أو النهار أو لا يعود على الإطلاق، قد يكون سكرانَ، أو متجهّمًا، أو رصينًا، أو يلعب دور الأحمق أو المجنون حسب رغبة قلبه دون أي خوف. لم تزعجه بكلمة عتاب أو شكوى. يقول إنه لا توجد مثل هذه الجوهرة في كل إنجلترا، ويقسم أنه لن يستبدلها بمملكة».

«لكنه جعل حياتها لعنة».

«ليس هاترسلي. إرادتها لا تختلف عن إرادته ودائمًا ما تكون راضية وسعيدة ما دام مستمتعًا».

«في هذه الحالة ستكون حمقاء مثله، لكنها ليست كذلك. لدي عدة رسائل منها تعبر عن قلق كبير بشأن تصرفاته، وتشكو من أنك تحرّضه على ارتكاب تلك التصرفات. في واحدة منها على وجه الخصوص تطلب مني فيها استخدام نفوذي معك لإبعادك عن لندن، وتؤكد أن زوجها لم يكن يفعل مثل هذه التصرفات قبل مجيئك، وبالتأكيد سيتوقف عن ذلك بمجرد مغادرتك».

«تلك الخائنة البغيضة! هاتي الرسالة، يجب أن يراها».

«لا. لن يراها دون موافقتها، ولكن حتى إذا فعل فلا شيء يسيء إليه أو إلى الآخرين في رسالتها، فهي لم تتكلم أبدًا بكلمة ضده، ما عبرت عنه هو قلقها عليه فقط. إنها تشير فقط إلى سلوكه وتقدم له كل الأعذار التي يمكن أن تفكر فيها، أما بالنسبة إلى بؤسها، فأنا أفضل أن أشعر به على أن أراه معبرًا عنه في رسائلها».

«لكنها تسيء إليّ ولا شك أنكِ ساعدتِها».

«لم أساعدها بشيء، أخبرتها فقط أنها بالغت في تقييم تأثيري فيك ووعدتها أن أحاول إبعادك عن إغراءات المدينة إن استطعت، لكن كان لدي أمل ضئيل في النجاح. عمومًا، أرى أنها مخطئة في افتراض أنك حرّضْت السيد هاترسلي أو أي شخص آخر على الفساد. لا أنكر أنه كان لدي رأي مخالف في وقت ما، لكنني الآن أعتقد أنكما تفسدان بعضكما بعضًا، وربما إذا استخدمت ميليسنت الاحتجاج اللطيف والجاد مع زوجها يكون ذلك مفيدًا».

«وهذه هي طريقتكما في التعامل مع الأمور؟ تشجيع بعضكما بعضًا على التمرد وإساءة معاملة أزواجكما والتخلص من الآثار المترتبة عليكما من تصرفاتهما!».

قلت: «حسب روايتك، لم يكن لمشورتي الشريرة تأثير فيها. أما فيما يتعلق بالإساءة والتشهير، فإننا نشعر بالخجل الشديد من أخطاء ورذائل نصفنا الآخر، لذا من النادر أن نفكر في جعلها موضوعًا مشتركًا لمراسلاتنا. كصديقات، نحتفظ بإخفاقاتنا لأنفسنا ونفضّل أن نخفيها حتى من أنفسنا إذا استطعنا، إذا لم نتمكن من إنقاذكم عن طريق الإفصاح عنها بعضنا لبعض».

«حسنًا كفى، لا تزعجيني بها. لا أطلب سوى أن تتحليْ ببعض الصبر معي وتتحملي ضعفي لبعض الوقت حتى تخرج هذه الحمى الملعونة من عروقي، وستجدينني بعد ذلك مبتهجًا ولطيفًا أكثر من أي وقت مضى. لماذا لا يمكنكِ أن تكوني لطيفة وصالحة كما كنتِ في المرة السابقة؟ أنا متأكد أنني أوضحت لكِ كم كنت ممتنًّا جدًا لذلك».

«وما فائدة امتنانك؟ لقد خدعت نفسي بفكرة أنك قد تخجل من تجاوزاتك وتمنيت ألا تكررها مرة أخرى، لكنك لم تترك لي أي شيء حتى للتمني».

«أصبحت حالتي ميؤوسًا منها للغاية، أليس كذلك؟ يا له من استنتاج مبارك إذا كان سينقذني فقط من جهود زوجتي العزيزة لتغييري، ويوفّر عليها كل هذا الكدح والعناء الذي يعلو وجهها اللطيف وكلامها الحاد بسبب آثاره المدمرة. إن اندفاع العاطفة أمر مثير للإعجاب في بعض الأحيان هيلين، وسيل الدموع له تأثير رائع بلا شك، ولكن عندما يتكرران كثيرًا يصبحان كلاهما من الأشياء المبتذلة التي تفسد جمال المرء وترهق أصدقاءه».

من لحظتها قررت كبح دموعي وعواطفي قدر استطاعتي، وإنقاذه من تحذيراتي وجهودي غير المثمرة في محاولة تغييره أيضًا، لأنني رأيت أن كل ذلك عبثٌ. ربما يوقظ اللّٰه ذلك القلب الغافي والمغمور بالتساهل مع الذات ويزيل الغشاء من على عينيه، أما أنا فأعترف أنني فشلت. لم أستطع تحمل ظلمه وسوء تعامله تجاه من هم دونه، والذين لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، لكن عندما كنت وحدي هدفًا لتعامله البغيض، كما كان الحال

في كثير من الأحيان، أصبحت أتحمل الأمر بهدوء، باستثناء بعض الأوقات التي كنت فيها منهكة من إساءاته المتكررة أو لسعاته اللا عقلانية، والتي كانت رغمًا عني توصلني إلى التعامل معه بقسوة وشراسة ونفاد الصبر. واصلت الاهتمام به والعناية برغباته، لكنني فقدت ذلك الشغف المخلص الذي كنت أمتلكه من قبل لأنني فقدت إحساسي به. بالإضافة إلى ذلك، كان لدي الآن كائن آخر يشغل وقتي ويحتاج إلى رعايتي، رضيعي المريض، والذي من أجله تحملت الكثير وعانيت من اللوم والشكاوى من والده الذي كان يتصرف بشكل غير معقول.

لكن لأن آرثر لم يكن رجلًا انفعاليًّا أو سريع الغضب بطبيعته. كان هناك شيء ما مثير للسخرية في نوباته العصبية بدلًا من أن يكون مثيرًا للغضب، لولا الاعتبارات المؤلمة المصاحبة لتلك النوبات. تحسّن مزاجه تدريجيًّا مع استعادته لصحته الجسدية، وكان ذلك أسرع بكثير مما كان يمكن أن يكون عليه الحال بسبب مجهوداتي الشاقة معه، لأنه كان ما يزال هناك شيء لم أستسلم له ومحاولة أخيرة للحفاظ عليه لن أتنازل عنها. زادت شهيته للخمر كما توقعت، وعاد لا يكون بالنسبة إليه مجرد ملحق للمتعة الاجتماعية، بل أصبح المصدر الأساسي لاستمتاعه. في هذا الوقت من شعوره بالضعف والاكتئاب، كان الخمر دواؤه، وداعمه، وعزاؤه، وصديقه، وبالتالي غرق بشكل أعمق وأعمق وقيد نفسه إلى الأبد بالحضيض الذي سقط فيه. مع ذلك، قررت أنه ليس من الإنصاف أبدًا أن يكون حاله هكذا ما دام بقي لدي أي تأثير فيه، وعلى الرغم من أنني لم أستطع منعه من المبالغة في الشرب فإنني بالمثابرة المستمرة، واللطف، والحزم، واليقظة، والإقناع، والجرأة، والتصميم، نجحتُ في إنقاذه من العبودية المطلقة لتلك النزعة الكريهة، والخبيثة في استبدادها، والكارثية في آثارها.

وهنا، لا يمكنني نسيان أنني مَدينة إلى السيد هارغريف. في تلك الفترة،

كان يأتي لزيارته كثيرًا هنا في غراسديل، وغالبًا ما كان يتناول العشاء معنا. في هذه المناسبات، كان آرثر يلقي باللياقة والحكمة للريح ويقضي «ليلة من تلك الليالي»، وكان صديقه يوافق على الانضمام إليه ويمتثل، وحينها يكون في ليلة أو ليلتين، قد دمر عمل أسابيع، وأطاح بلمسة هشة الحصن الذي كلفني بناءه الكثير من المتاعب والكدح. كنت خائفة جدًّا من نتيجة هذا التهور، لدرجة اضطراري إلى التحدث مع السيد هارغريف في إحدى الأمسيّات على انفراد عن مخاوفي من تعامل آرثر مع هذه التجاوزات، وأملي في أن لا يشجعه على التمادي. كان مسرورًا بعلامة الثقة هذه وبالتأكيد لم يخنها. منذ تلك الأمسيّة، وفي كل مناسبة لاحقة، صار وجودُه بمثابة ضابطٍ وليس محرّضًا على المزيد من الفساد، ونجح دائمًا في إخراجه من غرفة الطعام في الوقت المناسب وبحالة جيدة ومقبولة. كان إذا تجاهل آرثر إيحاءات مثل «لا أريد أن أعيقك عن زوجتك» أو «يجب ألا ننسى أن السيدة هانتينغدون وحدها»، يبادر بمغادرة الطاولة والانضمام إليّ، ويُضطر وقتها مضيفه ـ وإن كان بغير رغبة ـ إلى اتّباعه.

منذ ذلك الحين، تعلّمتُ أن أرحب بالسيد هارغريف كصديق حقيقي للعائلة ورفيق غير مؤذٍ لآرثر، لرفع معنوياته والحفاظ عليه من ملل الكسل المطلق والعزلة التامة عن الجميع ما عداي وحليفي. لم يسعني إلا أن أشعر بالامتنان له في ظل هذه الظروف، ولم أتردد في الاعتراف بذلك في أول فرصة ملائمة، ومع ذلك، عندما فعلت ذلك، شعرت أنني أخطأت وبان هذا على وجهي، الأمر الذي زاد من ثبات نظراته، في حين كان أسلوبه في تلقي تلك الاعترافات قد ضاعف شكوكي إلى أكثر من الضعف. كان متأثرًا للغاية وسعيدًا للغاية لقدرته على خدمتي والتعاطف معي.. وهراء كثير لا أعلمه لأني لم أبقَ لأسمعه. بدا أن تنهداته وإشاراته إلى الضيق المكبوت كانت تصدر من قلب مغبون ومتخم، لكن كان عليه إما أن يحتفظ بها لنفسه، وإما

أن يزفرها في أُذُنين أخريين غير أذنيّ. نعم، كانت هناك ثقة كافية بيننا بالفعل، لكني شعرت أنه من الخطأ أن تكون هناك أحاديث سرية تخص زوجي بيني وبين صديقه، لكن فكرتي اللاحقة كانت أنه إذا كان خطأً، فمن المؤكد أنه خطأ آرثر وليس خطئي.

وبالفعل، لم أعرف لحظتها إن كنتُ أحمرّ خجلًا لأجلي أم لأجله، لمّا كنتُ أُعَرَّف به، لدرجة أنني كنت أشعر بانحطاطه، وإخفاقاته، وتجاوزاته على أنها مني. أحمرّ خجلًا وأخشى عليه، أتوب نيابةً عنه، أبكي، أصلّي، وأشعر به.

لقد كان سلوكه مؤخرًا هو ما يُطلق عليه بأنه لا رجعة فيه، ولكني على الرغم من ذلك أعرف أن قلبه لم يتغير. كل ما يقلقني هو أن الربيع يقترب وأخشى بشدة ما يأتي معه.

عندما بدأ يستعيد حيويته وشيئًا من نفاد صبره السابق والتوق إلى الراحة، اقترحت أخذ إجازة قصيرة بالقرب من البحر من أجل الترفيه واستمتاع صغيرنا أيضًا. لكن لا، كانت أماكن كهذه بالنسبة إليه مملة بشكل لا يطاق. بالإضافة إلى ذلك، كان قد دُعِيَ بالفعل من قبل أحد أصدقائه لقضاء شهر أو شهرين في إسكتلندا للاستجمام وصيد الغزلان، ووَعَدَهُ بالذهاب.

«إذن ستتركني مرة أخرى يا آرثر؟».

«نعم يا حبيبتي، ولكن فقط لأحبك أفضل عندما أعود وأعوضك عن جميع الإساءات الماضية وأوجه القصور. لا داعي إلى الخوف، فهذه المرة لا توجد مغريات في الجبال. أثناء غيابي، يمكنك زيارة ستانينغلي إن كنتِ راغبة في ذلك، لطالما كان زوج خالتكِ وخالتكِ يطلبان منا الذهاب إلى هناك، ولكن كما تعلمين، هناك نوع من النفور بيني والسيدة الطيبة خالتكِ، لدرجة أنني لم أتمكن حتى من رفع نفسي في نظرها للوصول إلى نقطة الصفر».

في الأسبوع الثالث من شهر أغسطس تقريبًا انطلق آرثر إلى إسكتلندا

ورافقه السيد هارغريف إلى هناك، وهو أمر أراحني شخصيًّا. بعد فترة وجيزة، سافرت بدوري مع آرثر وريتشيل إلى ستانينغلي، بيتي القديم العزيز، والذي ـ بالإضافة إلى أصدقائي القدامى من سكانه ـ صرتُ أنظر إليه بمشاعرَ مختلطةٍ من الفرح والألم الممزوج بشكل وثيق، لدرجة أنني بالكاد أستطيع التمييز بينهما، أو أنسب إلى أيٍّ منهما الدموع، والابتسامات، والتنهيدات التي أيقظتها تلك المشاهد والأصوات والوجوه المألوفة القديمة.

لم يعد آرثر إلى المنزل إلا بعد عدة أسابيع من عودتي إلى غراسديل، لكني لم أشعر بقلق شديد تجاهه هذه المرة. التفكير فيه وهو يمارس رياضة نشطة بين تلال إسكتلندا البرية كان مختلفًا تمامًا عن تخيله منغمسًا في فساد وإغراءات لندن. على الرغم من اقتضاب رسائله الحالية وبرودها، فإنها أكثر انتظامًا من أي وقتٍ مضى، وعندما عاد، كانت فرحتي عظيمةً لأنه كان أبهج وأكثر نشاطًا وأفضل من جميع النواحي. منذ ذلك الوقت عاد لا يكون لديّ سبب للشكوى. ما يزال لديه ميل مؤسف إلى الإفراط في الشرب، الأمر الذي يستلزم مراقبتي الدائمة، لكنه بدأ يلاحظ ولده وهذا مصدر تسلية جيدة له في المنزل، في حين أن صيد الثعالب وتعقبها يمثل مهنةً كافية له عندما لا يغمر الصقيع الأراضي. لكننا الآن في شهر يناير. الربيع يقترب، وأكرر أنني أخشى عواقب وصوله. ذلك الموسم الجميل الذي لطالما رحبت به بسعادة حيث كان وقت الأمل والبهجة، أصبح يوقظ الآن في قلبي توقعات أخرى مختلفة بعودته.

الفصل الحادي والثلاثون

20 مارس 1824. لقد حان الوقت الرهيب وسافر آرثر كما توقعت. هذه المرة أعلن أنه يعتزم البقاء لفترة قصيرة في لندن والسفر من هناك إلى القارة، حيث من المحتمل أن يبقى بضعة أسابيع، لكني لا أتوقع عودته إلا بعد مرور عدة أسابيع، فقد أصبحت أعلم الآن أن الأيام معه تدل على أسابيع، والأسابيع تدل على أشهر.

30 يوليو. عاد قبل نحو ثلاثة أسابيع، بصحة أفضل من ذي قبل لكنه ما زال سيئ المزاج. مع ذلك ربما أكون مخطئة بدوري، فأنا بتُّ أيضًا أقل صبرًا وتحمّلًا. لقد سئمت من ظلمه وأنانيته وفساده، أتمنى لو أن هناك كلمات أخف لوصفه. أنا لست ملاكًا وأحيانًا تتغلب عليّ صفاتي السيئة أيضًا.. توفّي والدي المسكين الأسبوع الماضي، كان آرثر منزعجًا لسماع الخبر لأنه رأى أنني صُدمت وحزنت، وكل همّه كان من أن تعكّر هذه الظروف صفو راحته. صرخ عندما تحدثت عن أمر الحداد:

«أوه هيلين، أنا أكره الأسود لكن مع ذلك أفترض أنكِ يجب أن ترتديه لبعض الوقت من أجل المظاهر، لكن آمل ألا تعتقدي أنكِ ملزمة أن تجعلي وجهكِ وأخلاقكِ تتماشى مع ملابسك الجنائزية. لماذا يجب أن تتنهدي وتتأوهي طوال الوقت؟ لماذا يجب أن أشعر بعدم الارتياح لأن رجلًا عجوزًا في مدينة ما، غريبًا تمامًا بالنسبة إلينا على حد سواء، كان يعتقد أنه من اللائق أن يفرط في الشراب حتى الموت؟ ثم أراكِ تبكين حزنًا عليه.. حسنًا، هذا مثير للشفقة».

لم يسمع مني شيئًا عن حضوري للجنازة أو ذهابي لبضعة أيام للبقاء بجانب أخي المسكين فريدريك ومواساته. قال إنه غير مهتم بهذه التفاصيل. ماذا كان والدي بالنسبة إليّ؟ لم أره سوى مرة منذ كنت طفلة، وكنت أعرف جيدًا أنه لم يهتم بي أبدًا، أخي أيضًا لم يكن أقرب لي من غريب.

قال آرثر وهو يحتضنني بقوة: «ثم إنني يا عزيزتي هيلين لا يمكنني التفريط فيكِ ليوم إضافي».

«إذن كيف تمكنت من فعل ذلك دوني خلال الأيام السابقة؟».

«أوه، كنت أجوب العالم حينها، لكني الآن أنا في المنزل، والمنزل دونكِ، يا ربّة منزلي، لا يطاق».

«طبعًا، أنا كذلك ما دمتُ ضروريةً لراحتك، لكنك لم تقل ذلك من قبل عندما طلبتَ مني تركك في لندن، وبقيتَ بعيدًا عن منزلك ودوني لأشهر»، أجبته لكنني بمجرد إتمام العبارة ندمت أنني نطقت بها، لأنها بدت تهمة ثقيلة للغاية. إذا كانت خاطئة فهي إهانة جسيمة، وإذا كانت صحيحة فهي مهينة للغاية بحيث ليس من اللائق طرحها بهذا الشكل. لكن سريعًا انتشلت نفسي من جلد الذات لأنني رأيت أن هذا الاتهام لم يوقظ أي خزي أو سخط فيه. لم يحاول الإنكار أو تقديم أية أعذار، بل أجاب بقهقهة طويلة كما لو كان ينظر إلى الموضوع برمته على أنه مزحة لطيفة من بدايته إلى نهايته. هذا الرجل سيجعلني حتمًا أكرهه نهاية الأمر!

20 أغسطس. ها نحن نقف حيث كنا مجددًا. عاد آرثر إلى حالته وعاداته السابقة، ووجدت أن خطتي الأحكم هي إغلاق عيني على الماضي والمستقبل ـ بقدر ما يمكن أن يعنيه ـ وأن أعيش فقط الحاضر، أن أحبه قدر استطاعتي، أن أبتسم (إن أمكن) عندما يبتسم، أبتهج عندما يكون فرحًا، أسعد عندما يكون لطيفًا، وعندما لا يكون أحاول أن أجعله كذلك، وإذا لم يستجب أحتمله، أعذره، أغفر له قدر استطاعتي، وأمنع مشاعري السيئة من التفاقم.

مع ذلك، وبينما أستسلم وأخدم نزعاته غير المؤذية، أحاول فعل كل ما في وسعي لإنقاذه من الأسوأ، لكننا لن نبقى بمفردنا لفترة طويلة حيث سندعو قريبًا مجموعة الأصدقاء الذين قضوا وقتًا معنا في الخريف قبل الماضي، مع إضافة السيد هاترسلي، وبناءً على طلبي الخاص، زوجته وطفلته. أتوق إلى رؤية ميليسنت وفتاتها الصغيرة التي يزيد عمرها الآن على عام، ستكون رفيقة لعب رائعة لصغيري آرثر.

30 سبتمبر. ضيوفنا هنا منذ أسبوعين. لكن لم يكن لدي وقت فراغ لتدوين أية تعليقات عنهم حتى الآن. لا يمكنني التغلب على كرهي للسيدة لوبورو. لا يقوم الأمر على مجرد ذوق شخصي. إنها المرأة نفسها التي لا تروقني ودائمًا ما أتجنبها بقدر استطاعتي دون مخالفة آداب الضيافة، ولكن عندما نتحدث معًا يكون ذلك بمنتهى الكياسة، بل يمكنني القول بشيء من الود الواضح من جانبها، لكن يا إلهي احفظني من هذه الود، إنه أشبه بالتعامل مع أزهار التوت الجميلة بما فيه الكفاية لإمتاع النظر، والناعمة الملمس ظاهريًّا، لكنك تعلم أن هناك أشواكًا تحتها، وتشعر بها أيضًا بين الحين والآخر، وربما تستاء عندما تصيبك إلى حد الرغبة في سحقها، وإن كان ذلك على حساب أصابعك.

لكني في الأوان الأخير لم أرَ شيئًا في سلوكها تجاه آرثر يغضبني أو يزعجني. خلال الأيام القليلة الأولى ظننت أنها بدت متحمسة للغاية لكسب إعجابه. لم تكن جهودها تذهب دون ملاحظة، لقد رأيته مرارًا يبتسم بينه وبين نفسه على مناوراتها الماهرة، ولكنها تراجعتْ عندما رأت أن غنجها الماكر وابتساماتها الأكثر سحرًا وعبوسها المفتعل تُلُقِّيَت بنفس روح الدعابة واللا مبالاة التي لا تتغير، ووجدتْ أنه لا يمكن اختراقه بالفعل وبالتالي تراجعتْ عن محاولاتها وأصبحت غير مبالية تمامًا مثله. ثم إنني لم أشهد منذ ذلك الحين أي أعراض للانزعاج من جانبه أو محاولات متجددة من قبلها، وهو ما ينبغي أن يكون عليه حالنا، لكن آرثر لن يسمح لي بالشعور بالرضا، فأنا لم

أعرف أبدًا، منذ الساعة الأولى لزواجنا، معنى الفكرة الجميلة التي تفيد بأن الراحة تكمن في الشعور بالرضا والثقة بين الزوجين.

آه! هذان الرجلان البغيضان، غريمسبي وهاترسلي، دمرا كل جهدي لعلاج إفراطه في الشرب. إنهما يشجعانه يوميًّا على تجاوز حدود الاعتدال، مع ذلك أشكر اللّه أنه لم يصل إلى مرحلة إلحاق العار بنفسه للآن. لن أنسى الليلة الثانية بعد وصولهم بمجرد خروجي من غرفة الطعام مع السيدات، وقبل أن يُغلق الباب تمامًا خلفنا قال آرثر: «والآن يا رفاق، من يريد الاستمتاع بحق؟».

نظرتْ ميليسنت إليّ بنظرة فيها شيء من البغض كأن لي تأثيرًا يُذكر في هذا الجانب، لكن وجهها تغير عندما سمعتْ صراخ زوجها هاترسلي عبر الباب والجدار وهو يقول: «أنا رجلك! هات لي المزيد، هنا لا يكفينا النصف!».

كنا بالكاد قد دخلنا غرفة المعيشة حتى فوجئنا باللورد لوبورو ينضمّ إلينا.

«ما الذي أتى بك؟»، صاحت به زوجته بنبرة من عدم الرضا.

أجاب بجدية: «أنتِ تعرفين أنني لا أشرب الكحول أنابيلا».

«أعرف، لكن يمكنك البقاء على الأقل معهم قليلًا، يبدو الأمر سخيفًا جدًّا أن تكون دائمًا متدليًا وراء النساء!».

وبخها بنظرة اختلطت فيها المرارة بهول المفاجأة وغرق مُحرجًا في كرسي، وهو يكبت تنهيدة ثقيلة ويعَضّ شفتيه الشاحبتين وعيناه على الأرض.

قلت له: «لقد فعلتَ الصواب بتركهم لورد لوبورو، أنا على ثقة من أنك ستستمر دائمًا في تكريمنا برفقتك، وإذا كانت أنابيلا تعرف قيمة الحكمة وبؤس الحماقة والعصبية ما كانت لتتحدث بمثل هذا الهراء حتى بدافع الدعابة».

رفع عينيه إليّ بينما أتحدث بنظرة فيها الكثير من الذهول والدهشة، ثم ثبّتهما على زوجته.

قالت: «يكفيني أن أعرف قيمة القلب الدافئ والروح الرجولية الجريئة».

«حسنًا أنابيلا»، قالها بنبرة زوج خالية وجوفاء، «لمّا كان وجودي غير مقبول بالنسبة إليكِ فسوف أريحك من ذلك».

«هل ستعود إليهم؟»، سألته بلا مبالاة.

أجابها بإصرار واضح: «لا، لن أعود إليهم ولن أبقى معهم لحظة واحدة أطول مما يجب، لا لأجلكِ أو لأجل أي كائن آخر! لكن لا داعي أن تمانعي في ذلك، لن أزعجكِ مرة أخرى بالتطفل عليك».

غادر الغرفة ثم سمعت باب القصر يفتح ويغلق. بعد ذلك مباشرة لمحته من نافذة الغرفة يسير في الحديقة المظلمة الهادئة.

قلت لها بعد فترة صمت: «ثقي أن الأمر في صالحكِ يا أنابيلا، إذا عاد اللورد لوبورو إلى عاداته القديمة التي كادت تدمره، سيكلفه جهدًا كبيرًا لكسرها، أليس هذا سببًا كافًا للتوبة عن مثل هذا السلوك؟».

«على الإطلاق يا عزيزتي! لا أمانع إذا كان سيادته يرى أنه من المناسب أن يسمم نفسه كل يوم، ليتني أتخلص منه في أسرع وقت ممكن».

صرخت ميليسنت: «أنابيلا! كيف يمكنك أن تتفوهي بمثل هذا الكلام اللئيم؟ سيكون عقابًا عادلًا إذا أخذت العناية الإلهية بكلمتك وجعلتكِ تشعرين بما يشعر به الآخرون..». توقفتْ ميليسنت عن الحديث عندما وصلت إلينا موجة مفاجئة من الحديث والضحك من غرفة الطعام، حيث كان صوت هاترسلي عالٍ للغاية.

«إذًا.. ما هو شعوركِ في هذه اللحظة؟»، قالت السيدة لوبورو بابتسامة خبيثة وهي تغرس عينيها في وجه ابنة خالتها المرتبكة.

لم تقدم الأخيرة أي إجابة لكنها أدارت وجهها ومسحت دمعة. في تلك اللحظة انفتح الباب ودخل السيد هارغريف وهو شاحب قليلًا وعيناه الدّكناوتان برّاقتان بشكل ملفت.

«أوه، ما أسعدني لأنك أتيت والتر، أتمنى أن يكون رالف معك أيضًا»، صاحت شقيقته بحماسة.

أجاب بمرح: «مطلقًا عزيزتي ميليسنت، بصعوبة بالغة تمكنت من تخليص نفسي، حاول رالف إبقائي بالقوة، هددني هانتينغدون بالخسارة الأبدية لصداقته، وسعى غريمسبي وهو أسوأ من الجميع إلى إحراجي بالسخرية والتلميحات المؤلمة التي كان يعلم أنها ستجرحني أكثر من غيرها. لذا كما ترين سيداتي، يجب أن أحصل على ترحيب خاص لأنني أتحدى وأعاني كثيرًا من أجل الانضمام إلى جلستكنّ الجميلة». التفت إليّ مبتسمًا وانحنى عندما أنهى الجملة.

«أليس وسيمًا يا هيلين!»، همست ميليسينت، كان فخرها بشقيقها لحظتها يتغلب على جميع الاعتبارات الأخرى.

أجبتها: «كان سيكون كذلك لو كانت هذه ملامحه الطبيعية، ولكن تأمليه مرة أخرى بعد بضع ساعات».

هنا جلس الرجل بالقرب مني على الطاولة وطلب فنجانًا من القهوة.

«أعتبر هذا تمهيدًا مناسبًا لعاصفة هوجاء مُقبلة»، قال بينما سلمته فنجان قهوته. «أنا في الجنة الآن، لكنني قاتلت في طريقي إلى هنا وعبرت الفيضانات والنار لأبلغها، كان آخر ما فعله رالف هاترسلي هو سد الباب بظهره والقسَم أنني لن أعبر إلا من خلال جسده (وهو جسد كبير جدًّا). لكن لحسن الحظ لم يكن هذا هو الباب الوحيد وقد نفّذت هروبي من المدخل الجانبي عبر مخزن كبير الخدم وصولًا إلى دهشة بنسون اللا نهائية عندما رآني أخرج وهو يغسل الأطباق»، ضحك السيد هارغريف وابنة عمه بينما يتحدث وبقينا أنا وشقيقته صامتتين.

«اغفري لي سيدة هانتينغدون»، غمغم بجدية أكبر وهو يرفع عينيه إلى وجهي. «أعلم أنكِ لستِ معتادةً هذه الأشياء، أنت تعانين منها لأنها تؤثر في

ذهنك المرهف، كنت أفكر بكِ وأنا وسط هؤلاء الفاسدين، وسعيت إلى إقناع السيد هانتينغدون بالتفكير بمشاعرك أيضًا لكن بلا فائدة، أخشى أنه مصمم تمامًا على الاستمتاع بوقته هذه الليلة ولن يفيد إبقاء القهوة في انتظاره أو انتظار رفاقه. سيكون جميلًا إذا انضموا إلينا لتناول الشاي لاحقًا. في غضون ذلك أتمنى بشدة أن أتمكن من إبعاد الأفكار المتعلقة بهم عن عقلك وعن عقلي أيضًا، لأنني أكره التفكير فيها، نعم حتى بالنسبة إلى صديقي العزيز هانتينغدون، عندما أفكر في الفرصة التي يمتلكها لإسعادك ولا يتفوق على نفسه ليستفيد منها، أكرهه!».

قلت: «كان من الأفضل ألا تخبرني بذلك إذن، لأنه على الرغم من كونه سيئًا، فهو ما زال جزءًا مني ولا يمكنك الإساءة إليه دون الإساءة إلي».

«تقبلي اعتذاري إذن، لأنني أؤثر الموت عاجلًا بدلًا من الإساءة إليكِ، لكن دعينا لو سمحتِ لا نَقُل أكثر من ذلك في الوقت الحاضر».

أخيرًا جاؤوا ولكن بعد انتهاء وقت تقديم الشاي والذي كان قد تأخر لأكثر من نصف ساعة بالفعل، وبقدر ما كنت أتوق إلى مجيئهم، إلا أن قلبي انكمش بسبب الضجة المصاحبة لاقترابهم. شحبت ميليسنت وكادت أن تقوم من مقعدها عندما اقتحم زوجها السيد هاترسلي الغرفة وهو يطلق وابلًا صاخبًا من الشتائم من فمه، والذي حاول هارغريف إيقافه من خلال تذكيره بوجود السيدات.

«أوه، من الجيد أن تذكرني بالسيدات أيها الهارب الغادر»، صرخ وهو يهز قبضته الهائلة في وجه صهره. «لولاهن لكنت سحقتك في غمضة عين ونثرت جسدك لطيور السماء وزنابق الحقول!»، بعد ذلك جرَّ كرسيًّا لنفسه بجانب الليدي لوبورو وبدأ يتحدث معها عن سخافات بدت أنها مسلية لها بدلًا من شعورها بالإساءة، مع ذلك كان انزعاجها واضحًا بعض الأحيان من وقاحته.

في هذه الأثناء جلس السيد غريمسبي بجانبي على الكرسي الذي أخلاه هارغريف عند دخولهم وشكرني على فُنجان الشاي، وأجلس آرثر نفسه بجانب ميليسينت المسكينة وهو يقرّب وجهه من وجهها عند التحدث وهي تبتعد عنه. لم يكن صاخبًا مثل هاترسلي لكن وجهه كان محمرًّا للغاية جراء الإفراط في الشرب ويضحك باستمرار، وعلى الرغم من أنني كنت أشعر بإحراج بالغ مما أراه وأسمعه، فإنني كنت أشعر بنوع من الراحة لأنه اختار التحدث بنبرة منخفضة جدًّا لدرجة أنه لا يمكن لأحد أن يسمع ما يقوله سوى من يجلس بقربه.

«يا لهم من حمقى!»، قال السيد غريمسبي وهو يجذب مرفقي بقوة ويتحدث طوال الوقت، لكنني كنت منغمسة في تأمل الحالة المؤسفة للاثنين الآخرين ـ وخاصة آرثر ـ بحيث لا يمكنني الاهتمام بما يقوله.

«هل سمعت هراءهم وهم يتحدثون سيدة هانتينغدون؟ عن نفسي أشعر بالخجل منهم، لا يمكنهم إكمال زجاجة بينهم دون أن تلعب الخمرة في رؤوسهم..».

«أنت تسكب كريمة القهوة في صحنك بدلًا من الكوب، سيد غريمسبي».

«أوه أنتِ محقّة، المكان هنا مظلم نوعًا ما، هارغريف هلّا أشعلت تلك الشموع؟».

«إنها شموع لا تنطفئ ولا تحتاج إلى الإشعال»، قلت له.

«نور الجسد يكمن في العين»، قال هارغريف بابتسامة ساخرة. «فإذا كانت العين فذّة، يصبح الجسد نورانيًّا».

صده غريمسبي بإشارة من يده ثم التفت إليّ وتابع بنفس النبرة المتساهلة: «كما كنت أقول سيدة هانتينغدون، لا عقول لديهم على الإطلاق، لا يمكنهم تناول نصف زجاجة دون أن يتأثروا بطريقة ما، في حين تناولتُ أنا ثلاثة أضعاف ما تناولوه هذه الليلة وكما ترين ما زلتُ ثابتًا ومتوازنًا تمامًا. قد يبدو لك هذا الأمر فريدًا، لكنني أعتقد أنه يمكنني شرح ذلك: أدمغة هؤلاء ـ دون

ذكر أسماء، لكنكِ ستفهمين من أشير إليه ـ أدمغتهم خفيفة من الأساس، وأبخرة الخمور تجعلها أخف وتنتج دوخة وثمالة تؤدي إلى ما ترين، في حين دماغي الذي يتكون من مواد أصلب يمتص كمية كبيرة من هذا البخار الكحولي دون إنتاج أي نتيجة مشابهة لـ..».

قاطعه السيد هارغريف: «أعتقد أنك ستجد نتيجة معقولة في هذا الشاي وذلك من خلال كمية السكر التي وضعتَها فيه. بدلًا من الكمية المعتادة وهي قطعة واحدة، وضعتَ إلى الآن ستة».

«هل فعلت؟»، أجاب الفيلسوف وهو يغطس ملعقته في الفنجان ويخرج عدة قطع نصف مذابة. «همم! وهكذا سيدتي، ترين شر غياب العقل عندما ينخرط في التفكير في الاهتمامات المشتركة للحياة. إذا كنتُ أمتلك ذكاءً عاديًّا مثل الرجال الآخرين بدلًا من المفكّر الذي بداخلي، ما كنت لأفسد فنجان الشاي هذا وأجد نفسي مضطرًّا إلى إزعاجك من أجل فنجان آخر».

«هذا طبق السكر سيد غريمسبي، أنت وضعت قطع السكر المذابة فيه وأفسدت البقية أيضًا، لكني أشكرك على جعلي أطلب إرسال المزيد، لأن اللورد لوبورو وصل أخيرًا وآمل أن يتنازل سيادته للجلوس معنا والسماح لي بتقديم بعض الشاي له».

انحنى باحترام استجابةً لدعوتي دون أن يقول شيئًا. في غضون ذلك تطوع هارغريف لقرع الجرس من أجل إحضار مكعبات السكر، حين كان غريمبسي يندب خطأه، وحاول إثبات أنه كان بسبب سوء الإنارة.

كان اللورد لوبورو قد دخل قبل دقائق دون أن يلاحظه أحد سواي، وكان يقف أمام الباب وهو يتفحص الموجودين بشكل كئيب. ذهب إلى حيث أنابيلا التي كان ظهرها باتجاهه، وكان هاترسلي ما زال جالسًا بجانبها على رغم أنها لم تكن مهتمة به، حيث كانت مشغولةً بمناوراتها الخبيثة ومحاولات التنمر على مضيفها.

قال زوجها وهو ينحني على ظهر كرسيّها: «حسنًا يا أنابيلا، أيًا من هؤلاء - الأرواح الرجولية الجريئة - الثلاثة تريدين أن أشبه؟».

صرخ هاترسلي وهو ينطلق إليه ويمسكه بقوة ووقاحة من ذراعه: «بحق السماوات والأرض، تشبّه بنا جميعاً، انظر يا هانتينغدون لقد عثرتُ عليه، تعال يا رجل وساعدني. أكون ملعونًا إذا لم أجعله يسكر قبل أن يذهب! يجب أن يعوّض عن كل الانحرافات التي فاتته!».

تبع ذلك منافسة شائنة كان فيها اللورد لوبورو بيأس وغضب يكافح بصمت لتحرير نفسه من الرجل المجنون الضخم الذي كان يجاهد لسحبه من الغرفة. حاولتُ حثّ آرثر على التدخل نيابةً عن ضيفه الغاضب، لكنه لم يفعل شيئًا سوى الضحك.

«هانتنغدون أيها الأحمق.. تعالَ وساعدني!»، صَرَخ هاترسلي وهو نفسه بدأ يتعب.

صرخ آرثر: «أتمنى لك التوفيق يا هاترسلي وأساعدك بدعواتي، لكن لا يمكنني فعل أي شيء آخر حتى لو كانت حياتي تعتمد على ذلك! أنا منهك تمامًا»، وانحنى إلى الوراء في مقعده وهو يصفق بيديه ويغني بصوت عالٍ.

«أنابيلا ناوليني شمعةً!»، بيأس قال لوبورو الذي تشبث خصمه المجنون بخصره محاولًا إخراجه رغمًا عنه من الغرفة.

«لن أشارك في فعالياتك الوقحة!»، ردت السيدة ببرود.

ناولته شمعة أخذها وقرّب شعلتها من يديْ هاترسلي حتى أطلق هديرًا مثل الوحش البري وتركه ليختفي المسكين إلى الصباح التالي. ألقى هاترسلي بنفسه على المقعد العثماني بجانب النافذة وهو يطلق عليه الشتائم ويلعنه بجنون. حاولتْ ميليسنت أن تستغل الموقف للهروب أيضًا من عارِ زوجها، لكنه انتبه إليها وناداها وأصرّ أن تعود.

«ماذا تريد يا رالف؟»، تمتمت بارتباك وهي تقترب منه على مضض.

قال وهو يشدها على ركبته كالطفل: «أريد أن أعرف ما بكِ، ما الذي يبكيكِ يا ميليسنت؟ قولي لي!».

«أنا لا أبكي».

«بل تبكين»، قال بانفعال وهو يبعد يديها بقوة عن وجهها، «كيف تجرُئين على الكذب عليّ!».

«عدتُ لا أبكي الآن».

«لكنك كنت تفعلين قبل لحظة، وفي هذه اللحظة سأعرف السبب. هيا أخبريني الآن».

«دعني وشأني رالف، تذكّر أننا لسنا في المنزل».

«لا يهم. أجيبي الآن»، صرخ وهو يضغط على ذراعيها النحيلتين بلا رحمة بقبضته القوية.

قلت للسيد هارغريف: «لا تدعه يعامل شقيقتك بهذه الطريقة».

«هاترسلي، لا يمكنني السماح بذلك. دعِ شقيقتي وشأنها»، قال الرجل وهو يقترب من الزوجين وبذل جهدًا في فكّ يديه من ذراعيها، لكنه اندفع فجأة للخلف وكاد أن يرتطم بالأرض وهو يتلقى ضربة عنيفة على صدره مصحوبة بنصيحة من هاترسلي: «خذ هذا من أجل وقاحتك! وتعلم ألّا تتدخل بيني وبين زوجتي مرة أخرى».

«إذا لم تكن ثملاً لم أكن لأتدخل»، أجابه هارغريف الشاحب واللاهث بعصبية وتأثر فاق آثار الضربة.

«اذهب إلى الجحيم! ميليسنت تحدثي، أخبريني ما الذي يبكيكِ؟».

تمتمت قائلة: «سأخبرك في وقت آخر عندما نكون بمفردنا».

«بل أخبريني الآن»، قال وهو يهزها مجددًا وضغط على ذراعها بشكل جعلها تحبس أنفاسها وتعض شفتها لقمع صرخة الألم.

قلت: «دعني أخبركَ أنا يا سيد هاترسلي، لقد كانت تبكي بسبب الشعور بالعار والإذلال الذي تُلحقه بها، تبكي لأنها لا تستطيع تحمل رؤيتك تتصرف بطريقة مخزية».

«هذا محيّر يا سيدتي!»، تمتم بنظرة مملوءة بالذهول، «هل هذا صحيح يا ميليسنت؟».

بقيَتْ صامتة.

«تعالي.. تكلمي يا صغيرتي».

«لا أستطيع الآن»، بكت.

«ولكن يمكنكِ أن تجيبي بنعم أو لا أو لا يمكنني القول».

«نعم»، همست وهي تنزل رأسها وتحمرّ خجلًا من الإقرار الفظيع.

«اللعنة عليكِ لوقاحتكِ إذن!»، صرخ ودفعها بعنف شديد حتى سقطت، لكنها نهضت قبل أن أتمكن أنا أو شقيقها من مساعدتها، وأخذتْ أسرع طريق للخروج من الغرفة، وأفترض أنها صَعِدتْ لغرفتها فورًا.

كان الهدف التالي للاعتداء هو آرثر الذي جلس في ركن بعيد وكان بلا شك مستمتعًا بالمشهد بأكمله.

«هانتينغدون»، صاح صديقه الغاضب، «لن أدعك تجلس هناك وتضحك مثل الأبله!».

صرخ وهو يمسح عينيه الغارقتين بدموع الضحك: «أوه هاترسلي، ستكون سبب موتي».

«نعم سأفعل، ولكن ليس كما تفترض سأنتزع قلبك من جسدك إذا أزعجتني أكثر بضحككَ السخيف! ماذا، أما زلت تضحك؟».

«حسنًا، فلنرَ إذا كان هذا سيخرسك»، صرخ هاترسلي وهو يخلع حذاءه ويرميه على رأس مضيفه، لكنه أخطأ هدفه بينما الأخير بقي غارقًا في الضحك الهستيري والدموع تنهمر على وجهه، كان مشهدًا مؤسف بحق.

أطلق هاترسلي عليه الشتائم واللعنات، لكنه لم ينجح، ثم أخذ عددًا من الكتب من الطاولة المجاورة وألقى بها واحدًا تلو الآخر في خضم نوبة غضبه، لكن آرثر استمر في الضحك أكثر وأخيرًا اندفع هاترسلي إليه في حالة جنون وأمسكه من كتفيه وهزه بعنف بينما هو يضحك ويصرخ بشكل مخيف. لكنني لم أرَ أكثر، اعتقدتُ أنني شاهدت ما يكفي من الإهانات الموجهة إلى زوجي وتركت أنابيلا والآخرين لمتابعة بقية المشهد كما يحلو لهم.

انسحبت لكنني لم أنمْ. بعد أن أرسلت ريتشيل إلى غرفتها لتنال راحتها، بقيت أجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا باستياء بسبب ما حدث، وما يمكن أن يحدث، ومتى وبأية حال سيأتي هذا المخلوق التعيس إلى الفراش.

أخيرًا سمعته يصعد السلم ببطء وتعثُّر، يساعده كلٌّ من غريمسبي وهاترسلي اللذان كانا بدورهما بالكاد يسندان أنفسهما، مع ذلك كانا يمزحان ويضحكان عليه ويُحدثان ضوضاء يسمعها حتى الخدم. آرثر نفسه لم يكن يضحك وقتها، بل كان يشعر بالإعياء والتعب. لن أكتب أكثر عن ذلك.

تكررت مثل هذه المشاهد الشائنة (أو ما يشابهها) أكثر من مرة. لم أقل الكثير لآرثر عن ذلك لأنني إذا فعلت فسيضره ذلك أكثر مما ينفعه، لكنني أخبرته أنني أكره مثل هذه التصرفات وفي كل مرة يَعِد بعدم تكرارها مرة أخرى، لكنني أخشى أنه فقد الثقة والاحترام الذي كان يمتلكه ذات يوم. في السابق كان يخجل من التصرف على هذا النحو على الأقل أمام شهود آخرين غير رفاقه. صديقه هارغريف بحكمة وتحكّم أحسده عليه لا يُخزي نفسه أبدًا بشرب أكثر مما يكفي لجعله يسترخي قليلًا فحسب، وهو دائمًا أول من يغادر الطاولة بعد اللورد لوبورو ـ الأحكم ـ والذي يثابر على مغادرة غرفة الطعام بعدنا مباشرة، ولكن لا يدخل غرفة المعيشة قبل البقية أبدًا تجنبًا لإساءة أنابيلا له، لذلك دائمًا ما أحرص على تهيئة وإضاءة غرفة المكتبة له حيث كان يقضي الكثير من وقته أو يتجول في الحديقة في الليالي المُقمرة. لكنني أعتقد

أنها ندمت على سوء سلوكها معه لأنني انتبهت أنها لم تكرره منذ ذلك الحين وأصبحت لَبِقة معه مؤخرًا وتُعامله بلطف واحترام أكثر من أيّ وقتٍ مضى. يمكنني تأريخ وقت هذا التحسن من الفترة التي توقفتْ فيها عن السعي إلى نيل إعجاب آرثر.

الفصل الثاني والثلاثون

5 أكتوبر. إستر هارغريف أصبحتْ فتاة جميلة. لم يتمّ تخرّجها في المدرسة بعد لكن والدتها كثيرًا ما تحضرها في زياراتها الصباحية عندما يكون السادة في الخارج وفي بعض الأحيان تقضي ساعة أو ساعتين بصحبتي وشقيقتها والصغار، وعندما نذهب إلى منزلهم أسعى دائمًا إلى رؤيتها والتحدث معها أكثر من أي شخص آخر، لأنني أشعر بقرب جميل من صديقتي اليافعة وكذلك هي. أتساءل ما الذي تراه بي لأنني عدتُ لا أكون الفتاة السعيدة والمملوءة بالحيوية التي اعتدتُ أن أكونها. ليست لديها أية علاقات اجتماعية سوى حضورها فعاليات والدتها والتي لا تناسب سنّها، ومربيتها (شخصية مصطنعة وتقليدية تشبه والدتها)، وبين الحين والآخر شقيقتها الهادئة للغاية. كثيرا ما أتساءل ماذا سيكون نصيبها من الحياة، وهي تفعل أيضًا كما تخبرني، لكن تكهناتها بالمستقبل مملوءة بالأمل المنتعش، تمامًا كما كنتُ أفعل يومًا. أرتجف عندما أفكر في إيقاظها من نشوتها الوهمية وأشعر أن أملها سيخيب بعمق أكبر من خيبة أملي، حيث إنني لطالما أحسست أنني وُلدت لمثل هذا المصير، لكنها مختلفة فهي منطلقة ونَضِرة وبريئة جدًّا. أوه، سيكون من القسوة إخبارها بما أشعر به وأتوقعه.

شقيقتها أيضًا تُرعبها هذه الفكرة. صباح الأمس حيث أحد أروع أيام شهر أكتوبر، كنتُ وميليسنت في الحديقة نستمتع ببعض الوقت برفقة صغارنا بينما كانت أنابيلا مستلقية على أريكة غرفة المعيشة غارقة في قراءة رواية. كنا

نلعب مع المخلوقات الصغيرة بمرح وصخب، بعدها توقفنا لأخذ قسط من الراحة في ظلال الأشجار لاستعادة أنفاسنا وإعادة ترتيب مظهرنا. جلسنا في الحديقة الشاسعة المشمسة نراقب بفرح دعم صغيري آرثر للخطوات الأولى المرتبكة لهيلين الصغيرة مع ثرثرة بريئة بدت أنها أفادتها كثيرًا، بعد الضحك على المنظر الجميل بدأنا نتحدث عن مستقبل الصغار، هذا الموضوع جعلنا تلقائيًا نرتد إلى التأمل الصامت بينما عدنا إلى المشي ببطء، وأفترض أن ميليسنت من خلال مجموعة من المعطيات الواضحة كانت تفكر في شقيقتها.

قالت: «غالبًا ما تلتقين بإستر، أليس كذلك يا هيلين؟».

«ليس كثيرًا».

«لكن لديك فرص لمقابلتها أكثر مني وأنا أعلم أنها تحبك وتوقرك أيضًا، بطبيعتها لا تستمع لرأي أحد، مع ذلك تقول إنك أكثر منطقية من ماما».

«هذا لأنها عنيدة مثلي ولذلك تتوافق آراؤها بشكل عام مع آرائي أكثر من والدتكِ. ولكن ما الأمر يا ميليسنت؟».

«حسنًا، نظرًا إلى أن لديكِ تأثيرًا كبيرًا عليها أتمنى أن تقنعيها بعدم جدوى الإعجاب أو قبول الزواج من أي شخص من أجل ثروته أو رتبته أو وجاهته الاجتماعية، أو أي شيء سوى الحب الصادق والاحترام الراسخ».

قلت: «لا داعي إلى ذلك، لأننا تحدثنا حول هذا الموضوع بالفعل وأؤكد لكِ أن أفكارها عن الحب والزواج رومانسية للغاية».

«لكن المفاهيم الرومانسية لن تفيدها، أريد أن تكون لديها مفاهيم واقعية».

«أتفق معكِ تمامًا، ولكن في رأيي أن ما يصفه العالم بأنه رومانسي غالبًا ما يكون متحالفًا مع الحقيقة أكثر مما يُفترض، لأن أفكار الشباب غالبًا ما تطغى عليها مغالطات عن الآخرة، مغالطات لم يُثبَت كونها خاطئة».

«حسنًا. إذا كنتِ ترين أن أفكارها لن تضرّها، قوّيها، هل يمكنكِ فعل

ذلك؟ كانت لدي أفكار رومانسية مثلها يومًا، ولا أقصد أن أقول إنني نادمة على قراري لأنني لست كذلك، ولكن..».

«أفهمكِ يا ميليسنت. أنت قانعة بحياتك، لكن لا تريدين أن تعاني شقيقتك مثلك».

«ليس مثلي فقط. بل أسوأ من ذلك. قد تكون معاناتها أسوأ مني بكثير لأنني قانعة هيلين، على الرغم من أنك قد لا تصدقين ذلك، لكني أقول الحقيقة عندما أؤكد أنني لا أستبدل زوجي بأي رجل على وجه الأرض».

«حسنًا أنا أصدقكِ، تعنين أنكِ الآن بعد أن ارتبطتِ به لن تستبدليه بآخر، لكن يمكنك تمنّي استبدال بعض صفاته بصفات الرجال الأفضل».

«نعم، تمامًا كما سأكون مسرورة بمبادلة بعض صفاتي بصفات النساء الأفضل، لأنني أيضًا لست مثالية، لا أحد منا كامل. أرغب بصدق في إصلاحه وسأفعل وهو سيتحسن، ألا تعتقدين ذلك يا هيلين؟ فهو في السادسة والعشرين فقط».

أجبتها: «ربما».

«سوف يتحسن، بالتأكيد سيفعل»، كرّرتْ.

«عذرًا على ضعف إذعاني ميليسنت، لا أقصد إحباط آمالكِ، لكنني تلقيت خيبات في آمالي وأنا أسعى إلى ذات الهدف لمرات كثيرة، لدرجة أنني أصبحت باردةً ولا أثق بتوقعاتي أكثر من مسنٍّ في الثمانين من عمره».

«مع ذلك أما زلت تأملين؟ بالنسبة إلى السيد هانتينغدون».

«نعم، أعترف أنني ما زلت أفعل لأنه يبدو أن الحياة والأمل لا يفترقان بعد كل شيء، هل تعتقدين أنه أسوأ حالًا من السيد هاترسلي يا ميليسنت؟».

«حسنًا، رأيي الصريح هو أنه لا توجد مقارنة بينهما. أرجو أن لا تشعري بالإهانة من كلامي هذا يا هيلين لأنكِ تعلمين أنني أتحدث دائمًا معكِ

بصراحة، كما يمكنكِ إخباري بما يجول في ذهنكِ بصراحة مطلقة أيضًا. أنا لا أستاء منكِ أبدًا».

«لست منزعجةً يا عزيزتي، بل رأيي هو أنه إذا كانت هناك مقارنة بين الاثنين فإن الاختلاف سيكون بالتأكيد في صالح هاترسلي».

أخبرَها قلبها كم كلفني هذا الاعتراف، وبدافع عفوي أعربت عن تعاطفها من خلال تقبيل خدي فجأةً دون كلمة رد، ثم نهضت بسرعة وذهبت لحمل طفلتها وأخفت وجهها في ثوبها. كم هو غريب أننا كثيرًا ما نبكي على مصائبِ غيرنا، في حين يفوتنا أن نذرف دمعة من أجل أنفسنا. كان قلبها متخمًا بما يكفي من أحزانها، لكنه فاض عندما علمتْ ما أقاسيه، وأنا أيضًا ذرفت الدموع عند رؤية مشاعرها المتعاطفة معي على الرغم من أنني لم أبكِ على نفسي طوال أسبوع.

كان يوم من أيام الأسبوع الماضي ممطرًا، وبالتالي بقي معظم أفراد المجموعة في المنزل يقتلون الوقت في غرفة البلياردو، في حين أن ميليسنت وأنا كنا مع الصغار في المكتبة حيث نقضي الوقت في الحديث وقراءة كتبنا. توقعنا قضاء صباح ممتع وهادئ، ولم نكن قد انفصلنا عن البقية لأكثر من ساعتين، عندما دخل علينا السيد هاترسلي بعدما أثار انتباهه صوت طفلته وهو يعبر الممر، كان مغرمًا بها بشكل كبير وهي أيضًا.

كان آتيًا من الإسطبل حيث بعد أن استمتع برفقة الخيول من بعد الإفطار. لكن هذا لم يكن مهمًا بالنسبة إلى الصغيرة التي تحمل اسمه، فبمجرد أن لمحت والدها الضخم قرب الباب أطلقت صرخة فرح صاخبة وتركت جانب والدتها وركضت نحوه وهي ترفع ذراعيها وتمدهما لاحتضان ركبته، وألقت رأسها للخلف وهي تضحك في وجهه. بقي ينظر مبتسمًا إلى تلك الملامح الصغيرة الجميلة المتألقة بالمرح البريء، تلك العيون الزرق الصافية، والشعر الناعم المُلقى على العنق والكتفين العاجيين. ألم يفكر في مدى عدم استحقاقه

لمثل هذا الامتلاك؟ أخشى ألا تكون مثل هذه الفكرة قد خطرت بباله. أمسك بها وأتبعها ببعض الدقائق من اللعب القاسي للغاية، والتي يصعب من خلالها تحديد ما إذا كان الأب أو الابنة يضحكان ويصرخان بأعلى صوت، وفي النهاية انتهى اللعب الصاخب فجأة، وكما هو متوقع، أصيبت الصغيرة وبدأت في البكاء وكالعادة ألقى بها اللاعب الكبير غير اللطيف في حضن أمها، طالبًا منها تهدئتها. كانت الطفلة سعيدة بالعودة إلى ملجئها اللطيف والحنون كما تركته، ثم خلال لحظات من احتضانها بين ذراعيها سكنت صرخاتُها وأغرقت رأسها الصغير المرهق على صدرها وسرعان ما نامت.

في هذه الأثناء، تقدم السيد هاترسلي إلى المدفأة حيث حال طوله وعرضه بيننا وبينها، ووقف وهو ينفخ صدره ويحدق إلى ما حوله كما لو أن المنزل وجميع ملحقاته ومحتوياته هي ممتلكاته الخاصة بلا منازع.

«بسبب سوء الأحوال الجوية هذا لن يكون هناك فرصة للصيد اليوم على ما أعتقد». ثم فجأة رفع صوته وأمتعنا ببضع مقاطعَ من أغنيّة توقفتْ فجأة عندما أنهى اللحن بصفارة ثم تابع: «سيدة هانتينغدون، لديك إسطبل جيد، ليس كبيرًا لكنه جيد. كنت أنظر إلى الجياد قليلًا هذا الصباح، خذي بكلمتي: الجواد الأسود، وتوم الرمادي، والنمرود الصغير من أفضل الجياد التي رأيتها مطلقًا»، ثم أتبع ذلك بمناقشة مطوّلة عن مزاياها المختلفة، ورسمٍ تخطيطي للأشياء العظيمة التي كان ينوي القيام بها في خط سباقات الخيل.

«لكن ماذا تفعلان أنتما هنا؟ بالمناسبة أين ليدي لوبورو؟»، سأل.

«في غرفة البلياردو».

«يا لها من مخلوق رائع!»، واصل وهو ينظر مليًّا إلى زوجته التي تَغَيّر لونها وبدت مرتبكة أكثر فأكثر أثناء تقدمه إليها. «يا لها من شخصية نبيلة ويا لها من عيون سودٍ رائعة تلك التي تملكها. ويا لها من روح طيبة، ويا له من لسان معسول ذلك الذي تحب استخدامه. آه أعشقها. لكن لا تحزني يا

ميليسنت، لم أكن لأجعلها زوجتي حتى لو كان مهرها مملكةً! أنا راضٍ تمامًا عن الزوجة التي أمتلكها. ما الأمر الآن؟ ما الذي يجعلكِ بهذا الكرب؟ ألا تصدقينني؟».

«نعم أصدقك»، تمتمت بنبرة منكسرة حزينة واستدارت وهي تمسح على شعر رضيعتها النائمة، والتي كانت قد وضعتها على الأريكة بجانبها.

«إذن ما الذي يجعلكِ منزعجة إلى هذا الحد؟ تعالي إلى هنا ميلي وأخبريني لماذا لا يمكنك أن تكوني راضية بتأكيدي».

ذهبتْ ووضعتْ يدها الصغيرة على ذراعه ونظرت في وجهه وقالت بهدوء:

«ما الذي يعنيه هذا رالف؟ يعني أنه على الرغم من أنك معجب بأنابيلا كثيرًا بسبب الصفات التي لا أمتلكها، فإنك ما تزال تفضّل أن أكون أنا زوجتك، الأمر الذي يثبت أنك لا تعتقد أنه من الضروري أن تحب زوجتك، يكفيك أن يكون بإمكانها الاعتناء بمنزلك ورعاية أطفالك، لكني لست منزعجة، أنا أشعر أنه أمر مؤسف فقط»، أضافت بنبرة منخفضة مرتجفة وهي تسحب يدها وتركّز نظراتها على الأرض، «إذا كنتَ لا تحبني فأنت لا تحبني.. لا يمكنني إرغامك».

«ما قلتيه صحيح، لكن من قال إنني لا أحبكِ؟ هل قلت إنني أحب أنابيلا؟».

«قلت إنك تعشقها».

«صحيح، لكن العشق ليس حبًّا. أعشق أنابيلا لكني لا أحبها. أنا أحبكِ يا ميليسنت لكنني لا أعشقك». وكدليل غريب على حرارة عاطفته، أمسك بعدد من خصلاتها شعرها البنّية الفاتحة وبدأ يشدها بنوع من القسوة.

«حقًّا رالف؟»، تمتمت بابتسامة باهتة انهمرت من بين دموعها.

أجاب: «وللتأكد من ذلك فأنتِ تزعجينني في بعض الأحيان».

«أنا أزعجك!»، صاحت في اندهاش.

«نعم، بفائض طيبتكِ. عندما يأكل الصبي الزبيب والخوخ طوال اليوم، فإنه يتوق إلى بعض الحمضيات من باب التغيير. هل رأيتِ يا ميلي مدى جمال وسلاسة الرمال على شاطئ البحر وكيف تدلّل أقدامنا بنعومتها؟ لكن إذا تجوّلتِ لمدة نصف ساعة على هذه السجادة الناعمة والسهلة فستجدين الأمر مرهق إلى حد ما، وسترغبين في القليل من الصخور الثابتة التي لا تتزحزح سواء كنت ستقفين، أو تمشين، أو تدوسين عليها، وعلى الرغم من صلابتها التي تشبه صلابة حجر الرحى فإنكِ ستجدينها أسهل في النهاية».

«أفهم ما تقصده يا رالف»، قالت وهي تتبع بعصبية الرسوم الموجودة على السجادة بقدمها الصغيرة. «أعرف ما تقصده، لكنني اعتقدت دائمًا أنك تحبني خاضعة لك، ومن الصعب عليّ التغيّر الآن».

«أنا أحب ذلك بالفعل»، قالها وهو يجرّها إليه من شعرها. «لكن لا تمانعي حديثي هذا يا ميلي. يجب أن يكون لدى الرجل ما يتذمر بشأنه، وإذا لم يستطع أن يشتكي من أن زوجته ستدفعه إلى الموت بفسادها وعصبيتها المزعجة، فعليه أن يشتكي من أنها ترهقه بلطفها وحنانها».

«ولكن لماذا تشتكي على الإطلاق إلا إذا كنتَ متعبًا وغير راضٍ؟».

«لإيجاد عذر معقول لإخفاقاتي بكل تأكيد، هل تعتقدين أنني سأحمل عبء خطاياي على كتفي، ما دام هناك شخصٌ آخر على استعداد لمساعدتي، شخص نقيّ لا يحمل أي خطايا تخصه؟».

قالت بجدية: «بالفعل، لا يوجد مثل هذا على وجه الأرض». ثم رفعت يده عن رأسها وقبّلتها بحنان بالغ ومشت نحو الباب.

«ماذا الآن؟ إلى أين تذهبين؟».

أجابت مبتسمةً وهي تنظر إليه من خلال خصلات شعرها المتشابكة: «لكي أصفّف شعري، لقد أفسدت خصلاتي».

«انطلقي إذن!»، قال لها.

«إنها امرأة رائعة لكن ضعيفة للغاية وتذوب بين يديّ. أعتقد أنني أسيء استخدامها عندما أتناول الكثير منها. مع ذلك، لا يمكنني مساعدتها لأنها لا تشكو أبدًا، سواء عندما أفعل ذلك أو بعد ذلك. أعتقد أنها لا تمانع في ذلك».

قلت: «يمكنني أن أفيدك حول هذا الموضوع سيد هاترسلي. إنها تمانع في ذلك، وفي أمور أخرى قد لا تسمعها تشتكي منها».

«كيف تعرفين؟ هل تشتكي لك؟»، سألني مع شرارة غضب مفاجئة جاهزة للانفجار إذا كانت الإجابة بـ«نعم».

أجبته: «لا. لكنني عرفتها لفترة أطول ودرستها من كثب أكثر منك، ويمكنني بناءً على ذلك أن أخبرك سيد هاترسلي أن ميليسنت تحبك أكثر مما تستحق، وأن لديك القدرة على جعلها في منتهى السعادة، بدلًا من أن تكون العبقري الشرير، وأجرؤ على القول إنه من المؤكد أنه لم يمر يوم واحد لا تتسبب فيه لها ببعض الآلام التي بإمكانك إنقاذها منها إذا أردت».

قال وهو يحدق بلا مبالاة إلى السقف واضعًا يديه في جَيْبَيْه: «هذا ليس خطئي. إذا لم تَرُقها تصرفاتي عليها أن تخبرني بذلك».

«أليست بالضبط الزوجة التي تريدها؟ ألم تخبر السيد هانتينغدون كم هو رائع أن تكون لديك زوجة تخضع لأي شيء دون تذمر، ولا تلومك أبدًا مهما فعلت؟».

«صحيح، لكن لا يجب أن نحصل دائمًا على ما نريد لأن هذا يفسد أفضل ما لدينا، ألا تتفقين معي؟ كيف سأتمكن من التغلب على الشيطان عندما أرى أنها لا تعترض على أي شيء سواء كنت أتصرف كرجل صالح أو وغد؟

وكيف يمكنني أن أساعدها في التغلب على ما يضايقها عندما تكون خانعة بهذا الشكل، عندما تستلقي بمذلّة عند قدمي ولا تصرخ أبدًا لتخبرني أن هذا يكفي؟».

«إذا كنتَ بطبيعتك طاغيةً فهذا إغراءٌ صعب، أتفق معك. لكن الشهم لا يَسْعَد بقمع الضعيف، بل يعزّه ويحميه».

«أنا لا أقوم بظلمها. لكنه أمر ممل للغاية أن تكون دائمًا عزيزًا ومَحمِيًا. ثم كيف يمكنني الإحساس بأنني أضطهدها وهي تذوب ولا تُبدي أدنى اعتراض؟ أعتقد أحيانًا أنها لا تشعر بأي شيء على الإطلاق، لذلك أستمر إلى أن أراها تبكي، وهذا يُشعرني بالرضا».

«إذن تسعد بقمعها؟».

«فقط عندما أكون في حالة مزاجية سيئة، أو جيدة بشكل خاص، حيث يمكنني أن أؤلمها من أجل متعة مصالحتها. عندما تبدو بليدة وتبدأ باستفزازي بالبكاء ولا تخبرني عن السبب أغضب».

«كما هو الحال في مثل هذه المناسبات بلا شك. في المستقبل، سيد هاترسلي، عندما ترى أنها تبدو بليدة، أو تبكي من دون سبب كما تقول، تأكد أنك السبب وأن هناك خطأً ما فعلته، أو أن سلوكك بشكل عام هو ما يزعجها».

«لا يمكنني تصديق هذا. إن كان الأمر كذلك فعليها أن تخبرني لأنني لا أحب هذه الأسلوب الكئيب والقلق في التزام الصمت وعدم قول أي شيء. إنها ليست صادقة معي، كيف تتوقع مني أن أصلح نفسي بهذا التعامل؟».

«ربما تريد منحكَ فضل امتلاك مبادئ أكثر مما تفعل، وتُوهم نفسها بإمكانية رؤيتك يومًا تدرك أخطاءك وتصلحها إذا تركَتِ الأمر لك».

«لا أقصد السخرية هنا سيدة هانتينغدون، وأعلم أنني لستُ دائمًا على حق، لكن أعتقد أن هذا ليس بالأمر الجلل ما دمتُ لا أُوذِي أحدًا غير نفسي».

قاطعته: «بل هو أمر عظيم، سواء بالنسبة إليك (كما سترى فيما بعد) أو إلى الأشخاص المرتبطين بك، وخاصة زوجتك. من غير المنطقي الحديث عن عدم إيذاء أي شخص غير نفسك لأنه من المستحيل أن تؤذي نفسك من خلال مثل هذه الأفعال دون تأثّر المئات، إن لم يكن الآلاف، بشكل أو بآخر، سواء بالشر الذي تفعله أو بالخير الذي تتركه دون فعل».

«وكما كنت أقول ـ أو كنت سأقول ـ أعتقد أحيانًا أنني سأكون بحال أفضل إذا نبّهتني شريكة حياتي عندما أكون مخطئًا، وحفزتني على فعل الخير ونبذ الشر، على الأقل من خلال إظهار موافقتها على أحدهما ورفض الآخر».

«إذا لم يكن لديك دافع أقوى من تحفيزها، فلن يفيدك ذلك كثيرًا».

«حسنًا، ولكن هذا في حال لم تكن لدي زوجة خنوعة ومستسلمة ودائمة اللطف، بل امرأة لديها الشجاعة للوقوف أمامي بين الحين والآخر وإخباري بصدق برأيها كما تفعلين أنتِ على سبيل المثال. إذا تعاملت معكِ كما أفعل معها عندما أكون في لندن، فمن المؤكد أن المنزل لن يتسع لي».

«أنت مخطئ، أنا لست شريرة».

«هذا أفضل لأنني لا أتحمل التناقض، أنا مثل الآخرين يا سيدتي أحب أن تكون زوجتي مطيعة، كل ما في الأمر هو أن الإفراط في ذلك ليس ممتعًا بالنسبة إلى أي رجل».

«بالنسبة إليّ لم أكن لأعارضك دون سبب وبالتأكيد أخبرك برأيي في سلوكك، ولا يمكنني بأي حال السماح باضطهادي جسديًّا، أو عقليًّا، أو عاطفيًّا».

«أعرف ذلك يا سيدتي، ولو كانت زوجتي الصغيرة تتبع هذا الأسلوب لكان ذلك أفضل لكلينا».

«سأخبرها».

«لا لا، دعيها، هناك الكثير مما يجب علينا التحدث عنه. كثيرًا ما يأسف الوغد هانتينغدون لأنكِ لستِ مثلها، وأنتِ تعلمين كيف أنه من الصعب إصلاحه، إنه أسوأ مني بعشرة أضعاف. هو دون شك يخاف منكِ، أعني أنه دائمًا ما يبذل قصارى جهده في حضورك، لكن..».

«أتساءل ما هو أسوأ سلوك له؟ لم أستطع أن أتحمل يومًا فكرة مراقبته».

«في الحقيقة هو سيئ حقًّا، أليس كذلك يا هارغريف؟»، قال مخاطبًا الرجل الذي دخل الغرفة دون أن أنتبه له، لأنني كنت أقف بالقرب من النار وظهري إلى الباب، وتابع: «أليس هانتينغدون شريرًا إلى درجة أنه..».

أكمل هارغريف: «سيدته لا تقبل سماع إساءة عنه دون عقاب، كل ما يمكنني قوله هو أنني أشكر اللّٰه أنني لست مثله».

قلت: «ربما يجعل هذا الأمر منك إنسانًا أفضل، أن تنظر إلى ما أنت عليه وتطلب من اللّٰه المغفرة».

رد وهو ينحني قليلًا: «أنتِ صارمة دون شك».

ضحك هاترسلي وربت على كتفه بحركة مهينة، لكن السيد هارغريف سحب نفسه بعيدًا إلى الطرف الآخر.

«أليس هذا مضحكًا سيدة هانتينغدون؟ لقد ضربت والتر عندما كنت في حالة سكر في الليلة الثانية بعد مجيئنا، ومنذ ذلك الحين يتعامل معي ببرود على الرغم من أنني طلبت عفوه في صباح اليوم التالي للحادث».

رد الآخر: «طريقتك في الاعتذار والوضوح الذي تتذكر به ما حدث أثبت لي أنك لم تكن مخمورًا إلى درجة عدم إدراكك لما كنتَ بصدده، وأنك مسؤولٌ تمامًا عن تصرفك».

تذمر هاترسلي: «أردتَ التدخل بيني وبين زوجتي، وهذا يكفي لاستفزاز أي رجل».

«هل تبرر ذلك إذن؟»، قال خصمه وهو ينظر إليه بنظرة انتقامية.

«لا. إنما أقول لك إنني لم أكن لأفعل ذلك لولا استفزازك، وإن اخترتَ الحقد بعد كل الأشياء اللطيفة التي قلتها فهذا شأنك».

قال السيد هارغريف وهو يخفي غضبه تحت قناع من الاشمئزاز: «أمتنع عن التحدث معك بمثل هذه اللغة على الأقل في وجود سيدة».

«لم أقل سوى سوى الحقيقة. أليس ملعونا من لا يغفر تجاوزات أخيه سيدة هانتنغتون؟»

قلت: «هيا سامحه سيد هارغريف، أنه يعتذر منك».

«تعتقدين ذلك؟ حسناً إذاً!» ثم ابتسم وهو يتقدم للأمام ويمد يده لصديقه، وبدت المصالحة ودية وصادقة من كلا الجانبين.

«الإهانة تُدان بنصف مرارتها في حضورك، وبما أنكِ طلبتِ مني أن أغفرها فسأنساها أيضًا». تابع هارغريف وهو ينظر إليّ.

تمتم هاترسلي بابتسامة عريضة: «أعتقد أن أفضل عائد يمكنني تحقيقه الآن هو سحب نفسي»، ابتسم وغادر الغرفة وبدأت أشعر بنوع من عدم الراحة. التفت السيد هارغريف إلي وبدأ يتحدث بجدية:

«عزيزتي سيدة هانتنغدون، كم كنت أتوق إلى هذه الساعة ومع ذلك أشعر بالرهبة. لا تنزعجي ـ كان وجهي قرمزيًا من الغضب ـ ، لن أزعجكِ بالتحدث عن مشاعري، لدي فقط ما أكشفه لكِ ويجب أن تعرفيه، ويؤلمني بشكل لا يوصف..».

«إذن لا تزعج نفسك بالكشف عنها!».

«لكنها مهمة».

«إذا كان الأمر كذلك، فسوف أسمع عن الأمر قريبًا خاصة إن كانت أخبارًا سيئة، ويبدو أنك تتولى التفكير فيها بشكل كافٍ. في الوقت الحالي سآخذ الأطفال إلى الحضانة».

«ألا يمكنك الاتصال بالخدم لإرسالهم؟».

«لا. أريد الذهاب إلى الطابق العلوي. هيا يا آرثر».

«هل ستعودين؟».

«لا. لا تنتظر».

«إذًا متى يمكنني رؤيتك مرة أخرى؟».

قلت: «في وقت الغداء»، غادرت وأنا أحمل هيلين الصغيرة بذراع وأقود آرثر بيدي الثانية.

استدار متمتمًا بعض عبارات اللوم أو الشكوى، حيث كانت كلمة «بلا قلب» هي الكلمة الوحيدة التي تمكنت من تمييزها.

«ما هذا الهراء يا سيد هارغريف؟ ماذا تقصد؟»، قلت وأنا أتوقف عند المدخل.

«لا شيء، لم أكن أنوي إسماعكِ مناجاة قلبي ومشاعري، لكن الحقيقة سيدة هانتنغدون لدي اعتراف يؤلمني قوله وأحتاج إلى أن تمنحيني بضع دقائق على انفراد في أي وقت ومكان ترغبين فيه. أطلب ذلك من دون أي دافع أناني وليس لأجل ما يمكن أن يلوّث نقاءك، لذلك لا داعي إلى قتلي بهذه النظرة الباردة والازدراء الذي لا يرحم. أنا أعرف جيدًا المشاعر التي عادةً ما يُنظر بها إلى حاملي الأخبار السيئة..».

«ما هي هذه الأخبار الصاعقة؟»، قاطعته بفارغ الصبر. «إذا كان أي شيء ذا أهمية حقيقية فتحدث به في ثلاث كلمات قبل أن أذهب».

«في ثلاث كلمات لا أستطيع. أرسلي هؤلاء الأطفال وابقي معي».

«فلتبقِ أخبارك السيئة لنفسك. أعلم أنه شيء لا أريد أن أسمعه وستغضبني بقوله».

«أخشى أنكِ محقّة، مع ذلك، لكن لمّا كنتُ أعرفها أشعر أنه من واجبي أن أفصح عنها».

«أوه، وفر علينا هذا الأذى وأنا أعفيك من هذا الواجب. لقد عرضتَ أن تخبرني وأنا رفضت أن أسمع، لن تُحاسَب على جهلي».

«فليكن، لن تسمعيها مني ولكن إذا سقطت عليكِ الضربة فجأة عندما تصلك تذكري أنني كنت أرغب في تخفيفها».

تركته. كنت مصممة على ألا أسمح لكلماته بإزعاجي. ما الذي يمكنه ـ من بين جميع الرجال ـ أن يكتشفه ويكون بهذه الأهمية بالنسبة إليّ؟ لا بد أنها حكاية مبالغ فيها عن زوجي البائس يرغب في استغلالها لخدمة أغراضه السيئة.

6 أكتوبر. لم يلمّح مطلقًا إلى هذا اللغز البالغ الأهمية منذ ذلك الحين ولم أرَ أي سبب للندم على عدم رغبتي في سماعه. لم تُوَجَّه الضربة التي تحدث عنها لي ولا أخافها. في الوقت الحاضر، أنا سعيدة مع آرثر، فهو لم يجلب العار على نفسه لمدة تزيد عن أسبوعين، وطوال الأسبوع الماضي كان معتدلًا للغاية في الشرب على المائدة لدرجة أنني أستطيع أن ألاحظ اختلافًا ملحوظًا في مزاجه العام ومظهره. آمل أن يستمر هذا.

الفصل الثالث والثلاثون

7 أكتوبر. نعم، سآمل!

ليلًا سمعت غريمسبي وهاترسلي يتذمران معًا بشأن سوء ضيافة مضيفهما. لم يعرفا أنني كنت قريبة لأنني كنت أقف خلف الستارة في قوس النافذة أراقب القمر المرتفع فوق مجموعة من أشجار الدردار القاتمة، وأتساءل لماذا كان آرثر يبدو عاطفيًّا للغاية وهو متكئ على العمود الخارجي للرواق يراقبه أيضًا كما يبدو.

قال السيد هاترسلي: «أفترض أننا نشهد ختام مرحنا في هذا المنزل. يبدو أن الصداقة الطيبة لا تدوم طويلًا بكل حال». ثم أضاف ضاحكًا: «لم أكن أتوقع أن ينتهي الأمر بهذه الطريقة. لقد اعتقدت أن مضيفتنا الجميلة ستهدد بإخراجنا من المنزل إذا لم نتبع الآداب العامة».

«لم تتوقع هذا إذن؟»، أجاب غريمسبي بضحكة مكتومة. «لكن ثق بي، سيتغير عندما يمل منها. إذا أتينا إلى هنا بعد عام أو عامين، سيكون لدينا كل ما نريد وسترى».

أجاب الآخر: «لا أعرف. إنها ليست من ذلك النوع من النساء التي سرعان ما يُمل منها، ولكن مهما كان الأمر فهو استفزاز شيطاني الآن لأننا لا نستطيع أن نمرح براحتنا لمّا كان اختار أن يتعامل بسلوكه الجديد».

«كل هؤلاء النساء لعنات!»، تمتم غريمسبي: «إنهن لعنة على العالم! يجلبن المتاعب وعدم الراحة أينما حللن بوجوههن الزائفة وألسنتهن المخادعة».

عند هذا المنعطف خرجت ومررت وأنا أبتسم للسيد غريمسبي وغادرت الغرفة وخرجت بحثًا عن آرثر. بعد أن رأيته وهو يسير نحو الشجيرات تبعته إلى هناك، ووجدته يدخل في الدرب المظلل. كنت خفيفة القلب ومملوءة بالحب لدرجة أنني قفزت عليه واحتضنته. كان لهذا السلوك تأثيرًا فريدًا فيه، غمغم: «بوركتِ حبيبتي!»، وعانقني بشغف مضاعَف كم كان يفعل سابقًا، ثم وبنبرة من الرعب المطلق صرخ: «هيلين! ما هذا؟»، كان شاحبًا من الصدمة.

كم هو غريب أن يأتي الدافع الغريزي للعاطفة أولًا، ثم صدمة المفاجأة! إنه يظهر أن الحب بيننا حقيقي: من الواضح أنه لم يمل مني كما قال صاحبه.

قلت ضاحكة في فرح: «لقد فاجأتك يا آرثر، كم أنت عصبي!».

«وما الذي يدفعكِ إلى فعل هذا؟»، صرخ وهو ينتزع نفسه من ذراعي ويمسح جبينه بمنديله: «ارجعي يا هيلين، ارجعي مباشرة، ستموتين من البرد هنا».

«لن أفعل حتى أخبرك بما أتيت من أجله. إنهم يلومونك يا آرثر على اعتدالك ورصانتك وأنا هنا لأشكرك على ذلك. يقولون إن كل النساء ملعونات، لكن لا تسمح لهم بالضحك أو التذمر بسبب قراراتك الجيدة أو حبك لي».

ضحك وأنا احتضنه مجددًا وأبكي: «ثابِر يا آرثر! وسأحبك أفضل من أي وقت مضى».

«حسنًا حسنًا، سأفعل»، قال وهو يقبلني على عجل. «هيا الآن، اذهبي أيتها المجنونة، كيف يمكنك الخروج بثوب مسائي خفيف في ليلة خريفية باردة كهذه؟».

قلت: «إنها ليلة مجيدة».

«إنها ليلة ستمنحك موتك إن بقيت دقيقة أخرى. انطلقي.. هيا!».

«ماذا.. هل لمحت موتي بين تلك الأشجار يا آرثر؟»، قلتُ ممازحة لأنه

كان يحدق إلى الشجيرات باهتمام كما لو أنه بالفعل رأى موتي قادمًا. كنت مترددة في تركه بعد أن غمرتني السعادة والأمل والحب مجددًا، لكنه غضب بسبب تأخري في الاستجابة لطلبه فقبّلته وركضت عائدةً إلى المنزل.

كنت في حالة انتشاء وفرح عظيم في تلك الليلة: أخبرتني ميليسنت أنني كنت حياة السهرة وهمست بأنها لم ترني أبدًا بهذا الانتعاش. طبعًا تحدثتُ بما يكفي لمدة عشرين عامًا، وابتسمت لهم جميعًا. غريمسبي، هاترسلي، هارغريف، ليدي لوبورو، جميعهم شاركوا في هذا اللطف الأخوي. غريمسبي كان يحدق بتساؤل، هاترسلي يمزح، وعلى الرغم من النبيذ الذي شربه كان ما زال يتصرف بشكل مقبول كأنه يدرك ما يفعله. هارغريف وأنابيلا بسبب دوافع مختلفة وبطرق مختلفة أيضًا حاولا تقليدي، وبلا شك تفوقت على كليهما، الأول في تنوعه الخطابي وبلاغته، والثانية في جرأتها واستعراضاتها. ميليسنت كانت سعيدة برؤية زوجها، وشقيقها، وصديقتها يستمتعون بوقتهم بشكل جيد، كانت هي مفعمة بالحيوية أيضًا بطريقتها الهادئة. حتى اللورد لوبورو أصيب بالعدوى، عيناه الخضراوان الدكناوتان أضاءتا من تحت حواجبه المزاجية وأصبح وجهه الكئيب يتجمل ببعض الابتسامات. اختفت كل آثار الكآبة الباردة عنه في ذلك الوقت وقد أذهلنا جميعًا ليس فقط باستمتاعه الواضح، ولكن أيضًا من خلال ومضات من الذكاء الحقيقي والمبهر من وقت لآخر. لم يتكلم آرثر كثيرًا لكنه كان يضحك ويستمع إلى البقية مستمتعًا بروح الدعابة التي تغمر الجميع، على رغم أنه لم يكن متحمسًا للنبيذ. لذلك بشكل عام استمتعنا بأمسية سعيدة ومسلية للغاية.

9 أكتوبر. أمس، عندما جاءت ريتشيل لتُلبسني للعشاء، انتبهت إلى أنها كانت تبكي. أردت أن أعرف سبب ذلك لكنها بدت مترددة في الحديث. تراها مريضة؟ لا. هل سمعت أخبارًا سيئة من أصدقائها؟ لا. هل أزعجها أي من الخدم؟

«أوه، لا سيدتي، لا شيء من هذا»، أجابت.

«ماذا إذًا ريتشيل؟ هل كنت تقرأين الروايات؟».

«لا»، قالت وهي تهز رأسها بحزن. ثم تنهدت وتابعت: «لكن لأخبرك بالحقيقة يا سيدتي، لا تروقني حالة السيد».

«ماذا تقصدين يا ريتشيل؟ حالته رائعة في الوقت الحاضر».

«حسنًا سيدتي، إذا كنتِ ترين ذلك فهذا صحيح».

واصلت تصفيف شعري بطريقة مستعجلة على عكس طبيعتها المعتادة الهادئة. بدت غامضِة وتتمتم مع نفسها، وعندما أتمت تصفيفتي تأملتني باعتزاز وربتت برفق على رأسي.

«هل هذا الحنان مخصص لشعري أم لي؟»، قلت وأنا ألتفت عليها ضاحكة، ولكنها حتى تلك اللحظة كانت هناك دمعة في عينيها.

«ما الذي يشغل فكركِ يا ريتشيل؟».

«حسنًا سيدتي، لا أعرف لكن إذا..».

«إذا ماذا؟».

«حسنًا، إذا كنت مكانك فلن أسمح بوجود تلك السيدة لوبورو في المنزل دقيقة إضافية!».

صُدمت، لكن قبل أن أتمكن من الإفاقة من الصدمة بما يكفي للمطالبة بتفسير، دخلت ميليسنت غرفتي كما تفعل كثيرًا عندما تنتهي من ارتداء ملابسها قبلي وبقيت معي حتى حان رقت النزول. لا بد أنها وجدتني رفيقة غير اجتماعية هذه المرة لأن كلمات ريتشيل الأخيرة كانت ما زالت ترن في أذني. كنت على الرغم من كل شيء ما زلت آمل أنه ليس لديها إلا بعض الشائعات المنقولة عن الخدم مما رأوه من تصرفات الليدي لوبورو الشهر الماضي، أو ربما من أمرٍ انتبهوا له بين سيدهم وبينها أثناء زيارتها السابقة.

في العشاء راقبتها هي وآرثر بدقة ولم أرَ شيئًا غير عادي في سلوك أي منهما ولا شيء يثير الشك إلا في عقل من فقد الثقة، وهو ما لم أعاني منه وبالتالي لم أشك.

بعد العشاء مباشرة خرجت أنابيلا مع زوجها في نزهة في ضوء القمر حيث كانت أمسية رائعة مثل الأمسيّة السابقة. دخل السيد هارغريف غرفة المعيشة قبل الآخرين بقليل وتحداني للعب الشطرنج، فعل ذلك دون ذلك التواضع الذي يخاطبني به بالعادة بل بأَنَفة وقوة. نظرت إلى وجهه لمعرفة ما إذا كان النبيذ سبب حالته. كان ينظر إليّ بثبات، شعرت أن هناك شيئًا ما لم أفهمه، لكنه بدا على الرغم من ذلك رصينًا بدرجة كافية. آثرت عدم التعامل معه وبالتالي أحلته على ميليسنت.

قال: «إنها تلعب بشكل سيئ، ثم إنني أريد مقارنة مهاراتي بمهاراتك. هيا الآن، لا يمكنكِ التظاهر بالتردد في تقديم مهارتكِ. أعلم أنك لا تلعبينها إلا لتمضية ساعة من الهدوء حيث لا يوجد شيء آخر يمكنك القيام به».

اعترضت: «وتعلم أن لاعبي الشطرنج يميلون إلى الانطوائية ولا يحبون مشاركة أحد سوى أنفسهم».

«لا يوجد أحد هنا سوى ميليسنت، وهي...».

«أوه سأكون سعيدة بمشاهدتكما»، صاحت بحماسة صديقتنا المشتركة، «ستكون متعة كبيرة! أتساءل أيكما سينتصر».

أومأتُ موافقةً.

قال هارغريف بينما يرتب القطع على اللوح بنبرة ثابته وتركيز خاص، كما لو كان هناك معنًى مزدوِج لكلماته: «سيدة هانتينغدون أنتِ لاعبة جيدة، لكني أفضل. ستكون لعبة طويلة وسوف تسبب لي بعض المتاعب، ولكن يمكنني أن أتحلى بالصبر مثلكِ، وفي النهاية سأفوز بالتأكيد». نظر إليّ بنظرة لم أستسغها، متحمسةً، وماكرةً، وجريئةً، ووقحة نوعًا ما، كأنه مُنتصر بالفعل.

«آمل ألا تفعل سيد هارغريف!»، أجبته بقوة لا بد أنها أذهلت ميليسينت على الأقل، لكنه ابتسم فقط وتمتم: «الوقت كفيل بكل شيء».

بدأنا اللعب وكان شديد التركيز لكنه هادئ ولا يخشى منافَستي، بينما أنا على الجانب الآخر حريصة فقط على إحباط توقعاته، لأن هذا النوع من التحدي بدا أكثر جدية مما كنت أتخيل وشعرت بالرهبة من الخسارة أمامه، لم أستطع تحمل فكرة أن فوزه سيضيف إلى ثقته الوقحة بنفسه، أو أشجعه للحظة على التمسّك بحلمه. كانت خطواته حذرة وواعية، لكنني كافحت بشدة ضده. طالت لبعض الوقت مناورات اللعبة وبدا لي أن النصر يميل إلى جانبي. أحبطت العديد من خطواته وأربكته بشكل واضح. وضع يده على جبينه وتوقف في حيرة واضحة. كنت فَرِحةً لكنني لم أجرؤ على الاحتفال بالفوز بعد. رفع رأسه مطوّلًا ثم بهدوء نظر إلي وقال: «والآن تعتقدين أنك ستفوزين، أليس كذلك؟».

أجبته: «آمل ذلك». دفع ببيدقه قطعة الأُسقُفّ خاصتي بشكل مهمل للغاية لدرجة أنني اعتقدت أنه كان سهوًا، لكنه لم يكن كذلك. قال: «هؤلاء الأساقفة هم الذين يزعجونني، ولكن بإمكان الفارس الشجاع دائمًا التغلب عليهم، والآن بعد إبعاد هؤلاء المقدسين سأهزمكِ».

«أوه والتر، كيف تقول هذا! لديها قطع أكثر بكثير مما لديك»، قالت له ميليسنت.

قلت: «أنوي أن أزعجك ببعض المشكلات. ربما تجد نفسك «كش ملك» قبل أن تدرك يا سيدي. راقب ملكتك».

اشتدَّ القتال. كانت اللعبة طويلة وبالفعل منحته بعض المتاعب، لكنه كان لاعبًا أفضل مني.

«أيها اللاعبون المتحمسون!»، قال السيد هاترسلي الذي دخل وجلس يراقبنا لبعض الوقت. «لماذا يا سيدة هانتينغدون ترتجف يدك كما لو أنك

وضعت كل ما لديك عليها؟ ووالتر، أيها الكلب، تبدو ثابتًا وهادئًا كما لو كنت متأكدًا من النجاح، وشرسًا كأنك ستفرغ دم قلبها! لكن لو كنت مكانك فلن أضربها، لسبب قوي: سوف تكرهك إذا فعلت. أقسم لك ستكرهك! أرى ذلك في عينيها».

«هلا أمسكت لسانك لبعض الوقت؟» قلت له لأن كلامه شوشني ودفعني من خلال بضع حركات للتورط بشكل لا ينفصم في فخ خصمي.

«كش... ملك»، نطق بها بهدوء وبطء شديد ولكن بسعادة واضحة. شعرت بالفزع وأربكتني طريقته في نطق إعلان فوزه، كان هاترسلي يضحك وميليسنت مضطربة لرؤيتي بهذا الانزعاج. وضع هارغريف يده على يدي المستندة على المنضدة وضغط عليها بقوة ولطف وتمتم «مهزومة!»، وحدق إلى وجهي بنظرة حيث امتزج سروره بشيء من الحنان والكثير من الإهانة.

«أبدًا، سيد هارغريف!»، صرخت وسحبت يدي بسرعة.

«هل تنكرين؟»، أجاب بابتسامة مشيرًا إلى لوحة اللعب. أجبت «لا»، مدركة أن سلوكي يبدو غريبًا: «لقد هزمتني في تلك اللعبة».

«هل تودين لعب جولة أخرى إذن؟».

«لا».

«أنتِ تقرّين بتفوقي إذًا؟».

«نعم، كلاعب شطرنج». قلت وأنا أنهض لاستئناف عملي.

«أين أنابيلا؟»، قال هارغريف بشكل جاد بعد إلقاء نظرة خاطفة حول الغرفة.

«خرجت مع لورد لوبورو»، أجبته لأنه بدا أنه ينتظر مني إجابة.

«ولم يعودا بعد؟».

«أفترض لا».

«وأين هانتينغدون؟».

قال هاترسلي وهو يكتم ضحكة اندلعت عندما أنهى الجملة: «خرج مع غريمسبي كما تعلم».

لماذا ضحك؟ ولماذا ربطهما هارغريف معًا بهذه الطريقة؟ أهذا هو الأمر إذًا؟ هل كان هذا هو السر المروع الذي كان يرغب في الكشف عنه لي؟ يجب أن أعرف وبسرعة. نهضت على الفور وغادرت الغرفة لأبحث عن ريتشيل وأطلب شرحًا لكلماتها. لكن السيد هارغريف تبعني إلى غرفة الانتظار وقبل أن أتمكن من فتح الباب الخارجي وضع يده برفق على المقبض: «هل لي أن أخبرك بشيء يا سيدة هانتينغدون؟»، قال بنبرة خافتة وعيون جادة حزينة.

«إذا كان شيء يستحق الاستماع»، أجبته وأنا أعاني من أجل التحكم في اضطرابي الواضح لأنني كنت أرتجف بقوة.

بهدوء سحب كرسيًّا نحوي، لكني اكتفيت بالاستناد إليه وطلبت منه أن يكمل كلامه.

قال: لا تندهشي، ما أريد أن أقوله ليس شيئًا في حد ذاته وسأتركك تستخلصين منه استنتاجاتكِ الخاصة. أنت تقولين إن أنابيلا لم تعد بعد..».

«نعم. أكمل!»، قلت بنفاد صبر.

تابع: «وسمعتِ أن هانتينغدون خرج مع غريمسبي..».

«حسنًا؟».

«سمعت هذا الأخير يقول لزوجك ـ أو للرجل الذي يسمي نفسه بذلك..».

«أرجوك أكمل يا سيدي!».

انحنى وتابع: «سمعته يقول: دَعِ الأمر لي، وسترى. لقد ذهبا إلى البحيرة. سألتقي بهما هناك وأخبر لوبورو أنني أريد التحدث معه قليلًا عن بعض الأشياء التي لا نحتاج إلى إزعاج السيدة بها، وهي ستقول إنها ستعود إلى

المنزل، وبعد ذلك سأشير لها بغمزة كما تعلم لتذهب إلى طريق الشجيرات، وأشغله بالتحدث بقدر استطاعتي حول الأمور التي أخبرتك عنها، أو أي أمور أخرى يمكنني التفكير فيها، ثم أرجعه من الاتجاه الآخر وأشغله بالتنزه بين الأشجار والحقول وأي شيء آخر يمكنني أن أحدّثه عنه و...»، توقف السيد هارغريف ونظر إليّ.

دون كلمة أو مزيد من الأسئلة نهضت وانطلقت من الغرفة خارجة من المنزل. كان عذابًا لم يُحتَمل، لن أشك في زوجي بناءً على اتهام هذا الرجل ولن أفقد ثقتي به دون دليل ـ يجب أن أعرف الحقيقة في الحال. طرت إلى حيث الشجيرات وبالكاد كنت قد وصلت عندما استوقفني صوتٌ يلهث.

«لقد بقينا طويلًا..»، كان صوت السيدة لوبورو.

«مطلقًا أيتها الأعز، يمكنك العبور عبر العشب والدخول بهدوء قدر الإمكان، وسأتبعك بعدها بقليل».

كانت ركبتيّ ترتجفان وذهني مشوشًا إلى درجة أني أوشكت على الإغماء. لا يمكنني أن أدعها تراني بهذه الحال. اختبأت بين الشجيرات واتكأت على جذع شجرة إلى أن مرَّت.

«آه هانتينغدون!»، قالت وهي توبخه بغنج عندما وصلت إلى حيث وقفتُ معه في الليلة السابقة، «هنا قبّلتَ تلك المرأة»، تقدم منها وأجاب بضحكة متهورة:

«حسنًا يا حبي، لم أستطع التهرب من الأمر. تعلمين أنني ملزم بالتظاهر بالاستقامة أمامها قدر استطاعتي. ألم أراكِ تقبّلين زوجك عشرات المرات؟ هل اشتكيتُ يومًا؟».

«لكن قل لي، أما زلت تحبها ولو قليلًا؟»، قالت وهي تضع يدها على ذراعه وتنظر بجدية في وجهه لأني كنت أراهما بوضوح تحت ضوء القمر.

«ولا أقل من القليل، أقسم بكل ما هو مقدس!»، أجاب وهو يقبل خدها المتوهج.

«يا إلهي! يجب أن أرحل»، صرخت وهي تنسلخ عنه وتحلّق بعيدًا.

بقي هناك واقفًا وحده أمامي. لكن لم تكن لدي القوة لمواجهته الآن. علق لساني في سقف فمي. كنت كمن يغرق بينما هو فوق سطح الأرض، كدت أتساءل كيف لم يسمع دقات قلبي وهي تعلو تنهدات الريح وحفيف الأوراق المتساقطة. بدت حواسي كأنها تخذلني لكنني كنت ما زلت أستطيع رؤيته يمر أمامي، وسمعته بوضوح يقول وهو ينظر نحو العشب: «ها هو الأحمق، اركضي أنابيلا، اركضي، إنه هناك، آه لم يرها! هذا صحيح. لأن غريمسبي حرص على إبقائه بعيدًا عنهما!». حتى ضحكته الخافتة وصلت إليّ وهو يبتعد عائدًا خلفها إلى المنزل.

«ساعدني يا إلهي!»، تمتمتُ حين كنتُ أغرق على ركبتي بين الأعشاب الرطبة والشجيرات التي أحاطت بي، نظرت إلى السماء المُقمِرة من خلال أوراق الشجر، بدا كل شيء قاتمًا في نظري. سعى قلبي المحترق والمتفجر إلى بث آلامه إلى الله لكنه لم يستطع التخلص من كربه بالصلاة. إلى أن هبت عليّ نسمات برّدت جبهتي، بينما كانت تُسقِط الأوراق الميتة مثل الآمال البائسة، وبدا أنها تعيد إحيائي من الغرق. شعرت بعدها بروحي تسمو مجددًا عبر الدعاء الصامت وبدا أن التأثير السماوي عاد ليقوّيني من الداخل. عدت إلى التنفس بحرية أكبر، ووضحت رؤيتي مجددًا. رأيت القمر يسطع بوضوح والغيوم تملأ السماء المظلمة والنجوم تتلألأ. كنت أعلم أن ربهم الذي هو ربّي كان يصغي إليّ وهو أعظم من أن يتركني، «لن أتركَكِ أبدًا»، شعرت به يهمس لي من خلف النجوم التي لا تعد ولا تحصى.

لا. لن يتركني، على الرغم من هذا الجحيم، يجب أن أمتلك القوة وأفوز براحتي أخيرًا!

استعدت رباطة جأشي وقمت وعدت إلى المنزل. كنت أشعر بشجاعة وقوة تبخرت بمجرد دخولي المنزل، كل ما رأيته وسمعته بدا أنه يغضب قلبي: القصر، والمصابيح، والسلم، والأبواب، والأصوات، والحديث، والضحك الذي كان يصل إلى سمعي من غرفة المعيشة. كيف يمكنني تحمل حياتي المستقبلية في هذا المنزل وبين هؤلاء الناس؟ دخل جون إلى القصر وأخبرني أنه أُرسل بحثًا عني، مضيفًا أنه وقت تناول الشاي وكان السيد يرغب في معرفة ما إذا كنتُ قادمةً.

«هلا طلبت من السيدة هاترسلي أن تتكرم بتحضير الشاي يا جون؟»، قلت.

ذهبت إلى غرفة الطعام الكبيرة الفارغة حيث كان كل شيء صامتًا والغرفة مظلمة، وهناك بقيت أجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا وأنا استعرض أفكاري المريرة وحدي. كم كان هذا المساء مختلفًا عن مساء أمس! كان هذا على ما يبدو آخر وميض من سعادة حياتي. حمقاء مسكينة، إلى درجة أنني كنت سعيدة جدًّا.

أستطيع الآن أن أرى سبب استقبال آرثر الغريب لي في الشجيرات، انفجار اللطف كان لعشيقته، والرعب لزوجته. الآن أيضًا يمكنني فهم المحادثة بين هاترسلي وغريمسبي بشكل أفضل، كانا بلا شك يتحدثان عن حبه لها.

سمعت باب غرفة المعيشة يفتح، كانت ميليسنت، خرجت بخطوات سريعة وعبرت الممر وصَعِدت الدرج. المسكينة كانت ذاهبةً للاطمئنان عليّ. لم يهتم لغيابي أحد سواها. لم أكن قد ذرفتُ دموعًا قبل ذلك، لكنها الآن كانت تنهمر بسرعة وحرية. هكذا قدمت لي ميليسنت الخير دون أن تقترب مني. بخيبة أمل سمعتها تنزل بعد أن فشلت في العثور عليّ، هبطت السلالم ببطء وعادت إلى غرفة المعيشة. كنت سعيدة، لأنني لم أعرف كيف أقابلها أو ماذا أقول. لم أرغب في أي صديق مقرب في محنتي. لقد حملت العبء على عاتقي وأردت تحمله وحدي.

مع اقتراب ساعة المغادرة المعتادة، جفّفتُ دموعي وحاولت تصفية صوتي وتهدئة عقلي، يجب أن أرى آرثر وأتحدث معه، وسأفعل ذلك لكن بهدوء، لا ضرورة لأن يكون هناك مشهد يشكو فيه أو يتباهى به أمام رفاقه، أو ليضحكهم عليه. عندما غادر الجميع إلى غرفهم فتحت الباب برفق وبمجرد مروره، طلبت منه الدخول.

«ماذا تفعلين هنا يا هيلين؟ لماذا لم تأتي لتحضير الشاي لنا؟ ولماذا أنت في الظلام؟ ما الذي يزعجك أيتها الشابة، أنتِ تبدين كشبح!»، قال وهو يتفحصني على ضوء شمعته.

أجبت: «لا يهم. يبدو أنه عاد لا يكون لديك أي اعتبار لي، ولا لديّ أي شيء لك».

«هيبي! ما هذا بحق الجحيم؟»، قال بقلق.

تابعت: «كنت لأتركك غدًا ولا أعود تحت هذا السقف أبدًا، لكن من أجل طفلي..»، توقفت للحظة لأثبّت صوتي المرتجف.

«ما الذي تقولينه بحق الجحيم يا هيلين؟ ما الذي تتحدثين عنه؟».

«أنت تعرف جيدًا. دعنا لا نُضِع الوقت في التفسير غير المجدي؟».

أقسمَ بشدة أنه لا يعرف عمَّ أتحدث، وأصر على سماع ما كانت المرأة العجوز السامة تشوه اسمه به، والأكاذيب الشائنة التي كنتُ حمقاءَ بما يكفي لتصديقها.

أجبته ببرود: «وفر على نفسك عناء إرهاق عقلك لخنق الحقيقة بالباطل. لم أثق بشهادة أي شخص ثالث. كنتُ هناك خلف الشجيرات هذا المساء، ورأيت وسمعت بنفسي».

كان هذا كافيًا. قال بتعجب مكبوت وذعر: «فهمت الآن»، وضع شمعته على أقرب كرسي وأعطى ظهره للحائط ووقف في مواجهتي بأذرع مطوية.

«حسنًا، وماذا بعد؟»، قال بوقاحة هادئة ممزوجة بالخجل.

«هذا فقط. هل تسمح لي بأخذ طفلنا وما تبقى من ثروتي والرحيل؟».

«الرحيل إلى أين؟».

«إلى أي مكان يكون فيه في مأمن من تأثيرك الملوث ومتحررًا منك».

«لا».

«هل تسمح لي بأخذه إذن دون المال؟».

«لا. ولا حتى أنتِ دونه. هل تعتقدين أنني سأجعل نفسي حديث البلد بسبب نزواتكِ المتطرفة؟».

«إذن مجبرة أنا على البقاء هنا رغمًا عن إرادتي، ولكن من الآن فصاعدًا نحن زوج وزوجة فقط بالاسم».

«حسنٌ جدًّا».

«أنا والدة طفلك وراعية منزلك لا أكثر. لذلك، لن تزعج نفسك بعد الآن بالتظاهر بالحب الذي لا يمكنك الشعور به، لن أطالبك بأي عاطفة ولن أمنحها. لن يُسخَر من محبتي الزوجية، بمنح جوهرها إلى شخص آخر!».

« فليكن. سنرى من سيتعب أولًا سيدتي».

«إذا ما تعبت فسيكون ذلك بسبب العيش في العالم معك وليس العيش دون استهزائك بالحب. عندما تتعب من طرقك الخاطئة وتظهر توبتك الصادقة مما تفعل فسأغفر لك، وربما أحاول أن أحبك مرة أخرى، على الرغم من أن ذلك سيكون صعبًا حقًّا».

«هممم! وفي غضون ذلك ستذهبين وتتحدثين عني مع السيدة هارغريف، وتكتبين رسائل طويلة إلى الخالة ماكسويل تشكين فيها من البائس الشرير الذي تزوجتِه؟».

«لن أشتكي لأحد. لقد جاهدت حتى الآن لإخفاء رذائلك من كل عين واستثمار فضائلَ لم تكن تمتلكها، ولكن الآن يجب أن تنظر إلى نفسك».

تركته يتمتم بلغة بذيئة مع نفسه، وصَعِدت السلم.

قالت ريتشيل وهي تنظر إليّ بقلق: «أنت مسكينة يا سيدتي».

قلت: «هذا صحيح جدًّا يا ريتشيل»، مجيبةً عن نظراتها الحزينة بدلًا من كلماتها.

«كنت أعرف ذلك، لكن لم أكن لأذكر مثل هذا الشيء».

«لا تزعجي نفسكِ بشأن ذلك، يمكنني أن أتحمل أفضل مما تتخيلين»، قلت وأنا أقبّل خدها الشاحب.

«نعم. لطالما كنتِ تفضلين تحمّل الأمور. لكن لو كنت مكانكِ لما تحمّلت هذا الأمر. كنت أخوض فيه وأبكي بشدة! كنت سأتحدث أيضًا، نعم، أتحدث وأخبره بما يعنيه..».

قلت: «لقد تحدثت يا ريتشيل، لقد قلت ما يكفي».

قالت: «ثم سأبكي، لن أبدو شاحبة وهادئة جدًّا وأذهل قلبي بكتم كل شيء في الداخل».

قلت وأنا أبتسم على الرغم من حزني: «لقد بكيت. وأنا الآن هادئة بحق، لذا دعينا لا نتحدث أكثر عن ذلك ولا نذكره للخدم. هيا، يمكنك الذهاب الآن. تصبحين بخير ولا تزعجي راحتك من أجلي، سأنام جيدًا».

على الرغم من هذا القرار، وجدت سريري غير محتمل لدرجة أنني قبل الساعة الثانية فجرًا قمت وأشعلت شمعتي في منتصف الليل، جلست في رداء النوم لأكتب مسترجعة حوادث المساء الماضي. كان من الأفضل أن أشغل نفسي بدلًا من أن أكون مستلقيةً على السرير أعذّب عقلي بذكريات الماضي وتوقعات المستقبل. لقد وجدت الراحة في وصف الظروف التي دمرت سلامي، بالإضافة إلى التفاصيل الصغيرة المصاحبة لاكتشافها. ما من نوم كان بإمكاني الحصول عليه هذه الليلة. كان من الممكن أن أفعل الكثير

من أجل اتخاذ قراري وإعداد نفسي لمواجهة اليوم، ومع ذلك عندما أتوقف عن الكتابة، أجد في رأسي آلامًا رهيبة، وعندما أنظر إلى الزجاج أذهل من مظهري المتهالك البالي.

في الصباح التالي كانت ريتشيل ـ وهي تلبسني ـ تقول إن بإمكانها بوضوح رؤية أنني أمضيت ليلة حزينة. دخلت ميليسنت لتتفقدني وأخبرتها إنني بحال أفضل، لكن من أجل إعفاء مظهري أخبرتها بأنني قضيت ليلة مضطربة. أتمنى أن ينتهي هذا اليوم سريعًا، أرتجف من فكرة الذهاب لتناول الإفطار برفقتهم، كيف سأواجههم جميعًا؟ مع ذلك يجب أن أذكّر نفسي أنني لست المذنبة هنا وليس لدي سبب للخوف. إذا استهزؤوا بي كضحية لذنبهم، فيمكنني بدوري أن أشفق على حماقتهم وأحتقر ازدراءهم.

الفصل الرابع والثلاثون

انتهى الإفطار، كنت هادئةً وباردة طوال الوقت. أجبت باقتضاب عن جميع الاستفسارات المتعلقة بصحتي، وكل ما كان مختلفًا في شكلي أو أسلوبي أرجعته إلى التوعك الذي تسبب في انسحابي المبكر الليلة الماضية. لكن كيف لي أن أتجاوز الأيام العشرة أو الاثني عشر التي يجب أن تنقضي قبل أن يغادروا؟ مع ذلك، فلماذا أتوق إلى رحيلهم؟ عندما يرحلون كيف سأخوض الشهور والسنوات المقبلة بصحبة هذا الرجل الذي أصبح أعظم عدوٍّ لي؟ ذلك أن لا أحد سواه تجرأ على إيلامي كما فعل. أوه! عندما أفكر في مدى إعجابي السابق به، كم كنت أحبه بحماقة، كم وثقت به بجنون، وكم كنت أجاهد باستمرار بالصلاة والعمل من أجل مصلحته وكيف داس بقسوة على حبي، خان ثقتي، استهزأ بدموعي وجهودي للحفاظ عليه، وسحق آمالي وهو يحكم عليّ بحياة بائسة ميؤوس منها. لا يكفي أن أقول إنني عدتُ لا أحب زوجي ـ أنا أكرهه! الكلمة تحدق إلى وجهي مثل اعتراف بالذنب لكنها صحيحة، أنا أكرهه.. أكرهه! مع ذلك أتمنى أن تغمر رحمة الله روحه البائسة وتجعله يرى ويشعر بالذنب، لا أطلب أي انتقام آخر! إذا أصبح بإمكانه يومًا الشعور بخطاياه حقًّا فهذا خير انتقام ويمكنني حينها العفو عنه تمامًا، لكنه تائه وغارق في الفساد لدرجة أنني أشعر أنه لن يفعل ذلك أبدًا في هذه الحياة، لكن من غير المجدي الخوض في هذا الموضوع من جديد، من الأفضل تبديد التفكير في هذه التفاصيل المزعجة.

لقد أزعجني السيد هارغريف طوال اليوم بتهذيبه المبالغ فيه وتعاطفه

المفرط الذي (كان يعتقد) أنه أمر لطيف. لو كان أسلوبه أصرحَ لقَلَّلَ من عنائي لأنني وقتها يمكنني بسهولة صده واستبعاده. لكنه بقي كما هو، لطيفًا ولبقًا إلى درجة أنني إنْ فعلت ذلك أكون وقحة وناكرة للجميل. أعتقد أحيانًا أنني يجب أن أعطِيَه الفضل في الشعور الجيد الذي يبعثه فيّ، ثم أعود وأشعر أنه من واجبي أن أشك فيه في ظل الظروف الخاصة التي وُضعت فيها. قد يكون لطفه حقيقيًّا، لكن مع ذلك لن أسمح لامتناني له بدفعي إلى نسيان نفسي، سأبقي أذكّر نفسي بلعبة الشطرنج، والتعبيرات التي استخدمها في تلك المناسبة، ونظراته التي لا يمكنني وصفها والتي أثارت سخطي بحق. أعتقد أنني سأكون آمنة بدرجة كافية، لأنني قمت بعمل جيد بتسجيلها في ذاكرتي بدقة شديدة.

أعتقد أنه يرغب في العثور على فرصة للتحدث معي على انفراد. لقد كان حاضرًا طوال اليوم لكنني حَرَصت على تخييب أمله، ليس لخشيتي من أي شيء قد يقوله، لكن لدي مشاكلي التي تكفيني ولا طاقة لي لإضافة مواساته أو تعازيه أو أي شيء آخر قد يحاول تقديمه، ومن أجل ميليسنت لا أرغب في الاختلاف معه. انتبهت إلى أنه اعتذر عن الخروج مع السادة الآخرين في الصباح بحجة وجود رسائل ينوي كتابتها، وبدلًا من أن يذهب لهذا الغرض إلى المكتبة، دخل إلى حيث كنت أجلس مع ميليسنت وليدي لوبورو. كنت قد أشغلت نفسي عنهما بقراءة كتاب، ليس من أجل صرف ذهني بل من أجل تفادي محادثتهما. رأت ميليسنت أنني أود بعض الهدوء وبالتالي دعتني وشأني. أنابيلا بلا شك رأت ذلك أيضًا، لكن لم يكن هذا سببًا كافيًا لجعلها تلجم لسانها أو روحها المرحة، وبناءً على ذلك بقيت تتجاذب أطراف الحديث بصوت عالٍ، مخاطبة إياي بشكل حصري تقريبًا وبأقصى قدر من الثقة والألفة، وزادت ودًّا كلما أصبحت إجاباتي أكثر برودة واقتضابًا. رأى السيد هارغريف أنني لا أستطيع تحمل ذلك وأجاب عن بعض أسئلتها

وملاحظاتها الموجّهة إليّ بقدر ما استطاع، محاولًا نقل انتباهها مني إلى نفسه، لكنها لم تستجب له. ربما اعتقدت أنني أعاني من صداع ولا أستطيع تحمل الكلام، على أي حال لاحظت أن ثرثرتها الصاخبة كانت تزعجني وتحققت ذلك بشكل فعال عن طريق سحب ورقة كنت أخربش عليها موضوعة بالقرب من الكتاب الذي كنت أحاول قراءته وأخذتهما بسرعة خاطفة. بهدوء نظرت إليها وقلت:

«أنا على دراية جيدة بشخصيتكِ وسلوككِ لِتَأَكُّد استحالة إيجاد صداقة حقيقية بيننا، ولأنني لا أمتلك موهبتكِ الفذّة في الإخفاء لا يمكنني تحمّل التظاهر. لذلك أتوسل منكِ من الآن فصاعدًا إيقاف أي نوع من التواصل بيننا. إذا واصلتُ معاملتكِ بلطف، كما لو أنكِ امرأة تستحق الاحترام، فافهمي أن ذلك ليس سوى احترام لمشاعر ابنة خالتكِ ميليسنت، وليس لمشاعركِ».

تحولت إلى اللون القرمزي وهي تعض على شفتها غضبًا. مزّقت الورقة ورمتها في النار ثم بدأت في تقليب صفحات الكتاب والاطلاع على محتوياته، ظاهريّاً على الأقل. بعد فترة وجيزة، قالت ميليسنت إنها تعتزم الذهاب لترتيب غرفة الحضانة وسألت عما إذا كنت أود مرافقتها.

قالت: «أنابيلا ستعذرنا، إنها مشغولة بالقراءة».

«لا لن أفعل»، صرخت أنابيلا وهي تنظر إلينا وتلقي بكتابها على الطاولة، «أريد التحدث مع هيلين قليلًا. يمكنكِ الذهاب ميليسنت وستتبعك بعد قليل».

«هل تتكرمين بإخباري بما يحدث يا هيلين؟»، قالت بعد أن ذهبت ميليسنت.

أذهلتني وقاحتها، لكنني امتثلتُ لها وتبعتها إلى المكتبة بعد إغلاق الباب. وقفتْ بالقرب من النار وقالت: «من أخبرك بهذا؟».

«لا أحد، أنا لست عاجزة عن الرؤية بنفسي».

«أوه هيلين، أنت تعانين من الشك فقط»، صاحت وهي تبتسم ببصيص أمل. حتى تلك اللحظة كانت تشعر بنوع من اليأس وأصبح من الواضح أنها ارتاحت لهذا التفسير.

أجبتها: «إذا كنت مشككة لكان من الأفضل أن أكتشف هذا العار منذ فترة طويلة. لا ليدي لوبورو، لم أجد التهم الموجهة إليكِ في خانة الشكوك».

«أين وجدتِها إذن؟»، قالت وهي تلقي بنفسها على كرسي بذراعين ومدت قدميها إلى الحاجز في محاولة واضحة للظهور بهدوء.

أجبتها: «أنا أستمتع بالتنزه تحت ضوء القمر مثلكِ، ويصادف أن منطقة الشجيرات هي أحد ملاذاتي المفضلة»، غرستُ عينيّ في عينيها وأنا أنطق بعبارتي.

تلونت هذه المرة بشكل مفرط وبقيت صامتة تضغط على أسنانها وتحدق إلى النار. شاهدتها بضع لحظات بشعور من الإشباع الحاقد ثم مشيت بهدوء نحو الباب وسألتها عما إذا كان لديها أي شيء آخر لتقوله.

«نعم نعم!»، صرخت بلهفة وهي تنهض من وضعية الاستلقاء. «أريد أن أعرف ما إذا كنتِ ستخبرين لورد لوبورو؟».

«افترضي أنني فعلت؟».

«حسنًا، إذا كنت تميلين إلى نشر الأمر فلا يمكنني ثنيك بالطبع، ولكن سيكون هذا تصرفًا فظيعًا إذا قمت به، وإذا لم تفعلي فأنا أومن أنك أكرم الكائنات البشرية، وإن كان هناك أي شيء في العالم يمكنني أن أفعله من أجلك ـ أي شيء ما عدا..».

صمتت وهي مترددة.

«ما عدا التخلي عن علاقتكِ المحرّمة بزوجي، أفترض أنك تقصدين هذا؟».

بقيت صامتة في ارتباك وغمرتها نوبة غضب واضحة لكنها لم تجرؤ على إظهارها.

تمتمت بنبرة خافتة متسارعة: «لا يمكنني التخلي عما هو أغلى من الحياة بالنسبة إليّ». ثم فجأة رفعت رأسها ونظرت إليّ بعينيها اللامعتين وواصلت بجدية: «لكن هيلين، أو سيدة هانتينغدون، أو أي اسم تفضلين أن أناديكِ به ـ هل حقًّا ستخبرينه؟ إذا كنت كريمة بالفعل فهذه فرصة مناسبة لممارسة شهامتكِ. إذا كان الأمر يرضيكِ، فأنا هنا على استعداد للإقرار بأنني مدينة لك بفعل أنبل من الصبر».

«لن أقول له».

«ألن تفعلي؟ أوه أرجوكِ تقبّلي امتناني البالغ».

نهضت ومدت لي يدها، تراجعتُ عنها.

«لا تشكريني، ليس من أجلك أمتنع. ثم إنه ليس عملًا من أعمال الصبر، لا أرغب في نشر خِزْيك فحسب. يؤسفني أن أوجِع زوجك المسكين بإعلامه بذلك».

«وميليسنت؟ هل ستخبرينها؟».

«لا. على العكس، سأبذل قصارى جهدي لإخفاء الأمر عنها. لا أريد أن تعرف مدى العار الذي يحيط بعلاقاتها».

«أنت تستخدمين كلمات قاسية سيدة هانتينغدون، لكن يمكنني عذرك».

«والآن سيدة لوبورو، دعيني أنصحك بمغادرة هذا المنزل في أقرب وقت ممكن. يجب أن تدركي أن بقائكِ هنا أمر غير مقبول بالنسبة إليّ ـ والأمر ليس كذلك بالطبع بالنسبة إلى السيد هانتينغدون»، قلتُ وأنا أراقب ابتسامة نصر خبيثة على وجهها.

«كل ما في الأمر هو أنه من المزعج لي أن أقوم دائمًا بإخفاء مشاعري

الحقيقية تجاهكِ وبذل الجهد للحفاظ على الكِيَاسة والاحترام تُجاه شخص لا أملك نحوه ذرة من الاحترام. بالإضافة إلى ذلك، إذا بقيتِ، لا يمكن ضمان أن يبقى سلوككِ مخفيًّا لفترة أطول عن الشخصين الوحيدَين اللذين لا يعرفان ذلك إلى الآن. من أجل زوجك، أنابيلا، وحتى من أجلك، أتمنى وأنصحكِ بشدة وأحثك على قطع هذه العلاقة غير المشروعة في الحال والعودة إلى القيام بواجبك بينما يمكنك ذلك، قبل أن تدركك العواقب الوخيمة..».

قالت، «نعم نعم بالطبع»، قاطعتني بلفتة من نفاد الصبر. «لكن أرجوكِ أن تتفهمي أنني لا يمكنني الذهاب قبل الوقت المحدد لمغادرتنا يا هيلين. ما الذريعة المحتملة التي يمكنني تأطيرها لمثل هذا الشيء؟ سواء اقترحتُ العودة بمفردي ـ وهو ما لن يسمح به لوبورو ـ أو اصطحابه معي، فمن المؤكد أن الظروف نفسها ستثير الشك، خاصة عندما تقترب زيارتنا من نهايتها بالفعل، أكثر من أسبوع بقليل ـ بالتأكيد يمكنكِ تحمل وجودي لفترة كهذه، لن أزعجك بأي تصرف، أعدكِ».

«فليكن. ليس لدي ما أقوله لكِ أكثر من ذلك».

«هل ذكرتِ هذا الأمر لهانتينغدون؟»، سألتني بينما كنت أغادر الغرفة.

«كيف تجرؤين على ذكر اسمه لي!»، كان الجواب الوحيد الذي أعطيته لها.

لم تمر أي كلمات بيننا منذ ذلك الحين، ولكن الكياسة واللباقة الخارجية كانت مطلوبة.

الفصل الخامس والثلاثون

19 أكتوبر. بينما وجدتْ ليدي لوبورو أنه ليس لديها ما تخشاه مني ومع اقتراب موعد المغادرة، أصبحتْ كما توقعت أجرأ وأوقح، فهي لا تتردد في التحدث إلى زوجي بشكل حميمي في حضوري عندما لا يكون هناك أي شخص آخر، مغرمة بشكل خاص بإظهار اهتمامها بصحته ورفاهيته أو أي شيء يتعلق به وبشكل يتناقض مع شخصيتها اللا مبالية الباردة. هو بدوره كان يكافئها بالابتسامات والنظرات، والكلمات الهامسة أو التلميحات الجريئة التي تدل على رغبته بها وانجذابه إليها وإهمالي بحيث يجعل الدم يندفع إلى وجهي رغمًا عني، لأنني ـ بغض النظر عن كل شيء ـ أصمّ أذني وأغلق عيني عن كل ما يمر بينهما، فكلما أظهرت نفسي أكثر إدراكًا لشرهما انتشت هي بانتصارها وزاد تبجحه بسبب توهمه أنني ما زلت أحبه بإخلاص على الرغم من تظاهري باللا مبالاة. في مثل هذه المواقف كان يحرّضني اقتراح خفي وشيطاني على إظهار العكس له من خلال إبداء عدم ممانعتي لمحاولات هارغريف للتقرب مني، لكن كنت فورًا أنفي مثل هذه الأفكار وأحتقرها، ثم أكرهه أكثر من أي وقت مضى لأنه أوصلني إلى هذا ـ فليغفر لي الله عن ذلك وكل أفكاري الخاطئة. بدلًا من أن أتواضع وأتطهّر من محنتي، أشعر أنهم يحولون طبيعتي إلى أخرى مريرة. لا بد أن يكون هذا خطئي بقدر ما هو خطؤهم. لا يمكن لأي مؤمن حقيقي أن يتقبل الإحساس بمثل هذه المشاعر السيئة التي أشعر بها تُجاهه وتجاهها، وخاصة الأخيرة. بالنسبة إليه ما زلت أشعر أنني أستطيع العفو عنه وبكل سرور عند أدنى إشارة للتوبة، لكن هي..

آه! الكلمات لا يمكنها أن تترجم غيظي منها. عقلي يمنعني من الحقد ولكن عاطفتي تحثني وبقوة، عليّ أن أصلّي وأجاهد طويلًا قبل أن أستسلم لها.

من الجيد أنها ستغادر غدًا، لأنني عدتُ لا أستطيع تحمل وجودها ليوم آخر. هذا الصباح استيقظتْ في وقت أبكر من المعتاد. وجدتها في الغرفة بمفردها عندما ذهبت لتناول الإفطار.

«أوه هيلين! هذا أنت؟»، قالت عندما دخلت وفوجئتُ بوجودها وألقت ضحكة قصيرة أَتْبَعَتها بـ: «أعتقد أننا كلانا نشعر بخيبة أمل».

تقدّمتُ وشغلت نفسي بالإفطار.

قالت وهي تجلس على الطاولة: «إنه اليوم الأخير الذي سأثقل فيه عليكِ. آه، ها هو شخص لا يسعده هذا الأمر»، تمتمت عندما دخل آرثر الغرفة.

صافحها وحياها، بعد ذلك نظر بحب إلى وجهها وهو ما زال محتفظًا بيدها في يده، تمتم بشكل مثير للشفقة: «إنه اليوم الأخير.. الأخير!».

بجرأة قالت: «نعم، وقد نهضتُ مبكرًا لتحقيق أقصى استفادة منه، بقيتُ جالسة هنا وحدي لمدة نصف ساعة، وأنت.. أوه أنت مخلوق كسول».

«حسنًا، اعتقدت أنني نهضت لذلك مبكرًا أيضًا، لكن كما ترين لسنا وحدنا»، قال عبارته الأخيرة وهو يخفض صوته تقريبًا إلى الهمس.

ردت قائلة: «نحن لا نكون وحدنا أبدًا»، لكنهما كانا كأنهما وحدهما في الواقع، لأنني كنت آنذاك أقف عند النافذة أراقب السحب، وأكافح من أجل قمع غضبي.

تبادلا المزيد من الكلمات بينهما والتي لحسن الحظ لم أسمعها، لكن أنابيلا كانت لديها الجرأة للمجيء والوقوف بجانبي وحتى وضع يدها على كتفي والقول بهدوء: «لا داعي إلى أن تحقدي عليه لأنني أحبه أكثر مما يمكنكِ أن تفعلي في يوم من الأيام يا هيلين».

أمسكتُ بيدها وأبعدتها عن كتفي بعنف يرافقه تعبير عن اشمئزاز وسخط لا يمكن قمعه. أذهلَتها هذه الفاشية المفاجئة وشعرت بالفزع الشديد وتراجعتْ في صمت. كنت سأفسح المجال لغضبي وأقول المزيد، لكن ضحكة آرثر المنخفضة ذكّرتني بنفسي. استدرتُ مبتعدة بازدراء وأنا أشعر بالأسف لأنني منحته الكثير من التسلية. كان ما زال يضحك عندما ظهر السيد هارغريف. لا أعرف مقدار ما شاهده لأن الباب كان مواربًا عندما دخل. رحب بمضيفه وابنة خالته ببرود وحيّاني بنظرة واحدة للتعبير عن تعاطف ممزوج بإعجاب وتقدير كبيرَين.

«ما مقدار الولاء الذي تدينين به لهذا الرجل؟»، سأل بهمس وهو يقف بجانبي عند النافذة متظاهرًا بالتحدث عن الطقس.

أجبت «لا شيء». وعلى الفور عدتُ إلى المائدة، فأشغلت نفسي بتجهيز الشاي. تبعني وكان من الممكن أن يدخل في محادثة ما معي، لكن الضيوف الآخرين بدؤوا في التجمع وعدتُ لا أهتم به، باستثناء مناولته قهوته.

بعد الإفطار، عازمةً على قضاء أقل قدر ممكن من اليوم بصحبة ليدي لوبورو، تسللتُ بهدوء بعيدًا عن المجموعة وذهبت إلى المكتبة. تبعني السيد هارغريف إلى هناك بحجة بحثه عن كتاب. في البداية، استدار إلى الرفوف واختار مجلدًا ثم بهدوء ولكن دون أي خجل اقترب مني ووقف بجانبي واضعًا يده على ظهر الكرسي وقال بهدوء «إذًا، ترين أنكِ حرّة نهاية الأمر؟».

«نعم»، قلت دون أن أتحرك أو أرفع عيني عن كتابي، «حرّة في فعل أي شيء سوى الإساءة إلى اللّٰه وضميري». تبعتها فترة صمت.

قال: «أنتِ محقة، شريطة ألا يكون ضميركِ هشًّا بشكل مَرَضي ولا تكون أفكاركِ عن اللّٰه متزمتة. هل تفترضين أن اللّٰه يقبل بإهانة من يرجو رضاكِ ومن هو مستعد للموت من أجل سعادتكِ؟ مستعد لرفع العذاب من هذا القلب ونقله إلى النعيم؟»، قال ذلك بنبرة منخفضة وهائمة وهو ينحني فوقي. رفعت

رأسي وواجهت نظرته بثبات وأجبت بهدوء: «سيد هارغريف، هل تقصد إهانتي؟».

لم يكن يتوقع ذلك. توقف للحظة للإفاقة من الصدمة. ثم سحب نفسه ورفع يده عن مقعدي وأجاب بحزن: «لم يكن ذلك في نيتي».

نظرت نحو الباب وأومأت بحركة طفيفة في الرأس ثم عدت إلى كتابي. انسحب على الفور. كان هذا أفضل مما لو كنتُ قد أجبت بمزيد من الكلمات وبتأثير العاطفة التي كان الدافع الأول وراءها. يا له من أمر جيد أن تكون قادرًا على التحكم في أعصابك! يجب أن أجتهد لتنمية هذه الخاصية التي لا تقدر بثمن، اللّٰه وحده يعلم عدد المرات التي سأحتاج إليها في هذا الطريق الوعر المظلم أمامي.

في الصباح توجهت إلى ذا غروف ـ منزل آل هارغريف ـ مع السيدتين لإعطاء ميليسنت فرصة لتوديع والدتها وشقيقتها. هناك أقنعوها بالبقاء معهم لبقية اليوم ووعدتْ السيدة هارغريف بإعادتها في المساء والبقاء إلى الغد. ونتيجة لذلك، كان من دواعي سرورنا أنا والليدي لوبورو أن نعود متقابلتين وجهًا لوجه في العربة. في أول ميل أو ميلين التزمنا الصمت، كنت أنظر من نافذتي وكانت تتكئ على نافذتها في ركنها، لكنني لم أكن مستعدة لتقييد نفسي بأي شكل لتجنبها، لذلك عندما سئمت من الانحناء للأمام وتعريض وجهي للرياح الباردة القاسية، استسلمت وأرجعت ظهري إلى الوراء أيضًا. بوقاحتها المعتادة بذلت رفيقة الدرب بعض المحاولات لبدء محادثة بينما اكتفيت أنا بالردود المقتضبة بـ«نعم» أو «لا» أو «ممم»، وكانت أقصى ما يمكن أن تثيره بي ملاحظاتها العديدة. أخيرًا، عند سؤالها عن رأيي بشأن بعض النقاط غير المهمة قلت لها:

«لماذا ترغبين في التحدث معي سيدة لوبورو؟ لا بد أنكِ أصبحتِ تعلمين انطباعي عنك في هذه المرحلة».

أجابت: «حسنًا، إذا كنت تشعرين بالاستياء مني فلا يمكنني فعل شيء بشأن هذا الأمر، لكنني لا أتعامل مع أي شخص بنكَد»، كانت رحلتنا القصيرة حينها قد بلغت نهايتها. بمجرد فتح باب العربة قفزتْ ونزلتْ إلى الحديقة لمقابلة السادة الذين كانوا عائدين للتو من الغابة. بالطبع لم أتبعها.

لكنني لم أنتهِ من وقاحتها، فبعد العشاء ذهبت إلى غرفة المعيشة كالعادة ورافقتني، لكن كان معي الطفلان لذا منحتهما كل انتباهي وعقدت العزم على الاستمرار بذلك حتى مجيء السادة أو حتى وصول ميليسنت مع والدتها. ومع ذلك، سَرعان ما سئمت هيلين الصغيرة من اللعب وأصرّتْ على النوم، وبينما جلست على ركبتي وجلس آرثر الصغير بجانبي وهو يلعب بلطف بشعرها الناعم، جاءت الليدي لوبورو بثبات وأجلست نفسها على الجانب الآخر من الأريكة.

قالت: «غدًا، سيدة هانتينغدون، ستُعتَقِين من وجودي وهو أمر سيسعدكِ بلا شك، ومن المنطقي أن يكون. لكن هل تعلمين أنني قدمت لكِ خدمة رائعة؟».

«سأكون سعيدة بمعرفة أي خدمة تكونين قدَّمْتِها لي»، قلت وأنا مصممة على الهدوء، لأنني عرفت من نبرة صوتها أنها تريد استفزازي.

استأنفت قائلة: «حسنًا، ألم تلاحظي التغيير المفيد الذي طرأ على السيد هانتينغدون؟ ألا ترين كم أصبح رجلًا رزينًا ومعتدلًا؟ لاحظت مثلكِ مع الأسف العادات السيئة التي كان يتبناها، وأعلم جيدًا أنكِ بذلت قصارى جهدكِ لتخليصه منها ولكن دون جدوى، إلى أن أتيتُ لمساعدتك. أخبرته بكلمات قليلة أنني لا أستطيع أتحمل رؤيته يحطّ من قدر نفسه، وأنه يجب أن يتوقف عن ذلك وإلا... بغض النظر عما أخبرته به، بإمكانكِ رؤية الإصلاح الذي حقّقته ويجدر بكِ شكري على ذلك».

نهضتُ وناديت المربية لأخذ الطفلين.

تابعت هي كلامها: «لكنني لا أرغب في الشكر، كل الذي أطلبه هو أن تعتني به عندما أرحل، القسوة والإهمال بالنتيجة ستعيده إلى عاداته القديمة».

كنت أشعر بإعياء وريتشيل كانت على الباب. أشرت لها إلى الطفلين لأنني لم أكن متأكدة أنني يمكنني التحدث. أخذَتهما وتبعتهم.

«هلا فعلتِ يا هيلين؟»، واصلتْ أنابيلا.

ألقيت عليها نظرة أفسدت الابتسامة الخبيثة على وجهها، أو بالأحرى تفحّصتها للحظة ثم غادرت. التقيت في الممر المؤدي إلى غرفة المكتبة بالسيد هارغريف الذي لاحظ أنني لست في مزاج لأي حديث، وبالتالي سمح لي بالمرور دون أن ينبس ببنت شفة، ولكن بعد بضع دقائق من العزلة في المكتبة استعدت رباطة جأشي، وعدتُ للانضمام إلى السيدة هارغريف وميليسنت اللتين علمت أنهما وصلتا وموجودتان في غرفة المعيشة. وجدته ما يزال هناك في الغرفة ذات الإضاءة الخافتة، ومن الواضح أنه ينتظرني.

«سيدة هانتينغدون، هل لي بكلمة؟»، قال لي أثناء مروري.

«ما هي؟ كن سريعًا إذا سمحت».

«لقد أسأت إليكِ هذا الصباح، ولا يمكنني أن أواصل يومي بشكل طبيعي وأنتِ مستاءة».

أجبته مبتعدةً: «إذنِ اذهب ولا تكرر الإساءة مجددًا».

«لا لا!»، قال سريعًا وهو يقفز أمامي. «عفوًا، ولكن يجب أن أحصل على مغفرتك. سأغادر غدًا وقد لا تسنح لي الفرصة للتحدث إليكِ مرة أخرى. كنت مخطئًا في نسيان نفسي ونسيان وضعكِ. لكن اسمحي لي أن أطلب منك أن تنسي وتغفري افتراضاتي المتهورة، وأن تعتبري هذه الكلمات لم تُلفظ قط. أنا آسف بصدق، وفقدان احترامكِ عقوبة قاسية لا يمكنني تحملها».

«النسيان لا يُشترى برغبة ولا يمكنني منح تقديري لكل من يرغب في ذلك، إلا إذا كان يستحقه».

«سأعتبر أنني أستحق حياتي التي قضيتها جيدًا في العمل، إذا غفرتِ لي عن هذه الإساءة، هل يمكنكِ ذلك؟».

«نعم».

«نعم! ولكنكِ تقولينها ببرود. امنحيني يدكِ لأصدقكِ، إن لم تفعلي يا سيدة هانتينغدون معنى ذلك أنكِ لا تغفرين لي!».

«أنا أسامحك. لا تكررها فقط مرة أخرى».

ضغط على يدي الباردة بحماسة عاطفية، لكنه لم يقل شيئًا ووقف جانبًا للسماح لي بالمرور إلى الغرفة حيث كان كل أفراد المجموعة موجودين. كان السيد غريمسبي جالسًا بالقرب من الباب عندما رآني أدخل ويتبعني هارغريف على الفور، ونظر إليّ بنظرة ذات مغزى لا يطاق عندما مررت. نظرت في وجهه إلى أن دفعته للابتعاد، إن لم يكن بسبب الخجل، فقد كان بسبب الإرباك. في هذه الأثناء كان هاترسلي قد أمسك بهارغريف من ذراعه وبدأ يهمس بشيء في أذنه، أعتقد أنها كانت بعض النكات الوقحة بلا شك، لأن الأخير لم يضحك أو يرد بجواب، لكن بعد أن استدار عنه بخطوة واحدة ذهب إلى حيث تجلس والدته التي كانت تخبر اللورد لوبورو عن عدد الأسباب التي تجعلها فخورة بابنها.

آه! شكرًا لله. كلهم مغادرون غدًا.



الفصل السادس والثلاثون

20 ديسمبر 1824. إنها الذكرى الثالثة لزواجنا السعيد. مر شهران على مغادرة ضيوفنا، وأصبحت لدي تسعة أسابيع من الخبرة في التعامل مع هذه المرحلة الجديدة من الحياة الزوجية ـ شخصان يعيشان معًا بصفتهما سيد المنزل وسيدته، وأبًا وأمًّا لطفل صغير مرح ورائع، مع الاتفاق والفهم المشترك بأنه لا يوجد حب أو صداقة أو أي نوع من التعاطف بينهما. بقدر تناقض الأمر مع شعوري الداخلي، أحاول أن أعيش معه بسلام. أعامله بكياسة لا تشوبها شائبة وأتخلى عن راحتي له حيثما كان ذلك ممكنًا وأستشيره بطريقة عملية في الشؤون المنزلية وأرجئ إلى رضاه وحُكمه حتى عندما أعرف أن الأخير أقل فائدة أو شأنًا من حكمي.

بالنسبة إليه، في الأسبوع الأول لمغادرتهم كان غاضبًا ومحبطًا، أعتقد بسبب رحيل الغزيزة أنابيلا، بالإضافة إلى ذلك وعلى وجه الخصوص بسببي حيث كان تعاملي معه باردًا وبلا عاطفة. كان وجهي الشاحب البليد مثيرًا لاشمئزازه وصوتي جعله يرتجف. كان يتساءل كيف يمكنه العيش تحت سقف واحد معي خلال الشتاء. مرة أخرى اقترحتُ الانفصال، لكن الأمر لم ينجح حيث لا يمكن أن يسمح لي بجعله حديث المنطقة ويقال عنه إنه رجل متوحش لم تستطع زوجته تحمّل العيش معه. لا، لا بد من تدبير الأمر بحيث نبقى معًا.

قلت: «تقصد يجب تدبير الأمر بحيث أتحمّل الحياة معك. ما دمتُ أقوم بمهام المضيفة ومدبرة المنزل، بضمير حسن وبدون أجر أو شكر،

فلا يمكنك تحمل التخلي عني. لذلك سأقوم بتحويل هذه الواجبات عندما تصبح عبوديتي غير محتملة». اعتقدت أن هذا التهديد من شأنه أن يساعد في إبقائه تحت السيطرة، إذا كان هناك أي شيء يمكنه ذلك.

أعتقد أنه يصاب بخيبة أمل كبيرة لأن أقواله المسيئة لا تفلح باستفزازي بشكل أحدّ. عندما يقول شيئًا محسوبًا جيدًا وبشكل خاص لإيذاء مشاعري، كان يحدق ويبحث في وجهي ثم يتذمر بشأن «قلبي الرخامي» أو «افتقادي الإحساس» إن بكيت أو استنكرت فقدانه للتعاطف أو العاطفة. كان أحيانًا يتنازل ويصالحني لفترة من الوقت لمجرد مواساته في وحدته في غياب حبيبته أنابيلا إلى أن يتمكن من ذلك. أشكر اللّٰه أنني لست ضعيفة لهذا الحد. لقد كنت مفتونة ذات يوم بعاطفة حمقاء ملتهبة وتشبثتُ به على الرغم من عدم استحقاقه، لكنها انتهت الآن تمامًا وذبلتْ، وليس لديه إلا نفسه ورذائله ليشكرهما على ذلك.

في البداية (وفقًا لتعليمات سيدته اللطيفة على ما أظن) امتنعَ بشكل رائع عن السعي إلى تخفيف حزنه عبر الانغماس في شرب النبيذ، لكنه بدأ بعدها في الاستسلام لتأثيره، وتجاوز المعقول بين الحين والآخر، وما زال يفعل في غالب الأحيان. عندما يكون تحت التأثير المثير لهذه التجاوزات فإنه ينفعل ويحاول لعب دور الغاضب، وأحاول حينها قمع ازدرائي واشمئزازي. ثم عندما يكون تحت التأثير المحبط لعواقب هذه التجاوزات فإنه يتحسر على معاناته وأخطائه ويوجهها ببساطة إليّ. يعرف أن هذا التساهل يضر بصحته ويضره أكثر مما ينفع، مع ذلك يتهمني بإيصاله إليها من خلال سلوكي غير الطبيعي والأناني الذي سيتسبب في هلاكه في النهاية. حينها كنت أنتفض للدفاع عن نفسي أحيانًا بتوجيه الاتهامات المريرة، هذا ظلم لا يمكنني تحمّله بصبر، ألم أجتهد طويلًا وبجهد لإنقاذه من هذه الرذيلة بالذات؟ ألم أجتهد حتى الآن على الرغم من خيبة أملي لإنقاذه منه إذا استطعت؟ كيف يطلب

مني تدليله وتسليته وأنا أعلم أنه يحتقرني؟ هل هو ذنبي أنني فقدت تأثيري فيه؟ هل أطلب الصلح معه عندما أشعر أنني أبغضه وأنه يحتقرني؟ وبينما يستمر في التواصل مع الليدي لوبورو كما أعلم؟ أبدًا! فليشرب حتى الموت، هذا ليس خطئي.

مع ذلك، ما زلتُ أقوم بواجبي لإنقاذه، أُفهمه أن الشرب يجعل عينيه باهتتين ووجهه أحمرَ ومنتفخًا ويجعله يبدو أبلهَ جسدًا وعقلًا، وإذا كانت أنابيلا ستراه كثيرًا مثلي فسوف تشعر بخيبة أمل سريعًا وبالتأكيد ستهجره إذا استمر على هذا المنوال. مثل هذا الأسلوب في التحذير يكسبني الإساءة الفظة فقط، وفي الواقع أشعر كأنني أستحق ذلك لأنني أكره استخدام مثل هذه الحجج، لكنها تؤثر بقوة في قلبه المغرم بها، وتجعله يتوقف ويتأمل ويمتنع عن الإفراط في الشرب، أكثر من أي شيء آخر أستطيع قوله.

في الوقت الحالي أستمتع براحة مؤقتة من وجوده: لقد ذهب مع هارغريف في رحلة صيد بعيدة قد لا يعود منها قبل مساء الغد. كم كنت أشعر في غيابه بشعور مختلف!

ما زال السيد هارغريف يقيم في «ذا غروف». كثيرًا ما يلتقي هو وآرثر لمتابعة رياضاتهما معًا. غالبًا ما ندعوه إلى منزلنا وآرثر بدوره يزوره بشكل منتظم. لا أعتقد أن أيًّا من هؤلاء الأصدقاء المتعثرين يشعر بالحب للآخر، كل ما في الأمر أن مثل هذه اللقاءات تساعدهم في قضاء بعض الوقت الممتع، وأنا أرحّب باستمرارها لأنها توفر لي بضع ساعات من الراحة من إزعاجات آرثر، وتمنحه بعض النشاطات الأفضل من الخضوع لشهواته الحسية. الاعتراض الوحيد الذي لديّ على السيد هارغريف هو أن الخوف من الالتقاء به في «ذا غروف» يمنعني من رؤية شقيقته كما أتمنى. في الأوان الأخير بدأ يتصرف معي بلياقة بالغة لدرجة أنني نسيت سلوكه السابق. أفترض أنه يسعى جاهدًا «إلى كسب تقديري». إذا استمر في التصرف بهذه الطريقة

فقد يفوز بها، ولكن ماذا بعد ذلك؟ في اللحظة التي يحاول فيها طلب أي شيء آخر، سيفقده مرة أخرى.

10 فبراير. إنه لأمر صعب ومرير أن تتراجع المشاعر الطيبة والنيات الحسنة لدى المرء. لقد بدأت في التراجع عن كرهي تجاه شريكي وأصبحت بدلًا من ذلك أشفق عليه من حالته البائسة، أظن أنني يجب أن أضحي بكبريائي وأجدد جهودي مرة أخرى لكي أجعل بيئة بيته لطيفة وأعيده إلى طريق الصلاح، ليس من خلال منح الحب الكاذب ولا عن طريق التظاهر بالندم، ولكن من خلال التخفيف من برودة السلوك المعتادة، وتحويل الكياسة المتجمدة إلى اللطف أينما سنحت الفرصة. لم أكتفي بالتفكير بالأمر بل بدأتُ بالفعل في التصرف بناءً على الفكرة ـ وماذا كانت النتيجة؟ ولا شرارة من اللطف أو التوبة، بل روح الدعابة التي لا تهدأ والغضب المستبد الذي زاد كلما زاد تساهلي معه، وبريق من الشعور بالانتصار عند كل تعامل ليّن في أسلوبي مما جعلني أعود كأنني «رخامٌ» مرة أخرى كلما تكرر تعامله البغيض، ثم وفي هذا الصباح أتمَّ الأمر بحيث أعتقد أن تحجُّري قد نُفِّذ بنحوٍ لا شيء يمكن أن يذوّبني بعده مرة أخرى. من بين رسائله، كانت رسالة اطّلع عليها بأعراضِ إشباع غير عادي ثم ألقى بها عبر الطاولة إليّ قائلًا:

«هاكِ، اقرأيها وخذي العبرة منها».

كانت مكتوبة بيد السيدة لوبورو. ألقيت نظرة خاطفة على الصفحة الأولى، بدت مملوءة بالاحتجاجات المبالغ فيها على بُعدهما بعضهما عن بعض، والتوق الشديد إلى لَمّ شملهما وتحدي تفويضات اللّٰه، والسير ضد عنايته لأنهم لقيا نصيبهما من الخراب بحكمه عليهما بأن يكونا من ضمن أولئك الذين لا يستطيعون أن يستمتعوا بحبهم. ضحكَ قليلاً عندما رأى تغيّر لوني. طويتُ الرسالة بهدوء وأعدتها إليه مع ملاحظة وحيدة:

«شكرًا لك. سأحرص على الاستفادة من الدرس».

كان صغيري آرثر يقف بين ركبتيه وهو يلعب بسعادة بخاتم الياقوت اللامع على إصبعه. بدافع لا شعوري مفاجئ لإنقاذ ابني من هذا التأثير الملوَّث أمسكت به بين ذراعي وحملته معي إلى خارج الغرفة. لم يحب الصغير هذه الحركة المفاجئة فبدأ بالتجهّم والبكاء. كانت هذه طعنة جديدة لقلبي المعذب بالفعل. لم أسمح له بالعودة إلى أبيه بل أخذته معي إلى المكتبة وأغلقت الباب وركعت على الأرض بجانبه واحتضنته وقبلته وأنا أبكي معه بانفعال شديد. وبدلًا من خوفه من ذلك استدار وهو يحاول الانعتاق مني وصرخ بصوت عالٍ مناديًا والده، لذا حرّرته من ذراعي. لم أذرف يومًا دموعًا بمرارة تفوق تلك التي كنت أخفيها حينها عندما جاء الأب إلى الغرفة عند سماع صراخه. ابتعدت على الفور خشية أن يرى مشاعري ويسيء فهمها، شتمني وهو يأخذ الطفل بعيدًا.

من الصعب عليّ أن أراه يميل إلى والده أكثر مني، عندما تكون رفاهيته وثقافته هي كل ما أصبحت أعيش من أجله. أعتقد أنني سأرى تأثيري مهشّمًا من قِبل شخص أناني أضرّ عليه من أقسى أنواع الاستبداد. إذا حرمته من أجل مصلحته من بعض التساهل التافه، فسيذهب بطبيعة الحال إلى والده، والأخير على الرغم من كسله الأناني سيلبّي رغبات الطفل. إذا حاولتُ كبح إرادته أو التعامل معه بشيء من الجدية بسبب العصيان الطفولي، فهو يعلم أن والده سوف يبتسم ويأخذ دوره ضدي. وبهذا لن تكون معركتي مقتصرة فقط على تأثير الأب في الطفل وجراثيم ميوله الشريرة وجماعته الفاسدة وتعامله مع الحياة للتصدي لها، بل يتصدى لعملي الشاق: سيدمّر تأثيري في ذهنه الرقيق ويسلب حبي من قلبه. لم يبقَ لدي أي أمل في الحياة إلا هذا، ويبدو أنه سيسعد بانتزاعه أيضًا مني.

لكن اليأس خطأ. سوف أبقى أذكّر نفسي أن الذي يتقي ربه يمكنه أن يسلك الظلمة دون شعلة نور، ذلك أنه يتّكل على اسم الرب.

الفصل السابع والثلاثون

20 ديسمبر 1825. ها هو عام آخر يمضي. سئمت من هذه الحياة ومع ذلك لا يمكنني أن أتركه مهما عانيت من المصاعب. لا يمكنني أن أذهب وأترك طفلي في هذا العالم المظلم والشرير وحيدًا، دون صديق يرشده بينما يخوض متاهات الحياة ليحذر من الأخطار المحدقة به من كل جانب. أنا أعلم أنني لست مؤهلة لأن أكون صديقه الوحيد، من المستحيل أن أدخل في هواياته الطفولية كما يجدر بمربية أو أمّ أن تفعل، وغالبًا ما تزعجني نوبات فرحه الصاخبة وتربكني لأني أرى فيها روح أبيه ومزاجه، وأرتجف وأبكي وأنا أفكر في العواقب. بينما أرى هذا الأب على العكس من ذلك دون ذرة حزن أو انزعاج أو قلق بشأن ابنه في المستقبل، وفي الأمسيّات على وجه الخصوص في الأوقات التي يراه فيها الطفل كثيرًا، يكون دائمًا مازحًا ومتفتحًا بشكل خاص ومستعدًّا للضحك والمزاح مع أي شيء أو أي شخص سواي، في حين أكون أنا صامتة وحزينة بسبب ذلك، لذلك بالطبع فإن الصغير بطبيعة الحال يميل إلى أبيه المَرِح وينغمس معه في متعته دائمًا.

يزعجني هذا كثيرًا، ليس فقط من أجل نيل محبة ابني (على الرغم من أن ذلك يُهمني كثيرًا، وهو حقي لأنني فعلت الكثير لأستحقه) والتأثير فيه، والذي من أجل مصلحته سأسعى جاهدة إلى الاحتفاظ به، والذي على الرغم من أن والده سيكون سعيدًا بحرماني منه لمجرد إشباع أنانيته، ودون الاستفادة من الأمر إلا لتعذيبي وإفساد الطفل. عزائي الوحيد هو أنه يقضي القليل نسبيًّا من وقته في المنزل، وخلال الأشهر التي يقضيها في لندن أو في

أي مكان آخر لدي فرصة لاستعادة الأرض التي فقدتها والتغلب بالخير على الشر الذي أحدثه وسوء تربيته المتعمدة. إنها تجربة مريرة أن أراه عند عودته وهو يبذل قصارى جهده لتخريب جهودي وتحويل طفلي البريء المرهف إلى فتًى أناني وعاصٍ ومؤذٍ، وبذلك يعيد إلى التربة تلك الرذائل التي غرسها فيها بطبيعته المنحرفة.

لحسن الحظ لم ندعُ أيًّا من «أصدقاء» آرثر إلى غراسديل في الخريف الماضي، فقد ذهب هو لزيارة بعضهم بدلًا من ذلك. أتمنى أن يفعل ذلك دائمًا وأن يكون أصدقاؤه كثيرين ومحبين بدرجة كافية لإبقائه بينهم طوال العام. السيد هارغريف ـ وهو أمر أثار انزعاجي إلى حد كبير ـ لم يذهب معه، لكني أعتقد أنني انتهيت من ازعاجات هذا الرجل أخيرًا.

لمدة سبعة أو ثمانية شهور بقي يتصرف بشكل مهذب، ونجح في فعل ذلك بمهارة أيضًا، لدرجة أنني تخليت قليلًا عن حذري الصارم وبدأت في النظر إليه كصديق ومعاملته على هذا النحو، مع إبقاء بعض القيود الضرورية الحكيمة (وهو ما أعتبره نادرًا ما يكون ضروريًّا) بافتراض أن لطفي واطمئناني له قد يشجّعه على تجاوز حدود الاعتدال اللائق واللباقة التي كانت تقيده لفترة طويلة.

في أمسية لطيفة في ختام شهر مايو كنت أتجول في الحديقة، وعندما لمحني هناك بينما كان يتنزه بدوره تجرأ على الدخول وترك حصانه عند البوابة. كانت هذه هي المرة الأولى التي يجرؤ فيها على الدخول إلى منزلي منذ أن تُركتُ وحدي فيه دون مرافقة والدته أو شقيقته أو على الأقل بعذر وجود رسالة منهم، لكنه كان هادئًا ومحترمًا في تعامله. على الرغم من أنني فوجئت قليلًا فإنني لم أشعر بالقلق أو الإهانة من الحرية غير العادية التي أصبح يتعامل بها معي، سِرنا بالقرب من الجانب المائي للحديقة وتحدث بذوق رفيع وذكاء في العديد من الموضوعات قبل أن أبدأ في التفكير في التخلص منه.

ثم بعد فترة وقفنا خلالها نحدق إلى المياه الزرقاء الهادئة، كنت أبحث فيها في ذهني عن أفضل وسيلة لإبعاده بأدب، وهو بلا شك يفكر في أمور أخرى بنفس القدر، صعقني وهو يبدأ بالهمس الوجداني القديم ذاته، بنبرة منخفضة ورقيقة بدأ بالتعبير عن حبه الجاد، ويتوسل بكل البلاغة والبراعة التي يمكن أن يستدعيها لمساعدته. قطعت حديثه ورفضته بشكل حاسم وبصورة حادة ممزوجة بالسخط المملوء بالازدراء والشفقة على عقله، لدرجة أنه انسحب مندهشًا ومذعورًا من الحالة التي رآني بها. بعد أيام قليلة سمعت أنه غادر إلى لندن، ومع ذلك عاد في غضون ثمانية أو تسعة أسابيع ولم يبتعد عني تمامًا، لكنه تصرّف بطريقة رائعة لدرجة أن شقيقته البارعة لم تفشل في ملاحظة التغيير الذي طرأ عليه.

قالت لي ذا صباحٍ عندما كنت في منزلهم، وكان قد غادر لتوّه الغرفة بعد أن تبادل معي بضع كلمات باردة من باب الكياسة: «ماذا فعلتِ لوالتر سيدة هانتينغدون؟ لقد أصبح رسميًّا للغاية في تعامله معك في الأوان الأخير، لا أستطيع أن أتخيل ما الذي يجري بينكما. أخبريني ما الأمر حتى أكون وسيطتك وأعيد صداقتكما كما كانت».

قلت: «لم أفعل شيئًا للإساءة إليه، إذا كان قد تلقّى أي إهانة منّي، فبإمكانه أن يخبرك بنفسه عن الأمر».

صرخت الفتاة وهي تقفز وتخرج رأسها من النافذة: «سوف أسأله، إنه في الحديقة ـ والتر!».

«لا لا، إستر توقفي! سوف تغضبينني بشدة إذا فعلتِ ذلك وسأغادر على الفور ولن أعود مرة أخرى لشهور وربما سنوات».

«هل ناديتِني يا إستر؟»، قال شقيقها وهو يقترب من النافذة من الخارج.

«نعم، أريد أن أطلب منك...».

قلت لها وأنا أهم بالمغادرة: «أتمنى لكِ نهارًا جميلًا إستر».

تابعت قائلة: «أردت أن أطلب منك إحضار وردة للسيدة هانتينغدون».

صرخت وهي تركض نحوي وتمسك بيدي سريعًا: «سيدة هانتينغدون، أنا مصدومة تمامًا منكِ أيضًا، أنتِ غاضبة وباردة مثله، وأنا مصممة على إعادتكما صديقين كما كنتما من قبل».

«إستر! كيف يمكنكِ أن تكوني فظة إلى هذا الحد!»، صرخت بها السيدة هارغريف التي كانت جالسة تحيك: «لن تتعلمي أبدًا أن تتصرفي كسيدة!».

«حسنًا يا أمي، لكن أنتِ قلت بنفسك أن..»، ولكن أُسكِتَت الشابة بإصبع أمها المصحوب بهزة قوية وصارمة من رأسها.

«أليست مزعجة؟»، همستْ لي. ولكن قبل أن أتمكن من إضافة نصيبي من التأنيب عاد السيد هارغريف للظهور من النافذة ومعه وردة طحلبية جميلة في يده.

«هاكِ إستر، أحضرت لكِ الوردة»، قالها وهو يمدها نحوها.

«ناولها إياها بنفسك أيها الأحمق!»، صرخت وهي تتراجع من بيننا.

«تفضلي سيدتي»، قالها بنبرة جادة للغاية ومنخفضة بحيث لا تسمعه والدته. أخذت شقيقته الوردة وأعطتها إليّ.

«مع تحيات أخي سيدة هانتينغدون، وهو يأمل في أن تتوصلا إلى تفاهم أفضل بمرور الوقت. هل سيحدث ذلك يا والتر؟»، أضافت الفتاة الشقيّة واستدارت إليه ووضعت ذراعها حول رقبته بينما كان يقف متكئًا على عتبة النافذة، «أم ينبغي أن أقول إنك آسف لأنك كنتَ شديد الحساسية؟ أم أنك تأمل أن تغفر لك؟».

«أنت فتاة سخيفة لا تعرف ما الذي تتحدث عنه»، أجابها بحدّة.

«والآن إستر أصرّ على مغادرتكِ الغرفة»، تدخلت السيدة هارغريف التي، إذا كانت لا تعلم شيئًا عن موضوعنا، إلا أنها رأت على الأقل أن ابنتها كانت تتصرف بشكل غير لائق.

قلت: «لا عليكِ سيدة هارغريف، لأنني مغادرة على أية حال».

بعد حوالي أسبوع أحضر السيد هارغريف شقيقته لرؤيتي. تصرف في البداية بطبعه المعتاد البارد، والبعيد، والمترجّح بين الرسمية والكآبة. لكن إستر لم تُبدي أي تعليق عليه هذه المرة، من الواضح أنها قد تعلمت سلوكيات أفضل. تحدثت معي وضحكت ومازحت آرثر رفيقها المحبوب الذي أغراها إلى الخروج من الغرفة للركض في الصالة ومن ثم إلى الحديقة. نهضت لإشعال النار فسألني السيد هارغريف إذا كنت أشعر بالبرد وأغلق الباب، وهو تصرف لم يأتِ في وقت مناسب لأنني كنت أنوي الذهاب لتفقد إستر وآرثر الصاخبين، ثم أخذ حريته في الاقتراب من النار بنفسه وسألني إذا كنت على علم بأن السيد هانتينغدون موجود الآن في منزل اللورد لوبورو ومن المرجح أن يبقى هناك بعض الوقت.

«لا»، أجبت بلا مبالاة وإن كان خدّي يتوهج كالنار.

«لا اعتراض لديكِ على ذلك؟»، قال.

«على الإطلاق، إذا كان اللورد لوبورو مستمتعًا باستضافته».

«لم يبقَ في قلبك حبٌّ له إذن؟».

«ولا أقلّه».

«كنت أعرف ذلك، كنت أعلم أنك أرقى وأنقى بطبيعتك من الاستمرار مع شخص كاذب وملوث بأية مشاعر سوى السخط والاشمئزاز».

«أليس صديقك؟»، قلت وأنا أنقل عيني من النار إلى وجهه.

«لقد كان»، أجاب بنفس الهدوء الذي كان عليه من قبل، «لكن لا تظلميني بافتراض إمكاني على الاستمرار في صداقتي واحترامي لرجل يتخلى عن أسرته ويؤذيها بهذا الشكل المفرط. حسنًا لن أتحدث عن ذلك، لكن قولي لي: ألا تفكرين أبدًا في الانتقام؟».

«انتقام! بالطبع لا. ما فائدة ذلك؟ لن يجعله الانتقام أفضل، ولن يشعرني بالسعادة».

قال مبتسمًا: «لا أعرف كيف أتحدث معكِ سيدة هانتينغدون، أنتِ نصف امرأة فقط ـ لا بد أن طبيعتك نصف بشرية ونصف ملائكية. هذا الخير الذي تتصفين به غامر ولا أعرف كيف أصفه».

«أخشى إذًا يا سيدي أنك لا بد أن تكون أسوأ بكثير مما اعتقدتُ إن كنتَ تعتبرني أنا، العادية جدًّا، بهذه المثالية، ونظرًا إلى قلة التعاطف بيننا، أعتقد أنه من الأفضل أن يبحث كلٌّ منا عن صديق أكثر ملاءمة». انتقلت إلى النافذة للبحث عن ابني الصغير وصديقته، أجاب السيد هارغريف: «لا، أنا البشر العادي، ولا أسمح لنفسي بأن أكون أسوأ من زملائي. أنا فقط يا سيدتي أؤكد أنه لا يوجد أحد مثلك. لكن، هل أنت سعيدة؟»، سأل بنبرة جادة.

«سعيدة كما بعض البشر، على ما أعتقد».

«هل أنت سعيدة كما تريدين أن تكوني؟».

«لا أحد محظوظ إلى هذه الدرجة».

«شيء واحد أعرفه»، أجاب بتنهيدة حزينة، «أنتِ أسعد مني بكثير».

«أنا آسفة جدًّا من أجلك إذن»، لم أستطع لجم نفسي من الرد بهذه الطريقة.

«هل أنتِ كذلك حقًّا؟ لا أظن، لأنك لو كنتِ كذلك لكان من دواعي سرورك أن تريحيني».

«وينبغي أن أفعل إذا كان بإمكاني القيام بذلك دون إيذاء نفسي أو أي شخص آخر».

«وهل يمكنك تخيل أنني أقبل أن تؤذي نفسكِ؟ لا بل على العكس، إنها سعادتكِ التي أتوق إليها أكثر من سعادتي. أنت حزينة سيدة هانتينغدون..»، تابع وهو ينظر بجرأة في وجهي. «أنتِ لا تشتكين، لكني أرى وأشعر وأعلم

أنكِ حزينة، وستبقين كذلك ما دمتِ تحافظين على تلك الجدران الجليدية التي لا يمكن اختراقها حول قلبك الذي ما يزال دافئًا ونابضًا. أنا حزين أيضًا، تكرّمي بابتسامة لي وسأكون سعيدًا، وثقي بي سأجعلكِ سعيدة أيضًا، يمكنني أن أجعلك كذلك، وسأفعل ذلك رغمًا عنكِ!»، تمتم بين أسنانه. «أما بالنسبة إلى الآخرين فالأمر بيننا وحدنا، لا يمكن للأمر أن يجرح زوجك، ولا أحد يهتم بهذا الأمر».

«لدي ابن سيد هارغريف ولديك أمّ»، قلت وأنا أبتعد من النافذة وهو يتبعني.

«لا حاجة إلى أن يعرفوا»، وقبل أن أجيبه بأي شيء آخر دخلت إستر وآرثر الغرفة. ألقت الأولى نظرة خاطفة على وجه والتر المتوهج والمتحمس ثم نظرت إلي، كنتُ مضطربةً بدوري بعض الشيء ومتوهجة لأسباب مختلفة تمامًا. لا بد أنها اعتقدت أننا كنا نتشاجر حيث كان من الواضح أننا كنا مرتبكَين ومنزعجَين، لكنها كانت مهذبة للغاية أو خائفة من غضب أخيها من الإشارة إلى ذلك. جلست على الأريكة وأعادت ترتيب خصلاتها الذهبية التي أصبحت مبعثرة وجامحة على وجهها، وبدأت على الفور بالتحدث عن الحديقة وزميلها الصغير في اللعب واستمرت في الثرثرة إلى أن دعاها شقيقها إلى المغادرة.

غمغم عند الاستئذان للمغادرة: «إذا كنت قد بالغت في الحماسة في حديثي فأرجو أن تسامحيني، وإلا فلن أسامح نفسي أبدًا». ابتسمتْ إستر ونظرت إليّ، اكتفيتُ بانحناءة بسيطة لرد تحيته وفوجئت هي لأنها شعرتْ أنه رد بليد وبارد على اعتذار والتر السخيّ، وشعرتْ بخيبة أمل في صديقتها. يا للطفلة المسكينة، لا تعرف سوى القليل عن العالم الذي تعيش فيه!

لم تُتَح للسيد هارغريف فرصة مقابلتي مرة أخرى على انفراد لعدة أسابيع بعد ذلك، ولكن عندما قابلني كان هناك قدر أقل من الرسمية والمزيد من

الكآبة في أسلوبه أكثر من ذي قبل. أوه كم هو مزعج! لقد اضطرني في نهاية الأمر إلى قطع زياراتي إلى ذا غروف، وهو أمر أساء لعلاقتي بوالدته السيدة هارغريف وجرح إستر المسكينة التي تقدّر حقًّا صداقتي وليس من الإنصاف أن تعاني من خطأ شقيقها. لكن هذا الرجل الذي لا يعرف الكلل لم يُهزَم بعد، لأنه بدا أنه كان دائمًا على أهبة الاستعداد. كنت أراه مرارًا وهو يتجاوز ببطء مَسْكَني، ناظرًا بتمعن أثناء مروره، وإذا لم ألمحه تخبرني ريتشيل أنها فعلت. سرعان ما خمنت تلك المرأة حادة البصر كيف هي الأمور بيننا، وفسرت حركات العدو من موقعها العالي عند نافذة الحضانة، كانت تعطيني تلميحًا هادئًا إذا رأتني أستعد للنزهة إن كان هناك احتمال أنه سيمر بطريقي أو يصادفني في نفس الطريق الذي أنوي اجتيازه، وبذلك أؤجل نزهتي أو أقتصرها في ذلك اليوم على حديقة المنزل. أما إذا كان خروجي لمسألة مهمة كزيارة الطبيب فكنتُ أصطحب معي ريتشيل وبذلك أتجنب تحرشاته.

على الرغم من كل هذه الاحتياطات، وفي أحد الأيام المعتدلة والمشمسة في وقت مبكر من شهر نوفمبر، غامرت بالخروج بمفردي لزيارة مدرسة القرية وعدد من المستأجرين الفقراء، عند عودتي شعرت بالذعر من قعقعة حوافر حصان خلفي يقترب بسرعة بهرولته الثابتة. لم يكن هناك مهرب أنفذ منه إلى الحقول لذلك مشيت بهدوء وأنا أقول لنفسي: «قد لا يكون هو، لكن إذا كان وبدأ في إزعاجي فسيكون ذلك للمرة الأخيرة، أنا مصممة على ذلك في حال تجاوز حدوده بالتحدث بالكلام العاطفي الوقح الذي يشبهه».

سَرعان ما تجاوزني الحصان وكُبِحَت جماحه بجانبي وكان بالفعل السيد هارغريف. استقبلني بابتسامة تعمّد أن تكون رقيقة وحزينة، لكن فرحته بانتصاره في القبض عليّ أخيرًا كانت واضحةً إلى درجة أنها طغت على ذلك. بعد الرد بإيجاز على تحيته والاستفسار عن السيدات في ذا غروف،

التفتُّ إلى الأمام ومضيت في طريقي لكنه تبعني وبقي يمشي بجانبي، كان من الواضح أنه كان ينوي أن يكون رفيقي طوال الطريق.

قلت في نفسي: «حسنًا! إن كنتَ تطلب رفضًا آخر فأهلًا ومرحبًا بك». سألته: «والآن سيدي، هل هناك أمر آخر؟».

لم يبقَ سؤالي المباشر طويلًا دون إجابة، حيث إنه بعد بضع ملاحظات عابرة حول مواضيع غير مهمة، بدأ في النغمة المعتادة:

«ستمرّ أربع سنوات في إبريل المقبل على رؤيتي لكِ لأول مرة سيدة هانتينغدون، ربما تكونين قد نسيتِ الظروف لكنني لم أستطع أبدًا. لقد أعجبتُ بك منذ ذلك اليوم بعمق لكني لم أجرؤ على حبك، وفي الخريف التالي رأيت الكثير من خصالكِ لدرجة أنني لم أستطع لجم نفسي أكثر ـ على الرغم من أنني لم أجرؤ على إظهار ذلك. لقد تحمّلتُ هذا الوجع لأكثر من ثلاث سنوات، أتقلقل بين آلام المشاعر المكبوتة، والشوق غير المثمر، والحزن الصامت، والآمال المحطّمة، والعواطف المنهارة. عانيت أكثر مما أستطيع أن أتخيله، أو تتخيليه، وكنتِ أنتِ سبب ذلك. شبابي يُهدَر وآفاقي مظلمة. حياتي فارغة مقفرة. لا أملك راحة ليلًا أو نهارًا، لقد أصبحتُ عبئًا على نفسي والآخرين، وبإمكانك إنقاذي بكلمة أو لمحة، ولن تفعلي ذلك ـ أليس كذلك؟».

أجبته: «أولًا، أنا لا أصدقك. ثانيًا، إذا كنتَ أحمقَ إلى هذه الدرجة فلا يمكنني إعاقتك».

أجاب بجدية: «إذا كنتِ تريدين أن يراك الآخرون على أنكِ الأفضل والأقوى والأكثر خيرًا، فأنا لا أصدقك. أعلم أنك لستِ كائنًا جليديًا بلا قلب كما تتظاهرين، كان لديكِ قلبًا ومنحتِه إلى زوجك. عندما وجدته لا يستحق هذا الكنز استعدتِه، لا تتظاهري بأنك أحببتِ ذلك الفاسد السيئ بعمق إلى درجة أنكِ لا تستطيعين أبدًا أن تحبي شخصًا غيره. أعلم أن هناك مشاعر

في طبيعتك لم تتبلور أو تُشبَع بعد، أعلم أيضًا أنه في حالتك، كونكِ وحيدة مُهملة، تشعرين بالحزن ولا بد أن تكوني كذلك. لديك ما يلزم لإنقاذنا أنا وأنتِ من معاناة فعلية بمثل هذه الطيبة التي لا توصف، تمنحين حبك النبيل بسخاء وتنسين نفسك، وتستطيعين أن تحبيني إذا أردتِ ذلك. قد تقولين إنكِ تكرهينني لكنني لا أصدقك. على الرغم من كل هذا، لن تنقذينا من هذه المعاناة وستختارين بالأحرى أن تتركينا على ما نحن عليه من بؤس، وتخبريني ببرود أن إرادة اللّٰه هي أن نبقى كذلك. قد تسمّين هذا دينًا، لكني أسميه تعصّبًا لا معقولًا».

قلت: «هناك حياة أخرى لكَ ولي. إنها إرادته ألا نؤذي الآخرين بإشباع أهوائنا، لديكَ أمّ وأخوات وأصدقاء سيتضررون من عار كهذا، وأنا أيضًا لديّ مقرّبين لا يمكنني التضحية بفِقدانهم من أجل متعتي أو متعتك. حتى إذا بقيتُ وحدي في هذا العالم سأموت وأنا أتبع إلهي وديني. الموت بالنسبة إليّ أفضل من وصمة عار تكسر إيماني بالجنة للحصول على بضع سنوات وجيزة من السعادة الزائفة والزائلة. من المؤكد أن هناك نهاية للبؤس حتى هنا، سواء لي أو لأي شخص آخر».

«لا داعي إلى أي عار أو بؤس أو تضحية في أي مكان. أنا لا أطلب منكِ ترك منزلكِ أو تحدّي رأي العالم».

دحضت حججه المكرّرة بكل ما أوتيتُ من قوة، لكن تلك القوة كانت ضئيلة في الوقت الحالي لأنني كنت غاضبة جدًا وأشعر بالعار لأنه تجرأ على مخاطبتي بهذا الشكل، وبالنتيجة فقدت بسبب هذا الغضب الكثير من الحكمة واللغة لتمكيني من مقاومته بشكل أقوى، مع ذلك وجدت أنه لا يمكن إسكاته عن طريق العقل، بل بدا سعيدًا بميزته الظاهرية وغامَرَ بالسخرية من تلك التوكيدات التي لم يكن لديّ الجرأة لإثباتها، لذلك غيّرت مساري وجربت خطة أخرى.

«هل تحبني حقًّا؟»، سألته بجدية وأنا أتوقف وأتطلع بهدوء في وجهه.

«هل أحبكِ؟!»، صاح باندهاش.

«هل تحبني حقًّا؟»، كررتها.

أشرق وجهه. كان يعتقد أن انتصاره أصبح في متناول اليد. بدأ بسرد عاطفي متحمس عن حقيقة حبه لي وتعلقه بي، والتي اختصرتها بسؤال آخر:

«لكن أليس هذا حبًّا أنانيًّا؟ هل لديك ما يكفي من الحب لكي تضحي براحتك من أجل سعادتي؟».

«سأبذل حياتي لخدمتك».

«لا أريد حياتك، ولكن هل لديك ما يكفي من التعاطف الحقيقي مع محنتي لحثّك على بذل جهد لتخفيفها، بالطبع لا يخلو الأمر من قليل من الإزعاج لك؟».

«جربيني وانظري».

«إذا كانت عاطفتكَ صادقة كما تقول فلا تذكر هذا الموضوع مرة أخرى. لا يمكنك العودة إليه بأي شكل من الأشكال دون مضاعفة وزن تلك المعاناة عليّ. لم يبقَ لي من عزاء سوى ضميري وثقتي باللّه، وأنت تعمل باستمرار على سلبهما مني، وإذا أصررتَ على مواصلة هذا فسأعتبرك عدوي الأقسى».

«لكن اسمعيني لحظة..».

«لا سيدي! قلتَ إنك مستعد للتضحية بحياتك لخدمتي، وكل ما أطلبه هنا هو توقفك عما تفعله. أنا أحدّثك بصراحة مطلقة وأعني ما أقوله، إن كنتَ ستواصل تعذيبي بهذه الطريقة فهذا يؤكد أن احتجاجاتك خاطئة تمامًا بل وتكرهني بقدر ما تدّعي أنك تحبني».

عض شفته وثبت عينيه على الأرض في صمت لبعض الوقت.

«إذن يجب أن أتركك»، قال وهو ينظر إليّ بثبات كما لو كان الأمل الأخير

للمح بعض علامات الألم أو الفزع التي لا يمكن كبتها والتي توقظها تلك الكلمات المؤثرة. «لا بد لي إذًا من الرحيل. لا أستطيع أن أعيش هنا وأظل صامتًا إلى الأبد بشأن الموضوع الوحيد الذي يحتل فكري ورغباتي».

أجبته: «في السابق، كنتَ تقضي القليل من وقتك في المنزل حسب علمي، لن يضرك أن تبتعد عنه لبعض الوقت إذا كان ذلك ضروريًّا حقًّا».

تمتم: «إذا كان ذلك ضروريًّا حقًّا؟ هل تطلبين مني بهذا الهدوء أن أرحل فحسب؟ هل تتمنين ذلك حقًّا؟».

«بالتأكيد. إن كنتَ لا تستطيع رؤيتي دون إيذائي وإيذاء نفسك كما تفعل، فسأقول وداعًا بكل سرور ولن أفكر في الالتقاء بك أبدًا».

لم يجب لكنه انحنى من على حصانه ومد يده نحوي. نظرت إلى وجهه ورأيت نظرة ألم حقيقية، سواء كانت خيبة أمل مريرة، أو كبرياء مجروحة، أو بقايا حب، أو غضبًا مكتومًا، لم أتردد في وضع يدي في يده. بصراحة، شعرتُ لحظتها كأنني أودّع صديقًا. ضمّها بقوة وابتعد فورًا بحصانه. بعد فترة وجيزة علمتُ أنه ذهب إلى باريس ـ حيث ما يزال ـ، وكلما طالت مدة بقائه هناك كان ذلك أفضل بالنسبة إليّ.

أشكر الله على هذا الخلاص.

الفصل الثامن والثلاثون

20 ديسمبر 1826. الذكرى الخامسة لزواجي. أنا على ثقة من أنها آخر ذكرى تمر عليّ وأنا تحت هذا السقف. قد اتخذت بالفعل قراري وخطتي جاهزة وبُدِئ بتنفيذها جزئيًّا. لا يؤنبني ضميري مطلقًا، ولكن بينما ينضج الهدف سأستغل بعضًا من أمسيات الشتاء الطويلة هذه في توضيح وتدوين الحالة لإشباع رضاي، أدرك أنها تسلية كئيبة بما فيه الكفاية ولكن بها نوع من التفكّر المفيد للسعي وراء المهمة بشكل أفضل، وهذا يناسبني أكثر من أخذ الأمر بخفة.

في سبتمبر عادت غراسديل الهادئة تنبض بالحياة مرة أخرى مع وصول مجموعة من السيدات والسادة (كما يسمون أنفسهم)، تتألف من نفس الأفراد الذين دُعُوا في العام السابق بالإضافة إلى شخصين أو ثلاثة آخرين. السيدة هارغريف وزوجها وطفلتهم الصغيرة، السيد والسيدة لوبورو من أجل متعة وراحة المضيف، أما السيدات الأخريات على ما أعتقد فقد دُعين من أجل المظاهر، ولإبقائي متحفظةً ومتحضرة في سلوكي. لكن السيدات بقين ثلاثة أسابيع فقط، أما السادة، باستثناء اثنين، بقوا لأكثر من شهرين، لأن مضيفهم المضياف كان مترددًا في التخلي عنهم والبقاء وحيدًا مع ذهنه اللامع وضميره الفاسد وزوجته المحبة.

في يوم وصول الليدي لوبورو تبعتها إلى غرفتها وأخبرتها بوضوح أنه إذا وجدتُ سببًا للاعتقاد بأنها ما تزال تواصل علاقتها الإجرامية بالسيد هانتينغدون سيكون من واجبي المطلق إبلاغ زوجها ـ أو إيقاظ شكوكه على الأقل ـ مهما كان الأمر مؤلمًا، أو كانت العواقب مروّعة. لقد أذهلها كلامي

في البداية لأنه كان أمرًا غير متوقع، لكنني أوصلت الفكرة بهدوء. استجابت خلال لحظة وهي ترد ببرود أنه إذا رأيت أي شيء على الإطلاق بغيضٍ أو مريبٍ في سلوكها، فإنها تمنحني حرية إخبار السيد بكل شيء. تركتها وأنا على رضًى عن هذا الاتفاق وبالتأكيد لم أرَ شيئًا منذ ذلك الحين مستهجنًا أو مريبًا بشكل خاص في سلوكها تجاه مضيفها، ولكن بكل حال كان لدي ضيوف آخرون للاهتمام بهم ولم تكن لدي فرصة وافية لمراقبتهما من كثب.

في الواقع كنت أخشى أن أرى أي شيء بينهما. عدتُ أعتبر ذلك من اهتماماتي، لكن إذا اضْطُررت أن أنوّر اللورد لوبورو فقد كان هذا واجبًا مؤلمًا، وكنت أكره أن أُستَدعى لأدائه، لكن مخاوفي انتهت بطريقة لم أكن أتوقعها. في إحدى الأمسيّات، وبعد نحو أسبوعين من وصول الزوار، كنت قد ذهبت إلى المكتبة لأخذ استراحة لبضع دقائق من تمثيل السرور القسري والاستمتاع بالأحاديث المرهقة بعد فترة طويلة من العزلة الكئيبة، حيث كان من الصعب عليّ أن أحفز قوتي للتحدث والابتسام والاستماع ولعب دور المضيفة اليقظة أو حتى الصديقة الممتعة. كنت قد أخفيت نفسي في قوس النافذة وأتأمل الغروب، حيث كانت التلال المظلمة ترتفع شامخة بشكل حاد مقابل الضوء الكهرماني الصافي للمساء، والذي امتزج تدريجيًّا وتلاشى في اللون الأزرق الباهت النقي للسماء، وكان هناك نجم يسطع من خلاله كما لو كان يقول: «لن يظلم العالم عندما يختفي هذا النور المُحْتَضَر، ليس لأولئك الذين يثقون بالله، الذين لا تتشوش أذهانهم بضباب عدم الإيمان والخطيئة». سمعت خطوات متعجلة تقترب، كان اللورد لوبورو، ما زالت هذه الغرفة مَهربه المفضل، أغلق الباب بعنف غير عادي وألقى بقبعته جانبًا دون النظر إلى مكان سقوطها، ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ كان وجهه شاحبًا بشكل مروّع وعيناه مثبتتَيْن على الأرض وهو يضغط على أسنانه. لامعة جبهته من الاضطراب الواضح، تبًّا، لا بد أنه عرف شيئًا أخيرًا!

دون أن يدرك وجودي بدأ يسير في الغرفة في حالة من الهياج المخيف يفرك يديه بعنف وينطق بآهات وشتائم، قمت بحركة لأشعاره أنه لم يكن وحيدًا لكنه كان مضطربًا لدرجة أنه لم يلاحظ ذلك. ربما عندما يعطيني ظهره أتمكن من العبور إلى خارج الغرفة وأفلت من دون ملاحظته. نهضت لأقوم بالمحاولة لكنه لمحني وتوقف لحظة لمسح جبهته المبللة وتقدم نحوي بنوع من رباطة الجأش المزيفة وقال بنبرة مغبونة: «سيدة هانتينغدون، أخشى أنني مضطر أن أغادر غدًا».

«غدًا؟ لن أسألكَ عن السبب».

«أنتِ تعرفين ذلك إذًا ومحافظة على هدوئكِ بهذا الشكل؟»، قال وهو يعاينني بدهشة ممتزجة بمرارة مقيتة.

«لقد كنت على علم منذ فترة..»، توقفت في الوقت المناسب وأضفت، «بالنسبة إلى شخصية زوجي عادَ لا يوجد شيء يصدمني».

«لكن منذ متى وأنتِ على علم بذلك؟»، سألني بانفعال وهو يضع يده المتشنجة على الطاولة وينظر إليّ باهتمام وثبات أشعرني أنني مجرمة.

أجبت: «ليس لوقت طويل».

صرخ بعنف مرير: «كنت تعرفين ولم تخبريني؟ ساعدتِ في خداعي!».

«سيدي. أنا لم أساعد في خداعك».

«إذن لماذا لم تخبريني؟».

«لأنني كنت أعلم أنه سيكون مؤلمًا لك. كنت آمل أن تعود إلى رشدها وحينها لن تكون هناك حاجة إلى إيذاء مشاعرك بمثل هذا..».

«يا إلهي! كم مضى من الوقت على حدوث هذا؟ منذ متى سيدة هانتينغدون؟ أخبريني، يجب أن أعرف!». كان يتحدث بحدّة وهيجان.

«منذ سنتين على ما أعتقد».

«رائع! خدعتني طوال هذا الوقت!»، استدار بعيدًا بأنين مكبوت من الألم وعاد إلى السير في الغرفة مرة أخرى في نوبة من الانفعالات المتجددة. قلبي كان يخفق باضطراب، لكنني كنت أحاول مواساته على رغم أنني لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك.

قلت: «إنها امرأة شريرة خدعتك، خانتك ولا تستحق الكثير من الندم. لا تدعها تؤذيك أكثر من ذلك وجرّد نفسك منها».

«وأنتِ يا سيدتي جرحتِني أيضًا بسبب هذا الإخفاء!»، قالها بصرامة واستدار إليّ.

كان هناك اشمئزاز مفاجئ في مشاعري. شيء في داخلي أشعرني بالاستياء من عودتي إلى تعاطفي الصادق والدفاع عن نفسي، لكن لحسن الحظ لم أستسلم لذلك. شعرت بآلامه عندما ضرب جبهته واستدار فجأة إلى النافذة ونظر إلى السماء وغمغم بيأس: «يا إلهي، إني أموت!»، وشعرتُ أن إضافة قطرة إضافية من المرارة إلى تلك الكأس الفائضة بالفعل سيكون أمرًا حقيرًا. مع ذلك أخشى أن البرودة كانت تملأ نبرتي أكثر من اللطف المتوقع: «بإمكاني تقديم العديد من الأعذار التي قد يقرّ البعض بأنها صحيحة، لكنني لن أحاول تعدادها».

قال على عجل: «أعرفها كلها. يمكنكِ القول إن الأمر لا يعنيكِ، وعليّ أن أعتني بنفسي، وإنه إذا قادتني إصابتي بالعمى إلى حفرة الجحيم هذه فليس لي الحق في إلقاء اللوم على شخص آخر لمنحي الفضل في التعامل بحكمة لا أمتلكها..».

تابعت: «أعترف أنني كنت مخطئة، ولكن سواء كان نقص الشجاعة أو كان الحكم الخاطئ هو سبب غلطتي، أعتقد أنك تلومني بشدة. لقد أخبرت السيدة لوبورو منذ أسبوعين في الساعة التي وصلتم فيها أنه من واجبي أن أبلغك إذا استمرت في خداعك، لقد أعطتني الحرية الكاملة لفعل ذلك في

حال رأيت أي شيء مخجل أو مريب فيها سلوكها، لكني لم أرَ شيئًا، والآن بتّ على ثقة بأنها غيرت مسارها».

استمر في التحديق من النافذة بينما كنت أتحدث ولم يجبني، ولكن يبدو أن كلماتي أيقظت فيه لسعة من الذكريات التي جعلته يضرب بقدمه الأرض بغضب. كان يضغط على أسنانه بشدة وتموج جبينه كأنه تحت تأثير ألم جسدي حاد.

«هذا خطأ، خطأ! لا شيء يمكنه أن يبرره، لا شيء يمكن أن يكفِّر عنه، لا شيء يمكن أن يمحو تلك السنوات التي قضيتها غارقًا في السذاجة، لا شيء يمحوها! لا شيء، لا شيء!»، كرر بصوت خافت مرير.

أجبت: «عندما عرضت القضية على نفسي أدركت أنها كانت خاطئة، لكنني الآن فقط أشعر بالأسف لأنني لم أنظر إليها في هذا الضوء من قبل وأنه كما تقول: لا شيء يمكن أن يمحو الماضي».

يبدو أن شيئًا ما في صوتي أو بروح هذه الإجابة غيّر مزاجه. استدار نحوي ومسح وجهي باهتمام في الضوء الخافت وقال بنبرة أكثر اعتدالًا مما استخدمه حتى الآن: «لقد عانيتِ أيضًا على ما أعتقد».

«لقد عانيتُ كثيرًا في البداية».

«متى كان ذلك؟».

«منذ عامين. بعد عامين، ستكون هادئًا كما أنا الآن، أثق بذلك كثيرًا لأنك رجل، ولديك الحرية في التصرف كما يحلو لك».

عبرتْ وجهه ابتسامة مريرة للحظة.

«لم تكوني سعيدة مؤخرًا، أليس كذلك؟»، قال بشيء من الجهد لاستعادة رَبَاطة جأشه وتصميمه على التنازل عن خوض المزيد من النقاش حول مصيبته.

«سعيدة؟»، كررت بسبب استفزاز السؤال، «هل يمكن أن أكون مع مثل هذا الزوج؟».

«بالفعل، لاحظت تغيرًا في مظهركِ منذ السنوات الأولى من زواجك، وشعرت أنه قد يكون بسبب ذلك الشيطان»، تمتم بين أسنانه. «قلت لنفسي إن أعصابكِ المرهقة هي التي كانت تقضي على زهرة شبابكِ، لقد حرمكِ من شبابك وانتعاش روحكِ قبل أوانك، وأنتِ أيضًا حرمته من راحته مثل زنزانة الدير، لأنكِ تبتسمين يا سيدة هانتينغدون ولا شيء يهزّكِ، كم أتمنى أن تكون طبيعتي مثلك».

قلت: «لم تكن طبيعتي هادئة في الأصل. لقد تعلمت أن أبدو كذلك بفضل الدروس الصعبة والعديد من الجهود المتكررة».

هنا اقتحم السيد هاترسلي الغرفة.

«مرحبًا لوبورو، أوه!»، صاح عند رؤيتي. «لم أكن أعلم أنك في جلسة مواجهة، ابتهِج يا رجل»، تابع وهو يضرب اللورد لوبورو على ظهره، مما تسبب في ارتداد الأخير عنه بنظرات اشمئزاز وغضب لا يوصف: «تعال، أريد التحدث معك قليلًا».

«تكلم إذن».

«لكنني لست متأكدًا أن ما سأقوله سيكون مقبولًا تمامًا للسيدة».

قال وهو يستدير ليغادر الغرفة: «عندها لن يكون ذلك مقبولًا بالنسبة إليّ».

صاح الآخر متبعًا إياه: «نعم سيكون. إذا كنت تملك قلب رجل فستكون هذه هي تذكرتك».

تابع وهو يخفض صوته، لكن ليس بما يكفي لمنعي من سماع كل كلمة قالها على الرغم من أن الباب نصف المغلق كان يقف بيننا. «الأمر يا صديقي هو أنني أعتقد أنك رجل يُساء استخدامه، لا تندلع الآن، لا أقصد الإساءة

إليكِ مطلقًا، إنها فقط طريقتي السيئة في الحديث، إما أن أتحدث بصراحة كما تعرفني وإما لا أتحدث على الإطلاق، لذا أتيت لأقدم لكَ خدماتي: على الرغم من أن هانتينغدون صديقي، فإنه شيطان ملعون كما نعلم جميعًا، لذلك قررت هذه المرّة أن أكون إلى جانبك. أعرف ما تحتاج إلى فعله لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، مجرد تبادل تَسديدة معه وبعد ذلك ستشعر أنك على ما يرام. حتى إذا ما وقع حادث خلال ذلك سيكون لا بأس بذلك أيضًا. اسمح لي بقول هذا لصديق يائس مثلك. تعال الآن وأعطني يدك ولا تكن بهذه السوداوية. أخبرني بالزمان والمكان فحسب وسأهتم أنا بالباقي».

أجاب اللورد لوبورو بصوت أكثر انخفاضًا: «هذا هو التعامل الذي يقترحه قلبي أو الشيطان الذي يسكنه، مواجهته وليس الانسحاب، سواء كانت نتيجة الأمر أن أسقط أنا أو هو أو كلانا، فسيكون ذلك مصدر ارتياح لا يمكن وصفه بالنسبة إليّ».

«رائع إذن!».

صاح بتركيز وحزم: «لا. مع أني أكرهه من قلبي وستفرحني أي مصيبة قد تصيبه فإنني سأتركه لله، وعلى الرغم من أنني أصبحت أمقت حياتي الخاصة سأترك ذلك أيضًا لمن منحني إياها».

«لكن في هذه الحالة..»، قال هاترسلي.

«لن أستمع لك!»، صاح وابتعد على عجل: »ولا كلمة أخرى. لدي ما يكفي للتعامل معه بداخلي».

«إذن أنت أحمق ساذج وأنا أغسل يدي منك»، تذمر المفسد وهو يترجّح حول نفسه ويغادر.

اندفعت ومسكت بيده الملتهبة بينما كان يتحرك نحو الدرج وأنا أقول بحماسة: »هذا هو التصرف الصحيح لورد لوبورو. بدأت أقتنع أن هذا العالم لا يليق بك!»، لعدم فهمه لهذه الحماسة المفاجئة، توجه إليّ بنظرة كئيبة من

الذهول الحائر مما جعلني أشعر بالحرج. لكن سرعان ما ظهر تعبير أكثر إنسانية على وجهه وقبل أن أتمكن من سحب يدي ضغط عليها بلطف وقال بصدق وحزن: «فليساعدنا اللّٰه على حد سواء!».

«آمين!»، أجبت وافترقنا.

عدت إلى غرفة المعيشة حيث، بلا شك، كان حضوري متوقعًا من قبل معظم الأشخاص ومرغوبًا فيه من قبل شخص أو اثنين فقط. في الردهة كان السيد هاترسلي يتحدث عن اعتراضه على جُبن اللورد لوبورو أمام جمهوره، السيد هانتينغدون كان يتسكع بفرح بغدره وخيانته على الطاولة ويحاول احتقار ضحيته بضحكه المتواصل، والسيد غريمسبي يقف بجانبه يفرك يديه بهدوء ويضحك برضًا شيطاني.

في غرفة المعيشة وجدت السيدة لوبورو التي من الواضح أنها كانت في حالة لا تحسد عليها وتكافح بشدة لإخفاء انزعاجها من خلال إبداء السعادة والحيوية المفرطة التي لا مبرر لها في ظل هذه الظروف، لأنها أعطت الجميع انطباع أن زوجها قد تلقى معلومات غير سارة من المنزل مما استلزم رحيله الفوري، وأنه قد عانى منها بحيث تسببت في إصابته بصداع رهيب، فقد شعرت بأنهم سيتساءلون عن غيابه هذه الليلة، وبالتالي أكدتْ أن الأمر يتعلق فقط بضرورة المغادرة للتعامل مع بعض الأمور الطارئة، ولذلك آثر عدم إزعاج أحد.

كانت تقول هذا عندما دخلت ورمقتني بنظرة من الجرأة والتحدي أذهلتني واستفزتني بنفس الوقت، ثم تابعتْ السيدة: «لكني منزعجة أيضًا لأنني أعتقد أنه من واجبي أن أرافقه، وبالطبع أعتذر عن اضطراري لتوديع أصدقائي الطيبين بشكل غير متوقع وقريبًا جدًّا».

قالت إستر التي كانت تجلس بجانبها: «ومع ذلك أنابيلا، لم أركِ في حالة معنوية أفضل في حياتي».

«بالضبط يا حبي، لأنني أرغب في تحقيق أقصى متعة من اجتماعنا هذا، حيث يبدو أن هذه هي الليلة الأخيرة التي أستمتع بها إلى أن يعلم اللّٰه متى، وأريد ترك انطباعٍ لطيفٍ لدى الجميع»، نظرت حولها ورأت عيون السيدة هارغريف مثبتة عليها، وعلى الرغم من ذلك واصلت بكل وقاحة: «من أجل هذه الغاية سأهديكِ أغنيّة يا خالتي، هل أفعل سيدة هانتينغدون؟ سيداتي وسادتي؟ رائع، سأبذل قصارى جهدي لإمتاعكم».

كانت تحتل هي واللورد لوبورو القسم المجاور لغرفتي. لا أعرف كيف قضتْ ليلتها، لكنني بقيت مستلقية ومستيقظة في الجزء الأكبر منها وأنا أسمع خطواته الثقيلة الرتيبة في غرفة ملابسه والتي كانت أقرب إلى غرفتي، ثم بعد فترة سمعته يرمي شيئًا من النافذة بشكل عصبي. في الصباح بعد مغادرتهم عُثِرَ على سكين ذات نصل حاد على قطعة الأرض العشبية أدنى نافذة شقتهما، وبالمثل قُطعت موسى الحلاقة إلى قسمين ورُمِيت في نار المدفأة، لكنها كانت قد تآكلت جزئيًا، كان إغراء إنهاء حياته البائسة قويًّا للغاية، ولكن إصراره على مقاومته لم يكن أقل قوة منه.

نزف قلبي من أجله وأنا أستمع إلى خطواته الحزينة المتواصلة. حتى ذلك الحين كنت أفكر في نفسي ولم أفكر فيه، أما الآن فقد نسيت محنتي وأصبحتْ محنته تشغل فكري. كل ذلك الحب الذي أُهدِرَ بهذا الشكل البائس، والثقة التي قوبلت بالخيانة القاسية. لا، لن أحاول إحصاء الأخطاء، لكن كرهي لزوجته وزوجي تبلور أكثر من أي وقت مضى، وليس بسبب ما فعلوه بي فحسب ولكن من أجله أيضًا.

غادرا في الصباح الباكر قبل أن ينزل أي شخص آخر باستثنائي، وبينما كنت أغادر غرفتي كان اللورد لوبورو ينزل ليأخذ مكانه في العربة، حيث كانت سيدته مختبئة بالفعل، وكان آرثر (أو السيد هانتينغدون، كما أفضل مناداته لأني أنادي طفلِيَ بالآخر) بوقاحة خارجًا لتوديع «صديقه».

«هل ستغادر حقًّا لوبورو؟ حسنًا، أتمنى لك نهارًا سعيدًا»، مد يده مبتسمًا.

أعتقد أن الآخر كان سيطرحه أرضًا لو لم يبدأ بشكل غريزي قبل الإقدام على ذلك بالارتجاف من الغضب بحيث تلمع مفاصله الشاحبة. نظر إليه بنظرة غاضبة ملؤها الكراهية، وتمتم اللورد لوبورو من بين أسنانه بكلمات لم يكن لينطق به لو كان هادئًا بما يكفي لاختيار كلماته وغادر.

قال الشرير: «هذه هي الروح التي أسمّيها غير مؤمنة، مع ذلك لستُ الذي يتخلى عن صديق قديم من أجل زوجة. يمكنك الحصول على خاصتي إذا أردت، ولا اعتراض لدي، بل لك ذلك وبكل سرور. لا أستطيع تقديم أكثر من ذلك كتعويض، أليس كذلك؟».

لكن لوبورو كان قد وصل إلى نهاية الدرج فصاح به السيد هانتينغدون وهو متكئ على الدرابزين: «أبلغ أنابيلا حبّي! أتمنى لكما رحلة سعيدة»، وانسحب ضاحكًا إلى غرفته.

وعبر بعد ذلك عن سعادته لرحيلها قائلًا إنها: «أصبحت مستبدة وصارمة للغاية، سأعود من الآن فصاعدًا بسيد نفسي وأشعر بالراحة».

الفصل التاسع والثلاثون

كان أكبر مصدر للقلق بالنسبة إليّ في هذا الوقت من المحنة هو ابني الذي كان والده وأصدقاء والده يسعدون بتشجيعه على جميع المفاسد التي يمكن أن يطّلع عليها كطفل صغير، وتعليمه كل العادات الشريرة التي يمكن أن يكتسبها من خلال تكرار «اجعل منه رجلًا»، ولا أحتاج إلى قول المزيد لتبرير شعوري بالقلق الشديد وإصراري على إبعاده عن أي خطر من أيدي هؤلاء الفاسدين. حاولتُ أولًا الاحتفاظ به دائمًا معي أو في الحضانة، وأعطيت ريتشيل أوامرَ خاصة بعدم السماح له بالحضور لتناول الحلوى ما دام هؤلاء «السادة» موجودين، لكنه لم يكن مجديًا حيث أُلغِيَت هذه الأوامر على الفور من قبل والده، لم يكن يريد أن يقتل صديقه الصغير باللعب بالدراجة البخارية الصغيرة بين ممرضة عجوز وأمٍّ حمقاء ملعونة كما كان يقول. لذا كان الصغير ينزل لقضاء الوقت برفقتهم كل مساء على الرغم من رفض والدته، بل وتعلّم أن يتناول النبيذ مثل أبيه، يشتم مثل السيد هاترسلي، وتكون له أساليبه الخاصة كما الرجال، ويرسل أمه إلى جهنم إذا ما حاولت منعه. رؤية مثل هذه الأشياء يقوم بها ذلك الطفل الصغير الجميل، وسماع تلك الأشياء التي يتحدث بها ذلك الصوت الطفولي كان أمرًا غريبًا ومثيرًا للضحك، كما كان مؤلمًا بشكل لا يوصف بالنسبة إليّ. كان ينظر بإعجاب حوله عندما يسمع هدير ضحكاتهم ويضيف ضحكته إليها. لكن إذا استقرت تلك العين الزرقاء الساطعة عليّ يتلاشى بريقها ويقول بقلق: «ماما، لماذا لا تضحكين؟ اجعلها تضحك يا أبي، فهي لا تضحك أبدًا».

ومن ثم اضْطُررت إلى البقاء بين هؤلاء المتوحشين أتحيّن الفرص لانتزاع طفلي من بينهم بدلًا من المغادرة فورًا بعد العشاء كما كنتُ أفعل دائمًا. لم يكن غالبًا يرغب في المغادرة وكثيرًا ما اضطررت إلى حمله بالقوة، الأمر الذي كانوا يرونه قاسيًا وغير عادل، وكان والده آنذاك يصر على بقائه معهم، وأغادر وأنا أشعر بالمرارة واليأس بمفردي، أو أضغط على ذهني من أجل التوصل إلى علاج لهذا البلاء العظيم.

لكن هنا مرة أخرى ملزمة أن أنصف السيد هارغريف وأقرّ بأنني لم أرَهُ يضحك على جنح الطفل، ولم أسمعه ينطق بكلمة تشجيع لـ«إنجازاته الرجولية». كان عندما يقول أو يفعل آرثر أي شيء من غير اللائق أن يَبْدُر ممن هم في سنه الصغيرة ألاحظ تعبيرًا غريبًا في وجهه لم أستطع تفسيره أو تعريفه، ارتعاشًا طفيفًا في عضلات الفم ووميضًا مفاجئًا في عينيه وهو يقلّب نظره بيني والطفل. بعد ذلك، استطعت أن ألاحظ أنه تحوّل إلى شعور أقرب للرضوخ الحزين في وجهه بدلًا من نظرة الغضب العاجز. على الرغم من ذلك، وفي إحدى الأمسيّات، بينما كان آرثر يتصرف بشكل غير لائق والسيد هانتينغدون وضيوفه يستفزونني ويهينونني بتشجيعهم له في حين أكافح لإخراجه من الغرفة، نهض السيد هارغريف فجأة من مقعده مدفوعًا بعاطفة صارمة لم يتمكن من السيطرة عليها ورفع آرثر من على ركبة أبيه حيث كان يجلس ويضحك وهو يرميني بالكلمات المسيئة التي لا يعرفها سوى القليل، أخرجه من الغرفة ووضعه في الردهة وأمسك الباب مفتوحًا أمامي وانحنى وأنا أغادر وأغْلَقَه خلفي. سمعت كلمات عالية متبادلة بينه وبين مضيفه نصف المخمور بعد إغلاق الباب، مما دفعني إلى إبعاد ابني المرتبك والمُرْبَك.

لا يمكن أن يستمر هذا، لا يمكنني ترك طفلي لهذا الفساد. أفضّل أن يعيش في فقر مع أمٍّ هاربة بدلًا من الرفاهية والثراء مع مثل هذا الأب. قد لا يبقى هؤلاء الضيوف معنا لفترة طويلة، لكنهم سيعودون مرات أخرى، وهو الأمر

الأشد ضررًا على الإطلاق، إنه ألد أعداء طفله وسيبقى. يمكنني أن أتحمل ذلك، لكن طفلي ليس ملزمًا أن يتحمله بعد الآن. لا بد أن العالم كله يتفق معي هنا وأصدقائي يشاركونني في هذا على الأقل، ولن يحاولوا ردعي عن القيام بواجبي. لكن أين يمكنني أن أعثر على ملجأ وكيف أحصل لنا على لقمة العيش؟ آه، ليتني كنت أستطيع أن أستقل في وقت مبكر من الفجر العربة، أهرب إلى الميناء، أعبر المحيط الأطلسي وأبحث عن منزل هادئ ومتواضع في نيو إنغلاند حيث يمكنني إعالتنا من خلال عمل خاص، سيكون الرسم ـ صديقي المقرب ـ شريك الكدح، لكن هل أنا ماهرة بما يكفي للحصول على رزقِي ببيع اللوحات في أرض غريبة دون أصدقاء أو توصيات؟ لا، لا بد من الانتظار قليلًا. يجب أن أجتهد لتحسين موهبتي لإنتاج ما يستحق أن يوفّر لي القوت، شيء أتحدث عنه وأقدّمه بفخر واعتزاز سواء كنتُ رسامة أو معلّمة. لا أبحث عن نجاح باهر بالطبع، لكن درجة معينة من الأمان من الفشل هو أمر لا غنًى عنه، لا يمكنني أخذ ابني ليموت جوعًا. ثم من الضروري أن أمتلك المال للرحلة لدعمنا في حال فشلت في البداية، وليس القليل منه، من يمكنه معرفة المدة التي قد أُضْطَر فيها إلى الكفاح، خاصة مع لا مبالاة الآخرين، أو افتقادي إلى الخبرة أو حتى عدم قدرتي على ملاءمة أذواقهم؟

ماذا عليّ أن أفعل إذًا؟ هل أتقدم لأخي وأشرح له ظروفي وعزمي؟ لا، لا، حتى لو أخبرته بكل شيء، الأمر الذي ما زلت مترددة في القيام به، فبالتأكيد لن يوافق على خطوة كهذه، سيبدو الأمر جنونًا بالنسبة إليه كما قد يحدث لخالتي وزوج خالتي، أو لميليسنت. لا، يجب أن أتحلى بالصبر وأجمع مالًا خاصًّا بي ولا آمَنُ لصديق سوى ريتشيل ـ أعتقد أن بإمكاني إقناعها بالمخطط ومساعدتي: أولًا، في العثور على تاجر لوحات في إحدى المدن البعيدة وحينها بمساعدتها سأبيع بشكل سري اللوحات التي لديّ والتي من شأنها أن تخدم هذا الغرض، بالإضافة إلى الوحات التي سأرسمها لاحقًا. إلى جانب

هذا، سأحاول بيع مجوهراتي الخاصة وليس مجوهرات الزواج، ذلك القليل الذي أحضرته معي من المنزل وتلك التي قدمها إليّ زوج خالتي في زواجي. قد أتحمل كدحًا شاقًّا لبضعة أشهر، لكن لا يمكن أن يصبح ابني أكثر تضررًا مما هو عليه بالفعل.

بعد الانتهاء من التخطيط لهذا القرار، شرعت على الفور بالعمل لإنجازه، ربما أُحَثُّ على إلغاءه في وقت ما، ربما أستمر في موازنة الإيجابيات والسلبيات في ذهني، وقد أُدفع إلى التخلي عن المشروع كليًّا أو تأخير تنفيذه إلى أجل غير مسمًّى، لا شيء مؤكدٌ في هذا التصميم الذي ما زلت ملتزمة به والذي ما زلت أعتقد أنني أحسنت دراسته والتخطيط له، وسأفعل الأفضل لتنفيذه.

منذ مغادرة اللورد لوبورو كنت أعتبر المكتبة ملكًا لي بالكامل، وهي ملاذ آمن في جميع ساعات اليوم. لم يكن لدى أي من السادة أدنى ميل إلى الذوق الأدبي باستثناء السيد هارغريف، والذي أصبح بدوره في الوقت الراهن مكتفيًا بالصحف والمجلات، وإذا صادف ولمحني في المكتبة عندما يدخلها يحاول الانصراف بأسرع فرصة وهو أمر أشعرني بالراحة، أصبح بلا ريب أكثر ابتعادًا منذ مغادرة والدته وشقيقتيه وهو ما كنت أتمناه. بعد ذلك أعددت المكان للعمل على لوحاتي، وأصبحت أعمل هنا من بزوغ ضوء النهار حتى الغسق، مع أخذ فترات قليلة من الاستراحة، أو التوقف عند الضرورة البحتة أو القيام بواجباتي تجاه آرثر، لأنني ما زلت أكرّس جزءًا من كل يوم حصريًّا لتعليمه واللعب معه، ولكن على عكس توقعاتي في صباح اليوم الثالث دخل السيد هارغريف المكتبة حيث كنت موجودة لكنه لم ينسحب على الفور بل اعتذر قائلًا إنه جاء من أجل كتاب فحسب، ولكن عندما حصل عليه التفت ليلقي نظرة على لوحتي، ولكونه رجلًا يحمل ذائقة كان لديه ما يقوله حولها بالإضافة إلى لوحة أخرى، وبعد أن علق عليهما بتواضع دون تلقّي الكثير من

التشجيع مني شرع في التغاضي عن الفن بشكل عام ولم يتلقَّ أي تشجيع في ذلك أيضًا، لكنه لم يغادر!

«أنتِ لا ترينا الكثير من أعمالكِ سيدة هانتينغدون»، قال بعد فترة صمت قصيرة شُغِلتُ خلالها بمزج ألواني وتخفيفها، «ولا يمكنني التساؤل عن سبب ذلك، لا بد أنكِ سئمت منا جميعًا. شخصيًّا، أشعر بالخجل من رفاقي ومن محادثاتهم البليدة الآن بعد غياب من كان يضفي عليها طابعًا إنسانيًّا وتركنا وشأننا. أعتقد أن الأفضل لي هو الانسحاب من بينهم، ربما خلال هذا الأسبوع، ولا أفترض أن مغادرتي ستحزنك».

لم أجب.

أضاف مبتسمًا: «ربما يكون أسفكِ الوحيد في هذا الموضوع هو عدم أخذي لكل رفاقي معي. في بعض الأحيان، أهنّئ نفسي لأنني على الرغم من رفقتهم فإني لستُ منهم. لكن من الطبيعي أن تكوني سعيدة بالتخلص مني. قد يؤلمني هذا لكن لا يمكنني أن ألومكِ».

قلت: «لن أفرح لمغادرتك لأن بإمكانك التصرف كرجل نبيل، ولكن يجب أن أعترف أنني سأسعد دون شك برحيل الآخرين، لستُ مضيفة جيدة، أليس كذلك؟».

أجاب: «لا أحد يستطيع أن يلومك على مثل هذا الاعتراف، ولا أتخيل حتى السادة أنفسهم».

ثم كما لو كان مدفوعًا بقرار مفاجئ قال: «دعيني فقط أخبركِ بما قيل الليلة الماضية في غرفة الطعام بعد مغادرتك، لا أعتقد أنكِ تمانعين ذلك لأنكِ شديدة التفلسف حول نقاط معينة»، أضاف بسخرية طفيفة. «كانوا يتحدثون عن اللورد لوبورو وسيدته، حيث إن سبب رحيلهما المفاجئ ليس سرًّا، وشخصيتها معروفة جيدًا لهم جميعًا، إلى درجة أنه على الرغم من أنها قريبتي لم أستطع محاولة الدفاع عنها. تبًّا لي إذا لم أنتقم منه، إذا كان على

هذا اللعين أن يلحق العار بأسرته فهل عليه أيضًا أن يفضحها في الخارج إلى كل وضيع من معارفه؟ أستميحكِ عذرًا سيدة هانتينغدون، لكنهم كانوا يتحدثون عن هذه الأمور، وأشار بعضهم إلى أنه بعد انفصالها عن زوجها أصبح بإمكانه أن يراها متى ما شاء، لكنه قال لهم: شكرًا. لقد اكتفيتُ منها في الوقت الحاضر، لن أتعب نفسي لرؤيتها إلا إنْ أتت هي إلي».

سأله هاترسلي: «ماذا تنوي أن تفعل إذًا عندما نغادر يا هانتينغدون؟ هل تنوي الابتعاد عن مفسديك وتصبح زوجًا وأبًا صالحًا وما إلى ذلك، كما أفعل عندما أبتعد عنك وهؤلاء الشياطين؟ أعتقد أن الوقت قد حان، بالإضافة إلى أن زوجتكَ أفضل منك خمسين مرة كما تعلم».

وزاد المديح الذي لن تشكريني على نقله لكِ ولن تشكريه على قوله، بصوت عالٍ كما يفعل دائمًا أمام جمهور بدا أنّ نُطْقَ اسمكِ أمامه أمر مؤذٍ لأنه غير قادر على فهم أو تقدير امتيازاتك. في غضون ذلك، جلس هانتينغدون بهدوء وهو يشرب نبيذه أو ينظر مبتسمًا في كأسه ولا يرد عليه، إلى أن صرخ هاترسلي: «هل تسمعني يا رجل؟».

قال: «نعم، أكمل».

أجاب الآخر: «أكملت، أريد فقط أن أعرف ما إذا كنت تنوي الأخذ بنصيحتي».

«أي نصيحة؟».

صرخ رالف: «فتح صفحة جديدة أيها الوغد، اطلب من زوجتك العفو وكن فتًى صالحًا للمستقبل».

««زوجتي! أيّة زوجة؟»، أجاب هانتينغدون وهو ينظر ببراءة من كأسه، «ليست لدي زوجة، وإذا كانت لديّ فاسمعوني أيها السادة، أنا أقدّرها لدرجة إذا كان أي شخص منكم معجبًا بها يمكنه الحصول عليها مرفَقَةً ببركتي!».

«سأله أحدهم ما إذا كان يعني ما قاله حقًّا، فأقسم دون تردد. ما رأيك في ذلك سيدة هانتينغدون؟»، سألني بعد وقفة قصيرة شعرت خلالها أنه كان يتفحص وجهي باهتمام.

أجبته بهدوء: «أقول إن ما يزهد فيه لن يبقى في حوزته لفترة طويلة».

«لا يمكنكِ أن تعني أنك ستكسرين قلبكِ وتموتين من أجل سلوك مقيت لملعون سيئ السمعة مثل هذا!».

«بكل حال، قلبي جافّ تمامًا بحيث لا يمكن كسره بسرعة، وأعني أنني أنوي العيش لأطول مدة أستطيعها».

«هل ستتركينه؟».

«نعم».

«متى وكيف؟»، سأل بشغف.

«عندما أكون جاهزة، وأتمكن من إدارة أموري بشكل فعال».

«لكن طفلك».

«طفلي سيذهب معي».

«لن يسمح بذلك».

«لن أسأله».

«آه، إذن هي رحلة سرية تتأملينها! ولكن مع من سيدة هانتينغدون؟».

«مع ابني، وربما مربيته».

«بمفردك وغير مَحمية! لكن أين يمكنك أن تذهبي؟ ما الذي تستطيعين القيام به؟ سوف يتبعكِ ويعيدكِ».

«لقد رتّبت خططي جيدًا لذلك، بمجرد أن أبتعد عن غراسديل سأعتبر نفسي آمنة».

تقدم السيد هارغريف خطوة نحوي ونظر في وجهي بلهفة بالنظرة ذاتها

والبريق المفاجئ في عينيه، مما جعل دمي يفور غضبًا. التفتُّ بعيدًا عنه وانتزعت فرشاتي وعدت إلى العمل على لوحتي بكل طاقتي.

بوقار مرير قال: «سيدة هانتينغدون، أنت قاسية، قاسية عليّ وعلى نفسك».

«سيد هارغريف، لا تنسَ وعدك».

«أحتاج إلى أن أتحدث، قلبي سينفجر إذا لم أفعل! لقد التزمت الصمت لفترة كافية ويجب أن تسمعيني!». صرخ معترضًا بجرأة: «أخبريني أنك لا تدينين بأي ولاء لزوجك، ها هو يعلن صراحة أنه سئم منكِ ومستعدٌّ لمنحكِ بهدوء إلى أي شخص طامع فيك، وأنتِ بالفعل على وشك هجره. لن يصدق أحد أنك ستغادرين بمفردك وسيقول العالم كله خيرًا فعلتِ بتركِه أخيرًا، قلة ستلومكِ وعدد أقل قد يشفق عليكِ، ولكن جميعهم سيتساءلون عن رفيق رحلتك؟ وهنا لن يفيدك جانب الفضيلة، حتى أعز أصدقائكِ لن يصدقوا ذلك، لأن طريق الفضيلة مُتعِب ولا يُنسب إليه الفضل إلا من قِبل أولئك الذين يعانون هذه الآلام القاسية ويعرفون أنها حقيقية. ثم ماذا يمكنكِ أن تفعلي في هذا العالم البارد القاسي بمفردك؟ أنت امرأة شابة وعديمة الخبرة، ترعرعتِ بعناية، وبكل تأكيد..».

قاطعته: «باختصار، ستنصحني بالبقاء حيث أنا».

«بل بكل الوسائل أدعوكِ إلى هجره!»، صاح بانفعال، «ولكن ليس وحدكِ هيلين.. دعيني أحميكِ!».

«أبدًا، ما دام اللّٰه يرعاني»، أجبته منتزعةً يدي التي كان يمسك بها ويضغط عليها، لكنه أصبح على علم بكل شيء فيما يخص خطتي الآن وكسر الحاجز إلى حد ما. لقد استيقظ تمامًا وأصبح مصممًا على المخاطرة بكل شيء من أجل الفوز.

«لا يمكنكِ حرماني منكِ!»، صاح بانفعال وأمسك كلتا يديّ بإحكام شديد، ثم هوى على ركبتيه ونظر إليّ بنظرة متوسلة: «ليس لديكِ أي سبب

الآن، لقد خُلقت لأكون مصدر راحتكِ وحاميكِ، أشعر بذلك كما لو أن صوتًا من السماء يقول لي إننا سنكون جسدًا واحدًا، في حين تصرّين على رفضي».

«دعني أذهب سيد هارغريف!»، قلت بصرامة لكنه شدد قبضته.

«دعني أذهب!»، كررت مرتجفة من السخط.

كان وجهه تقريبًا مقابل النافذة وهو راكع، لاحظت أنه ينظر باهتمام نحوها. ثم أضاء بصيص من الانتصار الغامض وجهه. نظرت من فوق كتفي ورأيت ظلًّا يبتعد من الزاوية.

قال «كان هذا غريمسبي. سيبلغ هانتينغدون وكل الآخرين بما رآه، مضيفًا تلك الزخارف التي يراها مناسبة. تعلمين أنه لا يستلطفكِ سيدة هانتينغدون، لا يحترم جنسكِ، لا يؤمن بالفضيلة والصلاح، ولا يحب ما يتعلق بهما. سيقدم نسخة بذيئة من القصة بحيث لن يترك أي شك على الإطلاق في أذهان من يسمعونها. اعتبري أن سمعتكِ النقية قد ولتْ ولا شيء يمكن أن أقوله أنا أو أنتِ بإمكانه استردادها، لكن إن منحتِني الإذن لحمايتك فلتخبريني آنذاك عن الملعون الذي يجرؤ على إهانتك!».

«لم يجرؤ أحد على إهانتي كما تفعل الآن»، قلت وأنا أحرر يدي وأرتد عنه.

صاح: «أنا لا أهينكِ، أنا أعبدكِ، أنت ملاكي، بل إلهي. أنا أضع قوتي تحت قدميكِ وعليكِ قَبُولها، وستقبلينها!»، صرخ وهو يضرب برجله الأرض، «سأكون مستشاركِ وحاميكِ. وإذا كان ضميرك يؤذيكِ إلى هذا الحد قولي للجميع إنني ألححت عليكِ ولم يكن أمامكِ سوى الاستسلام».

لم أرَ رجلًا أبدًا بهذا الشغف، عندما اقترب مني انتزعت سكين لوح الألوان الخاص بي ووجهته نحو وجهه، أذهله هذا ووقف محدقًا إليّ بدهشة. بدوْتُ شرسةً وحازمة مثله. انتقلت إلى الجرس ووضعت يدي على الحبل وهذا ما أدى إلى ترويضه، فأشار إليّ بتلويحة من يده ألّا أقرع الجرس.

«توقفْ إذن واستمع إليّ جيدًا»، تحدثت بشكل ثابت وحازم قدر المستطاع، «لو حدث وتطلقت من زوجي أو مات فلن أفكر في الزواج منك. ها هي الحقيقة، أتمنى أن تكون راضيًا الآن».

احمرّ وجهه من الغضب وأجابني بتأكيد مرير: «نعم أنا راضٍ، لأنكِ أكثر امرأة باردة القلب وجاحدة وغير طبيعية رأيتها على الإطلاق!».

«جاحدة للشكر سيدي؟».

«جاحدة للجميل».

«لا سيد هارغريف، أنا لست كذلك. لكل الخير الذي فعلته لي أو الذي تمنيت القيام به أشكرك بصدق، أما فيما يتعلق بكل السوء الذي فعلته وما كنت تنوي فعله فأدعو الله أن يعفو عنك ويجعلك أفضل».

هنا فتح الباب وظهر السادة هانتينغدون وهاترسلي. انشغل الأخير في الردهة ببندقيته، في حين دخل الأول ووقف وظهره إلى النار، يتفحصنا أنا والسيد هارغريف، ولا سيما الأخير بابتسامة ذات معنًى مقرف لا يُحتمل، مصحوبة بنظرات وقحة.

«إذًا يا سيدي، ماذا هنالك؟»، قال هارغريف بنبرة المستعد للوقوف في موقف دفاعي.

«إذًا يا سيدي..»، كرر مضيفه.

قال هاترسلي من الخارج: «نريد أن نعرف ما إذا كنت تود الانضمام إلينا في رحلة لصيد الدرّاج يا والتر، تعال معنا، لا ننوي صيد أي شيء بجانبه سوى سنور أو اثنين».

لم يجب والتر بل مشى إلى النافذة ليستجمع نفسه، بينما أطلق آرثر صافرة منخفضة وتبعه بعينيه. ارتفع تدفّقٌ طفيف من الغضب على وجه هارغريف لكنه خلال لحظة استدار بهدوء وقال بلا مبالاة:

«جئت إلى هنا لتوديع السيدة هانتينغدون وإخبارها أنني مضطرٌّ إلى المغادرة غدًا».

«ممم! قرار مفاجئ. ما الذي يزعجك هنا، هل لي أن أسأل؟».

أجاب قائلًا: «إنه عمل»، وهو يصد سخرية الطرف الآخر المروّعة بنظرة متحدّية.

«جيد جدًّا»، رد عليه هانتينغدون وابتعد عنه هارغريف. عندئذٍ استدار السيد هانتينغدون وخاطبني بصوت منخفض مُلقيًا وابلًا من الشتائم البذيئة، أبذأ من أن أدوّنها أو أنطق بها. لم أحاول مقاطعته لكن روحي كانت تشتعل من الداخل، وعندما انتهى أجبته: «إذا كانت اتهاماتك صحيحة سيد هانتينغدون، فكيف تجرؤ على لومي؟».

«أوووه! يا لها من ضربة قوية!»، صرخ هاترسلي وهو يحمل بندقيته ويدخل الغرفة ليأخذ صديقه العزيز من ذراعه ويحاول جره بعيدًا. «تعال يا رجل. سواء كان الأمر صحيحًا أو خطأً، ليس لديكَ الحق في إلقاء اللوم عليها أو عليه بعد ما قلته الليلة الماضية، هيا».

كان هناك شيء ضمّني هنا لا أستطيع تحمله.

«هل تجرؤ على الشك بي سيد هاترسلي؟»، قلت بغضب.

«كلا كلا، لا أشك في أحد، كل شيء على ما يرام، كل شيء بخير. هيا يا هانتينغدون».

«لا يمكنها إنكار ذلك!»، صاح السيد وهو يبتسم بغضب، «لا يمكنها إنكار ذلك وإن كانت حياتها تعتمد عليه!»، وتمتم بشتائم قذرة وهو يمضي إلى الردهة لأخذ قبعته وبندقيته من على الطاولة.

«لن أبرر نفسي لك!»، أجبته ثم انتقلت إلى مخاطبة هاترسلي: «أما أنت، فإذا كانت لديك أي شكوك، فاسأل صديقك السيد هارغريف».

حينها انفجرا في ضحكة فظة جعلت قامَتِي بالكامل ترتعش حتى أطراف الأصابع.

«أين هو؟ سوف أسأله بنفسي»، قلت وأنا أتقدم نحوهما.

أشار هاترسلي إلى الباب الخارجي وهو يحاول كتم ضحكته. كان الباب مفتوحًا وصهره يقف هناك.

«سيد هارغريف، هل من الممكن أن تعود إلى هنا؟»، قلت له.

استدار ونظر إليّ وهو متفاجئ.

«تقدم إلى هنا إذا سمحت!»، كررت بنبرة محددة إلى درجة أنه لم يستطع أو لم يختر مقاومة سلطتها. صَعِد الدرج على مضض وتقدم إلى الردهة.

تابعت: «أخبر هؤلاء السادة ما إذا كنتُ قد أذعنتُ لك أم لا».

«أنا لا أفهمكِ يا سيدة هانتينغدون».

«أنت تفهمني جيدًا يا سيدي، وأنا أطلب منك بشرفك كرجل نبيل (إذا كنت تملك أي منهما) أن تجيب بصدق. هل رضخت أم لم أفعل؟».

«لا»، تمتم.

«أجب بصوت أعلى يا سيدي. لا يمكنهم سماعك. هل وافقت على طلبك؟».

«لم تفعلي».

قال هاترسلي: «يمكنني أن أقسم أنها لم تفعل، وإلا فلن يبدو بهذا الانزعاج».

قال السيد هارغريف مخاطبًا مضيفه بهدوء، واستهزاء مرير على وجهه: «يسرني أن أطمئنك كرجل نبيل يا هانتينغدون».

«اذهب إلى الجحيم!»، أجابه الأخير. انسحب هارغريف بنظرة ازدراء باردة قائلًا: «تعرف أين تجدني إن شعرت بالحاجة إلى صديق».

تمتم بوابل جديد من اللعنات والشتائم كجواب عن هذه العبارة.

«كما ترى يا هانتينغدون، الأمر واضح كما النهار!»، قال هاترسلي.

قلت: «لا يُهمني ما يراه أو ما يتخيّله، لكن هل ستدافع عني يا سيد هاترسلي إذا سمعتَ اسمي يُشَوّه؟».

«بالطبع».

غادرتُ على الفور وأغلقت على نفسي باب المكتبة. لا أعلم ما الذي يدفعني إلى طلب أمر كهذا من رجل كهاترسلي، لكن الغارق يتمسّك بالقش. لقد دفعوني إلى حافَةِ اليأس فيما بينهم بحيث بالكاد أعرف ما قلته. لم يكن هناك أي شخص آخر يحافظ على اسمي من أن يصبح ملوثًا بينهم، وربما بسببهم. بجانب زوجي البائس المهجور، وغريمسبي الخبيث، والملعون هارغريف، هذا البائس الوحشي الذي كان يلمع مثل دودة متوهجة في الظلام بين زملائه الديدان.

يا له من موقف كان ذلك! هل محكوم عليّ تحمل مثل هذه الإهانات تحت سقفي وسماع مثل هذه الدناءات التي يُتَحَدَّث بها في حضوري من قِبل من انتحلوا اسم سادة؟ هل عليّ تحمل ذلك بهدوء والتصدي لإهاناتهم بحزم وجرأة كما فعلت؟ صلابة مثل هذه تُتَعَلَّم من خلال التجربة القاسية واليأس وحدهما.

بقيَت مثل هذه الأفكار تطارد بعضها بعضًا في ذهني بينما كنت أجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا، وتُقتُ ـ أوه كم كنت أتوق ـ إلى أخذ طفلي والرحيل فحسب دون تأخير ساعة إضافية! لكن لا يمكنني فعل ذلك، لديّ عمل شاق يجب أن أتمّه قبلها.

قلت لنفسي: «إذن فلأفعل ذلك دون تضييع لحظة في الغضب العبثي ضد مصيري وأولئك الذين يؤثرون فيه».

تغلبت على تلك الوساوس بجهد قوي واستأنفت على الفور عملي وواصلت ذلك بجد طوال اليوم.

غادر السيد هارغريف في اليوم التالي ولم أرَه منذ ذلك الحين. بقي الآخرون لمدة أسبوعين أو ثلاثة بقيت خلالها مبتعدة عنهم قدر الإمكان، وواصلت عملي بحماسة حتى يومنا هذا. سرعان ما أخبرت ريتشيل بتصميمي، ودوافعي، ونيّاتي، وما أدهشني كثيرًا هو أنني لم أجد صعوبة كبيرة في إقناعها بالانضمام إليّ في خطتي. هي امرأة رصينة وحذرة لكنها تكره سيدها بشدة، وعليه بعد إبداء بعض الاعتراضات الخافتة، وذرف بعض الدموع أشادت بقراري ووافقت على مساعدتي بكل قوتها لكن بشرط واحد فقط، وهو أن ترحل معي وتشاركني منفاي مستقبلًا، لأنها اعتبرت أن ذهابي وآرثر وحدنا جنونٌ مطلق. بلمسة كرم عرضت بتواضع مساعدتي بمدخراتها القليلة، مؤكدة أنني سأفعل لها معروفًا بقَبُول ذلك كقرض وسيسعدها ذلك للغاية. بالطبع، لم أستطع التفكير في مثل هذا الشيء، ثم إنني الآن ولله الحمد جمعت القليل من المال، واستعداداتي تبدو متقدمة جدًا إلى درجة أنني أتطلع إلى تحرير قريب، أنتظر فقط أن تخف قسوة هذا الطقس الشتوي، وبعد ذلك في صباح يوم ما سينزل السيد هانتينغدون إلى مائدة الإفطار بمفردة، وربما بصوت عال في المنزل يصرخ مناديًا زوجته وطفله بينما يكونان على بعد خمسين ميلًا في طريقهما إلى العالم الغربي، لأننا سنغادر قبل ساعات من الفجر وبذلك ليس من المحتمل أن يكتشف قبل ساعات.

أنا على علم تام بالعواقب المحتملة للخطوة التي أنا على وشك القيام بها وما يمكن أن يسفر عنها، لكني لن أتردد أبدًا في تنفيذها. لا يمكنني نسيان موقف حدث مع ابني هذا الصباح بينما كنت أتابع عملي المعتاد حيث كان جالسًا عند قدمي يلعب بهدوء بقطع القماش الملقاة على السجادة، لكن عقله

كان مشغولًا بأمر مختلف لأنه، في فترة من الوقت، نظر إلى وجهي بحزن وسألني بجدية: «ماما، لماذا أنت شريرة؟».

«من قال لك إنني شريرة، يا حبيبي؟».

«ريتشيل».

«لا آرثر، لم تقل ريتشيل ذلك أبدًا، أنا متأكدةٌ ذلك».

أجاب بشيء من الخجل والندم: «حسنًا، لقد كان أبي». ثم بعد وقفة تأملية أضاف: «على الأقل، دعيني أخبركِ كيف هو الأمر: إذا قلتُ عندما أكون مع أبي إن ماما تريدني، أو قلت إن ماما نَهَتْني عن فعل شيء ما يطلب مني فعله، يقول دائمًا: «ماما ملعونة»، وتقول ريتشيل إن الملعونين هم فقط الأشرار. لذا يا أمي، أعتقد أنكِ لا بد أن تكوني شريرة، وأتمنى ألا تكوني كذلك».

«عزيزي، أنا لست كذلك، هذه كلمات سيئة وغالبًا ما يقولها الأشرار عن الآخرين الذين هم أفضل منهم. هذه الكلمات لا يمكن أن تجعل الناس ملعونين ولا يستحقونها بالضرورة. سيديننا اللّٰه بأفكارنا وأعمالنا وليس بما يقوله الآخرون عنا. عندما تسمع مثل هذه الكلمات يا آرثر، تذكر ألا تكررها، لأنه من الخطأ أن تقول مثل هذه الأشياء عن الآخرين».

قال بحزن: «إذن أبي هو الشرير».

«بابا مخطئ في قول مثل هذه الأشياء، وستكون مخطئًا جدًّا في تقليده الآن بعد أن عرفت».

«ما هو التقليد؟».

«أن تفعل ما يفعل».

«هل يعرف الأفضل؟».

«ربما يفعل، لكن ليس بالضرورة الأفضل لك».

«إذا لم يفعل، يجب أن تخبريه يا ماما».

«لقد أخبرته».

توقفَ الأخلاقيُّ الصغير وفكّر مليًّا. حاولت عبثًا صرف ذهنه عن الموضوع.

قال بحزن: «مؤسف أن بابا شرير، لأني لا أريده أن يذهب إلى الجحيم». قال وهو ينفجر في البكاء.

واسيته بأمل صادق أن يتغير والده ويصبح رجلًا أفضل قبل أن يغادر الحياة، ولكن ألم يَحِنِ الوقتُ لتخليصه من مثل هذا الوالد؟

الفصل الأربعون

10 يناير 1827. أثناء كتابة ما ورد أعلاه مساء أمس في غرفة المعيشة. كان السيد هانتينغدون حاضرًا واعتقدت أنه نام على الأريكة. مع ذلك، قام دون علمي وبدافع الفضول نظر من فوق كتفي لفترة لا أعلمها، لأنني عندما وضعت قلمي جانبًا وكنت على وشك إغلاق الكراسة وضع يده عليها فجأة، وقال: «بعد إذنك يا عزيزتي، سألقي نظرة على هذا»، وانتزعها بالقوة مني وجرّ كرسيًّا وجلس لتفحصها، ورقةً وراء ورقة، ولسوء حظي كان أكثر يقظة في تلك الليلة مما هو عليه عادة في مثل هذه الساعة.

بالطبع لم أتركه يواصل هذا الاحتلال ببساطة، بذلت عدة محاولات لانتزاع الكراسة من بين يديه لكنه تمسّك بها بشدة، ولم يكن لازدرائي لسلوكه الدنيء والمخزي أيُّ تأثير فيه. في النهاية، أطفأت كلتا الشمعتين لكنه عاد وأشعل ناراً في المدفأة تكفي لتحقيق غرضه، وواصل ما كان يفعله بهدوء، فكرت جادةً في جلب إبريق من الماء وإطفاء هذه النار أيضًا، ولكن كان من الواضح أن فضوله كان أقوى بحيث لا يمكن إخماده، وكلما عبّرت عن قلقي لإرباكه زاد تصميمه، إلى جانب فوات الأوان.

قال وهو يرفع رأسه ويتجه إلى حيث وقفت: «يبدو ممتعًا للغاية يا حبي»، وهو يفرك يديه في صمت غاضب: «لكنها طويلة نوعًا ما، لذلك سوف أطّلع عليها في وقت آخر، وفي غضون ذلك سوف أزعجك بطلب مفاتيحك يا عزيزتي».

«أيّة مفاتيح؟».

قال وهو يرفع يده: «مفاتيح الخزانة والمكتب والأدراج وأي شيء آخر بحوزتك».

أجبته: «ليست لدي». في الواقع، كان مفتاح مكتبي في تلك اللحظة في القفل، وكانت المفاتيح الأخرى مرتبطة به.

قال: «إذن عليكِ أن تطلبي من أحد الخدم إحضارها، وإذا لم تسلمها العجوز الملعونة ريتشيل على الفور فإنها ستجرّ حقائبها وأمتعتها غدًا».

أجبت: «هي لا تعرف مكانها»، سحبت المفتاح بهدوء من قفل المكتب دون أن يلاحظ. «أنا أعرف مكانها، لكني لن أتخلى عنها دون سبب».

«وأنا أعلم أيضًا»، قال وهو يقبض على يدي المغلقة منتزعًا إياه بالقوة مني.

«إذن يجب الآن مصادرة الممتلكات. لكن أولًا دعينا نلقِ نظرة خاطفة على المرسم».

وضع المفاتيح في جيبه ودخل المكتبة. اتبعته، لا أعلم إن كنت فعلت ذلك لمنع الأذى، أو لمجرد معرفة أسوأ ما قد يحدث. كانت مواد الرسم الخاصة بي موضوعة على طاولة في الزاوية جاهزة للاستخدام في الغد ومغطاة بقطعة قماش. سرعان ما تفحصها ووضع الشمعة من يده، وشرع في إلقاء الأدوات في النار: لوح الألوان، الدهانات، أقلام الرصاص، الفرش، الورنيش. خرّب كل شيء ثم قرع الجرس وقال للخادم: «بنسون، خذ هذه الأشياء إلى الخارج»، مشيرًا إلى الحامل والقماش، وأخبر الخادمة أن تشعل النار فيها، عشيقتك لن تحتاج إليهم من الآن فصاعدًا». توقف بنسون مذعورًا ونظر إليّ.

قلت له: «خذهم يا بنسون».

«كل شيء يا سيدي؟»، قال الخادم المذهول مشيرًا إلى اللوحة نصف المكتملة.

أجاب السيد: «هذا، وكل شيء».

بعد ذلك صَعِد السيد هانتينغدون، لم أحاول أن أتبعه بل بقيت جالسة في الردهة، صامتةً، بلا دموع، وبلا حراك تقريبًا حتى عاد بعد نحو نصف ساعة وأمسك الشمعة أمام وجهي وهو ينظر في عيني بضحك مهين جدًّا، بضربة مفاجئة من يدي أسقطت الشمعة على الأرض.

«مرحبًا من جديد، إنها شيطانة الحقد. هل رأى أحدٌ مثل هذه العيون التي تلمع في الظلام كعيون القطط. أوه، كم أنتِ لطيفة!»، قال بينما يلتقط الشمعدان والشمعة التي انكسرت. نادى على الخادم مجددًا: «بنسون، عشيقتك كسرت الشمعة، أحضر أخرى».

قلت له عندما غادر الرجل: «أنت تستعرض نفسك بشكل جيد».

«لم أقل إنني كسرتها، أليس كذلك؟»، أجاب. ثم ألقى بمفاتيحي في حضني قائلًا: «هاكِ! لن تجدي شيئًا مفقودًا سوى أموالك ومجوهراتك، وبعض الأشياء الصغيرة التي اعتقدتُ أنه من المستحسن أن تبقى في حوزتي لئلا تميل روحك التجارية إلى تحويلها إلى ذهب. لقد تركت لك بعض المال في محفظتك وأتوقع أن تكفيكِ طوال الشهر. بكل حال، عندما تحتاجين إلى المزيد سيكون من الأفضل أن تعطيني سردًا لكيفية إنفاقكِ. سأدفع لك بدلًا شهريًّا في المستقبل لنفقاتكِ الخاصة، ولا داعي إلى أن تزعجي نفسكِ بعد الآن بشأني، سأبحث عن وكيل لأعمالي عزيزتي ولن أعرّضك للإغراءات. أما فيما يتعلق بشؤون الأسرة، ستكون السيدة جريفز مناسبة جدًّا. لا بد من اتباع خطة جديدة كليًّا هنا».

«وما هو الاكتشاف العظيم الذي حققته الآن سيد هانتينغدون؟ هل حاولت الاحتيال عليك؟».

«ليس في المال على ما يبدو، لكن من الأفضل الابتعاد عن طريق اتباع الإغراءات».

هنا دخل بنسون بالشموع وتبع ذلك فترة قصيرة من الصمت جلست فيها ساكنة وهو يقف وظهره إلى النار ينظر إليّ بصمتِ المنتصِر.

قال بعد فترة: «وهكذا فكرتِ في أن تخزيني بالهروب بعيدًا والتحوّل لفنانة والاعتناء بنفسكِ بجهد يديك؟ هل فكرت في سرقة ابني أيضًا وتربيته ليكون تاجرًا قذرًا أو رسامًا متواضعًا ومتسولًا؟».

«نعم، تجنبًا لأن يصبح رجلًا نبيلًا مثل والده».

«من الجيد أنكِ لا تستطيعين الاحتفاظ بسرّك! تباً للنساء كم يحببن الثرثرة، وإذا لم يكن لديهنّ صديق للتحدث إليه يهمسن بأسرارهن للأسماك، أو يكتبنها على الرمال، أو شيء من هذا القبيل، وهو أمر جيد أيضًا، كان من المحتمل أن أبقى غافيًا ولا أعلم أبدًا ما كانت سيدتي الجميلة تخطط له».

تركته لتهنئة نفسه ونهضت لاستعادة كراسة مذكراتي، لأنني الآن أتذكر أنها تُركت على طاولة غرفة المعيشة، وقررت أن أنقذ نفسي من الإذلال برؤيتها بين يديه مرة أخرى. لم أستطع تحمل فكرة تَسَلِّيه بأفكاري الخاصة وذكرياتي السرية. مع ذلك، من المؤكد أنه سيجد القليل من الخير فيها، في الجزء الأول بشكل خاص. أوه، سأحرقها كلها عاجلًا، لا أريده أن يقرأ ما كتبته عندما كنت حمقاء لدرجة أنني أحببته!

صرخ قائلًا بينما كنت أغادر الغرفة: «بالمناسبة، من الأفضل أن تخبري المربية الملعونة أن تبقى بعيدةً عن طريقي في هذه الأيام، كنت سأدفع لها أجرها وأرسلها غدًا، لكنني أعلم أنها ستسبب أذًى أكثر خارج المنزل مما تفعله بداخله».

استمر في شتم صديقتي المخلصة ومربيتي بألقاب لن أدنس هذه الورقة بتكرارها. ذهبت إليها بمجرد أن أخفيت كراستي بعيدًا وأخبرتها كيف هُدم مشروعنا. كانت حزينة ومذعورة بقدر ما كنتُ في تلك الليلة، لأنني صُدمت بالضربة وزاد ألمي ومرارة غضبي الكلام الذي قاله ضدها. في الصباح،

استيقظتُ دون هذا الأمل الذي كان بمثابة راحتي السرية لفترة طويلة. بقيت طوال اليوم أتجول بقلق وأتجاهل زوجي وأنكمش حتى من طفلي وأشعر أنني غير لائقة كأم أو مربية أو صديقة له، أصبحت أتمنى بصدق لو أنه لم يولد أبدًا. أعلم أن هذه المشاعر ستذهب وتعود يومًا بعد يوم. أنا سجينة هنا لكن هذا لا شيء، لو كنت وحدي لما اشتكيت، لكنني ممنوعة من إنقاذ ابني من الفساد، وما كان ذات مرة عزائِيَ الوحيد أصبح مصدر يأسي.

أين ذهب إيماني بالله؟ أحاول التوجّه إليه ورفع قلبي إلى السماء لكنه ملتصق بالتراب. لا يسعني إلا أن أقول: «نجّني يا إلهي، عاد لا يكون بإمكاني الخروج فقد جعل سلسلتي ثقيلة وملأني بالمرارة».

لكن لا بد ألّا أنسى أنه، على الرغم من الأحزان، فإن رحمته هي الغالبة، لا بد أن أفكر في هذا، وإذا لم تُقسم لي في هذه الحياة سوى الأحزان، فما هي أطول حياة بائسة مقابل سلام خالد؟

الفصل الحادي والأربعون

20 مارس. بعد أن تخلّصتُ من وجود السيد هانتينغدون بدأت معنوياتي في الانتعاش. غادر منذ أوائل فبراير، ومن لحظة رحيله تنفستُ الصعداء وشعرت بعودة طاقتي وحيويتي، ليس على أمل الهروب ـ لأنه حَرَص على عدم ترك أي فرصة لذلك ـ ولكن بتصميم على الاستفادة القصوى من الظروف الحالية. لقد ترك آرثر لي أخيرًا، واستيقظتُ من لا مبالاتي اليائسة وعدتُ إلى بذل كل قوتي لانتزاع بذور الفساد الضارة التي غرسها في عقله الصغير وزرع بذور الصلاح مرة أخرى. أشكر اللّٰه أنها ليست أرضًا قاحلة، إذا كانت الحشائش تنبت بسرعة فيها فالنباتات أيضًا. فهذا الصغير يمتلك قلبًا تغمره المحبة أكثر مما كان يمكن أن يكون عليه والده، وليست مهمة ميؤوسًا منها أن يذعن لهذه المحبة ويعرف صديقه الحقيقي ما دام لا يوجد أحد حوله يهدم جهودي.

كانت تبدو مهمة عسيرة عندما بدأت أحثه على التخلص من تلك العادات الفاسدة التي اكتسبها من والده، ولكن تُغُلِّبَ على هذه الصعوبة تقريبًا في الوقت الحاضر، نادرًا ما أصبحت اللغة السيئة تدنس فمه، وقد نجحت في جعله يشعر باشمئزاز مطلقًا من كل الخمور التي آمل أن يتمكن يومًا والده وأصدقاء والده من التغلب عليها أيضًا. كان مغرمًا بها بشكل مفرط لكونه مخلوقًا صغيرًا، كنت أتذكر والدي البائس وكذلك والده وأخشى عليه من عواقب أسلوب حياة كهذا. لكن إذا حرمته تمامًا من تذوق كمية النبيذ الطبيعية فإن ذلك سيزيد من رغبته فيه أكثر من أي وقتٍ مضى. لذلك سمحت

له بقدر ما اعتاد والده السماح له به أو ما رغب في تذوقه، ولكن في كل كوب وضعت خلسة كمية صغيرة من مقيِّئ يكفي لإحداث غثيان واكتئاب لا مفر منه دون إعياء، وعليه عندما تكررت معه مثل هذه النتائج المؤذية سَرعان ما سئم منها، ثم كلما قلص من الكمية اليومية المسموح بها ضغطت عليه أكثر حتى ازداد إحجامه ووصل إلى الاشمئزاز الكامل. عندما وصل إلى مرحلة الكره الشديد لكل أنواع النبيذ سمحت له، بناءً على طلبه، بتجربة البراندي والجِن المخلوط بالماء ـ ذلك أن هذا الرأس الصغير كان قد أصبح بفضل والده وأصحابه على دراية بكل أنواعها ـ لكنه عاد وأكد إصراره على أن الجميع يجب أن يكرهوه بنفس القدر، وقال بأن طعم ورائحة ورؤية أي نوع منها يكفي لإصابته بالمرض والإعياء، وعليه وبكل سرور تخليت عن الإلحاح عليه بشأنه، باستثناء حالات معينة بين الحين والحين حيث جعلتها مصادر تهديد وتخفيف في حالات سوء السلوك: «آرثر، إن لم تكن ولدًا صالحًا فسأُشربك كأسًا من النبيذ»، أو «آرثر، إذا كررت هذا القول أو الفعل مرة أخرى فسيكون عليك شرب بعض البراندي والماء»، وكانت نافعة مثل أي تهديد آخر. مرة أو مرتين فقط عندما كان مريضًا أجبرت الطفل المسكين على ابتلاع القليل من الخمر والماء بدون المقيِّئ للعلاج، وأعتزم الاستمرار في هذه الممارسة في المستقبل ليس لأنني أعتقد أنها خدمة حقيقية بالمعنى المادي ولكن لأنني مصممة على تجنيد كل الصلاحيات التي في متناول يدي لصالحه، أتمنى أن يبقى هذا النفور متجذرًا بعمق في طبيعته بحيث لا يمكن لأي شيء في الحياة التغلب عليه، وهكذا أحميه من هذه الرذيلة.

بالنسبة إلى البقية، إذا وجدتُ عند عودة والده سببًا للاقتناع أن جهودي ستدمر، إذا بدأ السيد هانتينغدون مجددًا لعبة تعليم الطفل احتقار والدته ومحاكاة فساد أبيه، سأحرص على تخليص ابني من يديه. لقد ابتكرت مخططًا آخر يمكنني اللجوء إليه في مثل هذه الحالة. إذا كان بإمكاني الحصول على

موافقة أخي ومساعدته فلا شك في نجاحها. القصر القديم الذي ولدنا أنا وهو فيه وحيث ماتت والدتنا، ليس مأهولًا الآن ولم يختَرِب تمامًا حسب علمي. لو كان بإمكاني فقط إقناعه بمنحي غرفة أو غرفتين للسكن والسماح لي كسمتأجرة غريبة أن أعيش هناك مع طفلي باسم مستعار وأَعُول نفسي بفني. أحتاج إلى أن يقرضني المال في البداية وسأرده له لاحقًا، يمكنني حينها أن أعيش في استقلال متواضع وعزلة تامة، لأن المنزل مبنيّ في مكان منعزل والمنطقة مسكونة بشكل ضئيل. ثم أحتاج إلى أن يساعدني في التفاوض على بيع لوحاتي. لقد رتبتُ الخطة بأكملها في رأسي وكل ما ينقصني هو إقناع فريدريك بالموافقة عليها. إنه قادم لزيارتي قريبًا وحينها سأقدم له الاقتراح، بعد أن أُطْلِعه أولًا على ظروفي بوضوح.

أعتقد أنه يعرف بالفعل أكثر بكثير مما أخبرته عن وضعي. أستطيع أن أقول هذا بسبب جو الحزن الرقيق الذي يعم رسائله وحقيقة أنه نادرًا ما يذكر زوجي ويظهر نوعًا من المرارة الخفية عندما يشير إليه، وكذلك بسبب عدم قدومه لزيارتي عندما يكون السيد هانتينغدون في المنزل. مع ذلك، فهو لم يعرب قط عن استنكاره أو تعاطفه معي، لم يطرح أسئلة أو يقول أي شيء يتعلق بهذا الأمر. لو فعل ذلك ربما لما كنت أخفيت عنه شيئًا. إنه كائن غريب، أتمنى أن نتعرف بعضنا إلى بعض بشكل أفضل. اعتاد أن يقضيَ شهرًا في ستاننغلي كل عام قبل أن أتزوج، لكن منذ وفاة والدنا رأيته مرة واحدة فقط عندما جاء لزيارتي لبضعة أيام بينما كان السيد هانتينغدون بعيدًا. سيبقى عدة أيام هذه المرة وستكون هناك صراحة بيننا أكثر من طفولتنا المبكرة. قلبي يتشبث به أكثر من أي وقت مضى. وسَئِمت روحي من هذه العزلة.

16 أبريل. لقد جاء وذهب. لم يبقَ أكثر من أسبوعين ومر الوقت سريعًا، ولكن لحسن الحظ أفادني ذلك للغاية لأنني كنت قد بدأتُ بلا وعي أُحِس بمشاعرَ غير مريحة تجاه الذكور، وكان من المريح أن أرى أن هناك واحدًا

منهم على الأقل يستحق أن يوثَق به وأن يُحترَم، ولا شك أن هناك المزيد، على الرغم من أنني لم أتعثر بهم أبدًا، إذا ما استثنينا اللورد المسكين لوبورو، وهو أيضًا كان سيئًا بدرجة كافية في أيامه. لكن كيف كان سيكون فريدريك اليوم لو أنه عاش في هذا العالم واختلط منذ طفولته برجال مثل هؤلاء؟ وكيف سيكون آرثر بكل حلاوته الطبيعية في تصرفاته إذا كنت قد نجحت في إنقاذه من هذا العالم وتلك الرفقة؟ ذكرت مخاوفي لفريدريك وعرضت عليه موضوع خطتي في المساء بعد وصوله عندما قدّمت ابني إلى خاله.

قلت: «إنه مثلك يا فريدريك في بعض حالاته المزاجية، أعتقد أحيانًا أنه يشبهك أكثر من والده، وكم يسعدني هذا».

أجابني: «أنت تجاملينني يا هيلين»، وهو يداعب خصلات الطفل الناعمة والمتموجة.

«لا، لن تظن أنها مجاملة عندما أخبرك أنني أفضل أن يشبه بنسون أكثر من والده».

رفع حاجبيه قليلًا لكنه لم يقل شيئًا.

«هل تعرف أي نوع من الرجال هو السيد هانتينغدون؟ هل لديك فكرة واضحة تمكّنك من الاستماع إلى ما سأقوله دون معارضة؟ إنه سيئ إلى درجة أنني أفكر في الهروب مع الطفل إلى ملجأ سري حيث يمكننا العيش بسلام وعدم رؤيته مرة أخرى».

«هل هو حقًّا كذلك؟».

«إذا كنت لا تعلم دعني أخبرك أكثر عنه»، وقدمتُ شرحًا مفصّلًا لسلوكه العام ووصف أكثر تحديدًا لسلوكه فيما يتعلق بطفله، وشرحتُ له مخاوفي بشأن الأخير وعزمي على ضرورة تخليصه من نفوذ والده.

كان فريدريك يشعر بالسخط على السيد هانتينغدون والحزن عليّ، مع ذلك بقي ينظر إلى خطتي على أنها طائشة وغير عملية. اعتبر مخاوفي على آرثر

غير متناسبة مع الظروف وأبدى الكثير من الاعتراضات على خطتي مُقترِحًا عددًا من الأساليب الأكثر اعتدالًا لتحسين حالتي، إلى درجة اضطرتني إلى الدخول في مزيد من التفاصيل لإقناعه بأن زوجي كان لا يمكن إصلاحه، وأنه لا يوجد شيء بإمكانه إقناعه بالتخلي عن ابنه مهما حدث كونه مصممًا على عدم التنازل عنه وأنا أيضًا لن أتركه له، وبالتالي ليس هناك من حلّ سوى هروبي إلى خارج البلاد كما كنت أنوي. لتفادي ذلك وافق على منحي جناحًا صالحًا للسكن في القصر القديم، وهو أمر ما كنت آمل أن أحتاج إليه ما لم تكن الظروف تجبرني عليه. على الرغم من ذلك، ولأنه في صالحي، يمكنني اعتبار هذا السجن جنة مقارنة بوضعي الحالي، لكنني في الوقت الراهن من أجل الأصدقاء، من أجل ميليسنت وإستر، ومن أجل المستأجرين الفقراء في غراسديل، وقبل كل شيء من أجل خالتي، سأبقى هنا قدر استطاعتي.

29 يوليو. عادت السيدة هارغريف وابنتها من لندن. إستر مأخوذة بزيارتها الأولى للمدينة لكنها ما زالت تؤثر عدم الانخراط. سعت والدتها إلى الحصول على صفقة زواج ممتازة لها، بل إنها أحضرت رجلًا مستعدًّا لوضع قلبه وثروته عند قدميها، لكن إستر امتلكت الجرأة لرفض كل تلك الهدايا. كان رجلًا من عائلة نبيلة ولديه ممتلكات كبيرة، لكن الفتاة الشقية أكدت أنه كان بعمر النبي آدم وبغيضًا وقبيحًا كما الخطيئة.

قالت: «لكن بحقّ مررتُ بأوقات عصيبة، أمي كانت محبَطة لفشل مشروعها وغاضبة جدًّا من مقاومتي العنيدة لإرادتها وما زالت كذلك، لكني لا أستطيع تنفيذ رغبتها. والتر أيضًا مستاء جدًّا من اعتراضاتي ونزواتي السخيفة ـ كما يسميها ـ لدرجة أنني أخشى أنه لن يغفر لي أبدًا، لم أكن أعتقد أن بإمكانه أن يكون قاسيًا كما أظهر نفسه مؤخرًا، لكن ميليسنت توسّلت إليّ ألا أستسلم وأنا متأكدة سيدة هانتينغدون أنك إذا كنتِ رأيت الرجل الذي أرادوا أن يخدعوني به لكنت نصحتني بألّا أوافق أيضًا».

قلت: «كنتُ أفعل ذلك سواء رأيته أم لا، يكفي أنكِ لا تحبينه».

«كنت أعلم أنك ستقولين ذلك على الرغم من أن ماما أكّدت أنكِ ستصابين بصدمة من سلوكي غير اللائق. لا يمكنكِ تخيل محاضراتها عن كوني عاصيةً وناكرةً للجميل ومحبِطة لرغباتها وظالمة لأخي، بالإضافة إلى وجودي كعبء عليها. أخشى أحيانًا أن تتغلب علي في النهاية. لدي إرادة قوية ولكن هي أيضًا، وعندما تقول مثل هذه الأشياء القاسية فإن ذلك يستفزني للموافقة على هذا القرار المرير وأميل إلى القيام بما تطلبه مني، لينكسر قلبي بعدها وأقول: تفضلي يا أمي، هذا كله خطؤكِ!».

«لا تفكري بهذه الطريقة إستر، الطاعة في هذه الجوانب لا تجلب سوى المزيد من الأذى، تمسكي بموقفكِ بحزم وستتخلى والدتك عن اضطهادها قريبًا وسيتوقف الرجل نفسه عن ملاحقتك إذا وَجَد نفسه مرفوضاً باستمرار».

«أوه لا! ستتعب ماما كثيرًا قبل أن تتعبها تلك المحاولات، أما بالنسبة إلى السيد أولدفيلد فقد أوضحت له بشكل مباشر أنني أرفض عرضه ليس بسبب أي كراهية لشخصه ولكن لمجرد أنني ما زلت مشوشة وصغيرة ولا يمكنني في الوقت الحالي الانسجام مع أفكار الزواج تحت أي ظرف، لكن بحلول الموسم المقبل ليس لدي شك أنني سأكون أكثر منطقية وآمل أن تتلاشى. لذا فقد أعادتني إلى المنزل والمدرسة لأدرك الإحساس الذي أستحقه، في مقابل الوقت الممتع الذي يأتي مرة أخرى. في الواقع، أعتقد أنها لن تضع في اعتبارها اصطحابي إلى لندن مرة أخرى إلا إذا استسلمت، فهي لا تريد اصطحابي إلى المدينة من أجل المتعة والهراء كما تقول، ولن توافق على أي رجل دون ثروة مهما كانت الأفكار السامية التي قد تكون لديّ حول انجذابي إليه».

«إستر، أنا متعاطفة معكِ لكن ما زلت أصر على ضرورة التمسك بموقفكِ بحزم. أنتِ تبيعين نفسكِ للعبودية في الحال عند موافقتكِ على الزواج من

رجل لا تحبينه. إذا كانت والدتكِ وشقيقكِ غير لطيفين معك يمكنك تركهما في يوم ما، لكن تذكري أنكِ ستبقين مرتبطة بزوجكِ مدى الحياة».

«لكن لا يمكنني تركهم ما لم أتزوج، ولا يمكنني الزواج إذا لم يَرَنِي أحدٌ. في الواقع، كنتُ قد رأيت واحدًا أو اثنين من السادة في لندن وأُعجبت بهم، لكنهم كانوا أصغر سنًّا ممن اختارتهم ماما، وبالتالي لم تسمح لي بالتعرف إليهم، أحدهم على وجه الخصوص أعتقد أنه أعجب بي كثيرًا لكنها ألقت بكل عقبة ممكنة في طريقه. أليس هذا مثيرًا للاستفزاز؟».

«ليس لدي شك أنك تشعرين أنك منجذبة إليه، ولكن من المحتمل أنك في حال تزوجته أن تصبح لديكِ أسباب أكثر للندم من تلك التي تتوقعينها لو تزوجتِ السيد أولدفيلد. عندما أقول لكِ ألا تتزوجي دون حب، فأنا لا أنصحكِ بالزواج من أجل الحب وحده، هناك العديد من الأشياء الأخرى التي يجب مراعاتها. حافظي على قلبكِ ويدكِ في حوزتكِ إلى أن تَرَيْ سببًا وجيهًا للانفصال عنهما، وإذا لم تُتِح الحياةُ هذه الفرصة أنصحكِ بإراحة عقلك، وتَذَكَّري أنه على الرغم من أن مُتعَكِ في الحياة وأنتِ عزباء قد لا تكون كثيرة، فإن أحزانك على الأقل لن تكون أكثر مما يمكنكِ تحمله. قد يغير الزواج ظروفك للأفضل لكن في رأيي الشخصي من المرجح أيضًا أن يؤدِّيَ إلى نتيجة معاكسة».

«هذا ما تعتقده ميليسنت أيضًا. ولكن اسمحي لي بالقول إنني أرى خلاف ذلك. إذا شعرت أنني محكوم عليّ بالبقاء عزباء فسأتوقف عن تقدير حياتي. إن أفكار العيش في ذا غروف عامًا بعد عام مع ماما ووالتر، بعد أن عَرَفت حقيقة مشاعرهما تُجاه هذا البقاء، ستكون أمرًا لا يطاق، أفضِّل الهروب مع كبير الخدم».

«ظروفكِ غريبة وأنا أقدّر ذلك، ولكن تحليّ بالصبر يا حبي. لا تفعلي شيئًا بتهور. تذكري أنكِ لم تبلغي التاسعة عشرة من العمر بعد، وستحتاجين إلى

سنوات عديدة قبل أن يتمكن أي شخص من اعتبارِكِ سيدة كبيرة، لا يمكنكِ معرفة ما قد تخبئه العناية الإلهية لك. في غضون ذلك، تذكري أن لديكِ الحق في التمتع بحماية ودعم والدتك وأخيك، على الرغم من أنهما قد يبدوان مضادَّيْن ذلك».

قالت إستر بعد فترة صمت: «أنت خطيرة جدًا سيدة هانتينغدون. عندما أعربت ميليسنت عن نفس المشاعر المحبطة فيما يتعلق بالزواج، سألتها عما إذا كانت سعيدة فقالت إنها كذلك، لكني لم أستطع تصديقها بشكل كامل، والآن أود أن أطرح عليكِ نفس السؤال».

ضحكت: «إنه سؤال جريء للغاية من فتاة صغيرة إلى امرأة متزوجة تكبرها بسنوات عديدة، ولن أجيب عنه».

قالت وهي تضحك وتقبّلني بعاطفة مرحة: «عفوًا يا سيدتي العزيزة». لكنني شعرت بدمع على رقبتي حيث أسقطت رأسها على صدري، وتابعت بمزيج غريب من الحزن والخجل والجرأة: «أعلم أنكِ لستِ سعيدة كما يجدر بكِ أن تكوني، لا أعتقد أنك سعيدة بقضاء نصف حياتكِ بمفردك في غراسديل في حين يمضي السيد هانتينغدون وقته في الاستمتاع حيث وكيف يشاء. أريد ألا تكون لزوجي ملذات إلا ما يتشاركها معي، وإذا لم يكن أكثر ما يسعده هو الاستمتاع برفقتي، فلماذا يكون أسوأ ما يضطر إلى فعله، هذا كل شيء».

«إذا كانت هذه توقعاتكِ من الزواج يا إستر، عليك في الواقع توخي الحذر عند اتخاذ قرار الزواج ـ أو بالأحرى تجنبه».



الفصل الثاني والأربعون

الأول من سبتمبر. ـ لا وجود للسيد هانتينغدون بعد. ربما سيبقى مع أصدقائه حتى عيد الميلاد وبعد ذلك، ربما في الربيع القادم، يغادر مرة أخرى. إذا استمر على هذا المنوال سأكون قادرة على تحمّل البقاء في غراسديل بشكل جيد، يمكنني تحمّل وجوده في الفترات المتقطّعة وحتى مجموعته التي يدعوها من حين إلى آخر في موسم الصيد. إذا بقي آرثر مرتبطًا بي بهذه القوة وترسّخت فيه المبادئ الجيدة قبل مجيئهم، سأكون قادرة بالحب والمنطق على إبقائه نقيًّا من تلوثهم. أخشى أنه أمل ضعيف، لكن إلى أن يأتي وقت الحكم على هذا الأمر سأمتنع عن التفكير في ملاذي الهادئ في المنزل القديم العزيز على قلبي.

كان السيد والسيدة هاترسلي يقيمان في ذا غروف لمدة أسبوعين، ولمّا كان السيد هارغريف غائبًا والطقس جيدًا، فلم أُمضِ يومًا دون رؤية صديقتيّ ميليسنت وإستر، سواء هناك أو هنا. في إحدى المرات، عندما أوصلهن السيد هاترسلي إلى غراسديل مع الصغار هيلين ورالف، وكنّا جميعًا نستمتع بوقتنا في الحديقة ـ أجريتُ محادثةً مع الرجل لبضع دقائق بينما كانت السيدات يتسلين مع الأطفال.

«هل تريدين سماع شيء عن زوجك، سيدة هانتينغدون؟»، قال.

«لا. إلا إذا كنت تستطيع أن تخبرني متى تتوقع عودته إلى المنزل».

«لا أستطيع. أنت لا تريدينه، أليس كذلك؟»، قال بابتسامة عريضة.

«لا».

«حسنًا، أعتقد أنك أفضل حالًا دونه. بالنسبة إلي، فقد سئمت منه. أخبرته أنني سأتركه إذا لم يصلح أخلاقه ولم يفعل، لذلك تركته. كما ترين، أصبحت رجلًا أفضلَ مما كنت عليه، ولدي أفكار جادة تتمثل في الابتعاد تماماً عنه وعن مجموعتنا الفاسدة، وأتصرف من هذا اليوم فصاعدًا بكل احترام ورصانة، كما يجب على أب الأسرة أن يكون. ما رأيك في ذلك؟».

«إنه قرار كان عليك اتخاذه منذ فترة طويلة».

«حسنًا. أنا لم أبلغ الثلاثين بعد، ولم يَفُتِ الأوان، أليس كذلك؟».

«لا لم يفت الأوان بعد على الإصلاح، ما دامت لديك الرغبة في ذلك والقوة لتنفيذ هدفك».

«في الواقع، لقد فكرت في الأمر كثيرًا، لا أنكر أن رفقته ممتعة، إنه هانتينغدون بعد كل شيء. لا يمكنكِ تخيل مدى طيبة أخلاقه ومرحه عندما لا يكون في حالة سكر. جميعنا معجبون به في أعماق قلوبنا، على الرغم من أننا لا نستطيع احترامه».

«لكن هل تتمنى أن تكون مثله؟».

«لا، أفضل أن أكون أنا، سيئًا كما أنا».

«لا يمكنك الاستمرار بالسوء الذي أنت عليه دون أن تزداد سوءًا، وبالنتيجة قد تتفوق عليه».

لم أستطع المساعدة بالتبسّم للنظرة الكوميدية نصف الغاضبة ونصف المرتبكة التي رد بها على أسلوبي غير المعتاد في الكلام.

قلت: «لا تهتم بكلامي، لكن أخبرني، هل تتمنى أن يكون أبناؤك مثل السيد هانتينغدون أو حتى مثلك؟».

«لا».

«هل تتمنى أن تحتقر ابنتك، أو على الأقل لا تشعر بأي احترام أو عاطفة تجاهك باستثناء الأسف؟».

«أوه لا! لا أستطيع تحمل ذلك».

«وأخيرًا، هل تتمنى أن تكون زوجتك مستعدة لأن تبتلعها الأرض عندما يذكرك أحد وأن تكره صوتك وترتجف من اقترابك؟».

«لن تفعل ذلك أبدًا، إنها تحبني بكلّي».

«مستحيل سيد هاترسلي! أنت تخطئ في فهم خضوعها الهادئ. لا أقصد القول إنها لا تحبك، هي كما أعلم أفضل بكثير مما تستحق، لكنني متأكدة تمامًا أنه إذا تصرفت بشكل أفضل فسوف تحبك أكثر، وإذا تصرفتَ بشكل أسوأ سيقل حبها لك بطبيعة الحال، إلى أن يضيع في الخوف والنفور والشعور بالمرارة، وقد تخفي في داخلها شعورًا بالكراهية والازدراء. لكن بمعزل عن الحب، هل ترغب في أن تكون طاغية في حياتها وتسرق النور من وجودها وتجعلها بائسة تمامًا؟».

«بالطبع لا، أنا لا أفعل، ولن أفعل هذا مطلقًا».

«لقد فعلت تجاهها أكثر مما تعتقد».

«هراء! إنها ليست المخلوق الحساس والقلق الذي تتخيلينه. نعم، هي وديعة ومسالمة وحنون، لكنّها أيضًا تعبس كما البشر في بعض الأحيان. لا أنكر أنها هادئة أساسًا غالب الوقت، وتتحمل الأمور فور حدوثها».

«فكر فيما كانت عليه قبل خمس سنوات عندما تزوجتها، وحالتها الآن».

«أعلم، كانت مملوءةَ الجسم وذات وجه وردي ناصعٍ جميل، أما الآن فهي هشة، تتلاشى وتذوب كقطعة ثلج، لكن تعلّقها بي ليس خطئي».

«ما هو سبب ذلك إذن؟ ليس العمر، فهي في الخامسة والعشرين فقط».

«إنها صحتها الحساسة وارتباكها الدائم يا سيدتي! من المؤكد أن الأطفال يقلقونها حتى الموت، بالإضافة إليّ طبعًا».

«لا، سيد هاترسلي، الأطفال يسعدونها، إنهم أطفال طيبون ويتمتعون بحسن التصرف».

«بوركوا، أعلم أنهم كذلك!».

«إذن لماذا إلقاء اللوم عليهم؟ دعني أخبرك بحقيقة الأمر: إنه قلق صامت ومستمر بشأنك وممزوج بشيء من الخوف الجسدي. عندما تتصرف بشكل جيد تعبّر عن فرحتها وهي ترتعش، لأنها لا تشعر بالأمان أو الثقة بما يمكن أن يصدر منك. مع ذلك، تخشى باستمرار انتهاء هذه السعادة قصيرة العمر عندما تتصرف بسوء. وعليه، لديها أسباب للشعور بالرعب والبؤس أكثر مما يمكن لأي شخص سواها أن يعددها. في خضم التحمل الصبور للأذى، ننسى أنه من واجبنا تحذير الآخرين من تجاوزاتهم، وهذا ما يجعل الآخر يخطئ في تفسير الصمت ويعتقد أنه لا مبالاة. تعالَ معي وسأريك واحدة أو اثنتين من رسائلها، وآمل ألا يكون هناك خرق للثقة، لأنك نصفها الآخر».

تبعني إلى المكتبة. بحثت عن رسالتين من رسائل ميليسنت ووضعتهما في يديه، واحدة مؤرخة من لندن وكُتبت خلال أحد مواسم التهور. الأخرى في البلاد خلال فترة زمنية واضحة. الأولى كانت مملوءة بالمتاعب والكَرَب، لا تتهمه ولكن تشعر بالأسى والأسف الشديدين بسبب علاقته مع رفاقه الفاسدين، وإساءات السيد غريمسبي والآخرين، والتلميح بأشياء مريرة ضد السيد هانتينغدون، وإلقاء اللوم على سوء سلوك زوجها من قبل الرجال الآخرين. في حين أن الرسالة الأخرى مملوءة بالأمل والفرح، ولكن بوعي مرتعش ويقين محزن أن هذه السعادة لن تدوم، تشي برغبة واضحة في استمرار الحياة بهذا الصفاء، وبخوف جزئي من سقوط المنزل الذي أُسِّس على هذا النحو الضعيف كأنه مبنيّ من الرمال.

لا بد أن هاترسلي كان واعيًا جدًّا أثناء قراءته، ففي بداية الخطاب الأول تقريبًا سررت لرؤيته يحمرّ خجلًا، لكنه على الفور أدار ظهره لي وذهب نحو النافذة. في الثانية، رأيته يمرر يده مرة أو مرتين على وجهه، أيعقل أن يكون ذلك لمسح دمعة؟ عندما انتهى من ذلك، كان هناك فاصلٌ زمني قضاه في

تنقية حشرجة في حلقه والتحديق من النافذة. بعد ذلك، استدار وأعاد إليّ الرسائل وصافحني.

«لقد كنتُ وغدًا ملعونًا، أعلم»، قال وهو يضغط على أسنانه بشدة، «لكنك سترين كيف أعوّضها عن ذلك، فلتحلّ عليّ اللعنة إذا لم أفعل!».

«لا تلعن نفسك سيد هاترسلي. إذا كان اللّٰه قد استجاب لنصف دعواتك من هذا النوع، لكنتَ في الجحيم منذ وقت طويل، لا يمكنك محو الماضي عبر القيام بواجبك في المستقبل، ذلك أن واجبك هو فقط ما تدين به لخالقك، ولا يمكنك أن تفعل أكثر من الوفاء به. إذا كنت تنوي إصلاح نفسك، فاستَدْعِ بركة اللّٰه ورحمته وعونه، لا لعنته».

«فليساعدني اللّٰه إذن، أنا متأكد أنني بحاجة إليه. أين ميليسنت؟».

«إنها هناك، لقد دخلت للتو مع شقيقتها».

خرج من الباب الزجاجي وذهب للقائهم وتابعته من على مسافة قصيرة. كانت دهشة زوجته غامرة عندما رفعها عن الأرض وحياها بقبلة قلبية وعناق قوي، ثم وضع يديه على كتفيها وأخبرها على ما أعتقد عن الأشياء العظيمة التي كان ينوي القيام بها، لأنها أحاطته بذراعيها فجأة وانفجرت بالبكاء وهي تصرخ: «افعل، نعم افعل ذلك يا رالف، سنكون سعداء جدًّا! أوه، ما أروعك!».

قال: «ليس أنا»، أدارها ودفعها نحوي، «اشكري هذه».

طارت ميليسنت لشكري وهي تفيض بالامتنان. أخبرتها أن زوجها كان مستعدًّا لإصلاح نفسه قبل أن أضيف شيئًا من النصح والتشجيع، وأنني لم أفعل سوى ما يمكنها هي فعله، وكان ينبغي أن تفعله بنفسها.

«أوه لا! أنا متأكدة أنني لا أستطع التأثير فيه بأي شيء يمكن أن أقوله. يمكنني أن أزعجه بجهودي الخرقاء في الإقناع فقط إذا قمت بهذه المحاولة».

قال: «لم تجربي قطّ، ميلي».

هم الآن في زيارة لوالد هاترسلي. بعد ذلك سيصلحون منزلهم. آمل ألا تسقط القرارات الجيدة التي اتخذاها ويخيب أمل ميليسنت المسكينة مرة أخرى. كانت رسالتها الأخيرة مملوءة بالشعور بالفرح والتوقعات المُرضية للمستقبل، مع ذلك، لم تحدث حتى الآن مواقف تضع نياته على المحك، لكنها بكل تأكيد ستكون أقل خجلًا وتحفظًا وأكثر لطفًا وتفكيرًا. بهذا، أصبح لدي نقطة مضيئة واحدة على الأقل، حيث يمكنني أن أريح ذهني بشأنها.

الفصل الثالث والأربعون

10 أكتوبر. عاد السيد هانتينغدون قبل نحو ثلاثة أسابيع. لن أتعب نفسي في وصف مظهره، وسلوكه، وحديثه، ومشاعري تُجاهه. مع ذلك فاجأني في اليوم التالي لوصوله بإبلاغي بقرار تعيين مربية لآرثر الصغير. أخبرته أن ذلك غير ضروري، ذلك أني مؤهلة تمامًا للقيام بمهمة تعليمه بنفسي لعدة سنوات قادمة على الأقل، حيث كان تعليم الطفل هو المتعة والعمل الوحيد في حياتي، لمّا كان حَرَمني من كل نشاط آخر.

قال إنني لست لائقة لتعليم الأطفال أو الوجود معهم، وأنني حوّلتُ بالفعل الصبي إلى إنسان آلي وكسرت روحه المرحة بسبب تزمتي وصرامتي، ولا بد أنني جمّدت كل الدفء في قلبه وسيصبح زاهدًا كئيبًا مثلي إذا بقي ملتصقًا بي لفترة أطول، لحظتها دخلت ريتشيل المسكينة أيضًا من أجل استلام نصيبها من الإساءة كالعادة، حيث إنه لا يتحمّلها لأنه يعلم أنها تعرف حقيقته.

دافعت بهدوء عن مؤهلاتنا كأمٍّ ومربية وقاومت بشدة تعيين المربية الإضافية التي اقترحها، لكنه اختصر النقاش بقول إن لا فائدة من الجدال بشأن هذا الأمر، لأنه كان بالفعل قد عيّن مربية ستصل الأسبوع المقبل، لذلك كان كل ما عليّ فعله هو التجهيز لاستقبالها. كان تصرفًا غريبًا، لذلك تجرأت على الاستفسار عن اسمها وعنوانها ومن أوصى بها أو كيف اختِيرَت.

قال: «إنها شابة محترمة وتقيّة، لا داعي إلى الخوف. أعتقد أن اسمها مايرز، وقد أوصتني بها أرملة محترمة، سيدة ذات سمعة عالية في عالم الديانات. لم أرَها شخصيًّا، وبالتالي لا أستطيع أن أعطيك فكرة معيّنة عن

شخصها وطبائعها وما إلى ذلك، ولكن إذا كانت عبارات السيدة العجوز صحيحة فستجدينها تمتلك كل المؤهلات المرغوبة لمنصبها: حبًّا مفرطًا للأطفال».

كل هذا تُحُدِّث عنه بهدوء وجدّية، لكن كانت هناك تلك الضحكة الشيطانية في عينيه والتي لا تبشر بالخير. مع ذلك، ذكّرت نفسي بخطتي الاحتياطية في حال ساءت الأمور ولم أقدم أي اعتراضات أخرى.

عندما وصلت الآنسة مايرز لم أكن على استعداد لاستقبالها بترحيب كبير. لم يكن مظهرها محسوبًا بشكل خاص لإحداث انطباع إيجابي من النظرة الأولى، ولم يمحِ سلوكُها آنذاك وسلوكها اللاحق بأي درجة التحيز الذي كنت أحمله ضدها. كانت إنجازاتها محدودة وعقلها أعلى من المتوسط بقليل. لديها صوت جميل وبإمكانها الغناء كما العندليب، وتعزف بشكل جيد على البيانو، هذه فقط كانت منجزاتها. كانت هناك نظرة خادعة ودهاء في وجهها. بدت مرتبكة مني ويزيد اضطرابها إذا اقتربت منها فجأة. كانت في سلوكها محترمة إلى حد الخنوع، حاولت أن تتملقني في البداية لكنني سرعان ما تعاملت مع الأمر. كان ولعها بتَلميذها الصغير مرهِقًا للغاية واضطررت إلى الاعتراض على موضوع التساهل المفرط والثناء المبالغ فيه، مع ذلك لم تستطع أن تكسب قلبه. كانت تقواها التي ذكرها السيد توليفة من التنهدات العرضية ورفع العيون إلى السقف والتلفظ بعبارات قليلة غير مفهومة. أخبرتني أنها ابنة رجل دين وقد تُركت يتيمة منذ طفولتها، لكنها كانت محظوظة في الحصول على مكان لدى أسرة متدينة للغاية، ثم تحدثت بامتنان شديد عن اللطف الذي اختبرته من أفرادها، إلى درجة أنني عاتبت نفسي على عدم تسامحي وسلوكي غير الودود تجاهها وتراجعت عن ذلك، ولكن ليس لفترة طويلة، حيث تبين أن أسباب عدم تقبّلي لها عقلانية للغاية وشكوكي مبنية على

أسس منطقية. كنت أعلم أن من واجبي أن أراقب وأدقق حتى أزيل هذه الشكوك أو أؤكدها.

سألتها عن اسم ومحل إقامة تلك الأسرة الطيبة والورعة. ذكرت اسمًا شائعًا ومكانًا غير معروف وبعيدًا للإقامة، ثم قالت إنهم سافروا إلى القارة ولا تعرف عنوانهم الحالي. لم أرها تتحدث كثيرًا إلى السيد هانتينغدون. لكنه كان ينظر في كثير من الأحيان إلى غرفة المدرّسة ليرى مدى ضآلة آرثر في التعامل مع مربيته الجديدة عندما لم أكن هناك. في المساء، كانت تجلس معنا في غرفة المعيشة وتغني وتعزف لتسليتنا وإمتاعنا كما تظاهرت، وبدت منتبهة جدًّا لرغباته على رغم أنها كانت تتحدث معي فقط. في الواقع، كان نادرًا ما يتحدث إليها. لو كانت غيرها لكنت شعرت بارتياح كبير لوجودها بيننا، باستثناء شعوري بالخجل الشديد من أن يراه أي شخص محترم في حالة السكر التي كان عليها في كثير من الأحيان.

لم أذكر شكوكي لريتشيل، لكنها بعد أن أقامت نصف قرن في أرض الخطيئة والحزن هذه تعلمت أن تشك حتى في نفسها. أخبرتني منذ البداية أنها لا تشعر بالراحة من تلك المربية الجديدة، وسرعان ما اكتشفتُ أنها كانت تراقبها تمامًا كما كنت أفعل، وكنتُ سعيدةً بذلك لأنني كنت أتوق إلى معرفة حقيقتها. شعرت أن أجواء غراسديل عادت تخنقني، ولم أتمكن من تجنب التفكير في قصر وايلدفيل.

ثم أخيرًا، ذا صباحٍ دخلتْ ريتشيل غرفتي بمعلومات استخباراتية جعلتني أتخذ قراري بالتنفيذ قبل أن تنهي كلامها. بينما كانت تُلبسني شرحت لها نيّاتي وما هي المساعدة التي أطلبها منها. أخبرتها أيًّا من أغراضي تحزم وما لم أذكره يمكنها أخذه لنفسها، حيث لم يكن لدي أي وسيلة أخرى لتعويضها بسبب هذا الفصل المفاجئ بعد خدمتها الطويلة والمخلصة. ظرف ندمت عليه بشدة لكنني لم أستطع تجنبه.

«ماذا ستفعلين يا ريتشيل؟ أستعودين إلى المنزل أم تبحثين عن مكان آخر؟».

فأجابت: «ليس لي بيت يا سيدتي، وإذا تركتك فلن أذهب إلى منزلك القديم مرة أخرى».

«لكني لن أتمكن من العيش كما أفعل أو كما كنت في السابق يا ريتشيل، أنا مضطرة إلى أن أعتني بنفسي وأربي الطفل».

«وماذا يعني هذا! ستحتاجين إلى من يقوم بالتنظيف والغسيل والطهو، أليس كذلك؟ أستطيع أن أفعل كل ذلك، لا تهتمي بالأجور فأنا لدي القليل من مدخراتي. إذا لم ترغبي في مرافقتي لك فسأضطر إلى البحث عن مسكن خاص أو العمل عند غرباء، وهو أمر لم أتعوده. بكل حال، القرار يعود إليكِ سيدتي». ارتجف صوتها وهي تتكلم وترقرقت الدموع في عينيها.

«أود ذلك أكثر من أي شيء يا ريتشيل، لكني أود أيضًا أن أمنحكِ أجرًا بقدر ما يمكنني تحمّله، كما أعطي أي شخص آخر ينجز لي عملًا ما، ألا ترين أنه من غير المنصف أن أسحبكِ معي في هذا الوضع العسير وأنتِ لم تفعلي شيئًا لتستحقي ذلك؟».

«هراء!».

«إلى جانب ذلك، ستكون طريقة عيشي في المستقبل مختلفة تمامًا عن الماضي وعن كل ما اعتدتُه».

«هل تعتقدين يا سيدتي أنني لا أستطيع تحمل ما يمكن أن تتحمله سيدتي؟ على الرغم من أنني لست بنبلكِ ورقيّك، وسيدي الصغير أيضًا، باركه اللّٰه!».

«لكني شابة يا ريتشيل ولا أمانع ذلك. وآرثر صغير أيضًا ولن يكون شيئًا بالنسبة إليه».

«ولا أنا أيضًا، أنا لست كبيرةً جدًّا في السن، ويمكنني تحمل شق الأنفس

والعمل الجاد، إذا كان ذلك فقط لمساعدتكما وإراحتكما، كما أحب أن أفعل لأقاربي. لا أتحمل فكرة ترككما في ورطة وخطر والذهاب للعمل لدى الغرباء».

«إذن لن تفعلي يا ريتشيل»، بكيتُ وأنا أعانق صديقتي المخلصة. «سنذهب معًا ونرى كيف تناسبنا الحياة الجديدة».

«بارك الله بكِ عزيزتي»، صرخت وهي تعانقني بحب غامر. «فقط دعينا نغادر هذا المنزل الشرير وسنفعل ما يلزم، سترين».

كانت إجابتي: «أعتقد ذلك»، وهكذا سُوِّيَت هذه النقطة.

في ذلك الصباح، أرسلت بعض الأسطر المتسرعة إلى فريدريك أرجوه فيها أن يعدّ جناحًا لي في القصر القديم لاستقبالي بشكل فوري، لأنه من المحتمل أن أصِلَ خلال يوم واحد من استلام تلك المذكِّرة. قلت له بشكل موجز سبب قراري المفاجئ. ثم كتبت ثلاث رسائل وداعية: الأولى إلى إستر هارغريف أخبرها فيها أنني وجدت أنه من المستحيل البقاء لفترة أطول في غراسديل أو ترك ابني في كنف والده، ولأنه من الأهمية أن يبقى مسكننا المستقبلي مجهولًا في الوقت الحاضر فلا يمكنني أن أفصح عنه إلا لأخي الذي كنت أنوى أن أتواصل مع أصدقائي من خلاله. أعطيتها عنوان مراسلته وطلبت منها الكتابة دائمًا، وكررت بعض تحذيراتي السابقة فيما يتعلق بمخاوفها الخاصة وودعتها بكل سرور.

الثانية كانت إلى ميليسنت. نفس المحتوى تقريبًا ولكن أكثر سرية بما يتناسب مع علاقتنا الأطول وخبرتها الأكبر ومعرفتها بشكل أفضل بظروفي.

الثالثة كانت إلى خالتي، كانت المهمة الأصعب والآلَم ولذلك تركتها حتى النهاية. كان يجب أن أقدم لها بعض التفسيرات لتلك الخطوة غير العادية التي اتخذتها، وبسرعة، لأنها وزوجها سيقرآن الرسالة بلا شك في غضون يوم أو يومين من مغادرتي، حيث من المحتمل أن يلجأ السيد هانتينغدون إليهم أولًا

ليعرف ما حل بي. مع ذلك، أخبرتها أنني فهمت خطأ قراري وأتحمل عواقب هذا الخطأ عليّ، لكني أسفت لإزعاج من حولي بتلك العواقب. أخبرتها أنني من منطلق واجبي تجاه ابني لا يمكنني الاستسلام بعد الآن، وقد أصبح تحريره من نفوذ والده الفاسد ضرورةً ملحّة، ولا يمكنني الإفصاح عن مكان لجوئي، وبذلك يمكنها هي وعمّي بصدق إنكار أي معرفة بمكاني. أكّدتُ لها أيضًا أنها على الرغم من كل شيء يمكنها مراسلتي عبر أخي، وأملت أن تعفو هي وعمي عني بسبب الخطوة التي اتخذتها لأنهم لم يكونوا ليلوموني إذا علموا بما قاسَيْته وأقاسيه. طلبت منها عدم القلق مطلقًا بشأني، لأنني بمجرد وصولي إلى ملجئي سأكون بأمان وسعادة ورضًا تام بقضاء حياتي في الخفاء وتكريس نفسي لطفلي وتعليمه تجنب ارتكاب أخطاء والديه.

أتممت إنجاز هذه الأشياء بالأمس وكنت قد أعطيت نفسي يومين كاملين للتّحضير لمغادرتنا، حتى يكون لدى فريدريك المزيد من الوقت لتجهيز المكان وريتشيل لحزم الأشياء، لأن المهمة الأخيرة يجب أن تتم بأقصى درجات الحذر والسرية ودون مساعدة أحد سواي. يمكنني المساعدة في تجميع الأغراض لكنني لا أفهم فن ترتيبها في الصناديق لشَغْل أصغر مساحة ممكنة، ثم هناك أمور خاصة بها يجب أن تنهيها بالإضافة إلى ما يخصني وآرثر. لا أستطيع ترك شيء ورائي، لأنني لا أملك نقودًا باستثناء بضع جنيهات في حقيبتي. إلى جانب ذلك، كما نبهتني ريتشيل، فإن كل ما أتركه سيصبح على الأرجح مُلكًا للآنسة مايرز وينبغي أن لا أمنحها هذه المتعة.

لكن، يا للمتاعب التي مررت بها طوال هذين اليومين وأنا أكافح لأبدُوَ هادئةً عند رؤيتهما معًا، أو عندما كنت أُضْطَر إلى ترك طفلي الصغير بين يديها لساعات، مع ذلك أثق أن هذه المواقف ستنتهي قريبًا. لقد أصبحت أضعه في سريري لمزيد من الأمان والتأكد أن فمه البريء لن يتنجس بسبب القبلات التي تطلب منه أن يطبعها على خدها، ولن يتلوث سَمْعه بكلماتهما. لكن هل

سنتمكن من الهرب بأمان؟ آه، ها هو موعد التنفيذ يقترب. هذا المساء بعد الانتهاء من مساعدة ريتشيل، لم يبقَ لي شيء سوى الانتظار والتمنّي والقلق، كنت أشعر باضطراب شديد إلى درجة أنني لم أكن أعرف ماذا أفعل. ذهبت إلى غرفة الطعام وقت العشاء، لكنني لم أجبر نفسي على تناول شيء، لاحظ السيد هانتينغدون وضعي:

«ماذا بك الآن؟»، قال عندما كان الخادم يرفع الأطباق.

أجبته: «لا أشعر أنني بخير، أعتقد أنني يجب أن أتمدد قليلًا، لن تشتاق إليّ كثيرًا، أليس كذلك؟».

«ليس حتى بأقل من القليل. سيكون جيدًا إذا تركتِ مقعدك»، ثم تمتم عندما كنت أغادر الغرفة، «لأني أستطيع تخيل شخصٍ آخر يشغله».

قلت في نفسي: «وقد يشغله آخر غدًا».

«يكفي أن أراكَ أنت لآخر مرة كما آمل»، قلت له وأنا أغلق الباب في وجهه.

حثتني ريتشيل على الراحة في الحال لتجنيد قوتي لرحلة الغد، حيث يجب أن نكون قد رحلنا قبل الفجر، لكن في حالتي والإثارة العصبية التي كنت أعاني منها كان ذلك غير وارد مطلقًا. لم أستطع أن أجلس أو أتجول في غرفتي، وأعد الساعات والدقائق بيني وبين الوقت المحدد للعمل، وأرهق أذني وأرتجف عند كل صوت، لئلا يكتشفنا أحد. تناولت كتابًا وحاولت قراءته، تجولت بعيوني في الصفحات لكن كان من المستحيل ربط أفكاري بمحتوياتها. لماذا لا ألجأ إلى الوسيلة القديمة وأضيف هذا الحدث الأخير إلى كراستي؟ فتحتها وكتبت ما ورد أعلاه بصعوبة في البداية، لكن تدريجيًّا أصبح ذهني أكثر استرخاءً وثباتًا، وهكذا انقضت عدة ساعات واقترب الوقت، والآن أشعر بثقل في عيني وإرهاق في جسدي. سأتوكل على الله وأستلقي لأستمتع بساعة أو اثنتين من النوم وثم...

آرثر ينام بهدوء قربي. كل من في المنزل ما زالوا نيامًا ولا يمكن لأحد أن يلاحظ. رُبِطَتِ الصناديقُ بواسطة بنسون ونَقَلها بهدوء إلى أسفل الدرج الخلفي بعد الغسق، وأُرسلتْ في عربة إلى مكتب حافلات. كان الاسم المدوّن على البطاقات هو السيدة غراهام، وهذا اللقب من الآن فصاعدًا هو ما سأعتمده. كان اسم والدتي قبل الزواج هو غراهام، ولذلك أتخيل أن لديّ بعض الحق في المطالبة به، وتفضيله على أي اسم آخر، باستثناء اسمي الذي لا أجرؤ على إبقائه.

الفصل الرابع والأربعون

24 أكتوبر. أشكر السماء؛ أنا حرّة وآمنة أخيرًا. نهضنا مبكرًا مرتدين ملابس مريحة ونزلنا ببطء وبخفاء إلى الردهة حيث وقف بنسون جاهزًا لفتح الباب وإغلاقه بعد مغادرتنا. اضْطُررنا إلى السماح لرجل واحد بمعرفة سرنا بسبب الصناديق، كان جميع الخدم على دراية جيدة بسلوك سيدهم، وكان بنسون وجون راغبَيْن في خدمتي، ولكن نظرًا إلى أن الأول كان أحكم وأَسَنَّ، وكان صديقًا مقربًا إلى ريتشيل بجانب ذلك، فقد وجهتها بالطبع لاختياره كمساعد لها في هذه الخطة بقدر ما تتطلب الضرورة. أتمنى فقط ألا يُجَرّ إلى أي ورطة بسبب ذلك، وأن أتمكن من مكافأته يومًا على الخدمة المحفوفة بالمخاطر التي كان على استعداد للقيام بها. وضعت في يده اثنين من الجنيهات كتذكار وهو يقف في المدخل ممسكًا بالشمعة عند مغادرتنا، مع دمعة في عينه الرمادية الصادقة، ومجموعة من التمنيات على وجهه الطيب. تألمت لأنني لم يكن بإمكاني تقديم المزيد، لم يبقَ لدي سوى ما يكفي لتغطية النفقات المحتملة للرحلة.

يا لها من فرحة مرتجفة عندما غُلق الباب الصغير خلفنا عند خروجنا من الحديقة! ثم للحظة توقفت لاستنشاق هذا الهواء البارد، والمغامرة بإلقاء نظرة أخيرة على المنزل. كان كل شيء مظلمًا وساكنًا، لم يكن هناك ضوء يلمع في النوافذ ولم يحجب إكليل الدخان النجوم التي توهجت فوقه في السماء الفاترة. عندما ودعت هذا المكان الذي شهد الكثير من البؤس والأحزان إلى الأبد، شعرتُ بالسعادة أنني لم أتركه من قبل، ففي الوقت الحاضر ليس لديّ

شك في مدى ملاءمة هذه الخطوة ولم يكن لديّ أي شعور بالندم. لم يكن هناك ما يزعج فرحتي سوى الخوف من انكشافنا، لكن كل خطوة كانت تُبعدنا عن احتمال حدوث ذلك.

كنا قد ابتعدنا عن غراسديل عدة أميال قبل أن تشرق الشمس للترحيب بانعتاقنا، وإذا كان أيٌّ من سكان المنطقة المجاورة قد تمكن من رؤيتنا لا أعتقد أنهم كانوا سيشتبهون في هُويتنا نظرًا إلى أنني كنت أنوي أن أبدُوَ كأرملة، فقد اعتقدتُ أنه من المستحسن أن أدخل مسكنِيَ الجديد وأنا في حالة حداد، لذلك كنت أرتدي ثوبًا حريريًا أسودَ وخمارًا أسودَ (أبقيته بحرص وعناية على وجهي في أول عشرين أو ثلاثين ميلًا من الرحلة) وقبعة سوداء كنت قد اضْطُررت إلى استعارتها من ريتشيل لعدم توفر مثلها لديّ. لم يكن بأحدث صيحات الموضة بالطبع، لكن هذا ليس بأسوأ الأمور في ظل الظروف الحالية. كان آرثر يرتدي أبسط ملابسه وملفوفًا بشال من الصوف الخشن، وريتشيل مكتومة في عباءة وقَلَنْسُوَة رمادية شهدت أيامًا أفضل، وأعطاها مظهر امرأة عجوز عادية على رغم أنها بالعادة تبدو أكثر من خادمة.

أوه، يا لها من بهجة أن أكون جالسة عاليًا وأقطع الطريق الواسع المشرق مع نسيم الصباح المنعش في وجهي، في بلدة غير معروفة، كل شيء يبتسم لي، طفلي الحبيب بين ذراعي سعيد مثلي، صديقتي المخلصة بجانبي، وسجن اليأس خلفي يتراجع أكثر فأكثر مع كل قرقعة لحوافر الخيول في حين أن الحرية والأمل أمامي. لم أستطع منع نفسي من الصراخ بحمد اللّٰه على خلاصي، أو إدهاش من يرافقني بانفعالي ومرحي المفاجئ.

لكن الرحلة كانت طويلة جدًّا وكنا منهكين للغاية قبل الوصول إلى نهايتها. كان قد مر وقت طويل من الليل عندما كنا على بعد سبعة أميال من نهاية رحلتنا، ولم يكن هناك المزيد من العربات المغلقة، لا وسيلة نقل سوى العربات المشتركة وكان ذلك الأمر الأصعب، لأن نصف سكان المدينة كانوا

نيامًا، كانت رحلة كئيبة وباردة ومرهقة حيث جلسنا على صناديقنا دون أي شيء نتشبث به أو نتكئ عليه، كان التحرك شاقًّا على الطرق الجبلية الوَعْرة. لحسن الحظ أن آرثر كان نائمًا في حضن ريتشيل وتمكّنّا من حمايته من هواء الليل البارد.

أخيرًا، بدأنا في صعود ممر حجري شديد الانحدار، والذي على الرغم من الظلام قالت ريتشيل إنها تتذكره جيدًا، حيث كانت تسير فيه في كثير من الأحيان وأنا بين ذراعيها، ولم تفكّر يومًا أنها ستعود إليه مرة أخرى بعد سنوات وفي مثل هذه الظروف. استيقظ آرثر بسبب الاهتزازات والتوقفات فخرجنا جميعًا ومشينا. لم يكن لدينا الكثير لنقطعه، لكن ماذا لو لم يتلقَّ فريدريك رسالتي؟ أو لم يكن لديه الوقت لتجهيز المكان لاستقبالنا ووجدناه مظلمًا، ورطبًا، وغير مريح، ويفتقر إلى الطعام والنار والأثاث بعد كل تعبنا؟

في النهاية، ظهرت الكومة القاتمة المظلمة أمامنا. قادنا الممر إلى الطريق الخلفي ودخلنا إلى المنزل المهجور وفي قلق لاهث استطلعنا المكان. هل كان كله سوادًا وخرابًا؟ لا، كان يظهر بصيصٌ أحمرُ خافتٌ من خلف إحدى النوافذ. كان الباب مقفلًا ولكن بعد الطَّرْق والانتظار فترةً، فتحَتِ البابَ امرأةٌ عجوزٌ كُلِّفَت بتهوية المنزل وترتيبه إلى حين وصولنا، أوصلتنا إلى جناح صغير مريح كان في السابق حجرة المطبخ في القصر، والتي كان فريدريك قد جهزها الآن كمطبخ. أشعلَتِ النارَ وأعَدّتْ وجبةً بسيطة في حين تخفّفنا من أعباء السفر وتفحّصنا سريعًا مسكننا الجديد.

إلى جانب المطبخ كان هناك غرفتا نوم وصالون جيد الحجم وآخر أصغر حجمًا قررت أن يكون مرسمي الخاص، جميعها جيدة التهوية وتبدو في حالةٍ مُرضية لكنها مؤثّثة جزئيًّا فقط ببضع أشياء قديمة، معظمها مصنوعٌ من خشب البلوط الأسود الثقيل، كانت موجودة من قبل وآثر أخي الاحتفاظ بها.

أحضرَتِ السيدةُ العجوز العشاء إلى الصالون وأخبرتني برسمية أن «السيد

يبلغ السيدة غراهام تحياته، وقد أعد الغرف بقدر استطاعته بناءً على الإشعار القصير جدًّا، لكنه يدعوها إلى أن تُبلغه غدًا بأوامرها الإضافية».

كنتُ سعيدةً بصعود الدرج الحجري القديم والاستلقاء في السرير القديم الكئيب، بجانب آرثر الصغير الذي غرق فورًا في النوم، ولكن على الرغم من إرهاقي أبقتني مشاعري المتحمسة والتأملات المضطربة مستيقظةً حتى الفجر الذي بدأ في الصراع مع الظلام. النعاس كان حلوًا عندما باغتني والاستيقاظ ممتعًا بشكل لا يمكن التعبير عنه، كان آرثر هو الذي أيقظني بقبلاته اللطيفة، آه، إنه أخيرًا بأمان بين ذراعي وبعيدًا عن والده الذي لا يستحقه. أضاء ضوءُ النهار المكان لأن الشمس كانت عاليةً في السماء على الرغم من أن كُتَلًا متدحرجة من بخار الخريف كانت تحجبها بين الحين والآخر.

في الواقع، لم يَكُنِ المشهدُ مُبهِجًا في حد ذاته، سواء في الداخل أو في الخارج. الغرفة العارية الكبيرة بأثاثها القديم الكئيب، والنوافذ الضيقة التي تكشف عن السماء الرمادية الباهتة في الأعلى، والبرّية المقفرة في الأسفل، حيث الجدران الحجرية الدَّكِنة والبوابة الحديدية، والأشجار القاسية دائمة الخضرة بشكل خارق للطبيعة وحدها بقيت لتخبرنا أنه كانت هناك حديقة ذات مرة، صدمني منظر الحقول القاتمة والقاحلة وراءها، مع ذلك في هذه المرحلة كل شيء منعزل يعزز إحساسي بالأمل والحرية، ثم إن الأحلام غير المحدودة للماضي البعيد والتوقعات المشرقة للمستقبل تتلقاني في كل منعطف. لا بد أن أحرص على توفير مزيد من الأمان بالطبع على الرغم من بُعد المسافة بين بيتي الحالي وبيتي السابق، سأبقى في هذه البقعة المنعزلة مجهولةً، ولديّ أخي الذي يمكنه كسر وَحْدتي بزياراته.

جاء ذلك الصباح والتقينا مرارًا منذ ذلك الحين، لكن عليه أن يكون حذرًا جدًّا بشأن الوقت والطريقة التي يزورني فيها. لا يمكن حتى لخَدَمه أو أصدقائه أن يعلموا بزياراته إلى وايلدفيل، باستثناء المناسبات التي قد يُتوقع

من المالك فيها اللقاء بمستأجِره لئلا تُثار الشكوك ضدي، سواء تلك الحقيقية أو الافتراءات الباطلة.

أنا هنا منذ أسبوعين تقريبًا، وعلى الرغم من القلق والخوف المستمر من الاكتشاف أنا مستقرة بشكل مريح في بيتي الجديد حيث زوّدني فريدريك بجميع الأثاث ومواد الطلاء المطلوبة، باعت ريتشيل معظم ما كان لديّ من ملابس في مدينة بعيدة واشترت لي مجموعة ملابس أكثر ملاءمة لوضعي الحالي. لدي بيانو مستعمل وخزانة جيدة التجهيز في صالة الاستقبال الخاصة بي وقد اتخذت غرفتي الأخرى بالفعل مظهرًا احترافيًّا شبيهًا بالمعمل. أعمل بجد لسداد جميع نفقات أخي، لا يعني ذلك أن هناك أدنى ضرورة لأي شيء من هذا النوع، ولكن يسعدني أن أفعل ذلك. أستمتع كثيرًا بعملي وأرباحي وأجرتي والاقتصاد المنزلي. لأنني أعلم أنني أخوض طريقي بصدق، وأن ما أملكه هو حقًّا كل ما أملك، ولا أدين لأحد بأي مبالغَ مالية على الأقل. سأجعله يأخذ آخر بنس أدين له به إذا كان بإمكاني ذلك دون إشعاره بأي سوء. لدي بعض اللوحات بالفعل، لأنني طلبت من ريتشيل أن تحزم كل ما لديّ ونفذَتِ المهمةَ بشكل جيد. من بين اللوحات كانت هناك لوحة كنت قد رسمتها للسيد هانتينغدون في السنة الأولى من زواجي. أفزعتني اللوحة عندما لمحتها وأنا أخرجها من الصندوق، ورأيتُ تلك العيون مثبتةً عليّ بسخرية كما لو كان ما يزال في وسعه السيطرة على مصيري والاستهزاء بجهودي للهروب.

يا لاختلاف مشاعري عندما رسمت تلك اللوحة عما أنا عليه الآن عند النظر إليها، كيف اجتهدت لإنتاج شيء اعتقدتُ أنه يستحق الجهد! يا له من امتزاج غريب للّذّة وعدم الرضا، عدم الرضا لأنني لم أجعله وسيمًا بدرجة كافية، في حين أنني الآن لا أرى فيه وسامة، لا شيء جميلًا في أي جزء من تقاسيمه، مع ذلك لا أنكر أنه كان آنذاك أوسم وأكثر قَبُولًا وأقل إثارة

للاشمئزاز مما هو عليه الآن. لقد أحدثت هذه السنوات الست تغييرًا كبيرًا فيه كما فعلت بمشاعري تجاهه. مع ذلك، فإن الإطار جميل بدرجة كافية لأن يخدم لوحة أخرى. لم أحطم اللوحة كما كنت أنوي في البداية، تركتها جانبا فحسب. ليس ذلك بسبب حنين إلى أي ذكرى ماضية، ولا حتى الآن لتذكيري بحماقاتي السابقة، ولكن بشكل أساسي لأقارن ملامح ابني به وهو يكبر، وبالتالي يمكنني الحكم على مقدار شبهه لوالده، إذا نجحتُ في إبقائه معي وعدم رؤية وجه هذا الأب مرة أخرى، وهي نعمة بالكاد أجرؤ على تمنيها.

يبدو أن السيد هانتينغدون يبذل قصارى جهده لاكتشاف مكان لجوئي. لقد ذهبَ شخصيًّا إلى ستانينغلي متوقعًا العثور على ضحاياه هناك، وقد أخبرهم الكثير من الأكاذيب وبهدوء لا يحسد عليه إلى درجة أن زوج خالتي كان يميل إلى تصديقه، وأيّد بشدة عودتي إليه، لكنّ خالتي كانت تعرف أفضل، إنها حذرة للغاية ومطّلعة بشكل جيد على شخصية زوجي وشخصيتي بحيث لا يمكن فرض أية أكاذيب خادعة عليها، لكنه أخبرهم أنه لا يريدني أن أعود، بل يريد الطفل فحسب وتَرَكَ انطباعًا لدى الجميع أنني فضلت العيش بعيدًا عنه. هكذا ينغمس في نزواته دون مضايقة بل وسيحدد لي نفقةً معقولة، بشرط أن أسلمه ابنه على الفور. لن استبدل طفلي بالذهب، على الرغم من أن ذلك كان لإنقاذه من الجوع فإنه سيكون من الأفضل أن يموت معي بدلًا من أن يعيش مع والده.

أظهر لي فريدريك رسالة تلقاها منه مملوءة باللطف الوقِح وبإمكانها أن تذهل أي شخص لا يعرفه، مع ذلك أنا مقتنعة أن لا أحد سيجيبه أفضل من أخي. لم يعطِنِي أي معلومات عن رده باستثناء القول إنه لم يخبره بمكاني بل تركَه ليستنتج أنه لا يعرفه بقوله إنه لا جدوى من سؤاله أو سؤال أيٍّ من معارفي الآخرين للحصول على معلومات حول هذا الموضوع، حيث يبدو أنني كنت يائسة لدرجة أنني أخفيت هروبي حتى عن أعز أصدقائي، ولكن

إذا كان على علم بذلك أو أصبح على علم به في أي وقت فمن المؤكد أن السيد هانتينغدون سيكون آخر شخص يبلغه بالأمر، وأنه لا يحتاج إلى عناء المساومة من أجل الطفل، لأنه (فريدريك) يعرف ما يكفي عن شقيقته لتمكينه من التصريح بأن لا اعتبار سيدفعها إلى تسليمه أينما وبأي حالة كانت.

30 أكتوبر. يا إلهي! جيراني اللطفاء يرفضون تركي وشأني. لقد تحرّوا عني واضْطُررت إلى استقبال ثلاث عائلات مختلفة كلها عازمة بشكل أو بآخر على اكتشاف من أكون ومن أين أتيت ولماذا اخترت السكن في قصر مهجور كهذا. معرفتهم غير ضرورية بالنسبة إليّ وفضولهم يزعجني. إذا أشبعته فقد يؤدي ذلك إلى خراب ابني، وإذا بقيتُ غامضةً فلن يؤدي ذلك إلا إلى إثارة شكوكهم ودعوتهم إلى التخمين وإيقاظ فضول أكبر، وربما يؤدي إلى نشر الأمر من رَعِية إلى أخرى إلى أن تصل إلى آذان سيد غراسديل.

يتوقعون مني بالطبع الرد على زياراتهم، لكن إذا وجدتُ عند الاستفسار أن أيًّا منهم يعيش بعيدًا جدًّا بالنسبة إلى مرافقة آرثر لي، يجب أن لا يتوقعوا حدوث ذلك لبعض الوقت لأنني لا أستطيع تحمل تركه. لا بدّ أن أرتاد الكنيسة، لكني لم أتمكن من فعل ذلك بعد لأنه قد يكون تصرفًا أحمقَ في هذه المرحلة، أشعر بالخوف الدائم من خطفه بحيث لا أكون مرتاحة أبدًا عندما لا يكون بجانبي وأخشى أن يؤدي هذا الرعب إلى تعكير صلواتي بحيث يجعل حضوري دون فائدة. مع ذلك، لا ضير في تجربة الأمر يوم الأحد المقبل وتركه مع ريتشيل لبضع ساعات. ستكون مهمة صعبة لكنها بالتأكيد ليست حماقة، حيث كان القس يؤنبني على إهمالي لارتياد الكنيسة ولم يكن لدي عذر مقنع لتقديمه، وعليه وعدته إذا كان كل شيء على ما يرام، أن يراني في مقعدي يوم الأحد المقبل، لأنني لا أريد أن أكون عاصية. إلى جانب ذلك، أعلم أنني سأشعر براحة كبيرة وأستفيد روحيًّا من حضور القُدّاس. بالتأكيد سيحفظني الله برحمته من أجل طفلي إن لم يكن من أجلي.

3 نوڤمبر. لقد تعرفت أكثر إلى جيراني. الرجل المحترم ووسيم الرعية ومحيطها (في تقديره الخاص على الأقل) شابّ...

***

انتهى، إذ مُزِّقَ الباقي. يا لها من قسوة أن يحدث ذلك بمجرد ذِكري! أقول هذا لأني لا أشك في أنها كانت ستتحدث عني مطولًا، وإن لم يكن ذلك بشكل إيجابي للغاية بالطبع. أستطيع أن أؤكد ذلك من خلال تلك الكلمات القليلة، بالإضافة إلى تذكر سلوكها تجاهي في بداية معرفتنا. حسنًا! يمكنني الآن بسهولة أن أغفر تحيزها ضدي وأفكارها الصعبة عن جنسنا بشكل عام بعدما رأيتُ العيّنات الرائعة التي كانت تجربتها محدودة بها، مع ذلك كانت قد بدأت تحترمني منذ فترة طويلة، وإذا كان رأيها عني في البداية أقل مما أستحقه، فالجزء اللاحق قد تمزق تجنّبًا لجرح مشاعري. على أي حال، كنتُ مستعدًّا لتقديم الكثير في سبيل رؤية نمو احترامها وصداقتها وأي شعور أدفأ قد تُحِسّ به تُجاهي، لقد أدركتُ مقدار حبي لها وكيف نما على الرغم من قراراتها وجهودها المضنية لمنع ذلك، ومع ذلك لم يكن لي الحق في معرفة قصتها وحقيقتها، هذا كان خاصًّا جدًّا وقد أحسنتْ بإخفائه عني.

الفصل الخامس والأربعون

حسنًا يا هالفورد، ما رأيك في كل هذا؟ وأثناء قراءتها هل تخيلت ما يمكن أن تكون عليه مشاعري؟ على الأرجح لا، لكنني لن أتطرق إلى ذلك الآن، سأقوم فقط بهذا الاعتراف: كان النصف الأول من السرد بالنسبة إليّ أكثر إيلامًا من الأخير، ليس لعدم إدراكي لمعاناة السيدة هانتنغدون أو التأثر بها، ولكن لا بد لي من الاعتراف أنني شعرت بنوع من الإشباع الأناني وأنا أرى تدهور زوجها التدريجي وكيف قضى تمامًا على كل عواطفها في النهاية. إلا أن التأثير الكلّي على الرغم من كل تعاطفي معها وغضبي منه، كان الراحة التي شعرت بها من عبءٍ لا يطاق وفرح ملأ قلبي كما لو أن صديقًا ما قد أيقظني من كابوس رهيب.

كانت الساعة الآن تقترب من الثامنة صباحًا، شمعتي ذوت في خضم انشغالي بالقراءة طوال الليل ولم يبقَ لي سوى إحضار أخرى والمجازفة باحتمال إيقاظ مَنْ في المنزل، أو الذهاب إلى الفراش وانتظار ضوء النهار. اخترتُ الأخير لكن لو رأيت كيف كنت أتوق إلى النوم وكم نمت ذلك اليوم، سأترك الأمر لخيالك.

في أول ظهور للفجر نهضت وأخذت المخطوطة إلى النافذة، لكن كان من المستحيل قراءتها بعد. خصصت نصف ساعة لارتداء ملابسي ثم عدتُ إليها مرة أخرى. حينها وبشيء من الصعوبة استطعت باهتمام وشغف التهام ما تبقى من محتوياتها. عندما أنهيتها وانتهى نَدَمِيَ العابر وأنا أصل إلى نهايتها المفاجئة، فتحت النافذة وأخرجت رأسي لالتقاط نسيم الصباح البارد النقي.

كان الندى الكثيف نصف المتجمد يكسو العشب، والسنونوات تحلّق، والغربان تنعق، وصقيع الفجر المبكر اختلط مع شروق الشمس بشكل مدهش. لكنني لم أكن أفكر في ذلك، كان ذهني مكتظًّا بخليطٍ من أفكار لا حصر لها ومشاعرَ متنوعة في حين كنت أحدق إلى وجه الطبيعة الجميل. مع ذلك، سَرعان ما تلاشت فوضى الأفكار والعواطف هذه مما أعطى مكانًا لإحساسين لا ثالث لهما: فرحتي التي لا توصَف بمعشوقتي هيلين، والتي كانت كل ما أتمنى التفكير فيه من بين طموحات العالم الصاخبة. كانت شخصيةً مشرقة، وواضحة، وغير قابلة للصدأ تمامًا كتلك الشمس التي لم أستطع مواصلة النظر إليها، والأمر الثاني هو الشعور بالعار والندم بسبب سلوكي.

بعد الإفطار مباشرةً أسرعت إلى قصر وايلدفيل. كانت ريتشيل قد ارتفعت درجات كثيرة في تقديري منذ أمس، وأصبحت الآن على استعداد للتعامل معها كصديقة قديمة، لكن كل دافع لطيف هُدِمَ بتلك النظرة الباردة الخالية من الثقة والتي تلقّتني بها عند فتح الباب. لقد نصبت العذراء العجوز نفسها وصية على سيدتها حسب ما أعتقد، ولا شك أنها كنت تعتقد أنني نسخة من السيد هارغريف، لكن كانت الخطورة الحقيقية تكمن في ثقة سيدتها بي واحترامها لي.

قالت ردًّا على استفساري عن السيدة غراهام: «السيدة لا تستطيع رؤية أي شخص اليوم يا سيدي، إنها في حالة سيئة».

«لكن يجب أن أراها يا ريتشيل»، قلتُ وأنا أضع يدي على الباب لمنعها من إغلاقه في وجهي.

أجابت بملامح جامدة أكثر من ذي قبل: «في الواقع يا سيدي، لا يمكنك ذلك».

«كوني لطيفة وأبلغيها بمجيئي».

«لا يمكنني ذلك سيد ماركهام، أقول لك إنها ليست بخير».

في الوقت المناسب تمامًا لمنعي من ارتكاب خطأ اقتحام القصر دون سابق إنذار، فُتح الباب الداخلي وظهر آرثر الصغير مع جَروِه المرح، هُرِع فورًا إليّ وأمسك بيدي بين يديه وهو يسحبني إلى الداخل بابتسامة.

قال: «ماما قالت إنك ستأتي سيد ماركهام، وأنا سأخرج وألعب مع روڤر».

تراجعت ريتشيل وهي تتنهد ودخلت إلى الردهة وأغلقت الباب. هناك أمام المدفأة كانت تقف المخلوقة الفارعة التائهة في أحزانها الكثيرة. ألقيتُ المخطوطة على المنضدة ونظرتُ في وجهها. كانت قلقة وشاحبة، اتجهت نحوي بعينين مثبتتين عليّ بنظرة شديدة الجدية لدرجة أنها شلّتني كأنّها ألقت عليّ تعويذة.

«هل اطّلعتَ عليها؟»، تمتمت.

قلت وأنا أتقدم نحوها: «قرأتها، وأريد أن أعرف ما إذا كنتِ ستسامحينني، إذا كنتِ تستطيعين أن تسامحيني».

لم تجب، لكن توهّج وجهُهَا بالدم العائد اليه ولمعت عيناها. عندما اقتربتُ منها، استدارت وذهبت إلى النافذة، لم يكن ذلك بغضب لأنها كانت تبدو مطمئنة تمامًا، بل لإخفاء مشاعرها أو التحكم بها. لذلك تجرأتُ أن أتبعها وأقف بجانبها، لكني لم أتكلم. منحتني يدها دون أن تدير رأسها، وتمتمت بصوت جاهدتْ عبثًا ليبدُوَ ثابتًا: «هل تستطيع أنت مسامحتي؟».

اعتقدت أنه قد يُعتبر خيانة للثقة أن أنقل يد الزنبقة تلك إلى شفتي، لذلك قمت فقط بالضغط عليها برفق بين يدي وأجبت مبتسمًا: «بالكاد أستطيع. كان يجب أن تخبريني بهذا من قَبل، لأنه يشي بعدم ثقتك...».

صرختُ: «أوه لا»، قاطعَتني بشغف، «لم يَكُنِ الأمر كذلك، لم يكن أبدًا نقصًا في الثقة بك، لكن لو كنت قد أخبرتك بأي شيء عن تاريخي، كان لا

بد لي وقتها أن أخبر الجميع لكي تتفهموا وتعذروا سلوكي، لذلك كان من الأفضل عدم الكشف عن شيء إلى أن تجبرني الضرورة على القيام بذلك. هل تسامحني؟ أعلم أنني ارتكبت خطأً فادحًا، ولكنني جَنَيْتُ الثمار المُرّة لهذا الخطأ، وملزمة بحصدها حتى النهاية».

في الواقع، كانت المرارة الوحيدة التي استشعرتها في الأمر برمّته تكمن في نبرة الألم في صوتها، رفعتُ يدها إلى شفتي وقبلتها بحرارة مرارًا وتكرارًا، لأن الدموع لحظتها حالت دون أي رد آخر، وتقبلت كل ذلك دون مقاومة أو استياء، لكنها فجأة ابتعدت عني وبدأت بالتجوّل ذهابًا وإيابًا بتوتر في الغرفة، وعرفتُ من انقباض جبينها وضغطها الشديد على شفتيها وعصر يديها أنها في تلك الأثناء كانت تعاني من صراع عنيف دائر بين عقلها وعاطفتها. توقفتْ مطولًا أمام المدفأة الفارغة، ثم استدارت نحوي وقالت بهدوء ـ إذا كان ممكنًا تسمية ذلك بالهدوء، لأنه من الواضح أنه نتيجة جهد عنيف ـ: «والآن غيلبرت، يجب أن تتركني ـ ليس في هذه اللحظة ولكن قريبًا ـ وألّا تعود مرة أخرى أبدًا».

«أبداً يا هيلين؟ الآن بعد أن أصبحت أحبكِ أكثر من أي وقتٍ مضى؟».

«لهذا السبب تحديدًا، إن كان الأمر كذلك، فلا يجب أن نلتقي مرة أخرى. شعرتُ أن هذه المقابلة ضرورية، على الأقل أقنعت نفسي أنها كذلك ـ حتى نتمكن من طلب العفو بعضنا من بعض بسبب ما حدث في الماضي، لكن ليس هناك عذر للقاءات أخرى. سأغادر هذا المكان بمجرد عثوري على ملجأ آخر، لكن لقاءنا يجب أن ينتهي هنا».

«ينتهي هنا!»، كررت بعدها وأنا اقترب من المدخنة المرتفعة المنحوتة، أسندتُ يدي على قالبها الثقيل وأسقطت جبهتي عليها في يأس صامت.

أكملتْ: «من الأفضل ألا تأتي مرة أخرى»، كانت هناك رعشةٌ طفيفة في صوتها، لكنني شعرت أن أسلوبها كان مثيرًا للاستفزاز، خاصة مع الجملة

المروعة التي نطقت بها. استأنفتْ قائلة: «أتمنى أن تعرف لماذا أقول هذا وأرى أنه من الأفضل أن ننفصل بشكل نهائي، إذا كان من الصعب بالنسبة إليك أن تقول وداعًا إلى الأبد فعليك مساعدتي»، لم أجب. «هل يمكنكَ التعهد بعدم المجيء؟ إذا أتيت إلى هنا مرة أخرى فسوف تجبرني على المغادرة قبل أن أعرف أين أجد مكانًا آخر للجوء».

التفتُّ نحوها بعدم صبر: «هيلين! لا يمكنني مناقشة مسألة الانفصال الأبدي بهدوء ونزاهة كما تفعلين. إنها ليست مجرد مسألة عادية بالنسبة إليّ، إنها مسألة حياة أو موت!».

بقيت صامتة، ترتجف شفتاها الشاحبتان وأصابعها المضطربة تلف بعصبية جدائل شعرها التي أُلحِقَت بساعتها الذهبية الصغيرة ـ الشيء الوحيد القيّم الذي سمحت لنفسها بالاحتفاظ به. لقد كنت قد قلت شيئًا قاسياً بالفعل، لكني أتبعته بشيء أسوأ.

قلت بنبرة هادئة وخافتة ولم أجرؤ على رفع عيني إلى وجهها: «لكن هيلين، هذا الرجل ليس زوجك، أمام الله فَقَدَ كل ادعاءاته..»، أمسكتْ بذراعي بقبضة منفعلة: «غيلبرت، لا!»، صاحت بنبرة من شأنها أن تخترق القلب، «بحق الله لا تنطق بهذه الحجج. لا يمكن لشيء أن يؤذيني بقدر هذا!».

«لن أفعل، لن أفعل!»، قلت وأنا أضع يدي بلطف على يدها مما جعلها منزعجة وخَجْلَى من سوء سلوكي.

تابعت وهي تنفصل عني وتلقي بنفسها على كرسي قديم بذراعين: «بدلًا من التصرف كصديق حقيقي ومساعدتي بكل قوتك، أو بالأحرى القيام بدورك في صراع الحق ضد العاطفة، تركتَ كل العبء لي، فأنت تبذل قصارى جهدك لمحاربتي عندما تعرف أن..»، توقفت وخبأت وجهها في منديلها.

«سامحيني يا هيلين»، ناشدتها. «لن أنطق أبدًا بكلمة أخرى حول هذا الموضوع. لكن ألا يمكننا الالتقاء حتى كأصدقاء؟».

فأجابت وهي تهز رأسها بحزن: «لن ينفع هذا يا غيلبرت». ثم رفعت عينيها إلى عيني بنظرة موجوعة: «أنت تعرف هذا مثلي».

«إذن ماذا نفعل؟»، سألتها بانفعال، لكني أضفت على الفور بنبرة أهدأ: «هيلين، سأفعل كل ما تريدينه، فقط لا تقولي إن هذا اللقاء سيكون آخر لقاء لنا».

«ولم لا؟ ألا تعلم أنه في كل مرة نلتقي فيها تصبح أفكار الفراق أكثر إيلامًا؟ ألا تشعر أن كل مقابلة تجعلنا نتقرب بعضنا من بعض أكثر مما قبلها؟».

نطقت بهذا السؤال الأخير بصوت منخفض هادئ ويائس، وأظهرت عيونها الدامعة والمحمرّة بوضوح أنها على الأقل كانت تشعر بذلك. «سأطلب منك المغادرة الآن، قد تتغير الظروف في يوم ما».

اقترحتُ بخجل: «ألا يمكننا الكتابة بعضنا لبعض؟ هل تحرميني من هذا أيضًا؟».

«يمكننا تفقّد بعضنا بعضًا من خلال شقيقي».

«شقيقك!»، انتابني ألم الندم والعار وأنا أتذكره، لم تسمع كما يبدو عمّا أصابه على يدي، ولم أتجرأ على إخبارها. قلت: «لن يساعدنا شقيقك. بل قد يحاول إنهاء ما بيننا تمامًا».

قالت بحزم: «وسيكون على حق على ما أظن، بصفته صديقنا فإنه يتمنى لكلينا التوفيق وسيخبرنا أنه من مصلحتنا وواجبنا أن ننسى بعضنا بعضًا، على الرغم من أننا قد لا نرى صحة الأمر. ثم أضافت وهي تبتسم بحزن في وجه انزعاجي الواضح: «لكن لا تقلق يا غيلبرت، فرصة نسيانك ضئيلة جدًّا. لكنني قصدت أن فريدريك سيكون وسيلة لكي يعرف أحدنا من خلاله حال الآخر، ولا ينبغي أن يكون أكثر من هذا لأنك شاب يا غيلبرت، ولا بد أن تتزوج

وسوف تفعل بعد بعض الوقت على الرغم من أنك قد تعتقد أنه أمر مستحيل الآن، وعلى الرغم من أنني بالكاد أستطيع القول إنني أتمنى أن تنساني، فإنني أعلم أنه الصواب، من أجل سعادتك وسعادة زوجتك المستقبلية».

«وأنتِ أيضًا صغيرة السن يا هيلين، وعندما ينتهي ذلك الوغد الفاسد من حياته، سوف تمدين يدكِ لي ـ سأنتظر إلى ذلك الحين».

لكنها لم تترك لي هذا الأمل. بغض النظر عن الشر الأخلاقي المتمثل في بناء آمالنا على موت شخص آخر، شخص غير لائق بهذا العالم ناهيك بالعالم الآخر، وبالتالي فإن إصلاحه ليس سوى لعنتنا وتجاوزه هو نفعنا الأعظم. كانت مصرّة على أن ذلك جنون، قائلةً: «لقد عاش العديد من الرجال الذين يشبهون السيد هانتينغدون حتى سن الشيخوخة على الرغم من بؤسهم، وإذا كنتُ صغيرة في السن فأنا مسنة في الحزن. لكن حتى لو فشلت المتاعب في قتلي قبل أن تدمره الرذيلة، ألم تفكر في حال بلوغه خمسين عامًا أو نحو ذلك، هل ستنتظر عشرين أو خمسة عشر عامًا في حالة من عدم اليقين والتشويق الغامضَين وأنت في ريعان شبابك ورجولتك لتتزوج في نهاية الأمر امرأة ذاوية كما سأكون، ودون أن تراني من هذا اليوم حتى ذلك الحين؟ لماذا تود فعل ذلك؟»، واصلتْ مقاطعة احتجاجاتي الجادة بثبات لا ينقطع: «إذا كنت تنوي فعل ذلك صدقني يا غيلبرت لا يجدر بك، في هذا الأمر ثق أنني أعلم منك، قد تعتقد أنني باردة وأحمل قلباً من حجر، لكن..».

«أنا لا أفعل يا هيلين».

«لا يهم لو فعلت، لكنني لم أكن أقضي وحدتي في كسل تام، ولا أتحدث من اندفاع اللحظة كما تفعل. لقد فكرت في كل هذه الأمور مرارًا وتكرارًا وناقشت كل الافتراضات مع نفسي وتفكرت جيدًا في ماضينا، وحاضرنا، ومستقبلنا، وصدقني لقد توصلت إلى الاستنتاج المنطقي والحكيم في النهاية. ثق بكلماتي بدلًا من مشاعرك الآن وفي غضون سنوات قليلة سترى

أنني كنت على حق، على رغم أنني أيضًا بالكاد أستطيع أن أراها بنفسي في الوقت الحالي»، تمتمت بحسرة وهي تسند رأسها على يدها. «ولا تجادلني بعد الآن: كل ما يمكنك قوله قد قاله بالفعل قلبي ودحضه عقلي. كان من الصعب مقاومة هذه الاقتراحات لأنها كانت تهمس بداخلي أيضًا، لكن عندما تقولها أنت تصبح موجعة أكثر بعشر مرات، وإذا كنت تعرف مدى الألم الذي أشعر به لتوقفت على الفور، أنا متأكدة. لو كنت تعرف مشاعري الحالية لتوقفت لتخفيفها حتى على حساب مشاعرك».

«سأذهب في غضون دقيقة إذا كان ذلك يريحك ولن أعود أبدًا»، قلت بصدق مرير. «لكن إذا لم نلتقِ أبدًا بعد الآن، ولم نتمكن من الالتقاء مرة أخرى، فهل تبادل أفكارنا بالحروف يعتبر جريمة؟ ألا يمكن للأرواح أن تتآلف مهما كان مصيرها وظروفها المادية؟».

«طبعًا يمكن!»، صاحت بحماسة وسعادة. «لقد فكرت في ذلك أيضًا غيلبرت، لكنني لم أذكره خشية ألّا تتفهم أو تتقبل هذه الفكرة، أن يخبرنا صديق ما أننا نخدع أنفسنا بفكرة الحفاظ على رفقتنا الروحية دون أمل أو احتمال أي شيء آخر، وأن هذا الأمر ليس سوى تعزيز للندم اللاحق وتغذية الأفكار التي كان ينبغي تركها بصرامة وبلا تردد».

«لا تهتمي بأصدقائنا الطيبين، إذا استطاعوا أن يفرقوا أجسادنا فهذا يكفيهم، لأنهم لن يفلحوا في التفريق بين أرواحنا!»، صرختُ في رعب خشية أن تعتقد أنها ملزمة بحرماننا من هذا العزاء الأخير المتبقي.

قالت: «لكن لا يمكن أن تمر بيننا رسائل هنا دون تقديم وجبة طازجة للفضيحة، عندما أغادر هذا المكان، أنوي أن يكون مسكني الجديد غير معروف لأحد حتى أنت، ولا يعني هذا أنني أشك في وعدك بعدم زيارتي، لكنني أعتقد أنك ستتعامل مع الأمر بهدوء أكثر إذا شعرتَ أنك لا تستطيع القيام بذلك، ومن المرجح أن تجد أمر تجريد نفسك مني أسهل حينها».

ثم قالت وهي تبتسم وتنتظر إجابتي بفارغ الصبر: «اسمع، في غضون ستة شهور سيخبرك فريدريك أين أكون بالضبط، وإذا كنتَ ما تزال تحتفظ برغبتك في الكتابة إلي وتعتقد أنه يمكننا الحفاظ على مراسلاتنا محصورة على المواضيع والصداقة الخالية من العواطف الحميمية فلتكتب، وسأرد عليك».

«ستة شهور!».

«نعم، لمنح شغفك الحالي وقتًا ليبرد واختبار حقيقة وثبات حبك لي. والآن أعتقد أننا قلنا ما يكفي، لماذا لا ننهي الأمر ونفترق؟»، قالت بانفعال واضح وهي تنهض فجأة من كرسيها ويداها متشابكتان بحزم. شعرت أنه من واجبي المغادرة دون تأخير. اقتربت ومدت يدها وصافحتها بصمت. كانت فكرة الانفصال النهائي هذه لا تطاق، شعرت أنها تسحب الدم من قلبي وبأقدامي ملتصقة بالأرض.

«ألن نلتقي مرة أخرى؟»، تمتمت في كرب.

قالت بنبرة يائسة: «سنلتقي في الآخرة، دعنا نفكر في الأمر هكذا». لكن عينيها كانتا دامعتين ووجهها شاحبًا بشكل قاتل.

«ولكن لن نكون كما نحن الآن»، لم أستطع منع نفسي من الرد. «يمنحني عزاءٌ قليل الاعتقاد بأنني سأراك بعد ذلك كروح بلا جسد، أو كائن بإطار مختلف، لكن ليس كما أنتِ الآن! وربما بقلب مغترب تمامًا عني».

«لا غيلبرت، هناك حب كامل ومثالي في الجنة!».

«مثالي أكثر مما أطلب على ما أعتقد، إنه يسمو فوق الفروق، ولن يكون لديكِ نحوي تعاطفٌ أكثر من أي أحد من عشرات الآلاف من الملائكة والعدد الذي لا يحصى من الأرواح السعيدة حولنا».

«كيفما أصبحتُ ستصبح أنت أيضًا، وبالتالي لا يمكن ألا ترغب في ذلك، ومهما كان هذا التغيير فلا بد أن يكون للأفضل».

«ولكن إذا كنتُ أريد أن أتغير إلى درجة التوقف عن الإعجاب بك وحبك أكثر من أي مخلوق آخر، فلن أكون نفسي. مع ذلك، إذا فزتُ بالجنة فسأكون حتمًا أفضل حالًا وأسعد مما أنا عليه الآن، إلا أن طبيعتي الأرضية لا تستمتع بمثل هذا التفكير الذي تُستثنى منه متعته الرئيسية».

«هل حبكَ لي دنيوي بالكامل إذًا؟».

«لا، لكنني أفترض أنه لن تجمعنا أية حميمية تخصنا. سنكون مع الجميع».

«إن كان الأمر كذلك، فسيكون لأننا نحبهم أكثر، وليس لأننا نحب بعضنا بعضًا أقل. زيادة الحب تجلب السعادة عندما تكون متبادلة ونقية كما سيكون حالنا آنذاك».

«لكن هل يمكنك يا هيلين أن تتقبلي بسرور احتمال فَقْدِي لأجل مجدٍ كهذا؟».

«أقر أنني لا أستطيع، لكننا لا نعلم إن كان هذا ما سيحدث. أعلم فقط أن استبدال الملذات الأرضية بالأفراح السماوية، يشبه حال يرقة تندب حالها لأنها مضطرة إلى ترك ورقة مقضومة لتحلق عاليًا وترفرف وتتجول حسب رغبتها من زهرة إلى زهرة، تحتسي العسل الحلو منها أو تلتذ ببتلاتها المشمسة. إذا عرفتْ هذه المخلوقة الصغيرة مدى روعة التغيير الذي ينتظرها فلا شك أنها ستندم على تفكير كهذا، ألا ترى حزنها في غير محله؟ وإذا لم يحركك هذا المثال التوضيحي فإليك صورة أخرى: نحن أطفال من ناحية مشاعرنا الحاضرة لأننا نشعر كأطفال، نفهم كأطفال، وعندما يُقال لنا إنه أمر معيب أن يعبث الرجال والنساء وأن شركاء حيواتنا سيملّون في مرحلة ما من الأمور التافهة التي تُهمهم الآن كما سيملّون منا، لا يسعنا إلا أن نشعر بالحزن على احتمالات حدوث مثل هذه التغييرات لأننا ببساطة لا نستطيع أن نتصور أن أذهاننا ستنضج إلى درجة أننا سنرى يومًا أن قراراتنا وجهودنا وسعينا الذي نعتز به الآن أصبحتْ أمورًا تافهة. على الرغم من أننا لن نرتشف هذه المتع

الدنيوية معًا، فإنهم سوف يشربون معنا من نوافير المتع اللاحقة وتمتزج أرواحهم بأرواحنا في أهداف أسمى وأنبل تتجاوز فهمنا الحالي ولكنها ليست أقل متعة، وعليه فنحن باقون كما كنا في الأساس. لكن غيلبرت، هل حقًّا لا يمكنك أن تجد أي عزاء في فكرة التقائنا معًا، حيث ليس هناك مزيد من الألم والحزن أو كفاح ضد الخطيئة وتفاوت بين الروح والجسد، حيث سيلتذان كلاهما بنفس السعادة من ينبوع النور والخير المقدَّس ذاته، وحيث ستهنأ كل الكائنات بذات الحب الإلهي؟ إذا كنتَ لا تؤمن بذلك فلا تكتب إليّ أبدًا».

«هيلين أستطيع ذلك، لا يفشل الإيمان أبدًا».

«الآن إذن»، صاحت، «بينما هذا الأمل قوي في داخلنا..».

صرختُ: «أعلم، يجب أن أغادر فورًا. سوف نفترق، لن تشعري بمزيد من الألم في محاولة أخرى لإبعادي. سأذهب في الحال، لكن..».

لم أنطق بما رغبت فيه، وهي فهمت ذلك بشكل غريزي واستسلمت أيضًا، بالأحرى لم يكن هناك شيء يحتاج إلى استسلامها أو رضوخها، بل دافع مفاجئ لم يستطع أي منا مقاومته. في لحظة وقفت أتأمل وجهها، وفي التالية كنت أضمها لقلبي، شعرت أننا نكبر معًا في عناق وثيق بحيث لا يمكن لأي قوة جسدية أو عقلية أن تفصلنا. همست لي: «فليحمك اللّٰه، اذهب.. اذهب»، كان هذا كل ما قالته، لكن بينما كانت تتحدث كانت تحتضنني بقوة بحيث لم أستطع ـ دون شيء من القوة ـ إطاعتها. لكن بعد جهود بطولية، تمكنّا من الانسلاخ بعضنا عن بعض واندفعت إلى الخارج.

لديّ ذكرى مشوشة عن ذلك الوقت، رؤيتي لآرثر الصغير وهو يركض نحوي في الحديقة عند مغادرتي، واندفاعي فوق الحائط ثم ركضي في الحقول شديدة الانحدار متخطيًا الأسوار والأسيجة التي كانت تعترض طريقي حتى ابتعدت تمامًا عن القصر القديم ووصلت إلى أسفل التل،

وبعد ذلك قضائي ساعات طويلة في ذرف دموع مريرة وتأملات حزينة في الوادي المنعزل والإصغاء إلى موسيقى الرياح الغربية التي كانت تندفع عبر الأشجار، وثرثرة النهر على طول قاعه الصخري. بقيت عيني مثبتة على ظلال الأشجار وهي تتقلب وتلعب بلا كلل على العشب المشمس الساطع عند قدمي، حيث تمر بين الحين والآخر ورقة أو اثنتان من الأوراق الذابلة وهي ترقص لتقاسمها الصخب، لكن قلبي كان بعيدًا عن التل، كان هناك في تلك الغرفة المظلمة حيث كانت تبكي وحيدة دون أن أتمكن من التخفيف عنها أو امتلاك أمل في رؤيتها مرة أخرى، إلى أن تتغلب علينا السنين أو معاناتنا وتمزّق أرواحنا الطينية المنهكة.

كان هناك القليل من الأعمال المنجزة في ذلك اليوم، ذلك أنني كنت قد تركت الحقل في عهدة المزارعين والعمال، مع ذلك كان أهم ما يمكنني التفكير فيه في ذلك الوقت هو أمر من الضروري التعامل معه بأسرع وقت: موضوع الاعتداء على فريدريك لورانس. لا بد من الذهاب إليه للاعتذار عن فَعلتي التعيسة. كنت سأفعل ذلك في الغد، ولكن ماذا لو أخبر شقيقته في هذه الأثناء؟ لا.. يجب أن أطلب العفو منه اليوم والتساهل في اتهامه لي إذا كان ينوي فعل ذلك.

مع ذلك، أجّلتُ الأمر إلى المساء على أمل أن تكون معنويّاتي أكثر تماسكًا، عندها ـ ويا له من انحراف رائع للطبيعة البشرية ـ بدأت بعض الآمال في إعادة الظهور في ذهني، لا أقول إنها آمال أعتز بها، ليس بعد كل ما قيل في هذا الموضوع، لكني لا أمانع في تركها تتقلب كما هي في ذهني دون طردها ولكن دون تشجيع أيضًا، إلى أن أتعلم العيش دونها.

عند وصولي إلى وودفورد، منزل الشاب، لم أجد صعوبة في الحصول على قَبوله لزيارتي. أخبرني الخادم الذي فتح الباب أن سيده كان مريضًا جدًّا، واعتقد أنه غير متأكد من تمكنه من رؤيتي، لكنني لم أنزعج من ذلك. انتظرت

بهدوء في بهو القصر لأرى ما يحدث، لكنني كنت عازمًا على عدم قبول أي رفض. كان الرد كما توقعت ـ تلميحًا مهذبًا أن السيد لورانس لا يستطيع استقبالي، لأنه كان محمومًا وبحاجة إلى الراحة.

قلت: «لن أزعجه طويلًا، لكن يجب أن أراه للحظة، إنه عمل مهم أود التحدث به إليه».

قال الرجل: «سأخبره بذلك يا سيدي»، قمت وتبعته إلى باب الغرفة حيث كان سيده خارج السرير. كان الجواب أن السيد لورانس كان يأمل أن أترك رسالة أو ملاحظة للخادم، لأنه لا يمكنه الانشغال بأي عمل في الوقت الحالي.

قلت: «يمكنه أن يراني كما يراك لا أكثر». وبعد أن تجاوزت الرجل المذهول نقرت بجرأة على الباب ودخلت وأغلقته ورائي. كانت الغرفة فسيحة ومؤثثة بشكل رائع ومريحة جدًّا لشاب أعزب. كانت هناك نار حمراء صافية في المدفأة المصقولة وكلب سلوقي مستسلم للكسل ومستلقٍ أمامه على بساط سميك وناعم بجانب الأريكة ينظر بحزن في وجه سيده، ربما يطلب الإذن لمشاركته أريكته أو يطلب فقط مداعبة أو كلمة لطيفة. بدا المريض نفسه لطيفًا وهو مستلقٍ هناك، مرتدٍ ثوبه الأنيق ومنديل حريري مربوط حول صدغه. كان وجهه الشاحب بالعادة محمرًّا بسبب الحمّى وعيناه تقريبًا مغمضتين، إلى أن شعر بوجودي ففتحهما. بدا متفاجئًا وغاضبًا عندما تقدمت نحوه ووقفت أمامه. رفع نفسه من على وسادته وحدق إلى وجهي بتوليفة من الرعب والغضب والذهول.

«سيد ماركهام، لم أتوقع هذا!»، قال كأن الدم كان سينفجر من خدّه.

أجبت: «أعلم أنك لم تفعل. لكن ابقَ هادئًا لدقيقة وسأخبرك بما أتيت من أجله». دون تفكير تقدمت للاقتراب منه خطوة أو خطوتين وجفل هو مع تعبير واضح عن نفوره وخوفه الغريزي مني، ولذلك تراجعت إلى الوراء.

قال وهو يضع يده على الجرس الفضي الصغير الموجود على الطاولة بجانبه: «اجعل قصتك قصيرة وإلا سأكون مضطرًا إلى طلب المساعدة. أنا لست في حالة أتحمل فيها وحشيّتك الآن، أو حتى وجودك»، كانت قطرات العرق قد بدأت بالتشكل كما قطرات من الندى على جبينه الشاحب.

لم يكن لمثل هذا الاستقبال أن يخفف من صعوبة مهمتي التي لا أحسد عليها بالفعل، والتي يجب أن تتم بطريقة ما، ولذلك دخلت في الموضوع بشكل مباشر ومتعثر:

«الحقيقة يا لورانس هي أنني لم أكن أتصرف بشكل صائب أو منصف تجاهك مؤخرًا ـ وخاصة في لقائنا الأخير، وأنا هنا باختصار للتعبير عن أسفي الصادق لما صدر مني ولطلب العفو منك، وإذا اخترت أن لا تفعل فلا يُهم، أنا فقط أتيت للقيام بواجبي، هذا كل شيء».

أجاب بابتسامة باهتة تقترب من السخرية: «من السهل القيام بذلك، أليس كذلك؟ الإساءة إلى صديقك وضربه على رأسه دون أي سبب مفهوم، ثم إخباره أن هذا التصرف لم يكن صحيحًا تمامًا، ولكن لا يهم ما إذا كان يعفو عن ذلك أم لا».

«لقد نسيت أن أخبرك أن ذلك كان نتيجة لخطأ، خطئي. الحقيقة هي أنني لم أكن أعلم أنك شقيق السيدة غراهام، ورأيت وسمعت بعض الأشياء التي تتعلق بسلوكك تجاهها والتي كانت سببًا لإيقاظ شكوك غير مريحة بالنسبة إليّ والتي، اسمح لي أن أقول، قللت من ثقتي بك. وأخيرًا، حدث أن سمعت بالصدفة جزءًا من محادثة بينك وبينها جعلني أشعر أنه من حقي أن أكرهك».

«وكيف عرفت أنني شقيقها؟»، سألني بشيء من القلق.

«لقد أخبرتني بنفسها. قالت لي كل شيء. لقد علمتْ أنه من الممكن الوثوق بي. لكن لا داعي إلى أن تزعج نفسك بشأن ذلك لورانس، لأنها كانت المرة الأخيرة التي أراها فيها!».

«الأخيرة؟ لماذا؟ هل غادَرَتِ القصر؟».

«لا. لكنها طلبت مني ذلك وأخذتْ مني وعدًا بعدم الاقتراب من القصر مرة أخرى في حين سكناها فيه»، كان بإمكاني لحظتها أن أتأوه بصوت عالٍ جراء الأفكار المريرة التي أيقظها هذا التحول في الحديث، لكنني اكتفيت بالشد على يدي وسحق السجادة بقدمي، أما رفيقي فكان من الواضح أنه شعر بالارتياح.

قال بنبرة من الاستحسان في حين كانت تعابير وجهه تشي بالاسترخاء التدريجي: «لقد فعلتَ الصواب. أما بالنسبة إلى الخطأ، فأنا أشعر بالأسف لحدوثه بالنسبة إلى كلينا، اغفر لي صراحتي هنا وتذكّر أن تشجيعكَ لي على الثقة بك كان قليلًا مؤخرًا».

«نعم نعم، أعلم وأتذكر كل شيء، ولا يمكن لأحد أن يلومني أكثر مما ألوم نفسي. على كل حال، لا أحد نادمٌ بقدري على (وحشيتي)».

قال مبتسمًا بصوت خافت: «لا تهتم بذلك ودعنا ننسَ كل الكلمات والأفعال البغيضة من كلا الجانبين، وننسَ معها كل ما في جَعْبتنا من أسباب للندم، ألا تود مصافحتي؟»، كان يرتجف بسبب نحوله وهو يحاول رفع يده وسقطتْ قبل أن تتاح لي فرصة لمصافحته، ولم تكن لديه الطاقة لإعادة رفعها.

قلت: «يا لحرارة وجفاف كفّك يا لورانس. أنت مريض جدًّا، وقد ضاعفتُ تعبك بكل هذا الحديث».

«أوه، إنه لا شيء. فقط نزلة برد بسبب المطر».

«وأفعالي».

«لا يهم، لكن قل لي هل ذكرتَ شيئًا عن هذا لشقيقتي؟».

«في الحقيقة، لم تكن لديّ الشجاعة للقيام بذلك، ولكن عندما تخبرها، هلّا أخبرتها أنني آسف بشدة و...».

«أوه لا تقلق أبدًا، لن أقول أي شيء ضدك، ما دمت تحافظ على قرارك الحكيم بالبقاء بمعزل عنها. هل هذا يعني أنها لا تعلم بمرضي؟».

«لا أعتقد ذلك».

«يسعدني ذلك، لأنني كنت طوال هذا الوقت أعذب نفسي بالخوف من أن يخبرها أحدهم أنني مريض للغاية، وستكون ردة فعلها إما القلق الشديد بسبب عدم قدرتها على التواصل معي وإما فِعل أي شيء لي، أو الإقدام على تصرف مجنون وطائش بالمجيء للاطمئنان عليّ. لكن لا بد أن أخبرها شيئًا عن ذلك دون ذِكر تفاصيل كثيرة، لأنها حتمًا ستسمع جزءًا من هذه القصة، سيسعد الكثيرون بإبلاغها بهذه الأخبار ليروا كيفية تلقّيها لها، وبالتالي تعريض نفسها لفضيحة جديدة».

قلت: «كنت أتمنى لو قلتُ لها، لولا وعدي لكنتُ أخبرها الآن».

«هراء! لا أريد ذلك. سأكتب الآن ملاحظة قصيرة، لن أذكرك يا ماركهام، بل أعطي وصفًا بسيطًا لمرضي، كعذر لعدم ذهابي لرؤيتها، وأحذرها فيها من تصديق أي أخبار مبالغ فيها قد تسمعها. هل تفعل لي معروفًا بإيصالها إلى مكتب البريد في طريق عودتك؟ لأني لا أجرؤ على الوثوق بأي من الخدم في مثل هذه الحالة».

وافقت دون تردد، وأحضرت له على الفور مستلزمات الكتابة. لم يكن بحاجة إلى إخفاء يده، فقد بدا أن الرجل المسكين يواجه صعوبة كبيرة في الكتابة لتكون كلماته مقروءة. عندما انتهى شعرت أن الوقت قد حان للاستئذان والمغادرة بعد سؤاله عما إذا كان هناك أي شيء يمكنني فعله له في سبيل التخفيف من معاناته والإصابة التي عرّضته لها.

قال «لا. لقد فعلتَ الكثير بالفعل، بل أكثر مما يمكن أن يفعله الطبيب الأمهر، ذلك أنك قد أزلت عن ذهني عبئَيْن كبيرَين: القلق على شقيقتي، والندم عليك، لأنني أعتقد أن هذين كانا مصدر العذاب والحمّى أكثر من أي

شيء آخر، وعليه أنا مؤمن بأنني سوف أتعافى قريبًا. هناك شيء آخر يمكنك القيام به من أجلي، وهو أن تأتي لزيارتي بين الحين والآخر، لأنك ترى أنني وحيدٌ هنا وأعدك بأن دخولك لن يكون محل نزاع مرة أخرى».

غادرت بعد أن صافحني بمحبة غامرة. أوصلت الرسالة إلى مكتب البريد في طريقي إلى المنزل، وقاومت بأسلوب رجولي إغراء ترك رسالة منّي في نفس الوقت.

الفصل السادس والأربعون

شعرت بإغراء شديد في بعض الأحيان لإطلاع والدتي وشقيقتي على الشخصية الحقيقية والظروف التي تعيشها النزيلة المضطهدَة في قصر وايلدفيل، في البداية ندمت بشدة على إغفال طلب الإذن منها لإخبارهن، ولكن عند التفكير بالأمر تذكرت أنهم إذا علموا بالأمر فلن يبقى سرًّا مخفيًّا عن آل ميلوارد وويلسون لفترة طويلة، وكان انطباعي الحالي حسب ما رأيت من تصرفات إليزا ميلوارد أنه بمجرد حصولها على فكرة عن القصة أخشى أنها ستبحث عن وسيلة لإيصال الخبر إلى السيد هانتينغدون حول مكان زوجته. لذلك، كنت أنتظر بصبر انتهاء هذه الشهور الستة المرهقة، وبعد ذلك، عندما تجد الهاربة منزلًا آخرَ وتسمح لي بالكتابة إليها، سأطلب منها للسماح لي بإزالة هذه الافتراءات الدنيئة عن اسمها. في الوقت الحالي، سأكتفي بقناعتي أنها زائفة وسأثبت ذلك في يوم من الأيام. لا أعتقد أن أحدًا صدّقني عندما حاولت الدفاع عنها، لكن سرعان ما تعلّم الجميع تجنب التلميح بكلمة ضدها، أو حتى ذكر اسمها في حضوري. لقد ظنوا أنني كنت مفتونًا بإغراءات تلك السيدة لدرجة أنني كنت مصممًا على دعمها حتى في مواجهة العقل، وفي هذه الأثناء أصبحت سوداويًّا بشكل لا يطاق بالنسبة إلى مَن كان يحمل أفكارًا سيئة عن السيدة غراهام المفترضة ويتجرأ على التعبير عنها في حضوري. أمي المسكينة كانت مستاءة جدًّا مني لكنني لم أستطع مساعدتها في ذلك، على رغم أنني كنت أشعر أحيانًا بندم على سلوكي غير اللائق معها، وبذلت بالفعل جهدًا لإصلاح نفسي وحققت بعض النجاح عندما أصبحت

أكثر إنسانية تجاهها من أي شخص آخر باستثناء السيد لورانس. عادةً ما كانت روز وفيرغوس يتجنبان وجودي، وقد فعلا ذلك بشكل جيد لأنني لم أكن مناسبًا لهما، ولا هما لي، في ظل تلك الظروف.

لم تغادِرِ السيدةُ هانتينغدون قصر وايلدفيل إلا بعد شهرين من وداعنا. خلال ذلك الوقت لم تظهر أبدًا في الكنيسة ولم أقترب مطلقًا من القصر، كنت أعرف فقط أنها ما زالت هناك من خلال إجابات شقيقها المقتضبة على استفساراتي الكثيرة المتعلقة بها. بقيتُ زائرًا يقظًا ودائمًا لفريدريك طوال فترة مرضه ونقاهته، ليس فقط من أجل الاهتمام به ومساعدته على التعافي ورغبتي في إبهاجه وتقديم أقصى درجات التعويض عن (وحشيتي)، ولكن أيضًا من أجل المتعة التي أجدها في صداقتنا، وبشكل أساسي بسبب علاقته الوثيقة سواء بالدم أو القُرب بمعشوقتي هيلين. أصبحت أحبه أكثر مما يمكنني التعبير عنه، وأَسْعَدُ سرًّا بالضغط على تلك الأصابع البيض النحيلة التي تشبه أصابعها، وبمشاهدة التغييرات العابرة في تقاسيم وجهه الشاحب ومراقبة نغمات صوته، والتعرف إلى أوجه الشبه التي كانت تجعلني أتساءل لماذا لم تصدمني من قبل. كان يستفزني في بعض الأحيان عندما يُحجم عن التحدث معي عن شقيقته، على رغم أنني لم أشكك في صدق دوافعه فيما يتعلق برغبته في تثبيط تذكري لها.

لم يكن شفاؤُه سريعًا كما توقّع، ولم يكن قادرًا على ركوب حصانه إلا بعد أسبوعين من تاريخ المصالحة. وكان أول اختبار له لعافيته العائدة هو الذهاب ليلًا إلى قصر وايلدفيل لرؤية شقيقته. لقد كانت خطوة خطيرة بالنسبة إليه ولها على حد سواء، لكنه كان يرى أنه من الضروري التشاور معها حول موضوع رحيلها المتوقع، وكذلك لتهدئة مخاوفها بشأن صحته، ونتج عن ذلك انتكاسة طفيفة لمرضه، إذ لم يعلم أحد بالزيارة سوى نزلاء القصر القديم وأنا، وأعتقد أنه لم يكن في نيته إخباري بذلك، ذلك أنني عندما ذهبت

لزيارته في اليوم التالي، لاحظت أنه لم يكن على ما يرام كما ينبغي أن يكون، قال إنه أصيب بالبرد بسبب خروجه في وقت متأخر من مساء اليوم الماضي.

«لن تتمكن أبدًا من رؤية شقيقتك إذا لم تعتنِ بنفسك»، قلت باستفزاز بسيط على حسابها، بدلًا من مواساته.

قال بهدوء: «لقد رأيتها بالفعل».

«رأيتها!»، صحتُ بدهشة.

«نعم»، ثم أخبرني بالاعتبارات التي دفعته إلى القيام بذلك والاحتياطات التي اتخذها.

«وكيف هي؟»، سألت بشغف.

«كما هي»، كان الرد مقتضبًا وحزينًا.

«كما هي؟ هذا بعيد كل البعد عن السعادة والقوة».

قال: «إنها ليست مريضة، وستستعيد معنوياتها بعد فترة، لا يساورني شك، لكن مرورها بالكثير من التجارب أنهكها. أترى كيف تبدو تلك الغيوم؟»، تابع وهو يتوجه نحو النافذة. «أتصور أنه ستكون لدينا أمطار رعدية قبل حلول الليل حين يكون عمّالي في خضم تكديس الذرة، هل أكملت خاصتك بعد؟».

«لا لم أكمل. لورنس، هل ذَكَرتني شقيقتك؟».

«سألتني إن كنتُ قد رأيتُكَ مؤخرًا».

«وماذا قالت أيضًا؟».

أجاب بابتسامة خفيفة: «لا أستطيع أن أخبرك بكل ما قالته لأننا تحدثنا عن أمور عديدة، وعلى الرغم من أن زيارتي كانت قصيرة، لكن محادثتنا كانت بشكل رئيسي حول موضوع مغادرتها، إذ توسلتُ إليها أن تؤجلها حتى أتمكن من مساعدتها بشكل أفضل في بحثها عن منزل آخر».

«لكن ألم تقل عني أكثر من ذلك؟».

«لم تقل الكثير عنك يا ماركهام، وما كنت لأشجعها على القيام بذلك لو كانت تميل، لكن لحسن الحظ لم تكن. لقد طرحت فقط بعض الأسئلة المتعلقة بك، وبدت راضية عن إجاباتي المختصرة، حيث أظهرت نفسها أحكم منك، ودعني أخبرك أيضًا أنها بدت أكثر قلقًا من فكرة تعلّقك بها بدلًا من نسيانها».

«هي محقَّة».

«لكنني أخشى أن يكون قلقك عكس قلقها».

«لا، ليس كذلك. أتمنى أن تكون سعيدة لكني لا أتمنى أن تنساني. إنها تعلم أنه من المستحيل أن أنساها، وهي محقة في أن تتمنى ألا أفكّر فيها كثيرًا. لا أرغب في أن تتألم بسببي، لكنني لا أتخيل أنها ستحزن بسببي، لأنني أعرف أنني لا أستحق ذلك، هي من تستحق مني ذلك فقط».

«لستما مستحقَّين لأي انكسار في القلب، ولا كل هذه التنهيدات والدموع والأفكار الحزينة، ولكن في الوقت الحاضر لكل منكما رأي تجاه الآخر أسمى مما يستحقه. مشاعر شقيقتي لا تقل عن مشاعرك يا ماركهام، لكني أرى أنها أثبت منك وتمتلك الحس السليم والقدرة على المقاومة في هذا الخصوص، وأنا على ثقة بأنها لن ترتاح حتى تفطم أفكارها بالكامل».

قلت: «مني؟».

«وأتمنى أن تقوم أنت بالمثل»، تابع.

«هل قالت لك أن هذه كانت نيتها؟».

«لا. لم يكن السؤال مطروحًا بيننا، ولم تكن هناك ضرورة إلى ذلك، إذ لا شك لديّ في أن هذا هو عزمها».

«أن تنساني؟».

«نعم ماركهام! لمَ لا؟».

«أوه حسنًا»، كان هذا ردي المسموع.

لكنني أجبت داخليًّا: «لا لورانس، أنت مخطئ هنا، هي ليست مصممة على نسياني. سيكون من الخطأ أن تنسى شخصًا مخلصًا لها بصدق، شخصًا يقدّر امتيازها وينسجم مع أفكارها كما أفعل، وسيكون من الخطأ بالنسبة إليّ أن أنساها، هذه الكتلة الرائعة المقدسة التي خلقها اللّٰه، بعدما أحببتها وعرفتها بحق». لكنني لم أقل له المزيد عمّا يدور في قلبي وذهني، بل غيّرتُ على الفور الموضوع وسرعان ما غادرت وأنا أحمل شعورًا بودٍّ أقل من المعتاد تجاهه.

بعد أكثر من أسبوع بقليل من ذلك، التقيتُ به عائدًا من زيارة إلى عائلة ويلسون. كنتُ قد عقدت العزم على القيام بدور جيد لصالحه، وإن كان ذلك على حساب مشاعره، وربما المخاطرة بتكبّد الاستياء الذي يكون عادةً مكافأة لأولئك الذين يقدمون معلومات بغيضة، أو نصائح دون طلب. في هذا الأمر صدقني، لم تكن لي أي دوافع للانتقام من المضايقات التي عُرِّضت لها مؤخرًا منه، ولا حتى أي شعور بالعداء تجاه الآنسة ويلسون، بل فقط عدم تحملي لفكرة أن تصبح هذه المرأة زوجة شقيق السيدة هانتينغدون ومن أجله أيضًا. لا يمكنني تحمل التفكير في أنه خُدِعَ للارتباط بامرأة لا تستحقه أبدًا، وغير مؤهلة مطلقًا لأن تكون شريكة حياة هذا الشاب الهادئ الرائق. شعرتُ أنه أيضًا كانت لديه شكوك غير مريحة عن الأمر بسبب قلة خبرته، ومهارات السيدة في الجذب للتأثير في خياله الشاب. أعتقد أن السبب الرئيس لتردده في الاعتراف لها بحبه كان النظر في علاقاتها، وخاصةً مع والدتها، التي لم يستطع الالتزام بها. لو كانوا يعيشون على مسافة بعيدة لكان قد تغلب على الأمر، لكنها كانت على بعد ميلين أو ثلاثة أميال من وودفورد.

بينما كنت أسير بجواره قلتُ له: «عائد من زيارة لآل ويلسون، لورانس؟».

أجاب متجنبًا النظر إليّ: «نعم. رأيت أنه من اللائق أن أغتنم الفرصة

للذهاب لشكرهم على لطفهم، لأنهم كانوا مستمرين في تفقد أحوالي طوال فترة مرضي».

«إنه بالفعل ما تفعله الآنسة ويلسون».

قال في استياء واضح: «دعنا نغلق هذا الموضوع إذا سمحت».

«لا لورانس، بعد إذنك، سنكمل ودعني أخبرك بشيء نحن الآن بصدده، قد تصدقه أو لا تصدقه، الأمر لك ـ فقط من فضلك تذكر أنه ليس من عادتي أن أتحدث بالسوء عن أحد، وليس لدي في هذا الموضوع دافعٌ لتحريف الحقيقة».

«حسنًا ماركهام، ما الأمر؟».

«الآنسة ويلسون تكره شقيقتك. قد يكون من الطبيعي بسبب جهلها أن تشعر بدرجة من العداء نحوها، ولكن لا امرأة جيدة قادرة على حمل هذا الكم من الحقد تجاه منافس خيالي كالذي رأيته في تلك المرأة ذات الدم البارد».

«ماركهام!».

«وأعتقد أنها بمساعدة إليزا ميلوارد مسؤولة عن خلق ونشر تلك الافتراءات الشائنة التي نُشِرَت عن شقيقتك. لم تكن ترغب في الزجّ باسمك في هذا الأمر بالطبع، لكن سعادتها كانت وما زالت تكمن في تشويه شخصية شقيقتك إلى أقصى حد وبكامل قوتها، دون المخاطرة كثيرًا بفضح حقدها!».

قاطعني ووجهه يحترق من السخط: «لا أصدق ذلك».

«حسنًا، لمّا كنتُ عاجزًا عن إثبات ذلك، سأقنع نفسي أن الأمر على أفضل وجه كما هو، لكن لمّا كنتَ ستتزوج الآنسة ويلسون، فمن الأفضل أن تكون حذرًا حتى تثبت أنها غير ذلك».

قال بشكل صارم: «لم أقل أبدًا يا ماركهام إنني أنوي الزواج من الآنسة ويلسون».

«لا. ولكن سواء فعلت ذلك أم لا، فهي تنوي الزواج منك».

«هل أخبرتكَ هي بذلك؟».

«لا، ولكن..».

«إذًا ليس لديك الحق في التصريح بمثل هذا التأكيد نيابة عنها». قام بتسريع وتيرة سيره قليلًا، لكنني وضعت يدي على لجام حصانه مصممًا على عدم تركه يغادر بعد.

«انتظر لحظة يا لورانس ودعني أشرح سبب موقفي هذا ولا تكن بهذا الـ... أوه، لا أعرف ماذا، لا أعثر على الكلمات المناسبة مثلك. أعرف كيف تنظر إلى جين ويلسون، وأعرف إلى أي مدًى أنت مخطئ في رأيك بها، أنت تعتقد أنها ساحرة، وأنيقة، ورزينة، وراقية، لكنك لا تدرك كم هي أنانية، وباردة القلب، وطموحة بشكل سيئ، وماكرة، وسطحية الذهن...».

«كفى ماركهام، كفى!».

«لا. اسمح لي أن أنهي كلامي، أنت لا تعرف أنك إنْ تَزَوّجْتها فسيصبح منزلك خاليًا من الراحة والاستقرار، وسيُكسَر قلبك في النهاية عندما تجد نفسك مرتبطًا مع شخص لا يشاركك مشاعرك أو أفكارك، ويفتقد الإحساس الصادق ونبل الروح».

«هل انتهيت؟»، سألني بهدوء.

«نعم. وأعلم أنك تكرهني بسبب وقاحتي، لكنني لا أهتم إذا كان ذلك سيؤدي إلى حمايتك من هذا الخطأ الفادح».

بادرني بابتسامة قائلًا: «حسنًا، أنا سعيد لأنك تغلبت أو نسيت معاناتك الخاصة حتى تتمكن من دراسة شؤون الآخرين بهذا العمق، وإزعاج نفسك بلا داعٍ بشأن المصائب الخيالية أو المحتملة لحيواتهم المستقبلية».

افترقنا يومها ببرود إلى حد ما لكننا لم نتوقف عن كوننا أصدقاء، وعلى

الرغم من أنه كان بإمكاني إيصال تحذيري حسن النية إليه بشكل أحكم، فإنه لم يكن غير مثمر تمامًا، فزياراته إلى آل ويلسون لم تتكرر. على الرغم من ذلك، في لقاءاتنا اللاحقة لم يذكر أيُنا اسمَها، لدي سبب للاعتقاد بأن ذلك يعود إلى حديثنا، حيث سعى سرًا إلى الحصول على معلومات تتعلق بها من جهات أخرى، ثم قارن شخصيتي بها حسب ما يعلمه هو وما سمعه من الآخرين، وتوصل نهاية الأمر إلى استنتاج مفاده أنه بعد أخذ كل الجوانب في الاعتبار، بدا من الأفضل أن تبقى الآنسة ويلسون بدلًا من تحويلها إلى السيدة لورانس. أعتقد أيضًا أنه هنّأ نفسه على الهروب المحظوظ الذي حققه، لكنه لم يعترف بذلك لي أبدًا ولم يلمح بكلمة واحدة اعترافًا بفضلي في خلاصِهِ منها، مع ذلك لم يكن الأمر مفاجئًا لشخص يعرفه كما أفعل.

أما بالنسبة إلى جين ويلسون، فقد شعرت بالطبع بخيبة أمل ومرارة بسبب الإهمال المفاجئ والبرود ثم الهجر النهائي لمعجبها السابق. هل أخطأتُ في إفساد آمالها؟ لا أعتقد ذلك، وبالتأكيد لم يؤنبني ضميري منذ ذلك اليوم وحتى هذا اليوم من أي جانب.

الفصل السابع والأربعون

ذا صباحٍ في بداية شهر نوڤمبر، بينما كنت أكتب بعض الخطابات المتعلقة بالعمل بعد الإفطار بوقت قصير، جاءت إليزا ميلوارد لزيارة شقيقتي. لم يكن لدى روز التمييز ولا الإدراك الكافي لاكتشاف الشيطانة مثلي، وعليه ما زالتا تحتفظان بعلاقتهما القوية. لم يكن هناك أحد في الغرفة سواي وفيرغوس عندما وصلتْ، كانت أمي وشقيقتي مشغولتين بأمور منزلية، لكنني لم أكن لأكرس نفسي لاستقبالها، أي شخص غيري يمكنه فعل ذلك. اكتفيت بتكريمها فقط بتحية غير مبالية وبضع كلمات، ثم عدتُ لإكمال كتابتي تاركًا أخي ليكون أكثر لباقة إذا أراد ذلك، مع ذلك تعمَّدَتْ أن تضايقني.

«من دواعي سروري أن أجدك في المنزل سيد ماركهام!»، قالت بابتسامة خبيثة. «نادرًا ما أصبحت أراك في هذه الفترة، لأنك عدتَ لا تزورنا في دار القس»، أضافت بابتسامة وقحة وهي تجلس على جانب مكتبي وتحدق إلى وجهي.

قلت: «كان لدي الكثير لأفعله في الأوان الأخير»، دون أن أحول نظري عن الرسالة.

«حقًّا! قال أحدهم أنك أهملت عملك بشكل غريب خلال الأشهر القليلة الماضية».

«ما قاله أحدهم خاطئ، في الشهرين الماضيين على وجه الخصوص كنت أجتهد في العمل بشكل خاص».

«أوه، حسنًا. أعتقد أن لا شيء يضاهي العمل والنشاط لتعزية المنكوبين،

ولتسمح لي بهذا الكلام سيد ماركهام، لكنك تبدو بعيدًا جدًّا عن حسن المظهر، وقد كنت بكل المقاييس متقلب المزاج وانفعاليًّا في الأوان الأخير، يدعوني هذا إلى الشعور أن هناك بعض الهموم التي تفترس معنوياتك». ثم تابعت بخجل: «كان بإمكاني سؤالك عما يؤذيك وما الذي يمكنني فعله لتهدئتك، لكني لم أجرؤ على القيام بذلك».

«أنت لطيفة جدًّا آنسة إليزا. عندما أرى أن بإمكانك فعل أي شيء لتهدئتي سأكون جريئًا لإخبارك».

«أرجوك افعل! لأنني قد لا أنجح في تخمين سبب انزعاجك».

«ليست هناك ضرورة إلى ذلك، سأخبرك بصراحة. أكثر ما يزعجني في الوقت الحاضر مثلًا، هو سيدة شابة تجلس على مرفقي وتمنعني من إنهاء رسالتي وبعد ذلك الالتفات إلى عملي اليومي».

قبل أن تتمكن من الرد على هذا الكلام البغيض، دخلت روز الغرفة ووقفت الآنسة إليزا لتحييها، وجلستا بالقرب من النار حيث كان الفتى العاطل فيرغوس واقفًا يميل بكتفه على حافَةِ المدخنة وساقاه متقاطعتان ويداه في جيوبه.

«حسنًا يا روز، دعيني أخبركِ بجزء من الأخبار التي آمل ألا تكوني قد سمعتيها بالفعل، لا أعلم إن كان هذا أمرًا جيدًا أم سيئًا أم غير مهمٍّ، لكن يحب المرء دائمًا أن يكون هو أول من يعلن عن الخبر. يتعلق الأمر بتلك السيدة البائسة غراهام...».

«ششش»، همس فيرغوس لها بنبرة محذِّرة. «لا نذكرها هنا أبدًا، لا يُسمع اسمها أبدًا هنا». نظرتُ نحوه بنظرة خاطفة لأراه ينظر إليّ ويشير بإصبعه إلى صدغه، ثم وهو يغمز في وجه السيدة الشابة هَمَسَ: «هَوَسٌ هَمجي، لا تذكريها».

ردت بارتباك واضح: «أعتذر إن آذيتُ مشاعر أي شخص، مرة أخرى ربما».

«تكلمي آنسة إليزا، لا داعي إلى الخوف من قول أي شيء في وجودي»، قلتُ متجاهلًا ملاحظة المهرج.

أجابت: «حسنًا، ربما أصبحتم تعلمون بالفعل أن زوج السيدة غراهام لم يمت، وأنها قد هربت منه»، بدأت أشعر بالدم يتجمّع في وجهي لكنني ثبَّتُّ نظري على رسالتي وواصلتُ طيّها متظاهرًا باللا مبالاة، في حين تابعت هي: «لكن ما لا تعرفونه هو أنها عادت إليه مرة أخرى، وأن مصالحةً كاملة قد حدثت بينهما. فكري في الأمر فقط«، تابعت موجِّهة كلامها إلى روز المرتبكة: «لا بد أنه رجل أحمق للغاية!».

«ومن أعطاك هذه المعلومة المبهرة يا آنسة إليزا؟»، قلتُ قاطعًا تعجب شقيقتي.

«لقد حصلت عليها من مصدر حقيقي للغاية».

«ممن إذا سمحتِ لي بالسؤال؟».

«من أحد الخدم في وودفورد ـ منزل السيد لورانس».

«أوه! لم أكن أعلم أنك كنت على علاقة حميمية مع أسرة السيد لورانس».

«لم أسمع ذلك من الرجل نفسه، لكنه أخبر خادمتنا سارة بسريّة تامة، وهي أخبرتني».

«معتمدًا على ثقته بها أفترض؟ وأنتِ تخبرينا به بسرية تامة أيضًا، أليس كذلك؟ مع ذلك يمكنني تأكيد أنها غالبًا ما تكون قصصًا واهية بعد كل شيء، ونادرًا ما يكون نصفها صحيحًا».

بينما كنت أتحدث أكملت ختم رسائلي بيد غير ثابتة على الرغم من كل جهودي للحفاظ على هدوئي، وعلى الرغم من اقتناعي الراسخ أن السيدة غراهام المفترضة بالتأكيد لم ترجع طواعية إلى زوجها أو حتى تفكّر بالمصالحة. على الأرجح أنها رحلت بعيدًا والخادمة التي لم تكن تعرف ما

حدث لها خمنت أن هذا هو ما حدث، وقد وصفت الأمر لزائرتنا اللطيفة على أنه يقين، والأخيرة هُرِعت إلى هنا مسرورة بحصولها على مثل هذه الفرصة لتعذيبي. لكن ألم يكن من الممكن ـ ولو بشكل ضئيل ـ أن يكون أحدهم قد خان ثقتها وأُعِيدَت بالقوة؟ عاقدًا العزم على معرفة حقيقة الأمر، سحبتُ الرسائل على عجل وتمتمت عن ضرورة الاستئذان لأنني تأخرت على العمل، وغادرتُ مندفعًا إلى الفِنَاء مناديًا بصوت عالٍ لإحضار حصاني، لكن لم يكن هناك أحد، لذا أخرجته من الإسطبل بنفسي وربطت سرجه ولجامه وهُرِعت به بسرعة إلى وودفورد حيث وجدتُ مالكها يتجول في أرضه.

«هل غادرتْ شقيقتك؟»، كانت هذه كلماتي الأولى عندما صافحته بدلًا من الاستفسار عن صحته.

كانت إجابته «نعم. لقد ذهبت»، تحدث بهدوء شديد لدرجة أن هَلَعي توقّف فورًا.

«أعتقد أنني لن أعرف أين هي، أليس كذلك؟»، سألته وأنا أسلّم حصاني للبستاني الذي استدعاه سيده من عمله في رفع الأوراق الميتة عن العشب لنقله إلى الإسطبلات.

أمسك صديقي بذراعي وقادني إلى الحديقة وأجاب عن سؤالي: «إنها في غراسديل».

«أين؟»، صرختُ.

«في غراسديل».

«كيف وجدها؟»، قلت وأنا ألهث. «مَنْ خانها؟».

«ذهبتْ من تلقاء نفسها».

«مستحيل يا لورانس! لا يمكنها أن تكون بهذا الجنون!»، صرختُ وأنا أمسك بذراعه بقوة كأنني أطلب منه عدم قول تلك الكلمات البغيضة.

«فعلت ذلك من تلقاء نفسها يا ماركهام، لكن ليس دون سبب وجيه»، قال مؤكدًا ثم تابع وهو ينأى بنفسه بلطف عن قبضتي: «السيد هانتنغدون مريض».

«وذهبت لتعتني به؟».

«نعم».

«حمقاء!»، لم أستطع لجم نفسي من الصراخ في حين بقي لورانس ينظر إليّ بألم.



«هل يُحْتَضَر؟».

«لا أعتقد ذلك يا ماركهام».

«وكم عدد الممرضات لديه؟ كم عدد السيدات هناك بالإضافة إليها للاعتناء به؟».

«لا أحد، إنه هناك وحده، وإلّا لم تكن لتذهب».

«آه، يا إلهي، هذا لا يطاق!».

«ما هو؟ كونه وحده؟».

لم أحاول الرد لأنني لم أكن متأكدًا أن المزاح سينجح في إلهائي، لذلك واصلت السير في صمت قلِق لأقف فجأة وألتفت إلى صديقي وأصرخ: «لماذا اتّخَذَتْ هذه الخطوة؟ من الملعون الذي أقنعها بذلك؟».

«لم يقنعها شيء سوى إحساسها بالواجب».

«هراء!».

«كنت أميل في البداية إلى قول ذلك أيضًا يا ماركهام. أؤكد لك أنني لم أنصحها بالذهاب، لأنني أكره ذلك الرجل بقدر ما تفعل، باستثناء أن إصلاحه سوف يمنحني متعة أكبر بكثير من موته. مع ذلك، كل ما فعلته هو إبلاغها بظروف مرضه (نتيجة سقوطه من حصانه أثناء رحلة صيد)، وإخبارها أن تلك الفتاة التعيسة، الآنسة مايرز، كانت قد هجرته منذ فترة».

«قرار خاطئ! الآن بعدما يجد الراحة في وجودها سيقدم لها كل أنواع

الخطب المزيفة والوعود الكاذبة للمستقبل وستصدقه، وعندها سيصبح حالها أسوأ بعشر مرات وغير قابل للعلاج كما في السابق».

قال وهو يخرج رسالة من جيبه: «لا يبدو أن هناك الكثير من الأسباب لمثل هذه المخاوف في الوقت الحاضر، يمكنني تأكيد هذا من الرسالة التي تلقيتها هذا الصباح».

كانت رسالة منها. لم أستطع مقاومة مدّ يدي والطلب منه أن يريني إياها. من الواضح أنه كان مترددًا في تلبية الطلب، لكن بينما كان يفكر في ذلك انتزعتها من يده. أدركت ما فعلته فورًا وفي الدقيقة التالية عرضت عليه استعادتها قائلًا: «هاك، خذها إذا كنت لا تريدني أن أقرأها». أجاب: «لا، يمكنك قراءتها إذا أردت».

قرأتها، وها أنت تفعل أيضًا:

غراسديل، 4 نوڤمبر.

عزيزي فريدريك، أعلم أنك ستكون حريصًا على السماع مني وسأخبرك بكل ما أستطيع. السيد هانتينغدون مريض جدًّا، لكنه لا يُحتَضَر أو في خطر مباشر، وهو بحال أفضل في الوقت الحاضر مما كان عليه عندما وصلت. وجدت المنزل في فوضى حزينة: السيدة غريفز، وبينسون، وكل خادم محترم قد غادر، وأولئك الذين جاءوا ليحلوا أماكنهم كانوا مهملين وغير منظمين، وحتى لا أقول الأسوأ: لا بد من الاستغناء عنهم بأقرب وقت إذا قررت البقاء. تُعُوقِدَ مع ممرضة محترفة، وهي امرأة عجوز صارمة تتولى معالجة المرضى البائسين. إنه يعاني كثيرًا وليست لديه القدرة على التحمّل. مع ذلك، فإن الإصابات الفورية التي لحقت به من الحادث لم تكن شديدة للغاية وكانت، حسب قول الطبيب، تافهة لرجل بسنّه وعافيته، لكن الأمر مختلف تمامًا معه. ليلة وصولي عندما دخلت غرفته لأول مرة كان مستلقيًا وفي حالة من الهذيان. لم يلاحظ وجودي إلى أن تحدثت، ثم ظنَّنِي شخصًا آخر.

«هل هذه أنتِ يا أليس؟ عدتِ مرة أخرى؟»، تمتم. «لماذا تركتِني؟».

أجبته: «هذه أنا آرثر، هيلين ـ زوجتك».

«زوجتي! أسألكِ بحق السماء لا تذكريها، ليست لدي أي زوجة، فليأخذكما الشيطان أنتِ وهي! لماذا قلتِ ذلك؟».

لم أجبه، لكنني لاحظت أنه محدق إلى أسفل السرير فذهبت وجلست هناك، ووضعت الشمعة بالقرب حتى يراني بالكامل، لأنني اعتقدت أنه ربما يحتضر وأردته أن يعرف أنني بجانبه. لفترة طويلة، بقي ينظر إليّ بصمت، في البداية كانت نظراته لي فارغة، ثم تدريجيًّا بدأ بالتركيز والنظر إليّ بثبات واندهاش. أخيرًا، أذهلني عندما رفع نفسه فجأة وقال بصوت خافت وعيناه ما زالتا مثبتتين عليّ: «من أنتِ؟».

قلت وأنا أقوم من مكاني بهدوء: «هيلين هانتينغدون».

صرخ: «لا بد أنني أُصِبتُ بالجنون، لا... ربما هذا هذيان، رجاءً اخرجي من هنا فورًا. لا أستطيع تحمل هذا الوجه الشاحب وتلك العيون. بحق الله اذهبي وأرسلي لي شخصًا آخر لا يبدو هكذا!».

خرجت على الفور وأرسلت الممرضة. في صباح اليوم التالي، غامرتُ بدخول غرفته مرة أخرى وأخذت مكان الممرضة بجانب سريره، راقبته وانتظرت استيقاظه لعدة ساعات وحَرَصت على عدم إظهار نفسي له، والتحدث فقط عند الضرورة. في البداية، كان يخاطبني بصفتي ممرضته، ولكن أثناء عبوري الغرفة لفتح ستائر النوافذ امتثالًا لتعليماته قال: «لا أنتِ لست ممرضة، هذه ليست ممرضة. إنها أليس، ابقي معي أليس، تلك العجوز الشمطاء ستكون سبب موتي».

قلت: «لا تقلق، سأبقى هنا معك»، بعد ذلك كان يناديني أليس، أو أي اسم آخر جارح لمشاعري، لكني أجبرت نفسي على تحمل ذلك، ولكن عندما طلب كوبًا من الماء وقربته لفمه غمغم: «شكرًا عزيزتي!»، لم أستطع لحظتها

منع نفسي من التمتمة: «لم تكن لتقول هذا إذا كنت تعرفني»، عازمةً على مواصلة محاولاتي لإعلان هويتي، لكنه تمتم برد غير متماسك لذا تركت الأمر. بعد فترة، عندما كنت أبلل جبهته وصدغيه بالخل والماء لتخفيف الحرارة والألم في رأسه، قال لي بعد أن نظر بجدّية إليّ لبضع دقائق: «تباغتني أوهام غريبة لا يمكنني التخلص منها ولا تسمح لي بالراحة. أكثرها تفردًا وتكرارًا هو وجهك وصوتك، يصبحان تمامًا مثل وجهها. يمكنني أن أقسم في هذه اللحظة أنها كانت بجانبي».

قلت: «إنها كذلك».

تابع دون أن ينتبه لما قلته: «هذا مريح، أثناء وجودكِ تتلاشى الأوهام الأخرى. استمري، استمري حتى تختفي هي أيضًا. لا أستطيع تحمّل مثل هذا الهوس، سيقتلني!».

قلت بثبات: «لن تختفي أبدًا، لأنها الحقيقة!».

«الحقيقة!»، صرخ كما لو أن أحدهم قد لسعه. «أنتِ لا تعنين أنكِ حقًّا هي؟».

«نعم أفعل، لكنك لست بحاجة إلى الهرب مني كما لو كنتُ أعظم عدو لك، لقد جئت لأعتني بك وأفعل ما لا تفعله أية واحد منهن».

«بحق الله لا تعذبيني الآن!»، صرخ في هياج يرثى له. ثم بدأ بشتمي وشتم الحظ البائس الذي أعادني إليه، في حين أعدتُ الإسفنجة والوعاء ورجعت لمقعدي بجانب سريره.

«أين الجميع؟»، قال: «هل تركوني كلهم، الخدم والجميع؟».

«هناك خدم إذا كنت تحتاج إلى أحدهم، ولكن من الأفضل أن تستلقي الآن وتهدأ، لا أحد منهم يمكنه أو سيعتني بك كما أفعل».

قال بحيرة: «لا يمكنني فهم الأمر على الإطلاق، هل كان كل ذلك حلمًا؟»، غطى عينيه بيديه كما لو كان يحاول كشف الغموض.

«لا آرثر، لم يكن حلمًا. سلوكك بالفعل أجبرني على تركك، لكنني سمعت أنك مريض ووحيد لذا عدت للاعتناء بك، لا داعي إلى الخوف أو عدم الوثوق بي. أخبرني بما تحتاج إليه وسأحاول قدر استطاعتي تلبية رغباتك. ليس هناك من يهتم بك، ولستُ هنا لتوجيه اللوم إليك».

«أوه!»، قال بابتسامة مريرة: «إذًا فهذا عمل خيري حيث تتمنين من خلاله أن تربحي لنفسك مقعدًا أعلى في الجنة، وأن تحفري حفرة أعمق في الجحيم من أجلي».

«لا، جئت لأقدم لك الراحة والمساعدة التي تتطلبها حالتك، وإذا كان بإمكاني أن أفيد روحك كما جسدك، وأوقظ بعض الشعور بالندم و...».

«نعم بالتأكيد، إذا كنتِ تتمنين أن تغرقيني بالندم والارتباك فقد حان الوقت الآن. ماذا فعلتِ بابني؟».

«إنه بخير وقد تراه بعد بعض الوقت بعد أن تتماسك، ولكن ليس الآن».

«أين هو؟».

«إنه بأمان».

«هل هو هنا؟».

«أينما كان لن تراه حتى تتعهد بتركه بالكامل تحت رعايتي وحمايتي، والسماح لي بأخذه معي في أي وقت وإلى أي مكان، في حال أصبح من الضروري إبعاده مرة أخرى. لكننا سنتحدث عن ذلك غدًا، يجب أن ترتاح الآن».

«لا، دعيني أراه الآن، أعدك بذلك».

«لا».

«أقسم لكِ بالله! هيا الآن دعيني أَرَهُ».

«لا يمكنني الوثوق بقسمك ووعودك. يجب أن يكون لدي تعهد مكتوب، ويجب أن توقعه بحضور شاهد، ولكن ليس اليوم، غدًا».

«ليس اليوم، بل الآن»، كان في حالة من الانفعال المحموم ومصرًّا على تنفيذ رغبته فورًا إلى درجة أنني شعرت أنه من الأفضل تحقيق ذلك لأنه لن يهدأ حتى أفعل. لكنني كنت مصممة بدوري على عدم نسيان مصلحة ابني. بعد أن كتبت التعهّد بوضوح طلبت من السيد هانتينغدون أن يوقّع عليه في حضور ريتشيل. توسل إليّ ألا أصر على هذا لأنه كان كشف للخادمة عن عدم إيماني بكلمته. قلت له إنني آسفة لاضطراري إلى فعل ذلك، لكن لمّا كان فقد ثقتي فعليه تحمّل العواقب. ثم تعذّر بعدم قدرته على إمساك القلم. قلت: «إذًا ننتظر حتى تتمكن من ذلك»، عندها قال إنه سيحاول ولكنه لم يستطع أن يرى الكتابة بوضوح، فأشرت له بإصبعي إلى مكان التوقيع وطلبت منه كتابة اسمه، لكنه لم يمتلك القدرة حتى على تشكيل الحروف. قلت: «في هذه الحالة لا بد أنك مريض جدًّا بحيث لا تستطيع رؤية الطفل». بسبب قسوتي تمكن بعد جهد طويل من التوقيع على التعهّد، حينها طلبت من ريتشيل إحضار الصبي.

قد يشعرك كل هذا بأنني أصبحت قاسية، لكنني شعرت أنني يجب ألا أفقد فرصتي الحالية، وينبغي أن لا يُضَحَّى برفاهية ابني المستقبلية بسبب مراعاتي لمشاعر هذا الرجل. لم ينسَ آرثر الصغير والده، لكن غيابه عنه لمدة ثلاثة عشر شهرًا دون السماح له خلالها بسماع كلمة عنه أو الهمس باسمه جعله خجولًا إلى حد ما. عندما دخل إلى الغرفة المظلمة حيث كان والده مستلقيًا مختلفًا تمامًا عن حالته السابقة، بوجهه المحموم وعينيه الحمراوين، تشبث بي غريزيًّا ووقف ينظر إليه بتأثر من بعيد.

«تعال إلى هنا آرثر»، قال الأخير وهو يمد يده نحوه. اقترب منه الطفل ولمس تلك اليد الساخنة بخجل، لكنه شعر بالهلع عندما قبض والده فجأة على ذراعه وقرّبه منه أكثر.

«هل تعرفني؟»، سأله السيد هانتينغدون وهو يتفحص ملامحه باهتمام.

«نعم».

«من أنا؟».

«بابا».

«هل أنت سعيد برؤيتي؟».

«نعم».

«أنت لست كذلك!»، أجاب الوالد المحبط وهو يرخي قبضته ويلقي نظرةً انتقامية على وجهي.

أطلق سراح الطفل ليعود فورًا إليّ ووضع يده في يدي. أقسم والده أنني جعلت الطفل يكرهه وأساء إليّ وشتمني، في اللحظة التي بدأ فيها بذلك أخرجت ابننا من الغرفة، وعندما توقف للتنفس أكدت له بهدوء أنه كان مخطئًا تمامًا وأنني لم أحاول أبدًا تأليب طفله ضده.

قلت له: «كل ما أردته حقًّا هو أن ينساك، أو بالأحرى أن ينسى الدروس التي علمته إياها، ولهذا السبب ولتقليل خطر كل تلك الأمور عليه فإنني أعترف أنني حاولت إحباط ميله للتحدث عنك بشكل عام، ولكن لا أحد يستطيع أن يلومني على ذلك».

أجابني وهو يتأوه ويدحرج رأسه على وسادته في نوبة من نفاد الصبر: «أنا في الجحيم بالفعل! هذا العطش الملعون يحرق قلبي ويحوّله إلى رماد! أليس هناك...».

قبل أن يتمكن من إنهاء الجملة كنت قد سكبتُ كوبًا من بعض المشروبات الحمضية المبردة التي كانت على الطاولة وأحضرتها إليه. شربها بشراهة وتمتم وأنا آخذ الكأس منه: «أفترض أنك أنت من تكدسين الجمر على رأسي، أليس كذلك؟».

لم أهتم بكلامه، سألته إذا كان هناك أي شيء آخر يمكنني القيام به من أجله.

«نعم، سأعطيكِ فرصة أخرى لإظهار شهامتك»، قال ساخرًا، «اجعلي وسادتي مستقيمة، ورتبي شراشف السرير». فعلت ذلك. «والآن أحضري لي كأسًا أخرى من هذا المشروب». امتثلت.

«هذا رائع، أليس كذلك؟»، قال بابتسامة خبيثة وأنا أسقيه، «لم تأملي أبدًا في مثل هذه الفرصة المجيدة».

«هل تود أن أبقى معك؟»، بينما أُعيد الكأس على المنضدة قلت: «أو أنك ستكون أكثر راحة إذا ذهبت وأرسلت الممرضة؟».

«نعم. أنت عجيبة ولطيفة ومُلتزمة، لكنكِ تدفعيني إلى الجنون».

قلت: «سأتركك إذن». وانسحبت ولم أزعجه بحضوري مرة أخرى في ذلك اليوم، باستثناء دقيقة أو دقيقتين في كل مرة فقط لأرى كيف كان وما إذا كان في حاجة إلى شيء.

في صباح اليوم التالي وبعد أن أمر الطبيب بعمل الحجامة أصبح أكثر استرخاءً. قضيت نصف اليوم في غرفته على فترات مختلفة. لم يبدُ أن حضوري يثير غضبه كما كان يفعل من قبل، وبدأ بتقبل خدماتي بهدوء ودون إبداء أية ملاحظات بغيضة. في الواقع، أصبح نادرًا ما يتحدث على الإطلاق، ما عدا عند احتياجه إلى شيء، وحتى وقتها بالكاد ينطق. في اليوم التالي، ومع تعافيه من الإرهاق، بدا أن طبيعته السيئة تعاود الظهور.

«أوه، إنه الانتقام الجميل!»، صرخ حين كنت أفعل كل ما بوسعي لجعله مرتاحًا ولعلاج إهمال ممرضته. «ويمكنكِ الاستمتاع به بضمير هادئ أيضًا، لأن كل ذلك يصب في طريق الواجب».

قلت بمرارة لم أستطع قمعها: «من الجيد بالنسبة إليّ أن أقوم بواجبي، لأنها الراحة الوحيدة التي أملكها، وإرضاء ضميري كما أرى هو المكافأة الوحيدة التي أحتاج إليها!».

لقد بدا مندهشًا إلى حد ما من جدية أسلوبي.

«ما هي المكافأة التي كنتِ تبحثين عنها؟»، سألني.

«سوف تعتقد أنني أكذب إذا أخبرتك، لكنني كنت أتمنى أن أفيدك وأن أوسّع إدراكك للأمور من حولك لتخفف معاناتك، لكن يبدو أنني لا أفعل أيًّا من ذلك لأن روحك السيئة لا تسمح لي. بقدر ما يهمك، لقد ضحيتُ بمشاعري الخاصة وراحتي بلا فائدة، وكل شيء صغير أفعله من أجلك يُنسب إلى خبث ورغبة بالانتقام!».

قال وهو ينظر إليّ بدهشة غبية: «يمكنني التأكيد أن كل شيء على ما يرام، وبالطبع يجب أن أذوب في دموع الندم والإعجاب بالكرم الغامر والخير الخارق، لكن كما ترين لا يمكنني فعل ذلك. مع ذلك، استمري في تمنّي الخير لي إن كنتِ تجدين أي متعة في ذلك، لأنك تدركين جيدًا أنني في حالة بائسة الآن، تمامًا كما تتمنين أن ترَيني. أعترف أنه منذ مجيئكِ أصبح لديّ حضور أفضل من ذي قبل، لأن هؤلاء البائسين كانوا قد أهملوني بشكل مخجل، ويبدو أن جميع أصدقائي القدامى أيضًا قد تخلّوا عني. لقد مررت بوقت عصيب بسبب ذلك، وأؤكد لكِ أنني شعرت في أحيان كثيرة برغبة في الموت. هل تعتقدين أن هناك احتمالَ أن يحدث لي ذلك بهذا الوقت؟».

«هناك دائمًا فرصة للموت، ومن الحكمة دائمًا التعايش مع هذه الحقيقة».

«نعم، ولكن هل تعتقدين أن هناك أي احتمال أن يكون لمرضي هذا نهاية قاتلة؟».

«لا أستطيع أن أقول، لكن لنفترض أنه أمر وارد، هل أنت مستعد لمواجهة ذلك؟».

«ولمَ قد أفعل؟ أخبرني الطبيب ألّا أفكر في الأمر، لأن تحسّني مؤكّد لديه إذا التزمتُ بنظامه العلاجي والوصفات الطبية».

«آمل أن تفعل آرثر، لكن لا يمكنني ولا الطبيب التحدث بيقين تام في مثل هذه الحالة. هناك إصابات داخلية من الصعب معرفة مداها».

«آها، فهمت ما تريدين، تريدين أن تخيفيني حتى الموت».

«لا، لكني لا أريد تهدئتك بأمان زائف. إذا كان بإمكان عدم يقينك في الحياة أن يدفعك إلى التفكير بشكل جاد، فلن أحرمك من الاستفادة من مثل هذه الأفكار، سواء كنت تتعافى أو لا. هل ترعبكَ فكرة الموت كثيرًا؟».

«إنه الشيء الوحيد الذي لا أتحمل التفكير فيه، لذلك إذا كان لديكِ أي...».

قاطعته: «لكن يجب أن تسمع هذا في وقت ما، وإذا مرت سنوات من الآن دون أن تواجه الأمر فسوف يباغتك بالتأكيد في يوم ما ودون شك سيكون غير مرحب به في ذلك الوقت كما هو الحال الآن، ما لم تكن...».

«أوه توقفي! لا تعذبيني بمواعظك الآن إلا إذا أردتِ قتلي على الفور. قلت لكِ إنني لا أستطيع أن أتحمل ذلك، أنا أعاني بما فيه الكفاية دون ذلك. إذا كنتِ تعتقدين أن هناك خطرًا فأنقذيني منه، وبعد ذلك، وبامتنان، سأسمع كل ما تريدين قوله».

وفقًا لذلك، أغلقت الموضوع غير المرغوب فيه.

والآن فريدريك، أعتقد أنني يجب أن أنهي رسالتي. من هذه التفاصيل يمكنك تشكيل حكمك الخاص على حالة مريضي وموقفي. دعني أسْمَعْ منكَ قريبًا وسأكتب مجددًا لأخبارك بتطورات الحال، ولكن الآن بعد أن أصبح وجودي مرحبًا به، بل ومطلوبًا، بالنسبة إلى المريض، لا يتبقى لدي سوى القليل من الوقت لأسخّره لابني. لا أريد أن أهمله ولا أحبذ تركه طوال اليوم مع ريتشيل، وطبعًا لا أجرؤ على تركه للحظة مع أي من الخدم الآخرين أو وحده. إذا ساءت حالة والده سأطلب من إستر هارغريف

أن تتولى مسئوليته لفترة من الوقت حتى أعيد تنظيم شؤون المنزل على الأقل، لكنني أفضل كثيرًا إبقاءه تحت عيني.

أجد نفسي في وضع فرديّ أبذل فيه قصارى جهدي لتعزيز شفاء زوجي وإصلاحه، وإذا نجحت سأواصل القيام بواجبي بالطبع، لكن كيف؟ لا يُهم، فلأنتهي من أداء المهمة التي أمامي الآن، وليمنحني اللّٰه القوة لفعل كل ما يطلبه في الآخرة.

وداعًا عزيزي فريدريك.

هيلين هانتينغدون.

«ما رأيك في ذلك؟»، قال لورانس وأنا أعيد طي الرسالة بصمت.

رددت: «يبدو لي أنها ترمي لَآلِئَها أمام الخنازير، عسى أن يكتفوا بالدوس عليها بأقدامهم ولا يعودوا ثانية إلى تمزيقها! لكنني لن أقول أكثر من ذلك ضدها، لأنني واثق أنها كانت مدفوعة بأفضل النيات وأنبلها فيما فعلته، وإن لم يكن الفِعل حكيمًا فليحفظها الرب من عواقبه! هل يمكنني الاحتفاظ بهذه الرسالة يا لورانس؟ لم تذكرني فيها مرة واحدة أو تلمّح حتى بإشارة بعيدة، لذلك لا يمكن أن يكون هناك ضرر».

«إذًا لماذا ترغب في الاحتفاظ بها؟».

«ألم تكتب هذه الحروف بيدها؟ ألم تتخيل هذه الكلمات في عقلها والكثير منها تكلمت بها بشفتيها؟».

قال: «حسنًا، لك ذلك»، وهكذا احتفظتُ بها، مع ذلك يا هالفورد، أخشى أنه من غير الممكن أن أخبرك بكامل محتوياتها.

قلت للورانس: «هل من الممكن عندما تكتب لها أن تسألها نيابة عني إذا كان من المسموح إخبار والدتي وشقيقتي عن تاريخها الحقيقي وظروفها، بقدر ما هو ضروري لجعل أهل المنطقة يتوقفون عن ظلمها وتصديق

الافتراءات المخزية؟ فقط اسألها عن ذلك وأخبرها أنني أعتبر هذه خدمة عظيمة يمكنها أن تقدمها لي، وأخبرها.. لا، لا شيء. أنت ترى أنني أصبحت أعرف العنوان وبإمكاني الكتابة لها بنفسي لكني أمتنع».

«حسنًا، سأفعل هذا من أجلك ماركهام».

«وبمجرد تلقيك للرد ستخبرني، أليس كذلك؟».

«إذا كان كل شيء على ما يرام، سآتي بنفسي وأخبرك على الفور».

الفصل الثامن والأربعون

بعد خمسة أو ستة أيام من هذا قدم إلى منزلنا السيد لورانس، وعندما أصبحنا وحدنا ـ وهو ما حَرَصت عليه في أقرب وقت ممكن بإحضاره للنظر في أكوام الذرة الخاصة بي ـ أظهر لي رسالة أخرى من شقيقته وكان هذه المرة على استعداد تام لتسليمي إياها. كان الجواب الوحيد الذي أعطته لرسالتي هو:

«السيد ماركهام له الحرية في الكشف عما يراه ضروريًّا، يعرف أنني أتمنى أن تتوقف الافتراءات التي أُطلِقَت ضدي، أرجو أن يكون بصحة جيدة، لكن قل له أن يتوقف عن التفكير بي».

يمكنني أن أقدم لك بعض المقتطفات من بقية الرسالة لأنه سمح لي بالاحتفاظ بها أيضًا، ربما كترياق لآمالي وأوهامي المؤلمة.

***

«هو بحال أفضل بلا ريب، لكنه وهن للغاية بسبب آثار مرضه الشديد والنظام الصارم الذي يتعين عليه اتباعه، والتي هي عكس كل عاداته السابقة. مؤسف أن أرى كيف أدت حياته الماضية إلى تدهور نظامه بالكامل. مع ذلك، يقول الطبيب إنه يُعتبر في مأمن من الخطر إذا استمر في مراعاة القيود اللازمة. لا بد من استهلاك بعض المشروبات المحفزة بشكل مستمر في الفترة الحاضرة، ولكن يجب تخفيفها تدريجيًّا واستخدامها باعتدال، وأجد صعوبة في إبقائه على هذا النحو. في البداية، كان خوفه الشديد من الموت مهمة سهلة، لكن بمجرد ما أحس أن معاناته الحادة تنحسر والخطر يتراجع

أصبح أصعب. بدأت شهيته للطعام بالعودة، وعادت معها أيضًا عاداته في الانغماس في الذات والمتع. أشاهده وأحاول لجمه قدر استطاعتي، وغالبًا ما أُعَرّض لإساءة شديدة بسبب شدتي وصرامتي معه، وأحيانًا يحاول التملص والتصرف ضد إرادتي. لكنه أصبح الآن متصالحًا تمامًا مع حضوري إلى درجة أنه لا يرضى أبدًا عندما لا أكون بجانبه. أنا مضطرة إلى أن أكون قاسية معه أحيانًا، وإلّا فسيجعلني خادمة لديه. لأنني أعلم أنه ذنب لا يغتفر أن أتخلى عن جميع الواجبات الأخرى لصالحه. لديّ خدم قد أغفل عنهم، وصغيري آرثر الذي يجب أن أعتني به بالإضافة إلى صحتي، وكلها كانت ستُهمل تمامًا إذا ما لبّيت مطالبه دون إلزامه بالانضباط. لا أجلس بجانبه في الليل لأنني أعتقد أن الممرضة التي تتقاضى أجرًا للاعتناء به مؤهلة بشكل أفضل لمثل هذه المهام، ولكن مع ذلك فإن الراحة الليلية المستمرة التي أتوق إليها طوال اليوم نادرًا ما أستمتع بها لأن مريضي لا يتردد في طلبي في أية ساعة عندما تتطلب رغباته أو خيالاته حضوري. لكنه أصبح يخشى بشكل واضح من استيائي إذا ما حاول في وقت من الأوقات اختبار صبري بسبب إهاناته غير المعقولة وشكاويه وتذمره، لكن يمكنني العفو عنه بسهولة لأنني على يقين من أن ذلك ناتج عن ضعف جسده واضطراب أعصابه. أكثر ما يزعجني هو محاولاته العَرَضية لإقناعي بالعودة إليه، لقد جعلته الآلام والرعاية الشاقة التي منحتها له يعترف بحاجته إلى وجودي معه، حتى لو كان بترك الأمور على ما هي عليه، كلما حاول التقرب مني لا إراديًا أنكمش.

«هيلين، ماذا تنوين أن تفعلي عندما أتعافى تمامًا؟»، سألني هذا الصباح. «هل ستهربين مرة أخرى؟».

«الأمر يعتمد كليًّا على سلوكك».

«أوه، سأكون جيدًا جدًّا».

«ولكن إذا وجدت أنه من الضروري أن أتركك يا آرثر فلن أهرب. أنت

تعلم أن لدي تعهّدًا منك بالسماح لي بالمغادرة متى ما أردت، وأخذ ابني معي».

«أوه، لن يكون لديكِ سبب للإقدام على ذلك»، ثم بينما شُغلت بإتمام بعض المهام قال: «ألا تسامحينني؟».

«لقد سامحتك بالفعل. لكنني أعلم أنك لن تستطيع أن تحبني كما كنت تفعل في السابق، وهو أمر مؤسف إن كنت تفعل، لأنني لن أستطيع التظاهر بأنني أحبك كما كنت أفعل، لذا دعنا نغلق هذا الموضوع ولا نَخُض فيه مرة أخرى. من خلال ما فعلته من أجلك يمكنك أن تحكم على ما سأفعله مستقبلًا، إذا لم يتعارض مع الواجب الأعلى الذي أدين به لابني (الأعلى لأنه لم يفقد حقه، ولأنني آمل أن أقدّم المزيد من الخير إليه وأكثر مما أستطيع تقديمه إليك). إذا كنت ترغب في تغيير شعوري تجاهك فإن الأفعال وليس الأقوال هي التي تشتري العاطفة والتقدير».

كان ردَّه الوحيد على ذلك تكشيرةٌ طفيفة وتجاهل تامٌّ، للأسف عاد كما كان! الكلمات أرخص بكثير من الأفعال معه، كان الأمر كما لو كنت قد قلت: «بجنيهات وليس بنسًا يمكنك شراء الأقوال التي تطلبها». بعد ذلك تنهد بشكل ساذج يتناسب مع حالته، كما لو كان متحسّرًا على أنه، محبوب ومعشوق الكثير من النساء، متروك الآن لرحمة امرأة قاسية متحجرة القلب مثلي وسعيدة بما اختارت أن تمنحه من اللطف الشحيح.

«إنه أمر مؤسف، أليس كذلك؟»، قلت له.

سواء كنت أفسر تأملاته بشكل صحيح أم لا، فإن الملاحظة بدت متناغمة مع أفكاره، لأنه أجاب بابتسامة حزينة: «لا يمكنكِ أن تتصوري».

***

لقد التقيت إستر هارغريف مرتين. إنها مخلوقة ساحرة، لكن روحها المبهجة أصبحت نوعًا ما منكسرة، ومزاجها اللطيف يكاد يكون بليدًا بسبب

اضطهاد والدتها المستمر نيابة عن خطيبها المرفوض، ليس اضطهاداً عنيفًا ولكنه مرهِق ومتواصل مثل السقوط المستمر. يبدو أن هذه الوالدة الغريبة مصممة على جعل حياة ابنتها صعبة إذا لم تستسلم لرغباتها.

تقول لي: «ماما تفعل كل ما في وسعها لتجعلني أشعر بنفسي عبئًا عليها وعلى الأسرة، وأنني أكثر ابنة جاحدة وأنانية وغير كريمة ولدت على الإطلاق. والتر أيضًا صارم وبارد ومتغطرس معي كما لو كان يكرهني تمامًا. أعتقد أنني كنت لأستسلم من البداية لو كنت أعرف مقدار المقاومة التي كانت ستكلفني، ولكن الآن من أجل العناد سأدافع عن حقي!».

أجبت: «دافع سيئ لحل جيد. لكن مع ذلك أعلم أن لديكِ دوافع أفضل لمثابرتكِ وأنصحك بإبقائها في الاعتبار».

«ثقي بي سأفعل. أنا أهدد ماما أحيانًا بأنني سأهرب وألحق العار بالعائلة من خلال كسب رزقي بنفسي إذا واصلت الضغط عليّ، ويخيفها ذلك لبعض الوقت، لكنني سأفعل ذلك بجدية أكثر إذا لم يتوقفوا».

قلت: «كوني هادئة وصبورة لبعض الوقت وستأتي أوقات أفضل».

فتاة مسكينة! أتمنى أن يأتي شخص يستحق امتلاكها ويأخذها بعيدًا، أليس كذلك يا فريدريك؟

***

إذا كانت قراءة هذه الرسالة قد أصابتني بالفزع على حياة هيلين المستقبلية وحياتي، فقد كان هناك مصدر واحد كبير من المواساة: لقد كان الآن في مقدوري أن أبرئ اسمها من كل افتراء كريه. يجب أن يرى آل ميلوارد وآل ويلسون بأعينهم الشمس الساطعة وهي تبزغ من خلف السحاب ويحترقوا وينبهروا بها، كما يجب على أصدقائي أيضًا رؤيتها، أولئك الذين كانوا يبثون شكوكهم المرّة والمسمومة. لتحقيق ذلك كان عليّ فقط غرس البَذرة وسرعان ما ستنبت عشبًا كثيفًا ومتفرّعًا: بضع

كلمات لأمي وشقيقتي ستكون كافية لنشر الأخبار في جميع أنحاء المنطقة دون مزيد من الجهد من جانبي.

كانت روز سعيدة. وبمجرد أن أخبرتها بكل ما كنت أعتقد أنه مناسب ـ وهو كل ما تأثرت بمعرفته ـ طارت بسرعة لنقل الأخبار السارة إلى آل ميلوارد وويلسون. أعتقد أنها كانت بشرى سعيدة لها ولماري ميلوارد ـ تلك الفتاة الثابتة الحكيمة التي أدركت السيدة غراهام المفترضة قيمتها بسرعة كبيرة على الرغم من جمودها الخارجي، كانت قادرة على رؤية وتقدير الشخصية والصفات الحقيقية لتلك السيدة أكثر من ألمع عبقري بينهم.

ولأنني قد لا تتاح لي الفرصة لأذكر لك هذا مرة أخرى، دعني أخبرك هنا أيضًا أنها كانت مخطوبة لريتشارد ويلسون بشكل سرّي في هذا الوقت ـ وهو سر لم يعلم به على ما أعتقد أحدٌ باستثنائهما. كان هذا الطالب المجتهد الآن في كامبريدج، حيث كان سلوكه النموذجي ومثابرته الدؤوبة في السعي وراء التعلم قد حمله إلى هناك بأمان، وفي النهاية أعاده مع مرتبة الشرف التي حصل عليها بشق الأنفس وسمعة لا تشوبها شائبة إلى نهاية مسيرته الجامعية. في الوقت المناسب أصبح الصهر الأول والوحيد للسيد ميلوارد ـ لأن سنوات ذلك الرجل المتدهورة أجبرته أخيرًا على الاعتراف بأن واجبات أبرشيته الواسعة كانت أكثر من اللازم بالنسبة إلى تلك الطاقات المتفاخرة التي كان معتادًا التباهي بها. كان هذا ما خطط له العاشقان بإخلاص وصبر وانتظراه بهدوء لسنوات، وفي الوقت المناسب اتحدا أمام دهشة العالم الصغير الذي عاشا فيه، والذي كان أعلن منذ فترة طويلة أنهما مولودان لمهمة واحدة وهي: التأكيد أنه من المستحيل أن يحمل دودة الكتب الشاب الشاحب الشجاعة للبحث عن زوجة، أو أن ينجح في الحصول على واحدة إذا فعل ذلك، ومن المستحيل أن تجد الآنسة ميلوارد ذات المظهر البسيط وغير الجذاب زوجًا مناسبًا لها.

استمرا في العيش في منزل القس، حيث كانت السيدة تقسم وقتها بين والدها وزوجها ورعاياهم الفقراء، وبالتالي عائلتها الناشئة. والآن بعد أن انضمّ القس مايكل ميلوارد إلى آبائه المملوئين بسنين العمر والأوسمة، خلَّفه القس ريتشارد ويلسون في منصب نائب ليندنهوب ونال استحسان ورضا الرعيّة.

إذا كنت تتساءل عن مصير شقيقة السيدة فلا يسعني إلا أن أخبرك بما قد تكون قد سمعته من جهة أخرى، أنها منذ نحو اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا تزوجت من تاجر ثري لا يُحسد على تلك الصفقة، أخشى أن حياته غير مريحة على رغم أنه لحسن الحظ بليدٌ جدًّا بحيث لا يدرك مدى سوء حظه. ليست لي أية علاقة بها حيث لم نلتقِ منذ سنوات عديدة، لكنني متأكد من أنها لم تنسَ أو تغفر بعد لعشيقها السابق، أو السيدة التي فتحت بصفاتها المتفوقة عينيه على حماقة علاقته الصبيانية بها.

أما بالنسبة إلى شقيقة ريتشارد ويلسون، فهي بعد أن فشلت تمامًا في استعادة السيد لورانس أو الحصول على أي زوج غني وأنيق بما يكفي ليناسب أفكارها حول ما يجب أن يكون عليه زوج جين ويلسون، وبعد وقت قصير من وفاة والدتها، غادرت منزل الأسرة لأنها وجدت أنه من المستحيل تحمل سلوكات والعادات غير المتطورة لأخيها روبرت وزوجته، ولم تتحمل فكرة التماثل مع مثل هذه المبتذلة. بالنتيجة بنتْ مسكنًا خاصًّا بها في البلدة حيث انتقلت للمعيشة فيه، وما تزال على ما أعتقد بأسلوب حياة مختلف، وبارد، وغير مريح لغالب الناس، لكن بالنسبة إليها فهو ممتع ومناسب حيث تمضي أيامها في النشاطات الاجتماعية الفاخرة والتغذّي على الفضائح مشيرة بشكل متكرر إلى شقيقها «القس وزوجته» ومتجاهلة شقيقها الآخر «المزارع وزوجته»، وبهذا الاستمتاع بأكبر قدر من الصحبة دون بذل مصاريف كثيرة، ودون منح محبة إلى أحد أو تلقّي محبة أحد. عجوز قاتمة القلب، ومتغطرسة، وخبيثة.

الفصل التاسع والأربعون

على الرغم من أن صحة السيد لورانس تحسنت تمامًا وعادت إلى ما كانت عليه، فإن زياراتي إلى وودفورد كانت متواصلة أكثر من أي وقت مضى، مع أنها في كثير من الأحيان أقصر من ذي قبل. نادرًا ما كنا نتحدث عن السيدة هانتينغدون. لكننا لم نتقابل مطلقًا دون أن أذكرها، لأنني كنت أذهب أساسًا على أمل أن أسمع شيئًا عنها، ولم يكن ليبحث عنّي مطلقًا لأنه كان يراني كثيرًا دون الحاجة إلى ذلك. لكنني كنت دائمًا أبدأ في الحديث عن مواضيع أخرى، وأنتظر لأرى ما إذا كان سيثير الموضوع وإذا لم يفعل أسأله بشكل مباشر: «هل سمعت من شقيقتك مؤخرًا؟»، إذا قال «لا» أترك الأمر، إذا قال «نعم» أجرؤ على الاستفسار «كيف حالها؟»، لكن ليس أبدًا «كيف حال زوجها؟»، مع أنني قد أحترق لأعرف، لأنني لم أشعر بأي قلق على شفائه، ولم يكن من اللائق التعبير عن أية رغبة في نتيجة معاكسة، هل كانت لدي رغبة من هذا القبيل؟ أخشى أنني يجب أن أعترف بهذا الذنب، لكن لمّا كنتَ سمعتَ اعترافي يجب أن تسمع تبريري أيضًا، أو بعض الأعذار التي سعيتُ بها إلى تهدئة ضميري المتهم.

أولًا، وكما تعلم، لقد أضرّت حياته بالآخرين ومن الواضح أنها لم تكن مفيدة له أيضًا، وعلى الرغم من أنني كنت أتمنى لو تنتهي فإنني لم أكن لأسرع في ذلك إذا كان الأمر بيدي، أو كانت لدي القدرة على مبادلته بضحية أخرى من ضحايا الموت التي قد تكون حياتها مفيدة للبشرية. هل هناك ضرر في التمني أن يكون هذا البائس واحد من بين الآلاف الذين ستكون أرواحهم

مطلوبة قبل انتهاء العام؟ لا أعتقد. لذلك تمنيت من كل قلبي أن تنقله السماء إلى عالم أفضل أو تُخرجه من هذا العالم على الأقل، لأنه إذا لم يستجب لهذا الاستدعاء بعد مرضه التحذيري ومع وجود مثل هذا الملاك بجانبه فمن المؤكد أنه لن يفعل أبدًا. على العكس من ذلك، عودةُ الصحة ستجلب له شهوةً ونذالة مضاعَفة وسيعتاد أكثر سخاءها وتصبح مشاعره أقسى وقلبه أصرم أمام حججها المقنعة، لكن اللّٰه وحده يعلم بهذا. في غضون ذلك، لم يسعني إلا أن أكون متشوقًا إلى معرفة النتيجة. مع العلم أنها بتعاملها (تركي دون سؤال) قد تظن هيلين بأنها تعتني براحة زوجها، ومع ذلك تستنكر مصيره المحتوم. بالنتيجة، ما زالت بائسة.

انقضى أكثر من أسبوعين ودائمًا ما كانت الإجابة عن استفساراتي بالنفي. إلى أن سمعتُ منه أخيرًا الإجابة الثانية، تنبأ لورنس بأفكاري القلقة وقدّر حالتي. كنت أخشى في البداية أنه يعذّبني بردود غير مرضية، أو أنه يخفي عني ما أريد معرفته، أو يجبرني على سحب المعلومات منه بالتدريج، لكنه كان أرحم من أن يفعل ذلك. وضع رسالة شقيقته في يدي. قرأتها بصمت وأعدتها له دون تعليق. كان هذا الأسلوب مناسبًا له تمامًا، لدرجة أنه بعد ذلك اتبع دائمًا نفس التعامل حيث يريني رسائلها في الحال عندما أستفسر. كان الأمر أسهل بكثير من إخباري بمحتوياتها، وقد تلقيت بدوري الأسرار بهدوء وتكتم لكنني التهمت تلك الحروف الثمينة بعيني ولم أتركها تذهب إلى أن أحفظ محتوياتها في ذهني، وعندما أصل إلى المنزل أدوّن أهم المقاطع في مذكراتي لتكون من بين حوادث اليوم الرائعة.

جلبتْ أولى هذه الرسائل خبرًا عن انتكاسة خطيرة لمرض السيد هانتينغدون، وكان ذلك نتيجة استمراره بالانغماس في الشراب. اعترضتْ عبثًا، وعبثًا خلطت نبيذه بالماء، لكن كانت حججها وتوسلاتها مصدر إزعاج له، وكان تدخّلها إهانةً لا تطاق إلى درجة أنه عندما اكتشف أنها

قد خففت سرًّا النبيذ الذي أحضرته ألقى الزجاجة من النافذة وأقسم أنه لن يُعرّض للغش مثل الأطفال، وأمر الخادم تحت وطأة الفصل الفوري بإحضار زجاجة من أقوى أنواع النبيذ من القبو وأكد أن يكون معتّقًا، بقي ممسكًا بكأسٍ في يد والقنينة في الأخرى ولم يضعهما إلى أن أفرغ القنينة. كانت الأعراض المقلقة هي النتيجة المباشرة لهذا «التهور»، كما وصفته بشكل مهذب. الأعراض التي زادت بدلًا من أن تتضاءل منذ ذلك الحين كانت سبب تأخرها في الكتابة لأخيها. لقد عادت كل سمة سابقة لمرضه وبضراوة متزايدة: الجرح الخارجي الذي كان قد شُفي نصفه عاد وانتشر من جديد مسببًا التهابًا داخليًّا قد يكون قاتلًا إذا لم يُسَيْطَر عليه بأقرب وقت. بالطبع، لم يتحسن مزاج المصاب البائس بهذه الكارثة ـ في الواقع، أظن أنه كان لا يُحتمل، على الرغم من أن ممرضته الطيبة لم تتذمر. قالت إنها اضْطُرت أخيرًا إلى ترك ابنها في عُهدة إستر هارغريف لأنها كانت مضطرة إلى الوجود إلى درجة أنها لم تستطع العناية به بنفسها، وعلى الرغم من أن الطفل توسل للسماح له بالبقاء معها هناك ومساعدتها في رعاية والده، وعلى الرغم من أنها لا تشك في أنه سيكون جيدًا وهادئًا للغاية، فإنها لم تستطع تحمل فكرة إخضاع مشاعره البريئة لهذا الكم من المعاناة أو السماح له بمشاهدة نفاد صبر والده أو سماع الكلمات المروعة التي كان يستخدمها في نوبات الألم أو الانزعاج.

هذا الأخير (تتابع في رسالتها) نادم بشدة على إقدامه على تلك الخطوة التي تسببت في انتكاسته، لكنه كالعادة يلقي باللوم عليّ. يقول إنني لو كنتُ تعاملتُ معه بعقلانية ما كان هذا ليحدث أبدًا، ولكن التعامل معه مثل طفل أو أحمق كان كافيًا لتجاوز صبر أي رجل ودفعه إلى تأكيد استقلاليته حتى على حساب مصلحته، إنه ينسى عدد المرات التي رأيته فيها «يتجاوز صبره» من قبل. في الليلة الماضية، بينما كنت قد أحضرت له بيرة لتسكين عطشه

الشديد، قال بسخريته المرة المعتادة: «نعم، أنتِ يقظة جدًّا الآن! أفترض أنه لا يوجد شيء ترفضين فعله من أجلي، أليس كذلك؟».

قلت مندهشة بعض الشيء: «أنت تعلم أنني على استعداد لفعل أي شيء لراحتك».

«نعم. الآن تفعلين يا ملاكي الطاهر، لكن عندما تحصلين على مكافأتكِ، وتجدين نفسك آمنة في الجنة في حين أعوي أنا في نار الجحيم، هل ستحرّكين إصبعًا لخدمتي حينها؟ لا، سوف تنظرين بفوقية إليّ بنظرة لا تفوق غمس طرف إصبعك في الماء لتبريد لساني!».

«إذا كان الأمر كذلك، فسيكون بسبب الهُوّة الكبيرة التي لا يمكنني تجاوزها، أما إذا أردتني أن أنظر إليك برضًا فسيكون ذلك فقط من خلال تأكيد تطهّرك من خطاياك، وتهيئة نفسك للاستمتاع بالسعادة التي أستمتع بها. لكن، هل أنت متيقن يا آرثر أنني لن أقابلك في الجنة؟».

«مممممم! لكن ماذا سأفعل هناك؟ أود أن أعرف؟».

«في الواقع، لا أستطيع أن أقول، وأخشى أنه من المؤكد أن أذواقك ومشاعرك ستتغير على نطاق واسع قبل أن تتمكن من الاستمتاع بأي شيء هناك. لكن هل تفضل الغرق دون جهد في حالة العذاب التي تتخيلها لنفسك؟».

قال بازدراء: «أوه، كلها أساطير».

«هل أنت متأكد آرثر؟ هل أنت متأكد تمامًا؟ لأنه إذا كان هناك شك، ووجدت نفسك مخطئًا بعد كل شيء، سيكون قد فات الأوان على العودة...».

قال: «سيكون الأمر محرجًا لي بكل تأكيد، لكن لا تزعجيني الآن لأنني لن أموت بعد»، لكنه بعد ذلك بدقائق أضاف كما لو أنه اصطدم فجأة بالجانب المروّع لهذا الاحتمال المخيف: «هيلين، عليكِ أن تنقذيني!». أمسك يدي

بقوة ونظر إلى وجهي بقلق شديد إلى درجة أن قلبي تألم من أجله ولم أستطع التحدث بسبب الدموع.

***

الرسالة التالية جلبت معلومات تفيد بأن المرض يتزايد بسرعة، وكان رعب الموت الذي يعانيه المسكين ما زال مؤلمًا أكثر من نفاد صبره من الألم الجسدي. لم يتركه جميع أصدقائه لأن السيد هاترسلي عندما سمع عن خطورة حالته جاء لرؤيته من منزله البعيد في الشمال، وقد رافقته زوجته لرؤية صديقتها العزيزة التي انفصلت عنها لفترة طويلة بقدر والدتها وشقيقتها.

أعربت السيدة هانتينغدون عن سعادتها لرؤية ميليسنت سعيدة للغاية وبصحة جيدة. قالت في رسالتها: «هي الآن في منزل أسرتها لكنها غالبًا ما تأتي لرؤيتي. يقضي السيد هاترسلي معظم وقته بجانب سرير آرثر. هذا يبعث فيه شعورًا جيدًا أكثر مما ظننت، ويُظهر تعاطفه الكبير مع صديقه وقدرته العظيمة على مواساته. يحاول أحيانًا أن يمزح ويضحك معه لكن دون جدوى، يشجعه على التحدث عن الأيام الخوالي لتشتيت تركيزه على أفكاره السوداوية الحزينة، لكنه يغرقه في حزن أعمق من ذي قبل، ومن ثم يرتبك هاترسلي ولا يعرف ماذا يقول. قدّم اقتراحًا خجولًا باستدعاء رجل دين من أجله، لكن آرثر لا يوافق على ذلك أبدًا: فهو يعلم أنه رفَض بسخرية تحذيرات رجل الدين الذي أحضرته قبل ذلك، ولا يمكنه أن يحلم باللجوء إليه مجددًا للحصول على المواساة الآن.

يقدم السيد هاترسلي أحيانًا خدماته بدلًا مني، مع ذلك آرثر لا يسمح لي بمغادرة غرفته، هذا الرغبة الغريبة تزداد مع هبوط عافيته: الإصرار على أن أكون دائمًا إلى جانبه. لا أتركه إلا للذهاب إلى الغرفة المجاورة لسرقة ساعة أو نحو ذلك من النوم عندما يكون نائمًا، ولكن حتى في ذلك الحين يطلب أن يُترك الباب مفتوحًا حتى يعرف أنني بالقرب منه. أنا معه الآن حين كتابتي،

وأخشى أن يضايقه ما أفعل. على الرغم من أن السيد هاترسلي يجلس بجانبه أيضًا. جاء الرجل كما قال ليتيح لي أخذ قسط من الراحة والنزول إلى الحديقة في هذا الصباح الفاتر الجميل مع ميليسنت وإستر والصغير آرثر الذي كانت قد أحضرته لرؤيتي. من الواضح أن مريضنا المسكين شعر أنه اقتراح قاسٍ، ومن الممكن أنه شعر أنه من القسوة أيضًا قَبُوله، وعليه قلتُ له إنني سأذهب لتحيّتهم فقط وأعود، فعلت ذلك وتبادلت معهم بضع كلمات خارج الرواق مباشرة واستنشقت الهواء النقي المنعش في حين كنت أقف، ثم قاومت طلبات الثلاثة وإلحاحهم للبقاء لفترة أطول والانضمام إليهم في جولة مشي في الحديقة، انسلخت عنهم وعدت إلى مريضي. لم أكن قد تغيبت أكثر من خمس دقائق، لكنه وبّخَنِي بمرارة على سخفي وإهمالي، هنا صديقه تولى قضيتي، فقال: «كلا يا هانتينغدون، أنت قاسٍ جدًّا عليها. من حقها أن تتغذى وتنام وتتنشق الهواء النقي بين الحين والآخر، وإلا لن تستطيع تحمّلك لوقت طويل. انظر إليها يا رجل! إنها تبدو منهكة بالفعل».

«وما هي آلامها مقارنة بي؟ أنتِ لا تحقدين إليّ بسبب جهدكِ، أليس كذلك يا هيلين؟».

«لا آرثر، إن كان بإمكاني خدمتك بهذا الجهد فأنا مستعدة لبذل حياتي إذا كنت أستطيع».

«هل أنت كذلك؟ مستحيل!».

«بكل إرادتي».

«آه! هذا لأنكِ تعتقدين أنك أكثر ملاءمة واستعدادًا للموت!».

كانت هذه وقفة مؤلمة. من الواضح أنه غارق في انعكاسات قاتمة. لكن بينما كنت أفكر في شيء مفيد لأقوله دون استفزازه، كسر هاترسلي الذي كان عقله يسير في نفس المسار الصمت قائلًا: هانتنغدون، أقترح أن نستدعي أحدًا من الكنيسة، إذا لم تكن راغبًا في استدعاء القس يمكننا استدعاء مساعِدِه، أو أي شخص آخر».

«لا، لا أحد منهم يمكنه أن يساعدني إن لم تنجح هي في ذلك»، تدفقَتِ الدموعُ من عينيه وهو يصيح بتأثر: «أوه هيلين، لو أنني استمعت إليكِ لم أكن لأصل إلى هذه الحال أبدًا! لو كنت قد أصغيت منذ زمن بعيد، يا إلهي! كم كان سيكون كل شيء مختلفًا الآن!».

قلت وأنا أضغط على يده برفق: «فلتصغِ الآن إذن يا آرثر».

قال بيأس: «لقد فات الأوان الآن»، خلال دقائق باغتته نوبة قوية من الألم وبدأ عقله في الشرود إلى درجة أننا خشينا من اقتراب موته، ولكن أعطيناه مادة أفيونية وبدأت معاناته تتلاشى تدريجيًّا وغرق في النوم. عندما استيقظ كان أهدأ. غادر هاترسلي وهو يعرب له عن أمله في أن يجده بحال أفضل عندما يعود غدًا.

وأجابه: «ربما أتعافى، من يعلم؟ وربما كانت هذه هي الأزمة التي تسبق الموت. ما رأيكِ يا هيلين؟».

بسبب عدم رغبتي في مضايقته قدمت أبهج إجابة، لكنني أوصيته بالاستعداد لمقاومة ما كنت أخشى أنه كان مؤكدًا للغاية. لكنه كان مصممًا على الأمل. بعد فترة وجيزة باغته النعاس مجددًا، لكنه الآن يتأوه مرة أخرى.

ناداني إلى جانبه فجأة وبطريقة غريبة إلى درجة أنني كنت أخشى أنه يهذي، لكنه لم يكن كذلك. «كانت تلك هي الأزمة، هيلين!»، قال بسرور. «كنت أعاني من ألم جهنمي ـ لكنه ذهب تمامًا الآن. لم أشعر أبدًا بهذه الراحة منذ وقوع الحادثة». شبك يدي وقبّلها بملء قلبه، لكنه فوجئ أنني لم أشاركه فرحته، لذا سَرعان ما ألقى بها وبدأ في شتمي ووصفي بعديمة الإحساس. بمَ يمكنني الرد؟ ركعت بجانبه وأخذت يده وضغطت عليها باعتزاز بشفتي ـ لأول مرة منذ انفصالنا ـ وأخبرته كلما سمحت لي الدموع أن أتكلم أن ما أبقاني صامتة لم يكن هذا، بل كان الخوف من أن هذا التوقف المفاجئ للألم لم يكن أمرًا مبشِّرًا كما كان يفترض به أن يكون. أرسلت على الفور

للطبيب ونحن الآن ننتظره بفارغ الصبر. سوف أكتب لك ما يقوله. ما زال يشعر بالتحرر من الألم وانعدام الإحساس به، حيث كانت المعاناة أحدّ.

ها هي أسوأ مخاوفي تتحقق، لقد بدأ بالاحتضار. قال الطبيب أن لا أمل له. لا توجد كلمات يمكن أن تصف حالته. لا أستطيع أن أكتب أكثر.

***

كان فحوى الرسالة التالية أحزن، حيث كان يقترب بسرعة من النهاية. وصل إلى حافَةِ تلك الهوة الفظيعة التي كان التفكير فيها يجعله يرتجف، والتي لا يمكن للصلاة أو البكاء إنقاذه منها ولا شيء يمكن أن يريحه الآن. كانت محاولات هاترسلي الشاقة لتسليته بلا جدوى في هذه المرحلة. لم يكن العالم يمثل له شيئًا: الحياة بكل اهتماماتها، وهمومها الصغيرة، ومتعها العابرة، جميعها كانت أشبه باستهزاء قاسٍ. فالحديث عن الماضي كان يعذّبه بندم لا طائل منه، في حين أن الإشارة إلى المستقبل كانت تزيد كربه. مع ذلك، تَرْكُه للصمت كان بمثابة رميه كفريسة لمخاوفه الشرسة. غالبًا ما كان يفكر بدقّة مرتجفة في مصير طينه، والتحلل البطيء التدريجي الذي يغزو هيكله، والكفن، والتابوت، والقبر المظلم المنعزل، وكل أهوال الفساد.

تقول زوجته المنكوبة: «إذا حاولت صرفه عن هذه الأفكار، ورفع معنوياته بالتفكير في جوانب أخرى يَئِن قائلًا: «هذا أسوأ وأسوأ، إذا كان هناك حقًّا حياة بعد الموت فكيف لي أن أواجهها؟»، لا يمكنني أن أقدم له أي خير لأنه لا يستنير ولا يهدأ بأي شيء أقوله، ومع ذلك فهو متشبث بي بإصرار لا هوادة فيه وبنوع من اليأس الطفولي كما لو كان بإمكاني إنقاذه من المصير الذي يخشاه، ويبقيني إلى جواره ليلًا ونهارًا. في هذه اللحظة، بينما أكتب، يمسك بيدي اليسرى وهو هكذا من ساعات. أحيانًا بهدوء يلتفت بوجهه الشاحب نحوي، وأحيانًا يمسك ذراعي بعنف وقطرات كبيرة من العرق تبدأ بالتشكل

على جبينه بسبب أفكار تراوده، أو يعتقد أنه يرى أمورًا أمامه، وإذا ما سحبتُ يدي للحظة يفزع.

«ابقَيْ معي يا هيلين، دعيني ممسكًا بيدكِ، أشعر كما لو أن الأذى لا يصلني أثناء وجودك هنا. لكن الموت سيأتي، إنه آتٍ الآن، سريع وخاطف! أوه، لو كنت قادرًا على تصديق أن لا شيء هناك بعد الموت!».

«لا تحاول تصديق ذلك آرثر. هناك فرح ومجد بعد ذلك، إن شئتَ حاول الوصول إليه!».

«وماذا هناك لي؟»، قال بسخرية مريرة. «أليست أعمالنا هي المقياس؟ أين الفائدة من الاختبار إذًا إن كان بإمكان الانسان أن يقضي حياته كما يشاء خلافًا لأوامر اللّٰه، ثم يدخل الجنة مع الأفضل وينال مكافأة أقدس قِدّيس فقط بقول «إنني أتوب»».

«ولكن، إذا كانت توبةً صادقة...».

«لستُ تائبًا، أنا خائف فقط».

«هل أنت نادم على أفعال الماضي بسبب عواقبها؟».

«بالضبط ـ ثم إنني آسف لظلمك يا هيلين، لطالما كنتِ طيبة معي».

«فكر فقط في رحمة اللّٰه، ولا تحزن إلا لأنك أسأت إليه».

«ما هو اللّٰه؟ لا أستطيع رؤيته أو سماعه، اللّٰه مجرد فكرة».

«اللّٰه هو الحكمة اللا نهائية، والعظمة، والرحمة، والمحبة. لكن إذا كانت هذه الفكرة واسعة جدًّا بالنسبة لك بحيث تُفقد عقلك تركيزه، فثبّتها على من أكرمنا اللّٰه بوجوده بيننا، الذي رُفِع إلى السماء بجسده المجيد، والذي من خلاله يصلنا نور اللّٰه. هز رأسه فقط وتنهد. ثم دخل في نوبة أخرى من الرعب المرتعش وشد قبضته على يدي وهو يئن ويبكي، وبقي متشبثًا بي بتلك الجدية اليائسة المروعة جدًّا لروحي، لأنني أعرف أنني لا أستطيع مساعدته. لقد بذلتُ قصارى جهدي لتهدئته وتسكينه.

صرخ قائلًا: «الموت فظيع جدًّا... لا يمكنني تحمل هذا! أنتِ لا تدركين يا هيلين، لا يمكنكِ تخيل ماهيّته لأنكِ لم تمرّي به من قبل! عندما أُدفن ستعودين إلى حياتكِ وستكونين سعيدة كما كنتِ دائمًا، وستستمر الحياة كأنما لم أكن، في حين أنني...»، وانفجر في البكاء.

قلت: «لا تدع هذا يوجعك، جميعنا سوف نتبعك».

«أتمنى من اللّٰه أن آخذك معي»، صاح: «يمكنكِ أن تشفعي لي».

أجبته: «لا يقدر أحد أن يشفع لآخر، الشفاعة تكلّف أكثر من ذلك، تكلف دمًا كدم المسيح الطاهر الذي حرّرنا من عبودية الشر، أرجو أن يشفع هو لك»، لكن يبدو أنني كنت أتحدث عبثًا فهو لا يضحك الآن كما في السابق على هذه الحقائق المباركة، لكنه ما زال غير قادر على الوثوق بها أو استيعابها. إنه يتألم بشدة وكذلك من حوله. لكنني لن أضايقك بمزيد من التفاصيل، فقد قلت ما يكفي على ما أعتقد لترى بأنني أحسنتُ بالعودة إليه».

***

يا لهيلين المسكينة! لا بد أن ما كانت تمر به مروّعٌ، ولم يكن بإمكاني فعل أي شيء للتخفيف عنها. بل بدا كما لو كنت قد جلبتهُ عليها من خلال رغباتي السرية فيما يتعلق بمعاناة زوجها.

في اليوم التالي، وصلت رسالة أخرى. هذه أيضًا وُضِعَت بين يدي دون ملاحظة، وهذه هي محتوياته:

5 ديسمبر.

لقد رحل. بقيت جالسة بجانبه طوال الليل ويدي في يده، أراقب تغيرات ملامحه وأستمع إلى أنفاسه المتعبة. لقد كان صامتًا لفترة طويلة واعتقدْتُ أنه لن يتحدث مرة أخرى أبدًا، إلى أن تمتم بصوت خافت ولكن واضح: «صلي من أجلي هيلين!».

«أنا أصلي من أجلك في كل ساعة وكل دقيقة يا آرثر، لكن يجب أن تصلي من أجل نفسك أيضًا».

تحركت شفتاه ولكن لم يُصدر صوتًا ثم اضطربت نظراته، ومن الكلمات غير المتماسكة نصف المنطوقة التي كانت تهرب منه من وقت إلى آخر افترضت أنه فقد الوعي، لذلك فَكَكْتُ بلطف يدي من يده عازمةً على الخروج قليلًا لاستنشاق الهواء، لأنني كنت على وشك الإغماء من التعب، لكنه حرك أصابعه المتشنجة وهمس «لا تتركيني!»، احتضنتُ يدَه مرةً أخرى واحتفظت بها حتى رحل. أغمي عليّ بعد ذلك، لم يكن جراء الحزن بل الإرهاق. حتى ذلك الحين، تمكنتُ من القتال بنجاح. أوه يا فريدريك! كيف لي أن أتحمل فكرة أن تلك النفس المسكينة المرتجفة قد سِيقَت إلى العذاب الأبدي؟ من شأن هذا أن يدفعني إلى الجنون. لكن الحمد لله لديّ، أمل ليس فقط في احتمال نيله التوبة والعفو، بل الثقة بأن الله لا يكره شيئًا خلقه، ولذلك سوف يكرمه بالعفو والراحة في النهاية.

سيُوضَع جسده يوم الخميس في ذلك القبر المظلم الذي كان يخاف منه كثيرًا، وسيُغلَق التابوت في أسرع وقت ممكن. إنْ كنتَ ستحضر الجنازة فاقدم بسرعة، فأنا بحاجة إلى المساعدة.

هيلين هانتينغدون.

الفصل الخمسون

عند قراءة هذا لم يكن لدي سبب لإخفاء فرحتي وأملي من فريدريك لورانس، لأنه لم يكن لدي ما أخجل منه. لم أشعر بالفرح إلا لأن شقيقته قد انعتقت من آلامها وستتعافى في الوقت المناسب من آثار كل ما جرى عليها، لتحيا بسلام وهدوء على الأقل لِمَا تبقّى من حياتها. لقد عانَتْ بما فيه الكفاية من مواساتها المؤلمة لزوجها التعيس (على الرغم من اقتناعي أنه جلب كل جزء من معاناته على نفسه واستحقها) بتعاطفها مع آلامه، وقلقها عليه من عواقب أفعاله، وتلك الإساءات المروعة، وذلك الحبس المستمر والمؤذي بجانب جثة حية، لأنني كنت مقتنعًا بأنها لم تتحدث عن نصف المعاناة التي كان عليها تحملها.

«هل ستذهب إليها لورانس؟»، قلت وأنا أضع الرسالة في يده.

«طبعًا، على الفور».

«حسنًا، سأتركك إذن لتستعد».

«لقد فعلتُ ذلك بالفعل حين كنتَ تقرأ الرسالة وقبل مجيئك، العربة تقترب الآن من الباب».

تمنيتُ له نهارًا طيبًا وانسحبت. ألقى نظرة مستفسرة عليّ حين كنا نتصافح عند التوديع، لكن أيًا كان ما بحث عنه في وجهي، فإنه لم يرَ شيئًا سوى الصرامة والاستياء مما شعرت أنه يفكر به. هل يظن أنني نسيتُ حبي وآمالي القوية؟ عودتي إليها الآن ستكون أشبه بتدنيس للمقدسات، لكن هذا لا يعني مطلقًا أنني نسيتها. مع ذلك، تأثرتُ بشعور كئيب عندما ركبت حصاني وعدت ببطء إلى المنزل.

أصبحت السيدة هانتينغدون حرة الآن وعاد لا يكون التفكير فيها جريمة، لكن هل فكرتْ هي بي يومًا؟ ليس الآن ـ بالطبع لم يكن ذلك متوقعًا ـ ، لكن هل كانت ستفعل عندما تنتهي هذه الصدمة؟ في جميع مراسلاتها مع شقيقها (صديقنا المشترك كما وصفته) لم تذكرني أبدًا إلا مرة واحدة، وكان ذلك للضرورة. لقد وفّر هذا وحده افتراضًا قويًا بأنني مَنسيٌّ بالفعل. مع ذلك، لم يكن هذا هو الأسوأ، ربما كان إحساسها بالواجب هو الذي جعلها صامتة، أو ربما كانت تحاول النسيان فقط، ولكن بالإضافة إلى ذلك كان لدي اقتناع بأن الأهوال التي رأتها وشعرت بها، ومصالحتها مع الرجل الذي أحبته ذا يومٍ، ومعاناته المروعة وموته ـ لا بد أنها كلها محت في النهاية من عقلها كل آثارٍ حبها له. قد تتعافى من هذه الفظائع وتستعيد صحتها السابقة وهدوءها واستمتاعها بالحياة، ولكن لن تستعيد المشاعر التي ستبدو لها الآن كحلم خيالي عابر ووهمي، خاصة أنه لم يكن هناك من يذكّرها بوجودي أو وسيلة تطمأنها أنني ما زلت ثابتًا على موقفي وعهدي، والآن بعد أن أصبحنا بعيدَيْن جدًا، ومنعتني الظروف من رؤيتها أو الكتابة إليها لشهور، كيف يمكنني الطلب من أخيها التوسّط لي؟ كيف يمكنني كسر تلك القشرة الجليدية التي تكونت من الخجل؟ ربما لن يوافق على ارتباطنا الآن بقدر ما كان يفعل في السابق، ربما يرى أنني فقير بالنسبة إليها ووُلِدْتُ متواضعًا جدًّا بحيث لن أكون لائقًا بشقيقته. ثم كان هناك حاجز آخر: بلا شك، كان هناك فرق كبير بين منزلة وظروف السيدة هانتينغدون، سيدة غراسديل، وظروف السيدة غراهام، الفنانة مستأجرة وايلدفيل. ربما يُفترض أن أمدّ يدي إلى الأولى من قِبل العالم وأصدقائها، إن لم يكن قبلها أيضًا، وستكون خطوة شجاعة إن كنت متيقنًا من حبها لي، لكن كيف يمكنني ذلك؟ وأخيرًا، ربما يكون زوجها المتوفَّى بأنانيته المتوقَّعة قد فرض في وصيّته قيودًا على زواجها مرة أخرى. وهكذا، يمكنك أن تدرك أن لدي أسبابًا كافية للشعور باليأس إن اخترتُ الانغماس في ذلك.

في خضم كل ذلك، أتعبني نفادُ الصبر وأنا أتطلع إلى عودة لورانس من غراسديل، نفاد صبرٍ تفاقم بسبب غيابه لفترة طويلة، لأنه بقي معها عشرة أو اثني عشر يومًا. أتفهم جيدًا أن من واجبه البقاء بقرب شقيقته والاعتناء بها ومساعدتها، لكن لا ضير في الكتابة إليّ وطمأنتي أيضًا، أو على الأقل إبلاغي عن موعد عودته المتوقعة، لأنه كان يعلم مدى قلقي عليها وعدم يقيني بشأن القادم. عندما عاد كان كل ما أخبرني عنها هو أنها مرهقة للغاية بسبب التزاماتها ومسؤولياتها المستمرة إلى الآن نيابة عن ذلك الرجل الذي كان بلاءَ حياتِها وبقي كذلك حتى وهو في القبر، ولكن لا كلمة عني.. لا إشارة إلى أن اسْمِيَ قد مر على شفتيها أو حتى قِيلَ في حضورها. من المؤكد أنني لم أطرح أية أسئلة حول هذا الأمر، ولم أستطِع التفكير في القيام بذلك معتقدًا أن لورانس كان يكره فكرة اتحادي مع شقيقته.

لاحظت أنه كان يتوقع أن استجوبه أكثر بشأن زيارته، ورأيت أيضًا مع إدراكه لغيرتي المستيقظة أو تقديري المرتبك لذاتي، أو أيًا كان ما يمكنني تسميته، أنه كان يتجنب التدقيق ويسعده أنني لم أفعل. بالطبع، كنت أحترق من الغضب لكن كبريائي أجبرني على قمع مشاعري والحفاظ على استرخاء ملامحي، أو على الأقل على الهدوء الرزين طوال زيارتي. لقد كان هذا جيدًا، لأنني بعد مراجعة الأمر في تقديري لا بد لي من القول إنه من السخف وغير اللائق التجادل معه في مثل هذه الظروف. يجب أن أعترف أيضًا أنني ظلمته بظنوني: الحقيقة هي أنه كان يحبّني ويقدّرني جدًّا، لكنه كان مقتنعًا أيضًا أن ارتباطنا أنا والسيدة هانتينغدون سيكون ما يسميه العالم بالخطأ، ولم تكن طبيعته تميل إلى الدخول في مواجهات مع العالم خاصة في مثل هذه الحالة. مواجهة الضحكات، والافتراءات والآراء البغيضة ستكون أفظع بالنسبة إليه إذا كانت موجّهةً ضد شقيقته. لو يعلم فقط كم سنسعد إن اتحدنا، لو يعرف مدى شغفي بها لكان قد تصرف بشكل مختلف، ولكن عندما رآني هادئًا لم

يزعج نفسه بفلسفتي. بالإضافة إلى أنه، على الرغم من امتناعه عن إبداء أية معارضة لارتباطنا، لم يفعل شيئًا لتحقيقه، وفضّل الالتزام بدور المستشار الحكيم لمساعدتنا على التغلب على ميولنا المتبادلة بدلًا من تشجيعها، بالطبع ستقول: «وكان على حق في ذلك»، ربما كان على أي حال، لم يكن لدي أي شيء ضده لكنني لم أستطع النظر إلى الأمر بمثل هذا التفكير المعتدل. بعد محادثة قصيرة حول موضوعات غير مهمة، غادرتُ وأنا أعاني من آلام الكبرياء والصداقة المجروحة، بالإضافة إلى تلك الناتجة عن الخوف من نسيانها لي بالفعل، ومعرفة أن المرأة الوحيدة التي أُحِبّها كانت وحيدةً وحزينة. كنتُ أعاني صحيًّا ومعنويًّا، وممنوعًا من مواساتها أو مساعدتها، ممنوعًا حتى من أن أؤكد لها تعاطفي، لأن نقل أي رسالة من هذا القبيل من خلال لورانس أصبح الآن غير وارد مطلقًا.

لكن ماذا عليّ أن أفعل؟ يمكنني أن أنتظر وأرى ما إذا كانت ستنتبه لي، وهو ما لن تفعله بالطبع، إلا إنْ كانت قد أرسلت بالفعل رسالة لطيفة أثارت اهتمام شقيقها والتي على الأرجح لم يسلمها لي، وبعد ذلك بدأت الأفكار المروّعة في التراقص في ذهنها، اعتقدتْ أنني شعرتُ بالفتور وتغيرتُ عندما لم تتلقَّ أي رد مني، أو ربما كان هو قد أعطاها بالفعل انطباعًا أنني عدتُ لا أفكر فيها. مع ذلك سأنتظر حتى مرور ستة شهور على فراقنا بشكل محدد (والذي سيكون تقريبًا في نهاية فبراير)، وبعد ذلك أرسل لها رسالة لتذكيرها بتواضع بسماحها السابق لي للكتابة إليها عند انتهاء المدة. آمل أن أتمكن من الاستفادة منها على الأقل للتعبير عن حزني العميق لمرورها بمحنتها الأخيرة، وتقديري الكبير لسلوكها السخي، وأملي بأن تستعيد عافيتها تمامًا وأن تعود إلى الاستمتاع بنِعَمِ الحياة السعيدة والهادئة التي حُرِمَت منها لفترة طويلة مضيفًا بضع كلمات من التذكر اللطيف لصديقي الصغير آرثر آملًا أنه لم ينْسَنِي، وربما أذكر أكثر من ذلك في إشارة إلى الأوقات الماضية

والساعات الممتعة التي مررنا بها معًا وذكرياتها التي كانت طوال هذا الوقت عزائي الوحيد في حياتي، وأمنياتي ألا تكون المصاعب الأخيرة قد نجحت في طردي تمامًا من فكرها. إذا لم تجب عن هذا السؤال فلا ينبغي بالطبع أن أكتب أكثر من ذلك، أما إذا فعلتْ (وستفعل بالتأكيد) فإن الرد هو ما سيحدد إجراءاتي المستقبلية.

كانت عشرة أسابيع طويلة للبقاء منتظرًا في مثل هذه الحالة البائسة من عدم اليقين. لكن الشجاع يتحمل! وفي غضون ذلك، كنت سأستمر في رؤية لورانس بين الحين والآخر وإن لم يكن كما كان من قبل. ما زلت أتابع استفساراتي المعتادة عن شقيقته، إن كان قد سمع منها مؤخرًا، وكيف أصبحت، ولكن لا شيء أكثر من ذلك.

لقد فعلت ذلك وكانت الإجابات التي أتلقاها دائمًا تقتصر بشكل محدد على الاستفسار. كالعادة، لم تقدم أي شكوى، لكن نبرة رسالتها الأخيرة كانت تشي باكتئاب شديد. قالت فيها إنها كانت بحال أفضل ومنشغلة بتعليم ابنها وإدارة ممتلكات زوجها الراحل وتنظيم شؤونه. لم يخبرني الوغد أبدًا كيف تُخُلِّصَ من تلك الممتلكات أو ما إذا كان السيد هانتينغدون قد مات دون ترك وصية أو لا، لكنني أفضل الموت على أن أسأله لِئَلّا يسيء فهم رغبتي في المعرفة ويعتقد أنه بدافع الطمع. عاد لا يريني رسائلها ولم ألمّح بدوري أبدًا إلى الرغبة في رؤيتها. شهر فبراير كان يقترب على كل حال، بضعة أسابيع أخرى وبعد ذلك سيضع اليأس أو تجديد الأمل حدًّا لعذاب التشويق الطويل هذا.

لكن للأسف، استُدْعِيَت في هذا الوقت تحديدًا لتلقي ضربة أخرى بوفاة زوج خالتها، وهو رجل أجرؤ أن أقول إنه عجوز لا قيمة له، لكنه أظهر لها دائمًا لطفًا ومودة كبيرين واعتادت اعتباره في مقام والدها. كانت معه عندما مات وساعدت زوجته على الاعتناء به خلال المرحلة الأخيرة من مرضه.

ذهب شقيقها إلى ستاننغلي لحضور الجنازة وأخبرني عند عودته أنها ما تزال هناك وتحاول تسلية خالتها بحضورها والتخفيف عنها، ومن المرجح أن تبقى هناك لبعض الوقت. كان هذا خبرًا سيئًا بالنسبة إليّ، فما دامت هناك لا أستطيع الكتابة إليها، حيث لم أكن أعرف العنوان ولن أسأله عنه. لكن مرت أسابيع تلتها أسابيع، وفي كل مرة أستفسر عنها كانت ما تزال في ستاننغلي.

«أين ستاننغلي؟»، سألته أخيرًا.

كان الرد المختصر «في ـ شاير». كان هناك شيء بارد وجاف في أسلوبه، إلى درجة أنني تراجعت فعليًّا عن طلب أي تحديد.

«متى ستعود إلى غراسديل؟»، كان سؤالي التالي.

« لا أعرف».

«محيّر!»، تمتمت.

«لماذا يا ماركهام؟»، سأل رفيقي وهو متفاجئ بصدق. لكنني لم أجبه إلا بنظرة من الازدراء الصامت المتجهم الذي جعله يثبت نظره إلى السجادة بابتسامة خفيفة، نصف متأمل ونصف مستمتع، لكن سرعان ما عاد إلى الخوض في مواضيع أخرى محاولًا جذبي إلى محادثة مرحة وودية، لكن انزعاجي كان يمنعني من مواصلة التحدث معه، لذا سرعان ما غادرت.

في الواقع، لم نتمكن لورانس وأنا من تحقيق الانسجام بعضنا مع بعض بشكل جيد. الحقيقة هي أننا كلانا مفرِطًا الحساسية. إنه أمر مزعج يا هالفورد، هذه القابلية للشعور بالإهانة حتى عندما لا يكون هذا هو القصد من وراء الكلام. لكنني عدتُ لا أكون كذلك، كما يمكنك أن تشهد لي، وتعلمت أن أكون مرحًا وحكيمًا، وأن أكون أسهل مع نفسي ومن حولي، ويمكنني أن أضحك عليكما كلاكما، لورانس وأنت.

بسبب الإهمال المتعمد من جانبي (لأنني بدأتُ حقًا في كرهه)، انقضتْ

عدة أسابيع قبل أن أرى صديقي مرة أخرى. عندما التقينا كان هو الذي طلب رؤيتي. ذا صباحٍ مشرق وفي وقت مبكر من شهر يونيو، جاء إلى الحقل حيث كنت بدأت للتوّ حصاد القش.

قال بعد كلمات التحية الأولى بيننا: «لقد مر وقت طويل منذ أن رأيتك يا ماركهام. ألا تنوي المجيء إلى وودفورد مرة أخرى؟».

«أتيت مرة وكنتَ في الخارج».

«آسف لذلك، لكن هذا كان منذ وقت طويل، كنت أتمنى أن تعود مرة أخرى. وقد ذهبت إلى منزلك لزيارتك وأخبروني أنك بالخارج، ونظرًا إلى كوني مصممًا على رؤيتك هذه المرة فقد تركت حصاني في الممر وتجاوزت السياج للانضمام إليك، لأنني على وشك مغادرة وودفورد لفترة من الوقت وقد لا أسعد برؤيتك لمدة شهر أو شهرين».

«إلى أين ستذهب؟».

قال: «إلى غراسديل أولًا»، بنصف ابتسامة لم يستطع إخفاءها.

«إلى غراسديل؟ هل هي هناك إذن؟».

«نعم، في غضون يوم أو يومين ستتركها لمرافقة السيدة ماكسويل للاستمتاع بإجازة قرب البحر وسأذهب معهما» (ذكر لي اسم مكان كان آنذاك منطقة هادئة ومنعزلة قرب البحر، لكنه أصبح منتجعًا يتردد عليه الناس الآن بشكل ملحوظ).

بدا أن لورانس يتوقع مني أن أستغل هذا الظرف لأوكل إليه رسالة من نوع ما إلى شقيقته، وأعتقد أنه كان سيتعهد بتسليمها دون أي اعتراضات، على الرغم من أنه بالطبع لن يَعرض القيام بذلك. لكنني لم أتمكن من طلب ذلك منه، ولم أعِ حماقة إضاعتي لهذه الفرصة إلا بعد مغادرته. ندمتُ بشدة على غبائي وكبريائي الأحمق، لكن الوقت قد فات على فعل شيء.

لم يعد إلى نهاية شهر أغسطس. كتب لي مرتين أو ثلاث مرات من هناك، لكن رسائله كانت غير مرضية، حيث كان يتطرق فيها إلى أمور عامة، تفاهاتٍ لم أكن مهتمًّا بها، أو مملوءة بالتأملات التي لم يكن مرحبًا بها في ذلك الوقت تحديدًا، ثم يقول القليل عن نفسه، والأقل عن شقيقته. مع ذلك، كنتُ أنتظر عودته. ربما أتمكن آنذاك من الحصول على شيء منه. في جميع الأحوال، لن أكتب لها بينما هي معه وخالتها التي ستظل بلا شك أكثر عداءً لتطلعاتي منه. عندما تعود إلى صمت وعزلة منزلها ستكون فرصتي الأفضل قد حانت.

عندما عاد لورنس كان متحفظًا كما كان دائمًا فيما يتعلق بقلقي الشديد. أخبرني أن شقيقته استفادت هي وابنها كثيرًا من تلك الإجازة، وأنهما كلاهما بصحة جيدة. للأسف، كلاهما قد رافقا السيدة ماكسويل إلى ستانغلي وسيبقيان هناك لمدة ثلاثة أشهر على الأقل. لكن بدلًا من أن أضايقك باستيائي، وتوقعاتي، وخيبة أملي، وتذبذبي بين اليأس والأمل، وقراراتي المتقلقلة بين التخلي عنها والمثابرة للوصول إليها، أو ترك الأمور تمر والالتزام بالصبر - بدلًا من كل ذلك، دعني أحدثك عما حدث لشخصية أو اثنتين من الشخصيات التي ذكرتها في هذه الرسائل، والتي قد لا تتاح لي الفرصة لذكرها مرة أخرى.

قبل وقت قصير من وفاة السيد هانتينغدون، هربتْ ليدي لوبورو مع رجل آخر إلى القارة، وبعد فترة من حياة التهور والتبديد تشاجرا وافترقا. استمرت على ذات المنوال لموسم آخر، ولكن مع الوقت انتهى المال وغرقت في الضيق والديون والعار، ثم ماتت مؤخرًا كما سمعت، في فقر وإهمال وبؤس مطلق. لكن هذا قد يكون مجرد كلام، ربما ما زالت على قيد الحياة وتعيش بحال مختلفة عما يتداوله الناس، سواء كانوا أقاربها أو معارفها السابقين، لأنهم جميعًا فقدوا الاتصال معها منذ سنوات طويلة وربما كانوا يريدون نسيانها تمامًا إذا استطاعوا. لكن زوجها بعد تلك الجنحة الثانية سعى على

الفور إلى الحصول على الطلاق وتزوج مرة أخرى بعد فترة وجيزة. لقد كان ذلك جيدًا له لأن اللورد لوبورو الكئيب والمزاجي كما يبدو لم يكن الرجل الذي ينسجم مع أسلوب الحياة الصاخب. لا توجد مصالح عامة أو مشاريع طموحة أو حتى روابط صداقة (إذا كان لديه أصدقاء) يمكن أن تعوضه عن غياب وسائل الراحة والألفة، على الرغم من أن أنابيلا الشابة الطائشة كانت مصدر مرارة دائمة لروحه، فإنه كان قد ألزم نفسه بمعاملتها بلطف أبوي حيث أجبر نفسه على عدم كرهها، بل ربما كان يشعر بنوع من الاحترام تجاهها، اللّٰه وحده وهو فقط عندهما علم ذلك.

كان بالإضافة إلى ذلك يعاني من قسوة صراعه مع إغراءات العودة إلى رذائل الماضي والسعي إلى نسيانها، ويعيش حياة بلا صداقة وعقل بائس بسبب الاستسلام مرة أخرى لذلك العدو الخبيث للصحة والحس والفضيلة، والذي استعبده وأذله بشكل مؤسف أكثر من قبل.

كانت المرأة الثانية التي اختارها مختلفة بشكل كبير عن الأولى إلى درجة أن البعض تساءل عن ذوقه. حتى إن البعض سخر منها، لكن في هذا كانت حماقتهم أوضح من حماقته. كانت السيدة في سنّه تقريبًا ـ أي بين الثلاثين والأربعين ـ ، ليست رائعة بالجمال الخارجي أو الثروة أو الإنجازات، باستثناء الحس السليم، والنزاهة التي لا تتزعزع، والتقوى، وحب الخير. مع ذلك، فإن هذه الصفات التي قد تراها سهلة قد اجتمعت لتجعلها أمًّا ممتازة للأطفال وزوجة لا تقدر بثمن له. هو مع استخفافه المعتاد بنفسه كان يراها كعالَمٍ جيد جدًّا يحويه، في حين كان يتساءل عن سبب لطف العناية الإلهية في منحه مثل هذه الهدية، وحتى سبب تفضيله على الرجال الآخرين، وعليه قدم لها الأفضل ورد بالمثل على الخير الذي كانت تقدّمه له، وبذلك نجحت أن تكون إلى الآن واحدة من أسعد الزوجات في إنجلترا، وكل من يشكك في اختيارهما بعضهما لبعض

سيقدّر حكمتهما إذا كانت اختياراتهم تمنحهم نصف الرضا الحقيقي الذي يتمتعان به.

إذا كنت مهتمًا على الإطلاق بمصير ذلك الوغد غريمسبي، فلا يسعني إلا أن أخبرك أنه انتقل من حال سيئ إلى أسوأ، حيث غرق في عالم الرذيلة والنذالة، وانخرط مع أسوأ أعضاء ناديه وأكثرهم انفلاتًا في المجتمع، ولقي نهايته أخيرًا في شجار بين مخمورين، حيث لقي حتفه على أيدي بعض الأوغاد الذين كان قد خدعهم في اللعب. أما بالنسبة إلى السيد هاترسلي، فلم ينسَ أبدًا قراره «بالخروج من بينهم، والتصرف كمسيحي صالح»، وكان لمرض وموت صديقه المرح هانتينغدون أثر عظيم في تمسّكه بقراره، وتجنبًا لإغراءات المدينة واصل حياته في الريف منغمسًا في الانشغالات والنشاطات المعتادة لأي رجل ريفي، امتهن الزراعة وتربية الخيول والماشية، ويستمتع برحلات الصيد والرماية برفقة أصدقائه (أصدقاء أفضل من أصدقاء شبابه) ومجتمع زوجته السعيدة وعائلته الطيبة المكونة من الأبناء الأقوياء والبنات المتفتحات. والده المصرفي توفي قبل بضع سنوات تاركًا له كل ثروته، وأصبح لديه الآن مجال كامل لممارسة هواياته وتحقيق أحلامه، ولست بحاجة إلى إخبارك أن رالف هاترسلي يُحتَفَى به في جميع أنحاء البلاد بسبب امتلاكه لسلالته النبيلة من الخيول.

الفصل الحادي والخمسون

دعنا ننتقل الآن إلى فترة ما بعد الظهيرة الباردة والغائمة من بداية شهر ديسمبر، عندما بدأ أول تساقط للثلج بشكل خفيف فوق الحقول والطرق، وتشكّل بشكل أكثف في تجاويف العربات وآثار خطى الرجال والخيول في وحل أمطار الشهر الماضي الغزيرة. أتذكر ذلك جيدًا لأنني كنت عائدًا إلى المنزل من منزل القس برفقة شخصية رائعة: الآنسة إليزا ميلوارد. كنت قد ذهبت للاستئذان من والدها، استجابة لطلب أمي وليس برغبة مني، لأنني كنت أكره الاقتراب من منزلهم، ليس فقط بسبب كراهيتي لإليزا ولكن لأنني لم أغفر للرجل العجوز نفسه افتراءه السيئ على السيدة هانتينغدون، على الرغم من أنه مضطر الآن إلى الاعتراف بأنه كان مخطئًا في حكمه السابق، فإنه بقي يؤكد أنها أخطأت بترك زوجها، وكان ذلك الفعل انتهاكًا لواجباتها المقدسة كزوجة وتجاوزًا للتعليمات الإلهية من خلال تعريض نفسها للإغراء، ليس هناك أي سوء معاملة يمكنه تبرير القيام بمثل هذه الأفعال، لأنه في مثل هذه الحالة يجب عليها أن تلجأ إلى القانون من أجل نيل الحماية. لكنني لم أكن هناك للتحدث معه، بل مع ابنته إليزا عندما كنت آخذ الإذن منه. عندما دخلت الغرفة وهي جاهزة للنزهة قالت: «لقد كنت ذاهبة للتو لرؤية شقيقتك سيد ماركهام، إذا لم يكن لديك أي اعتراض سأرافقك إلى المنزل، أحب الرفقة عندما أخرج، هل أنت كذلك؟».

«نعم، عندما تسمح الظروف».

«بالطبع»، أجابت الشابة وهي تبتسم بمكر ثم غادرنا معًا.

«هل سأجد روز في المنزل؟»، بينما نغلق بوابة الحديقة قالت ذلك.

«أعتقد هذا».

«أثق أنني سأجدها لأن لدي بعض الأخبار لها، إذا لم تكن قد سبقتني بها إليها».

«أنا؟».

«نعم، هل تعرف ما الذي ذهب من أجله السيد لورانس؟»، قالت وهي تبحث بقلق في وجهي عن أي علامة لمعرفتي بالأمر.

«هل ذهب؟».

أشرق وجهها وهي تصيح بحماسة: «أوه! لم يخبرك عن شقيقته؟».

«ماذا عنها؟»، سألتها في رعب كأنني خائف من أن يكون أصابها شر.

«أوه سيد ماركهام، انظر كيف احمرّ وجهك!»، صاحت بضحكة شقيّة. «هاهاها، من الواضح أنك لم تنسها بعد، لكن من الأفضل أن تكون سريعًا في هذا، يمكنني تأكيد ذلك لأنها للأسف... للأسف... ستتزوج يوم الخميس المقبل».

«لا آنسة إليزا، هذا خطأ».

«هل تتهمني بالكذب يا سيدي؟».

«بل أنتِ مضلَّلة».

«هل أنا كذلك؟ هل تعرف الحقيقة إذًا؟».

«أعتقد أنني أفعل».

«ما الذي يجعلك تبدو شاحبًا هكذا إذن؟»، قالت وهي تبتسم، «هل هو غضب مني أنا المسكينة لقول مثل هذه الكذبة؟ حسنًا، أنا فقط أقول ما سمعته وكما قيل لي، لا أضمن حقيقة الأمر لكن في الوقت نفسه لا أرى سببًا لكذب سارة عليّ أو لخداع مخبرها، لقد أخبرتني أن الرجل قال لها إن

السيدة هانتينغدون ستتزوج يوم الخميس وإن السيد لورانس قد ذهب لحضور حفل الزفاف. لقد أخبرتني باسم الرجل المحترم لكنني نسيته، ربما يمكنك مساعدتي في تذكره، هل يوجد شخص ما يعيش بالقرب من منزلها أو يزورها كثيرًا وكان صديقًا لها منذ فترة طويلة؟ السيد... أوه، يا إلهي، السيد...».

«هارغريف؟»، سألتها بابتسامة مريرة.

صرخت: «نعم نعم، هذا هو الاسم».

«مستحيل يا آنسة إليزا!»، صرختُ بنبرة جعلَتْها تسكن.

«حسنًا، كما قلت لك هذا ما قالوه»، قالت وهي تحدّق إلى وجهي. ثم اندلعت في ضحكة طويلة حادة جعلتني بالكاد أستطيع لجم غضبي وصرخت: «أرجوك اعذرني... أعلم أن هذا وقح للغاية، ولكن هل كنت أيضًا تفكر بالزواج منها؟ يا إلهي، هاهاها، أوه يا عزيزي، يا له من أمر مؤسف! سيد ماركهام، هل ستصاب بالإغماء؟ يا إلهي رحمتك! هل أنادي هذا الرجل؟ جيكوب...».

ولكن بعد سماعي ما فيه الكفاية أمسكت بذراعها بقوة شديدة جعلتها تنكمش على نفسها بصوت خافت من الألم والرعب، لكن الروح الشريرة التي بداخلها لم تهدأ، لذا واصلت حشدها باهتمام مصطنع: «ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟ هل لديك بعض الماء ـ البراندي؟ أعتقد أن لديهم البعض في المنزل ذاك، إذا سمحت لي».

«هل انتهيتِ من الهراء!»، صرخت بشدة. بدت مرتبكة، خائفة تقريبًا مرة أخرى.

ثم واصلتُ: «تعلمين أنني أكره مثل هذه الدعابات».

«دعابات؟ لم أكن أمزح!».

«كنت تضحكين كما تفعلين في جميع المناسبات، وأنا لا أحب أن يُسخَر

بي»، قلت وأنا أبذل جهدًا قويًا للتحدث برباطة جأش، «ولمّا كنتِ في حالة مزاجية سعيدة يا آنسة إليزا، لا بد أنك مستمتعة بهذه النزهة بما يكفي مع نفسك، وبالتالي سأتركك هنا لأنني تذكرت الآن أن لدي عمل في مكان آخر. طاب مساؤك».

بذلك تركتها (وهي تحاول لجم ضحكها الخبيث) وتحولت إلى طريق الحقول عاقدًا العزم على إثبات الحقيقة ـ أو بالأحرى الباطل ـ في قصتها في الحال. سارعتُ إلى وودفورد بأسرع ما يمكن أن تحملني ساقاي. انحرفت في البداية في مسار غير مباشر، ثم في اللحظة التي أصبحت فيها خارج نطاق أنظار تلك الخبيثة، تمامًا كما يطير الطائر فوق أراضي المراعي والممرات والخنادق والعقبات، طرتُ إلى أن وصلت إلى البوابة. لم أكن أعرف أبدًا مدى حماسة حبي وقوة آمالي التي لم أفقدها حتى في ساعات اليأس العميق. لطالما بقيت متمسكًا بفكرة أنها ستكون لي يومًا ما، أو إذا لم يحدث ذلك، على الأقل سيبقى بعض التقدير والتذكر لصداقتنا وحبنا في قلبها إلى الأبد. اقتربت من الباب عازمًا، إذا رأيت السيد، أن أسأله بجرأة بشأن ما يقال عن شقيقته، وألا أنتظر ولا أتردد بل ألقي بكبريائي الغبي وراء ظهري وأعرف مصيري في الحال.

«هل السيد لورانس في المنزل؟»، سألت بحماسةٍ الخادمَ الذي فتح الباب.

«لا يا سيدي، لقد غادر السيد البارحة»، أجاب وكان يبدو في حالة تأهب شديد.

«أين ذهب؟».

«إلى غراسديل سيدي ـ ألم تكن على علم بذلك؟»، قال بابتسامة سخيفة. «أفترض يا سيدي أنه...».

استدرت وتركته دون انتظار سماع ما يفترضه. لم أكن لأقف هناك لأكشف مشاعري المعذبة للسخرية الوقحة والفضول.

لكن ما العمل الآن؟ هل يمكن أن تكون قد تركتني لذلك الرجل؟ لم أستطع أن أصدق ذلك. قد تتخلى عني لكنها لا تعطي نفسها له! حسنًا سأعرف الحقيقة، لم يكن بإمكاني الاهتمام بأية أمور تتعلق بالحياة اليومية حين كانت هذه العاصفة من الشك والرهبة والغيرة والغضب تشتت انتباهي. سأسافر إلى غراسديل ـ يجب أن أكون هناك قبل الزواج. لماذا؟ لأنني ربما يمكنني منعها ـ إذا لم أفعل ذلك، فقد نندم أنا وهي إلى آخر لحظة في حياتنا. كنت مصدومًا لأنني شعرتُ أن هناك مَن أقنعها أنني لا أستحقها. ربما أخوها فعل، ربما أقنعها بأنني كاذب وغير مؤمن، واستغلَّ سخطها وربما يأسها في حياتها، وحثها بمهارة على هذا الزواج من أجل إبعادها عني.

إذا كان هذا هو الحال واكتشفتْ خطأها بعد فوات الأوان، سيكون محكومًا عليها بالفناء مثلي إلى حياة مملوءة بالبؤس والندم، ويا له من ندم! أوه، يجب أن أراها، يجب أن تعرف حقيقة مشاعري حتى لو اضْطُرِرت إلى إخبارها عند باب الكنيسة! قد أكون مجنونًا أو أحمقَ وقحًا، قد تشعر بالإهانة بعد كل ذلك الانقطاع، أو على الأقل قد تخبرني أن الأوان قد فات الآن. ولكن إذا كان بإمكاني إنقاذها فقد تصبح لي! ـ لقد كانت فكرة حماسية للغاية!

مدفوعًا بالأمل والمخاوف، أسرعت إلى المنزل للاستعداد لمغادرتي غدًا. أخبرت والدتي أن هناك عملًا عاجلًا لا يتحمل أي تأخير دون تقديم مزيد من التفصيل.

لم أتمكن من إخفاء قلقي العميق وانشغالي الشديد عن عينيها. وتفوهت بالكثير من الكلام غير المنطقي لتهدئة مخاوفها بسبب غموضي الكارثي.

في تلك الليلة، كان هناك تساقط كثيف للثلج مما أعاق تقدم العربات في اليوم التالي، إلى درجة أنني كنت على وشك فقد أعصابي وبالتالي سافرت طوال الليل. كان ذلك يوم الأربعاء، وصباح اليوم التالي كان من المفترض أن يتم الزواج. الليل كان طويلًا ومظلمًا، غمر الثلج العجلات وأقدام الخيول

وأصبحت الحيوانات مستهلكة ومنهكة. كان الركاب لا مبالين بمعدل تقدمنا، وبدلًا من مساعدتي في حث الحوذي على المضي قُدُمًا بشكل أسرع اكتفوا فقط بالتحديق والضحك على نفاد صبري، وعندما اقترحتُ في نهاية الأمر أخذ زمام الأمور، عارَضَ الجميع ذلك وباتفاق واحد.

كان الوقت منتصف النهار عندما وصلنا. نزلت وصِحتُ بصوتٍ عالٍ للحصول على توصيلة إلى غراسديل. لم يكن هناك شيء، والعربة الوحيدة الموجودة قيد الإصلاح. صرخت بأعلى صوتي طلبًا لأي وسيلة نقل، أي شيء يوصلني إلى هناك سريعًا! كانت هناك عربة بعجلتين لكن دون حصان. أرسلوا للبحث عن واحدة لكنهم أعطوني وقتًا لا يطاق، لذلك عاد لا يكون بإمكاني الانتظار، يمكن لقدميّ أن توصلاني في وقت أقرب، وسأطلب منهم إرسال وسيلة النقل ورائي إذا جهزتْ في غضون ساعة. وعليه، سِرتُ بأسرع ما يمكن. كانت المسافة تزيد قليلًا عن ستة أميال، لكن الطريق كان غريبًا بالنسبة إليّ، لذا كان عليّ أن أتوقف باستمرار للاستفسار عن طريقي بالهتاف للعربات وغزو الأكواخ بشكل متكرر، لأنه كان هناك القليل من الناس في الخارج في ذلك الصباح الشتوي، وأحيانا أجرّ وأنا أطرق الأبواب الأشخاص الكسالى من أسرّتهم، حيث لم يكن هناك سوى القليل من العمل الذي يجب القيام به، وربما طعام ونار أقل، فقد كانوا حريصين على عدم الحد من سباتهم. مع ذلك، لم يكن لدي وقت للتفكير في كل ذلك، كنتُ موجوعًا من التعب واليأس، ومع ذلك مندفعًا بأقصى سرعة.

دخلتُ أخيرًا حي غراسديل. اقتربت من الكنيسة الريفية الصغيرة. كان هناك قطار من العربات يقف أمامها. لم أكن بحاجة إلى الشرائط البيضاء التي تزيّن الخدم والخيول، ولا الأصوات المرحة لقاطني القرية المجتمعين لحضور الحفل، لإخباري بأنه كان هناك زفاف في الداخل. هُرِعتُ بينهم وأنا أسأل بحماسة هل بدأت المراسم منذ فترة طويلة؟ اكتفى الجميع بالتحديق

إليّ باستغراب. في خضمّ يأسي، تخطيتهم وكنت على وشك الدخول إلى فِنَاء الكنيسة عندما صرخ مجموعة من الصبية الذين كانوا معلقين كما النحل على النوافذ بلهجتهم: «لقد انتهت المراسم ـ إنهم يخرجون!».

كم كانت إليزا ميلوارد ستسعد برؤيتي بهذه الحال. أمسكتُ بالبوابة للحصول على بعض الدعم ووقفت أتطلع باهتمام نحو الباب لألقي نظرة أخيرة على بهجة روحي، آخر نظرة لي على تلك التي سُلِخَت بقسوة عن قلبي وحكم عليها، كنت متأكدًا، بالانتقال إلى حياة البؤس والفراغ. أية سعادة يمكن أن تستمتع بها معه؟ لم أرغب في أن أصدمها بحضوري الآن، لكن لم يكن لدي القدرة على الابتعاد. خَرَجا أخيرًا. لم أرَهُ... لم أكن أنظر إلى سواها، وشاحٌ طويل يغطّي نصف ملامحها لكنه لم يخْفِهَا، استطعت أن أرى أنه حين كانت رافعة رأسها، كانت عيناها مثبتتين على الأرض ووجهها ورقبتها محمَّرَيْن بلون قرمزي، لكن كل سماتها مشرقة بابتساماتها ومتلألئة من خلال البياض الضبابي لوشاحها والمنثورة فيه نغمات ذهبية! أوه! يا إلهي! هذه لم تكن هيلين خاصتي! شعرت بعيني أظلمت من الإرهاق واليأس، هل أجرؤ على الوثوق بهما؟ نعم.. إنها ليست هي! لقد كانت أصغر سنًّا وأجمل وأخف وزنًا ـ كانت جميلة حقًّا، ولكن مع قدر أقل من الأنفة وعمق الروح التي تمتاز بها معشوقتي، ثم إنها تفتقد تلك النعمة التي لا يمكنني تحديدها بالكلمات، ذلك السحر الروحي اللطيف والمرهف، تلك القوة التي لا يمكن وصفها والتي تجذب وتُخضِع القلب ـ قلبي على الأقل. نظرت إلى العريس.. كان فريدريك لورانس! مسحت القطرات الباردة التي كانت تتساقط من جبهتي وتراجعت عندما اقترب، ولكن وقعت عيناه عليّ:

«هل هذا أنت يا ماركهام؟»، قال مرتبكًا ومذهولًا ربما من وحشية مظهري.

«نعم لورانس. هل هذا أنت؟»، قلتُ وأنا أحشد كل فكري للتفوق في الرد عليه.

تبسّم لي ابتسامةً كانت مزيجًا من فخرٍ وخجل، إنْ كان هناك سبب يدعوه إلى الفخر بالسيدة اللطيفة التي تتأبط ذراعه، فلم يكن لديه سبب أقل للخجل من إخفاء هذه الأخبار المفرحة لفترة طويلة.

قال: «اسمح لي أن أقدمك إلى عروسي»، محاولًا إخفاء إحراجه، «إستر، أقدم لكِ السيد ماركهام. صديقي ماركهام السيدة لورانس، الآنسة هارغريف سابقًا».

انحنيتُ مبارِكًا للعروس وشددت على يد العريس بقوة.

«لماذا لم تخبرني بهذا؟»، قلتُ متظاهرًا بالاستياء الذي لم أكن في الواقع أشعر به مطلقًا (لأنني كنت أشعر بفرح غامر ومتوحش لأنني كنت مخطئًا. كنتُ مغمورًا بالعاطفة تُجاهه بسبب هذا وبسبب الظلم الذي تخيلته في عقلي. ربما ظلمني بشكل ما، ولكن ليس إلى هذا الحد، ولمّا كنتُ كرهته كما الشيطان طوال الأربعين ساعة الماضية، كان رد الفعل الناتج عن هذا الشعور رائعًا إلى درجة أنني أستطيع العفو عن جميع الإساءات في الوقت الحالي، بل وأحبه على الرغم منها أيضًا).

قال بشيء من الارتباك: «لقد أخبرتك، ألم تتلقَّ رسالتي؟».

«أي رسالة؟».

«تلك التي أخبرك فيها عن زواجي المُزمَع».

«لم أتلقَّ أبدًا أي تلميح عن مثل هذه النية».

«لا بد أنها وصلت حين كنتَ في الطريق ـ كان ينبغي أن تصل إليك صباح أمس ـ ، لقد أرسلتها في وقت متأخر إلى حد ما، أعترف بذلك. ولكن ما الذي أتى بك إلى هنا إذا لم تتلقَّ أي معلومات؟».

كان قد حان دوري لتقديم تفسير لما يحدث، لكن السيدة الشابة التي كانت مشغولةً بالتربيت على الثلج بقدمها خلال محادثتنا القصيرة، أتت لنجدتي

وهي تضغط على ذراع زوجها وتهمس له مقترحة دعوة صديقه للذهاب معهم في العربة قائلة إنه ليس من اللائق الوقوف هناك وسط الحضور وإبقاء أصدقائهم ينتظرون.

«وفي هذا البرد القارس أيضًا!»، قال وهو يلقي نظرة فزع على سترتها الخفيفة ويوصلها على الفور إلى العربة: «ماركهام، هل ستأتي؟ نحن ذاهبان إلى باريس، ولكن يمكننا أن نوصلك في أي مكان بين هذا ودوفر».

«لا، شكرًا ووداعًا. أتمنى لك رحلة سعيدة، لكنني أتوقع اعتذارًا لائقًا، وبعض الوقت، وعشرات الرسائل قبل أن نلتقي مرة أخرى».

صافحني مودّعًا وأسرع ليأخذ مكانه بجانب سيدته. لم يكن هذا وقتًا أو مكانًا للتفسير أو الحديث، لقد توقفنا بالفعل لفترة كافية لإثارة استغراب أهل المنطقة، وربما غضب المدعوين إلى حفل الزفاف المصاحب للمراسيم. على رغم ذلك، مر كل هذا في وقت أقصر بكثير مما تكون قد استغرقته في قراءته. وقفتُ بجانب العربة ورأيت صديقي السعيد يحيط بخصر عروسه باعتزاز، في حين أراحت خدها المتوهج على كتفه وهي تنظر بعينيها البنيتين المبتسمتين في وجهه: «أخشى أنك تعتقد أنني غير مدركة يا فريدريك، أعلم أنه من المعتاد للسيدات البكاء وقت المراسيم، لكنني لم أستطع الضغط على نفسي لذرف دمعة آنذاك».

أجاب بقبلة فقط وضغط عليها في حضنه: «إذًا ما هذه الدموع، لماذا تبكين الآن إستر؟».

«أوه لا شيء... فقط سعادة غامرة ورغبة في أن تهنأ عزيزتنا هيلين بسعادة كسعادتنا هذه».

«بوركتِ على هذه الأمنية»، أجبتُ بيني وبين نفسي حين كانت تبتعد العربة.

شعرت وهي تتحدث أن سحابة من عدم الارتياح مرت فجأة على وجه

زوجها، ترى فيمَ كان يفكر لحظتها؟ هل يعقل أنه يستكثر مثل هذه السعادة التي يعيشها على شقيقته العزيزة وصديقه؟ مستحيل، بل على العكس، لا بد أن التناقض بين مصيرها ومصيره يعكّر صفوه. ربما فكر بي أيضًا، قد يكون ندم على الجزء الذي ساهم فيه بمنع اتحادنا عن طريق التوقف عن مساعدتنا، إن لم يكن بالتآمر ضدنا بالفعل. لكني برأته من هذه التهمة وشكوكي القاسية السابقة على الرغم من ظلمه. نعم، لم يحاول إعاقة تيارَيِ المياه في مرورهما، لكنه بقي يشاهد بشكل بليد هذين التيارين وهما يتيهان في الحياة القاحلة دون بذل أي جهد لإزالة العوائق التي فرّقتهما، وربما كان يأمل سرًّا أن يفقدا أنفسهما في الرمال قبل أن ينجحا في الاتحاد في تيار واحد. في غضون ذلك، كان يتابع بهدوء شؤونه الخاصة، ربما كان قلبه ورأسه مملوءين بأفكار تتعلق بفتاته، إلى درجة أنه عاد لا يكون لديه سوى القليل من الوقت للتفكير بالآخرين. مما لا شك فيه أنه كان قد تعرف إليها لأول مرة خلال إقامته التي دامت ثلاثة أشهر في تلك الرحلة التي شاطئ البحر، لأنني تذكرت الآن أنه ذكر مرة عرضًا أن صديقة لخالته وشقيقته كانت ترافقهم في ذلك الوقت، وكان هذا يفسر انشغاله عن التفاصيل الأخرى هناك. الآن أيضًا رأيت سببًا للعديد من الأمور الصغيرة التي حيرتني من قبل، كحالات الخروج المفاجئة من وودفورد والغيابات المطولة بشكل أو بآخر والتي لم يفسرها بشكل منطقي، وكان ينزعج من استجوابي له بشأنها عند عودته. حسنًا، قد يقول الخادم إن سيده كان على وشك الوصول وهو «قريب جدًّا». لكن لماذا هذا الاحتياط الغريب مني؟ أعتقد أنه ربما خشي من إثارة مشاعري، أو كان خائفًا من انزعاجي عند التطرق إلى موضوع الحب.

الفصل الثاني والخمسون

لقد وصلت عربتي المتأخرة أخيرًا، ركبتها وطلبت من الحوذي أن يأخذني إلى غراسديل. كنت مشغولًا بأفكاري الخاصة بحيث إنني لم أهتم بقيادتها بنفسي. كنت أريد رؤية السيدة هانتينغدون، لا يمكن أن يكون هناك خطأ في ذلك الآن بعد أن مات زوجها منذ أكثر من عام، وبسبب عدم اكتراثها أو فرحها بوصولي غير المتوقع، يمكنني قريبًا معرفة ما إذا كان قلبها ما زال كما كان. لكن رفيق دربي، وهو ثرثار كبير في السن، لم يكن ميالًا إلى تركي أستمتع بأفكاري وتأملاتي الخاصة.

«ها هم مغادرون!»، قال وهو يتأمل العربات أمامنا. «ما يحدث اليوم، سيحدث غدًا. هل تعرف أي شيء عن تلك العائلة سيدي، أو إنك غريب؟».

«سمعت عنهم فقط».

«مممم! أفضلهم قد غادر على أية حال. أفترض أن العجوز ستغادر بعد انتهاء هذا الضجة لتعيش وحدها في مكان آخر، والشابة (ليست صغيرة جدًّا) ستأتي للعيش في غروف».

«هل السيد هارغريف متزوج إذن؟».

«نعم سيدي، تزوج منذ بضعة أشهر. كان من المفترض أن يتزوج قبل ذلك من سيدة أرملة، لكنهم لم يتمكنوا من الاتفاق: كانت لديها ثروة كبيرة وكان السيد هارغريف يريد أن يكون هو المسؤول عن إدارتها، لكنها لم تسمح بالأمر. هذه ليست غَنِيّة ولا جميلة، لكنها لم تتزوج من قبل. يقولون إنها في الأربعين أو ما شابه، وبهذا كما تعلم، إذا لم تلتقط هذه الفرصة فلن

تجد سواها أبدًا. ربما اعتقدت أن مثل هذا الزوج الشاب الوسيم كان يستحق كل شيء، ولهذا قَبِلت به وبحماسة، لكنني أشعر أنها ستندم بعد فترة. يقال إنها بدأت بالفعل في الانتباه إلى أنه ليس ذلك الرجل اللطيف الكريم الذي اعتقدته قبل الزواج، وستجده أصعب وأكثر إهمالًا لاحقًا دون شك».

«يبدو أنك تعرفه جيدًا»، قلت له.

«عرفته منذ أن كان شابًّا متفاخرًا وعنيدًا. كنت خادمًا لديهم لعدة سنوات. لكنني لم أستطع تحمل أساليبهم البائسة التي أصبحت أسوأ من أي وقت مضى، لذلك وجدت لنفسي عملًا آخر».

«ألسنا بالقرب من المنزل؟»، قلتُ مقاطعًا. «نعم سيدي، أنت في الحديقة».

غرق قلبي في داخلي وأنا ألمح ذلك القصر الفخم وسط أراضيه الشاسعة. كانت الحديقة تبدو جميلة بملابسها الشتوية كما يمكن أن تكون في مجدها الصيفي: المنظر المهيب والفاخر يُظهران الاستفادة الكاملة من رداء الطبيعة النقي وغير القابل للتقليد، الأشجار الفخمة بفروعها الثقيلة والمتلألئة باللون الأبيض تحت السماء الرمادية الباهتة، الغابة العميقة المحيطة بها مساحة واسعة من الماء الغافي في هدوء متجمد، وأغصان الصفصاف المتدلية والمكسوة بالثلج ـ قدّموا جميعًا منظرًا مدهشًا بالفعل، ولكنها لم تؤثر بي بأي حال من الأحوال. مع ذلك، كانت هناك تعزية واحدة وهي أن كل هذا وقْفٌ لآرثر الصغير ولا يمكن تحت أي ظرف من الظروف بالمعنى الدقيق للكلمة أن يكون لوالدته. لكن كيف كانت هي؟ بعد أن تغلبت بجهد مفاجئ على اشمئزازي من ذكر اسمها لرفيقي الثرثار، سألته عما إذا كان يعرف ما إذا كان زوجها الراحل قد ترك وصية وكيف تُصُرِّفَ بالممتلكات. نعم، كان يعرف كل شيء عنها وسرعان ما أخبرني أن لها السيطرة الكاملة على التَّرِكة وإدارتها إلى أن يبلغ ابنها السن القانوني، إلى جانب الحيازة المطلقة وغير

المشروطة لثروتها (لكنني علمت أن والدها لم يمنحها الكثير) ومبلغ إضافي صغير سُدِّدَ لها قبل الزواج.

قبل إنهاء الموضوع وصلنا عند بوابة الحديقة. أتمنى أن أجدها في الداخل، لكن للأسف قد تكون في ستاننغلي إلى الآن، لم يخبرني شقيقها بأي شيء يدل على العكس. سألت الرجل إذا كانت السيدة هانتينغدون في المنزل. أجاب أنها عند خالتها، ولكن كان من المتوقع أن تعود قبل عيد الميلاد. عادة ما تقضي معظم وقتها في ستاننغلي وتأتي فقط إلى غراسديل من حين إلى آخر عندما تتطلب إدارة الشؤون أو مصلحة المستأجرين والمُعالين وجودها.

«بالقرب من أي بلدة تقع ستاننغلي؟»، سألت وسرعان ما حصلت على المعلومات المطلوبة. «والآن يا صديقي، سلّمني مقاليد الأمور وسنعود إلى المحطة لتناول بعض الفطور، ثم أذهب إلى ستانينغلي بواسطة أول عربة تقلني».

كان لدي وقت قبل أن يبدأ الحوذي بتجديد نشاطي بوجبة إفطار دسمة والحصول على انتعاش صباحي سريع وإرسال ملاحظة قصيرة إلى والدتي (لطالما كنتُ الابن البار) أؤكد فيها لها أنني ما زلت في الوجود، وأعتذر عن عدم عودتي في الوقت المتوقع. لقد كانت رحلة طويلة إلى ستاننغلي في أيام السفر البطيئة تلك، لكنني لم أحرم نفسي من الحاجة إلى فترات الراحة على الطريق، أو النوم ليلًا في النزل المنتشرة على جوانب الطرق، واخترت أن أتأخر قليلًا بدلًا من أن أقدم نفسي بحالة يرثى لها من التعب وأُعَرّض للسخرية أمام سيدتي وخالتها التي ستندهش بما يكفي لرؤيتي دون ذلك. لذلك لم أحصّن نفسي في صباح اليوم التالي فقط بوجبة فطور كبيرة بقدر ما تسمح لي مشاعري المتحمسة باستهلاكها، لكنني منحت وقتًا أكثر بقليل من المعتاد للاهتمام بمظهري وتبديل ثيابي وارتداء تلك النظيفة الموضوعة بترتيب في حقيبتي الصغيرة وتنسيقها مع الأحذية المصقولة جيدًا والقفازات

الجديدة الأنيقة. استأنفتُ رحلتي. بقيت هناك محطتان قبل وصولي، لكن الحوذي قال لي إنه كان بالفعل قد مر عبر حي ستاننغلي، لكن لأنني كنت قد طلبت منه أن ينزلني بالقرب من المنزل قدر الإمكان لذلك لم يكن لدي أي شيء أفعله سوى الجلوس بذراع مطوية والانتظار لساعة إضافية.

كان صباحًا فاترًا، وكانت حقيقة الجلوس عاليًا وتأمل منظر السماء المشمسة واستنشاق الهواء النقي والسير فوق الثلج الهش مبهجة في حد ذاتها، أضف إلى ذلك الهدف الذي كنت أسارع إليه، والشخصية التي كنت سألتقي بها، قد يكون لديك تصور خافت لإطار عقلي في ذلك الوقت، فكرة خافتة فقط، لأن قلبي كان قد تضخم بما لا يمكنني وصفه من شدة سعادتي وارتفاع معنوياتي إلى حد الجنون، على الرغم من مساعيّ للتحلي بالحكمة والتعقّل والتفكير في الاختلاف الذي لا يمكن إنكاره بيني وهيلين فيما يتعلق بكل ما مرت به منذ فِراقنا وصمتها الطويل، وفوق كل شيء خالتها اللطيفة الحذرة، والتي من المؤكد أنها ستحرص على عدم إهمال نصائحها مرة أخرى. هذه الاعتبارات جعلت قلبي يرتعش من القلق وصدري يضطرب، لكنها لم تتمكن للحظة من تعتيم صورتها في ذهني أو إفساد الذكريات الحية لما قلناه وشعرنا به، أو تقليل ترقّبي الشديد لما كان سيحدث. قرب نهاية الرحلة قدم لي اثنان من الركاب المساعدة وقال أحدهما مشيرًا بمظلته إلى الحقول الواسعة على اليمين: «أرض جميلة، تبدو أجمل في الصيف أو الربيع».

أجاب الآخر، وكان رجلًا عجوزًا خَشِنًا يرتدي مِعطفًا باهتًا مزَرَّرًا حتى الذقن: «إنها أرض السيد ماكسويل الراحل على ما أعتقد».

«كان له بالفعل. لكنه مات الآن كما تعلم، وترك كل شيء لابنة أخت زوجته».

«كل شيء؟».



«كل ذرّة، القصر وكل شيء، كل خيراته الدنيوية، ما عدا القليل على سبيل التذكر لابن أخيه، ومعاش كافٍ لزوجته».

«هذا غريب!».

«إنه كذلك بالفعل، ولم تكن ابنة أحد أخوته حتى. لكن بكل حال، لم تكن لديه علاقات قريبة خاصة به، لا أحد سوى ابن أخ تشاجر معه وكان دائمًا ضده. ثم نصحته زوجته بذلك لأنها كانت هي في الأصل صاحبة معظم الممتلكات، وتود أن تحصل ابنة شقيقتها عليها».

«مممم! ستكون صيدًا ثمينًا لشخص ما».

«حتمًا. إنها أرملة، لكنها صغيرة جدًّا، وغير مألوفة: لديها ثروة خاصة بها بالإضافة إلى طفل واحد ترعاه ويمتلك قصرًا فاخرًا بدوره. سيكون هناك الكثير ممن يتمنون الزواج بها! أخشى أن لا فرصة لدينا» (قال وهو ينكزني بمرفقه، وكذلك فعل رفيقه)، «هاهاها! أرجو أنك لم تشعر بالإهانة يا سيدي. على كل حال، أعتقد أنها لن تتزوج إلا من نبيل».

ثم استأنف مستديرًا إلى جاره الآخر مشيرًا أمامي بمظلته: «هذا هو القصر: حديقة كبيرة كما ترى، الكثير من الأشجار هناك والألعاب». توقفت العربة بشكل مفاجئ عند بوابة الحديقة وصاح الحوذي: «ركّاب ستانينغلي».

ألقيت بحقيبتي على الأرض استعدادًا لنزولي بعد ذلك.

«هل تشعر بإعياء يا سيدي؟»، سأل جاري الثرثار وهو يحدق إلى وجهي الذي يبدو أنه كان قد شحب بما فيه الكفاية.

«لا. تفضل سيدي الحوذي».

«شكرًا سيدي».

دفعت للرجل أتعابه وابتعد هو تاركًا إياي هناك أسير ذهابًا وإيابًا أمام بوابة الحديقة دون الجرأة على الدخول، بأذرع مطوية وعينين مثبتتين على الأرض،

عاصفة من الصور والأفكار والانطباعات بقوة جارفة تتزاحم في ذهني ولا يسيطر على تفكيري سوى مسألة محدّدة: لقد كان حبي عبثٌ وفقدت أملي إلى الأبد، يجب أن أبتعد عن هذا المكان في الحال وأكتم كل الأفكار وذكريات حلمي المجنون. كان من دواعي سروري أن أبقى في المكان لساعات، على أمل أن ألتقط لمحة واحدة على الأقل لها قبل أن أعود، لكن لا يجب أن يكون الأمر كذلك ـ يجب ألا أؤلمها برؤيتي ـ ، في النهاية هل سبب مجيئي إلى هنا إلا الأمل في إعادة تواصلنا بقصد الارتباط بها؟ وهل يمكنني تحمل اعتقادها أنني قادر على شيء من هذا القبيل؟ بافتراض أن علاقتنا ـ أو حبنا إذا صح التعبير ـ قد حدث عن طريق الخطأ أو بالأحرى أُجبِرَت عليه عندما كانت هاربة غير معروفة تكدح من أجل إعالة نفسها وطفلها دون ثروة أو أسرة أو معارف. أن آتي إليها الآن بعدما عادت إلى مكانها الصحيح وأصبح لديها نصيبها من زوجها الراحل، والذي لو لم يخذلها لكان من المؤكد أنها ستبقى مجهولة بالنسبة إليّ إلى الأبد، وهذا بعد فِرَاق دام ستة عشر شهرًا، وقد منعتني بكل صراحةٍ من التمسك بالأمل في إعادة اتحادنا ولم ترسل إليّ أبدًا سطرًا أو رسالة من ذلك اليوم إلى هذه اللحظة. لا! الفكرة بحد ذاتها كانت لا تطاق.

حتى لو كانت قد حملت عاطفة تجاهي في السابق، فهل هذا مبرر لإزعاجها الآن من خلال إيقاظ تلك المشاعر؟ لإخضاعها للصراعات المتضاربة بين الواجب والميول؟ إلى أي جانب قد يغريها هذا الأخير أو يدعوها الأول إن اعتبرتْ أن من واجبها المخاطرة بتلقي توبيخ العالم وقسوته، أو الشعور بالحزن والاستياء من الذين أحبتهم والتضحية برغباتها وأصدقائها ومن أجل ماذا؟ فكرة رومانسية؟ لا ولن أفعل! سأذهب على الفور ولا ضرورة لأن تعرف أبدًا أنني اقتربت من مكان سكنها، على الرغم من أنني قد ألغي كل فكرة عن الارتباط بها، فإنني لا أريد لوجودي أو وفائي أن يعكّر صفوها أو يُحزن قلبها.

«وداعًا إذن عزيزتي هيلين... إلى الأبد!».

قلت كل ذلك لكنني لم أستطع أن أبتعد. تحركت بضع خطوات ثم نظرت إلى الوراء لإلقاء نظرة أخيرة على منزلها الفخم الذي أثار شكله الخارجي على الأقل إعجابي بشكل لا يَمَّحِي تمامًا، كصورتها التي للأسف لن أراها مرة أخرى، سِرتُ بضع خطوات أخرى وبعد ذلك تهتُ في تأملاتي الحزينة وتوقفت مرة أخرى وأسندت ظهري إلى شجرة عجوز نَمَتْ بجانب الطريق.

الفصل الثالث والخمسون

بينما كنت أقف على هذا النحو مستغرقًا في خيالي الكئيب، اقتربت عربة من زاوية الطريق. لم أنظر إليها لكن وصلني صوت ضئيل من داخله أثار انتباهي: «ماما ماما، إنه السيد ماركهام!».

لم أسمع الرد ولكن أجاب نفس الصوت: «إنه هو حقًّا يا ماما، انظري بنفسك».

لم أرفع عيني، لكني أفترض أن ماما نظرت. اخترقت نغمات صوتها الرخيم أعصابي وهي تهتف: «أوه خالتي! هذا بالفعل سيد ماركهام صديق آرثر! توقف يا ريتشارد!».

كان هناك شيء من الإثارة المبهجة في صوتها عند نطق تلك الكلمات القليلة، لا سيما رعشة نبرتها عندما صاحت «أوه خالتي»، مما جعلني حذرًا أكثر. توقفت العربة على الفور، ونظرت إلى أعلى والتقيت بعيني سيدة مسنة شاحبة وجادة تطل من النافذة المفتوحة. انحنت تُحيّيني وأنا كذلك، ثم أعادت رأسها إلى داخل العربة، في حين صرخ آرثر في وجه الحوذي للسماح له بالخروج، ولكن قبل أن يتمكن الموظف من النزول من صندوقه لمحتُ يدًا تفتح نافذة العربة. كنت أعرف تلك اليد على الرغم من أن قفازًا أسودَ أخفى بياضها الرقيق، وسرعان ما انقضَضْتُ وضغطت عليه بحماسة للحظة، لكنني تذكرت نفسي على الفور وتَرَكْته، وسحبته هي على الفور.

«هل أتيت لرؤيتنا أو أنك عابر فقط؟»، سألني الصوت المرهف الذي شعرت أنه كان يتفحص وجهي باهتمام من خلف الحجاب الأسود السميك الذي أخفى وجهها تمامًا عني.

«لقد... جئت لأرى المكان»، تعثرت.

كررت «المكان!»، بنبرة استياء أو خيبة أمل أكثر من مفاجأة.

«ألا تدخله إذن؟ إن كنت ترغب في ذلك».

«هل عندكِ شك؟».

«نعم نعم! يجب أن يأتي»، صرخ آرثر وهو يخرج من الباب الآخر راكضًا إليّ وأمسك يدي بكلتا يديه وصافحني بشغف.

«هل تتذكرني يا سيدي؟»، قال.

«طبعًا أتذكرك وجيدًا أيها الرجل الصغير... على رغم أنك تغيرت»، أجبت وأنا أتفقد الصبي النحيف الطويل القامة نسبيًّا وتقاسيم والدته التي خُتِمَت بوضوح على ملامحه اللطيفة والذكية، على الرغم من العيون الزرق البراقة والخصلات الساطعة المتجمعة تحت قبعته.

«ألم يزد طولي؟»، قال وهو يمد نفسه إلى أقصى ارتفاع.

«يا للهول! ثلاث بوصات!».

«بلغت السابعة في عيد ميلادي الماضي»، رد بفخر. «بعد سبع سنوات أخرى سأكون طويل القامة مثلك تقريبًا».

قالت والدته: «آرثر، قل له أن يأتي. هيا يا ريتشارد».

كانت هناك لمسة من الحزن والبرودة في صوتها، لكنني لم أكن أعرف إلامَ أعزوها. تقدمت العربة ودخلت البوابة التي أمامنا. قادني صديقي الصغير إلى الحديقة بمرح طوال الطريق. عند وصولي إلى باب القصر توقفت مؤقتًا على

الدرجات لاستعادة رباطة جأشي، إن كان ذلك ممكنًا، أو لدراسة قراراتي الجديدة والمبادئ التي أُسِّسَت عليها، ولم أتمكن من ذلك على كل حال، لأن آرثر بقي يسحب معطفي ويكرر دعواته للدخول، لذا رافقته إلى الداخل حيث كانت السيدتان تنتظران.

نظرت هيلين إليّ عندما دخلت بنوع من التدقيق اللطيف والجاد، وسألت بأدب عن السيدة ماركهام وروز. أجبت باحترام عن استفساراتها. طلبت مني السيدة ماكسويل الجلوس ونوهت بأن الجو بارد نوعًا ما، لكنها افترضت أنني لم أبتعد كثيرًا في ذلك الصباح: «ليس سيرًا على الأقدام، أليس كذلك؟».

«لا يا سيدتي».

«ها هي ريتشيل سيدي»، قال آرثر، الشخص الوحيد السعيد حقًّا بيننا، موجهًا انتباهي إلى السيدة التي دخلت للتو لأخذ أغراض سيدتها وأكرمتني بابتسامة شبه ودية، وهو أمر يتطلب من جانبي على الأقل تحية خاصة، أحسست أنها رأت خطأ تقديرها السابق لشخصيتي.

عندما جُرِّدَت هيلين من غطاء رأسها وعباءتها الشتوية الثقيلة وما إلى ذلك، بدت نفسها إلى درجة لا أعرف كيف أصفها. كنت سعيدًا بشكل خاص برؤية شعرها الأسود الجميل غير المقيد وغير المخفي في تَرَفه اللامع.

قال آرثر إن «ماما تخلت عن غطاء ترمّلها تكريمًا لزواج خالي». بينما كانت هي تنقل نظرها بيني وبين طفلها سريع البديهة، هزت السيدة ماكسويل رأسها عندما تابع الولد الشقي: «أما الخالة ماكسويل فلن تتخلى عن غطائها أبدًا». لكن عندما رأى أن ملامته كانت مزعجة ومؤلمة لخالته، ذهب ولف ذراعه بصمت حول رقبتها وقبّل خدها وانسحب إلى إحدى النوافذ الكبيرة حيث استمتع باللعب بهدوء مع كلبه، في حين ناقشت السيدة ماكسويل

معي بجدية الموضوعات الشائقة للطقس والموسم والطرق. لقد اعتبرتُ أن وجودها مفيدٌ للغاية للتحقق من دوافعي، ويمكنني اعتباره ترياقًا لمشاعر الإثارة الصاخبة والتي ـ لولا وجودها ـ كانت ستبعدني عن عقلي واتزاني، لكنني كنت أشعر أيضًا أن ضبط النفس بهذا الشكل لا يطاق، وواجهت صعوبة كبيرة في إجبار نفسي على الاهتمام بملاحظاتها والإجابة عنها بأدب، لأنني كنت مدركًا أن هيلين كانت على بعد بضعة أقدام مني. لم أجرؤ على النظر إليها، لكنني شعرت أن عينيها كانتا مثبتتين علي، ومن نظرة خفية سريعة انتبهت إلى أن خدها كان محمَرًّا، وأن أصابعها التي كانت تلعب بسلسلة الساعة الخاصة بها كانت مضطربة بسبب حركة مرتجفة لا تهدأ تبعث على التوتر.

قالت: «أخبرني»، مستغلة التوقف المؤقت الأول في محادثتي مع خالتها، وتحدثت بسرعة وبهدوء وعيناها تنظران إلى السلسلة الذهبية، لأنني غامرت بإلقاء نظرة أخرى: «أخبرني كيف الجميع في ليندينهوب ـ هل حدث الكثير منذ تركتكم؟».

«لا أعتقد ذلك».

«ألم يمت أحد؟ ألم يتزوج أحد؟».

«لا».

أو يتوقع أحد الزواج؟ ألم تُحَلّ روابط قديمة أو تتشكل روابط جديدة؟ ألم يُنْسَ أي أصدقاء قدامى أو استُبدِلوا؟».

قالت العبارة الأخيرة بنبرة منخفضة بحيث لم يكن بمقدور أحد سواي أن يميز مغزى الكلمات، وفي الوقت نفسه أدارت عيناها بابتسامة حزينة فاتنة ونظرة خجولة على الرغم من الاستفسار الجاد جعلت قلبي يمتلئ بمشاعر لا توصف.

أجبت: «لا أعتقد».

«بالتأكيد لا»، لمع وجهها تعاطفًا مع وجهي ثم أضافت متسائلة: «هل حقًّا تعمَّدْتَ عدم الاتصال؟».

«كنت أخشى أن أتطفل».

«تتطفل!»، صاحت بنفاد صبر، ولكن كما لو أنها تذكرت فجأة وجود خالتها فتمالكت نفسها والتفتت إلى السيدة وتابعت: «أقول هذا لأن هذا الرجل يا خالتي هو صديق أخي المقرب، وكان من معارفي المقربين أيضًا، وتجمع بينه وآرثر الصغير علاقة قوية، لذا عندما يمر بالمنزل ويكون على بعد عشرات الأميال من منزله ويقول إنه لم يبحث عنه خوفًا من التطفل!».

«يبدو أن السيد ماركهام مفرط في التواضع»، قالت السيدة ماكسويل.

قالت ابنة شقيقتها: «بل مفرط في الرسمية. حسنًا، فليكن»، استدارت وجلست على كرسي بجانب الطاولة وسحبت كتابًا لها وبدأت تقلب الأوراق بتوتر واضح.

قلت: «لو كنت أعلم أنكِ كنتِ ستشرفينني بوصفي كشخص مقرّب، لم أكن على الأرجح لأحرم نفسي من متعة التواصل معكِ، لكنني شعرت أنك نسيتِني منذ فترة طويلة».

«لقد أطلقت حكمك على الآخرين بنفسك»، تمتمت دون أن ترفع عينيها عن الكتاب، لكن وجهها أصبح قانيًا وهي تتحدث وتقلب عشرات الصفحات على عجل في وقت واحد.

كانت هناك فترة صمت اعتقدَ آرثر أن بإمكانه الاستفادة منها لتعريفي بالجرو الجميل الذي كبر، ويوضح لي مدى روعة نموه وتطوره ويسأل عن والده سانشو. انسحبت السيدة ماكسويل للتخفف من أغراضها ودفعت هيلين على الفور الكتاب من يدها، وبعد مداعبة صامتة لابنها وصديقه

الكلب لبضع لحظات، طلبت منه الذهاب وإحضار كتابه الجديد الأخير ليريني إياه. أطاع الطفل بلطف لكنني واصلت مداعبة الكلب. كان من الممكن أن يستمر الصمت حتى عودة سيده الصغير، ولكن خلال نصف دقيقة أو أقل نهضت مضيفتي وعادت لمكانها السابق بيني وبين زاوية المدخّنة وصرخت بحدة:

«غيلبرت! ما خطبك؟ لماذا تغيرت هكذا؟»، ثم سارعت إلى إضافة: «ربما يكون سؤالًا فظًّا للغاية، لذا لا تجب عنه إذا كنت تعتقد ذلك، لكني أكره الألغاز والغموض».

«أنا لم أتغير مطلقًا يا هيلين. أنا حريص عليكِ وأحبكِ أكثر من أي وقت مضى، لست أنا بل الظروف هي التي تغيرت».

«ما هي هذه الظروف؟ قل لي!»، كانت ملامحها غارقة في قلق شديد، ترى هل يمكن أن يكون ذلك بسبب خوفها من أني استبدلتها بأخرى؟

قلت: «سأخبركِ على الفور. أعترف بأنني جئت إلى هنا بغرض رؤيتك (ترافقني بعض الهواجس والمخاوف من أنني سأكون غير مرحبٍ به كما حدث عندما جئت)، لكنني لم أكن أعلم أن هذه التركة كانت لك حتى علمت بموضوع ميراثك عند سماعي لمحادثة اثنين من الركاب في المرحلة الأخيرة من رحلتي، عندها أدركت على الفور حماقة الآمال التي كنتُ متمسكًا بها وجنون الاحتفاظ بها لفترة أطول، ومع أني نزلت عند بوابتك، فإنني عقدت العزم على عدم الدخول. بقيت لبضع دقائق لرؤية المكان، لكنني كنت مصممًا تمامًا على العودة دون رؤية معشوقتي».

«وإذا لم نكن أنا وخالتي عائدتين من رحلتنا الصباحية، لم أكن لأراك أو أسمع منك...».

«اعتقدت أنه سيكون من الأفضل لكلينا ألا نلتقي»، أجبت بهدوء قدر

المستطاع ولكن بصوت مرتجف ودون جرأة على النظر في وجهها لئلا أنهار تماماً. «اعتقدت أن رؤيتكِ لي لن يؤدي إلا إلى إزعاجكِ وتعكير صفوك، بالإضافة إلى إثارة جنوني. لكني سعيد الآن بهذه الفرصة لرؤيتك مرة أخرى ومعرفة أنك لم تنسِني، وأؤكد لك أنني لم أتوقف يومًا واحدًا عن تذكرك».

كانت هناك لحظة توقف ابتعدت فيها السيدة هانتنغدون ووقفت قرب النافذة. هل اعتبرت ذلك بمثابة إشارة إلى أن الحياء وحده منعني من طلب يدها؟ هل كانت تفكر في كيفية رفضي بأقل ضرر لمشاعري؟ قبل أن أتحدث لأريحها من مثل هذا الحيرة كسرت الصمت بنفسها بالتوجه نحوي فجأة: «ربما تكون قد أتيحت لك مثل هذه الفرصة من قبل ـ أعني فيما يتعلق بتأكيد ذكرياتنا اللطيفة، إذا كنتَ قد كتبت إلي».

«كنت أريد فعل ذلك لكنني لم أعرف عنوانك ولم أرغب في سؤال أخيك، لأنني شعرت أنه سيعترض على كتابتي، لكن هذا لم يكن ليمنعني للحظة إذا كنت علمتُ أنكِ توقعتِ السماع مني أو حتى فكرتِ قليلًا في صديقكِ التعيس، لكن صمتكِ قادني بطبيعة الحال إلى استنتاج أنني أصبحت منسيًّا».

«هل توقعتَ أن أكتب إليك؟».

«لا يا هيلين ـ سيدة هانتينغدون»، قلتُ خَجِلًا، «بالتأكيد لا، ولكن كان بإمكانكِ إرسال رسالة لي عبر شقيقك، أو حتى السؤال عني بين الحين والآخر...».

«لقد سألتُ عنكَ كثيرًا»، واصلت مبتسمة: «وتوقفت عن ذلك عندما واصلتَ تقييد نفسك بالاكتفاء ببعض الاستفسارات المهذبة عن صحتي».

«لم يخبرني شقيقكِ أبدًا أنك ذكرتِ اسمي».

«هل سألته؟».

«لا، لأنني رأيت أنه غير راغب في أن يُسأَل عنك أو أن يقدم إليّ أدنى تشجيع أو مساعدة». لم تقل شيئًا.

أضفتُ: «وقد كان محقًّا تمامًا». لكنها ظلت صامتة تنظر إلى العشب الثلجي في الخارج. فكرت: «أوه، فلأعفِهَا من وجودي». وعلى الفور نهضت وتقدمت للمغادرة بقرار بطولي، لكن كبريائي كانت في أدنى مستوياتها.

«هل أنت ذاهب بالفعل؟»، قالت وهي ترد على مصافحتي ولم تتركها على الفور.

«لماذا عليّ أن أبقى أطول؟».

«انتظر حتى يعود آرثر على الأقل».

كنت سعيدًا جدًّا بأن أفعل، اتكأت على الجانب الآخر من النافذة.

قالت: «كنت تخبرني أنك لم تتغير، لكنك تغيرت... وكثيرًا».

«لم أتغير سيدة هانتينغدون، لكن يجب أن أفعل».

«هل تقصد أنك ما زلت تحمل نفس المشاعر التي كنت تحملها لي عندما التقينا آخر مرة؟».

«أحملها بالطبع، ولكن سيكون من الخطأ الحديث عنها الآن».

«كان من الخطأ الحديث عنها آنذاك غيلبرت، وليس الآن، ما لم يكن القيام بذلك خلافًا للحقيقة»، ودون انتظار إجابة أدارت عيونها المتلألئة وخدها القرمزي نحو النافذة، سواء كان ذلك لتهدئة مشاعرها، أو إحساسها بالحرج، أو فقط لتنتف تلك الوردة التي نمت على شجيرة صغيرة وتختلس النظر من خلف الثلج الذي كان يذوب في الشمس، بعد أن نثرت مسحوق الثلج من أوراقها قربتها من شفتيها وقالت:

«هذه الوردة ليست عَطِرة مثل زهور الصيف، لكنها صمدت خلال

المصاعب التي لم يستطع أيٌّ منها تحملها، أمطار الشتاء الباردة كانت كافية لتغذيتها وشمسها الباهتة لتدفئتها، لم تكسرها الرياح القاتمة ولم يفسدها الصقيع الشديد. انظر إليها يا غيلبرت، إنها ما زالت منتعشة ومتفتحة كما يجدر بالوردة أن تكون، على الرغم من أن الثلج يغمر بتلاتها حتى الآن. هل تريدها؟».

مددت يدي، لم أجرؤ على التحدث خشية أن تغلبني مشاعري. وضعت الوردة على راحتي لكني لم أغلق أصابعي عليها. بقيت منغمساً في التفكير في معنى كلماتها وما يجب أن أفعله أو أقوله، هل أفسح المجال لمشاعري أم أكبحها. أخطأت هيلين في تفسير هذا التردد، وظنّت أنه دليل لا مبالاة أو حتى إحجام عن قَبُول هديتها، لذلك انتزعتها من يدي فجأة وألْقَتْها خارجًا على الثلج ثم أغلقت النافذة وعادت إلى حيث المدفأة.

«هيلين، ماذا يعني هذا؟»، صرختُ وأنا منزعج من هذا التغيير الغريب في سلوكها.

قالت: «أنت لم تفهم هديتي، أو الأسوأ، لقد احتقرتها. أنا آسفة لأني أعطيتك إياها، ولكن لمّا كنتُ ارتكبت مثل هذا الخطأ، فإن العلاج الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه هو التخلص منها».

أجبتها: «لقد أسأتِ فهمي وبقسوة»، خلال دقيقة فتحتُ النافذة مرة أخرى قفزت للخارج والتقطتها. أعطيتها إياها وطلبت منها أن تعيدها إليّ مرة أخرى وسأحتفظ بها إلى الأبد وأجعلها أثمن من أي شيء أملكه في العالم.

«وهل سيفرحك هذا؟»، قالت وهي تأخذها.

أجبتها: «دون أدنى شك».

«هاك إذن، خذها».

ضغطت عليها بشدة بشفتي ووضعتها على قلبي بينما السيدة هانتينغدون تنظر إليّ بابتسامة نصف ساخرة.

«والآن، أما زلت تريد المغادرة؟»، قالت.

«سأفعل إذا كان يجب عليّ ذلك».

قالت: «أنت تغيرت بحق، إما أنك أصبحت متغطرسًا جدًّا وإما غير مبالٍ للغاية».

«أنا لست كذلك هيلين ـ سيدة هانتنغدون. ليتكِ كنتِ تستطيعين رؤية قلبي...».

«يجب أن تكون أحدهما إن لم تكن كليهما. ثم ما قصة سيدة هانتينغدون؟ ـ لماذا لا تناديني بهيلين كما كنت تفعل من قبل؟».

«هيلين إذن، حبيبتي هيلين»، تمتمت، كنت أعاني من اختلاط الحب والأمل والبهجة وعدم اليقين واللهفة.

قالت: «الوردة التي أعطيتك إياها تمثل قلبي، هل ستأخذها بعيدًا وتتركني هنا لوحدي؟».

«هل تمنحيني يدكِ أيضًا إذا طلبت منكِ؟».

«ألم أقل ما فيه الكفاية؟»، أجابت بابتسامة ساحرة وانتزعتُ يدها التي كنت سأقبلها بحرارة، لكنني لجمت نفسي وقلت: «لكن هل فكرت في العواقب؟».

«بالكاد، وإلا لم يكن علي أن أعرض نفسي على شخص متغطرس للغاية أو غير مبالٍ ليأخذني».

لقد كنت غبيًّا جدًّا! ارتجفتُ وأنا أتوق إلى إحاطتها بذراعي لكنني لم أجرؤ، ومع ذلك ضبطت نفسي وقلت: «ولكن إذا غيّرتِ رأيك!».

فأجابت: «سيكون هذا خطأك، لأني لن أفعل ذلك إلا إذا خيبتَ ظني. إذا لم تكن لديك ثقة كافية بحبي لتصديق هذا، دعني وشأني».

صرخت: «آه يا ملاكي الأغلى، يا هيلين»، وأنا أقبل بحماسة يدها التي كنتُ ما زلت أحتفظ بها وأحيطها بذراعي اليسرى.

«لن يتغير رأيي أبدًا إذا كان الأمر يتعلق بي يا غيلبرت، لكن هل فكرت في خالتي؟»، ارتجفت من هذا السؤال وضممتها إلى قلبي في خوف غريزي من فِقدان كنزي.

قالت: «خالتي لا يجب أن تعلم بذلك بعد. ستعتقد أنها خطوة متهورة، لأنها لا تستطيع تخيل مدى معرفتي بك، لكنها بكل حال يجب أن تعرفك بنفسها وتتعلم أن تحبك. يجب أن تتركنا الآن، أعني بهذا بعد الغداء، وتعود مرة أخرى في الربيع لتبقى لفترة أطول وتزرع بذور تعارفكما، أنا متيقنة أنكما ستحبان بعضكما بعضًا».

قلت: «وبعد ذلك تكونين لي»، وأنا أطبع قبلات على شفتيها واحدة تلو الأخرى، لأنني كنت الآن جريئًا ومتهورًا بقدر ما كنت مقيّدًا في السابق.

«لا.. خلال عام آخر»، أجابت وهي تنأى بنفسها بلطف عن عناقي، لكنها ما زالت تشبك يدها بيدي.

«سنة أخرى! أوه هيلين، لا أستطيع الانتظار كل هذه المدة!».

«أين إخلاصك؟».

«أعني أنني لا أستطيع تحمل بؤس هذا الانفصال الطويل».

«لن يكون فراقًا، سنكتب بعضنا لبعض كل يوم، ستكون روحي معك دائمًا وأحيانًا تراني بعينيك. لن أدعي أنني أرغب في الانتظار طويلًا بدوري، ولكن لمّا كان زواجي هو لإرضاء نفسي، يجب أن أستشير المقربين مني حول وقته».

«لن يوافقوا».

قالت وهي تقبل يدي بحب: «لن يرفضوا عزيزي غيلبرت، لا يمكنهم عندما يعرفوك، وإذا استطاعوا ذلك، فلن يكونوا أصدقاء حقيقيين ولن أهتم بغرورهم. هل هذا يرضيك؟»، نظرت في وجهي بابتسامة حنان لا يوصف.

«هل يمكنني أن أكون غير ذلك وأنت تحبينني يا هيلين؟»، قلت دون أدنى شك في أنها تقول الحقيقة، ولكن كنت أرغب في سماع توكيدها بلسانها.

أجابت بجدية: «إن كنت تحبني مثلما أحبك فلن تفقدني، سترى أن أعظم الفروق والتناقضات الدنيوية في الرتبة والولادة والثروة هي بمثابة غبار في الميزان مقارنة بوَحدة الأفكار والمشاعر، والعاطفة الصادقة بين القلوب والنفوس».

قلت وأنا أعانقها مجددًا: «هذه سعادة كبيرة لا أستحقها يا هيلين، لا أجرؤ على تصديق أنني غارق في مثل هذه السعادة، لكن كلما طال الانتظار زاد خوفي من أن شيئًا ما قد يتدخل لانتزاعك مني، والتفكير في أن ألف شيء قد يحدث في سنة! سأكون في حمّى طويلة من الرعب ونفاد الصبر طوال هذا الوقت. إلى جانب ذلك، الشتاء موسم كئيب».

«أعتقد ذلك أيضًا»، أجابت بجدية: «ولذلك لن نتزوج في الشتاء ـ ليس في ديسمبر على الأقل»، أضافت معللة أن في ذلك الشهر حدث كلٌّ من زواجها التعيس الذي ربطها بزوجها السابق، وموته الفظيع الذي أطلق سراحها، «ولذلك قلت سنة أخرى، في الربيع».

«الربيع القادم؟».

«لا، الخريف المقبل ربما».

«الصيف إذن؟».

«حسنًا، نهاية الصيف. هل أنت راضٍ الآن؟».

بينما كانت تتحدث عاد آرثر إلى الغرفة ـ يا له من فتًى جيد، لأنه ابتعد لفترة طويلة.

«ماما، لم أتمكن من العثور على الكتاب في أي من الأماكن التي طلبتِ مني البحث فيها» (كان هناك شيء في ابتسامة ماما بدا أنه يقول: «لا يا عزيزي، كنتُ أعلم أنك لن تجده»). لكن ريتشيل حصلت عليه أخيرًا. «انظر سيد ماركهام، إنه كتاب عن التاريخ الطبيعي، به جميع أنواع الطيور والحيوانات المفترسة، والسرد لطيف وكذلك الصور!».

جلست لأفحص الكتاب برفقة صديقي الصغير. لو أنه جاء قبل قليل لكان استقبالي له أقل لطفًا، لكنني الآن أداعب خصلاته بلطف وأقبّل جبينه العاجي، كان ابن هيلين ابني، على هذا النحو كنت أعتبره منذ ذلك الحين.

هذا الطفل الجميل أصبح الآن شابًّا رائعًا، لقد أدرك توقعات والدته الأكثر إشراقًا، وهو يقيم حاليًّا في غراسديل مع زوجته الشابة، هيلين هاترسلي الصغيرة المرحة في الماضي.

لم أصل إلى نصف الكتاب قبل أن تدعوني السيدة ماكسويل إلى الغرفة الأخرى لتناول الغداء. أخلاق تلك السيدة الهادئة جعلتني أشعر بالراحة من البداية، لكنني بذلت قصارى جهدي لإرضائها، وأعتقد أن ذلك تحقق في تلك الزيارة القصيرة الأولى، لأنني عندما تحدثت معها بمرح أصبحت تدريجيًا ألطف وأكثر ودًّا، وعندما غادرت ودّعتني بلطف صادق معبّرة عن أملها باستقبالي مجددًا لفترة أطول.

قالت هيلين حين كنت أتقدم لتوديعها بأكبر قدر ممكن من السيطرة على النفس: «لكن يجب ألا تذهب قبل أن ترى قاعة الموسيقى، حديقة خالتي الشتوية».

لقد استمتعت بكل هذه الراحة وتبعتها إلى قاعة موسيقى شاسعة وأنيقة ومملوءة بالزهور، لكن بالطبع لم تكن الأزهار مركز اهتمامي آنذاك. مع ذلك، لم تحضرني هيلين إلى هناك لأي اجتماع حميمي: «خالتي مغرمة بشكل خاص بالزهور وستانينغلي، لقد أحضرتك إلى هنا لتقديم التماس نيابة عنها، هذا منزلها ما دامت حيّة، وهو منزلنا بالمثل، هكذا يتسنى لي البقاء معها لأنني أخشى أنها ستحزن لفقداني، وعلى الرغم من أنها تعيش حياة هادئة وتأملية فإنها تميل إلى الاكتئاب وهبوط المعنويات إذا تُركت طويلًا بمفردها».

«بكل الوسائل غاليتي! افعلي ما تقررينه. لا أتصور رغبة خالتك في مغادرة المكان تحت أي ظرف من الظروف، وسنعيش إما هنا وإما في أي مكان آخر تحددينه أنت وهي، وترينها بقدر ما تريدين. أعلم أن ابتعادك عنها يحزنها، وأنا على استعداد لتقديم أي مساعدة في هذا الشأن. أنا أحبها من أجلك، وسعادتها عزيزة عليّ كما هي بالنسبة إليك».

«شكرًا يا حبيبي! تستحق قبلة على ذلك. هيا الآن مع السلامة. هيا يا غيلبرت، بربك دعني أذهب، آرثر قادم، لا تدهش دماغه الطفولي بجنونك».

***

وها هي خاتمة روايتي. أي شخص آخر سيقول إنني قضيت وقتًا طويلًا بالفعل في سردها. ولكن لأن رسائلي موجهة إليك سأضيف بضع كلمات أخرى، لأنني أعلم أنه سيكون لديك تساؤل عن السيدة العجوز وسترغب في معرفة ما حدث لها. لقد عدت مرة أخرى في الربيع، ووفقًا لتعليمات هيلين بذلت قصارى جهدي لتنمية معرفتنا بعضنا ببعض. لقد استقبلتني بلطف شديد حيث كانت بلا شك على استعداد لتقبّلي بسبب التقرير الإيجابي الذي قدمته ابنة شقيقتها لها. عندما علمت بنيّاتي تعاملت مع الأمر بشكل أكثر منطقية مما كنت أتخيله. كانت ملاحظتها الوحيدة حول هذا الموضوع في جلسة الاستماع هي:

«وهكذا سيد ماركهام سوف تسرق مني ابنة شقيقتي كما أفهم. حسنًا! أتمنى أن يوفق اللّٰه اتحادكما ويسعد ابنتي العزيزة أخيرًا. إذا كانتْ تفضل البقاء عزباء فالأمر لها، ولكن إذا ودّت أن تتزوج مرة أخرى، فأنا لا أعرف أي كائن حي وفي عمر مناسب أقبل به زوجًا لها عن طيب خاطر أكثر منك، يمكنني أن أرى أنها سعيدة حقًّا بقدر ما يمكنني قوله».

بالطبع كنت مسرورًا بالمجاملة، وتمنيت أن أثبت لها أنها لم تكن مخطئة في حكمها الإيجابي.

تابعت قائلة: «لدي طلب واحد فقط. يبدو أنني ما زلت أنظر إلى ستاننغلي كمنزل لي، أتمنى أن تجعله منزلك أيضًا، لأن هيلين مرتبطة بالمكان وبي كما أنا بها. هناك ذكريات مؤلمة مرتبطة بغراسديل لا يمكنها التغلب عليها بسهولة. لن أزعجكما أو أتدخل في شؤونكما هنا، أنا شخص هادئ للغاية وسأحتفظ بجناحي الخاص وألتفت لاهتماماتي، وأراكما بين الحين والآخر».

بالطبع كنتُ أكثر استعدادًا للموافقة على هذا، وعشنا في تناغم كبير مع خالتنا العزيزة حتى يوم وفاتها، وهو حدث حزين وقع بعد سنوات قليلة، حدث حزين لكن ليس بالنسبة إليها (لأنه جاء بهدوء، وتقبلته بسرور كخاتمة طبيعية)، لكن إلى عدد من أصدقاءها ومحبيها والمُعالين الممتنين الذين تركتهم وراءها.

دعني أعود إلى ما يتعلق بي: تزوجنا في الصيف في صباح يوم مجيد من شهر أغسطس. لقد استغرق الأمر ثمانية شهور كاملة، ونجح لطف هيلين في التغلب على تحيزات والدتي ضدها، وتصالحها مع فكرة مغادرتي والعيش بعيدًا عنها، بل بعد ذلك شعرت بالامتنان لحسن حظ ابنها ونسبت كل ذلك بفخر إلى مزاياه الاستثنائية. لقد تركتُ المزرعة لفيرغوس وآمل أن يعتني بها أفضل مما فعلت قبل عام، في ظروف مماثلة، لأنه وقع مؤخرًا في حب سيدة كان تفوّقها قد أثار خصاله الكامنة وحفّزه على بذل الجهود الأكثر إثارة

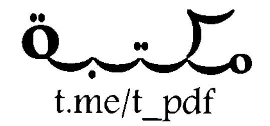
للدهشة، ليس فقط لكسب عاطفتها واحترامها والحصول على ثروة تكفي للتطلع إلى طلبها للزواج، ولكن لجعل نفسه مستحقًّا لها في عينيها وكذلك في عيني والديها، وفي النهاية نجح في ذلك كما تعلم. بالنسبة إلي، لا أحتاج إلى أن أخبرك بمدى السعادة التي عشنا فيها أنا وهيلين، وكيف ما زلنا محظوظين بعضنا ببعض وبالصغار الذين يكبرون حولنا. نتطلع إلى قدومك أنت وروز، حيث يقترب وقت زيارتكما السنوية، عليك مغادرة مدينتك المتربة الدخانية والصاخبة، والمجيء هنا لقضاء موسمٍ من الاسترخاء المنعش معنا.

حتى ذلك الحين... وداعًا.

غيلبرت ماركهام

ستانينغلي، 10 يونيو 1847

النهاية



رواية تتسم بالقوة والواقعية، وقد تشعرك بالصدمة عندما تتذكر طبيعة المجتمع في الفترة الزمنية التي تم إطلاقها فيها، فهي تتحدى الأعراف السائدة آنذاك وهي تتطرق للقمع الذي تعانيه النساء ومفهوم الخطيئة والدين بالاضافة للخيانة والتفكّك الأسري الذي ينتج عنها، كل ذلك عبر التصوير الواقعي لكفاح امرأة من أجل نيل استقلالها وحريتها من تلك الأغلال.

بتقديمها لهذه الرواية في أوائل القرن التاسع عشر اكتسبت آن برونته مكانة خاصة في الأدب الانجليزي على الرغم من قلة أعمالها حيث تنبري في دفاع شرس عن حقوق النساء في مواجهة الإساءة النفسية من أزواجهن ومجتمعهن، و على الرغم من الهجوم القاسي الذي تلقّته هي والرواية إلا أنها أصبحت من أكثر الكتب مبيعًا بل ومنافساً لرواية جين آير لشقيقتها الكبرى شارلوت برونته، لكن بعد وفاة آن في عام 1849 وبعد سنة من إصدار الرواية، منعت شارلوت نفسها الناشرين من إعادة طبعها بعذر "أن الرواية كانت خطأ كاملاً" لأنه "لا يمكن تصور شيء أقل انسجامًا مع طبيعة الكاتبة"، بعبارة أخرى كانت تقول أن آن شابة محترمة من عائلة موقّرة ومن الظلم أن يحكم عليها الغرباء لكتابتها رواية مليئة بمشاهد الإساءة والسكر المزعجة.

مع ذلك، وعلى الرغم من الهجوم الذي طالها وطال العمل، استمرت الرواية في الانتشار وترسّخت كواحدة من كلاسيكيات الأدب الانكليزي وصنّفتها البي بي سي ضمن واحدة من مائة رواية شكّلت عالمنا الحالي.


ISBN 978-9-9226438-4-7
9 789922 643847
daralrafidain
daralrafidain
daralrafidain دار الرافدين
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين